العلوم الإنسانية والاجتماعية
قضايا معاصرة
" التكامل أساس المعرفة "

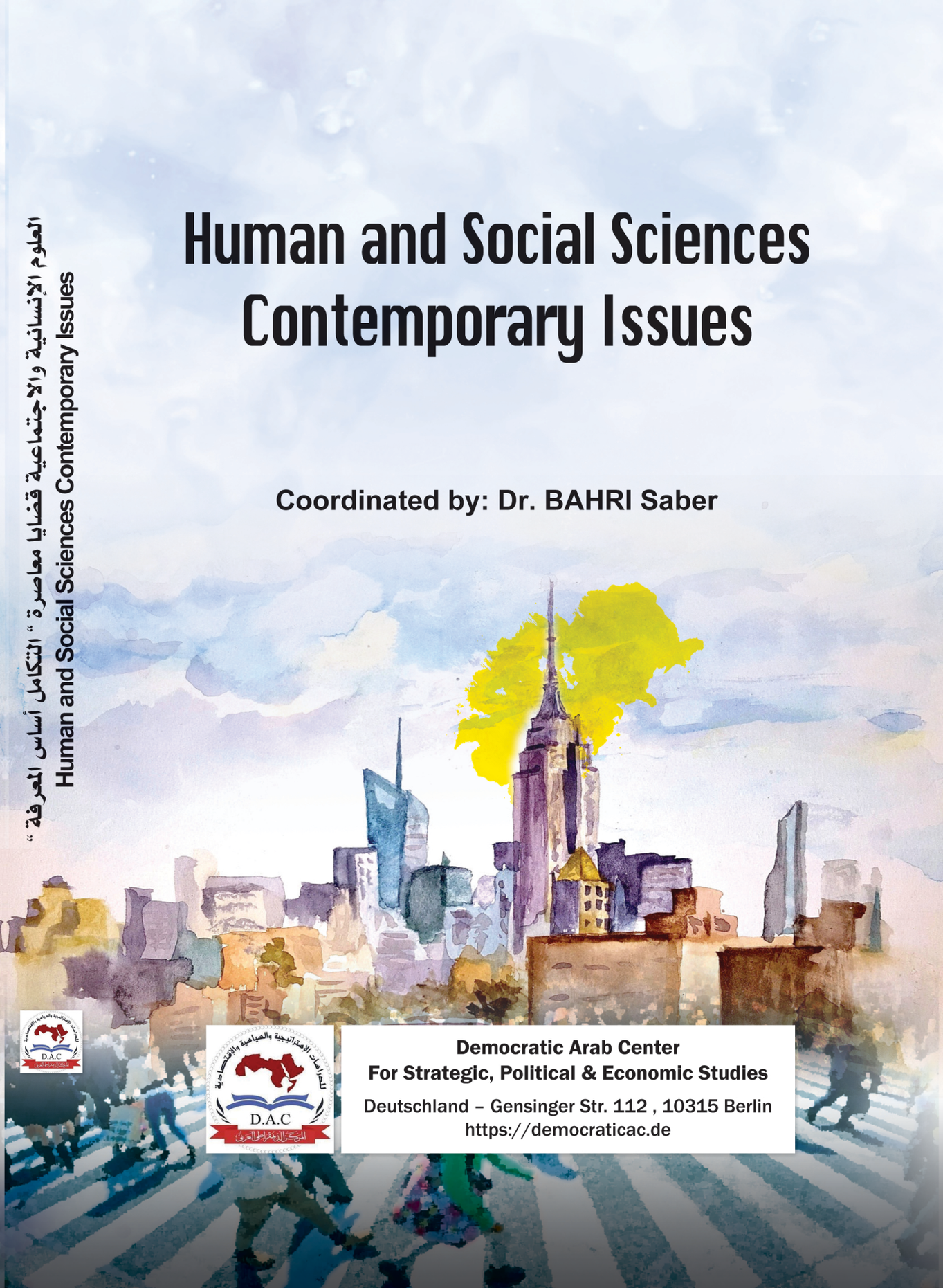
تنسيق د. بحري صابر



العلوم الإنسانية والاجتماعية قضايا معاصرة " التكامل أساس المعرفة "
Human and Social Sciences Contemporary Issues

Human and Social Sciences
Contemporary Issues

Coordinated by: Dr. BAHRI Saber



Democratic Arab Center
For Strategic, Political & Economic Studies
Deutschland – Gensinger Str. 112 , 10315 Berlin
https://democraticac.de

أعمال المؤتمر الدولي
العلوم الانسانية والاجتماعية قضايا معاصرة
التكامل أساس المعرفة
أيام 1-2-3 نوفمبر 2019
ألمانيا- برلين
الجزء الرابع(04)

المؤتمر الدولي العلوم الانسانية والاجتماعية قضايا
معاصرة التكامل أساس المعرفة
المنظم من طرف
المركز الديمقراطي العربي ألمانيا- برلين
بالتنسيق مع
مخبر الطفولة والتربية ما قبل التمدرس جامعة لونيسي
علي البليدة- الجزائر
أيام 1-2-3 نوفمبر 2019
ألمانيا- برلين

تنسيق: بحري صابر
كتاب: العلوم الانسانية والاجتماعية قضايا معاصرة التكامل أساس المعرفة
رقم تسجيل الكتاب :
VR.3373.6348.B
الطبعة الأولى
نوفمبر 2019
الجزء الرابع

الناشر:
المركز الديمقراطي العربي للدراسات الاستراتيجية والسياسية والاقتصادية.
ألمانيا- برلين
لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه ه في نطاق إستعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن مسبق خطي من الناشر .
جميع حقوق الطبع محفوظة: للمركز الديمقراطي العربي
برلين- ألمانيا.
2018
All rights reserved No part of this book may by reproducted. Stored in a retrieval System or tansmited in any form or by any meas without prior Permission in writing of the publishe
المركز الديمقراطي العربي للدراسات الاستراتيجية والسياسية والاقتصادية.
Germany:
Berlin 10315 GensingerStr: 112
Tel: 0049-Code Germany
54884375 -030
91499898 -030
86450098 -030
mobiltelefon : 00491742783717
E-mail: book@democraticac.de

العلوم الانسانية والاجتماعية قضايا معاصرة

التكامل أساس المعرفة

رئيس المركز الديمقراطي العربي ألمانيا- برلين

أ.عمار شرعان

مدير مخبر الطفولة والتربية ما قبل التمدرس جامعة لونيسي علي البليدة2- الجزائر

أ.د لورسي عبد القادر

تنسيق:

د.بحري صابر

جامعة محمد لمين دباغين سطيف2- الجزائر

رئيس اللجنة العلمية

د.خرموش منى

جامعة محمد لمين دباغين سطيف2- الجزائر

الرقم	العنوان	الصفحة
	تقديم: العلوم الانسانية والاجتماعية قضايا معاصرة التكامل أساس المعرفة د.بحري صابر جامعة محمد لمين دباغين سطيف 2- الجزائر	
01	المرأة المغربية والزواج بين ثوابت الماضي ومظاهر الحاضر د. سعاد زبيطة بنت عبد السلام أستاذة التعليم الثانوي التأهيلي، جامعة ابن طفيل كلية الآداب والعلوم الإنسانية القنيطرة-المملكة المغربية	9
02	الازدواجية اللغوية في الجزائر بين التعدد المعرفي والواقع السياسي والاجتماعي أ.د عمر بلخير، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، جامعة مولود معمري تيزي وزو- الجزائر	27
03	مسألة التنوع الثقافي في برامج التاريخ المدرسي أ. صفاء جداري مختبر البحث في علوم التربية والعلوم الإنسانية واللغات جامعة محمد الخامس- المدرسة العليا للأساتذة بالرباط- المغرب	36
04	الآليات الإجرائية المعرفية في تعليمية اللغة العربية لغير الناطقين بها د:زهرة عميري جامعة بومرداس- الجزائر	40
05	اللغة العربية و"اللغة العالمية": أية علاقة؟ أ.د شمامة خير الدين، جامعة باتنة1- الجزائر	52
06	العنف ضد المرأة : الأسباب والعلاج د.حواس فتحية ، جامعة الجزائر1 - الجزائر ط د. براهمي حنان، جامعة الجزائر 1- الجزائر	66
07	الحضارة النوميدية و مخلفاتها في الجزائر د. منصوري فريدة، معهد الآثار جامعة الجزائر 2- الجزائر	83
08	ابستمولوجيا المعرفة بين الخرافة والعلم هل يمكن الاكتفاء بالوضعية بالمفهوم الكونتي د. ريضا بن مقلة، جامعة أكلي محند اولحاج البويرة –الجزائر-	94
09	الآثار البيئية للتوسع الحضري لمدينة سلا المغربية واستراتيجية التدبير المستدام نزهة عربي، محمد أنفلوس جامعة الحسن الثاني بالدار البيضاء، المغرب	111

10	القرآن مصدر لبناء الحضارات أ.حجاب علي عبد الحميد خالد الامامي جامعة السلطان زين العابدين (يونيزا)- ماليزيا	131
11	" العادات والتقاليد الأمازيغية من الأصالة إلى العالمية أ. نـــادية أوديحات، جامعة العقيد أكلي محند أولحاج البويرة، الجزائر	138
12	اصلاح التعليم والصحة بمنطقة جبالة خلال النصف الثاني من القرن 19م. البشير البونوحي – المغرب جامعة عبد المالك السعدي- -المغرب	145
13	مملكة صنغاي الإسلامية ودورها الحضاري في إفريقيا د .لهلالي سلوى :جامعة سطيف 2-الجزائر د.لهلالي اسعد :جامعة سطيف 2-الجزائر	174
14	الإعلام والأزمات التعليمية: دراسة حول صيغ تعامل الإعلام المغربي مع الأزمة التعليمية الناتجة عن إدراج اللهجة المحلية في مقررات اللغة العربية أنموذجا د. عمر التاور كلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة ابن زهر – أكادير – المغرب	187
15	مفهوم الذات لدى المسنين المتقاعدين وغير المتقاعدين د. مؤيد حامد جاسم الجُميلي مركز أبحاث الطفولة والأمومة، جامعة ديالى- العراق	197
16	الإبداع الأدبي بين الفصحى والعامية د.نبيلة بلعبدي . د.سهيلة ميمون كلية الآداب والفنون .جامعة حسيبة بن بوعلي .الشلف .الجزائر	210
17	العنف الأسري في المجتمع الفوتي: أسباب وحلول د. آمنة جالو (أستاذة جامعية في جامعة جنرال لنسنا كونتي كوناكري)- غينيا	221
18	النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت وآليات السيطرة. د. طاهر لقواس علي جامعة حسيبة بن بوعلي- الشلف- الجزائر	229

19	البراديغم الجديد وعلاقته بالتكامل المعرفي: الشؤون الدولية نموذجا. د.أسماء بن قادة، جامعة الجزائر 3.- الجزائر	240
20	الكتابة التفاعلية وسلطة الوسائط الرقمية. د. صلاح ياسين، جامعة الشهيد حمه لخضر بالوادي- الجزائر	255
21	إدمان المراهقين لمواقع التواصل الاجتماعي (الفايسبوك نموذجا) وعلاقته بالوحدة النفسية -دراسة ميدانية على مراهقي منطقة القبائل ببلد الجزائر- أ.فديلة فريدة، جامعة أكلي محند اولحاج البويرة- الجزائر	271
22	الإدمان على الانترنت وعلاقته بالتوافق الأسري لدى الشباب الجزائريين القاطنين بمنطقة القبائل- دراسة ميدانية على فئة من الشباب القبائل ببلد الجزائر- ط د. مونية زريول د. محدب رزيقة ط د. قاضي صاري جامعة مولود معمري- تيزي وزو-الجزائر	286
23	السياحة الدينية مفهومها وتعريفها وأقسامها د. فهد بن محمد بن عبد الرحمن القرشي جامعة أم القرى بمكة المكرمة- المملكة العربية السعودية	303
24	الإعلام العمومي، الخاص والمجتمع في الجزائر 1990-2019 د.بلحاجي وهيبة، المدرسة الوطنية العليا للصحافة – الجزائر	310
25	الإعلام والحراك الاجتماعي -حراك 22 فيفري في الجزائر أنموذجا- أ.سفير نوار- جامعة 20 أوت 1955 سكيكدة- الجزائر	325
26	المعارف العددية والعمليات الحسابية لدى الأطفال ذوي الإعاقة الحركية الدماغية (IMC) أ.نادية صحراوي، جامعة مولود معمري تيزي وزو- الجزائر	335

تقديم:

لا يمكن لأي دولة أن تنمو وتتطور دون أن تطور مجال البحث العلمي الذي يعد الركيزة الأساسية لأي رقي يمكن أن تنشده الدول اليوم ، وتطوير البحث العلمي لا يكون في مجال دون غيره ذلك أن كل العلوم تتكامل فيما بينها لتحقيق هدف واحد وهو خدمة الإنسان بالدرجة الأولى ، لذا فيخطأ من يعتقد أن الإهتمام بمجال دون غيره هو المنفذ للتطوير ذلك أن المنفذ الوحيد لتطور وتقدم الأمم هو إيلاء كل مجال حقه دون أي تمييز أو تعصب وهو المسار الذي ننطلق منه للتطوير(بحري صابر ، 2018).

ولعل المؤتمر الدولي العلوم الانسانية والاجتماعية قضايا معاصرة التكامل أساس المعرفة قد إنطلق من فكرتين أساسيتين ، الأولى تؤكد أهم القضايا المعاصرة التي أضحت تعالجها العلوم الانسانية والاجتماعية في محاولة للتجديد والتطوير وهو أحد الرهانات والمسائل التي تطرح في ظل المقاربات المعرفية المختلفة ، والفكرة الثانية تنطلق من أساس المعرفة وهو تكامل العلوم لخدمة الإنسان بالدرجة الأولى.

إن مختلف حقول العلوم الانسانية والاجتماعية على الرغم من أنها تعيش اليوم العديد من الأزمات في دراسة المشكلات ومعالجة القضايا الراهنة إلا أنها لا تزال تشكل رصيدا معرفيا يساهم في بلورة المفاهيم والنظريات حول القضايا الانسانية والاجتماعية التي تحتاج لتكاتف جميع الجهود لمعالجتها وفق قضايا إنسانية.

إن إستشعارنا بأهمية تناول مقاربة تكاملية في دراسة المشكلات ليس وليد الساعة ذلك أن القضايا الانسانية والاجتماعية تطرح في تخصصات متعددة وفق مقاربات وزوايا مختلفة ما يجعل من حقيقة محاولة بناء جسر للتواصل المعرفي الجامع للعلوم الهدف الأسمى لتقريب الرؤية في معالجة قضايا الإنسان على إعتبار أن الهدف الأسمى لكل تخصص ومعرفة هو خدمة الإنسان وتحقيق الرفاه له بتنويره للسبيل نحو الهدف الانساني المنشود في تخطيط رؤية مستقبلية لبناء منحى إنساني في مجال تكامل العلوم لخدمة الفرد.

ولأن العلوم الانسانية والاجتماعية تلعب دورا أساسيا في عالم المعرفة اليوم خاصة وأن كل العلوم تنطلق منها في محاولة لتحقيق تنمية مستدامة على مختلف الأصعدة الإنسانية التي تتمظهر بقضايا إنسانية واجتماعية متنوعة ومتباينة إلى حدا ما.

ما فتأت الكثير من القضايا تطرح هنا وهناك وفق مقاربات معرفية في ظل كل التخصصات أين يمكن النظر إلى كل قضية إنسانية أو إجتماعية من عدة أبعاد تخصصية ، وهو ما يجعل من التناول النسقي المتكامل لمختلف التخصصات أمر جد هام بالنظر لتلاقح المعرفة لتكوين إنسان يتمتع بالرفاه.

تتوقف تطورات المجتمعات على تطور المعارف ومدى مساهمتها كفاعل أساسي في التنمية بشتى مجالاتها ، أين تعد مسألة النظرية والواقع أحد أهم الإشكاليات التي تطرح في مجال المعرفة الإنسانية ، ذلك أن رقي الأمم وتطورها يتوقف على مساهمة مراكز البحث ومؤسساته في دراسة المشكلات التي

تعاني منها المجتمعات في إطار إيجاد الحلول المناسبة للمعضلات البشرية كل على مستواه ومن منظوره ، على إعتبار أن العلوم لا تتنافس فيما بينها بقدر ما هي تكمل بعضها البعض خدمة للبشرية والإنسانية جمعاء بدون النظر لإختلاف العرق ، الدين ، الجنس.....

مركز إهتمام مختلف العلوم هو الإنسان من زوايات متعددة ، إن فهم الإنسان بكل تعقيداته ليس بالأمر السهل وهو ما يجعل الدراسات والأبحاث دائما تتجه نحو إستقصاء وتحليل سلوكياته المختلفة في محاولة لفهم الإنسان من حيث القدرات والمهارات والطاقات وهو أمر يستدعي تداخل الكثير من العلوم الانسانية والاجتماعية والطبيعية والبيولوجية والطبية في محاولة لرصد ما يحدث داخل هذا الكائن الحي الذي يبقى قابلا للدراسة في أي وقت وفي أي مكان من خلال فهم الماضي والحاضر وإستشراف المستقبل.

وإننا من هذه الزوايا نحاول أن نقدم إسهاما وفق رؤيتنا الخاصة في طرح مختلف القضايا المعاصرة في مجال العلوم الانسانية والاجتماعية في ظل الآمال المنتظرة والآفاق المستقبلية التي سوف تحقق من خلال رؤية على المدى القريب والمتوسط والبعيد.

د.بحري صابر ، جامعة محمد لمين دباغين سطيف2/ الجزائر

المرأة المغربية والزواج بين ثوابت الماضي ومظاهر الحاضر

Moroccan women and Moroccanmarriage between the constants of the past and the manifestations of the present

د. سعاد زبيطة بنت عبد السلام
أستاذة التعليم الثانوي التأهيلي ، جامعة ابن طفيل كلية الآداب والعلوم الإنسانية القنيطرة- المملكة المغربية

مقدمة:

يعتبر الزواج أو القران والاقتران أو الارتباط ، أحد الدعائم الأساسية للحياة الاجتماعية والخيط الناظم لحركة تمدده وتوسعه ، بحكم ما تؤسسه هذه العلاقة من روابط أسرية ، وما تنسجه من تماسك قرابي داخلي أو تحالف مع أطراف خارجية ، بل وما تمثله من إسهام في ضمان استمرار النوع البشري. وقد اختلفت أشكال الزواج في المغرب باختلاف عادات وأعراف المناطق ، وأيضا وفقا لمقتضيات الواقع الاجتماعي والثقافي للأسر ، كما اختلفت تعريفاته ومصطلحاته. وفي جميع الصيغ والأشكال يتم الزواج وفق أوضاع وشروط يقرها المجتمع ، ويفرض على الأفراد والجماعات التزامها(فوزية دياب ، 1977 ، ص 245)، وما يعنينا هنا هو المرأة المغربية والزواج بين ثوابت الماضي ومظاهر الحاضر في ضوء المتغيرات الاجتماعية والتحولات الثقافية والاقتصادية التي عرفتها نساء العالم بصفة عامة ونساء العالم الإسلامي بصفة خاصة ، ومن منطلق ما تقضي به الشريعة الإسلامية وما قرره المشرع ،وانعكاسها على البنية الأسرية ووظائفها ، متخذة منحى جديدا نحو التفكك لينفرط عقدها الأسري الممتد كاستمرارية لمسلسل التغيير ، وهو التحول الذي انعكس على السلطة داخل الأسرة "السلطة الأبوية المطلقة" ووظائفها ، ومفاهيم الزواج والمصاهرة ، وسن الزواج... خاصة في المناطق الحضرية ، حيث أصبح انتشار التعليم والشغل والاحتكاك الثقافي والاختلاط بين الجنسين أكثر من أي وقت مضى مصدر المساندة العاطفية والاختيار الحر في أغلب الحالات.

وفي ضوء هذه المستجدات الثقافية أصبحت العديد من الظواهر الاجتماعية متفشية ولربما لأول مرة ، ومنها بالخصوص الزواج المختلط الذي انعكست آثاره على الفرد والمجتمع ، ومنطقي أن تستدعي منا مثل هذه الدراسة التوقف عند الثابت قبل المتغير في الزواج ، وعاداته كمؤسسة اجتماعية وقانونية لما لها من أهمية في علاقة المرأة بالرجل.

فكيف أصبحت الفتاة المغربية تنظر إلى الزواج بعد مدونة الأسرة؟ هل أصبحت أكثر حرية في اختياراتها وتقرير مصيرها عن السابق؟ وما هي مؤشرات تغير التصورات والأحكام المجتمعية في تأخر سن الزواج بسبب الدراسة والعمل؟ هل الأشكال التقليدية لزواج القاصرات ستستمر أم ستتغير؟ وما هي التدابير المقترحة للحد من الظاهرة؟ وهل التغيرات التي جاءت بها مدونة الأسرة ستكسبه طابعا مختلفا كأحد مظاهر العلاقة الرابطة بين الرجل والمرأة؟ هل أعيد النظر في جواز القاصرات؟

إن الحديث عن المرأة المغربية والزواج بين ثوابت الماضي ومظاهر الحاضر، هو حديث عن التحولات الكبرى التي شهدها المجتمع المغربي في شموليتها، حديث عن التحولات الفكرية الكبرى، وعن الثابت والمتحول في التاريخ الاجتماعي والاقتصادي والثقافي المغربي ،وهو تغيير قد يبدو واضح الملامح بارز السمات في الحواضر المغربية الكبرى، وضعيف السمات في البوادي المغربية، ولا سيما تلك البعيدة عن الثقافة الجديدة والحضارة والتكنولوجيا. ولعل أول ما ينبغي البدء به في تناول الموضوع المقترح، هو توضيح مفهوم الزواج.

مفهوم الزواج: يعتبر الزواج نظام مؤسسي وظاهرة اجتماعية هامة، وسبب في استقرار الرجل والمرأة نفسيا واجتماعيا وعاطفيا، و به تنشا علاقة بين الزوجين مبنية على المودة والرحمة، وهو أقدم صيغ الترابط الاجتماعي المعروفة في التاريخ الإنساني، يرتبط بشكل كبير بالعادات والتقاليد السائدة في كل مجتمع.ويشكل مؤشراً يدل على تطور مفهوم العلاقة بين الجنسين منذ أشكاله البدائية إلى اليوم. وقد استعملت العرب لفظ الزواج في اقتران أحد الشيئين بالآخر، وارتباط كل واحد بالآخر بعد أن كانا منفصلين.. وتقول العرب: زوج فلان إبله، وهم يريدون أنه قرن بعضها ببعض. وجاء في القرن الكريم: "وإذا النفوس زوجت/ أي قرنت بأبدانها وبأعمالها، ثم شاع استعمال لفظ الزواج في اقتران الرجل بالمرأة على سبيل الدوام والاستمرار لتكوين أسرة، وصار عند الإطلاق لا يراد منه إلا ذلك.وقد عرفته مدونة الأسرة المغربية الصادرة في دجنبر 2004 على أنه: "ميثاق تراض وترابط شرعي بين رجل وامرأة على وجه الدوام، غايته الإحصان والعفاف وإنشاء أسرة مستقرة، برعاية الزوجين طبقا لأحكام هذه المدونة"(مدونة الأسرة).فهو قديم قدم الإنسان، وهو أكثر النظم شيوعا وانتشاراً في تاريخ البشرية كوسيلة لتنظيم العلاقات الجنسية واستمرار النسل. لكن في السنوات الأخيرة عرفت بعض الدول الغربية مفهوما جديدا للزواج يتناقض مع المفهوم السابق وهو زواج يتم فيه اقتران شخصين من جنس واحد. وقد اختلفت أشكال الزواج باختلاف عادات وأعراف المناطق، وأيضا وفقا لمقتضيات الواقع الاجتماعي والثقافي للأسر، كما اختلفت تعريفاته ومصطلحاته ما بين كلمة "نكاح" التي استعملها القرآن في عدة آيات منها: "انكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع..."(سورة النساء)، أو "عقد نكاح" التي اختصت باستعمالها فقهيات كتب النوازل، وأدبيات القضاء عموما، فيقال نكحها ونكحته أي تزوجها وتزوجته ،ولهذه الكلمة معنيان أولهما لغوي ويعني ممارسة الجنس "الوطء" وثانيهما اصطلاحي ويعني عقد الزواج(فاطمة العيساوي، 2009، ص 22)، كما جاء شرحه في المعجم الوجيز وفي القاموس الجديد للطلاب:"تزوج امرأة وبها اتخذها زوجته، والزواج اقتران الزوج بالزوجة أو الذكر والأنثى"(إبراهيم مذكور، 1996، ص 295)

"الزواج هو اقتران الرجل بالمرأة بعقد شرعي"(بلحسن البليش، 1971، ص 436)

وكلمة الزواج موجودة ضمنيا، هذا أمر مفهوم من واقع العقد، مستقلا عن الجماع، وهو المصطلح الأكثر استعمالا وتداولا في الكتابات والمراسلات المغربية: "ويسلم عليكم ولدكم سيدي محمد أتم السلام وهو لا بأس عليه [...] وتراني تذاكرت معه وظهر منه أنه يريد الزواج".

"تزوج المكرم السيد محمد بن سي عمر بن سلطان فيالة بنت محمد بن بلقاسم من اولاد سي محمد بن علي، بكرا مجبرة بحضور والدها، وأصدقها مائة ريال كلها نقدا وحالا"(فاطمة الزهراء قشي، 2007، ص 57).

ولو حاولنا تعريف العلاقات الزوجية لغة لقلنا أنها الاقتران الذي يكفل وجود علاقة دائمة بين رجل وامرأة ، "وزوج المرأة هو بعلها وزوج الرجل امرأته". وبالرجوع إلى قواميس اللغة العربية: "زوج الأشياء تزويجا وزواجا قرن بعضها ببعض ، والزواج أي اقتران الزوج بالزوجة أو الذكر بالأنثى"(ابراهيم مصطفى ، 1960 ، ص 460)

وإلى جانب كلمة الزواج استعملت كلمة التأهل والعقد كما جاء في رسالة من مولاي رشيد إلى السلطان جاء فيها: "لالفخيتة بنت مولاي عبد الكريم بن مبارك من شرفاء الدار البيضاء ذكرت لنا أنها عزمت على تأهل ولديها الاثنين"(فاطمة العيساوي ، 2009 ، ص 23).

وتطلعنا الكثير من الرسائل على استعمال هذا المصطلح ، ومن هنا نفهم مغزى التعبير المتبادل عند المغاربة إلى اليوم والذي ينعث به الفتاة والفتى المقدمين على الزواج بقولهم: "فلان تأهل" أو "فلانة تأهلت"(رسالة محمد بن سعيد على السلطان ، 12 يونيو 1892).

وفي رسالة من محمد بن أحمد الصقلي إلى الوزير محمد الصنهاجي جاء فيها: "فحامله إليكم الشريف سيدي محمد بن العربي الصقلي رجل ضعيف [...] وقد عقد على ابنة عم له(فاطمة العيساوي ، 2009 ، ص 23).

كما ارتبطت مصطلحات أخرى بمدلول اقتصادي ك "الملاك" ، الذي لا يستبعد أن تكون له علاقة ب "التمليك" أو استعمال مصطلح "تبادل النساء" عند بعض القبائل ، أو "التسليم" و"الإعطاء" أو "العطية" ، أو "المعطية" ، كما جاء ذكره في المجلة الإفريقية ، الذي كان يستعمل بالنسبة للمرأة فقط وبصيغة المبني للمجهول في غالب الأحيان ، فيقال فلانة أعطيت بمعنى تزوجت (فاطمة العيساوي ، 2009 ، ص 23)، كما كان يستعمل في حالات إعطاء المرأة مقابل الأخذ بالثأر وعجز تأدية الدية فتصبح المرأة عبدة أكثر منها زوجة(L. Féraud, 1862, p 280-281)، وهي عبارات تغني عن كل تعليق.

ويطلق على عقود الزواج بالعبرية لفظة "كتوب" أو "كتوبة"

فكيف كان يتم الزواج في مغرب القرون الماضية؟ وكيف أصبح الزواج في التاريخ الحديث والمعاصر بل وفي التاريخ الراهن؟ وما هي مؤشرات تغير التصورات والأحكام المجتمعية في اختيار الشريك وتأخر سن الزواج بسبب الدراسة والعمل؟ هل الأشكال التقليدية للزواج استمرت أم تغيرت؟ كيف ساهمت التغيرات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية في تغيير السلطة الوالدية؟ وهل التغيرات التي ستلحقه ستكسبه طابعا مختلفا كأحد مظاهر العلاقة الرابطة بين الرجل والمرأة؟ وما هي الأشواط الكبرى التي يمر عبرها؟.

لقد مر المجتمع المغربي عبر مراحله التاريخية المتطورة كغيره من المجتمعات العربية والإسلامية بمجموعة من المتغيرات ، أثرت على مختلف مؤسساته ونظمه الاجتماعية ، ويعتبر الزواج من أهم وحداته الاجتماعية التي لم تسلم من هذا التغيير. فكان أكثر النظم تأثرا في بنائه وأشكاله واختياراته وتعدده ومراسيمه والعلاقات الأسرية والسلطة الأبوية أو الوالدية...وغيرها. وهذه التغيرات لا يمكن لمسها إن لم نعد إلى ما كان سائدا في السابق ومقارنته بالحاضر مع عامل الزمن ونزعة الناس إلى التغير كما جاء عند ابن خلدون. وهو ما سنحاول التطرق إليه من خلال التعرف على أنواع وأشكال الزواج التي عرفها المغرب.

أشكال الزواج وأنماطه

زواج القرابة: من خلال تسليط الضوء على الظاهرة من خلال ما جاء في الكتابات أو الاستماع إلى الشهادات الشفوية ، يتضح أن الزواج ظل مسألة عائلية أكثر منه شخصية في كثير من الأسر المغاربية. بل يعتبر المسألة

الوحيدة التي كان يترك فيها الأمر للأسرة حتى بالنسبة للأبناء الذكور في غالب الأحيان (F. M'rabet, 1983, p 36)، مع هامش من الحرية التي تمتع بها الرجل خاصة في الحواضر، حيث كان كما يخبرنا الرحالة هاينريش فون مالتسان، يتم: "وفق تقاليد غريبة، لا يسمح للمقبل على الزواج أن يرى خطيبته، بل إن كل شيء يتم بين الآباء، كما يمكن للشاب أن يكلف والدته لخطبة إحدى الفتيات، أو قد يطلب ذلك من إحدى العجائز مقابل هدايا ومبلغ من المال"(عبد القادر بومعزة، 2016، ص 84). هكذا ظلت ثوابت اجتماعية مستمرة عشية الوجود الكولونيالي تلازم ظاهرة الزواج في بعض الأسر من بدايتها إلى نهايتها، ومن خلالها يمكننا التأكيد على عدم مسايرة بعض معالم الحياة الاجتماعية بما فيها الزواج والختان والعقيقة للتحولات الكبرى التي عرفتها الفترة الكولونيالية لارتباطها بالدين والأعراف والتقاليد. وانطلاقا من هذا حرصت بعض الأسر في اختيار الزوجة على عنصر القرابة فابن العم أولى بابنة عمه إذا ما رغب فيها لأنه كلما كانت القرابة قريبة كان الزواج مشرفا(R. Tualbi, 1984, p 49)، بل اعتبرته التزاما أخلاقيا وواجبا من الرجل اتجاه ابنة العم أو العمة أو ابنة الخال أو الخالة، يحمل طابع النبل. وهي ظاهرة تضرب جذورها في التاريخ العربي عامة واستمرت رغم التحولات البنيوية في المجتمع، خاصة عند الطبقات ذات المستوى التعليمي الضعيف عنه في الطبقات المثقفة لفترة طويلة في تاريخ المغرب بتواعد واتفاق بعض الأسر على تزويج بناتهم وأبنائهم منذ لحظة الميلاد(M. Bellaire et G. Salmon, 1905, p 67)،يقطعون سرة المولود ويقولون في أثناء عملية القطع "فلانة لفلان" ويقرأون الفاتحة إلى أن يكتمل نضجهما، ويبلغا سن الزواج ويتم إتمامه بعد ذلك بالإجراءات الرسمية(فوزية دياب ،1980، ص 252)، أو تقوم زوجة العم باحتضان المولودة الجديدة وتزغرد لها في أذنها، وتقول: "من رزق ولدي فلان إن شاء الله، وتسميه باسمه"(فاطمة مسدالي، 2004، ص 100)،وقد استمرت نفس العادة حتى عند يهود المغرب (روجي لوتورنو، 1986، ص 724).فعندما يتزوج الرجل من ابنة عمه، فهو لا يحضر امرأة غريبة وإنما امرأة تشاطره لحمه ودمه ومصالحه الاقتصادية، وفي هذا يقول المثل العامي: "اللي خدا بنت عمو ما شاف حد همو" أو "إلى خذيتي بنت عمك راها تهز همك". وبما أنهما ينتميان إلى خط تناسلي واحد فإن احتمال طلاقهما يكون قليلا، فابن العم هو الأقرب إلى الفتاة أو الفتى بعد الأخ مما يجعل الرجل مضطرا إلى الحفاظ على زوجته كونها الأقرب إليه بعد أخته وتربطها به رابطة القرابة والدم قبل رابطة الزواج.

وغالبا ما يأخذ زواج الأقارب أو ما يعرف بالزواج اللحمي أو زواج الدم الخط الأميسي الزواج (بابنة الخال)، ويعتبر كتخطيط للإنتاج والحفاظ على الميراث من الضياع، كما أنه يحفظ التماسك والتضامن داخل الجماعة(Couaouci A., 1992, p 112- 113)

فهل استمرت هذه الظاهرة في المغرب الحديث والراهنرغم كل المتغيرات؟ وهل استمرارها راجع لأهمية الأسرة أم لاعتبارات أخرى، أم لهما معا؟

يتبين لنا مما سبق ذكره، كيف أن زواج الأقارب كان يحتل مكانة خاصة عند العامة حتى ولو تعلق الأمر بمن هو أحسن من ابن العم حسبا ونسبا، فلابن العم الحق في أن يتزوج ابنة عمه [...] له الحق قبل كل طالب زواج آخر وكل أسرة تحترم نفسها تحترم هذه العادة(روجي لوتورنو، 1986، ص 724)،وهو ما تبينه مجموعة من الرسائل، جاء في إحداها: "وبعد وصلنا كتابك جوابا عما كنا كتبنا لك في شأن البنت عائشة ذاكرا فيه بأن

مولاي عمر وجه يخطبها وأمهلته حتى تتروى في ذلك للوجه الذي كنت قدمت لنا ، وأنه حيث وقع اختيارنا عليها فولد عمها أحسن لها من الغير"(فاطمة العيساوي ، 2009 ، ص 55).

وهذا تأكيد على تفضيل هذا النوع من الزواج كما ورد في تعليق أحد الآباء على زواج أبنائه: "إني ما أردت أن أزوجهم إلا ببنات أعمامهم"(فاطمة العيساوي ، 2009 ، ص 55). وهو ما صانته الذاكرة الثقافية في القول المأثور "القريب قبل من الغريب" أو"القريب أفضل من الغريب"، و"قريبك يمضغك أو ما يسرطكش"، و"ملس من طينك إذا ما جاش برمة إيجي كسكاس"، أو "خود دمك حسن ليك"، و"مانعطيوش خيرنا لغيرنا"... وغيرها ، خاصة إذا تعلق الأمر بمنفعة مالية أو ملكية أراضي. وتبرز كثير من عقود الزواج خلال القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين هذه الحقيقة.

وقد تتكرر الظاهرة في نفس العائلة وتتحول إلى زواج التبادل ، كما جاء ذكره في هذه الرسالة: "وبعد فإن لي سيدي ذكرين وبنتين ولأخي أيضا ذكرين وبنتين فعقدنا للشرفاء الأربع على الشريفات بنات عمهم"(فاطمة العيساوي ، 2009 ، ص 55). ويظهر أن هذا النوع من الزواج أخذ يتراجع بداية القرن العشري في بعض الحواضر الكبرى كما جاءت الإشارة إليه عند ويسترمارك بالنسبة لأهل فاس وهو في هذا يقول:"أن الفاسيين أصبحوا لا يرغبون في هذا النوع من الزواج لأنه يخلق المشاكل بين عائلتي الزوجين وينتج عنه أبناء ضعاف ومعتوهون يتسببون في شقاء العائلة"(Westermarck E., 1917, p 29)وتطرح هذه الإشارة أمامنا إشكالية مدى صحة وعي المجتمع الفاسي بأضرار زواج القرابة على الأبناء خلال هذه المرحلة المتقدمة من تاريخ احتلال المغرب ، خاصة أن هذهالظاهرة لا زالت مستمرة في التاريخ الراهن ببعض البوادي المغربية ،إذ ظلت الأسرة محكومة بمقاييس اجتماعية واقتصادية ودينية وثقافية على ضوئها يتم هذا الزواج.

وفي جميع الحالات لا يكون هناك رأي للفتاة في اختيار شريكها خاصة مع استمرار ظاهرة زواج القاصرات كاغتصاب لطفولتهن اللواتي لا يسمع صوتهن ولا رأيهن ، حيث يظل هذا الزواج تعاقدا بين أسرتين أكثر من كونه تعاقدا بين شخصين ، ترى فيه الأسر الحفاظ على صفاء نسبها من الاختلاط بالأسر الغريبة عنهم ، كما أن دوافع الملكية العائلية من أرض وثروة كانت ولا زالت دائما واردة في هذا الزواج ، إضافة إلى استغلال الفتاة الزوجة للمساعدة في أشغال بيت العائلة الكبيرة ، حيث تصبح خاضعة خضوعا تاما لأم زوجها "أي حماتها" التي تتولى تدريبها وتعليمها ما ينبغي القيام بهمن واجبات وخدمات لزوجها وأطفالها وأسرته الأهلية (عبد القادر القصير ، 1999 ، 124).

إلا أن الأمر لا يستبعد وجود علاقات عاطفية بين بعض بنات وأبناء العمومة ، بحكم وجودهم في نفس المكان ، حيث فرص اللقاء والتعارف بين الجنسين غير متيسرة خارج الأسرة.

وبطبيعة الحال هذه المسألة تؤكد عدم مسايرة بعض المناطق والأسر للتحولات الكبرى التي عرفها المغرب الحديث ، والتي استمرت في التاريخ الراهن رغم تعديل قانون مدونة الأسرة التي تركت نافذة استثناء بتنصيصها على إمكانية ترخيص القاضي على زواج القاصرات -قبل سن الثامنة عشرة أي سن الرشد الذي يحدده القانون-بمقرر معلل يبين فيه مصلحة القاصر والأسباب المبررة لذلك بعد الاستماع الأبوي للقاصر أو نائبه الشرعي مع الاستعانة في بعض الحالات بالخبرة الطبية ، كما جاء في المادة 20 من مدونة الأسرة: "لقاضي الأسرة المكلف بالزواج أن يأذن للفتاة او الفتى بالزواج دون سنه الأهلية المنصوص عليه في المادة 19

-وهو 18 سنة-، بمقرر معل ليبين فيه المصلحة والأسباب المبررة لذلك"(مدونة الأسرة، 2004، ص 13)، والمادة21 من القانون ذاته التي تنص على أن:"زواج القاصر متوقف على موافقة نائبه الشرعي. تتم موافقة النائب الشرعي بتوقيعه م القاصر على طلب الإذن بالزاوج وحضوره إبرام العقد، إذا إمتنع النائب الشرعي للقاصر عن الموافقة بت قاضي الأسرة المكلف بالزواج في الموضوع"(مدونة الأسرة، 2004، ص 13). وتمنح هذه الثغرة القانوينة التي يتركها القانون بيدي القاضي فرصة كبيرة لإستمرار زواج القاصرات

إذ يتم تزويجهن في حالات عديدة بالاعتماد على هذا الإستثناءات التي تكاد تصبح قاعدة، وليس إستثناء وفي حال صدرو قرار برفضة تزويج الفتاة القاصر رغم التحايلات على القانون، كثيرا ما يلجأ الأبوين إلى ما يعرف بزواج «الفاتحة»، دون عقد قانوني موثق رسميا، مما يحرم الفتاة من حقوقها الزوجية، ويحرمها أيضا في حالة الإنجاب من إعتراف الزوج بنسب أطفاله، لأن القانون لا يلزمه في زواج الفاتحة تجاه أبنائه، إذ لا يسجل أبناء هذا الزواج في دفاتر الحالة المدنية، مما يحرمهم من الحصول على بطاقة تعريف وطنية بعد بلوغهم سن الرشد.

الأمر الذي أثار قلق المدافعين والمدافعات عن حقوق الإنسان خاصة بعد تفاقم الظاهرة وبروز حالات تكشف معاناة الطفلات المتزوجات، وظهور إحصاءات تؤكد استفحال هذه الظاهرة على الرغم من صدور "قانون مدونة الأسرة" ،الذي يقيد تزويج القاصرات، بل اعتبره بعض الحقوقيون والحقوقيات تجريما يستدعي حذف فوري لهذه النصوص القانونية، ومنع حالات التحايل على القانون.

الزواج التقليدي المرتب أو المدبر: كان اختيار الزوجة أو الزوج في الزواج المرتب من مهام الأسرة عادة "الأب والأم والأقارب والجيران..."، طبعا بمبادرة من أسرة العريس، التي كانت لها ولا زالت صلاحية المبادرة بالاختيار وفقا لمعايير ومقاييس خاصة، في ظل طبيعة سلطوية مميزة للنظام الأبوي للرجل، بينما كانت المرأة مع أسرتها هي موضوع هذا الاختيار، وهي امتداد لواقع تاريخي موروث تختار على إثره زوجة المستقبل وفقا لمعايير مرسومة في فكر الأسرة الخاطبة، وكذلك الشأن بالنسبة لقبول أو رفض أسرة الفتاة المخطوبة. فهو إذن زواج مرتب وله حساباته الاقتصادية والاجتماعية ظلت من خلاله الأسر المغاربية وفية ببناء المجتمع التقليدي، حيث الأسبقية للحسب والنسب "ولد عائلة" و"بنت عائلة"أو "ولد الحسب والنسب" و"بنت الحسب والنسب" أو "بنت القاع والباع"و"بنت سيادي والناس هادي" حسب التعبير العامي.وليس من الغريب أن نلاحظ في هذا الزواج المرتب، زواج تسعى من خلاله الأسر إلى البحث عن التكافؤ الاجتماعي عن طريق زواج الأبناء، ويمكن أن نستشف هذا من رسالة السلطان إلى محمد بن سعيد السلاوي:"فلا بأس بإنكاحه إياها لأنه كُفْءٌ له"، أو اللجوء إلى المصاهرات المرتبة لتوطيد الروابط والعلاقات الراسخة اجتماعيا وحرفيا بين الأسر "العلماء والفقهاء والأسر المخزنية والتجار..."، حرصا على مميزات جماعتهم وبحثا عن التكافؤ الأسري. (فاطمة الزهراء قشي، 2007، ص 56- 57.).

وبحثا دائما عن التكافؤ حرصت بعض أسر الحواضر الكبرى، على تزويج بناتها من أبناء أسر نفس مدنها، كما هو الشأن في المغرب بالنسبة للأسر الفاسية أو الأسر الرباطية أو السلاوية والتطوانية وغيرها، مستعينة في بعض الحالات بنساء تخصصن في هذا المجال وهن "الخطابات" وفقا لمعايير اجتماعية واقتصادية يحددنها حسب تقاليدهن وأعرافهن. كما كانت المناسبات الاحتفالية، فرصة أخرى لاختيار الفتاة أو في الحمام على

أساس خصائصها الجسدية، وغالبا ما كانت قيمة المهر ترتفع أو تنخفض وفقا لجمالها وانتمائها الاجتماعي، وهذا ما يوحي بفكرة شراء واقتناء المرأة . .(Zemour Z. E., 2002, p 76 .)

أما في البوادي والأرياف، فغالبا ما كان الزواج يمر عبر الأم بدرجة خاصة، وبتنسيق مع الزوج. حيث تشرع الأم في عملية البحث عن زوجة المستقبل لابنها، في كل التجمعات والمناسبات. وقد تلتقي بالفتاة التي ترى فيها صفات الزوجة المرغوب فيها في "النافورة"، فتلبسها في معصمها أساورها أو خاتما في أصبعها أو عقدا في عنقها، وهذا تقريبا دليل على طلبها للزواج، (GsoxgxsTftemga, 1917, p 21)، وهي بذلك تسعى إلى اختيار "كنه" لنفسها وزوجة لابنها. وقد تلجأ الأم إلى التشاور مع الأهل والصديقات والجارات التي تثق بهن لأجل المساعدة في اختيار فتاة من القبيلة أو الدوار. وقد يحدث أن تكلف امرأة بجلب أكثر المعلومات لتكوين صورة عامة عن العروس وأهلها، وتدعى هذه المرأة في المعجم الأمازيغي "طرقاست"

(https://www.folkculturebh.org/ar/index.php?issue=9&page=showarticle&id=107)

وبعد القبول الأولي، وتلاقي الرجال، تزور أم العريس "النسيبة" أم الفتاة المختارة لابنها (Tftemga G., 1917, p226)لتبدأ رحلة الاستعدادات وفقا لقواعد اجتماعية محددة محكومة بقانون العرف، تتمتع فيها المرأة الأم بمكانة مرموقة وقوة تفاوضية تسمح لها بالمشاركة في اتخاذ القرارات الأسرية الحاسمة، وتبقى الفتاة في الزواج المرتب كأختها في زواج الأقارب، لا تمتلك حق اختيار شريك الحياة، إنما رأي الرجل هو المسيطر أبا كان أو أخا أو عما هو الأول والأخير، وهو ما تؤكده المعطيات المستقاة من خلال عقود الزواج: "تزوج المكرم السيد محمد بن سي عمر بن سلطان فيالة بنت محمد بن بلقاسم من اولاد سي محمد بن علي، بكرا مجبرة بحضور والدها، وأصدقها مائة ريال كلها نقدا وحالا". (فاطمة الزهراء قشي، 2007، ص 56- 57)

وعلى ضوء هذا يمكننا أن نستخلص أن نظام الزواج كان متشابها في الحالتين السابقتين، حيث تحتل الأسرة "الأب والأم" الموقع المركزي في اتخاذ القرارات واحتكار السلطة والنفوذ، بل والتصرف في حياة الأبناء والبنات. وهو زواج يعكس بوضوح العقلية التقليدية في المجتمع المغربي، التي تلغي عنصر التفاهم بين الطرفين المعنيين بالأمر، ويلغي الاختيار الحر المبني على الحب كعاطفة إنسانية وأساسية للعلاقة بين الزوجين. بل ينظر إلى الزواج على أنه تنمية للموارد المادية والاجتماعية للعائلتين بإعادة إنتاج إرثهما فيما يخص العلاقات والتقاليد الديناميكية الخاصة بهما" (Chaulet C., 1988 p316 – 318). كما ينظر إلى المرأة في هذا الزواج على أنها سلعة معروضة للبيع. ولأنها سلعة فلا بد أن تتوفر فيها شروط البيع. وغالبا ما يتخذ هذا الزواج طابع الأوامر والتبليغ وليس الاستشارة، بل كما لاحظنا سابقا قد يتم الزواج جبرا. بمعنى آخر أن هذا الزواج المصنف في خانة الزواج الإسلامي لم يكن في الغالب يحترم شروط الزواج الإسلامي. (Messaadi S., 1990, p 139)وغالبا ما يكون سن الفتيات المقبلات على الزواج دون البلوغ، وتسعفنا بعض المصطلحات التي كانت تتداولها المرحلة واحتفظت بها في الذاكرة الشعبية تأكيد هذه المسألة مثل "تغصبت" و"تزبرت"، وهو ما اعتبرته الرحالة الإنجليزية فرنسيس مكنت بعد رؤيتها لطفلة في العاشرة من عمرها تتزوج بمدينة الرباط، من الشرور التي كانت تجتاح المغرب. (عبد المجيد بن جلون، 1974) وهي الظاهرة التي استمرت وما زالت تحتفظ براهنيتها اليوم على الرغم من التحولات الهامة التي عرفها المغرب، والتي تعرف ب "زواج

القاصرات"، وإن كانت محدودة بالمقارنة مع ارتفاع سن الزواج. إلا أن هذا لا ينفي وجود حالات رفض لاختيارات الأهل عبرت عنها المرأة بطرق مختلفة من الهروب إلى رفع أمرها إلى الشرع، كما تقدمت به فتاة من شفشاون عندما أجبرها والدها على الزواج من رجل مجذوم. .(Westermarck E., 1917, p 16)

وعلى العموم فإن زواج الأقارب أو الزواج المرتب لميكن إلا شكلان من أشكال الزواج المتجذرة في تاريخ المغرب، بل في تاريخ الشعوب على اختلاف حضاراتها، والذي استمر في المغرب لارتباطه بالأفكار النمطية المتعلقة بالنساء ودورهن في المجتمع، والعوامل الاجتماعية المرتبطة أساسا بالوضع الاقتصادي للأسرة وخاصة الفقر وعدم التحاق الفتيات بالمدرسة أوخروجهن مبكرا منها.ونسجل في نفس السياق بعد الآباء الذين أشرفوا على تزويج أبنائهم وبناتهم، إقبال بعض أفراد الجيل الأول من الاحتلال المثقف والمشبع بثقافة الغرب على اختيار الشريك ولو بشكل محتشم ،وهي الظاهرة التي ستعرف تزايدا كبيرا في وقتنا الراهن.ولعلنا نستطيع من خلال هذه النماذج، أن نقف على نوع آخر من الزيجات ألا وهي الزواج الاختياري.

الاختيار الحر أو الذاتي للزوج: لقد كسر تعليم المرأة وخروجها للعمل واختلاطها بالجنس الآخر وارتفاع متوسط سن الزواج حواجز كثيرة وقلل من رقابة الأهل على الأبناء في ممارسات الزواج واختيار الشريك، وقد أخذت نزعة التحرر في موضوع اختيار الزوج تتأكد حسب جاك بيرك ولو في حالات متفردة في العشرينات(Berque J., 1962, p 229)،في الوقت الذي لم تكن فيه هذه القضية بالذات في فرنسا نفسها إلا من علامات القرن التاسع عشر، لترتفع أكثر في السبعينات والثمانينات قبل أن تصبح فيما بعد تقريبا من أساسيات الارتباط في المغرب الحديث مع التغيرات التي مست أنساق بنائه الاجتماعي والثقافي والاقتصادي، معتبرين أن الزواج مسألة شخصية تتعلق برغبة المقبلين على الزواج، يغلب عليها التوافق والتراضي، حيث أتاح نظام التعليم والعمل للأبناء إمكانية الاستقلال المادي عن أباءهن كما أتاح لهم التعرف والتفاهم فيما بينهما، ووسع دائرة التعارف، ليصبح الزواج في الفترة الراهنة خارج الأسرة والقرابة والمدينة هو السائد في أغلب الحواضر المغربية.بمعنى اختلفت بشكل كبير معايير الاختيار والزواج وسن الزواج...على غرار مختلف الدول العربية، حيث بدأنا نسجل تأخرا هاما في متوسط الأعمار عند الزواج الأول لدى الجنسين. لقد أصبح الطموح العلمي للفتاة والتدرج في المراتب المهنية العليا من العوامل الرئيسية التي أدت إلى تفشي ظاهرة تأخر سن الزواج، وسمحت للمرأة بحق اختيار شريكها.

وهكذا يمكن اعتبار حرية الاختيار هذه مسألة تدخل في عمق التحولات التي عرفها المغرب نهاية القرن العشرين وجوهر الصراع بين الآباء والأبناء كتيارين مختلفين: تيار التقليد والمحافظة على عادات وأعراف المجتمع وتيار التجديد والتغيير.

الزواج المختلط والزواج المتعدد الثقافات: إن موضوع اختلاف الدين في الزواج عند المرأة المغربية المسلمة واليهودية كان ولا يزال من الموضوعات الحساسة داخل المجتمع والمثيرة للكثير من الجدل على الصعيدين الفقهي والقانوني نظرا لتباين آراء فقهاء الإسلام والعلماء حول تحديد مفاهيم "الشرك" و"الكفر" و"أهل الكتاب" الواردة في الآيات القرآنية 221 من سورة البقرة:

وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ۖ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ ۖ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ

والآية 5 من سورة المائدة:

الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ ۖ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ

والآية 10 من سورة الممتحنة

أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ ۖ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ ۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ ۖ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ۖ وَآتُوهُم مَّا أَنفَقُوا ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۚ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنفَقُوا ۚ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ

وكذا بسبب اقتصار الفقهاء على اعتبار أهل الكتاب من المشركين إذا تعلق الأمر بزواج المسلمة من كتابي، واعتبارهم غير ذلك إذا تعلق الأمر بزواج المسلم من كتابية، وكأن معنى الشرك يقتصر على الكتابي فقط ولا يتعداه إلى الكتابية، فالموانع هنا تبرز شرعية أكثر من كونها قانونية، وقد اتفقت الديانتين الإسلامية واليهودية على تحريم هذا النوع من النكاح كما هو معروف إلا إن كان الأجنبي مسلما أو كان يهوديا (محمد حصار ،1935)، وهو الأمر الذي جعل هذا النوع من الزيجات أمرا محسوما فيه قبل الاستعمار، إلا أن هذا لا ينفي وجود إرهاصات هذه الظاهرة في المنطقة ولو بشكل قليل.

المرأة والزواج المختلط: وعموما ككل المظاهر التي مسها التغيير كان الزواج بالأجنبي إحداها للاختلاط الكبير الذي عرفته مرحلة الحماية في المغرب لأفراد وجماعات من أصول وديانات متباينة بحكم الاستعمار، والاستيطان والتعليم، وتطوير وسائل النقل، والهجرة، وتقلّص المسافات بين الشعوب، ووسائل الإعلام وانتشار حضارة الغرب... إلا أننا عندما نتحدث عن الزواج المختلط أو الزواج بالأجنبي يجب أن نميز هنا بين شكلين: الشكل الأول ويتعلق الأمر بالزواج من رجال ونساء يجمعهم نفس الدين، والشكل الثاني ويتعلق الأمر بالزواج من عناصر لا تدين بنفس الدين.

فما هي الأسباب والعوامل الثقافية والاقتصادية والاجتماعية التي ساهمت في إقبال النساء على هذا الزواج؟ ماذا يشكل هذا النوع من الزواج بالنسبة لهن ولأسرهن؟ ما الذي تحول حتى أصبح هذا الشكل من الزيجات يمر من مستوى المنع والرفض إلى القبول والإقبال عليه؟ وكيف تفاعل المجتمع مع هذه الظاهرة؟ وما هي المشاكل التي أفرزها في الأسرة والمجتمع؟

أسئلة كثيرة سنحاول التطرق إليها من خلال فهم نوع هذه الزيجات أولا.

الزواج المختلط ثقافيا لا دينيا: وهي الحالات التي تخص زواج النساء من رجال يجمعهم نفس الدين وهو الأمر الذي يتعلق في المغرب خاصة بالأسر الجزائرية والتونسية الوافدة إلى المغرب بعدالاستعمار والهاربة من المجاعات والأوبئة، والذي عرف تزايدا في التاريخ الحديث بالاحتكاك أكثر مع الشرق العربي، أو العكس زواج

المغربي بنساء جزائريات أو تونسيات أو عربيات عموما تجمع فيما بينهم عناصر مشتركة روحية وموضوعية كالدين الإسلامي الذي يشعرهم بالقرابة الروحية واللغة التي تعد أداة حقيقية للاتصال والتواصل بينهم وبين أفراد عائلاتهم ، فضلا على تقارب العادات والتقاليد فيما بينهم.

وقد مثل هذا النوع من الزيجات بعض العناصر التي اندمجت بسرعة في النسيج الاجتماعي المغاربي والعربي لما يجمعهم من تقارب اجتماعي وثقافي وروحي زكاها دافع الحماس العاطفي والمصير الجهادي الموحد في بداية الاستعمار ، ليصبح ظاهرة اجتماعية وسلوكا منتشرا في خاصة في مناطق الحدود أو المناطق القريبة ، وقد لوحظ مثلا في المغرب "نوع من التعايش بين الجزائريين والمغاربة في المدن القديمة والضواحي بوجدة وفاس. وقد يعود ذلك إلى قدم وجودهم بالمدينتين إلى جانب القرب من الجزائر بالنسبة لوجدة ، وغلبة فئة الجنود المتقاعدين في فاس والمتزوجين أغلبهم بمغربيات" (محمد أمطاط ، 2008 ، ص 308)،إذ نجد مغربيات كثيرات تزوجن جزائريين منذ قانون 10 غشت 1927 واحتفظن بجنسيتهن. (Decroux P., 1938, p 20).

إلا أنه لا يمكن رصد مدى انتشار هذه الظاهرة في بدايتها نظرا لقلة المادة الإخبارية المتعلقة بالموضوع في كثير من الحالات ، سواء بخصوص الزوجات ، أم بخصوص الأزواج ، ربما لاعتبار هذا الزواج زواجا داخليا لتداخل البلدان المغاربية فيما بينها خلال مرحلة الاستعمار.

الزواج المختلط دينيا وثقافيا: رغم الموانع التشريعية والدينية ، تسربت تدريجيا ومع تزايد توافد الجاليات الأوربية ظاهرة الزواج المختلط دينيا وثقافيا كما يحلو للبعض أن يسميه "الزواج المتعدد الثقافات" بشكل ملفت للانتباه ، وقد اقترن ما بين 1927 و1932 - حسب موظف الحالة المدنية- 31 مغربيا مسلما بنساء أجنبيات ، واقترنت 64 مغربية مسلمة برجال أجنبيين ، واقترن 136 مغربيا يهوديا بنساء غير مغربيات ، واقترنت 122 مغربية يهودية برجال أجانب(محمد حصار ، 1935 ، ص 6)

وقد ظل هذا النوع من الزيجات إلى غاية بداية القرن العشرين محتشمة ، وهو الأمر الذي سيعرف تطورا بعد سنة 1930 حسب الإحصائيات المتوفرة ، وقد يكون من المفيد أن نقدم هذه الإحصائيات كما توصلنا إليها لنرى كم وصل عدد النساء الجزائريات المسلمات اللائي تزوجن بالفرنسيين تقريبا ما بين 1930 و1953 في أكبر مدن الجزائر ، وإن ظلت هذه الأرقام محدودة بالنظر لمدة الحضور الفرنسي في الجزائر.(مسعودة يحياوي مرابط ،2010 ، ص 349)

وبناء على هذه المعطيات وحسب الإحصائيات المتفاوتة ، يتضح أن ظاهرة الزواج المختلط فرضت نفسها رغم موقف الدين والمجتمع منها ، واعتبرت جرأة كبيرة من طرف النساء الراغبات في التحرر أكثر والمتمردات على التقاليد والأعراف بدافع إثبات الذات وتحدي السلطة المطلقة للأب والأهل عند البعض ولتحسين الأحوال المعيشية والاقتصادية عند البعض الآخر ، رغم ما كان يترتب عن ذلك في بداياته من إحراج أمام الأهل والمجتمع وإن كان بعضها يتم بعد إعلان الزوج إسلامه.

فما هي أسباب إقبال النساء على هذا الزواج؟ وكيف تفاعل المجتمع مع هذه الظاهرة؟ وما هي نتائجها.

أسباب هذا الزواج وانعكاساته

أسباب هذا الزواج: لن نهتم بالنوع الأول من الزيجات المختلطة ثقافيا لا دينيا ، بل سينصب اهتمامنا على النوع الثاني المختلط دينيا وثقافيا لأن تحليل هذه العلاقة وأسبابها تكشف أكثر طبيعة التحولات التي عرفتها وضعية النساء والمجتمع في جانب محدد متعلق بالزواج الذي كان من بين العلامات البارزة لمرحلة الاستعمار وما بعدها. في الواقع لا تكشف المصادر والوثائق بشكل مباشر عن الأسباب التي كانت وراء اختيار زوج غير مسلم ، أو العكس اختيار أوربي لزوجة مغاربية مسلمة أو يهودية ، وربما يرجع ذلك إلى الصعوبات التي كانت تعترض هذا الخيار الذي حرمه الفقهاء المسلمون واعتبره اليهود اللعنة الإلهية لكل الإسرائيليين(1909, p ,.62Ben Cheneb M) الواجب دينيا وأخلاقيا واجتماعيا تفاديها ، لذا كان لزاما علينا أن نتفهّم طبيعة تكتّم المسلمات وتحصّن اليهوديات وراء الصمت. وعموما لا مراء في أن التحولات العميقة التي صاحبت التوسع الاستعماري أتاحت فرصة الاحتكاك والتعرف على الآخر ، كما كان لبداية انتشار التعليم وعمل المرأة عاملا في تغيير طريقة التفكير والانفتاح على النموذج الغربي ، والحلم بالارتباط بالشريك المثالي "النموذج الأوربي" الذي تقدمه المرأة الأوربية في علاقتها مع الرجل ، فيرغبن في تبني الحياة الغربية بما فيها من سحر وجاذبية وكلهن أمل أن يجدن لدى النصراني احتراما وحنانا أكبر وضمانات قانونية تحصنهن من سيف التطليق الممنوح للزوج المسلم (عميرة علية الصغير ، 2010 ، ص 8). كما انتشرت الظاهرة خاصة بين فتيات الملاهي الليلية وزواج المومسات الذي اتخذ في بعض الحالات شكل تعايش حر وتطور الأمر إلى زواج واستقرار وأبناء. كما ظهر هذا النوع من الزيجات بين فتيات مدارس الإرساليات التبشيرية ، المغلقة منها التي ساهمت في ترويض فكر البنات شيئا فشيئا وتربيتهن على النمط الغربي الذي تختفي فيه مسألة الحلال والحرام والعادات والتقاليد ، وهي التربية التي اعتبرها البعض تغريبا وإبعادا عن دينهن وأعرافهن لدرجة لا يستطعن التزوج لا من أبناء جنسهن ولا من الأوربيين بسبب تعصبهم الجنسي ورفض عائلاتهم ، فينتهي بهن المطاف إلى اعتزال المجتمع أو السقوط في الرذيلة. (Louis M., 1910, p. 287- 290)

وفي غفلة من بعض الآباء والأمهات استطاعت مخططات الاستعمار ممارسة جميع أشكال الإغراء وإيجاد طرق للوصول إلى قلب الفتاة ، حيث اتخذ الزواج المختلط في بعض الحالات بعدا سياسيا اعتمده بعض ضباط الجيش الفرنسي لتجديد النسل في المنطقة المغاربية ، وضباط الجيش الأمريكي في بعض السواحل المغربية.

هذا ولا ننسى طبعا الظروف الاقتصادية والحاجة التي جعلت بعض الأسر تفرض على بناتها الزواج من أبناء المستعمر كوسيلة لإنقاذهم من الفقر خاصة في فترات المجاعات التي عمقت من تأثيرها سنوات الجفاف ، ومع الأزمة الاقتصادية والحرب العالمية التي هزت المرأة هزا وألقت بأعداد كبيرة منهن في أحضان الأوربيين والأمريكيين ، ليتحول الرفض والنفور من الأجنبي إلى الطلب والقبول. فكلما ضعف الدخل الأسري كلما ضعفت الرقابة والوصاية التي تكون أكثر ارتباطا بالمرجعية الدينية في بعدها الثقافي التقليدي. ولم يستثن هذا النوع من الزواج الجواري ، الأمر الذي أكدته الرواية الشفوية فيما يخص زواج إحداهن بمدينة القنيطرة ، وكانت رائعة الجمال بالطبيب لوبريت الذي كان المسؤول عن "مستشفى كونتراك" بنفس المدينة ، بعد أن أهداها له القائد الكلاوي ، فحررها وجلب لها معلمة تعلمها اللغة الفرنسية وعلمها السياقة ، واشتهرت في المدينة بإسم

سيدة القفازات لارتدائها الدائم للقفازات والتي حيك حولها أن ذلك راجع إلى تشويه معصميها نتيجة تكبيل يديها بالسلاسل.

وهكذا تعددت الأسباب وتنوعت بين حب وانبهار وفقر وحاجة اقتصادية أو هروب من الواقع بحثا عن معاملة أحسن واحترام وتقدير أو دوافع سياسية ، إلا أن هذا لم يستطع محو العقدة العنصرية والدينية التي ظلت ملازمة للمسلمين ، ولم تنفك عنهم قيد شبر.

ومهما كانت أسباب الاختيار وعوامله ، أو قبول أو رفض هذا الزواج ، فقد شكل هذا النوع من الزيجات مرآة مكبرة لصورة ازدواج الثقافة والحضارة العربية والغربية.ويبقى السؤال كيف تفاعل المجتمع مع هذه الظاهرة؟ وما مدى تأثير هذا الزواج على المجتمع وعلى الأبناء كسبا وفقدا؟

انعكاسات هذا الزواج على المجتمع والأسرة

لقد شهدت فترة الاستعمار من التغيرات والتقلبات ما هز المجتمع وخلخل بنياته ، إلا أن الزواج المختلط دينيا وعلى محدوديته شكل صدمة من نوع آخر هزت المجتمع خاصة عندما يتعلق الأمر بزواج المرأة من الأجنبي ، هذا الزواج الذي غالبا ما يعزلها عن جماعتها دون أن يدمجها في الأوربية. وقد أثار هذا شعور عامة الناس وعلماءهم و في هذا يقول علال الفاسي: "فتياتنا أخذن يهربن من بيوت آبائهن ومن التحبب إلى مواطنين والتزوج بهم مؤثرات الاختلاط بالأجنبي ، والتزوج معه". (آمال قرامي2007 ، .www Metransparent. Com)

وهي ظاهرة أثارت تخوفات علال الفاسي واعتبرها سياسة استعمارية في محاولة إزالة ما بينهم وبين الشعوب المستعمرة من الفوارق الدينية واللغوية والسلالية ليخلقوا من المستعمَر إنسانا على صورة المستعمِر ، وهذا ما يمكن أن نستشفه من كلامه: "أخذ عديد من ضباط الأمور الأهلية والمندوبين المدنيين في الوادي يتراكنون مع المغربية التي تقيم بمنزلهم ويتولّدونها حبّا في تكثير نوع الهجناء"(آمال قرامي2007 ، .www Metransparent. com).

أمام هذا الواقع المتشابه في البلدان المغاربية المجاورة والمرفوض دينيا ووطنيا ارتفعت الأصوات منددة به ، وتتالت العديد من المقالات ، وأكثر من ذلك أفتى فيها بعض الفقهاء أمثال عبد الحميد بن باديس الذي اعتبر المتزوج بالأجنبي امرأة كانت أو رجلا مرتد(ة)، يضع ذريته في الإنزعاج والحرج. (S. 2000, p 378- 379 Bakalti,) لكن كل هذا لم يستطع أن يحد من استمرارية الظاهرة بين الجنسين ، ويكفينا القول أن قادة تحرير هذه الشعوب تزوجوا نساء أجنبيات مثل الزعيم التونسي الحبيب بورقيبة ، والزعيمان مصالي الحاج الجزائري وفرحات عباس ، والمحامي بومنجل ، ورابح زناتي الخ...

وطبيعي أن علاقات من هذا النوع سيكون لها تأثير على الأبناء من حيث التربية والثقافة ، ومن حيث العادات والتقاليد ، لدرجة اعتبر البعض أن الاحتلال لم يستول على الأرض فقط ولكنه استولى أيضا على المرأة وعلى نسلها ، وقد ينشأ عنه خطر ضياع صفة الذات (سعد الله أبو القاسم ، 1996 ، ص 88) وضياع حق كلا الطرفين في الآخر ، ونقصد به هنا ضياع الحق في الإرث إذا توفي أحد الزوجين اعتبارا لبطلان الزواج المبرم بينهما. (ساسي بن حليمة ، 2013 ، ص 9) ويتضاعف الخطر أكثر مع الأبناء وتربيتهم ، فطبيعي أن يتأثر الأبناء بأمهاتهم وآبائهم في لغتهم وعاداتهم ، فيحصل نوع من التمازج الثقافي واللغوي ، وقد يتحول هذا إلى

نوع من التمزق النفسي والانتمائي الديني والوطني والاجتماعي، من المحتمل أن يصاحبهم طيلة حياتهم.واعتبره البعض استيلاء على النسل وهو ما عبرت عنه لوسيان فيبير بالحصول على "فرنسيين صغار"(Favre L. ,1990, p 278).

ويرى الشيخ محمد بن أبي شنب "أن الأجنبي المسيحي يأكل لحم الخنزير، ويشرب الخمر، وبالتالي إنجاب أطفال وتربيتهم في هذه الأجواء، يتقاسمون نفس الطعام المحظور والمحرم ويرتوون خمرا وربما يذهبون إلى الكنيسة"، (Ben Cheneb M., 1909, p 74)هو في حد ذاته تأثير كبير على الأبناء، وهذا ما جعل الكثير من الأسر الأهلية والأجنبية معا تتخذ الحذر من تزويج أبنائها من بنات هذا النوع من الزواج، مما جعلهن يجدن صعوبة كبيرة في الزواج.(Ben Cheneb M.,1909, p 74)كما أن أبناء هذا الزواج غالبا ما يرفضن الشريك(ة) المسلم(ة) لاعتباره أدنى منهم.وطبعا لم يكن هذا إلا جزءا من المشاكل الكثيرة التي عانى منها أبناء هذا الزواج في المدرسة وفي الشارع، حيث تروي لي إحدى بنات هذا الزواج معاناتهم اليومية وكلمات السب والقذف التي كانت تشنف آذانهم يوميا في الشارع وفي المدرسة وتتأذى منها. فأطفال الأهليين المسلمين ينادونهم ب"أبناء الجيفة وأولاد النصارى" وأطفال المستعمر يستفزونهم وينادوهم ب "بيكو"، "بيكوتا" "الدم العربي"، أو "بيكوات"، و"ورثتي المسلمون"، "أراب" عرب، أو "صال أراب"...، وبعد الحرب العالمية الثانية، حلت ألفاظ أخرى محل السابقة "راتي"، و"بطار"، و "نيقر"، وهذه المرة بصيغة الجمع. ليعودوا في كل مرة مكسورين إلى بيتهم حيث الأب واع بوضعيتهم التي يرى أن لا مفر منها سوى تعليمهم وتفوقهم في مسارهم الدراسي".

كما عانى أطفال هذا الزواج من مشكلة الجنسية التي لم يمنحها لهم القانون المحلي، فمثلا في المغرب أبناء المرأة المغربية لا يتمتعون بهذا الحق ولو ولدوا وعاشوا بالمغرب، مما يترتب عنه مجموعة من المشاكل، خصوصا في حالة غياب الأب الأجنبي وعودته إلى وطنه الأصلي أو في حالة وفاته، وهو ما عبرت عنه إحدى مستجوبات هذه الحالة التي كان وفاة الأب والأم بداية لسلسلة من المشاكل، كان على رأسها حرمانها وإخوتها من إرث الأم ، حيث قواعد الإرث في الشريعة الإسلامية لا تسمح بالتوارث بين غير المسلم والمسلم.

ونشير هنا إلى قضية أثارت جدلا واسعا في محاكم الرباط والدار البيضاء حول مسألة الجنسية، ويتعلق الأمر بعلي يعتة الذي كان عضوا قياديا في الحزب الشيوعي المغربي وقتئذ ويعمل في السر، وبعد طرده من طرف المقيم العام جوان لأنشطته المعادية للإقامة، قدم شكايته إلى المحكمة الابتدائية بالدار البيضاء ليتم الاعتراف له بالجنسية المغربية بحكم أنه مولود في طنجة. وقد أصدرت المحكمة حكمها في 23 أكتوبر 1950 مؤكدة صفته الفرنسية، لاعتبار والده سعيد يعتة ،وهو جزائري من جرجرة في منطقة القبايل، غادر الجزائر في تاريخ غير محدد بين 1875 و1885، واستقر بمصر، ثم حل بطنجة في 1911 حيث تزوج بمغربية وأنجبت له سبعة أطفال من بينهم علي يعتة ،ولم يغادر الجزائر بنية عدم العودة كما يذكر قانون 1889. وهو نفس الحكم الذي أكدته محكمة الرباط، مضيفة أن المعني بالأمر لا يمكن أن يحمل الجنسية المغربية بمبرر مولده بالمغرب ومن أم مغربية، وأن والده فرنسي وبالتالي يظل المعني فرنسيا. (محمد أمطاط، 2008، ص 371).وقد خصص علي يعتة في مذكراته عدة صفحات لهذه القضية ومسارها في المحاكم والدفوعات المقدمة من طرف محاميه هنري بوني.

كما أن مشكل الجنسية لم يكن مشكل الأبناء فقط ، بل حتى الأمهات الزوجات عانين منه بأشكال مختلفة ، ففي الوقت الذي كانت فيه جل الدول تعتبر أن المرأة إذا تزوجت بفرد تصبح من جنسيته ، لم يكن ما يشابه هذا بالمغرب ، إذ ليس في قوانين المغرب ما يضطرها إلى ترك جنسيتها المغربية ، خاصة إذا كانت داخل المغرب ، "فهناك ظهير12 غشت عام 1913 المتعلق بأحوال الفرنسيين والأجانب المدنية بالمغرب (الحماية الفرنسية) نصت مادته الرابعة على أن للقاضي (المحاكم الفرنسية) أن يفصل في جنسية شخص تعتبره عدة دول أجنبية في آن واحد من رعاياها ، ومن المعقول - كما هي العادة- أنه إذا وقع بالمغرب تنازع فيما بين قوانين أجنبية من جهة والقوانين المحلية من جهة أخرى فالفصل يكون للأخيرة وإن كان القاضي فرنسيا- كما هي الحالة هنا- أو تابعا لإحدى القنصليات التي تتولى الحكم بالمغرب ، وكل ما سبق ينطبق على المغرب بحذافيره سواء فيه منطقة النفوذ الفرنسي والدولي والإسباني مع تغيير يسير فيما يخص المنطقة الأخيرة ، والتغيير لا يمس بشيء كيان الجنسية المغربية وإنما راجع لحالة الأجانب المدنية وكيفية اكتساب الجنسية المغربية للأجانب لا غير". (محمد حصار ، 1935 ، ص. 5- 6.)وهذا جزء من البحث في الجنسية المغربية ، الذي خصصته مجلة المغرب في عددها التاسع من السنة الثالثة لهذا الموضوع. وتناولته العديد من المراسلات الرسمية المتبادلة بين القنصليات في البلدان المغاربية ووزارة الخارجية الفرنسية ، حيث أثيرت مسألة جنسية المرأة في حالة زواجها بأجنبي بحدة ، فطرحت القضية نقاشا كبيرا في المجال القضائي والفقهي بصفته مسألة سياسية واجتماعية ودينية ،بحيث لا يمكن للمرأة المغربية أن تمنح زوجها الأجنبي وأبنائها الجنسية المغربية. ولحماية الأفراد ، حددت المواثيق الدولية في اتفاقية لاهاي المنعقدة سنة 1930 عدة قيود في الجزء الثاني من نص المادة الأولى بقولها "على كل دولة احترام التشريع الداخلي بشرط أن يكون متماشيا مع الاتفاقيات الدولية والعرف الدولي والمبادئ المعترف بها على العموم في مادة الجنسية". (جبار صلاح الدين ، 1914 ، ص 146) ومن تم تنفرد الدولة الأصلية بمنح الجنسية.

وعلى الجانب الآخر ، لا ننفي الجانب الإيجابي الذي تمتع به هذا الجيل الجديد من أبناء الأجانب ، وخاصة الفرنسيين منهم إذ تكفل لهم الدولة المستعمرة عدة حقوق وامتيازات ، كالحق في التعليم في المدارس الفرنسية والجامعات والحق في العلاج ، والحق في العمل وفق شروط حددتها الدولة المستعمرة.

وفي العصر الحديث ونتيجة لتقدم المجتمعات والدول وفي ظل تطور وسائل الاتصال الحديثة وما صاحب الثورة التكنولوجية وشبكات التواصل الاجتماعي من كسر لكل الحدود بين الدول اعتمادا فقط على بعض النقرات ، صار العالم كله قرية صغيرة. فتطورت العلاقات الدولية الخاصة واتجه العالم نحو الانفتاح الاقتصادي والثقافي والتكامل والتعاون. فلم يعد يقتصر نشاط الفرد اليومي على النطاق الذي يعيش فيه أو على الدولة التي ينتمي إليها بجنسيته ، بل امتد إلى دول أخرى لاسيما بعد انتشار ظاهرة الهجرة الشرعية وغير الشرعية وانتقال الأفراد من دولهم للعمل أو التجارة أو التعليم واستقرارهم في دول أخرى ودخولهم في علاقات عابرة لحدود الدولة الواحدة وفي مجالات متعددة وخاصة الأسرية ، الأمر الذي أدى إلى نشوء نوع من الزيجات أو الروابط القانونية ذات الطبيعة الدولية الخاصة وعليه ، صار الزواج المختلط وبناء سلالة جديدة حقيقة لا يمكن تجاهلها ولم يعد من المستغرب زواج مغربية من فرنسي أو إيطالي أو إسباني... أو زواجها من

شرقي مصري أو سعودي أو أردني...وهو ما أدى إلى تغير جوهري في العلاقات الزوجية والعائلية ، لا تحتكم بالضرورة إلى نفس العلاقة التي تعيشها أختها المغربية في البلد الأم.

خلاصة:

رغم كل هذه التحولات ، يبقى الزواج ومراسيمه من أكبر المؤثرات على الثابت المادي والمعنوي ، ونقطة التقاء الثوابت والمتغيرات في نوع من التكامل الاجتماعي والثقافي لموروث الثقافة الأمازيغية والعربية واليهودية وبقايا المعتقدات الضاربة في القدم كمكون اجتماعي وثقافي. وحتى إن كان هناك تغير فهو لم يبلغ المدى الذي يمكن أن يؤدي إلى تغيير بنائي عميق ، اختلفت حدته بشكل متفاوت جغرافيا واجتماعيا ، ابتداء من الخطوة الأولى ، ومرورا بترتيبات الخِطبة و"كمالت العطية والفاتحة والنقدة" ، وانتهاء بحفل الزفاف. هذا الأخير الذي يعتبره علماء الاجتماع والأنتربولوجيا المساحة الشاسعة التي تظهر فيها وبكل وضوح القيم الثقافية والضوابط التي تحكم بشكل غير معلن العديد من المجتمعات.

وأكيد أن في فترة التحول والانتقال هذه تغلغلت الكثير من التناقضات بين القديم والحديث ، فاختفت أو بدأت تختفي بعض العادات والممارسات ، كما نشطت حركات إصلاحية كتلك التي عرفتها مدينة فاس عهد الحماية ، منددة بالمغالاة في النفقات والإسراف في الأعراس(محمد حنيني ، 1935 ، ص 18- 19) ، وضعت على إثرها لجنة مركبة من القضاة والعلماء والأعيان قرارا فيما يكون عليه التمشي استقبالا في كل ذلك ، وهو قرار مفصل دقيق روعي فيه التعبير بالدارج في بعض ألفاظه لمخاطبة العامة(محمد حنيني ، 1935) ، وحضره من الشهود بدار المجلس البلدي من الشرفاء 147 والتجار والأعيان وأهل الأسواق والحرف 500 وأهل فاس وقصبة الأنوار 53 (محمد حنيني ، 1935 ، ص 18) ، كمحاولة للتخلص من بعض المظاهر النظامية التقليدية المبالغة في الإسراف والتمظهر. وفي هذا يقول الشيخ عبد الحي الكتاني:"إن ما يبشر بحسن المستقبل, ويوفي ببعض المؤمل, ما تحرك إليه أهل الشعور الصادق, والإحساس الرائق, من البحث عن بعض الأضرار التي أصابت الأمة الفاسية ، وأثقلت كاهلها من جهة هذه العوائد الفاشية ، وعن أضرار ومصائبها متغافلة متناسية إلى أن وصل السيف إلى حده, بل دخل بنصله وغمده"(الكتاني عبد الحي الكبير ، 2008 ، ص 11). وهو الشيء الذي حاربته أيضا "أخوات الصفا" وعبرت عنه بشكل واضح في مؤتمرها التاريخي بمدينة فاس يوم الجمعة 23 ماي 1947 ، ضمن مقرراتها الإصلاحية بمنزل الحاج أبي بكر جسوس بالدارجة لتعميم الفائدة. (مجلة الأنيس ، 1947). وهو الأمر الذي كان أن أقدم عليه محتسب مدينة سلا بضبطه لأوقات حضور النساء والتي حدد أقصاها في ثلاثة أيام فقط ، بدءا من يوم الزفاف.

وأمر طبيعي أن يرافق التغيرات الاجتماعية والثقافية لجيل ترعرع في ظل المستعمر مع ما حملته هذه المرحلة من تحولات ، بعضها فرضته عوامل خارجية والبعض الآخر كان نتيجة تعليم المرأة وعملها وتفتح فكرها واتساع فرص احتكاكها مع الجنس الآخر وانفتاحها على الغرب ، تغيرات مست الزواج كمؤسسة اجتماعية ، فارتفع سن الزواج ، وانخفض نوع الزواج الداخلي والتدخل العائلي خاصة في الحواضر ، وبالتالي تقلص حجم العائلة الكبيرة كبداية لتحول بنية الأسر المغاربية وظهور العائلة الصغيرة والنزوع أكثر إلى الزواج الأحادي ، خاصة بعد الثورة التي أحدثها علال الفاسي في المغرب و الطاهر الحداد في تونس على دعاة التعدد "تعدد الزوجات" بدعوى الحفاظ على ثابت من ثوابت الشرع ، بتقييد المباح بالمنع والتضييق وفي هذا يقول

علال الفاسي: "فمهما قيل من محاسن تعدد الزوجات في بعض الظروف الخاصة أو العامة، فإنني أعتبر أن المصلحة الإسلامية والاجتماعية تقضي بمنعه في الوقت الحاضر"،(علال الفاسي، 2008، ص 291)واعتبره الطاهر الحداد سببا من أسباب الفساد والانشقاق في العائلة. (الطاهر الحداد، 1997، ص 61)

وقد بدت أصداء هذه الأفكار تنتشر مع الدعوة إلى تمكين المرأة من حقها في اختيار زوجها والتنديد بالزواج المبكر والأمومة المبكرة، وهي الظاهرة المعروفة حاليا بزواج القاصر، والذي تضاربت وتتضارب إلى اليوم الآراء حوله، وفي هذا الإطار رأى علال الفاسي: "الحقيقة أن للتزوج في الصغر أضراره التي لا تنكر". فالزواج المبكر والأمومة المبكرة للشابات يمكن أن يحدا بدرجة كبيرة من فرص التعليم والعمل.(علال الفاسي، 2008، ص 291).وهو ما تنده اليوم العديد من الجمعيات أو لمنظمات الحقوقية.

وعلى العموم وفي ظل هذه المتغيرات، ظل الزواج هو الحماية الأخلاقية والنفسية والاجتماعية للمرأة المغربية، وظلت "هدية السكر" في الخطبة من أهم الطقوس التقليدية المغربية التي يحرص عليها الكل، ويعبرون عليها ب "الحلاوة"، وقد يصاحبها الزيت في بعض الأحيان، ربما للمكانة التي كانت تحتلها المادتين معا في غذاء المغاربة في الفترات العصيبة. طبعا مع هدايا أخرى تختلف من أسرة إلى أخرى وظل الصداق أو "المهر"،أمر ضروريباعتباره ركنا من أركان صحة العقد في الزواج، وإن اختلفت قيمته ورمزيته اليوم لثبوته شرعا بنص الكتاب والسنة، كما جاء في سورة النساء آية 4 :"وآتوا النساء صدقاتهن نحلة فإن طبن لكم عن شئفكلوه هنيئا مريئا"، ويأتي ذكره مفصلا بدقة في عقد الزواج كأن يقال بعد العبارة التي تفيد الزواج: "على صداق مبارك ميمون..." أو "على صداق مبارك طيبه الله وأحله بقوله وآتوا النساء صدقاتهن..."، أو "بصداق سماه لما قبل البناء بها والمحدد نقدا...

وبالرجوع إلى بعض عقود الزواج الموثقة بكل ما تحمله من عبارات يتضح لنا هذا الجانب الديني واضحا، ويبقى الاختلاف واردا في بعض العقود في إدراج شرطين جديدين وبالتراضي وهما: أن يسمح الزوج لزوجته بمتابعة دراستها، واشتغالها، وطبعا إلى جانب شروط أخرى كمقر الإقامة وعدم سكنى الزوجة بالبادية وعدم التعدد وقد يكون في هذا الشرط الأخير ما يعبر عنه كما جاء ذكره عند عبد الهادي التازي "الداخلة بالخارجة"، ومعناها في حالة دخول زوجة ثانية فإن الزوجة الأولى من حقها الخروج وطلب الطلاق. (عبد الهادي التازي، د. ت، ص 7). أما في ما يخص حفل الزفاف و إن اختلف من منطقة لأخرى حسب أعرافها وتقاليدها، فنجد الثابت الموروث والمشترك والمجسد في ثلاثة طقوس رئيسية: "حمام العروسة ويوم الحنة والليلة لكبيرة"، يطغى على كل جديد ويتتبع فيه تسلسلا محددا ومحترما، تبدأ الاحتفالات في بيت أهل العروس على أن تنتهي في بيت أهل العريس..(G. Demombynes, 1901, p 25)ويحضر فيه لباس المرأة التقليدي بحدة عند النساء التقليديات "الزمانيات" أو العصريات، وهو لباس يختلف حسب المناطق وحسب الوسط الاجتماعي. وهكذا يمكننا القول أن العادات والتقاليد ظلت تتعايش في تناغم مع الجديد في الاحتفالات والأفراح كالزواج والعقيقة والختان،كما ظلت مصاريفه باهضة رغم كل المحاولات الإصلاحية والتوعوية، وحتى الوسط الحضري لم يتمكن من التغلب على المظاهر الباهضة الثمن لهذا الحدث بحيث يصبح الإعلان ضروريا وتجند له كل الموارد الأساسية لإتمامه، وهكذا ظلت في الغالب مرحلتي الاختيار الزواجي والحفل مزدوج بين التقليدية والعصرنة"(كسال مسعودة، 1986، ص 91- 92).

ومع كل هذا ، توسعت دائرة توثيق عقود الزواج ، إذ لم تعد الأسر تكتفي في مصاهرتها بعقود شفوية وإنما أصبحت أكثر حرصا على توثيق عقودها كتابة على يد العدول لإثبات الزواج وحماية حقوق المرأة والطفل وثبوت النسب وإشهار الزواج إداريا أمام أفراد المجتمع ، والاحتفاظ بوثيقته من لدن الزوجين لاستظهارها عند الضرورة كحجة بيد كل منهما ، خصوصا عندما تغيب الأدلة الأخرى المتمثلة أساسا في الشهود ، ويحرر عادة بمواصفات خاصة تختلف عن مواصفات العقود الأخرى. وتشجيعا لترسيم حالات الزواج بطريقة قانونية ، تضمنها العقود ، رفعت جمعية "أخوات الصفا" في شأن ذلك ملتمسا إلى وزارة العدلية ، لتنصيب عدلين في كل مدينة وقرية ، يتوليان عقد الزواج مجانا.(محمد معروف الدفالي ، 1998 ، ص 187)

وطبعا المرأة القروية لم تعش هذه التحولات بنفس الحدة ، لأنالمفصل التحريري الحاسم الذي عرفته نساء الحواضر كان هو تعليمها ، وهو مسألة لم تشهدها القرى اللهم عند فئات قليلة ، فالأمية هي قبل كل شئ سبب اللامساواة بين نساء البوادي ونساء المدن على محدوديتهن خلال هذه المرحلة ، كما أن المدينة ظلت مركز الاختلاط والتواصل مع الثقافات والحضارات الوافدة ، وعرفت أكثر الصراع بين الموروثات والمتغيرات في علاقة تضاد بين التحديث والتقليد. وما نلاحظه من تأثيرات حضارية غربية في حواضرنا تغيب أو تقل عند ساكنة البوادي ، وهو ما عبرت عنه مجلة المغرب ب "اختلال التوازن": "نرى قرى لم يتأثر أهلها بالمدينة الحديثة في قليل من شؤونهم ولا كثير ، ومدنا تأثرت إلى حد كبير بها حتى في أدق أمورها".(مجلة المغرب ، 1934 ، ص 11)

قائمة المراجع:

-أبو القاسم سعد الله ، أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر ، 1996 ، ج 4 ، دار الغرب الإسلامي ، بروت.
-أبي الضيافبن أحمد ، أتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان ، 1989 ، الدار التونسية للنشر ، تونس.
-أمطاط محمد ، الجزائريون في المغرب ما بين سنتي 1830- 1962 ،مساهمة في تاريخ المغرب الكبير المعاصر ، 2008 ، دار أبي رقراق للطباعة والنشر ،الرباط.
-البليش بلحسن ، علي بن هادية ، الجيلاني بن الحاج يحيى ، القاموس الجديد للطلاب ،1971 ، الطبعة 7 ، المؤسسة الوطنية للكتب ، الجزائر.
-بن جلون عبد المجيد ، جولات في مغرب أمس 1872 ، 1974 ، مكتبة المعارف ، الرباط.
-التازي عبد الهادي ، أعراس فاس ، 1961 ، مطبعة فضالة ، المحمدية.
-جبار صلاح الدين ، 2014 ، "اكتساب الجنسية عن طريق الزواج المختلط وآثاره في القانون الجزائري: دراسة فقهية مقارنة" ، مجلة الفكر ، ع. 11 ، مركز الإنماء القومي ، الجزائر.
-الحداد الطاهر ، امرأتنا في الشريعة والمجتمع ، 1989 ، ط.5 ، الدار التونسية للنشر ، تونس.
-الحداد الطاهر ، امرأتنا في الشريعة الأزمنة العسيرة من تاريخ المغرب الحديث والمجتمع ، 1997 ، دار المعارف ، سوسة- تونس.
-حصار محمد ، 1935 ، "بحث في الجنسية المغربية" ، مجلة المغرب ، السنة الثالثة ،ع. 9 ، ذو الحجة 1353/ مارس 1935 ، المغرب.
-حنيني محمد ، 1935 ، "حركة إصلاحية بفاس" ، مجلة المغرب ، س. 4 ، جمادى الأولى- جمادى 2 ، 1354 ،/ غشت- شتنبر 1935 ، الأعراس والمآتم.
-حنيني محمد ، "نزعة إلى التطور- المرأة المغربية" ، مجلة أمل ، ع. 9 ، س. 3 ، الدار البيضاء ، مطبعة النجاح الجديدة ، 1977.
-دياب فوزية ، 1977 ، القيم والعادات الاجتماعية ، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ، القاهرة.
-ساسي بن حليمة ، 2013 ، "زواج التونسية المسلمة بغير مسلم بطلان لا طلاق" ، مجلة الأحداث القانونية التونسية ، ع. 23 ، منشورات مجمع الأطرش للكتاب المختص ،تونس.
-السعديين محمد ، 2014 ، المرأة السلاوية 1666- 1912 ، مطابع الرباط نت ،الرباط.

-السقاطحنان ، "الصادقة صول هاتشويل (لالة زليخة أو سوليكا) أيقونة العذارى اليهوديات المغربيات" ، مجلة أمل ، ع.39-40 ، مطبعة النجاح الجديدة ، الدار البيضاء.
-الدفالي محمد معروف ، 1998 ، "أخوات الصفا تنظيم نسائي رائد في تاريخ الحركة الوطنية" ، مجلة أمل ، عدد مزدوج 14/13 (حلقات في تاريخ المرأة بالمغرب) ،مطبعة النجاح الجديدة ، الدار البيضاء.
-علية الصغير عميرة ،2003 ، "مسار تحرر المرأة في تونس بين مقتضيات الواقع واختلاف الرؤى ، 1920-1948" ، مجلة أمل ، ع. مزدوج 29/28 (التعليم والمسألة التعليمية عبر تاريخ المغرب) ، مطبعة النجاح الجديدة ، الدار البيضاء.
-علية الصغير عميرة ، 2010 ، "مسار تحرر المرأة في تونس بين مقتضيات الواقع واختلاف الرؤى ، 1920- 1948" ، ضمن مجلة الحياة الثقافية ، ع. 215 سبتمبر 2010 ، حول (المرأة في الواقع والإبداع) ، وزارة الثقافة والمحافظة على التراث ، تونس.
-العيساوي فاطمة ، "الوثائق المخزنية كمصدر للعهد اليوسفي" ، ضمن ندوة السلطان مولاي يوسف 1912- 1927 ، جامعة مولاي علي الشريف ، الدورة الحادية عشر ، الرباط ، منشورات وزارة الثقافة 2004.
-العيساوي فاطمة ، 2009 ، المرأة والمجتمع 1822—1912 ، أطروحة لنيل دكتوراة الدولة في التاريخ ، تحت إشراف عبد الله العروي ، جامعة محمد الخامس كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، الرباط.
-الفاسي علال ، 2008 ، النقد الذاتي ، مؤسسة علال الفاسي ، ط. 2 ، الرباط.
-الفاسي محمد ، 1986 ، رباعيات نساء فاس ، دار قرطبة ، الدار البيضاء.
-قشي فاطمة الزهراء ، 2007 ، "شهود العدالة في قسنطينة القرن التاسع عشر: الانتماء العائلي والمسار المهني" ، مجلة إنسانيات ، ع. 35-36 جانفي- جوان 2007 ، (https://insaniyat.revues.org/3809)
-الكتاني عبد الحي الكبير ،2000 ، تبليغ الأمانة في مضار الإسراف والتبرج والكهانة ،دار ابن حزم ، الدار البيضاء.
-كسال مسعودة ، الطلاق في المجتمع الجزائري ، الجزائر ، ديوان المطبوعات الجامعية ، 1986.
-لوطورنو روجي ، 1986 ، فاس قبل الحماية ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت.
-ليون روش ، 2011 ، اثنتان وثلاثون سنة في رحاب الإسلام "مذكرات ليون روش عن رحلته إلى الحجاز" ، جداول للنشر والتوزيع ،بيروت.
-مسدالي فاطمة ،2004 ، "الثابت والمتغير في أعراف الأسرة البدوية" الأعراف بالبادية المغربية ، منشورات مجموعة البحث في تاريخ البوادي المغربية ، جامعة بن طفيل- كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، القنيطرة.
-يحياوي مرابط مسعودة ، المجتمع المسلم والجماعات الأوربية في جزائر القرن العشرين: الزواج المختلط ، انصهار من زاوية ملموسة ، دار هومة ، سلسلة المترجمات ، 2010.

-Bellaire M. et SalmonG., 1905 ,"El Qçar El Kebir: Une ville de province au Maroc", in Archives Marocaines, La mission scientifique du Maroc,t. 2, fascicule 2, Ernest Leroux, Paris.

-Emile Laoust, 1905, "Le mariage chez les bèrbères du Maroc", in Archives Bèrbères, I. 1, Ernest Leroux, Paris.

-Ben Cheneb M.,, 1909, "Du mariage entre musulmans et non musulmans" in Archives marocaines, Publication de la mission scientifique du Maroc, Volume XV, Ernest Leroux, Paris.

-Berque J., 1962, Le Maghreb entre deux guerres, éditions du Seuil, Paris.

CouaouciA.,1992, Familles femmes et contraception, Ceneap,Alger.

Demombynes G., 1901,Les cérémonies du mariage chez les indigènes de l'Algérie, Maisonneuve,Paris.

-ErckmannE., 1885, Le Maroc moderne, Challamel Ainé éditeur, Paris.

*Favre(L.),*Mesaadi (S.), 1990, Les romoncières coloniales et la femme colonisée, Entreprise Nationale du Livre,Algèr.

-Montely H., 1862, Le marriage musulman en Tunisie, Société Africaine de publicité et d'imprimerie S.A.P.I,Tunis.

-M'rabetF., 1983,La Femme algérienne suivi de: les algérienne, François Maspéro, Paris.

-Tftemga G., 1917,"Le mariage", in Archives Berbères, volume 2- Fascule 3, publication du comité d'études berbère de Rabat, Maroc.

Tualbi R, Les attitudes et les représentations du mariage chez la jeune fille algérienne, Alger, ENAL, 1984, p. 49.

- Westermarck E., "Marriageceremonies in Morocco", traduit par J. Arin, in Archives Berbères, v. 2, fascicule 1, Année 1917, Paris.

الازدواجية اللغوية في الجزائر بين التعدد المعرفي والواقع السياسي والاجتماعي

أ.د عمر بلخير ، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية ، جامعة مولود معمري تيزي وزو- الجزائر

مقدمة:

باتت ظاهرة الازدواجية اللغوية والتعدد اللغوي ، يشكلان محور نقاش عميق في كل المجتمعات الإنسانية وفي دول العالم بأسره ، إذ أن العولمة والمعطيات السياسية والثقافية والجيو استراتيجية الحديثة ، استطاعت أن تفرض على الدول والمجتمعات واقعا لم تشارك هذه الدول في صنعه ؛ وقد انجر عن ذلك أساليب معينة في التعامل مع هذه الظاهرة ، فمنها من تعاملت معه بالتسامح والتعامل العقلاني ومنها من تعاملت معه بالردع والزجر والمنازعة. و نعتقد في هذا الإطار أن نقص المعطيات العلمية الدقيقة في هذا المجال هو الذي جعل الدول والمجتمعات تقف محتارة في كيفية التكفل بهذه الظاهرة.

وضمن هذه النظرة ، سنقوم بالاستناد إلى ما توصلت إليه التكنولوجيا والتصوير العصبي ، باستقصاء ما توصلت إليه البحوث العلمية الدقيقة في معالجتها لهذه الظاهرة ، باعتبارها ظاهرة عصبية ترضخ لمجموعة من الميكانيزمات العصبية الدقيقة والمعقدة ، ومن خلال شرحنا للميكانيزمات التي يتعامل فيها الدماغ مع اللغتين ، سنتحدث عما يمكن أن يستفيد منه ميدان التربية والتعليم ، لأن الأمر في هذا المجال يتعلق بالأسلوب الذي نتوخاه انطلاقا من معرفتنا للدماغ و أسراره لكي نعيد النظر في فلسفتنا المختلفة لحتمياتنا البيولوجية.

وتجدر الإشارة في هذا الإطار ، إلى أن الاكتشافات الحديثة في مجال التكنولوجيا والمعلوماتية والتصوير العصبي ، دعا بالكثير من الدول الأكثر تقدما في العالم إلى إعادة النظر في منظوماتها التربوية والتعليمية للصغار والراشدين ، و نذكر على سبيل ذلك اليابان والولايات المتحدة و كندا وبعض الدول الأوروبية. فقد أدركت هذه الدول أنه يستحيل وضع سياسة تربوية ناجعة وفعالة بدون فهم الآليات التي يشتغل بها الدماغ. فقد أنشأت وحدات ومخابر للتصوير العصبي في العديد من المراكز والجامعات من أجل تكثيف البحث في الدماغ بهدف تحرير العقليات من الأفكار التي ظلت تسيء إلى نظرتنا إلى اللغات باعتبارها في نظرنا آية من آيات الله في الكون.

اللغات في الجزائر ووضعياتها: عرفت الجزائر والمغرب بصفة عامة احتكاكات لغوية متعددة منذ قرون عدة ، فالأمازيغية باختلاف لهجاتها كانت موجودة منذ الأزل في المنطقة وهي أول اللغات التي تكلم بها أبناء هذه المنطقة. ثم تلتها الفينيقية والرومانية والبيزنطية والعربية والتركية والفرنسية والاسبانية وكذا الإيطالية. وقد ترك هذا التعدد الأثر البالغ على الاستعمال اللغوي في الجزائر. غير أنه لأسباب تاريخية وسياسية حديثة ومعاصرة ، لم تتمكن الجزائر من التعامل السوي مع هذا التعدد. وقد خلق ذلك وضعية خاصة بين ثلاث لغات أساسية تتصارع من أجل البقاء من جهة ، كوضعية اللغة الأمازيغية ، والهيمنة والنفوذ كحال اللغة العربية والفرنسية.

هذا الصراع بدأت ملامحه تظهر بعد دخول الاستعمار الفرنسي للجزائر عام 1830. في حينها حاولت السلطات الاستعمارية طمس هوية الإنسان الجزائري بكل لغاته وثقافته وتقاليده ، ليس من أجل تعويضها بنمط حضاري جديد ، إنما من أجل إزالته من الوجود ، وهو ما يستجيب لمنطق فرنسا الاستعمارية في إفريقيا وآسيا وغيرها.

دأبت الحركة الوطنية الجزائرية من أجل التحرير أن تعيد الاعتبار لما حاولت فرنسا إزالته من أرض الجزائر ، فقامت بعمل من أجل إعادة الاعتبار للدين الإسلامي واللغة العربية. وفي 1947 حاولت مجموعة من المناضلين المنتمين لمنطقة القبائل أن تقنع مناضلي الحركة الوطنية على اختلاف أحزابهم وجمعياتهم من الأخذ بعين الاعتبار اللغة والثقافة الأمازيغية في مطالبها ، وهو ما أنشأ الشرارة الأولى للصراع اللغوي بين الجزائريين وهو الصراع بين اللغتين العربية والأمازيغية.

من خلال ما سيأتي ، سنقوم باختصار التطرق إلى وضعية كل لغة من اللغات الثلاث التي تشكل محور الصراع اللغوي في الجزائر ، مبينين مكمن ذلك الصراع.

وضعية اللغة العربية: عرفت الجزائر التعامل مع اللغة العربية منذ أن دخل الفاتحون إلى منطقة شمال إفريقيا. غير أن التعريب الديمغرافي بدأ مع غزو قبائل بنو هلال لهذه المنطقة في القرن الخامس الهجري. بعد دخول الاستعمار الفرنسي إلى الجزائر انحصر نفوذ هذه اللغة بسبب السياسة المهيمنة التي فرضتها الإدارة الاستعمارية على الجزائر. بعد الاستقلال قررت الدولة الجزائرية الفتية إعادة الاعتبار لهذه اللغة التي هي لغة دين الشعب الجزائري.

عربت السلطات الجزائرية العديد من القطاعات عن طريق مجموعة من التشريعات التي ساهمت في إعادة الاعتبار لهذه اللغة في عديد المجالات الحيوية كالإدارة والتعليم بمختلف أطواره والشؤون الدينية والمجال التشريعي والقانوني إلخ.... وشكلت مدة سنوات الاستقلال اللغة الوطنية والرسمية للدولة الجزائرية.

اللغة الفرنسية: هي اللغة التي ورثتها الدولة الجزائرية الفتية من الاستعمار الفرنسي. فبعيد الاستقلال مباشرة ، قامت السلطات الفرنسية بترحيل النخبة التي سيرت الجزائر في مختلف القطاعات وبدون أي استثناء ، مما اضطر الدولة الجزائرية بابقاء التعاون الثقافي والعلمي مع متعاونين فرنسيين. فكانت اللغة الفرنسية اللغة الأولى في السنوات الأولى من الاستقلال وكان الدستور الجزائري إلى زمن ليس بالبعيد يتم كتابته باللغة الفرنسية ثم تتم ترجمته باللغة العبية ، وكان الوضع مماثلا فيما يخص الميادين التشريعية الأخرى. انتشرت اللغة الفرنسية في الميدان الاقتصادي والتقني والتعليم العالي في مجال العلوم والتقنيات ، وصارت فيما بعد لغة النخبة الحاكمة. فعلى الرغم من أن التشريعات الخاصة باللغة والثقافة والتربية لم تولي لها أهمية ، غير أن اللغة الفرنسية فرضت مصاحبة للغة العربية. وكان الصراع محتدما بين اللغتين منذ الاستقلال.

اللغة الأمازيغية: أشرنا فيما سبق أن اللغة الأمازيغية هي اللغة الأصلية لشعوب شمال إفريقيا ، وقد تعايشت لقرون مضت مع اللغة العربية بدون أي حرج. غير أن دخول الاستعمار للمنطقة كان سببا في تأجيج منطق الصراع في مختلف بلدان لمغرب وبصفة خاصة بالجزائر. فالصراع بدأ منذ فترة الحركة الوطنية مع ما سمي وقتذاك الأزمة البربرية عام 1949 ، ثم تواصل الصراع بعد الاستقلال حينما رفضت السلطات الجزائرية الاعتراف بهذه اللغة كمكون من مكونات الثقافية واللغوية الجزائرية. وبعد أحداث 1980 بمنطقة القبائل بالإضافة إلى أحداث 1988 ، بدأت الدولة الجزائرية في التفكير في إعادة الاعتبار لهذه اللغة حيث أدرجتها في

المنظومة التعليمية والإعلامية عام 1995 بعد أحداث ما يسمى بإضراب المحفظة ، وفي 2004 صارت لغة وطنية كرسها الدستور ، وسنوات بعد ذلك تم تكيسها كلغة وطنية ورسمسة للجمهورية الجزائرية إلى جانب اللغة العربية بطبيعة الحال.

اللغة والدماغ: أثبتت الدراسات منذ القرن الثامن عشر ، وهذا في إطار الأبحاث التي قام بها علماء الأعصاب ، أن اللغة تتحكم فيها منطقتين على مستوى النصف الأيسر من الدماغ ، وهما منطقتا بروكا وفيرنيكي. وقد أثبتت بحوثا حديثة (Karmiloff et Smith, 2011) أن اكتساب اللغة لا تبدأ بعد الولادة مباشرة وهو ما يناقض فكرة ولادة الطفل باعتباره لوحة بيضاء. فهو يسمع إلى أصوات اللغة التي ترتسم في دماغه قبل ولادته لأنه في الشهور الأخيرة من الحمل يكون الصبي قد تكونت لديه الملايير العشرة من الخلايا العصبية المكونة للدماغ ، ولمختلف أجزائه وفصوصه ومناطقه ؛ فبفعل المرونة العصبية ، يتمكن الطفل من اكتساب اللغة بسهولة فائقة لأن الأرضية موجودة لديه منذ تواجده في بطن أمه. وقد أكد الباحث المغربي بنعيسى زغبوش (2012) بالاستناد إلى مجموعة من الأبحاث أجريت في هذا المجال ، أن لدى الطفل قدرات وكفاءات مبكرة ومبرمجة وراثيا ، وأن تعرضه للمثيرات الخارجية تعتبر عاملا حاسما في تشكيل هذه القدرات بشكل معين. ويشير أيضا ، وذلك نقلا عن Lagererantz ، إلى أن الدماغ يتكون من 100 مليار خلية عصبية ، كل خلية تتكون من ما يقارب 10 آلاف فرع أو امتداد يسمح لها بالاتصال بالخلايا الأخرى. فالخلايا التي تعرضت للتنبيه من المحيط الخارجي تتطور وتنمو ، وتندثر التي لم يسعفها الحظ في التنبيه. والحالة الأولى تسمح للطفل من اكتساب اللغات بسهولة فائقة ، لأن المرونة العصبية تبلغ ذروتها عن الطفولة وتتناقص مع سن الرشد ، إلا أنها لن تتوقف بل تستمر مدى الحياة. أما المرونة العصبية فيعرفها بنعيسى زغبوش بالوقوف على (theodule, 2007,80) على أنها« قدرة الدماغ على إعادة التشكل بحسب نشاطات الفرد بفعل تأثير المحيط » .

ونقلا عن (Sherwood, 2008 Aimard et Vighetto.1997) يشير كل من بوكرمة وبلخير في تفسيرهما لهذه الظاهرة (2013) إلى أنه يتفق المختصون في مجال البيولوجيا والعلوم العصبية و المعرفية على أن الوحدة البنائية للدماغ هي العصبون وهو المسؤول الأساسي على تفعيل العمليات العقلية على مستوى الدماغ أثناء التعلم. و كل بنية نشاطية لهذه الوحدة العصبية تمثل حالة نفسية ، وكشف التصوير الدماغي أنه عند تعلم كفاءات اللغة ، يؤدي كل مثير خارجي مهما كانت طبيعته (لفظية ، القراءة ، الكتابة) إلى إحداث تفاعلات بيوكيماوية على مستوى الدماغ حيث تنتقل السيالة العصبية من جسم الخلية إلى المحور الأسطواني للخلية العصبية في صورة إشارات (شوارد موجبة و سالبة كهربائية(....) تؤدي إلى تفريغ الإشارات الكيماوية (النواقل العصبية) على مستوى المشابك (الوصلات)العصبية. فأثناء عملية انتقال المعلومة (الرسالة العصبية) من عصبون لآخر على مستوى المشبك تتشكل المرونة المشبكية لتعديل المعلومة السابقة فكلما زاد عدد المشابك النشطة نتيجة تنشيط مجموعة أخرى من الخلايا العصبية بواسطة الاستثارة الخارجية ، حدث ذلك نتيجة المرونة العصبية مما جعل الدماغ ينتقل من حالة لأخرى ، وعلى هذا الأساس يمكن تعريف المرونة العصبية على أنها قدرة الخلايا العصبية على إحداث تشابك مع خلايا عصبية أخرى بواسطة النهايات والتفرعات العصبية نتيجة الاستثارة الخارجية.

المناطق اللغوية للدماغ ووظائفها: يتفق المختصون في اللسانيات على أن " اللغة هي القدرة الخاصة بالنوع البشري على التواصل ، ذلك عن طريق منظومة من الأدلة الصوتية ، تأخذ بعين الاعتبار تقنية جسدية معقدة. وتقتضي هذه ، وجود وظيفة رمزية ومراكز دماغية متخصصة وراثيا (Dubois, 2002). فكلما نتكلم عن اللغة ، يبدر لأذهاننا أحد الأنظمة المتعددة للمعرفة التي يستطيع الطفل اكتسابها عن طريق التعلم. ما يجعل من اللغة أداة أساسية لبنية تعبيرات لغوية تتميز بخصائص محددة ومحكومة بطبيعة العقل الذي أصبح معروف بأن سنده المادي هو الدماغ. يمثل الدماغ الإنساني ، نظام تشريحي معقد يدخل في تركيبه أجزاء متفاعلة متعددة ،أحدها يمثل ما يسمى "بالملكة اللغوية " التي تكون مقصورة على النوع الإنساني وعامة في أعضائه.

أما فيما يخص المناطق اللغوية للدماغ ، تبين الدراسة التشريحية للدماغ ، أن الجزء الأكبر يتكون من المخ المتضمن لأغلب المناطق اللغوية. يتكون المخ من نصفي كرتين مخيتين (الأيمن والأيسر) مكسوتين بقشرة مخية ذات لون رمادي متكونة من أجسام الخلايا العصبية والتفرعات العصبية يكون دورها استقبال المعلومات الآتية من الخارج. أما الطبقة الداخلية للمخ ، فتتكون من ألياف عصبية (مادة بيضاء) تتضمن المحاور الاسطوانية للخلاية العصبية ودورها الأساسي نقل الرسائل العصبية إلى المشابك. تتضمن هذه القشرة المخية عدة مناطق مسؤولة عن اللغة وتعلمها ، بحيث تتمثل هذه في: الفصوص الجبهية ، الفصوص الصدغية ، الفصوص الجدارية ، الفصوص البصرية (القحفية) ، منطقة فرنكيه ، ومنطقة بروكا والحزمة المقوسة. وكل منطقة من مناطق القشرة المخية للدماغ متخصصة في صنف معين من المعالجة المعرفية الخاصة باللغة. (Sherwood.2008).

الفصوص الجبهية: توجد الفصوص الجبهية في مقدمة الدماغ ، ولها دورا فعال في تنظيم حالات النشاط الدماغي (العمليات العقلية) وتنظيم الأفعال التذكرية المعرفية ، كما تشترك هذه المناطق في تنظيم وتوجيه النشاط الحركي. من الناحية الوظيفية ، تقوم الفصوص الجبهية ببرمجة وتنظيم وتنقية النشاط المرغوب ، حسب طبيعة النشاط. وأي تلف في هذه الفصوص خاصة في نصف الكرة الأيسر ، يكون مصحوب بخلل في العمليات المعرفية. ولقد بينت الدراسات التي اهتمت بدراسة تخصص الفصين الجبهيين أن وظائف الطلاقة اللفظية والتعلم اللفظي عادة ما يكونان من تخصص الفص الجبهي الأيسر ، بينما تكون وظائف تصميم المكعبات والتوجه الزماني من تخصص الفص الجبهي الأيمن.

الفصوص الجدارية: تقع هذه الفصوص بين المناطق الخلفية للدماغ من جهة والمناطق الصدغية والمركزية من جهة أخرى. تقوم الفصوص ، الجدارية بدور رئيسي وهام جدا في تنظيم التركيبات المكانية المعقدة وتعمل علي التكامل بين التأثيرات البصرية واللمسية . ويكون الفص الجداري مفترق الطرق لنقل وتركيب المثير من منطقة إلي أخرى.

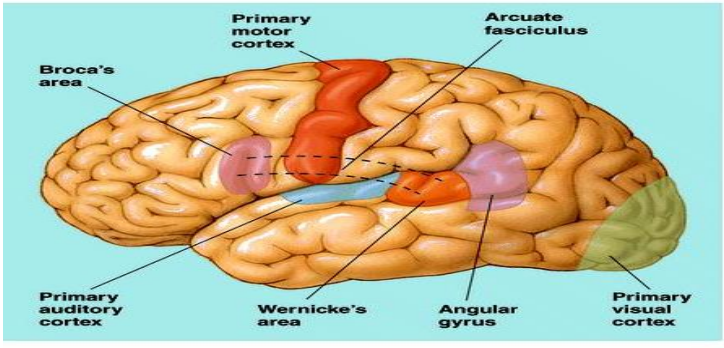
كما تشترك هذه المناطق مع المناطق الخلفية من جهة والمناطق الصدغية من جهة أخرى في تنظيم التناسق في الإدراك المكاني والبصري ، أين تظهر القدرة علي التصور الحركي المكاني للأشكال. هي أيضا المنطقة المسؤولة عن الحركات العضوية للفم وأجهزة النطق المستخدمة في إنتاج الكلام. إنها الجزء من المخ الحركي الذي يسيطر على عضلات الوجه والفم.

الفصوص الصدغية: تتضمن هذه الفصوص مساحات أولية إسقاطيه مسئولة عن عملية انعكاس المثيرات الخارجية (السمعية) ومساحات ثانوية مسئولة عن التعرف الدقيق على الأصوات المسموعة. ويبين التصوير الدماغي ، بأن بهذه المساحات من القشرة الدماغية مسئولة عن التمييز بين الأصوات المختلفة من جهة والوظائف اللغوية من جهة أخرى ، حيث تعد الكلمة المسموعة أساس تكوين المفاهيم المختلفة لمكونات العالم الخارجي. كما ترتبط هذه المراكز بنشاط الكلام عند الإنسان ، ذلك لكون اللغة وحدات نطق صوتية. تكون أصوات الكلام ، نظام يتم من خلاله عملية التمييز بين معاني الكلمات المختلفة. وهو ما جعل لكل لغة أصوات تركيبية خاصة ومخارج صوتية للحروف ، تتم طبقا لدقة التركيب الوظيفي لهذه المناطق من القشرة الدماغية. فالتمييز بين الحروف (أ ، ب ، ت...) يعتمد بالدرجة الأولى علي نشاط هذه المراكز العليا.

الفصوص القحفية: تنقسم الفصوص القحفية (القذالية) إلي مساحات أولية وأخري ثانوية. أما المساحات الأولية فهي تنتهي عندها الألياف العصبية التي تأتي من شبكية العين.

الأساسية الأولية لتلك المناطق ، هي تحليل المثيرات البصرية لتترجم إلى الصورة المرئية. فلا يمكن للرؤية أن تحدث إلا إذا تمت ترجمة المعلومات المنقولة إلي القشرة الدماغية. وتبين الدراسات الطبية أن إصابة المناطق الإسقاطية الأولية تؤثر علي طبيعة العمليات العقلية العليا. أما وظائف المساحات الثانوية للمنطقة القحفية فهي تقوم بعملية ترميز المعلومات البصرية ، حيث يتم تنظيم عملية الإدراك البصري وأي خلل في هذه المناطق ، يؤدي إلي اضطراب في تكامل الإدراك البصري للأشياء فالوظيفة الخارجية المعقدة نسبيا ، وهو ما يصعب التعرف السليم علي تلك الأشياء تعرفا كاملا.

منطقة بروكا (l'aire de Broca)**:** هي جزء من المنطقة اللغوية ، تقع في المنطقة الجبهية للفص الأيسر من الدماغ وتعمل على تحويل التصور العصبي للكلمات إلى تسلسلات النطق (تنفيذ عملية الكلام حركياً). وصفها بروكا بأنها "مركز نطق اللغة". ومن وظائفها أيضا تشكيل وبناء الكلمات والجمل واستخدام علامات الجمع وشكل الأفعال ، واختيار الكلمات الوظيفية كحروف الجر والعطف ، و تعيين المعاني للمفردات التي نستخدمها. وتفسر وظيفة منطقة بروكا بقربها من المنطقة المسؤولة عن التحكم بحركة الجسم وكذلك عن التحكم بعضلات الوجه والفك واللسان والحنجرة ، ألا وهي المنطقة الحس – حركية (الفص الجداري).



الشكل (8) يمثل المناطق الرئسية للغة

منطقة فيرنيك: تقع منطقة فرنيك من الناحية التشريحية بالقرب من منطقة السمع الرئيسية في الجزء الخلفي للفص الصدغي وترتبط بالذاكرة قصيرة المدى. ومن وظائفها: استقبال المدخلات السمعية وفهم وتفسير الكلام وتعيين معنى للكلام ، وتفسير المفردات واختيارها بهدف إنتاج الجمل. وغالبا ما تعرف منطقة فرنيك بمنطقة استيعاب اللغة ، أو منطقة التعامل مع اللغة الواردة إلى الدماغ سواء كانت مكتوبة ، مقروءة أو محكية. وهذا التمييز بين الكلام واللغة هو المفتاح لفهم دور منطقة فرنيك في اللغة. فمنطقة فرنيك تتعامل مع الكلام الوارد ، أما بروكا فتتعامل مع الكلام الصادر. وتسيطر منطقة فرنيك على الكلام المحكي المكتوب وعلى إنتاج لغة الإشارة أيضا ، فمنطقة فرنيك تتصل بمنطقة بروكا بواسطة "الحزمة المقوسة " Faisceau arqué " ، التي تمثل المنطقة الثالثة من العناصر الأساسية لتعلم اللغة.

التلفيفة الزاوية: تقع هذه المنطقة في أسفل الفص الجداري خلف منطقة فيرنكي وأمام مناطق الاستقبال البصري وهي المنطقة المسؤولة عن تحويل المثير البصري إلى رسالة سمعية. فهي تسهل وظيفة القراءة البصرية وكل ما يحتاج إلى الربط بين المثيرات البصرية ومناطق الكلام. وتلعب أيضا ، هذه المنطقة دوراً هاماً في التوصيل بين الشكل المحكي من اللغة وصورتها المدركة وتسمية الأشياء واستيعاب الشكل المكتوب للغة.

وبناء على ما سبق ذكره ، يمكننا القول أن القشرة الدماغية هي العضو الرئيسي بالمخ المسؤول عن أي نشاط نفسي معرفي ، ذلك لانتشار المراكز العصبية بها. أما تعلم اللغة ، فهو يستدعي تدخل عدة مناطق من القشرة المخية (المناطق الجبهية والصدغية ، المناطق الجدارية والبصرية وكذا مناطق بروكا وفرنيكي اللذان يتصلان فيما بينهما بواسطة الحزمة المقوسة إضافة إلى التلفيفة الزاوية) من نصف المخ الأيسر. فالمخ الأيسر يقوم بتدبير اللغة ، في حين يقوم نصف المخ الأيمن بتدبير الوظائف المكانية. أما قطب الإدراك ، فيتمركز في الفص الصدغي. أما قطب الحركة ، فينتمي إلى الفص الجبهي. هذان القطبان ينشطان في نصف المخ الأيسر ، كما يتم في هذين القطبين التمييز بين مناطق معالجة الأصوات والمعاني ، وبين التخطيط والانجاز ، وبين الانجاز الفهمي للكلام(زغبوش بنعيسى ، 2008).

الدماغ والازدواجية اللغوية: أثبتنا فيما سبق أن للطفل بصفة خاصة ، والراشد بصفة عامة ، القدرة على اكتساب أكثر من لغة واحدة والتحكم فيها ، وذلك بفضل ظاهرة المرونة العصبية ، وكذلك لوجود مناطق في الدماغ مسؤولة على تسيير اللغة. تساءل العديد من علماء الأعصاب المعرفيون ما إذا كان الدماغ يفرد لكل لغة تعلمها الشخص حيزا لها في إحدى المناطق المتخصصة في ذلك أم أن منطقة واحدة هي التي تتكفل بهذه العملية ؟

قبل الإجابة على هذا التساؤل تجدر الملاحظة إلى أنه ومنذ زمن بعيد ، المعلومات العلمية الوحيدة والدقيقة في هذا الموضوع تتعلق بالأشخاص الازدواجي اللغة والمصابين باضطرابات على مستوى الدماغ. حيث يشير (Palier et Argenti 2002) أن الأشخاص المصابين على مستوى الدماغ قد يفقدون لغة بدل لغة أخرى ، وقد تكون اللغة المفقودة هي اللغة الأم أو اللغة الثانية المكتسبة. ويستعيد المصاب وبصفة تدريجية لغته المفقودة كما هو الحال بالنسبة للمصابين الأحادي اللغة ، وهو ما يدل على أن اللغة المفقودة لا تنمحي تماما

من الذاكرة بل هناك ميكانيزمات و آليات تمنع اللغة من البروز واستعمال الشخص لها. فهناك من يستعمل لغة أياما معدودات ويفقدها ويستعمل بدلها لغة ثانية لأيام أخرى.

ولكن النتائج العلمية المستخلصة مما سبق لا تشرح بدقة كيف يتعامل الدماغ من اللغتين لأنها نتائج لم تستند إلى أسس و آليات علمية دقيقة.

وبعد ظهور التصوير العصبي ، ظهرت هناك بوادر الأمل في الوصول إلى الفهم الدقيق لما يجري في الدماغ من وقائع أثناء استعمال اللغتين وكذا الميكانيزمات التي يوفرها الدماغ لذلك.

يشير (Palier et Argenti 2002) إلى وجود اثني عشرة دراسة تناولت كيفية تعامل الدماغ مع اللغتين ، شملت هذه الدراسات أشخاص تعلموا اللغة الثانية بصفة مبكرة ، وآخرون على عكس ذلك ، تعلموا اللغة الثانية في سن متأخرة. من هؤلاء من يتقن اللغتين اتقانا تاما ومنهم من لم يكتمل إتقانه للغة الثانية. فهي تجربة أجريت على مزدوجي اللغة ، منهم من تعلموا اللغة في سن مبكرة ومنهم من لم يتعلموا اللغة في سن مبكرة(Kim et al. 1997) طلب منهم تذكر ما تم فعله في اليوم السبق ليوم التجربة ، فبواسطة جهاز الرنين المغناطيسي الوظيفي ، تم إثبات ، بوصف التنشيط العصبي ، أن منطقة بروكا هي المنطقة التي تم تنشيطها في كلتا الحالتين ، وقد تم تنشيط منطقة واحدة لكل لغة. غير أن المنطقتين المنشطتين في دماغ الأشخاص الذين يتقنون اللغتين ظهرتا غير متمايزتين ، أي أن التصوير العصبي أظهر منطقة واحدة منشطة في دماغ هؤلاء ، أما بالنسبة للفئة الثانية فقد أظهر التصوير العصبي تنشيط منطقتين متمايزتين على مستوى منطقة بروكا. مما يعني أن الإنسان الذي يتعلم لغة ثانية تتكفل بها منطقة مخالفة للمنطقة الأولى وبمرور الزمن ، وبالتحكم في اللغة الثانية ، تقترب المنطقتين و يظهر أن المنطقة الواحدة هي التي تتحكم في تسيير اللغتين. ففي محاضرة ألقاها الباحث (Palier 2012) أثبت فيها أن الأشخاص الذين يتعلمون اللغات بسهولة فائقة يمتلكون استعدادات بيولوجية تسمح لهم تعلم أكثر من لغة بسهولة. ففي تجربة أجراها على 70 شخصا بمعية زميلة له إيرانية ، تم فيها تعليم 70 شخصا فرنسيا مقاطع من اللغة الهندية. فبعد تصوير أدمغة هؤلاء بعد العملية ، تم ملاحظة أن العشر المتفوقين في تعلم تلك المقاطع لديهم القشرة السمعية في الجانب الأيسر من الباحة السمعية أكثر تطورا من نفس هذه الظاهرة لدى العشر المتأخرين. و قد تساءل إن كانت هذه الزيادة في حجم القشرة السمعية هي نتيجة لتعلم الشخص للغة الثانية ، وهو الموضوع الذي يبحث فيه حاليا. أثبت Palier في تجربة أخرى أن منطقة insulae القريبة من منطقة بروكا لدى الذين لا يجدون صعوبة في تقليد أصوات اللغات وتعليم لغات جديدة تكون فيها المادة البيضاء التي تشكل امتدادات الخلايا العصبية أكثر كثافة وتطورا. وهو ما يؤكد الرأي القائل بوجود استعداد بيولوجي لتعلم اللغات. لكنه لا يقطع بهذا الرأي لأنه يدرك أن المناطق العصبية يمكن استثارتها باستمرار وتطويرها والزيادة من حجمها باستخدام وسائل تعليمية ناجعة.

وفي دراسة أجريت على أشخاص من إيطاليا هاجروا إلى الولايات المتحدة ، أثبتت أن الأشخاص كلما تقدموا في السن ، كلما استعصى عليهم تعلم لغة ثانية أو جديدة ، و يعود السبب في ذلك إلى نقصان المرونة العصبية كلما ازداد الشخص في السن.

وقد أثبت Palier أن المرونة العصبية بإمكانها أن تمحي لغة أولى على حساب اللغة الثانية. فقد أخضع أدمغة أطفال كوريين فصلوا من محيطهم الكوري في السنة الثالثة بعد عملية تبنيهم من قبل أزواج فرنسيين. وبعد إسماعهم لكلمات كورية أثناء التصوير العصبي لم تنشط أي منطقة من مناطق الدماغ المتحكمة في اللغة ، وهو ما يدل على أن المرونة العصبية قامت بمحو كل ما من شأنه أن يحيل إلى شيء في الدماغ ، له علاقة باللغة الكورية.

انعكاسات الدراسات العصبية الازدواجية على ميدان التربية و التعليم: دراسات وأبحاث كثيرة ، بحثت فيما يجنيه الشخص من فوائد أثناء تعلمه لأكثر من لغة في حياته ، وبخاصة إذا تعلمها في سن مبكرة. ولا بد من التأكيد على الجانب البيولوجي لعملية تعلم لغة ثانية ، ذلك أن باحثين كنديين وسويديين وفرنسيين أثبتوا أن الازدواجية اللغوية تكمن في مكونات الخلايا العصبية (Mathieu, Robert, sauvé, 2011) . ففي مقال نشر في مجلة Nature review neuroscience أثبت باحثا كنديا أن الخاصية الازدواجية اللغوية للخلايا العصبية تكمن في "أن الخلايا العصبية تتبادل فيما بينها معلومات بواسطة النواقل العصبية ، وتقوم بإفراز جزئية تدعى Glutamate تسهل عملية التواصل بين الخلايا العصبية".

إذن ، فإذا عرفنا أن تعلم اللغة الثانية تدخل ضمن النشاط الطبيعي لخلايا الدماغ ، فان الفوائد التي يجنيها الإنسان من هذه الظاهرة كثيرة جدا و يصعب حصرها في هذا المقام.

ففي دراسة نشرت في مجلة The Journal of Neuroscience جاء فيها أن الراشدين الذين تعلموا أكثر من لغة في حياتهم يملكون مرونة معرفية كبيرة مقارنة بالأشخاص الأحاديي اللغة ، فقد تم قياس القدرات المعرفية لأشخاص تتراوح أعمارهم ما بين60 و68 سنة ، منهم الازدواجي أو المتعددي اللغات ، ومنهم الأحادي اللغة ؛ وكانت نتيجة ذلك أن ازدواجي اللغات لم يجدوا صعوبات في إيجاد حلول لتمارين تقيس القدرات المعرفية ، عكس الأشخاص الأحادي اللغة. و أثبتت أيضا هذه التجربة أن تعلم أكثر من لغة يقي من أمراض عصبية كمرض الزهايمر (Emilie, Cailleau,2013).

أثبتت دراسات عديدة أن الأطفال و الراشدين المزدوجي اللغة أنهم يتميزون بصحة ذهنية جيدة ، وبقدرات معرفية ولغوية تجاوزت في عديد الأحيان الأشخاص الأحادي اللغة. فالشخص المزدوج اللغة تتطور لديه الذاكرة العملية وتزداد قدرته على التفكير المجرد ، وتتحسن لديه المرونة المعرفية (Westley,2011). فالأطفال الذين يتعلمون لغتين مختلفتين في سن مبكرة (قبل عشر سنوات) تتطور لديهم وبسهولة خاصة القدرة على الإبداع والابتكار والفهم والاستيعاب السريعين للمفاهيم المجردة ، وتتحسن لديهم الذاكرة العملية.

ففي دراسة أجريت عام 2009 من قبل الباحث النفساني كوفاكس بالجامعة المجرية والباحث اللساني النفسي جاك ميهلر ، أثبتت أن الصبيان الذين احتكوا مبكرا بلغتين أظهروا قدرة بارعة على الانتباه والتوقع ، أكثر لدى الذين لم يحتكوا سوى بلغة واحدة. وأجريت تجارب كثيرة ببلدان عديدة كتلك التي أجريت بجامعة بار ايلان باسرائيل عام 2010 وتلك التي أجريت بمخبر بالولايات المتحدة عام 2008 و تلك التي أجريت بجامعة يورك بتورونتو بكندا ، أثبتت كلها أن الأطفال المزدوجي اللغة يطورون حسهم الإبداعي أكثر من الأطفال الأحادي اللغة ، وأن قدراتهم على القراءة تكون أحسن من الآخرين ، وكذلك بالنسبة للذاكرة القصيرة المدى. وحينما أجري تصوير عصبي على الفئتين من الأطفال لمعرفة الذي يميزهما من حيث تطور المناطق

المخية ، لوحظ أن المناطق المتحكمة في اللغة تتطور بنفس الأسلوب ، إلا أن القشرة الجبهية السفلى تبدو أكثر نشاطا لدى الأطفال المزدوجي اللغة منه عند الأطفال الأحادي اللغة ، و بخاصة أثناء عملية القراءة.

أما لدى الكبار والراشدين ، فقد أثبتت تجارب عديدة أن تعلم أكثر من لغة واحدة يساهم في الحفاظ على صحة المعرفية و الذهنية لمدة أطول ، مقارنة بالذين لا يعرفون سوى لغة واحدة. ففي تجربة أجريت على مجموعة من الراشدين أصيبوا بمرض الزهايمر (Westley 2010) بجامعة يورك بطورونطو ، تم الوصول الى أن الأشخاص المزدوجي اللغة تأخروا لسنوات عدة قبل أن يصابوا بالمرض ، مقارنة بالذين يتكلمون لغة واحدة فقط. وهذا يدل على أن الازدواجية تلعب دورا لا يستهان به في تأخر أو تجنب الجنون والأمراض المماثلة.

خلاصة:

انطلاقا مما سبق قوله ، نعتبر أنه لا يوجد أفضل من سياسة لغوية حكيمة تقوم الدولة الجزائرية بإتباعها من أجل أن نستثمر استثمارا سويا وذا فائدة للتعدد اللغوي في الجزائر على اعتبار التعدد اللغوي هو في حد ذاته نعمة من الله وإحدى آيات الله في الكون كما جاء في قوله تعالى: (وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ) [الروم ، 22].

قائمة المراجع

-بوكرمة ، ف.ز و بلخير. ع(2013). المرونة العصبية وتعلم اللغة عند الطفل. مداخلة قدمت بالمؤتمر الدولي الثاني حول الاستراتيجيات الحديثة لتربية وتعليم الطفل لقسم التربية والدراسات الإنسانية بكلية العلوم والآداب بجامعة نزوى بسلطنة عمان. 28 يناير 2013

-Cailleau , E. (2013). Etre bilingue entretient le cerveau. Dans Magazine top santé.com. repéré à http://www.topsante.com/sante-au-quotidien/Actus/Etre-bilingue-entretient-le-cerveau

-CEASaclay (2010). Dans le labyrinthe du cerveau.[vidéo en ligne] . repéré à http://www.youtube.com/watch?v=CD9yEaW4AEk

-Dalgalian, G. (2010, 29 mai). Qu'apporte l'apprentissage précoce d'une langue? Assemblée Générale d'ELTERN Alsace. Repéré à ; www.eltern-bilinguisme.org/pdf/Conference_G.%20Dalgalian_29_05%2010.pdf

-Karmiloff, A. & Smith, K. (2011) comment s'acquiert le langage, dans J.F Dortier (dir), le cerveau et la pensée (p300.308).Auxerre : Editions sciences humaines.

-Pallier C, Argenti, A. M. (2003). Imagerie cérébrale du bilinguisme. Dans. Olivier Etard and Nathalie Tzourio-Mazoyer, editors, *Cerveau et Langage. Traité de Sciences Cognitives*. Hermès Science, Paris.

-Pallier C, & Argenti. A.M. (2003) imagerie cérébrale du cerveau bilingue, cerveau et langage. 183.189

-Petitto, L. A. & Dunbar, K. N. (2013). Educational Neuroscience: New Discoveries from Bilingual Brains, Scientific Brains, and the Educated Mind. consulté le 08 février 2013 à http://www.ncbi.nlm.nih.gov/pmc/articles/PMC3338206/

-Sauvé, M.R. (2011). Nos neurones sont bilingues! Dans UdeMNouvelles. Repéré à http://www.nouvelles.umontreal.ca/recherche/sciences-de-la-sante/20110418-nos-neurones-sont-bilingues.html

-Westly, E.(2009).Enfants bilingues, un avantage indéniable. Dans cerveau et psycho (Revue de neuropsychologie. N°48 (Volume 1). 82 pages. Editeur : John Libbey Eurotext. DOI 10.3917/rne.014.0277

مسألة التنوع الثقافي في برامج التاريخ المدرسي

cultural diversity in the history of school curricula

أ. صفاء جداري
مختبر البحث في علوم التربية والعلوم الإنسانية واللغات
جامعة محمد الخامس- المدرسة العليا للأساتذة بالرباط

-تقديم

يتعزز اليوم أكثر من أي وقت مضى، شعور بضرورة دفع الحوار بين الشعوب و الثقافات نحو تحقيق الأهداف الإنسانية، فلا يمكن تصور أي تعاون بناء أو أي حوار حقيقي بين الحضارات والثقافات دون الإقرار بمبدأ التنوع الثقافي."فلا بديل عن التربية على الحوار و احترام التنوع الثقافي و صونه باعتباره سبيلا للتعايش بين بني البشر، و التأسيس لمستقبل مشترك أكثر اطمئنانا و تضامنا. (العجال طارق، 2018)

وإذا رجعنا إلى الميثاق الوطني للتربية والتكوين كوثيقة مرجعية تحدد التوجهات العامة للمنظومة التربوية المغربية ، نجده يركز على الارتباط الوثيق بين النظام التربوي والتراث الحضاري والثقافي للبلاد، وهكذا نقرأ: "يتأصل النظام التربوي في التراث الحضاري والثقافي للبلاد بتنوع روافده الجهوية المتفاعلة والمتكاملة، ويستهدف حفظ هذا التراث وتجديده وضمان الإشعاع المتواصل به لما يحمله من قيم ثقافية وتحقيقا لهذا المرتكز الأساسي، فإن الميثاق يوصي أيضا بضرورة انفتاح المدرسة على الآفاق الإبداعية وتشجيع العلم والثقافة والإبداع، خصوصا في المجالات ذات البعد الاستراتيجي. وهذا كله، بهدف تكوين المواطن الشغوف بطلب العلم والمعرفة في أرحب آفاقهما والمتوقد للاطلاع والإبداع.

ومع كل هذه الإقرارات، ينبغي الإشارة إلى أن الكتب المدرسية هي مطالبة بأن تعيد النظر في إدماج مسألة التنوع الثقافي وبشكل متوازن لكل روافد الثقافة المغربية. وإذا كانت مثلا الثقافة الأمازيغية قد عرفت تطورا ضمن هذا التوجه، فإن المكون أو البعد الإفريقي اليهودي ظل في مناهج تدريس التاريخ وبالخصوص في الكتب المدرسية أمرا باهتا يشكل فقط الأقلية وليس هناك أي استحضار للتفاعل الحضاري بين الثقافات المبنية على التكامل والتعايش والتسامح، وهذه العناصر كلها تحتاج إلى استثمار ديداكتيكي فعال، فاليهود شكلوا دائما أحد العناصر الأساسية في المجتمع المغربي ولم يكن العنصر اليهودي ليغيب عن مختلف المناطق المغربية في المدن والقرى ، وفي مختلف الحقب التاريخية.

تمثل التوطئة النظرية الواردة أعلاه في تصورنا مسوغا إبستيمولوجيا لفكرة إنجاز هذه الورقة البحثية التي سنحاول من خلالها إثارة بعض القضايا المتصلة بمدى حضور البعد أو المكون اليهودي في الكتب لمادة التاريخ والتساؤل الذي يطرح نفسه هنا هو لماذا ظل العنصر اليهودي في هذه الكتب يشكل فقط الأقلية؟ وكيف يمكننا خلق وعي جماعي يستحضر الذاكرة الجماعية من خلال كتب التاريخ المدرسية؟ إلى أي حد يمكن مراجعة المناهج التربوية من خلال استحضار الأقليات ضمن مادة التاريخ؟

1.الأقليات اليهودية ضمن الكتب المدرسية لمادة التاريخ :كثيرا ما يقف التاريخ في طرف محايد أمام بعض القضايا التي تشكل تهديدا على استقرار الجماعة، فحسب الباحثة (Cottias meryam) فالتاريخ في بعض

الأحيان يتحاشى الحديث عن بعض القضايا التي تشوه صورة الآخر ، مثل الاستعمار والاستعباد ، (Cottias ، 2007) وفي نفس الإطار يبرز مشكل الأقليات داخل الجماعة ،خاصة في الحالات التي تتعرض فيها هذه الأقليات للإقصاء أو الإبادة ، كما حدث مثلا في ألمانيا إبان الحرب العالمية الثانية.

وفي دراسة قام بها (fritzsche) حول الطريقة التي تقدم بها الكتب المدرسية للتاريخ "الأقليات" ، أبرز أن هذه الأخيرة غالبا ما تكون ضحية للإجحاف في الكتب المدرسية. (Gasanabo ، 2004) وعندما يتعلق الأمر بالكتب المدرسية لمادة التاريخ بالمغرب يتضح جليا بأن هذه الكتب لها تصور خاص حول "ذاكرة الأقليات فهي دائما ما تبحث في كل ما هو مشترك ، و كل ما من شأنه أن يبرز الاختلاف بين مكونات المجتمع المغربي. فالإقرار بالاختلاف في سبيل المشترك هو سمة التصور الذي تقدمه الكتب المدرسية للتاريخ. لكن تجدر الإشارة هنا إلى أن ذاكرة الأقلية اليهودية يتم التعامل معها بطريقة إقصائية وتهميشية أحيانا. وهي تقدم بطريقة سلبية للناشئة المتعلمة بارتباطها بموضوع "القضية الفلسطينية المدرجة في الكتب المدرسية لمادة التاريخ ، وما يحمله ذلك من تصورات إيديولوجية بالنسبة للناشئة وهو الأمر سيساهم لا محالة في تكوين تصورات وتمثلات سلبية عن الأقلية اليهودية لدى هؤلاء المتعلمين ، رغم أنها تعد أحد مكونات الهوية المغربية المشتركة.

2.الدرس التاريخي و مسألة التعدد الثقافي: يعتبر التنوع الثقافي داخل المجال التربوي التعليمي وخاصة في مادة التاريخ عائقا تواصليا نظرا لما يقدمه للمتعلمين من تصورات خاطئة أو مبهمة لمجموعة من القضايا وفي مواضيع مختلفة وبحسب انتماءاتهم الثقافية ، مما يؤدي إلى تشويه المعرفة وخلق فجوة بين المعرفة المقدمة في الفصل الدراسي والمعرفة المرسخة في أذهان المتعلمين ، فيحصل بذلك خلل أو تضاد معرفي. ولتدريس التاريخ في مناخ متنوع ثقافيا ، يتعين على المدرس هنا الأخذ بعين الاعتبار أمر الاختلاف وبالشكل الايجابي ، وأن يتخلص من قيود الوطنية.

وهكذا فإن تدريس التاريخ يجب أن يستثمر هذا الاختلاف لمعرفة الأخر لا عن طريق النقل الديداكتيكي التقليدي للمعرفة التاريخية ، وإنما عن طريق خلق وفتح قنوات الحوار والتسامح والانفتاح عن الأخر. وهذا لا يمكن أن يتم وبحسب الباحث مصطفى الحسني الإدريسي إلا عبر تجديد دماء درس التاريخ و تمرن التلاميذ على منهجية التفكير التاريخي مما يسهل عملية تقبل الأخر وتفادي مسألة الأقليات الثقافية التي توظف في التاريخ فقط للحفاظ على الهوية والوجود وذلك وفق آليتين وهما الهجوم والدفاع. (Idrissi, 2006)

3.الذاكرة اليهودية في التاريخ المدرسي: إذا كانت الذاكرة تشتغل بوصفها مصفاة فإنها سوف لن تكون تسجيلا أو تدوينا بسيطا ونقلا مسترسلا للأحداث ، بل إنها تملك دائما طابعا ترميميا أو إعادة بناء: إن الذاكرة ليست تسجيلا أكثر أو أقلّ وفاء ، ولكنها إعادة كتابة. لقد تمّ تشييدها بواسطة وعبر النصوص التي جعلتها تتكلم وعبر العديد من عمليات إعادة الكتابة التي تحوّل باستمرار الحدود الثابتة بين ما يبدو أنه يستحق التذكّر وبين ما هو خامد يقتصر على النسيان. داخل هذه السيرورة يحدث شيئًا استثنائيا ؛ فكل سرد جديد يعتمد على التذكّر ينضاف للقديم ، فيصبح جزءا بنيويا من الحدث نفسه وهو ما يجعلنا نستنتج أن الذاكرة تشتغل بطريقة غير خطّية أي عبر انزياحات تربط بين الواقعة والتذكّر.

وفي هذا السياق يميز روبير مارتينو (Robert Martineau) بين الذاكرة الجماعية والذاكرة التاريخية حيث يعتبر الماضي حاضرا دائما في حياتنا اليومية ، فهو كل ما نحسه و نعرفه ونتذكره عن ماضينا الخاص أو العام والذي يكون منتشرا في مجتمعنا بطرق مختلفة.(Laville, 1998) وهو ما يراه أيضا المؤرخ الفرنسي بيير نورا الذي اعتبر بأن استحضارات واستشهادات الماضي تتغذى من مصدرين أساسين هما: الذاكرة الجماعية والذاكرة التاريخية(Laville C. , 2001)

الذاكرة الجماعية في الواقع هي ما يخلف عن الماضي بمعيش الجماعات أو ما تفعل هذه الأخيرة بهذا الماضي ، لذا فالذاكرة الجماعية تكون بدون حدود وغامضة أحيانا ، وقد وصفها بيير نورا بالذكرى أو مجموع الذكريات الواعية أو الغير الواعية بالتجربة المعيشية ، التي تم إنتاجها من طرف جماعة ، والتي تكون فيها الهوية مشبعة بانطباع الماضي, كالتجارب الشخصية أو التي نقلت عن طريق التقليد ، والتي تمت المحافظة عليها بواسطة المؤسسات والعادات وكتب التاريخ إنها: ذاكرة الأمم ، الأسر ، والأحزاب السياسية... فهي الواقع الذي لا بديل لنا عنه ، بحيث نجدها ترتبط بقوة بمعيش الجماعات ، لكن هذا الارتباط بالماضي هو تطعيم في حد ذاته لمصدر آخر هو الذاكرة التاريخية التي هي ثمرة لتقليد علمي أي تحليل نقدي للأحداث بكيفية محددة وواضحة مستندة إلى حجج داحضة.

ويرى المؤرخ الفرنسي جاك لوغوف (Jacques Le Goff) بأن قيمة التاريخ تكمن أساسا في نهجه لتفسير الحقائق الاجتماعية وعن طريق الزمن. فكل واحد منا يستخدم هذين المصدرين (الصحافيين ، السينمائيين والسياسيين والمؤرخين...) إن تدريس التاريخ ، معناه جعل المتعلمين قادرين على التمييز بين هذين المصدرين ومعرفة قيمة وأسس كل صنف في بناء آرائهم وتشكيل تصوراتهم وخصوصا تطوير قدراتهم على التفكير بماضيهم ، بدل استظهاره وكما جاء ذلك على حد تعبير أندري سيكال(Ségal, 1990) فمعنى تدريس التاريخ هو ولوج العقل داخل الذاكرة". وعلى الرغم من ذلك فإن الذاكرة اليهودية سرعان ما أخذت تطفو على السطح. ويمكن اعتبار التسعينيات من القرن العشرين فترة إعادة تموقع الذاكرات. ففي سنة 1990 صدر قانون (Gayssot) الذي يجرم نفي المحرقة. والحقيقة أنه اعتراف ضمني بالذاكرة اليهودية ، وحدث في نفس الفترة حدث مهم في موقف الدولة الفرنسية فيمل يخص الإبادة التي تعرض لها اليهود (الحزيبي ، 2017).

4.كتب التاريخ و تثبيت الهوية الوطنية: إن رصد حلقات تطور الجماعات اليهودية في مرحلة حاسمة من التاريخ المغربي المعاصر ، عملية تساهم في كتابة فصل من التاريخ الشامل (Histoire globale) بحسب تعبير مدرسة الحوليات الفرنسية (Les Annales). (فمن خلال كتابة تاريخ هذه الشريحة الاجتماعية ، نسلط الضوء على مكون أساسي من الثقافة المغربية و لاسيما في بعدها الاجتماعي والثقافي. خاصة وأننا نجد في كتب مادة التاريخ المغربية ، اهتماما بالتماسك الوطني, إذ يقدم هنا المجال الوطني بطريقة منسجمة تتجاوز كل التناقضات الاجتماعية حيث امتداد المجال الوطني ووحدته يظل مرتبطا بالاستقرار السياسي والخضوع للسلطة الدولة. فالكتب تنقل دوما التاريخ الوطني كتمجيد للتاريخ الرسمي أي الدولة وليس كبعد اجتماعي وثقافي.

5.العنصر اليهودي و مسالة التهميش: تندرج النخب اليهودية المغربية في خانة التوصيف الذي أدرجه الكاتب اليهودي التونسي ألبير ميمي(Memi, 1967) وهو "المستعمَرين الذين يقبلون بوضعهم كمستعمَرين.

(Martin, 1983) أو باستحضار البعد الهوياتي للمغرب اعتبر علال الفاسي بأن الجماعات اليهودية المغربية هي أحد مكونات الشعب المغربي إلى جانب العرب والأمازيغ والأفارقة، ورأى أيضا أنه "حينما نعود بهذه العناصر إلى أصولها، نجد أن العرب والبربر والإسرائيليين كلهم عنصر واحد..."(الفاسي، 1955)، و في مستوى آخر وتحديدا الجانب التربوي نجد أندري سيغال يؤكد على أهمية "تدريس الاختلاف عبر درس التاريخ (Ségal, Enseigner la différence par l histoire, 1984) وهو الشيء الذي لا تزال في برامج التاريخ المغربية الحالية باهتا وقاصرا في استيعابه، إذ أن منطق العرض الكرونولوجي للأحداث ظل يركز على التاريخ الحدثي (Histoire évènementielle) السياسي ويغفل التاريخ الاجتماعي والتاريخ العلائقي الذي يتعلق بتاريخ الأخر مهيمنا على مقاربتها وتناولها للحدث التاريخي سواء تعلق الأمر بتاريخ الأنا أو تاريخ الآخر.

ويظل المكون اليهودي مكونا أساسيا في المغرب، و هو في ذلك لا يقل أهمية عن بقية العناصر الأخرى. وفي رأي العديد من الباحثين لا يكتمل التأريخ للتراث المغربي إلا بإدراج هذا العنصر اليهودي، والاعتراف به. ولهذا فاختزال الثقافة المغربية في المكون العربي فقط يُعتبر إجحافا في حق الثقافة المغربية الغنية بروافدها كما ينص على ذلك الدستور الأخير لسنة 2011. وقد يبقى هذا الإقرار بغنى الثقافة المغربية حبرا على ورق إذا ما لم نبادر إلى تحقيقه على أرض الواقع، من خلال مقاومة كل أشكال العنصرية والإقصاء، ورد الاعتبار للمكون اليهودي في الثقافة المغربية وعبر درس التاريخ تحديدا وارتباطا بهذه الفكرة الأخيرة لدرس التاريخ لابد من الإدلاء ببعض الملاحظات التي حاولنا الاستضاءة بها في هذا الموضوع نعرض لها كما يلي:

- غياب استحضار الهوية المغربية التي تتشكل من مجموعة من الروافد الثقافية المتنوعة.

-هيمنة الخطاب الديني وبروز الديانات السماوية القديمة في التاريخ و إقصاء العناصر الاجتماعية والسياسية اليهودية في كتب التاريخ.

-ضعف المعطيات التاريخية لمكون اليهود عبر الحقب التاريخية المنزلة في الكتب المدرسية.

قائمة المراجع:

-بوشتى الحزيبي. (2017). *التاريخ، الذاكرة و الهوية*. الرباط : كلية علوم التربية.

-طارق العجال. (28 01, 2018). *صوت الحكمة*. تاريخ الاسترداد 28 6, 2019، من http://www.oic-cdpu.org/ar/home/: http://www.oic-cdpu.org/ar/topic/?tID=4684

-علال الفاسي. (1955). *محاضرات في المغرب العربي منذ الحرب العالمية الأولى*. القاهرة: جامعة الدول العربية، معهد الدراسات العربية العليا.

-Cottias, M. (2007, 11 1). *Revues et ouvrages en sciences humaines et sociales*. Consulté le 6 27, 2019, sur https://www.cairn.info: https://www.cairn.info/revue-cites-2006-1-page-178.htm

-Gasanabo, j.-D. (2004). *Mémoires et histoire scolaire: le cas du Rwanda de 1962 à 1994*. Genève: Université de Genève.

-Idrissi, M. H. (2006). *La didactique de l'histoire au Maroc Genèse d'une discipline éducative* .

-Laville, C. (2001). *La recherche empirique en éducation historique, mise en perspective et orientations actuelles*.

-Laville, R. M. (1998). *L'histoire : voie royale vers la citoyenneté ?*.

-Martin, G. B. (1983). *Les écoles historique*. paris: Seuil.

-Memi, A. (1967). *Portrait du colonisé*. paris: Gallimard.

-Ségal, A. (1984). *Enseigner la différence par l histoire*. Sant bergen: numéro Special Edition of Cahiers de Clio.

-Ségal, A. (1990). *L'éducation par l'histoire*. Québec: Institut Québécois de la Recherche (IQRC), .

الآليات الإجرائية المعرفية في تعليمية اللغة العربية لغير الناطقين بها

Mechanisms of cognitive procedures in teaching Arabic to non-native speakers

د:زهرة عميري جامعة بومرداس- الجزائر

إن الشخص الذي لا ينطق لغة ما ، يكون خالي الذهن بالنسبة لمخزون اللغة التي يريد تعلمها في جميع مستويات اللغة. المستوى الصوتي. المستوى المفرداتي. المستوى التركيبي.

والسؤال الذي نوّد طرحه هنا ، **هل المستوى التأويلي القائم على التمثلات الذهنية للأشياء يسهم في تعلم أو اكتساب لغة ما** ويكون ذلك بالاعتماد على طرق التواصل اللفظي وغير اللفظي ، وهذه معطيات تدخل في الدرس **التداولي المعرفي**.

نحاول في هذه المداخلة استنطاق هذه العناصر المعرفية ، وذلك بتوضيح علاقة **الكتابة بالرسم**، باعتبارها نقلا للمحيط الطبيعي المشترك بين **الناطقين للغة العربية وغير الناطقين بها** ، بإبراز الأبعاد المعرفية المشتركة في ذهن المتعلم للغة والمعلم **ديداكتكيا.**

فالشجرة arbre المصطلح بالانجليزية وبالفرنسية. هذه المفردة لها الشكل نفسه واللون نفسه والمحيط الطبيعي نفسه أيضا ، فهي مؤهلات ذهنية مسبقة تقرب الحسي الملموس للغة ، إلى الجانب الغائب المتمثل في مجال النطق بالنسبة للغة المراد تعلمها (اللغة العربية)، كلغة الأشكال ، الألوان ، الفهم اللغوي.

ومنه لابد أن تكون المصطلحات في مجال التعليمية مشتركة بين **المتعلم والمعلم** باكتساب المفردة في المرحلة التعليمية الأولى ثم ننتقل إلى مرحلة عملية التفكيك لكل لفظة إلى حروفها مستقلة **مثلا شجرة ش / ج / ر / ة.**

ثم نحاول في المرحلة الموالية ربط كل حرف بشكل معين ، بالبحث عن شكل من الأشكال المحيطة بها ، حيث تمثل مقاربة تمثلية ذهنية لشكل معين معروف في مستوى مدركات المتعلم والمعلم في الآن نفسه ، سواءً أدوات الحلاقة كالمشط ، أشكال الحيوانات ، أشكال النباتات ، مثلا حرف **الجيم** له علاقة بشكل نوعٍ من **أنواع الطيور** ، وحرف **الراء** له علاقة **بالغصن الأصلي للزهرة**. **التاء المربوطة** وهو حرف يمثل بدوره **شكلا دائريا** يشبه **تويج الزهرة** ، وهكذا بقية الحروف الأبجدية.

ثم ننتقل إلى مرحلة أخرى ، تقنية الاستماع لنطق المتعلم بتتبع حركة الشفاه les mimiques ، إلى جانب طرق الترجمة الفورية من خلال عمليات الاستقراء الذهني المفردة والتراكيب.

نحاول في هذه المداخلة توضيح الاختبارات الخاصة بالاستماع ، التحدث ، القراءة ، الكتابة ، من خلال المتعلم الذي يريد تعلم لغة ما لا ينطقها ، ويكون ذلك بدراسة ميدانية **لروائز الذكاء، وطرق الإدراك والتذكر** باستخدام **القوالب الفودورية**، انطلاقا من كتاب FODOR, modularité de l'esprit.

وباستثمار الكتب الخاصة في علم **النفس اللغوي وعلم الاجتماع**، كمناهج البحث في العلوم النفسية والتربوية.

بتوضيح **الإحصائيات** المتوصل إليها وتحليلها ، ويكون ذلك بربط عملية الاستقراء الذهني المفردة والتراكيب بأساليب التفكير ، كالتركيز على **التفكير التركيبي** عند دراسة مستوى التراكيب في التعلم.

قام فودور FODOR من منطلق معرفي بمعالجة عمليات الذهن من خلال نظريته القالبية. (Fodor , j .A. 1986) فالذهن يتكون من ثلاثة أصناف النواقل (Transducteurs) والقوالب (Modules) والأنظمة المركزية (Systèmes centraux) ويتفرع عنها النظام المداري. والنظام المركزي المتخصص والنظام المركزي غير المتخصص.

فالذهن حسب النظرية الفودورية القالبية يتكون بالتحديد من نوعين من الأنظمة. (Lucien Sfez 1992)

1- الأنظمة المدارية المتخصصة في معالجة نوع خاص من العلامات تشتمل ستة قوالب: **الحسي، الإدراكي، السمع البصري**، اللمس، الشم ، **اللغة** (Fodor , j .A. 1986) وهي أنظمة متماسكة ولا يهمها المعلومات الآتية من أنظمة معرفية أخرى.

2- الأنظمة المركزية: تعمل على معالجة المعلومات الآتية من مختلف الأنظمة المدارية ، وتعمل على معالجتها ومراقبة انسجامها من خلال عمليات استنتاجية (Fodor , j .A. 1986).

ننطلق في هذه المداخلة من الأنظمة المدارية المتخصصة بالتركيز على القالب الحسي ، والإدراكي ، السمع البصري واللغة. إذ يتولى الدماغ تنظيم المجال الحسي في الإنسان ، فلا يمكن ترك الإحساسات في صورة غير منتظمة وهذا التنظيم يشمل المناطق الإرتباطية في المجموعة العصبية (مصطفى غالب 2000) للطرف المتعلّم ، وعلى هذا الأساس فإن تطور علم الدلالات من جهته فرض على الدارسين اعتبار عدد كبير من المعطيات اللغوية الجديدة ، وطرح قضايا معرفية ونظرية جديدة أدّت بدورها إلى وضع إطار معرفي يجيب عن كل التساؤلات الجديدة. وهذا الإطار هو البراغماتية. يتمثل هذا الإطار في دراسة كل المعطيات اللغوية والخطابية المتعلقة بالتلفظ" (عثمان بن طالب 1986).

لكن اكتساب لغة ما لا ينحصر في الملفوظات بل يتجاوزها إلى التراكيب ، والسؤال الذي نودّ طرحه في هذا الإطار إذا كانت الاختبارات الخاصة بالملفوظات ترتبط في بدايات التعلّم بالألفاظ التي تحمل دلالات مشتركة بين المعلم والمتعلّم كما رأينا. **فما هي أنواع الاختبارات الإجرائية الخاصة بالتراكيب عند اكتساب لغة ما** ؟ رغم أن عالم الرياضيات والدراسات المنطقية يكون في المستويات الذهنية المجردة ، واللغة تمثل محيطا اجتماعيا ينبض بالحياة إلاّ أنه يمكننا استثمار هذه الآليات التجريدية في خدمة الجوانب المادية في اللغة المجردة.

1.الاختبار الرياضي: يحاول المعلّم في هذه المرحلة التركيز على الملفوظات المكتسبة من خلال الاختبار الأساسي الأولي ، ثم ينتقل إلى الملفوظات الدالة على الروابط اللغوية.

مثلا: علاقة (و) بـ et ، بـ and .

علاقة (أو) بـ ou ، بـ or . على سبيل المثال لا الحصر قبل التطرق إلى نوعية الرابط ، لابدّ من مرحلة تعليمية سابقة ترتبط بالدلالات أيضا.

نجد العلاقة الدلالية بين الحروف و ، et، and واحدة في ذهن المتعلم باختلاف البيئة عربية ، فرنسية ، انجليزية وتتمثل في **الجمع.** كما أن العلاقة الدلالية بين أو ، ou، or تدل في اللغات الثلاث على دلالة الاختيار.

فما هي أنواع الاختبارات المستعملة لتعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها ؟ وأيُّ الفرضيات التي يمكننا الانطلاق منها في العملية التعليمية ؟ للإجابة على هذه التساؤلات نجد أنفسنا أمام قضايا معرفية محورها الأساسي **عملية التلفظ** في حد ذاتها. رغم أنّ اللغة تمثل ممارسة واستعمال تجمع التلفظ بالملفوظ. فتكون هذه الثنائية قطبا أساسيا في تحقيق عملية التعلّم ، باعتبار الملفوظ نتيجة لمراحل سابقة تتعلق بالجهاز الصوتي للمتعلم ، أي دراسة المستوى الصوتي وعلاقته بالبعد الذهني ، من خلال تقريب المفاهيم للمتعلم وإن اختلفت بيئته عن البيئة التي تنتمي إليها اللغة المراد تعلّمها أو اكتسابها ، وهذا ما يقودنا إلى الطرح الآتي.

كيف يمكننا استنطاق المفاهيم والدلالات المتضمنة في الملفوظات في اللغة العربية ؟

رغم أن الملفوظات هي نتيجة أو مرحلة موالية للنطق بالنسبة للمتعلّم. إلاّ أن المعلّم الذي يتقن اللغة العربية يحمل ركاما معرفيا للعلاقات الجاهزة في ذهنه بين الدال والمدلول حسب المفهوم الدسوسوري ، لكنه في العملية التعليمية الديداكتيكية didactique يراعي المحيط المعرفي كما تسميه "ولسن" حسب نظرية الملاءمة ، ليربط العلاقة بينه وبين المتعلم ما دامت المفاهيم تمثل قاسما مشتركا بين الطرفين من خلال الاستعمال بمراعاة السياق ، وبهذا تصبح الدلالات تمثل الأرضية الأساسية التي منطلق منها في عملية اكتساب لغة ما. رغم أنها تمثل مراحل موالية في قضايا التأويل للملفوظات بربطها بالسياق ، لكنها تمثل قطب الرحى الأساسي والأولي في العملية التعليمية لتقريب المفاهيم ، بالتطرق إلى كل **المعطيات التمهيدية للغة** المراد تعلمها بموازاة مع **المعطيات التمهيدية البيئية** ، وهذا يستلزم عملية إجرائية سابقة تتمثل في توصيل الدلالتين إلى المتعلم **دلالة الجمع ودلالة الاختيار**، رغم أنّهما يمثلان ملفوظات مجرّدة لأن التراكيب تجمع بين الجوانب التجريدية والجوانب المادية للمعطيات اللغوية في لغة ما.

لكن المعلّم ينطلق في العملية التعليمية من آلية تقريبية تعطي المفهوم التجريدي لمسة مادية ، بإعطاء أمثلة:

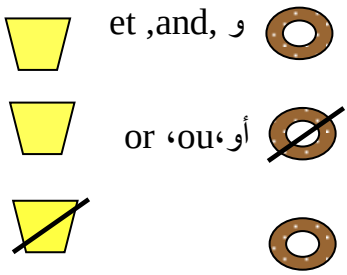
- أكلت الحلوى وشربت العصير.
- نضع علامة (+) عند الجمع.
- أكلت الحلوى أو شربت العصير.

نضع علامتي (+) (-) باختزال أحدهما في موضعين مختلفين:

تتجلى عملية الاختيار بهذا الرمز الرياضي إذا كان المتعلم يحمل مستوى معينا ،أمّا بالنسبة للمتعلم المبتدئ ،فنلجأ إلى طرق الاستعمال المادية الأساسية في اللغة أي المرحلة الاختيارية الأولى كما يأتي.

1- (-) (+)

2- (-) (+)



نجد هذه الرسومات ترتبط أيضا بالقواسم المشتركة للمحيط المعرفي الذهني للمتعلم والمعلّم ، وهذا ما يوضح أهمية المضامين والدلالات في المراحل الأولى من عملية الاكتساب اللغوي.

كما أن الرسومات تمثل عملية انعكاس واضحة للتمثلات الذهنية représentations cognitives.

وهذا ما نوضحه من خلال الاختبارات التي تبين أن عملية التعلم تكون انطلاقا من التمثلات الذهنية باعتبارها **البديل التواصلي** الناجح ، وتجلى ذلك من خلال جهود واضحة في عملية رسم الحروف قبل كتباتها.

❖ méthode ⟶ dessiner les lettres avant l'écriture.

ويكون ذلك بالتركيز على **عملية الاختبار** الخاصة بالذكاء ، نرسم **زهرة**  ثم نرسم **حرف الواو**.

ونطلب من المتعلم استخراج العناصر الزائدة في الزهرة ، فتكون الإجابة:



يستلزم أن رسم الواو موجود داخل الزهرة ، وهي تمثل عنصرا معرفيا بيئيا مشتركا في الاستعمال في الواقع والمحيط حسب الدرس المعرفي ، من خلال نظرية الملاءمة عند سبيربرSPERBER وولسن WILSON قبل الاستعمال اللغوي زهرة ، Fleur , Flower ، وتسمى هذه العلاقة التي **يستنتجها** المتعلم من خلال الإجابة **علاقة احتواء** بين أوراق الزهرة والساق والتويج.

ولا بأس من تقديم نماذج وأمثلة حول هذه الجهود الدالة على عملية الربط بين الرسم الطبيعي للنبات أو الحيوان أو الأشياء عموما ، والرسم الحرفي في اللغة العربية من خلال **عمليات التمثل الذهنية** الدالة على **آليات التشغيل في الدماغ** في كالإدراك والذكاء وهي جهود قدمها المركز الوطني لتكوين المستخدمين المختصين بمؤسسات المعوقين.

نسجل أمثلة لتقريب هذه النماذج من الاختبارات التي حاولنا استثمارها ، لتحديد **الاختبار الرياضي** من خلال علاقات الموجب (+) ، السالب (-) وعلاقة الاحتواء كما ذكرنا.

اختبار تنسيقي بين أستاذ الرسم وأساتذة اللغات: إن المتعلم يميل إلى عنصر التشييئ في عملية الفهم ، وحتى تسهل عملية تمثل الصوت في الذهن تكون إجراءات وآليات الربط والتنسيق بين أستاذ الرسم وأستاذ اللغة الإنجليزية مثلا إذا كان لغة المتعلم الأصلية إنجليزية ، ثم تليها مباشرة حصة اللغة العربية (اللغة المراد تعلمها) ، ويكون ذلك بطريقة تدريجية ، وتكون العملية الإجرائية نفسها مهما اختلفت اللغة الأصلية للمتعلم. ويكون المحور المدروس نفسه كأن ينطلق أستاذ الرسم في المرحلة الأولى برسم تشكيلي طبيعي أولي لشكل من الأشكال كأن تكون زهرة مثلا ، ثم ينطلق إلى الرسم التخطيطي الأقرب إلى الخط المكتوب تدريجيا ، ثم يليه أستاذ اللغة الأصلية بعرض فقرة مكتوبة حول المحور نفسه مما تتشكل الزهرة ، عملية سقيها ، ضرورة الحفاظ عليها وهكذا يمتلك المتعلم قاموسا معرفيا متنوعا لمجموعة من الألفاظ التي فهم معناها طالما أن العملية التعليمية عُرضت باللغة الأصلية للمتعلم ، **ثم نأتي إلى اللغة المراد تعلمها** وتكون في المرحلة الأخيرة بعد استيعاب المتعلم كل ما يتعلق بمحور الموضوع حتى تسهل عملية التمثل في ذهنه ، بالتركيز على العناصر نفسها التي تناولها أستاذ اللغة الأصلية (الزهرة ، مما تتشكل الزهرة ، عملية السقي ، عملية الحفاظ عليها). وهذا يدخل فيما يسمى **بالترجمة المكتوبة** فيكون البرنامج المقرر يتشكل من نصوص باللغة الأصلية للمتعلم ويقابلها النص نفسه باللغة العربية فتكون عملية التنسيق سهلة وفورية.

وفي الحصة الموالية ، تكون **الترجمة منطوقة** عن طريق عرض قصة من قبل أستاذ اللغة الأصلية في المحور نفسه (الزهرة) ثم يليه أستاذ اللغة المراد تعلّمها ، مع التركيز ولفت انتباه المتلقّي إلى حركات الشفاه إذا كان الحرف شفويا أو أن يضع المعلم يده على مراكز النطق كالحلق فيتجسد الحرف عند المتعلم بإعادة وضع أصابعهم في المكان نفسه مع تكرار النطق لهذا الحرف أو ما يسمى (Les mimiques) خاصة بالنسبة للغة العربية فلها خصوصيتها لأن الحرف يكون ملحقا بنمط معين في النطق نظرا لعدم وجود بعض الحروف في اللغات الأخرى (اللغة الفرنسية) مثل حرف الخاء غير موجود ، فهو يكتب في العربية بحرف واحد (خ) ، أما

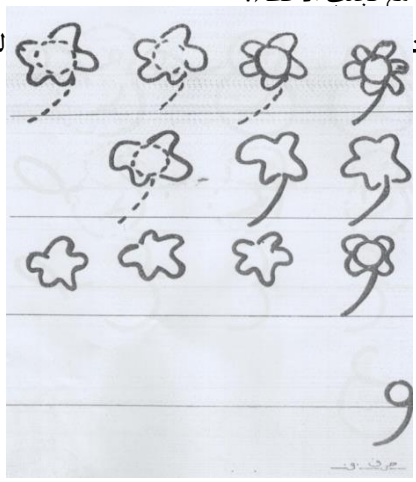
اللغة الفرنسية فيتشكل من حرفين (kh)، ولهذا لا بد أن يكتسب المعلم مهارة في توضيح أصل النطق في (ك) = (k) و(ح) = (h) عند التركيب الجديد الذي يمثل الحرف النموذجي للدراسة الخاصة باللغة المراد تعلمها يتشكل من حرفين قد أدرك المتعلم طريقة نطقهما بطريقة مخالفة للنطق النموذجي وهذه التفاتات لا بد أن ينتبه إليها المعلّم في العملية التعليمية. **هذا بالنسبة للحروف المختلفة كتابة ونطقا**.

وهذه العملية التنسيقية في البرنامج بين أستاذ الرسم وأستاذ اللغة الأصلية وأستاذ اللغة المراد تعلمها (اللغة العربية) لا تقتصر على المراحل التعليمية الأولى ، بل تكون العملية متواصلة في المراحل التعليمية الموالية للمتعلم ، فنجد البؤرة في العملية التعليمية للغة ما ، تكون في الرسم لأنه يأخذ آفاقا جديدة متطورة تحمل فنيات وتلخص أفكارا. وفي هذه الحالة يُطلب من المتعلم استنطاق الأفكار كتابة ، ونطقا انطلاقا من لوحة تشكيلية وبهذا يتم اكتساب اللغة المراد تعلمها.

حبذا لو يكون أستاذ الرسم يتقن اللغتين الأصلية واللغة العربية ، وتكون الفكرة المحورية نفسها الزهرة (fleur, flower) فينطق flower بتوضيح المخارج ثم (زهرة) بتوضيح المخارج أيضا حيث تُنطق الكلمة دفعة واحدة بشكل متدرج ، وبعدها ينطق المعلم الحرف الأول فقط ويجعله محورا في العملية التعلمية فيضع بالبند العريض (F)، (Z)، مع توضيح علاقة(Z) بنطق الحرف (ز) بالنسبة للغة العربية المراد تعلمها هذا بالنسبة **للحروف المشتركة نطقا والمختلفة كتابة**.

ويمكن للمتعلم غير الناطق باللغة العربية هي أن يتابع برامج إذاعة القرآن المرئية حيث يستمع إلى المقرئ باللغة العربية ويرافق الاستماع التركيز على الكتابة ، وتكون العملية بصورة تدريجية بالتركيز على أية أو أيتين فقط مع التكرار. أو أن يمسك المتعلم المصحف وينظر إليه في الوقت الذي يستمع إلى قراءة المقرئ فيحرص المتعلم على الجمع بين الرؤية والسماع بطريقة فنية. حيث ترقم الكلمة المكتوبة على المصحف ويقابلها الترقيم نفسه بالنسبة للكلمة المنطوقة من قبل المقرئ وهكذا دواليك وهذا ما يساعد على اكتساب النطق الجيد والكتابة الجيدة مع تجنب الأخطاء.

عرض نماذج للتمثلات لرسم العددي.



الشكل3: يوضح التمثل الذهني لصورة النبات (زهرة) في شكل حرف الواو.

إذا كان الاختبار الرياضي يمثل القاعدة الأساسية للدلالات والمضامين في عملية التعليمية بالانطلاق من الدلالات التمهيدية المشتركة ، نجد التركيب أيضا يجنح إلى عنصر النبر في تحديد الدلالة في اكتساب لغة ما ، ومنه نصل إلى مفهوم الاختبار الصوتي.

2.الاختبار الصوتي: كما هو معلوم أن الجهاز الصوتي يمثل بدوره القاسم المشترك بين المعلم والمتعلم ، وإن اختلفت بعض خصائص الحروف مثلا ، الغين ، الراء ، هما حرفان مختلفان في جهاز النطق في اللغة العربية ، خلافا للغتين الفرنسية والانجليزية.

فالكتابة الخطية واحدة R ، وإن كانت عملية النطق مختلفة بين صوت الغين والراء.

وفي هذه الحالات يجنح المعلم في العملية التعليمية من العناصر الصوتية المشتركة بين اللغة العربية واللغة الفرنسية أو الانجليزية ، وبعد عملية الفحص والتنطيق ننتقل إلى مواطن الاختلاف ، وهي مرحلة تأتي لاحقة بعد الاكتساب الجيد للعناصر المنطوقة المشتركة ، باعتبارها الطريقة الأيسر عند المتعلم ويكون ذلك بمراعاة عامل البيئة أيضا ، فسكان منطقة باريس يختلف نطقهم عن سكان منطقة جنوب إفريقيا ، رغم أن المخرج نفسه لكن الصفة نجدها تعرف بعض التغيرات من حيث ظاهرتي الغلظة والرقة في استعمالات الصوت نفسه ، ورغم هذه المتابعة البراغماتية المتعلقة بالتلفظ انطلاقا من نبرة الصوت بذاته إلا أن عملية التنطيق من خلال تسلسل صوتي في لفظة واحدة لا يكفي لاكتساب اللغة ، فقد نستخلص دلالات التراكيب الإنشائية انطلاقا من **عمليات النبر** المختلفة ، فتكون تقنية الانحرافات والتموجات الصوتية المختلفة بالتفنن في عملية التلقين للغة العربية بارزة ، فيستشف المتعلم دلالات الاستفهام والتعجب دون وجود رسم خطي لعلامات الوقف في اللغة العربية.

بدليل غياب علامات الوقف في القرآن الكريم ، مما يؤكد نجاح الاختبار الصوتي في العمليات التعليمية بمعرفة التراكيب الخاصة بالتعجب أو الاستفهام ، وتبقى عملية النبر مشتركة في جميع اللغات عند الاستفهام أو التعجب ، فيظهر التفاوت بينها وبين التقرير من لغة لأخرى ، وهذا ما يعبّد طرق اكتساب اللغة بمحاولة استنطاق المفاهيم **بمعية النبر** ، انطلاقا من **الملفوظات التمهيدية البيئية**، كما ذكرنا في **الاختبار الرياضي الأساسي**.

وعليه فالدراسة البراغماتية وإن كان منطلقها الملفوظ ، لكنها ترقى إلى مستوى التراكيب في عمليات اكتساب اللغة من خلال عوامل الربط اللغوية ، إذ نلاحظ أن دراسة بعض المعطيات اللغوية **كالملفوظات الإنشائية** وغيرها من التراكيب المميزة لوضعيات تلفظ خاصة ، تضع ضرورة ربط البراغماتية كذلك بعلم التراكيب ، باعتبار أن هذه المعطيات هي ظواهر تركيبية وشكلية يولدها التلفظ بواسطة استراتيجيات خطية خاصة ، للتعبير عن قيمة دلالية في شكل معادلة بين القول والفعل. (عثمان بن طالب ، 1986).

ومما يجب أن نلفت إليه الانتباه أيضا أنه من خصائص اللغة العربية ظاهرة الإعراب أي يرفق الحرف الصامت بحركة إعرابية (الصوائت أ **وي**) والتي يتفرع عنها (-) (و) (/)، فكلمة **بَرْنَامَجٌ** ينطقها الذي يتقن اللغة العربية بالتشكيل رغم أن الكتابة تكون خالية منه **برنامج** ، مما يؤكد اللغة تمثل عنصر التمثلات الذهنية ، وحتى تسهل عملية استيعاب مفهوم الإعراب عند المتعلم غير الناطق باللغة العربية نكتب اللفظة العربية بالحرف الذي يمثل لغته الأصلية مع كتابة الصوائت ففي اللغة الفرنسية أو الإنجليزية هي **(a-e-u-o-i)** فتكتب بهذا

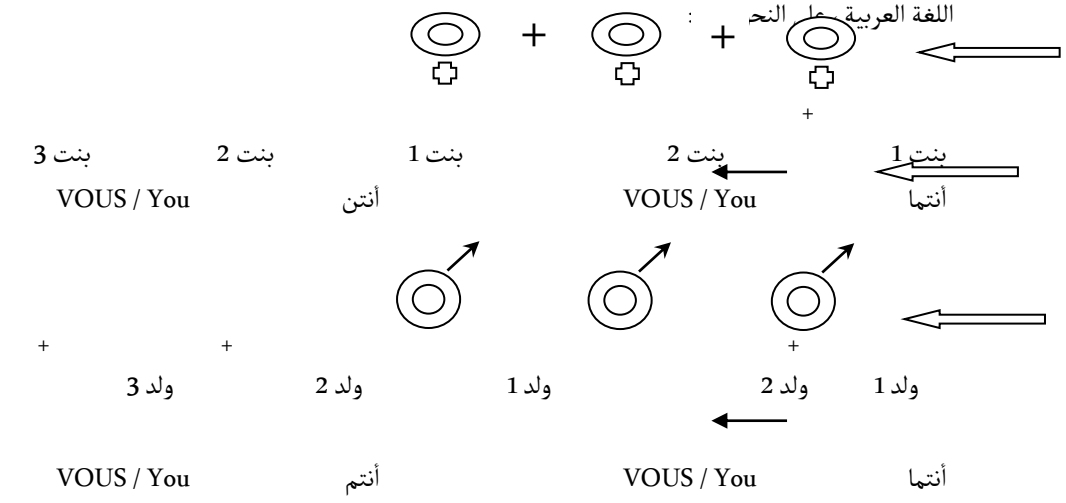
الشكل: barnamage ففي الفرنسية لا نستغني عن الصوائت كتابة فلا نستطيع كتابة brnmge وهذه خصائص الكتابة المنحوتة ونجدها في الرسائل السريعة التيليغرامية بالنسبة لغير الناطقين باللغة العربية وهي طريقة اقتصادية تبليغية ، خلافا للغة العربية فهي تتمتع باقتصاديتها وسرعتها في التبليغ في جميع الأحوال.

3.اختبار نظرية الملاحظة: الملاحظة تمثل بدورها **البديل التواصلي** بالتركيز على الرؤية ، ولعلّ هذا ما يقودنا إلى دراسات المنحى التداولي المعرفي العصبي ، بالتركيز على آليات التشغيل في الدماغ connexion من خلال الإدراك البصري.

وهذه الطريقة نجدها مجدية كذلك عند **المتعلم السامع** الذي لا ينطق اللغة العربية ، ما دامت آليات التشغيل في الدماغ من خلال الإدراك البصري نفسها ، مما يوضح خضوع العمليات التعليمية إلى عامل الملاحظة وهي عملية مقارنة وتحليل وبناء ، تقتضي المنهج **الاختباري التجريبي** بفصل الأجزاء عن الكل ، كما هو الحال في الألعاب الخاصة بالأطفال ، أو بفصل الجزء عن الكل في الأبنية اللغوية ، بإبعاد الجوانب الفرعية عن الأصلية في العملية التعليمية ، بالانطلاق من الأصول الثلاثة في تعلم اللغة العربية قصد الوصول إلى **الوزن الصافي للكلمة** (الزمن ، الجنس ، العدد)، وعلى هذا الأساس يعرف المتعلم دلالة الجنس المذكر والمؤنث.

والدلالة الثلاثية للزمن في الدرس العربي ماض ، مضارع ، أمر ، والعدد الثلاثي في الدرس العربي مفرد ، مثنى ، جمع خلافا للغة الفرنسية والانجليزية فيما يتعلق بالأبنية الزمنية الفرعية المعقدة من جهة ، **وعدم وجود دلالة المثنى** أيضا في اللغتين خلافا للغة العربية ، فالمثنى ملحق بالجمع في اللغتين في الانجليزية والفرنسية ، خلافا للعربية مثلا في المفرد المخاطب أنتَ ، والمفرد المخاطبة أنتِ في المثنى.

ففي اللغة الفرنسية نقول: tu في المفرد المخاطب للجنسين معا ، أما المثنى فهو ملحق بالجمع Vous ، وكذلك الأمر بالنسبة للانجليزية You المفرد المخاطب بالانجليزية يلحق المثنى بالجمع We ، لكن المعلم يركز في البدايات على العناصر المشتركة ، ويحاول رسم شكلين متقاربين أو ثلاثة أشكال متقاربة في عملية تلقين اللغة العربية على النحو :



وبهذه الطريقة الإشارية المكتوبة ، يدرك المتعلم الفارق بين اللغة العربية والفرنسية والانجليزية في استعمال الضمير ، لكن عملية التصريف تظل خاضعة للجمع باللغتين الفرنسية والانجليزية.

- **les deux** font leur travail / **ils** font leur travail.
- **both** do their job /**they** do their job.

خلافا للغة العربية فهي مرتبطة بالأحكام والفوارق في الحكم الشرعي ، بالإضافة إلى الفروق النحوية في قوله تعالى:

" وللذكر مثل حظ **الأنثيين** " سورة النساء الآية 11.

فجاءت دلالة المثنى ملحقة بمسألة الميراث في الحكم الشرعي ، على هذا الأساس بالانطلاق من الأصول الثلاثة في التعلم اللغة العربية ، وبادراك الفروق **بالمقارنة الذهنية** من خلال **الملاحظة والإدراك** يصل المتعلم إلى مبادئ الاختبارات الكبرى في العملية التعليمية ، كالاختبارات الخاصة باستنطاق الفروق بين اللغة العربية واللغة الأصلية ، وبهذا تتحقق الازدواجية اللغوية طالما أن الدماغ البشري بإمكانه أن يستوعب أكثر من لغة.

وما يمكننا توضيحه في هذا الإطار أن التعليمية أي أساليب تلقين لغة ما ، يكون منطلقه التدريب اللساني ، ومنه نخلص إلى ضرورة استثمار آليات مباحث اللسانيات في العملية التعليمية من خلال اللسانيات التطبيقية التي تقوم على مبدأ الملاحظة وهو مبدأ أساسي في عملية اكتساب اللغة ، لأن تحليل المعطيات اللغوية الملاحظَة شأن اللسانيات فالباحث في علوم اللسان كأي باحث في علم ما ، يخضع أوّلا إلى قاعدة المرحلة الإختبارية في العلوم لأنه يضع لنفسه مسائل لسانية من خلال المعطيات التي يراقبها ويحللها. (عثمان بن طالب ، 1986)

4. اختبار الملاءمة في عملية التعلم pertinence: وفي هذا الإطار نركز على الجهود الخاصة بمقاربة علم النفس المعرفي للذاكرة المعجمية ، وامتداداتها التعليمية والتربوية ما دام الذهن البشري يقوم بعملية الانتقاء والاختبار عند عمليات الاختبار الخاصة بالحفظ ، عن طريق الأسئلة المباشرة أو غير المباشرة أو اختبارات ملأ الفراغات أو ما يسمى feeling the gaps أو اختبارات إلحاق الأسهم بالعناصر المناسبة للإجابات الصحيحة. وكلها اختبارات تمثل عمليات التمثل الذهني في المراكز العصبية في اللغة نفسها.

يمكننا استثمار طرق الإختبارات وتقنيات الانتقاء عند المتعلم في لغته ذاتها ، بتوظيف عمليات الإنتقاء في اكتساب اللغة المراد تعلمها (اللغة العربية)، لأن قدرة الذهن البشري على اختيار ألفاظ معينة من خلال مخزون تراكمي ، يدّل على القدرة على وضع اللفظة المكتسبة الجديدة في اللغة العربية في الخانة المناسبة دلاليا للفظة الملائمة.

فبمجرد اكتساب المتعلم للفظة "**خير**" بالعربية ، يطالبه المعلم استحضار المقابل في لغته الأصلية ، لأن المقابلات اللغوية تيسّر الفهم **بربط المعرفة اللاحقة بالمعرفة السابقة**.

ومنه نخلص إلى أن تعريف التواصل لا يقتصر على استعمال اللغة اللفظية فحسب ، بل يشمل أيضا الأشكال التعبيرية الأخرى ، وذلك ما يوضحه بيرنارد بيرلسون وجراي ستينر GRAY A. STEINER BERNARD BERELSON في كتابهما (Human Behavior) "إنه عملية نقل المعلومات- والمعرفة

والتجارب ، إما شفويا أو باستعمال الرموز والكلمات والصور والإحصائيات بقصد الإقناع أو التأثير على السلوك ".(الجردي. نبيل عارف .1985.)

ويتجلى ذلك من خلال **آليات الاختيار للمعلومات كآليات التخزين والاختصار، آلية التكرار الذهني وآلية التدعيم**، حيث يعتبر التكرار الذهني خطابا داخليا وهو أهم آلية لتنشيط المعلومات في الذاكرة وهذا يدخل في نموذج الاشتغال المعرفي الآلي 1981wagner ، ويفترض أن التكرار الذهني سيرورة آلية تستثمر سعة الذاكرة القصيرة المدى بشكل جيد ، (اللفظة الجديدة المكتسبة باللغة العربية)، وينطلق عندما تنشط معلومة معينة بشدة ، ويكون التأثير هامّا على ترميز المعلومات وانتقالها إلى الذاكرة البعيدة المدى. (بنعيسى زغبوش2008.)

وعلى هذا الأساس يمكننا إبراز المقاربة التي قمنا بها في العملية التعليمية الخاصة بالحفظ بالنسبة للمتعلم ، غير الناطق باللغة العربية ما دام تعلّم الرسم الإشاري لأبجدية اللغة الفرنسية ، والمتعلم لا يدرك اللغة العربية ، فنتائج الدراسة الميدانية لاختبارات الانتقاء والاسترجاع توضح قدرة المتعلم على الربط بين اللغة المكتسبة واللغة الجديدة المراد تعلمها وهذا ما يدخل فيما يسمى بآلية **التدعيم** ، " ويمكن أن ينتج التدعيم عن توافق عالٍ مع المحتوى السابق للذاكرة ، (signort 1991 : 44) حيث يسهل إدماج التمثلات الذاكِرَوية الجديدة في التمثلات القديمة. ويُعتبر أيضا ميكانزما ضروريا للحفاظ على توفر المعلومات المتميزة في الذاكرة البعيدة المدى (tiberghien 1991). (بنعيسى زغبوش2008.)

وتجدر بنا الإشارة إلى أن عملية الاسترجاع عمليه فكرية مرتبطة بوظيفة الإدراك ، ذلك "أن الفرد يفكر فيما يدركه عن طريق **الملاحظة والمشاهدة**". (عصام علي الطيب ، 2006).

وعلى هذا الأساس تكون طرق الاختبار بربط عالم المجردات l'énoncé ، بالملموس في اكتساب اللغة مادام الملفوظ هو المفهوم الأساسي لنظرية الملاحظة الجديدة ، وهذا المفهوم يرتكز على مبدأ أنه لا يوجد مُعطى لغوي مجرد ، وبهذا يصبح المُعطى اللغوي في تحليل الخصائص اللغوية للتواصل مفيدا ملائما pertinent إذا وقع ربطه بمجموعة من المعطيات الأخرى المتأتية من استعماله وتوظيفه. (عثمان بن طالب ، 1986) وبهذا العملية التعليمية تخضع للمحيط المعرفي للمتعلم ، لاستيعاب طرق تقريب التواصل اللغوي وبهذا تكون النماذج المستعملة في الملفوظات معهودة ومعروفة.

وبهذا ينبغي على المعلِّم الإنطلاق من مبدأ الفرضيات ، من خلال التحليل الرياضي القائم على الإدراك ، باستثمار مختلف العلوم التي تحيط **ببيئة المتعلم** ، وهذا «ما يجر الباحث في اللسانيات إلى فتح نافذة على علم الإجتماع على أرضية البراغمتية أو اللسانيات الإجتماعية». (Sperber D.et Wilson d, 1989.)

5.الاختبار الخاص بمبدأ الفرضيات: إذا كان البحث العلمي ينطلق من الفرضيات ، فإن هذا ما يُسهم في تطوير تمثل الفرد للعالم لأن وضع الفرضيات في هذا الاتجاه هي مسألة خيال إبداعي ، كما يعتبر تأكيدها ظاهرة معرفته ، مادام البحث العلمي يقتضي عملية الإبداع والتفنن وصولا إلى التحقق والتقعيد كما رأينا في ربط عملية الانتقاء والاختيار ، التي تخص آليات التشغيل في الدماغ ، وتكون الفرضية بربطها باختبار ملأ الفراغ في النصوص التطبيقية في اللغة المراد تعلمها ، مع إعطاء المقابل حسب اللغة الأصلية عند المتعلم.

فإذا كانت الإجابات صحيحة هنا تتجلى عمليات المطابقة الذهنية ، فيأخذ عالم الدلالات بعدا افتراضيا إبداعيا ، كما أن نسبة إجابات المتعلم تمثل تأكيدا للفرضيات ، وهذا ما يتجلى من خلال ربط الصورة النباتية أو الحيوانية بالحرف المناسب عند المتعلم ، فتصبح هذه الفرضيات بمثابة المقدمات في القياس ، يقدمها المتكلم باستعمال أبعاد معرفية إدراكية ، من خلال **التذكر والبناء والاستنتاج**. (Sperber D.et Wilson d, 1989.)

لا ننسى أن إجابات المتعلم كانت مفترضة ، انطلاقا من فنيات السياق في التركيب الخاضع للمعالجة. كما أن هذه الفنيات التي تحتويها العملية التعليمية من خلال السياق يكون منطلقها مرجعية معرفية خاصة بآلية الاستنباط والربط ، إذ نجد آلية الاستنباط «تنطلق في نظر الاتجاه المعرفي من تصور مزدوج لقدرات الإنسان وآلياته الاستنباطية ، حيث تقوم بحساب مباشر وآلي لمجموع الفرضيات التي يقدمها للجهاز الذهني» ، (عبد السلام عشير ، 2012 ،) حسب طبيعة النصوص الخاضعة للمعالجة ، ومقدار الفنيات السياقية المعينة على آلية الاستنباط بالنسبة للمتعلم.

وبهذا تكون عملية الاستنباط قائمة على معالجة فرضيات معينة في سياق فرضيات أخرى ، وعليه يصبح **الجهاز الاستنباطي** حقيقة سيكولوجية ، له أهمية كبرى بالنسبة للنظرية **المعرفية والتداولية**. (Sperber D.et Wilson d, 1989)

ما دامت النصوص المختارة تمثل فرضيات الاختبار الأساسي من جهة. وعمليات الربط والاستنباط التي ترتكز على استثمار فنيات السياق ، بتدخل الجوانب النفسية والبيئة للمتعلم ، فهي تُدخلنا بدورها في فرضيات أخرى ، وهكذا تعرف الفرضيات قوة مهيمنة في اختبارات التعلم.

وفي هذا الإطار نجد دراسات أساسية تهتم بتسلسل enchainement الأفعال اللغوية داخل الخطاب van dijk ، أي الشروط التي لا تحدد الملاحظة السياقية للأفعال اللغوية فقط ، ولكن أيضا الملاءمة التساوقية contextuelle ، أي فعاليتها ومناسبتها. (Moeschler J)

ومما يؤكد نجاح الفرضيات أيضا ، إذا رجعنا إلى طرق وضع الكتب الخاصة بتعلم اللغات من خلال العناوين المختلفة. مثلا: تعلمْ اللغة العربية في أسبوع ، تعلمْ العربية بنفسك دون أستاذ ، نجدها تركز على عنصر التمثلات الذهنية أيضا القائمة على طرق الحفظ ، من خلال الرسومات المختلفة للحيوانات والنباتات ، وتكون مرفقة بالكلمات المناسبة. كما نلاحظ أن أغلب الكتب الخاصة بتعليم اللغات على الملفوظات اليومية حسب حاجات الفرد **المشتركة** ، وهذا يرسخ ويؤكد الفرضيات التي انطلقنا منها من خلال ما أسميناه **الاختبارات التمهيدية البيئية الأساسية**، حيث يشترك الجنس البشري فطريا في استعمال عدة آليات منطقية وغير منطقية في إنشاء الكلام ، انطلاقا من تجارب الأفراد وتفاعلهم مع محيطهم الخارجي. (عبد السلام عشير 2012).

كما أن الاختبارات الأساسية في تعليمية اللغة ، تكون من خلال التجارب اليومية نجدها تمس حقولا معرفية متنوعة نفسية وثقافية واجتماعية وسياسية وعلمية ، (عبد السلام عشير 2012) رغم أن الأبعاد النفسية والثقافية تمثل استثناءً في الفرضيات ، مادامت تخضع لخصوصيات الأشخاص المتعلمين إلا أن العملية التعليمية تنتقي ما هو مشترك إذ يقول ابن جني اللغة أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم ، إلا أن المعلم يأخذ القواسم المشتركة التي تسهل عملية الاختبارات الأساسية في بدايات التعلم.

قائمة المراجع:

-بنعيسى زغبوش(2008)، المعجمية وامتدادتها التربوي ، الذاكرة واللغة مقاربة علم النفس المعرفي للذاكرة ة ، فاس ، المغرب.
-عبد السلام عشير(2012)، عندما تتواصل نغير ، مقاربة تداولية معرفية لآليات التواصل والحجاج ، إفريقيا الشرق ، المغرب.
-عثمان بن طالب(1985)، (1986)، ع6 ، البراغماتية وعلم التراكيب بالاستناد إلى أمثلة عربية ، الملتقى الدولي الثالث في اللسانيات ، سلسلة اللسانيات ، تونس.
-عز الدين الزياتي(2008)، التواصل اللفظي والتواصل غير اللفظي ، دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع ، الرباط.
-عصام علي الطيب(2006)، أساليب التفكير ، نظريات ودراسات وبحوث معاصرة ، عالم الكتب ، القاهرة
-مصطفى غالب(2000)، الذاكرة. ، دار ومكتبة الهلال ، بيروت.
-نبيل الجردي عارف(1985)، مقدمة في علم الاتصال ، دمشق ، سوريا.

Dan sperber, Deidre ; Wilson(1989), la pertinence, communication et cognition, ed de minuit, paris.

-Jacques Moeschler, Argumentation et conversation, éléments pour une analyse pragmatique du discours, ed hatier, paris.

- Jerry .A. Fodor ; (1986), la Modularité de l'esprit, Ed de minuit, paris.

- Lucien Sfez ; (1992), dictionnaire encyclopédique de la pragmatique, ED, presses universitaire de France.

- Stefan Silbernagl ; Agmemnon despopoulos ; (2002), «Atlas de poche de physologie», traduction de l'édition allemande «Taschenatlas der physiologie» par : Etienne SAVIN et Hubert KARMANN, flammarion Médecine-sciences, 3éme édition française

اللغة العربية و"اللغة العالمية": أية علاقة؟

The ArabicLanguage and theUniversalLanguage:whichrelation ?

أ.د شمامة خير الدين ، جامعة باتنة1- الجزائر

مقدمة

إن المقابلة وجها لوجه بين اللغة العربية و"اللغة العالمية" ليست كأية مواجهة بين لغتين. إن الأولى شرفها المولى عز وجل بأن تكون لغة آخر رسالة سماوية ، لسان خاتم الأنبياء والمرسلين ولغة أهل الجنة. إلا أن التخلف الذي يعيشه أهلها جعلهم يشككون في قدرتها على الحاقهم بركب الدول المتقدمة.

أما الثانية ، فإنها بعد أن كانت لغة الإمبراطورية التي لا تغرب عنها الشمس ، أصبحت أيضا لغة القوة العظمى والتي اكتسحت حدود جميع الدول ، مما سمح لها بالزعم بأنها أصبحت "اللغة العالمية" القادرة على توفير تعليم أجود وفرص عمل أضمن ، ناهيك عن ترقية التجارة والاتصالات الدولية وتخفيض تكاليف الترجمة...

وفي ظل كل ذلك ، يطرح واجب الدول العربية في الحفاظ على لغة دينها وهويتها. إن تشريف العرب بجعل لغتهم لغة القرآن الكريم ، تقابله دون شك ، مسؤولية الدفاع عن هذا الشرف وعن هويتها التي تعد العربية الوعاء الحامل لها.

إن صمود اللغة العربية هو الذي يسمح للعرب بالانفتاح الآمن على اللغات الأخرى ، بما في ذلك الإنجليزية دون الذوبان في هوياتها الثقافية.

أولا: العربية لغة الدين والهوية

لا يمكن النظر للغة العربية بصورة محايدة ، لا سيما إذا تعلق الأمر بالعالم العربي ، فهي فيه لغة الدين (1) والهوية (2) في آن واحد.

1-العربية لغة الدين

إن المولى عز و جل لم يكتف بإنزال القرآن الكريم باللغة العربية ، بل أكد على علاقة هذه الأخيرة بالدين في عديد من الآيات ، و من قبيل ذلك قوله تعالى "و كذلك أنزلناه حكما عربيا"[1] ؛ "إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون"[2] ؛ "و لقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون قرآنا عربيا غير ذي عوج لعلهم يتقون"[3] ؛ "كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون"[4] ؛ و لو جعلناه قرآنا أعجميا لقالوا لولا فصلت آياته أعجمي و عربي"[5] ؛ "و إنه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان

[1]-الرعد/ 37
[2]-يوسف/ 2
[3]-الزمر/ 27-28
[4]-فصلت/ 3
[5]-فصلت/ 44

عربي مبين"[6] ؛ "و كذلك أوحينا إليك قرآنا عربيا"[7] ؛ "إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون"[8] ؛ "و من قبله كتاب موسى إماما و رحمة و هذا كتاب مصدق لسانا عربيا لينذر الذين ظلموا و بشرى للمحسنين"[9] ؛ "و كذلك أنزلناه قرآنا عربيا"[10] و "ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون إليه أعجمي و هذا لسان عربي مبين".[11]

إن هذا التأكيد المتكرر بأن العربية هي لغة القرآن الكريم، يؤكد ليس فقط العلاقة الوطيدة بينهما، بل ضرورة التمعن والتفكير الجيد في سبب ذلك، خاصة أن الآيات السابق ذكرها، ورد فيها "لعلكم تتقون" ؛ "لعلهم يتذكرون" ؛ "لعلهم يتقون" و "لقوم يعلمون". فالأمر إذا لا يخلو من حكم، ولعله من بينها ما تتميز به اللغة العربية عن غيرها من خصائص ذكرها رسول الله (ص) بقوله "أوتيت جوامع الكلم واختصر لي الكلام اختصارا"[12] ولقد شرح العلامة بن خلدون معنى هذا الحديث بقوله: أن "الكلام العربي أوجز وأقل ألفاظا وعبارة من جميع الألسن".[13]كما تظهر العلاقة المشار إليها جلية في قول العلامة بن خلدون أيضا "والدين إنما يستفاد من الشريعة وهي بلسان العرب بما أن النبي صلى الله عليه وسلم عربي".[14]

ويمكن القول بأن علاقة لغة الضاد بالقرآن الكريم أصبحت حاضرة في أذهان معظم المسلمين، خاصة عندما يشعرون بوجود خطر يداهم لغتهم. ويظهر هذا الربط بوضوح في نضال الإمام الجزائري عبد الحميد بن باديس ضد الاستعمار الفرنسي، فهو القائل: "إني أعلن أنني لست لنفسي وإنما أنا للأمة. أعلم أبناءها وأجاهد في سبيل دينها ولغتها"[15]وهو القائل أيضا: شعب الجزائر مسلم وإلى العروبة ينتسب
من قال حاد عن أصله أو قال مات فقد كذب

هذه الصلة الوطيدة بين الدين الإسلامي واللغة العربية هي التي جعلت السلف الصالح يحرص على لغة القرآن الكريم كحرصه على القرآن ذاته والدليل على ذلك، ما ورد في صحيح البخاري، بشأن كتابة القرآن الكريم بعد وفاة الرسول (ص) وعديد من حفظة القرآن الكريم: "حدثنا أبو اليمان: حدثنا شعيب، عن الزهري. وأخبرني أنس بن مالك قال: فأمر عثمان: زيد بن ثابت وسعيد بن العاص، وعبد الله بن الزبير وعبد الرحمان بن الحارث بن هشام، أن ينسخوها في المصاحف، وقال لهم: إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في عربية القرآن، فاكتبوها بلسان قريش، فإن القرآن أنزل بلسانهم ففعلوا".[16]

---

[6]-الشعراء/ 193-195
[7]-الشورى/ 7
[8]-الزخرف/ 3
[9]-الأحقاف/ 12
[10]-طه/ 113
[11]-النحل/ 103
[12]-(نقلا عن عبد الرحمن بن خلدون ،1978)، المقدمة، دار العلم، بيروت، ص 556
[13]-المرجع نفسه، ص379
[14]-المرجع نفسه، ص379
[15]-(نقلا عن محمد الطاهر فضلا، بدون تاريخ نشر)، دار الشهاب، باتنة، ص79
[16]-(الإمام أبي عبد الله البخاري 194-256ه)، صحيح البخاري، دار صادر، بيروت، ص119

ولم يتوقف ذلك الحرص عند اللسان الأقرب إلى القرآن الكريم، بل حتى إلى التركيز على لكنة قارئ القرآن الكريم، ذلك ما يؤكده حوار المسور بن مخزمة مع الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

ففي موسم الحج، حان وقت الصلاة، وكانت هناك جماعة خارج مكة، فتقدم رجل من آل أبي السائب، إلا أن المسور بن مخزمة قدم غيره؛ فلما عاد ابن مخزمة إلى المدينة، سأله الفاروق عن ذلك، فرد عليه قائلا: "إن الرجل كان أعجمي اللسان وكان في الحج، فخشيت أن يسمع بعض الحجاج قراءته، فيأخذ بعجمته، فقال: أو هناك ذهبت؟ قال نعم، قال أصبت".[17]

وقد يرى بعض الناس أن اللغة العربية هي بالفعل اللغة الأصلية للقرآن الكريم. لكن هذا الأخير ترجم في الوقت الحالي إلى لغات عديدة كالإنجليزية، الفرنسية، التركية، الإيرانية...؛ لذلك تجدر الإشارة إلى أن هذه الترجمات لا تعدو أن تكون وسيلة لتقريب المعنى، لكن النسخة الأصلية ستظل تلك المكتوبة باللغة العربية، ففي الصلاة، تستعمل الآيات القرآنية التي نزلت بلسان عربي مبين. كما أن الترجمات التي قام بها البشر قد تعدل وتتغير، أما تنزيل رب العالمين، فإنه سيظل بلسان عربي مبين.

2-العربية لغة الهوية الثقافية

لقد عرف المفكر الجزائري مالك بن نبي الثقافة بأنها "ذلك الجو المشتمل على أشياء ظاهرة مثل الأوزان والألحان والحركات وعلى أشياء باطنة كالأدوات والعادات والتقاليد، بمعنى أنها ذلك الجو العام الذي يطبع أسلوب الحياة في مجتمع معين وسلوك الفرد فيه بطابع خاص، يختلف عن الطابع الذي نجده في حياة مجتمع آخر".[18]

أما اللغة، فقد عرفها معجم لاروس الفرنسي بأنها عبارة عن "نظام مدلولات شفاهية خاصة بكل مجموعة من الأشخاص والتي تستعملها للتعبير أو الاتصال مع بعضها بعض".[19]

وبما أن اللغة خاصة بكل مجموعة على حده، وبما أن كل مجموعة لها خصوصياتها، فإنها لا يمكن أن تكون مجرد وسيلة اتصال محايدة.

إن اللغة من منظور الأستاذة كريستين فريشات ستظل "حاملة لهوية، قيم، تاريخ ومعنى. إنها تحقق التلاحم الاجتماعي وتدعم تنامي الإحساس بروح الانتماء إلى المجموعة".[20]

وبناء على ما ذكر، يبدو أن اللغة هي سر تميز كل شعب عن غيره من وجهة نظر الياباني تادانوبيتسينودو TadanobuTsunodo

لقد رأى هذا اللساني البارع في كتابه المخ الياباني The Japanese Brain أن الإجابة عن كل علامات الاستفهام التي تطرح حول هذا النمط المميز للثقافة اليابانية والطابع الخاص لسلوك الياباني المغاير لسلوك

---

[17]-(محمد راوس قلعه جي، 1981)، موسوعة فقه عمر بن الخطاب، (بدون دار ومدينة نشر)، ص445

[18]-(مالك بن نبي، 2006)، تأملات، دار الفكر العربي، دمشق، الطبعة السادسة، ص147

[19]-Larousse 2008, Editions Larousse, Paris, 2007, p.578

[20]20-Christine Fréchette, <<Protéger la langue à l'ère de la mondialisation>>, mars 2007,www.cslf.gouv.qc/publications/pubf220/f220.pfd, consulté le 18/07/2010 à 9h10mn

غيره ، هي اللغة اليابانية ، وبعبارة أخرى ، فإن ما جعل اليابانيين يابانيين هو اليابانية باعتبارها اللغة التي تترجم وتعكس نظرتهم للعالم.[21]

إن هذه الصلة الوثيقة بين اللغة والهوية تظهر عمليا في شكل ما تحمله كل لغة من قدرة أكثر من غيرها على التعبير عن هويتها الثقافية لذلك ، فإن المستعمر الفرنسي عندما فرض اللغة الفرنسية على الجزائريين ، كان هدفه المتوخى من وراء ذلك قتل الهوية الثقافية الجزائرية وذوبان الشعب الجزائري في هوية المستعمر ، وهو ما تصدت له جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، بل وحتى بعض المثقفين الجزائريين الفرانكوفونيين بعد الاستقلال.

لقد أكد وزير الثقافة الجزائري الأسبق أحمد طالب الابراهيمي أنه "للتعبير عن هذه الثقافة (...) بكل صدقها ، لا توجد سوى وسيلة واحدة: اللغة العربية ، إذ لا يمكننا سوى الاعتراف مع المؤرخين واللغويين بأن الشعب الذي يغير لغته هو شعب يغير روحه ومنظوره للعالم ، لأنه وعلى غرار ما كتبه أحدهم: "الكلام بلغة أخرى ليس قول لأفكارنا بكلمات أخرى ، إنه تفكير آخر ، وفي الوقت ذاته تفكير في شيء آخر(...) ومثل هذا التصرف لا يمكن أن يكون مفيدا لصحة أو مستقبل شعب ما".[22]

وتجدر الإشارة في الأخير ، إلى أن العربية ليست لغة وطنية لدولة واحدة ، بل إنها لغة حضارة بأكملها ، ومن ثم تعتبر قاسما مشتركا بين جميع الدول المشتركة في هذا الموروث الحضاري ، مع كل ما يحمله ذلك من دلالات وفي مقدمتها التلاحم بين أبناء الحضارة الواحدة من جهة ، والقدرة على التعرف على هويتهم من جهة أخرى.

ففي عهد التكتلات الاقتصادية ، تمثل اللغة العربية قاسما مشتركا جامعا بين جميع العرب ، فمن المحيط إلى الخليج ، لا يحتاج أي عربي إلى ترجمان للتواصل مع عربي آخر. وعلى النقيض من ذلك ، يقوم الاتحاد الأوروبي بترجمة إحدى عشرة لغة ، لكي يفهم أبناء الدول الأعضاء فيه بعضهم بعض.

أما التعرف الذاتي على الهوية ، كعنصر آخر من عناصر الحضارة ، فإننا نجده في تعريف الأستاذ باسكال يونيفاس القائل: "الحضارة هوية ثقافية ، تعرف بعناصر موضوعية (اللغات ، الديانات ، التاريخ ، التقاليد ، المؤسسات...) وبعنصر شخصي هو التعرف الذاتي للأشخاص على هويتهم".[23] وهذا أمر في غاية الأهمية لأن الذي لا يمكنه التعرف على هويته ، يمكنه أن يذوب في هوية غيره بكل سهولة أو أكثر من ذلك: يصبح عرضة لهشاشة اللإنتماء.

ثانيا: اللغة العالمية: الانتشار والمحاصرة

لقد أدى الانتشار السريع للغة الإنجليزية الى نعتها ب "اللغة العالمية" (1) والتي أخذت تحاصر اللغات الأخرى ومن بينها اللغة العربية. (2)

---

[21]-(إدريس مقبول ،2007) ، المخفي والمعلن في الخطاب الأمريكي ، منشورات الزمن ، الدار البيضاء ، ص96-97

[22]-(Ahmed Taleb Ibrahimi,1981), De la décolonisation à la révolution culturelle (1962-1972), SNED, Alger, 3eme édition, p.245

[23]-(Pascal Boniface,2010), Comprendre le monde, ANEP, Alger, p.201

1-انتشار "اللغة العالمية"

لقد أصبحت اللغة الإنجليزية في مختلف مناطق العالم لغة الشبكة العنكبوتية ، العلم ، النقل ، الموسيقى ، التلفاز ، السنيما ، البنوك ، الرياضة...إلى درجة أن عدد المتكلمين بها من غير الناطقين بها كلغة أم ، بات يقدر بثلاثة أضعاف ، مما جعل البعض يعبر عن هذا الاكتساح ب "النظام اللغوي العالمي" ، "النظام اللغوي الجديد" ، "النظام اللغوي العالمي الجديد"...[24]

هذا الانتشار الواسع تعكسه أرقام معبرة جدا ، فمواقع الشبكة العنكبوتية ذات الأصل الأمريكي تقدر ب 70% ، 96% من مواقع التجارة الالكترونية تستعمل الإنجليزية ،[25] كما أن 65% من اتصالات العالم تنطلق من الولايات المتحدة.[26] بل إن عديدا من الجامعات ، أصبحت دروسها تعطى باللغة الإنجليزية ، رغم كون معظم أساتذتها وطلبتها من غير الناطقين باللغة الإنجليزية ، ومنها على سبيل المثال جامعة تورين Turin المتعددة التقنيات الفرنسية وجامعة جنيف السويسرية. كما تشترط بعض الكليات العربية على المشاركين في مؤتمراتها أن تكون المداخلة مكتوبة باللغة الإنجليزية.

كل ذلك ، جعل الأستاذة توف سكوتناب-كانغاToveSkutnabb-Kangas تطلق على الإنجليزية "اللغة القاتلة" والتي يعود انتشارها الواسع ، برأيها ليس إلى خصائصها كلغة بحد ذاتها ، بل إلى سلطة دولتها.[27]

ويبدو أن الواقع قد يؤيد فعلا وجهة نظر الأستاذة سكوتناب-كانغا ، فلقد كان الانتشار المشار إليه متناغما مع استشرافات وكتابات كبار الساسة والكتاب الأمريكيين.

لقد أعلن المستشار الأسبق زبيقنيافبريجينسكيZbignievBrzezinski أنه "بعد عهد المدفع (...) وعهد التجارة الدولية والمالية ، فإن تقنيات وقنوات الإعلام تمثل الجيل الثالث للهيمنة على العالم". وبعد ثلاثين سنة ، عاد ليعلن عن هذا البلد المهيمن ، قائلا أن الولايات المتحدة قد أصبحت الجاذب الثقافي العالمي".[28] ووسيلة إيصال هذه الثقافة الى العالم هي حتى في أبسط حالاتها اللغة الإنجليزية ، فمن منا يسمي البورغر بطريقة أخرى ؟

ومع بداية التسعينيات ، وضمن نفس السياق ، طرح الأستاذ جوزيف ناي Joseph Nye مفهوم "القوة الناعمة" والذي عرفه بقوله: "يمكن لدولة ما أن تحقق نتائج (...) لأن بقية الدول تريد أن تقتدي بها أو توافق على وضعية تنتج آثارا مماثلة (...) هذا المظهر الثاني من القوة والذي يحدث عندما تحصل دولة ما من الأخرى

[24]-Larissa Aronin, Daphné Romi-Masliah, <<L'anglais et les cultures : carrefour ou frontière ?>>, Droit et culture (Online), 54/2007-2 online since 28 january 2009, connection on 04 october 2016 : http://droitculture.revue.org/67

[25]-(Fouad Benhala,2005), Le choc de la communication globale : pouvoirs et sociétés arabes face au défi, Publisud, Paris, p. 60

[26]-Armand Mattelard, <<La nouvelle idéologie globalitaire>>, Mondialisation au —de-là- des mythes, (ouvrage collectif), Casbah éditions, Alger, 1997, p. 85

[27]-Rapport sur les droits linguistiques dans le monde : la situation actuelle, Nations Unies, Genève, 24avril 2008, p.

[28]-Cité par Fouad Benhala, op. cit, p. 58

على ما تريده هي ، يمكن تسميته (...) قوة ناعمة ، بما يقابل القوة العنيفة أو قوة سلطة أمر الآخرين بالقيام بما تريد".[29]

وبما أن اللغة الإنجليزية هي الوعاء الحامل لتلك القوة الناعمة ، فإن الأستاذ دايفيدروثكويف لم يتردد في القول: "إنه لمن مصلحة الولايات المتحدة اقتصاديا وسياسيا أن تسهر على أنه إذا تبنى العالم لغة واحدة ، فلتكن الإنجليزية"[30] ولكن قد يتساءل كثير من الناس كيف يمكن للغة الإنجليزية أن تخدم الهيمنة السياسية والاقتصادية الأمريكية ؟

إن الإجابة عن هذا السؤال نجدها عند الأستاذ بارنار كاسين القائل: إن الهيمنة الأمريكية لا ترتكز فقط على العوامل المادية كالاقتصاد والقوة العسكرية... ، "إنها تتضمن أيضا وعلى وجه الخصوص التحكم في العقول أي في المرجعيات والرموز الثقافية ولا سيما العلامات اللغوية. إن اللغة الإنجليزية توجد في مركز نظام شامل ، تلعب فيه دورا مماثلا لدور الدولار في النظام النقدي الدولي ، فعلى غرار المركز المزدوج كوسيلة تسوية وعملة احتياط دولية مهيمنة للورقة الخضراء والتي تسمح للولايات المتحدة بأن تعيش على حساب بقية العالم ، فإن حيازة اللغة المفرطة التمركز ، تمنحها ريع وضعية هائل".[31]

2-محاصرة "اللغة العالمية" للغة العربية

إن فرض الإمبراطوريات للغاتها على حساب اللغات الأخرى ليس أمرا حديثا. فمن أجل عولمة لغتها ، كانت روما تمنع استعمال لغات أخرى عند وعظها السفراء الأجانب بالتفاوض معها.[32] وبطبيعة الحال ، فإن تفاوض روما بلغتها التي تتحكم في ألفاظها ومعانيها مع أجانب لا يملكون ذات التحكم ، يسمح لها باستغلال العبارات المطاطة والغامضة على غرار ما هو حاصل في أيامنا هذه.

كما استعملت الإمبراطورية البريطانية لغتها كوسيلة لاقتلاع جذور الدين الإسلامي من مستعمراتها الافريقية التي أصبحت لغاتها المحلية تكتب بالألفباء العربية ، بل إن العربية أصبحت لسان عدد هائل من سكانها و ذلك عن اختيار طوعي ؛ فلقد ذكر الأستاذ يوشوصوديكYaushauSoduk و هو من منطقة ياروباالنايجيرية ، أن بريطانيا قامت بإعادة كتابة لغة ياروبا بأحرف لاتينية بعد أن لاحظت أن الدين الإسلامي ينتشر في هذه المقاطعة على يد الياروبيين أنفسهم و ليس العرب المسلمين.[33] أما اليوم ، فإن الإمبراطورية الأمريكية هي التي تواصل ما بدأته الإمبراطورية البريطانية.

---

[29]-Joseph S.Nye, (Soft Power), Foreign Policy, N :80, Automn, 1990, p.166 (153-171)

[30]-Cité par Herbert Schiller, <<Vers un nouveau siècle d'impérialisme américain>>, Le Monde diplomatique, n°533, 1998, pp. 18-19

[31]-Bernard Cassen, <<Un monde polyglotte pour échapper à la dictature de l'anglais, Le Monde diplomatique, n° 610, 2005, p.22

[32]-Abbé Grégoire, <<Une république une et indivisible, l'usage unique et invariable de la langue de la liberté>>, Etre français. Les Grands textes de Montesquieu à Edgar Morin : Les nouveaux défis, Le Monde, (hors-série), 2016, p.57

[33]-YushauSoduk, <<Muslims and Christians in Yarubaland : UnavoidablesNeighbours, Essays and world Christianity, Editions Peter long, Paris, 2010, pp.271-273, cité par Mourad Benachenhou, <<Décoloniser la linguistique>>,www.algériesite.com.article-5223946 ,consulté le 27/01/2017à 14 :23 mn

و لأن "اللغة العالمية هي في نوعها كالحجرة "الفيلوزوفالية" في الكمياء"[34]على حد قول المفكر أبيه قريقوارAbbé Grégoire ،فإن المحاصرة الأمريكية أكثر شراسة بفضل تحكم الولايات المتحدة في وسائل الإعلام و الاتصال و مركزها الممتاز في المنظمات الدولية. وضمن سياق المحاصرة هذا، لخصت الأستاذة باربارا سايدالهوفBarbara Seidelhof مزايا "اللغة العالمية" في دراستها المعروضة على مجلس أوروبا سنة 2000م في: الوظيفة الاقتصادية-الثقافية والتي تختلف عن اللينقوافرانكا المستعملة من قبل النخب ؛ استقرار ثنائية اللغة بواسطة التعايش بين اللغة العالمية واللغات الأخرى وتعديل اللغة عبر مسارات التقارب والتباعد اللغوي".[35]

وبعد هذا العرض بسنة واحدة، تم تبني التعريف النوعي للتعدد اللغوي للإطار الأوروبي المشترك والمرجعي للغات مجلس أوروبا 2001 والذي ورد فيه "التنازل عن الهدف الذي لا يمكن بلوغه والممثل في الكتابة والتكلم كناطق أصلي. إن هدفا أكثر واقعية بدأ يطرح نفسه: بلوغ تحكم متعدد الثقافات للغة من خلال ثنائية لغوية تدخل الإنجليزية كلغة عالمية بدلا من رفضها". [36]

وقد يقال أن هذا المثال لا صلة له بالدول العربية نظرا لتقاسمها اللغة ذاتها. غير أن الأمر مختلف ف"اللغة العالمية" مطروحة على المستوى الداخلي للدول ضمن مجموعة من اللغات الأقرب لها مثل: الروسية، العبرية والانجليزية أو العربية، الإنجليزية والبربرية،[37]وهي واقع يومي داخل الدول ذات العمالة الأجنبية المكثفة كدول الخليج.

كما أنها مطروحة على مستوى هيئات أخرى توجد الدول العربية ضمن أعضائها. فعلى مستوى المحكمة الجنائية الدولية تقضي المادة 50من نظامها الأساسي1998بأن العربية، الفرنسية، الاسبانية، الروسية، الصينية والإنجليزية لغات رسمية فيها، غير أن أحد مستشاريها القانونيين وهو سريللوتشيCyril Laucci ذكر بأنه رغم كون 21قضية مطروحة أمام المحكمة تخص دولا فرانكوفونية، فإن اللغة الإنجليزية هي الأكثر استعمالا.[38] وإذا كانت هذه حال اللغة الفرنسية، فإن وضعية العربية لن تكون أحسن مع أن أربع دول عربية معنية بما يجري في المحكمة الجنائية الدولية وهي ليبيا، السودان، سوريا وفلسطين.

أما الأمم المتحدة والتي تعد اللغات الست المذكورة أعلاه لغات رسمية فيها، فإن أحسن من أثار موضوع محاصرة الإنجليزية فيها وآثارها السلبية هو الأمين العام الأسبق بطرس غالي القائل: "إن أول سبب لموقفنا من التعدد اللغوي هو احترام المساواة بين الدول. نعلم جميعا أن إلزام الموظفين الدوليين، دبلوماسيون أم وزراء بالتعبير بغير لغتهم يعادل وضعهم في وضعية أدنى ويحرمهم من القدرة على التدقيق والتهذيب، مما يؤدي

[34]-Abbé Gregoire, op. cit, p.57

[35]-Larissa Aronin, Daphné Romi-Masliah, op. cit, p.3

[36]-La définition qualitative du plurilinguisme du cadre européen commun de référence pour les langues du conseil de l'Europe de 2001,https://halshs.archives-ouvertes.fr/halshs-00690507/document ,consulté le 18/012/2016 à 16:30

[37]-Larissa Aronin, Daphné Romi-Masliah, op. cit, p7

[38]-Cyril Laucci, <<Quand le droit anglo-saxon s'impose>>, Le Monde diplomatique, n°721, avril 2014, p. 16. (16)

الى القيام بتنازلات لأولئك الذين تكون لغتهم الانجليزية اللغة الأم. كما أننا نعلم جميعا أن المفاهيم التي تبدو متماثلة ، هي في معظم الأحوال مختلفة من ثقافة إلى أخرى. إن الكلمات تعبر عن ثقافة ، طريقة في التفكير ونظرة للعالم. من أجل جميع هذه الأسباب ، أعتقد أنه كما أن ديمقراطية أي دولة تقوم على التعددية ، فإن الديمقراطية بين الدول يجب أن ترتكز على التعدد اللغوي".[39] وفضلا عن ذلك ، ذكر أحد الخبراء أنه عند عقد اجتماع بلغة واحدة تتراجع نوعيته ب 40% كما اعترف بأنه خلال الأنشطة اليومية للأمم المتحدة ، يغيب التوازن بين اللغات لصالح اللغة الإنجليزية المسيطرة والتي لا يتقنها عديد من الممثلين ولاسيما ممثلي المنظمات غير الحكومية والذين يهمشون تماما كلما غابت الترجمات الفورية حتى بلغات الأمم المتحدة.[40]

ومما يؤكد نية المحاصرة من خلال "اللغة العالمية" أن أنصارها يستندون إلى ضرورة تخفيض نفقات الترجمة ، لكن دراسة جادة أثبتت أن تكاليف الخدمات اللغوية بالاتحاد الأوروبي والذي يترجم 11لغة ، تقدر ب1.1مليار يورو سنويا أي ما يمثل أقل من 1% من الميزانية أي 0.0087 بالنسبة إلى كل مقيم بالاتحاد الأوروبي أو 2.70 يورو من كل مواطن يزيد عمره عن 15 سنة.[41]

ثالثا: العلاقة بين اللغتين العربية و"العالمية"

إن المواجهة بين العربية والانجليزية ليست كأية مواجهة بين لغتين ، فالأولى تعد لغة الدين والهوية والثانية لغة أقوى دولة في العالم ، مما أدى إلى فرضها ك"لغة عالمية". لكل ذلك ، تقتضي العلاقة بينهما ضرورة صمود الأولى(1) وانفتاحها على الثانية (2)

1-ضرورة صمود اللغة العربية

إن اللغة العربية تصمد بصمود أهلها شعوبا وحكومات ، وبداية ذلك تكون بالثقة بها. ولقد صدق عالم السياسة الفرنسي جان أ.لابونسJean A.Laponce حين قال: "عندما تقرر مجموعة ما أن ثمن المحافظة على لغتها لم يعد له مقابل كاف في شكل أرباح اجتماعية ونفسية ، فإن اللغة تختفي(...)"[42]

ولئن كان اختفاء اللغة العربية مستحيلا، لأن المولى عز وجل يقول: "إنا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون".[43] وهذا يعني أن حفظ القرآن الكريم هو في الوقت ذاته حفظ للغته ، فإن ذلك لا ينفي جميع النتائج السلبية الأخرى وفي مقدمتها الهوية الهشة.

وبما أن معظم الذين فقدوا ثقتهم في اللغة العربية يستندون إلى أنها لم تعد لغة علم ، فإنه من المفيد التذكير بما قالته الأستاذة لطيفة النجار بهذا الصدد: "إن عقبة عدم الكفاية التي تعاني منها كثير من اللغات

---

[39]-Cité par Dominique Hoppe, <<Le cout du monolinguisme des Organisations internationales>>, Le Monde diplomatique, n°734, Mai 2015, p. 9 (9)

[40]-Rapport sur les droits linguistiques…op. cit, p.1

[41]-Dominique Hoppe, op. cit, p.9

[42]-(Jean A.Laponce,1983), Langue et territoire, Puf, Paris, p.57, cité in La mort des langues, http://www.axl.cefan.ulaval.ca/langues/2vital.ca/langues/2vitalmordlangues.htm ,consulté le 18/12/2016 à 18h 30mn

[43]-سورة الحجر/9

ليس سببها اللغة في ذاتها، بقدر ما هي مرتبطة بالمجتمع نفسه، ومستواه التعليمي وقدرته الاقتصادية والبشرية على دعم لغته ورغبته في إنجاز هذا الفعل التاريخي".[44]ناهيك عن كون الدراسات العلمية، النظرية منها والتطبيقية تؤيد التعليم باللغة الأم ومن قبيل ذلك: دراسة دوتشر حول استخدام اللغة الأولى واللغة الثانية في العلم (1996)؛ دراسة كال بمركز اللغويات التطبيقية (واشنطن 2001)؛ دراسة بيكر حول ثنائية اللغة (2001) و تقريرا اليونيسكو حول التعليم باللغة الأم (2003).[45]

وللتأكيد على مدى أهمية ثقة أي شعب في لغته، يمكننا أن نتذكر ما حصل للإنجليزية ذاتها. ففي القرن الثامن وعلى إثر الانتصار الساحق للفيكينغ على الأنجوسكسونيين، كادت الإنجليزية أن تختفي، ليحل محلها النوروا لغة المنتصر، حيث لم يبق لهذا الأخير سوى بعض المعارك لحسم الحرب كليا لصالحه؛ وعند غزو دوق النورمان قيوم لوكانكيراGuillaume le conquérant لإنجلترا في القرن الحادي عشر، جعل الفرنسية اللغة الرسمية والوحيدة للبلاط وللإدارة الملكية، وحتى على المستوى الشعبي، لم تكن تتكلمها سوى الطبقات الدنيا، أما الطبقة المسيطرة، فقد كانت تتكلم الفرنسية، كما أن الانجليزية لم تدخل برلمان لندن إلا سنة 1363 بعد حرب الثلاثين سنة والتي جعلت الفرنسية في نظر الإنجليز لغة المستعمر؛ وعلى العموم، فقد بقيت لغة ضعيفة إلى غاية القرن السابع عشر،[46] لتصبح اليوم على ما هي عليه.

وبطبيعة الحال، فإنه كلما ازدادت ثقة الدولة بلغتها، كلما عملت على الدفاع عنها، خاصة وأن هذا الدفاع يعد التزاما أخلاقيا وقانونيا تفرضه دساتير جميع الدول العربية والتي تنص على أن العربية هي اللغة الرسمية للدولة. وللتذكير، فإن بعض الدول يحمل اسمها صفة العربية على غرار جمهورية مصر العربية، الجمهورية العربية السورية والامارات العربية المتحدة.

كما يعتبر واجب الدفاع عن اللغة العربية التزاما دوليا بالنسبة الى الدول الأطراف في المعاهدة الثقافية العربية (وهي الأردن، سوريا، العراق، السعودية، لبنان، مصر واليمن)، حيث التزمت بأن "(...) تعمل على الوصول باللغة العربية إلى تأدية جميع أغراض التفكير والعلم الحديث وجعلها لغة الدراسة في جميع المواد في كل مراحل التعليم في البلاد العربية".[47]

وبمقتضى الإعلان العالمي لحقوق الشعوب، فإنه "لكل شعب الحق في الكلام بلغته والمحافظة على تطوير ثقافته، للمساهمة على هذا النحو في إثراء الثقافة الإنسانية".[48] وما هو حق للشعوب هو واجب على دولها...

وحتى في حالة غياب نصوص قانونية، فإن جميع الدول يقع عليها واجب تحقيق الأمن اللغوي لشعوبها والذي يقول بشأنه الأستاذ دومينيك برايا Dominique Breillat: لقد قضى المستعمر على 15% من اللغات،

---

[44]-(لطيفة النجار ،2008)، اللغة...جدل الهوية والمعرفة، العالم العربي للنشر والتوزيع، دبي، ص1

[45]-لمزيد من التفاصيل، انظر المرجع نفسه، ص9

[46]-La mort des langues, op. ci

[47]-المادة 9 من المعاهدة الثقافية العربية

[48]-Article 13 de la Déclaration universelle des droits des peuples proclamée à Alger en 1976

لكن هذا المسار سيكون "أخطر بكثير مع العولمة، لذلك، فإن الدفاع عن اللغات هو انشغال دائم ويرتكز على فكرة الأمن اللغوي".[49]

إن عدم الدفاع عن لغة الدولة من شأنه أن يفاجئنا بوضعيات غريبة على غرار تلك التي ذكرتها الأستاذة لطيفة النجار في كتابها اللغة...جدل الهوية والمعرفة أو على نحو ما حصل للكامازين.

فقبل انتقال سيدة يابانية الى الامارات العربية المتحدة، قضت ستة أشهر في تعلم اللغة الرسمية لهذه الدولة، لكنها عند قدومها، وجدت أن جميع الناس يتكلمون الإنجليزية، فندمت على عدم استغلال ذلك الوقت في تعلم اللغة الإنجليزية! [50]

أما شعب الكامازينKamasins والذي كانت لغته الأصلية الصامويديةSamoyède، فقد انتقل الى اللغة التركية بدءا من 1840، ليجد نفسه بعد عشرين سنة قد انتقل الى اللغة الروسية! [51]

2-الانفتاح على "اللغة العالمية"

قد يفهم بعض الناس الدفاع عن اللغة العربية بأنه انطواء على لغة واحدة وانعزال عن معرفة جميع اللغات الأخرى وفي مقدمتها الإنجليزية باعتبارها الأكثر انتشارا في الوقت الحالي. إلا أن هذا الاعتقاد مجاف للمنطق تماما.

لقد كرم المولى عز وجل اللغة العربية بجعلها في آن واحد لغة القرآن الكريم، المصطفى (ص) والجنة، لكنه لم ينكر على الشعوب الأخرى استعمال لغاتها، حيث يقول تعالى: "ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين".[52] ولذلك، كان عليه الصلاة والسلام يرسل من يتعلم لغات أقوام أخرى ومن بينهم زيد بن ثابت والذي كان يحفظ القرآن الكريم عن ظهر قلب ويتعلم اللغات الأجنبية بطلب من رسول الله (ص)، بل إن ابن ثابت هو ذاته الذي أسند اليه الخليفة الراشد أبو بكر الصديق مهمة كتابة القرآن الكريم وأوكل إليه أيضا الخليفة الراشد عثمان بن عفان ما يعرف بالمرحلة الثانية من جمع القرآن الكريم في مصحف واحد بعد أن استلم هو والفريق العامل معه المصاحف الأربعة التي كانت عند أم المؤمنين حفصة بنت عمر[53] رضي الله عنهما.

وفي الواقع، لولا معرفة العلماء العرب القدامى للإغريقية لما اطلعوا على المؤلفات التي ترجموها ولولا التحكم في لغتهم لما أجريت الترجمة إليها.

---

[49]-Dominique Breillat, <<La sécurité linguistique>>, La sécurité humaine : théories et pratiques, (ouvrage collectif sous la direction de Rahim Kherrad), Pedone, 2010, p. 119

[50]-لطيفة النجار، المرجع السابق، ص25

[51]-La mort des langues, op. cit

[52]-سورة الروم/ 22

[53]-(Khalid Mohammed Khalid,2004), Des hommes autour du prophète, traduit par Abdou Harkat, Dar El Koutoub Al-Ilmiyah, Beyrouth, pp.194-195

كل ذلك يعني أن الدفاع عن اللغة العربية لا يعني رفض الانفتاح على لغة أخرى ، بل إنه يبتغي أن تأتي هذه الأخيرة ونحن نقف على أرضية صلبة لأنه "يجب أن يكون للمرء بيت حتى يمكنه استقبال الآخرين".[54]

إن الثقافات يفترض فيها أن تكون مثرية لبعضها بعض وليس ماحية لبعضها بعض ، لذلك ، فإنه عندما تصبح اللغة الأجنبية خطرا ، ستكون النتيجة الانغلاق بدلا من الانفتاح وهذا لن يكون في مصلحة البشرية. لذلك نجد عديدا من العلماء لا ينكرون أهمية معرفة اللغات الأخرى وثقافاتها للاستفادة المتبادلة وتوسيع آفاق الفكر.

لقد كان الإمام مالك بن نبي يقول أن "الضمير الإنساني الذي لم يألف العمل على حدود الثقافات ، مازال تسيطر عليه عادات جذبية مزمنة ، تحمله على أن يرى الأشياء من زاوية ضيقة (...) فنحن مضطرون أحيانا إلى أن نفكر في هذا النقص الذي أصاب الانسان ، فقعد به عن ملاحقة توقيت التاريخ وأن يفكر في سد هذا النقص".[55]

كما يرى الأستاذ مصطفى شريف أن "موروثنا الثقافي المتقاطع منبع ثمين للإلهام (...) إن الدوران الجميل للغات ، المعارف وروح الضيافة كل ذلك قد فسح المجال من ناحية إلى التأحدuniformisation ومن ناحية أخرى إلى الانطواء الثقافي".[56]

إن هذه المقولة تحمل أكثر من دلالة ، فالثقافات المختلفة لا شك أنها منبع إلهام واستفادة بالنسبة الى الجميع ، لما تحمله من لغات ومعارف وفنون وتجارب... ، غير أن كل ذلك مرهون بما أسماه الأستاذ مصطفى شريف"الدوران الجميل للغات" وليس فرض لغة واحدة لتسليط ثقافة واحدة على العالم بأكمله ، فهذه الهيمنة ، إما أن تقتل الثقافات الأخرى بلغاتها وإما أن تدفعها إلى خيار آخر سيئ وهو الانطواء على الذات.

وبناء عليه ، فإن التحدي الحقيقي بالنسبة الى العالم العربي هو كيف يمكن استعمال أي لغة أخرى وليس فقط "اللغة العالمية" كوسيلة ، دون الذوبان في ثقافتها. ويقتضي هذا الأمر:

من ناحية أولى: التمسك باللغة العربية والثقة بها والدفاع عنها لأن الأمراض الفتاكة لا تصيب سوى الأجسام التي ليست لها مناعة ، ومناعتنا كعرب هي في لغة ديننا وهويتنا ، نستعملها دون عقدة نقص ودون إلصاق تهمة التخلف بها ، لأن تخلفنا هو الذي أساء إليها وليس العكس.

من ناحية ثانية: الحذر من قول بعض أنصار "اللغة العالمية" بأن هذه الأخيرة لن تقتل اللغات الأخرى ، إذا كانت لم تقتل أصلا لغات الأقليات الموجودة فيها.

إن الولايات المتحدة تحترم فعلا لغات أقلياتها والأمثلة المؤكدة لذلك عديدة. إن الدستور الأمريكي 1787 لم ينص على لغة محددة كلغة رسمية للدولة ، مما أعطى الحق لعديد من الدويلات في اتخاذ مبادرة بهذا الشأن لمواجهة مزاحمة الاسبانية وهي لغة المهاجرين من أمريكا اللاتينية ، فنص دستور أريزونا على أن الإنجليزية

---

[54]-Ahmed Taleb Ibrahimi, op. cit, p. 194

[55]-مالك بن نبي ، مشكلة الثقافة ، ترجمة عبد الصبور شاهين ، دار الفكر ، دمشق ، 2009 ، ص 99

[56]-Mustapha Chérif, <<Ou va l'humanité>>, Le Soir d'Algérie, 26 octobre 2016, p.8

هي اللغة الرسمية والوحيدة لهذه الدويلة. غير أن القضاء اعتبر هذا القانون منتهكا لحرية التعبير كحق دستوري.[57]

كما أن قانون السكان الأصليين الأمريكيين 1992 يعترف للسكان الأصليين: الهنود، الألاسكيين وكذا السكان الأصليين لهواي وجزر المحيط الهادي ب"المحافظة على لغاتهم المحلية الأصلية وممارستها وترقيتها"[58]

غير أن الفارق بين السياسة الأمريكية الداخلية والخارجية شاسع جدا، فعلى الصعيد الداخلي، يضمن الدستور الفدرالي ودساتير الدويلات حقوق الأمريكيين. كما يدافع عنها قضاء مستقل وله الفضل في تفعيل نصوص الدستور بما يثري حقوق الأمريكيين أكثر فأكثر. أما على الصعيد الدولي، فإن موازين القوى تميل كلها لصالح الولايات المتحدة، فلا القانون الدولي ولا القضاء الدولي يمكنهما ردعها.

الخاتمة

في ختام هذه الورقة، يمكن التوصل الى بعض الاستنتاجات وكذلك ابداء بعض الاقتراحات

أولا: الاستنتاجات

تتمثل هذه الاستنتاجات في ما يلي:

1-وجود علاقة وطيدة بين اللغة والهوية الثقافية بكافة أبعادها بما في ذلك البعد الديني والذي يفرض أصلا على العرب المحافظة على لغة القرآن الكريم.

2-خطورة الاكتساح المبرمج للغة الإنجليزية والهادف الى فرضها ك "لغة عالمية" على حساب لغات الشعوب الأخرى.

3-خطورة الاختيار بين الانطواء الثقافي والذوبان في لغة وهوية الغير، لأن كلاهما لا يخلو من مساوئ.

ثانيا: الاقتراحات

على ضوء الاستنتاجات السابقة الذكر، يمكن تقديم الاقتراحات التالية:

1-عدم التعامل مع اللغات كما لو أنها محايدة، فجميع لغات العالم تعبر عن هوية مميزة، تاريخ ونظرة للعالم...

2-عدم الاستسلام للزعم بقدرة الإنجليزية وحدها على الحاق الدول العربية بركب الدول المتقدمة، بل إن عديدا من الدول أثبتت العكس، حيث تطورت في حضن لغاتها الأم.

3-عدم جعل العلاقة بين اللغة العربية و"اللغة العالمية" علاقة استسلام أو علاقة عداء، فالمطلوب هو المكانة الصلبة للغة العربية والانفتاح على بقية اللغات ومنها الإنجليزية، لأن الأرضية اللغوية الصلبة هي وحدها التي تسمح بالانفتاح على اللغات الأخرى والاستفادة منها دون عقدة نقص أو ذوبان في هويات الآخرين.

---

[57]-Dominique Breillat, op. cit, p. 121

أنظر أيضا التعديل الأول من الدستور الأمريكي 1787

[58]-Pour plus de détails, voir Intérêt culturel et mondialisation, Tome 1 : Les protections nationales, (sous la direction de NébilaMezghani et Marie Cornu), L'Harmattan, Paris, 2004, p. 331

قائمة المراجع

أولا: المصادر

1: باللغة العربية

-القرآن الكريم
- الدستور الأمريكي 1778
-المعاهدة العربية الثقافية

2-باللغة الفرنسية

-Déclaration universelle des droits des peuples proclamée à Alger en 1976
-La définition qualitativedu plurilinguisme du cadre européen commun de référence pour les langues du conseil de l'Europe de 2001,https://halshs.archives-ouvertes.fr/halshs-00690507/document ,consulté le 18/012/2016 à 16:30
-Larousse 2008, Editions Larousse, Paris, 2007.
-Rapport sur les droits linguistiques dans le monde : la situation actuelle, Nations Unies, Genève, 24avril 2008.

ثانيا: المؤلفات

1-باللغة العربية

-ابن خلدون ، عبد الرحمن ، المقدمة ، دار العلم ، بيروت ، 1978.
-ابن نبي مالك ، تأملات ، دار الفكر العربي ، دمشق ، الطبعة السادسة ،2006.
مشكلة الثقافة ، ترجمة عبد الصبور شاهين ، دار الفكر ، دمشق ، 2009.
-البخاري أبي عبد الله 194-256ه ، صحيح البخاري ، دار صادر ، بيروت.
-النجارلطيفة ، اللغة...جدل الهوية والمعرفة ، العالم العربي للنشر والتوزيع ، دبي ، 2008.
-فضلا ، محمد الطاهر ، عبد الحميد بن باديس وأوثان الاستعمار ، دار الشهاب ، باتنة ، (بدون تاريخ نشر).
-قلعه جي محمد راوس ، موسوعة فقه عمر بن الخطاب ، (بدون دار ومدينة نشر) ، 1981.
-مقبول إدريس ، المخفي والمعلن في الخطاب الأمريكي ، منشورات الزمن ، الدار البيضاء ، 2007.
-Benhala,Fouad, Le choc de la communication globale : pouvoirs et sociétés arabes face au défi, Publisud, Paris, 2005.
-Boniface,Pascal, Comprendre le monde, ANEP, Alger, 2010.
-Breillat,Dominique,<<La sécurité linguistique>>, La sécurité humaine : théories et pratiques, (ouvrage collectif sous la direction de Rahim Kherrad), Pedone, 2010.
-Cornu,Marieet Mezghani,Nébila, (sous la direction de), Intérêt culturel et mondialisation, Tome 1 : Les protections nationales, L'Harmattan, Paris, 2004.
-Grégoire,Abbé,<<Une république une et indivisible, l'usage unique et invariable de la langue de la liberté>>, Etre français. Les Grands textes de Montesquieu à Edgar Morin : Les nouveaux défis, Le Monde, (hors-série), 2016.
-Ibrahimi, Ahmed Taleb, De la décolonisation à la révolution culturelle (1962-1972), SNED, Alger, 3eme édition, 1981.
-Khalid, Mohammed Khalid, Des hommes autour du prophète, traduit par Abdou Harkat, Dar El Koutoub Al-Ilmiyah, Beyrouth, 2004.
-Cassen, Bernard,<<Un monde polyglotte pour échapper à la dictature de l'anglais, Le Monde diplomatique, n° 610, 2005,(22)
-Chérif, Mustapha, <<Ou va l'humanité>>, Le Soir d'Algérie, 26 octobre 2016, (8)
-Hope, Dominique, <<Le cout du monolinguisme des Organisations internationales>>, Le Monde diplomatique, n°734, Mai 2015,(9)

-Laucci, Cyril,<<Quand le droit anglo-saxon s'impose>>, Le Monde diplomatique, n°721, avril 2014, (16)
-Nye,Joseph S., <<Soft Power>>, Foreign Policy, N :80, Automn, 1990,(153-171)
-Schiller,Herbert, <<Vers un nouveau siècle d'impérialisme américain>>, Le Monde diplomatique, n°533, 1998, (17)
-Aronin,LarissaRomi-Masliah, Daphné, <<L'anglais et les cultures : carrefour ou frontière ?>>, Droit et culture (Online), 54/2007-2 online since 28 january 2009, connection on 04 october 2016 : http://droitculture.revue.org/67
- Benachenhou,Mourad,<<Décoloniser la linguistique>>,www.algériesite.com.article-5223946 ,consulté le 27/01/2017à 14 :23 mn
-Fréchette, Christine, <<Protéger la langue à l'ère de la mondialisation>>, mars 2007,www.cslf.gouv.qc/publications/pubf220/f220.pfd, consulté le 18/07/2010 à 9h10mn
- La mort des langues, http://www.axl.cefan.ulaval.ca/langues/2vital.ca/langues/2vitalmordlangues.htm ,consulté le 18/12/2016 à 18h 30mn

العنف ضد المرأة : الأسباب والعلاج

Violence against women: causes and treatment

د.حواس فتحية ، جامعة الجزائر1 - الجزائر
ط د. براهمي حنان ، جامعة الجزائر 1- الجزائر

مقدمة:

تعتبر ظاهرة العنف ضد المرأة مشكلة عالمية تعاني منها المجتمعات المتقدمة والمتخلفة ، حيث أصبحت الدول تعمل جاهدة قصد التقليص من تبعاتها السلبية ، لذلك توالت الدراسات والاهتمامات بالعنف الموجه ضد المرأة ، والذي من أهم مظاهره العنف الجسدي والعنف النفسي ، الإهمال العائلي والاعتداءات الجنسية. كل هذه العوامل قد تكون سببا رئيسيا في ولوجهم عالم الانحراف والجريمة والانعزال والمرض ، وهنا تتحول المرأة من عامل لبناء المستقبل الزاهر للبلاد إلى أداة هدم لمقومات البلاد والمجتمع.

وعليه إن الاهتمام بالمرأة وتفادي كل العقبات التي تؤثر عليها سلبا من شأنه أن يثمن القدرات المستقبلية للمجتمع في سبيل مواجهة التحديات العالمية التي ما فتئت تتزايد وتتغير من سنة لأخرى.

إن هذه الدراسة ستلقي الضوء على هذه الظاهرة كمشكلة اجتماعية ، لمحاولة إيجاد رؤية مستقبلية في سبيل تجنبها.

إن دراستنا سوف تتناول المحورين التاليين:

-ماهية العنف ضد المرأة:(المفهوم-الأنواع-الأسباب)

-آثار العنف ضد المرأة والحلول المقترحة لعلاجه.

المبحث الأول: ماهية العنف ضد المرأة:

العنف ضد المرأة سلوك أو فعل موجه إلى المرأة يقوم على القوة والشدة والإكراه ، ويتسم بدرجات متفاوتة من التمييز والاضطهاد والقهر والعدوانية ، ناجم عن علاقات القوة غير المتكافئة بين الرجل والمرأة في المجتمع والأسرة على السواء ، والذي يتخذ أشكالا نفسية وجسدية متنوعة في الأضرار ، وهذا العنف ناتج عن عدة أسباب. وعليه سنعالج في هذا المبحث نقطتين أساسيتين وهما مفهوم العنف ضد المرأة (مطلب 1) وأسبابه (مطلب2).

المطلب الأول: مفهوم العنف ضد المرأة: إن مفهوم العنف قديم الوجود ، ولقد كانت له نتائج سيئة على استمرار المجتمعات وتقدمها ، ولذلك سوف نتطرق في هذا المطلب إلى تعريف العنف ضد المرأة (الفرع 1) ثم إلى أنواعه (الفرع 2).

الفرع الأول:تعريف العنف ضد المرأة: قبل التطرق إلى تعريف العنف ضد المرأة ، علينا أولا تعريف العنف.

أولا: تعريف العنف: يكاد يكون من الصعب تقديم تعريف موحد للعنف وذلك لاختلاف اهتمامات وتخصصات الباحثين في هذا الصدد. لذا نجد أن تعريف العنف في علم النفس أو علم الاجتماع ، يختلف عن

تعريفه في علم السياسة أو القانون وعلم الإجرام. كما أنه يعرف أحيانا بطرق تختلف باختلاف الأغراض التي يكون مرغوبا الوصول إليها ، وباختلاف الظروف المحيطة أيضا.

يعرف العنف في اللغة على أنه: "الخرق بالأمر وقلة الرفق به وهو ضد الرفق.ويقال: عنفه تعنيفا ، إذا لم يكن رفيقا في أمره ، وهو الشدة والمشقة ، وكل ما في الرفق من الخير ففي العنف من الشر مثله"(ابن منظور ، 1996 ، ص257).

وكلمة العنف تعني ينتهك أو يؤدي أو "violare" وهي مشتقة من الكلمة اللاتينية "violence" ، وكلمة يغتصب ، فالعنف إنتهاك أو أذى يلحق بالأشخاص والأشياء (جميل صليب ، دس ، ص120).

وقد ذكر قاموس ويبستر أن العنف هو القوة الجسدية التي تستخدم للإيذاء أو للإضرار (Webster's,1979,p22).

وقد عُرِّفَ العنف في بعض العلوم الإنسانية المعاصرة تعريفا مشابها ، فجاء في المعجم الفلسفي بأنه: "العنف مضاد للرفق ، ومرادف للشدة والقسوة ، والعنيف هو المتصف بالعنف ، فكل فعل شديد يخالف طبيعة الشيء ويكون مفروضاً عليه من خارج فهو بمعنى ما فعل عنيف"(جميل صليبة ، 1982 ، ص112).

كما عُرِّف في العلوم الاجتماعية بأنه "استخدام الضبط أو القوة استخداماً غير مشروع أو غير مطابق للقانون من شأنه التأثير على إرادة فرد ما" (أحمد زكي بدوي ، 1986 ، ص441).

وإذا كانت هذه التعريفات موجودة في معاجم اللغة والفلسفة وعلم الاجتماع إلا أنها لم تستخدم بشكل منظم وبالمعنى المتعارف عليه في الدراسات النفسية والاجتماعية إلا منذ وقت قريب. وقبل ذلك استخدمت تعابير والفاظ أخرى ، منها:العدوان ، والعداوة ، والتدمير ، والسلوكيات العنيفة ضد الذات وضد الآخرين...وما إلى ذلك من ألفاظ كانت تعبر عن حالات الضرب والقتل والحاق الضرر بالممتلكات.

هذا من ناحية العنف بشكل عام ، أما ربط هذا العنف بالمرأة فلم يبدأ إلا بعد أن بدأ الاهتمام الدولي بهذه القضية ، وبعد أن أصدرت الأمم المتحدة الإعلانات والتوصيات المتعلقة بقضية العنف الأسري بشكل عام والعنف ضد المرأة بشكل خاص.

ثانيا: تعريف العنف ضد المرأة: بدأ الحديث عن قضية العنف ضد المرأة يأخذ حيزا كبيرا من اهتمامات المنظمات النسائية منذ أواخر القرن العشرين مع بدء صدور الاتفاقيات الدولية الخاصة بالمرأة.

ويعرف العنف ضد المرأة في الإعلان العالمي للقضاء على العنف ضد المرأة والذي تبنته الجمعية العامة للأمم المتحدة سنة 1993 ، في مادته الأولى على أنه: "يقصد بالعنف ضد النساء أي فعل عنيف قائم على أساس الجنس ينجم عنه أو يحتمل أن ينجم عنه أذى أو معاناة جسمية أو نفسية للمرأة ، بما في ذلك التهديد باقتراف مثل هذا الفعل ، أو الإكراه أو الحرمان التعسفي من الحرية ، سواء أوقع ذلك في الحياة العامة أو الخاصة" (الإعلان العالمي للقضاء على العنف ضد المرأة ، 1993)[1].

[1] الإعلان العالمي للقضاء على العنف ضد المرأة والذي تبنته الجمعية العامة للأمم المتحدة سنة 1993.

وحسب هذا التعريف فان العنف ضد المرأة هو السلوك الممارس ضد المرأة والمدفوع بالعصبية الجنسية ، مما يؤدي إلى معاناة وأذى يلحق المرأة في الجوانب الجسدية والنفسية والجنسية ، ويعد التهديد بأي شكل من الأشكال والحرمان والحد من حرية المرأة في حياتها الخاصة أو العامة من ممارسات العنف ضد المرأة.

فيعرف العنف ضد المرأة بأنه السلوك أو الفعل موجه إلى المرأة على وجه الخصوص سواء أكانت زوجة أو أماً أو أختا أو ابنة ، ويتسم بدرجات متفاوتة من التمييز والاضطهاد والقهر والعدوانية ناجم عن علاقات القوة غير المتكافئة بين الرجل والمرأة في المجتمع والأسرة على حد سواء ، والذي يتخذ أشكالا نفسة وجسدية متنوعة في الأضرار(هادي محمود ، 2003 ، ص3).

الفرع الثاني:أنواع العنف ضد المرأة: هناك أنواعٌ عديدة من العنف ، منها المادي الملموس النتائج ، ومنها المعنوي الذي لا يترك أثراً واضحاً على الجسد وإنما يترك آثارا على النفس.فالعنف ضد المرأة لا ينحصر في شكل واحد بل يأخذ عدة أشكال نتناولها كما يلي في هذا الفرع.

ربط المؤتمر العالمي لحقوق الإنسان والذي صدر عنه ما يعرف بإعلان وبرنامج عمل فينا (1993) بين العنف والتمييز ضد المرأة ، حيث نص تحت بند المساواة في المراكز وحقوق الإنسان للمرأة ، الفقرة (38) على أن مظاهر العنف تشمل المضايقة الجنسية والاستغلال الجنسي ، والتمييز القائم على الجنس والتعصب والتطرف والحمل العشري ، وقد جاء في الفقرة المذكورة ما يلي: " يشدد المؤتمر العالمي لحقوق الإنسان بصفة خاصة على أهمية العمل من أجل القضاء على العنف ضد المرأة في الحياة العامة والخاصة والقضاء على جميع أشكال المضايقة الجنسية والاستغلال والاتجار بالمرأة ، والقضاء على التحيز القائم على الجنس في إقامة العدل وإزالة أي تضارب يمكن أن ينشأ بين حقوق المرأة والآثار الضارة لبعض الممارسات التقليدية أو المتصلة بالعادات والتعصب الثقافي والتطرف الديني "(إعلان مؤتمر فيينا لحقوق الإنسان ، 1993).

حسب الإحصائيات المقدمة في اليوم العالمي لمكافحة العنف ضد المرأة والمعروضة في اليوم التحسيسي الذي نظم من طرف المجلس الشعبي الولائي لولاية العاصمة وأكاديمية المجتمع المدني والمرصد الوطني للمرأة فإنه قد تم تسجيل 6985 حالة عنف ضد المرأة عبر الوطن في التسعة أشهر الأولى لسنة 2014 ظهرت في عدة أشكال تصدرها العنف الجسدي بـ 5163 حالة (73%) ثم 1508 حالة عنف نفسي و205 حالة عنف جنسي كما وتعرضت 27 إمرة للقتل العمدي. وفيما يخص فئات النساء المعنفات فقد بينت نفس الإحصائيات أن العنف ضد المرأة لا يستثني فئة بعينها حيث استهدفت النساء المتزوجات بتعداد 3847 سيدة متبوعة بفئة العازبات ب 1875 حالة و791 حالة بالنسبة للمطلقات و440 للأرامل ، والأمر سيان بالنسبة للأطراف المسببة للعنف حيث تعددت فئاته أيضا معظمهم الأزواج بتعداد 3533 و 2272 بالنسبة للعزاب. وأوضح ذات التقرير أن تعرض المرأة للعنف في المجتمع بمختلف أشكاله لم يعد مقتصرا على فئة عمرية محددة بل امتد لكل الشرائح العمرية كما أنه مس المرأة بمختلف مستوياتها التعليمية ودون تفريق أيضا بين العاملات والماكثات في البيوت ، وعن الفضاءات التي يمارس فيها العنف ضد المرأة اتضح أن البيت العائلي أول الأماكن الذي تتعرض فيه المرأة للتعنيف ب 33321 حالة بنسبة تزيد عن 47% من الحالات المسجلة. وأكد التقرير في الأخير أن هذه الأرقام غير نهائية ولا تعبر عن الواقع الذي تعيشه المرأة الجزائرية بالنظر إلى عدم تقدم الكثير من المعنفات للتبليغ عن العنف الذي تتعرضن له خاصة إذا كان من الوسط العائلي خوفا من العقاب أو نبذ

المجتمع لهن والذي تحكمه عادات وتقاليد تبيح العديد من الممارسات المصنفة في دائرة العنف ضد المرأة والذي تراجع في هذه السنة مقارنة بالسنتين الفارطتين أين سجلت 12000 حالة عنف ضد المرأة سنة 2012 و11000 حالة خلال2013(المرصد الوطني للمرأة و آخرون ، 2014).

أولا-العنف النفسي: يعتبر العنف النفسي من أخطر أنواع العنف فهو غير محسوس وغير ملموس ولا اثر واضح له للعيان وهو شائع في جميع المجتمعات غنية أو فقيرة متقدمة أو نامية وله أثار مدمرة على الصحة النفسية للمرأة وتكمن خطورته أن القانون قد لا يعترف به كما ويصعب إثباته.

وهو العنف الممارس ضد المرأة من خلال ألفاظ مهينة أو شتائم تنتقص من قدرتها ، بالإضافة إلى التهديد اللفظي وسوء المعاملة ، فهو أي فعل مؤذ لنفسية المرأة ولعواطفها بدون أن تكون له أية آثار جسدية ، إلا أن الآلام الناتجة عنه تكون في الغالب أكبر لاستمراريته في الغالب ، ولكونه يحطم شخصية الإنسان ويزعزع ثقته بنفسه ، ويؤثر على حياته في المستقبل. ومن مظاهر هذا العنف (الشتم ، الإهمال ، عدم تقدير الذات ، التحقير ، النعت بألفاظ بذيئة ، الإحراج ، المعاملة كخادم ، توجيه اللوم ، الاتهام بالسوء ، إساءة الظن ، التخويف ، الشعور بالذنب)(زينات المنصوري ، 2002 ، ص5).

ويدخل في هذا النوع أيضا حرمان الفتاة من حق اختيار شريك حياتها وإجبارها على الزواج دون رضاها ، وتسليم نفسها لرجل لا ترغب فيه ، وإكراه الصغيرة على الزواج برجل مسن ، وإكراه المرأة على الإنجاب رغم العوائق الصحية لديها ، وتهديدها بالطلاق(نهى عدنان القاطرجي ، 2009 ، ص7).

ويظهر العنف النفسي الواقع على المرأة في مجموعة من الصور(براهمة نصيرة ، 2015 ، ص113):

-العنف بالاستخدام الألفاظ أو الكلام: يعد العنف اللفظي من أشد أنواع العنف خطرا على الصحة النفسية للمرأة ، حيث يترك أثارا واضحة للعيان يتم فيه توجيه الفعل مباشرة إليها باستخدام ألفاظ هجومية مباشرة ، وهو عنف يقف عند حدود الكلام والإهانات ومن أشكاله السب الشتم ، واستخدام الألفاظ البذيئة بحق المرأة ، الصراخ الدائم والقاسي على المرأة للإنجاز العمل على أساس أنه أفضل وسيلة للتواصل معها.

-العنف بالاستخدام التهديد: التهديد هو "التوعد باستخدام القوة المادية أو السلطة (قوة نفسية) ينتج عنه أذى جسدي ، جنسي ، نفسي ، أو أثار أخرى سلبية للأفراد أو الجماعات الموجه التهديد نحوهم" ، ويتم التهديد بأشكال متعددة منها التهديد بالضرب أو التهديد بالطلاق ، أو التهديد بتقييد الحرية أو التهديد بالإرغام على مالا تحبه المرأة ، التهديد بفرض عقوبات.

-العنف بالاستخدام الإيحاءات أو الإشارات أو الامتناع عن القيام بفعل ما: المقصود هنا هو الممارسة العنفية السلبية أي التي تحدث أثرا رغم عدم تلفظ الفاعل بأي كلمة ويبدو هذا الشكل من العنف في مجموعة من المظاهر: الامتناع عن الكلام معها ، توجيه نظرات الازدراء والاحتقار والاشمئزاز والتوعد نحوها ، التمييز في التعامل بينها وبين الرجل ، التكلم معها بالإشارة كأن يطلب منها الذهاب أو السكوت باليد ، عدم رد التحية عليها ، عدم الجلوس والنوم معها(في حال الزوج)، عدم الأكل معها أو الامتناع عن أكل الطعام الذي تعده ، عدم الاهتمام بها وبكل ما يعنيها وعدم الاعتناء بها في حال المرض والامتناع عن تقديم المساعدة لها.

وفي هذا تشير الإحصائيات الصادرة عن فرنسا على سبيل المثال إن المرأة واحدة من كل خمسة نساء تتعرضن لضغوط أو عنف جسدي أو كلامي في الأماكن العامة ، كما بينت الدراسات في فلسطين ان 9% من

النساء الفلسطينيات تعرضن إلى شكل من أشكال العنف النفسي وأن59 % منهن تعرضن للإهانة والشتم واللغة البذيئة وتسميتهن بأسماء مهينة من قبل أزواجهن أو قد تعرضن هؤلاء النساء لأشكال الثانية من العنف في أن واحد ، وهذا النوع من العنف غالبا يكون إثباته صعبا لأنه يصيب الفرد في أعماقه(حداد العيد ، 2009 ، ص38).

ثانيا- العنف الجسدي: يعد العنف الجسدي من أكثر أنواع العنف انتشارا ضد المرأة وعادة ما يتسبب به زوجها أو احد أفراد عائلتها من الذكور ، ويشمل هذا النوع من العنف أي أذى جسدي يلحق بالمرأة سواء كان اعتداء بالضرب أو باستخدام آلة ، وتترتب على العنف الجسدي مخاطر صحية ونفسية كبيرة للضحية ، وقد يتسبب في بعض الأحيان بوفاة الضحية نتيجة القوة المفرطة والضرب المبرح الذي تعرضت له(سوسن شاكر مجيد ، 2012 ، ص57).

هو أشد وأبرز أنواع العنف ، وهو الذي يتعلق بالأذى الجسدي واستخدام القوة ، ويتراوح من أبسط الأشكال إلى أخطرها وأشدها (الضرب ، شد الشعر ، الصفع ، الدفع ، المسك بعنف ، لَيّ اليد ، الرمي أرضاً ، اللكم ، العض ، الخنق ، الحرق ، الدهس ... الخ) (زينات المنصوري ، 2002 ، ص10).

إن العنف الجسدي الموجه نحو المرأة عنف ظاهر للعيان تستخدم فيه قوة بدنية أي استخدام اليدين والرجلين بحيث توجه اللكمات و الضربات للضحية على الوجه والرأس وسائر مناطق الجسم ، كما قد يتم اللجوء إلى أدوات أخرى في ممارسة العنف الجسدي مثل الكرسي ،الزجاج ، العصا أو السكين ... ، أي أن العنف الجسدي فعل أو امتناع عمدي (أي عدم منع الأذى عن المرأة متعمدا) يمس سلامة جسم المرأة ويؤدي إلى الإخلال الطبيعي لوظائف أعضائها أو ينقص من تكامل الجسد أو يوجد ألاما لم تكن تشعر بها قبل الاعتداء عليها بالعنف الجسدي ، ونظرا لكون العنف الجسدي عنف ظاهر وملموس يمكن تقديم الدليل عليه فإن القانون يعاقب على هذا السلوك ويردعه حسب درجة خطورته وأثاره الواقعة على الضحية و العقوبة هنا تتوقف على مدى إبلاغ المرأة القائمين على تطبيق القوانين عن العنف المتعرضة له(براهمة نصيرة ، 2015 ، ص112).

ومن أشكال العنف الجسدي أيضا : (نهى عدنان القاطرجي ، 2009 ، ص8):

- الإجهاض التمييزي: الذي يتمثل في إزالة الأجنة الإناث. وهذه المشكلة قائمة في الهند والصين وكوريا الجنوبية.

-جريمة الشرف: وهي" الجريمة التي تذهب ضحيتها امرأة متزوجة أو عزباء ، بسبب انحرافها الذي يمكن أن يكون واقعيا او مفترضا. ويرتكبها عادة أخ أو أب أو ابن أو عم أو ابن عم المنحرفة ، زاعما انقاذ شرف العائلة ".

- الختان: وهو استئصال بعض أو كافة الأعضاء الظاهرة من الجهاز التناسلي للمرأة ، خاصة الحساسة منها كالبظر.

وتتعدد التقارير والإحصائيات حول مدى انتشار هذا النوع من العنف بين النساء منها إحصائيات كشفت عنها عميدة الشرطة المكلفة بقضايا العنف ضد المرأة السيدة "أمسعودان خيرة" أن 5047 امرأة في الجزائر تعرضت للعنف الجسدي في تسعة أشهر الأخيرة من سنة 2015(إحصائيات الأمن الوطني ، 2015).

كما التقرير الذي أصدرته الأمم المتحدة في عام 2001 الذي ظهر فيه إن واحدة من بين كل ثلاث نساء في العالم تعرضت للضرب أو الإكراه على ممارسة الجنس أو إساءة المعاملة بصورة أو بأخرى ، وغالبا ما تتم هذه الانتهاكات لحقوق المرأة بواسطة إنسان يعرفه جيدا(حداد العيد ، 2009 ، ص36).

ومنها أيضا الدراسة التي أجرتها منظمة الصحة العالمية عن صحة المرأة والعنف المنزلي الممارس ضدها في عدة بلدان عام 2005 شملت عشرة بلدان هي أساسا من البلدان المنخفضة والمتوسطة الدخل ، بلغت 15 % منهن في اليابان و 71 % منهن في إثيوبيا والبيرو تعرضت للعنف الجسدي(منظمة الصحة العالمية ،2013).

منها أيضا تقرير صندوق الأمم المتحدة لرعاية الطفولة " اليونيسيف " تناول دراسة في مصر ذكر فيها أن 35 %من النساء المصريات تعرضن للضرب على أيدي أزواجهن مرة واحدة على الأقل . أما برنامج الأمم المتحدة للتنمية فيشير إلى أن ثلثي النساء على الأقل تعرضن خلال حياتهن لصورة من صور المنزلي و أن هذه الظاهرة تؤثر على أربع ملايين من النساء في ألمانيا وفي اليابان . وفي كوريا عانت 25 % من النساء المعاملة السيئة من شركائهم ، وفي فرنسا 95 % من ضحايا العنف من النساء51 % منهن نتيجة تعرضهن للضرب من قبل أزواجهن أو أصدقائهن(حداد العيد ، 2009 ، ص36).

أما في كندا فان 60 % من الرجال يمارسون العنف ، وفي الولايات المتحدة الأمريكية 4 ملايين من النساء يتعرضن للعنف من الأزواج ، ويعتبر الضرب والعنف الجسدي السبب الرئيسي في الإصابات البليغة للنساء في الهند نساء من بين 10 نساء من ضحايا العنف سواء العنف الأسري أو القتل. وفي البيرو 70 % من الجرائم المسجلة لدى الشرطة هي لنساء تعرضن من قبل أزواجهن.

أما في تركيا 60 % من النساء التركيات فوق سن الخامسة عشر تعرضن للعنف أو الضرب أو الإهانة أو الإذلال على أيدي رجال من داخل أسرهن سواء من الزوج أو الخطيب أو الصديق أو الأب أو والد الزوج , و أشارت الدراسات التركية إلى أن 50 % يتعرضن للضرب بشكل مستمر و أن 40 % منهن يرجعن السبب في ذلك لظروف اقتصادية وتناول الكحول ، وبينت الدراسة أن 25 % فقط من أولئك النساء اللاتي يتعرضن للعنف يقمن بالرد على العنف مماثل في حين أن 10 % فقط منهن يتركن المنزل احتجاجا على العنف الذي يتعرضن له. الغريب ان 70 %من هؤلاء السيدات اللاتي يتعرضن للضرب لا يحبذن الطلاق حفاظا على مستقبل الأولاد في حين 15%فقط منهن لا يطلبن التطليق بسبب حبهن لأزواجهن(حداد العيد ، 2009 ، ص37).

أما في مصر فقد ظهرت دراسة حديثة أن 81 %من النساء يتعرضن للضرب ، وفي لبنان بينت الدراسة ان 76 %من نساء لبنان يتعرضن للضرب. وفي الجزائر خمسة من بين عشرة نساء يتعرضن للاعتداء يوميا(حداد العيد ، 2009 ، ص38).

ثالثا- العنف الجنسي: ويقصد بالعنف الجنسي التلامس الجنسي بالإكراه أو إجبار المرأة على ممارسة جنسية دون موافقتها أو ممارسات جنسية ناقصة أو كاملة مع امرأة مريضة أو معاقة أو تحت ضغوط أو تحت تأثير الخمر أو أي مخدرات أخرى ، ومن أشكال العنف الجنسي الاغتصاب ممارسة الجنس بسبب الخوف من التعرض للأذى ، الإكراه على ممارسات جنسية تشعرها بالهوان والدونية(مرفت تلاوي ، 2012 ، ص11).

والعنف الجنسي داخل نطاق العائلة، وهو " الاستدراج بالقوة والتهديد إما لتحقيق الاتصال الجنسي أو لاستخدام المجال الجنسي في الإيذاء " كالتحرش، الشتم بألفاظ نابية، الهجر من قبل الزوج، الإجبار على ممارسة الجنس، هذا النوع من العنف يؤدي إلى بعض الحرج خاصة في العلاقات الزوجية. أما خارجها فيتمثل هذا العنف بالتحرش الجنسي والشتم بألفاظ نابية(محاسن الحواتي، 2004، ص13).

والملاحظ في موضوع العنف الجنسي إدراج موضوع العلاقة الزوجية بداخله، حيث ينادي عدد من الهيئات والمراكز المهتمة بحقوق المرأة بتجريم ما يسمونه بـ" باغتصاب الزوجة". وترى هذه الهيئات أن هذه جريمة يجب أن يقف لها القانون بالمرصاد وأن يمنعها لأنها تندرج في نطاق العنف الأسري (نهى عدنان القاطرجي، 2009، ص8).

ومن الإحصائيات في هذا المجال ما أحصته مصالح الدرك الجزائرية خلال الفترة الممتدة من 2000 إلى 2006 أي في مدة 6 سنوات حوالي 5 آلاف فعل مخل بالحياء وفي عام 2006 فقط أكثر من 1153 حالة اعتداء جنسي تعددت صوره و أشكاله و الأطراف المتسببة فيه(قنيفة نورة، 2012، ص174).

وبالتالي العنف الجنسي يظهر في كافة الفضاءات داخل المحيط العائلي للمرأة و خارجه و من أشكاله:

-الانتهاك الجنسي للزوجة: هو الأذى ذو الطبيعة الجنسية ويعرف بأنه لجوء الزوج إلى استخدام قوته وسلطته لممارسة الجنس مع زوجته من غير مراعاة لوضعها الصحي أو النفسي، أو رغبتها الجنسية، أو الإجبار على القيام بأفعال جنسية لا تقبلها المرأة (رجاء مكي، ساهم عجم، 2008، ص93). وعنف الزوج الجنسي لزوجته أشبه بالاغتصاب ذلك لأنه يدخل في نطاق إجبار المرأة على ممارسات جنسية لا ترغب فيها أو تؤذيها.

-التحرش أو المضايقة الجنسية:كل السلوكيات ذات الطبيعة الجنسية غير المرغوب فيها، يكون على أشكال مختلفة تبدأ باللمس لتنتهي إلى الاتصال الجنسي.ويظهر التحرش الجنسي في مجموعة من الممارسات أهمها الملامسة الجسدية المقصودة غير المرغوب فيها، والملاصقة الجسدية في غير محلها، وكذا القرص، والتحسس لأحد أعضاء الجسد، التقبيل، أو محاولة التقبيل وأيضا الإيحاءات الجنسية، الحديث الجنسي المنفتح، التعليقات على الأشخاص والاستهزاء بأعضائهم الجنسية وكذا استخدام حركات جنسية معينة مثل الإيماءة بالرأس أو الأصابع أو القيام بحركات مقترنة بالأيدي أو الأرجل، أو الجلوس في وضعيات مغرية بالإضافة إلى تعمد ارتداء ملابس غير ساترة لمواضع الإغراء في الجسم، أو النظرات الدالة إلى تلميحات جنسية، الأسئلة أو التلميحات التي تخص الحياة الشخصية والجنسية للمرأة، التحرش الصريح المرفق بالتهديد أو المبادلة كأن يهدد المرأة بفضح أخطاء ارتكبتها إن لم تلبي رغبة الرجل، أو أن يشترط تقديم تنازلات جنسية مقابل الحصول على أموال أو امتيازات أو خدمات و أخيرا إرسال رسائل أو صور خادشة للحياء عبر الهواتف والرسائل البريدية أو الالكترونية أو مواقع التواصل الاجتماعي (براهمة نصيرة، 2015، 114).

-الاغتصاب: وهو آخر مرحلة من مراحل التحرش الجنسي و يقصد به ممارسة الجنس أو الجماع دون موافقة الطرف الآخر، ويعتبر من أكثر أنواع العنف وحشية وأشدها تدميرا للروح و البدن وله آثار حادة على الضحية وأسرتها تمتد إلى نهاية العمر.

رابعا. العنف الاقتصادي: العنف الاقتصادي ضد المرأة أحد أشكال العنف المبني على التمييز ونتيجة لأنواع أخرى من العنف حيث أنه يمكننا أن نلاحظ هذا النوع من العنف في عدة مستويات حسب وضع المرأة ،

فمن ناحية يمكن للمجتمع أن يحرم النساء من فرص التأهيل المختلفة سواء بحرمان الفتيات من التعليم والدراسة أو منع النساء من تلقي التدريب أو حتى العمل لاحقا تحت حجج الأعراف والمرجعيات الدينية فتبقى النساء تابعة اقتصاديا للمعيل ويقتصر عملها على القيام بأعمال المنزل مجانا ، ومازالت النساء في الأرياف يقمن بأدوار إضافية خارج المنزل كالعمل في الأراضي الزراعية مجانا دون تحقيق أي أمن أو استقلالية اقتصادية. بينما تعاني النساء العاملات من التمييز ضدهن في أماكن العمل سواء من حيث فرق الأجور أو الترقي على السلم الوظيفي بين الجنسين ، ويعانين من ضغط الأعباء الإضافية في المنزل حيث لا يعترف المجتمع بضرورة تقسيم الأدوار داخل المنزل حتى ولو شاركت النساء بالدعم الأسرة ماليا.

ومن أهم مظاهر العنف الاقتصادي ما يلي:

-حرمان المرأة من العمل أي من الحصول على أي مدخول مادي وبالتالي من المشاركة الاقتصادية للرجل التي سيقابلها مشاركة في اتخاذ القرارات سواء أكانت خاصة بها ، كما أن عدم تغطية مصاريف المرأة و تلبية حاجاتها الضرورة تدلل هي الأخرى على العنف الاقتصادي.

-في حال السماح للمرأة بالعمل يتبن مظهر آخر يتمثل في أخذ مال المرأة و الاستيلاء على راتبها الخاص أو عدم إعطاءها الحرية الكاملة في التصرف في أموالها و قد يكون هذا العنف في كثير من الأحيان بإرادة المرأة التي تحاول أن تدفع للرجل سواء أكان أبا أو أخا أو زوجا ثمن السماح لها بالخروج من فضاءها الداخلي.

-حرمان المرأة من الميراث المقرر لها شرعا وقانونا حجة أنها سوف تتزوج ومالها يذهب إلى شخص أجنبي عن العائلة.

خامسا. العنف القانوني: يمكننا تعريف العنف القانوني على أنه :التمييز ضد النساء على أساس النوع الاجتماعي في الدساتير أو القوانين الوطنية مما يخلف أذية للنساء ، فبالإضافة لعدم عدالة هذه القوانين ومساواتها للجنسين فإنها تكون السبب بحد ذاتها بضرر نفسي أو جسدي أو اقتصادي أو جنسي...الخ. ويظهر التمييز بأوضح أشكاله في قوانين العقوبات والأحوال الشخصية خصوصا في المنطقة العربية التي لم تحقق حتى الآن تقدما ملموسا في الحد من التمييز ضد المرأة.

المطلب الثاني. أسباب العنف ضد المرأة: تتعرض المرأة للعنف لعدة أسباب قد يجتمع عدد منها في الوقت نفسه وتتشابك ، مما يؤدي إلى أذية المرأة بشكل أكبر واعنف سواء من الناحية النفسية أو الجسدية ، وترجع أسباب العنف ضد المرأة إلى دوافع اجتماعية ونفسية واقتصادية وأسباب أخرى مختلفة سنتطرق إليها في هذا المطلب على شكل فروع كما يلي:

الفرع الأول:الدوافع الاجتماعية: إن العنف ضد المرأة قد يعود لأسباب اجتماعية تاريخية أساسها أساليب التنشئة الاجتماعية التي تجعل الذكور أكثر سيطرة وتحكما ، كما قد يرتبط بطريقة تفكير الرجل وإيديولوجيته التي ترى أنه لابدّ أن يكون مسيطرا على الأشياء والمؤسسات والمرأة جسميا واقتصاديا وسياسيا ونفسيا ، فلا تعود إلى الفروق البيولوجية ، بل تعود إلى ما تسمح به الثقافة وما يسمح به المجتمع بالنسبة للذكور والإناث ، وما يتوقعه المجتمع من الجنسين ، بل إن الذكورة و الأنوثة لا تحدد بالصفات التشريحية ولكن باختلاف الفروق الثقافية والتوقعات الاجتماعية ومن ثم فالأفعال والممارسات العنفية منطقيا هي محصلة عملية

التنشئة الاجتماعية ، حيث تتشكل لدى الأفراد في المجتمع الواحد المعايير التي يلجئون إليها في التعامل لاسيّما أن هذه المعايير هي قواعد غير مكتوبة تحدد السلوك المقبول من غير المقبول".

إن العوامل الاجتماعية من أبرز الدوافع لارتكاب العنف ضد المرأة وتشمل العوامل الاجتماعية تدني مستوى التعليم وتفشي الجهل بين أفراد المجتمع ، وبالتالي سهولة التأثر في المعتقدات الخاطئة المتعلقة بشرف العائلة والعفاف والتي تنتشر في المجتمع والبيئة المحيطة إلى جانب تبني وجهات النظر الداعية إلى فرض القوة الذكرية والتي تظهر على شكل العنف الجسدي والجنسي على حد سواء.

كما تلعب التنشئة الأسرية دورا كبيرا في حصول العنف ، فالنساء يتعلمن أن يكن ضعيفات وغير قادرات على التعامل مع العنف ، فلا يطورون أساليب لتجنب وإيقاف الإساءة ويخضعن للعنف الذي لا بديل عنه برأيهن. وعلى العكس فان الرجال تتم تنشئتهم على أنهم فعالون عدوانيون ولديهم سيطرة على النساء وهكذا فان احتمالية العنف تزداد إذ نشا الزوج بين رجل مسيطر وامرأة خاضعة(مصمودي زين الدين ، 2003 ، ص44).

إن التربية التي يتلقاها الزوج من بيئته ومجتمعه وأسرته والتي تصور له فعل العنف وكأنه أمر طبيعي يحصل في كل بيت وداخل كل أسرة. وقد يكون الزوج قد تربى على العنف منذ صغره ، مما يجعل هذا الأمر ينطبع في ذهنيته ، ويجعله أكثر عرضة لممارسة هذا العنف في المستقبل. وقد أثبتت الدراسات الحديثة "بأن الطفل الذي يتعرض للعنف إبان فترة طفولته يكون أكثر ميلاً نحو استخدام العنف من ذلك الطفل الذي لم يتعرض للعنف فترة طفولته.

ومن التصورات الذهنية الخاطئة العائدة إلى سوء التربية ذلك الاعتقاد بأن في ضرب الزوجة إصلاحا لها ، أو أن ضرب الزوجة يرتبط بإثبات الرجولة وفرض الهيبة ، وان استخدام الضرب سيجعل المرأة أكثر طاعة للزوج وتنفيذا لأوامره.

كما أن الانحرافات الأخلاقية مثل شرب الخمور والمسكرات التي تؤجج الخلافات العائلية تؤدي إلى اللجوء إلى العنف(محاسن الحواتي ، 2004 ، ص11).

الفرع الثاني. الدوافع النفسية: إن العوامل النفسية التي تشكلت في شخصيات مرتكبي العنف ضد المرأة في الصغر تؤثر بشكل كبير في سلوكياتهم والتي تظهر على شكل سلوك عدائي في الكبر ، ومن ابرز هذه العوامل النفسية تعرض مرتكبي العنف للإيذاء بأي شكل من الأشكال في طفولته أو وجوده في بيئة أسرية تنتشر بها حالات تعنيف الأبوين ،أو اعتداء الأب على الأم بأي شكل من الأشكال ، إلى جانب اضطرابات الشخصية التي قد تؤدي إلى خلق شخصية معادية للمجتمع ، ومن دوافع ارتكاب العنف كذلك ما يلي:

- تفريغ الانفعالات التي يشعر بها المعنِّف في حياته اليومية مثل الغضب والضغط الذي يلاقيه في المجتمع وخاصة من رؤساء العمل ، والغيرة التي هي انفعال مركب من حب التملك والشعور بالغضب. ويعاني كثير من النساء مما يعرف بغيرة الزوج العمياء التي يراها هو دليل محبة بينما هي تراها دليل على شك وعدم ثقة.

- الأسباب النفسية التي تفقد المعنِّف عقله وتخرجه عن طوعه. و من نماذج الأمراض النفسية التي قد تؤدي إلى العدوان "السيكوباتية" ، وهي ما يعرف بحالة التخلق النفسي أو الروحي. و يبدأ تطور الحاسة الخلقية عند

السيكوباتيين منذ الطفولة، حيث يبدي السيكوباتيون سلوكاً عدوانياً منذ السنين الأولى لحياتهم(أنتوني ستور ،1975، ص153).

الفرع الثالث. الدوافع الاقتصادية: تعد العوامل الاقتصادية من أكثر دوافع العنف ضد المرأة التي تشهدها عدة مجتمعات في وقتنا الحالي، والسبب في ذلك يعود إلى الضغوطات الاقتصادية التي تعاني منها شريحة واسعة من المجتمع، وتدني المستويات المعيشية ، وتفشي البطالة والفقر. حيث تشكل هذه الأسباب مجتمعة ضغوطات نفسية كبيرة على معيلي الأسرة التي تتصادم في الكثير من الأحيان مع نزعة المرأة الاستهلاكية.

ومن هذا نستنتج أن أوضاع الأسرة الاقتصادية والسكنية تؤدي دورا هاما في وقوع العنف ضد المرأة في الأسرة، حيث انعدام المقدرة على توفير حاجات الأسرة أو التهرب من تأمينها أو ضيق المنزل وكثرة القاطنين فيه. كل ذلك يؤدي إلى حدوث خلافات مستمرة تتصاعد لحد العنف، إضافة إلى انعدام التوازن النفسي للرجل حيث يواجه بعض المصاعب في حياته اليومية، وينعكس ذلك عنفا وخشونة على الضعيف حوله(مصطفى حجازي، دس، ص2002).

المشكلات الاقتصادية من بطالة وفقر وديون وما إلى ذلك من أمور تزيد من الضغوط النفسية على الزوج وتزيد من شعوره بالعجز والضعف. ولا يعتبر الفقر مؤثراً على شخصية الفرد إلا في حال استمراره مدة زمنية طويلة. فالإنسان إذا عانى ضيقاً مادياً مؤقتاً، وكان يتمتع بالتربية الدينية والأخلاقية، فإنه نادراً ما ينقلب إلى استعمال العنف والإجرام. فالإجرام إذاً ليس رهناً بضغط ظروف اقتصادية سيئة في وقت ما بقدر ما هو رهن بتواتر هذا الضغط واستمرار تأثيره على الفرد وعلى سلالته على مرّ الأوقات"(بهنام رمسيس، دس، ص219).

الفرع الرابع. المرأة نفسها: تعتبر المرأة نفسها هي أحد العوامل الرئيسية لبعض أنواع العنف الذي يقع عليها وذلك لتقبلها له بصمت وتسامح وخضوع ورضوخ وسكوت، ويبدو أن المرأة بسبب التاريخ الطويل من القهر والظلم استعذبت العذاب، بل وأصبح هناك الكثير من النساء اللواتي يبررن للرجل عنفه وتسلطه عليهن برغم أن هذا هو حقه الطبيعي والشرعي، وهذا الفكر يجعل الرجل يأخذ في التمادي والتجرأ أكثر فأكثر.

فهناك أسباب تتعلق بذات المرأة، كأن تكون المرأة رافضة لأنوثتها أو رافضة لذاتها، أو تكون في حالة من اللاوعي بخطورة أمر التعنيف. كل هذه الأسباب وغيرها هي التي تساهم في تدعيم السلطة الذكورية المتعسفة و ترسيخها على مر الأيام وكأنها هي أصول التعامل الطبيعية، هذه رؤية خاطئة لن تتغير ما لم تغير المرأة سلوكها(القس رفعت فكري، 2010، ص9).

كما توجد أسباب أخرى تكون المرأة سببها في العنف تتمثل فيما يلي(طريف شوقي محمد فرج، 2001، ص20):

أ- استهانة المرأة بالزوج ومحاولة التقليل من شأنه أمام الآخرين مما يدفعه إلى الانتقام منها.

ب- تبلد الزوجة الجنسي، وتمنعها المستمر عن زوجها حين يرغبها.

ج-تمردها على قوانين المجتمع قد يكون سببا في تعرضها للعنف، فالمعتقدات الشاذة التي تعتقد أنها بمعاندتها تثبت ذاتيتها واستقلاليتها وذلك تطبيقاً للنظريات "التحررية" التي ينادي بها فريق من الناس

وخاصة النساء. هذا النوع من المعتقدات والأفكار قد يثير حفيظة الرجل ضدها في محاولة منه للرد على مزاعمها بشكل عملي.

د-عدم امتثالها للدور الأسري المرسوم لها اجتماعيا.

هـ- رضا الضحية بالعنف الممارس ضدها ، وعدم محاولتها تغييره ، بل إنها تتصرف تصرفات مدافعة عن الجاني مما يجعل المعنِّف يستمر في غيه ، والأسباب التي تدفع الضحية إلى الرضا عن العنف الموجه إليها وعدم التحدث عنه ، هي المعتقدات الخاصة لدى الزوجة التي تجعلها أكثر تقبلاً لدوافع ارتكاب العنف من قبل الجاني من جهة أخرى ، ومن هذه المعتقدات التي يمكن ملاحظتها ما يلي :

- اعتقاد بعض الضحايا أن العنف هو دليل حب الجاني للضحية.

-الخوف النفسي عند بعض الضحايا من النساء الذي يدفعهن إلى الامتناع عن التبليغ عن العنف ، مثل خوف الأم على أطفالها من أن تتركهم تحت رحمة أب ظالم يضربهم. والخوف من وصمة المطلقة وما ينتج عنها من ظلم المجتمع للمطلقة ،أو لخوفها من التعرض لردود فعل انتقامية إذا طلبت الطلاق من الزوج المتسلط القوي.

- حب المرأة الضحية للجاني حباً يدفعها إلى الصبر محاولة منها لإصلاحه وتعديل تصرفاته.

الفرع الخامس. التمييز وعدم المساواة: يعتبر التمييز وعدم المساواة بين الجنسيين من الأسباب الجذرية للعنف ضد المرأة وذلك بدرجات متفاوتة في جميع المجتمعات في العالم ، حيث يرتبط العنف ضد النساء والفتيات بافتقارهن إلى السلطة والسيطرة ، بالإضافة إلى الأعراف الاجتماعية التي تحدد دور الرجل والنساء في المجتمع وتتغاضى عن الإساءة ، وتمارس التمييز ضد النساء في مجالات الحياة العامة والخاصة ، وفي الحقوق الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والسياسية ، بالإضافة إلى فرض القيود على حريات المرأة وخياراتها وفرصها.الأمر الذي يزيد من مخاطر تعرض النساء والفتيات للإساءة والعنف والاستغلال ، والتمييز بأمور الزواج والطلاق وحقوق حضانة الأطفال.

الفرع السادس. أسباب أخرى للعنف ضد المرأة: إن العنف الأسري وإن كان معروفا في المجتمعات البشرية القديمة ، إلا أن الحديث عنه لم يكن بهذه القوة كما هو اليوم. و يرجع ذلك لعوامل عديدة ، منه(نهى عدنان القاطرجي ، 2009 ، ص3):

1-عولمة قضية العنف ومحاولة إيجاد حلول عالمية لها ، حتى ولو كانت هذه الحلول لا تتناسب مع عقائد بعض الشعوب ، مثل قضية ضرب الزوجة ، والإنجاب المتكرر ، وتعدد الزوجات. وما إلى ذلك من قضايا يحاول البعض إثارة الشبهات حولها في سبيل المطالبة برفض الاحتكام إلى الشرع واستبدال أحكامه بقوانين وضعية.

2- قيام جمعيات ومؤسسات نسائية عالمية تطالب بحقوق المرأة بما في ذلك قضايا العنف ضدها في الأسرة والمجتمع. وتعمد بعض هذه الجمعيات النسائية إلى التشكيك بصلاحية الشريعة الإسلامية وتطالب بضرورة تعديل بعض الأحكام الشرعية التي تشجع على العنف بنظرهم.

3-انتشار وسائل الإعلام والانفتاح الإعلامي الذي يركز على هذا العنف ويسلط الضوء على بعض حالاته التي تظهر من حين لآخر.

4-تقصير الجهات الإسلامية، علماء، ومؤسسات ثقافية وتربوية، في إظهار حقيقة الشريعة الإسلامية في نظرتها إلى أسس قيام الأسرة المسلمة والتعاون بين أفرادها. وتغلب التقاليد والأعراف السائدة على القيم الإسلامية الحقيقية في أكثر المجتمعات الإسلامية، مع انتشار مفاهيم خاطئة تنسب إلى الإسلام خطأ أو عمداً أو جهلاً.

5 -وجود اختلافات اقتصادية وتعليمية ووظيفية بين الرجل والمرأة.

6-الصراع و التوتر في العلاقة بين الزوجين، سيطرة الذكور على صنع القرار

7-عدم وجود مساحات أمنة للنساء والفتيات، تسمح لهن بحرية التعبير والتواصل، وتطوير الصدقات والشبكات.

المبحث الثاني. آثار العنف والحلول المقترحة لعلاجه:

يسبب العنف ضد المرأة آثار وخيمة، ويعتبر انتهاكا لحقوق الإنسان للمرأة، بحيث يمنع المرأة من التمتع بحقوقها وحرياتها الأساسية، وله عواقب اجتماعية وتكاليف اقتصادية (المطلب الأول)، لذا وجب التصدي لهذه الظاهرة ومحاولة إيجاد حلول لها (المطلب2).

المطلب الأول. آثار العنف على المرأة: العنف يمكن أن تكون له انعكاسات مدمرة للصحة العقلية والجسدية والنفسية للنساء وتختلف الآثار على حسب ما تعرضت له المرأة من عنف وحسب أنواعه الذي مورس ضدها، وبعض آثاره تكون على المدى القصير والبعض الآخر على المدى الطويل، وهذا ما سنحاول معالجته في هذه الفروع.

الفرع الأول: الآثار النفسية: ومن أهم الآثار النفسية التي تبدو على المرأة الشعور بالخوف بعد تعرضها للعنف أو أثناء الاعتداء عليها. وقد يعتريها الشعور بالذنب حتى دون أن تكون قد ارتكبت خطأ. فقد تشعر بأنها مسئولة عن هذا العنف ، وقد تشعر بالفشل والإحباط كامرأة وكزوجة، وقد تشعر أنه تم استدراجها لهذا الزواج وأنها أصبحت لا حول لها ولا قوة. وقد تشعر أخيرا بالوحدة وبالافتقاد إلى الملجأ وإلى الخوف من الموت(صبري مرسي الفقي، 2005، ص123).

ومن الآثار الأخرى التي تظهر على المرأة المعنفة داخل أسرتها انخفاض قدرتها على رعاية أطفالها والاهتمام بهم . بل يزيد احتمال ضربها لأطفالها. وقد تجنح إلى كراهيتهم لأنهم يجبرونها على الاستمرار في تلك العلاقة الزوجية التي لا تحتملها(طريف شوقي محمد فرج، 2001، ص22).

وفي دراسة فرنسية بالمستشفيات أقيمت على 413 مفحوصة أوضحت أن الآثار النفسية عند الضحية هي كالتالي: الشعور بالخوف الشديد من 43% إلى 47 %،اضطراب من 16 % إلى 30%، نوبات عصبية من 12 % إلى 18 %، أفكار انتحارية ومحاولات انتحار 10 % ، الرغبة في الانعزال 10 %، حزن 30 % ، فقدان تقدير الذات 32 % ، الإحساس بالذنب32 %، الغضب والرغبة في الهروب والإدمان على الكحول 14 %، أمراض نفسية (تعب، دوخة، الآلام الصدرية، ارتعاش داخلي، خفقان في القلب)(محمد أبو العمايم، 2008، ص67).

الفرع الثاني. الآثار الجسدية: بينت دراسات كثيرة أن القتل هو من أهم الآثار الجسدية الناتجة عن العنف ضد المرأة، كما أن النساء اللواتي يتعرضن لسوء المعاملة يقمن بمحاولات انتحارية أكثر من الأخريات، ضف إلى

ذلك فإن العنف يؤدي إلى إصابات جسدية في جسم المرأة على الأخص على مستوى الوجه والأطراف العليا كالأنف والأسنان والعين والرقبة ، غالبا ما يكون كسور في عظام الأرجل أو الأيدي.

إن العنف المرتكب ضد النساء غالبا ما يكون مصحوبا بأمراض واضطرابات خاصة بأمراض النساء مثل النزيف المتكرر الذي يصل إلى حد التعفن نتيجة تمزق داخلي ناتج عن العلاقات الجنسية ، والتي يؤثر كذلك على جانب السيكوسوماتي مثل الدورة الشهرية. كما قد يؤدي العنف إلى ولادة قبل الأوان أو إجهاض.

الفرع الثالث. الآثار العقلية: إن العنف ضد المرأة قد يؤدي الى آثار بسيطة من مشاكل الانتباه ، تشويش الأفكار ، إصابات الذاكرة ، وجود أفكار تمنع الضحية من القيام بأعمالها اليومية. كما قد يؤدي إلى شرب الأدوية المهدئة ، الإكتئاب ، محاولة الانتحار. بالإضافة إلى صعوبة الثقة في الآخرين ، وعدم القدرة على بناء علاقات مرضية ، الانعزال عن المجتمع والانطواء على الذات(محمد أبو العمايم ، 2008 ، ص67).

المطلب الثاني. علاج ظاهرة العنف ضد المرأة: إن الحماية من العنف ضد الأسرة تستوجب مطالبة المجتمع بعناصره كافة بالمساعدة على تأمين هذه الحماية ، ومن هنا يمكن تقسيم هذه الحماية إلى قسمين: ذاتية وحماية جماعية.

الفرع1. الحماية الذاتية: تتعدد الوسائل الذاتية التي يمكن أن يتحصن بها المرء ضد العنف ، وتبدأ هذه الوسائل بالوقاية قبل حدوث الفعل ، إذ إن في أخذ الاحتياطات كفالة مهمة تعينه في مهمته ، ومن هذه الوسائل الوَقائية ما يلي:

-الالتزام بتعاليم الإسلام السمحة وتطبيقها في الحياة الأسرية ، سواء كان ذلك على صعيد اختيار الزوجين ، أو تسمية الأبناء ، أو تربيتهم والتعامل معهم ، أو احترام الأبوين ، وجعل الإسلام هو دين للحياة وليس للعبادات فقط. مع ضرورة توضيح مقصد الشرع من الآيات والأحاديث التي ورد فيها ذكر الضرب حتى لا تستغل باسم الإسلام.

-الرجوع إلى القانون الإلهي والشريعة الإسلامية التي تعطي للمرأة كامل حقوقها وعزتها وكرامتها ، كما وتقدّم لها الحماية والحصانة الكاملة. قال تعالى (ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف) (البقرة 228)، (وعاشروهن بالمعروف) (النساء 19).

-تغيير التصورات والتصرفات حول العنف. وهذا التغيير لا يختص بالضحية فقط ، بل يجب أن يشمل الجاني أيضاً وذلك بهدف إشعاره بخطورة العنف الممارَس على الضحية ، ومساعدته على الامتناع عن هذا الفعل وعدم تكراره. وهذا الأمر قد يتطلب الاستعانة بمستشارين نفسيين واجتماعيين من أجل مساعدة الأفراد الذين ينتمون إلى الأسر التي ينتشر فيها العنف.

الفرع2. الحماية الجماعية: شرع الإسلام الحدود والعقوبات حفاظاً على الفرد والمجتمع على حد سواء. وحدّد السبل التي يجب على المسلم أن يتجنب الوقوع فيها لِما فيها من اعتداء على النفس وعلى الآخرين ، ومن هذه السبل ما يلي:

- إصدار التشريعات التي تحمي من العنف الأسري وتفعيلها إن وجدت. وهذا يتطلب تبسيط إجراءات التقاضي بما يحقق الإسراع فيها دون الإخلال بحيثيات المحاكمة. كما يتطلب الصرامة في تنفيذ العقوبة ، مراعاة لمصلحة الفرد ومصلحة الجماعة على حدٍّ سواء.

- تفعيل دور الحكمين ، عملا بقول الله تعالى: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾ [النساء 35]، لأن الحكمين ينظران في الخلاف بشكل أشمل من نظرة القاضي. "فالقاضي ملزم بالأدلة والبينات أما الحكم انف يحاولان الصلح بشتى الطرق ، ثم إن لم يستطيعا ذلك يكون تقريرهما في شأن الحياة الزوجية مبنياً على تقديرهما ، وخاصة أنهما أقرب الناس إلى الزوجين"(عبد السلام محمد درويش المرزوقي ، 2005 ، ص23).

- تشجيع الضحية على الإبلاغ عن الجرم ، إذ يعتبر كثير من الباحثين القانونيين أن من أبرز الوسائل التي تخفف من انتشار الجرائم هو إبلاغ الشرطة عنها.

-تأسيس مؤسسات اجتماعية إسلامية تهتم بقضية العنف الأسري ، وإيجاد خطوط ساخنة لهذه المؤسسات يمكن من خلالها تقديم الاستشارات والمساعدة. ويكون من مهمة هذه المؤسسات الاهتمام بالضحية ومحاولة إعادة تأهيلها في الحياة الاجتماعية بعد حدوث الجرم ، والتخفيف من معاناتها الجسدية والنفسية والاقتصادية. وهذا الأمر يشكل ضرورة قصوى خاصة مع وجود بعض الجمعيات العلمانية التي تحاول عبر هذا الطريق خرق مجتمعاتنا الإسلامية لتستغل بعض حالات العنف التي تصل إليها من أجل إثبات ظلم الإسلام وإجحافه في حق المرأة وخاصة من ناحية إباحته لضرب الزوجة.

-الرقابة على الإعلام ، إذ إنه ثَبَتَ أن لمشاهد العنف التي تبثها وسائل الإعلام دور مهم في انتشار العنف ، وهذه الرقابة قد تستوجب أمور عدة ، منها: تسليط الضوء على العنف الأسري من خلال الاستشهاد بالأدلة عليه ، وتوعية الأسر بنتائجه النفسية والاجتماعية وآثارها السلبية على المجتمع والفرد ، وتدريب الأسرة على كيفية مواجهة مشكلات العنف مع الكشف عن الأسباب التي تؤدي للعنف وسبل الوقاية منه.

- العمل على تحاشي بعض الأسباب الموصلة إلى العنف الأسري ، كعدم العدل بين الزوجات في حال التعدد ، والتخفيف من تدخل الأهل والأقارب في الشئون الزوجية لأبنائهم وأقاربهم ، وسلوك الطريق الطبيعي قبل الإقدام على الزواج ، كالسؤال عن الخاطب ، وعدم إرغام أحد العريسين أو كليهما على الزواج من شخص لا يرغبه ، وتحاشي السكن مع الأهل إلا في حال ضرورة رعاية الأبوين أو أحدهما من قبل الولد ، ومراعاة حالة الأبناء في سن المراهقة لما يحدث في هذه المرحلة من تغيرات هرمونية تؤثر على نمو الطفل جسدياً وفكرياً وعاطفياً.

- التوعية الاجتماعية سواء كان ذلك في المجتمع الأنثوي أو في المجتمع العام ، إذ لابد من معرفة المرأة لحقوقها ، وكيفية الدفاع عنها ، وإيصال صوت مظلوميتها إلى العالم بواسطة كافة وسائل الإعلام ، وعدم التسامح والتهاون والسكوت في سلب هذه الحقوق ، وصناعة كيان واعي ومستقل لوجودها.ومن طرف آخر نشر هذه التوعية في المجتمع الذكوري أيضا ، عبر نشر ثقافة احترام وتقدير المرأة التي تشكل نصف المجتمع بل غالبيته.

-إن الدور التي تلعبه وسائل الإعلام المرئية والمقروءة والمسموعة في بث العديد من الثقافات إلى جميع المجتمعات سلبا أو إيجابا واضحة للجميع ، لذا من الضروري تعميم هذه التوعية لتصل إلى هذه الوسائل لتقوم بالتغطية اللازمة لذلك.

ولابد من تضاعف هذه الجهود بالنسبة إلى وسائل التلفزة لحذف المشاهد والمقاطع التي توحي من قريب أو بعيد إلى تدعيم ظاهرة العنف ضد المرأة.

- إنشاء المؤسسات التي تقوم بتعليم الأزواج الجدد على كيفية التعامل الصحيح مع بعضهما البعض ومراعاة حقوقهما المتبادلة تجاه الآخر.

- أن تتضافر جميع جهود مؤسسات المجتمع الأسرية والتربوية والإعلامية والأمنية وغيرها لإحداث حالة من التوازن والاستقرار في المجتمع.

خاتمة:

تعتبر ظاهرة العنف ضد المرأة ظاهرة قديمة وكبيرة الاتساع منذ أن كانت في العصر الجاهلي تباع المرأة وتشترى، وتوأد في التراب وهي حية، كما أنها مشكلة عالمية تعاني منها المجتمعات المتقدمة والمتخلفة، حيث أصبحت الدول تعمل جاهدة قصد التقليص من تبعاتها السلبية. لذلك توالت الدراسات والاهتمامات بالعنف الموجه ضد المرأة، والذي من أهم مظاهره العنف الجسدي والعنف النفسي، الإهمال العائلي والاعتداءات الجنسية. كل هذه العوامل قد تكون سببا رئيسيا في ولوجهم عالم الانحراف والجريمة والانعزال والمرض، وهنا تتحول المرأة من عامل لبناء المستقبل الزاهر للبلاد إلى أداة هدم لمقومات البلاد و المجتمع.

إن العنف ضد المرأة بصورة خاصة يعد من أبرز السلوكيات السلبية التي تمس كيان المجتمع، مما يتطلب التقليل من حجم الآثار المترتبة عليه، بتعزيز البرامج التوعوية، ودعم الإمكانات المادية والبشرية المؤهلة للتعامل مع قضايا العنف، وان تكون المعالجة شاملة لكافة الأبعاد المرتبطة بالعنف الأسري نفسيا واجتماعيا وتربويا وإعلاميا وثقافيا وأمنيا، وتأخذ بعين الاعتبار كل من له صلة بقضية العنف ضد المرأة.

كما حظيت هذه الظاهرة باهتمام بالغ على المستوى القانوني الدولي والوضعي فوضع لها مجموعة من الأسس والقواعد لدوام استقرارها، كما سعت تشريعات الدول إلى اعتماد أحكام ووضع ضوابط لحماية المرأة داخل مجتمعاتها، إلا أن القانون الوضعي يعجز أحيانا عن إيجاد الأساليب الوقائية الملائمة لكل جريمة على حدة، وهذا ما يجعل البعض من التصرفات والجرائم تلفت من العقاب والتجريم.

ويمكن الخروج بمجموعة من الاستنتاجات والاقتراحات من أجل القضاء على العنف ضد المرأة، هذه الاقتراحات مترابطة وضرورية لاتخاذ منهج فعال وشامل لإنهاء العنف ضد المرأة:

- أن التقليل من ظاهرة العنف ضد المرأة ينبغي أن يكون وفق إستراتيجية تشارك فيها جميع المؤسسات الاجتماعية كل منها حسب نطاق عملها حتى تتحقق الفاعلية في مواجهة الظاهرة والتقليل قدر الإمكان من مخلفاتها.

-ضرورة التصديق على المواثيق الخاصة بحقوق الإنسان كافة، لا سيما المتعلقة بحقوق المرأة، وذلك من أجل احترام حقوق الإنسان وحرياته الأساسية كافة وحمايتها.

-العمل الجاد والهادف على توعية النساء وتعريفهن بكافة حقوقهن وتمكينهن من المطالبة بتوفيرها وتعزيزها لها، ولكي يتحقق هذا الأمر فلا بد من تثقيف الجميع رجالا ونساء بحقوق الإنسان ومسؤولياتهم عن احترام حقوق الآخرين.

-لا بد من تعزيز ضمان وصول المرأة إلى العدالة بطرقها كافة ، والسعي لتحقيق المساواة في التمتع بحماية القانون وضمان أن لا يتمتع مرتكبو العنف ضد المرأة بفرصة الإفلات من العقاب ، وذلك عن طريق تدريب موظفي الشؤون القضائية والقانونية والطبية والاجتماعية ورجال الشرطة والقوات المسلحة ، وموظفي شؤون الهجرة على حقوق المرأة بشكل خاص وحقوق الإنسان بشكل عام وبالمواضيع التي لها علاقة بذلك لتفادي التعسف في السلطة الذي يفضي إلى انتهاك حقوق المرأة وتوعية هؤلاء الموظفين بطابع هذه الانتهاكات لا سيما القائمة على أساس الجنس ضمانا لمعاملة النساء الضحايا معاملة منصفة وكذلك لزيادة الوعي بهذه الحقوق.

-اتخاذ خطوات فعالة ومؤثرة في القضاء على جميع الأشياء التي تساعد على العنف وتعززه أو تبرر أو تتغاضى عنه.

-ضرورة حماية النساء في حالات وأوضاع النزاعات المسلحة وما يسبقها وما يعقبها من المفاوضات التي تجري بشأن إتفاقيات السلام والمصالحة الوطنية ، وأن تشارك في اللجان والبعثات الدبلوماسية ، وأن يتم تعزيز قدراتها في هذه المجالات بكافة الأشكال كالتدريب وبرامج بناء القدرات.

-تشريع قوانين جديدة لسد النقص التشريعي الذي يواجه العديد من مظاهر العنف التي تتعرض لها المرأة ، مع التأكيد على تفعيل النصوص التشريعية التي تتضمن حماية المرأة من أشكال العنف.

-تشجيع عمل المنظمات غير الحكومية لا سيما التي تعنى بشؤون المرأة وتهيئة الوسائل المناسبة للتعاون في ما بينها وما بين المؤسسات الحكومية للتنسيق معها.

وفي الأخير يمكن القول أن مشوار علاج العنف لازال في بداياته حتى تتغير العقلية والرؤية العامة تجاه المرأة ، وتصبح المرأة إنسانا ذو كيان ، وذو اعتبار ثابت لا يمكن في أي وقت التنازل عن حقوقه والتضحية عن مكتسباته.فلا نتوقع أن يكون حل هذه الظاهرة أو علاجها آنيا وبفترة قصيرة. وإنما لابد من كونه جذريا وتدريجيا من أجل القضاء عليها أو الحيلولة إلى إنقاصها بأكبر قدر ممكن.

قائمة المراجع:

- ابن منظور ، 1968 ، لسان العرب ، ج9 ، دار صادر ، بيروت – لبنان.
- أحمد زكي بدوي ، 1986 ، معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية ، مكتبة لبنان ، بيروت ، لبنان.
- القس رفعت فكري ، 2010 ، العنف ضد المرأة ، مطبوعات نظرة المستقبل ، مصر.
- أنتوني ستور ، 1975 ، العدوان البشري ، ط1 ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، مصر.
- بهنام رمسيس ، دس ، المجرم تكوينا وتقويما ، منشأة دار المعارف ، الاسكندرية ، مصر.
- جميل صليب ، دس ، المعجم الفلسفي بالألفاظ العربية والفرنسية والإنجليزية واللاتينية ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، لبنان.
- جميل صليبة ، 1982 ، المعجم الفلسفي ، ج2 ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت.
- رجاء مكي ، ساهم عجم ، 2008 ، إشكالية العنف ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت.
- صبري مرسي الفقي ، 2005 ، حلول إسلامية لمشاكل أسرية ، ط1 ، دار ابن الجوزي ، المملكة العربية السعودية.
- طريف شوقي محمد فرج ، 2001 ، العنف في الأسرة المصرية: دراسة نفسية استكشافية ، المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية ، مصر.
- مرفت تلاوي ، 2012 ، العنف ضد المرأة ، مجلس القوى للمرأة ، المهندسين ، مصر.
- مصطفى حجازي ، دس ، التخلف الاجتماعي ، مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور ، ط8 ، المركز الثقافي العربي ، بيروت ، لبنان.

- مصمودي زين الدين ، 2003 ، مدخل نقدي لتفسير ظاهرة العنف من خلال التنشئة الاجتماعية بين تبريرات الواقع والأنموذج المعياري ، في العنف والمجتمع ، دار الهدى للنشر والطباعة والتوزيع ، الجزائر.
-إحصائيات الأمن الوطني ، 2015 ، خلال 9 أشهر الأخيرة ، جريدة الفجر الإلكترونية ، 2015.
-حداد العيد ، 2009 ، العنف ضد المرأة كظاهرة عالمية ، المجلة النقدية للقانون والعلوم السياسية ، العدد 2 ، جامعة مولود معمري ، كلية الحقوق تيزي وزو ، الجزائر.
-زينات المنصوري ، 2002 ،العنف ضد المرأة ، حالة تطبيقية البحرين ، مجلة الحوار المتمدن ، العدد 173 ، 27 جوان ، مجلة إلكترونية يومية ، منشورة على الموقع:http://www.ahewar.org/search/Dsearch.asp?nr=173
-سوسن شاكر مجيد ، 2012 ، أشكال العنف الموجه ضد المرأة ، صحيفة الحوار ، العدد 3712 ، المغرب.
-محاسن الحواتي ، 2004 ، العنف العائلي مظاهرة ومعالجاته ،مجلة الحوار المتمدن ، العدد 832 ، 12 أفريل ، مجلة إلكترونية يومية ، منشورة على الموقع:http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=18056
-منظمة الصحة العالمية ، 2013 ، العنف الممارس ضد المرأة ، صحيفة وقائع ، رقم 239 ، نوفمبر www.mediacentre.who.int
-هادي محمود ، 2003 ، العنف ضد النساء ، مجلة الحوار المتمدن ،العدد 3 ،419 أوت ، مجلة إلكترونية يومية ، منشورة على الموقع:http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=1079
- براهمة نصيرة ، 2015 ، المرأة والعنف في المجتمع الجزائري تحليل سوسيولوجي لأشكاله ، أسبابه ، تمثلاته الاجتماعية في الجزائر دراسة سوسيوأنثروبولوجية لظاهرة العنف في إقليم جيجلمجلة الباحث في العلوم الإنسانية والاجتماعية ، العدد18 ، 20أفريل 2015 ، جامعة ورقلة ، الجزائر.
- قنيفة نورة ، 2012 ، الشباب والعنف أو معادلة الذكورة و الضعف الأنثوي ، العنف الجنسي نموذجا ، مداخلات الملتقى الوطني حول الشباب والعنف في المجتمع الجزائري ، منشورات جامعة جيجل.
- نهى عدنان القاطرجي ، 2009 ، العنف الأسري بين الإعلانات الدولية والشريعة الإسلامية ،بحث مقدم إلى الدورة التاسعة عشرة لمجمع الفقه الإسلامي الدولي ،إمارة الشارقة ، 26-30أفريل.
-محمد أبو العمايم ، 2008 ، العنف ضد المرأة ، مذكرة ماجستير ، كلية الحقوق ، جامعة أسيوط ، مصر.
-الإعلان العالمي للقضاء على العنف ضد المرأة والذي تبنته الجمعية العامة للأمم المتحدة سنة 1993.
-إعلان مؤتمر فيينا لحقوق الإنسان ، 1993.
-Webster's,1979, deluxe unabridgeddictionary, secondédition, new yorkSimon, Schuster

الحضارة النوميدية و مخلفاتها في الجزائر

The numuidian civilization and its archaeological remains in algeria

د. منصوري فريدة ، معهد الآثار جامعة الجزائر 2- الجزائر

لقد اهتم المؤرخون القدماء وعلى رأسهم اليونانيون بمنطقة شمال إفريقيا، إلا أن المعلومات حول هذا المجتمع تكاد تنعدم بسبب عدم الثقة فيما كان يقال من طرف الأهالي وعدم رغبتهم في التحدث عما يخص بلادهم ، مما جعلها مجهولة ما عدى الجزء القليل منها والذي اقتحم بالقوة (Strabon, 1980, XXXIII)، كما رأى هيرودوت بأن سكان تلك المنطقة يبالغون في رواية الأخبار التي تخص بلادهم (شنيتيمحمد البشير ، 1984م).

لقد ظهرت التجمعات السكانية البدائية الأولى بشمال إفريقيا في شكل قرى صغيرة تعود إلى فترات بعيدة ، و قد تواجد أغلبها على سفوح الجبال و الهضاب حيث تتوفر المياه و النباتات، فأنشئت مواقع العصور التاريخية التي تم الكشف عنها على امتداد مساحات متباينة و تشكل منها العديد من مدن و قرى و قلاع تحصينيه ، وسكان هذه المناطق سماهم هيرودوت بالمجتمع اللوبي ، و يعرّفهم بأنهم أولئك الذين سكنوا المنطقة المحصورة بين غرب النيل و سواحل المحيط الأطلسي (Hérodote, 1980)، و قد قسّمهم إلى شريحتين ، الشريحة الأولى كانت مستقرة على الشريط الساحلي الذي يمتد بين مصر و نهر تريتون قرب خليج قابس و وصفهم بالبدو الرعاة و المزارعين ، أما الشريحة الثانية فهم الجيتول و الغارمنت الذين يسكنون في المناطق الداخلية (شنيتيمحمد البشير ، 1984)

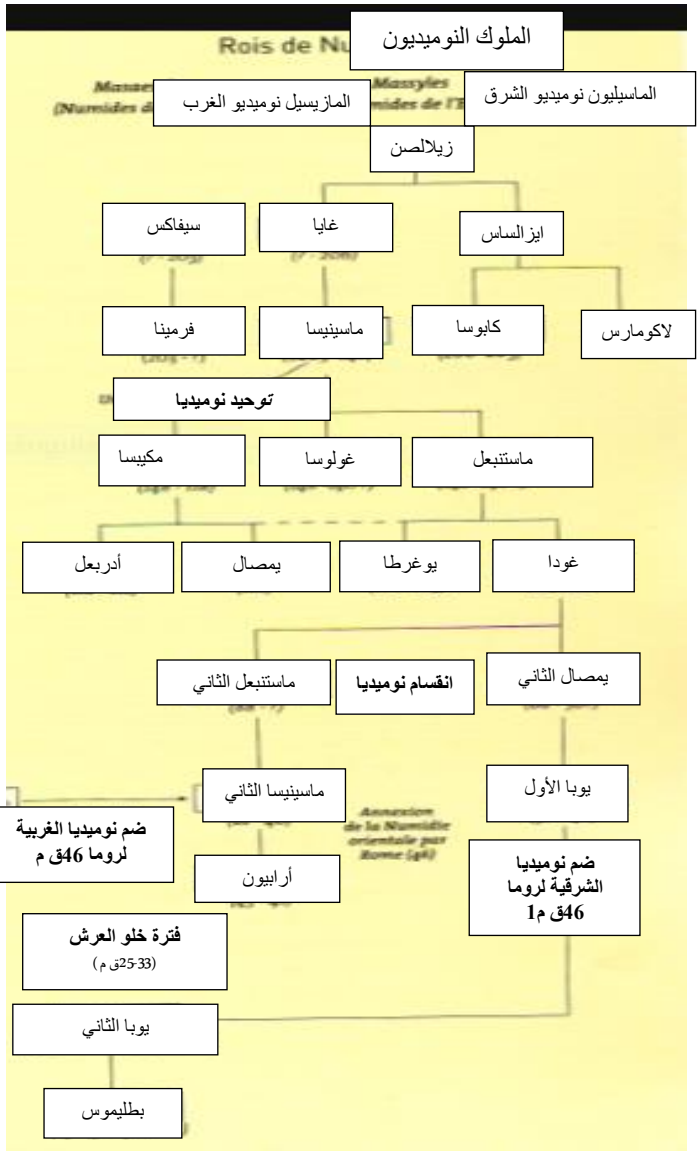
ومن بين أهم فئات المجتمع المغاربي القديم النوميديون الذين كانوا يقطنون مناطق شاسعة بين إقليم قرطاج وأرض الموريين (كامبس غابرييل ، 2014)، ويتحلون بالهوية المحلية رغم تبنيهم للثقافة البونية ، إلا أنهم كانوا شديدي العداء للقرطاجيين الذين يعتبرونهم محتلين استغلوا ممتلكاتهم الاقتصادية ،وأصل النوميد ناقشه العديد من المؤرخين ولا يزال غير معروف جدا لعدم وجود وثائق ونصوص كتابية
(Le cœur C., 1937) و يبقى أصل الفترة التاريخية التي من خلالها تكوّن الاتحاد القبلي الذي أعطى ميلاد مملكتين (Camps G., 1967)، وتسمية نوميديا لا تخص منطقة جغرافية معينة (Février P.-Al., 1989).

لمحة تاريخية عن منطقة نوميديا.

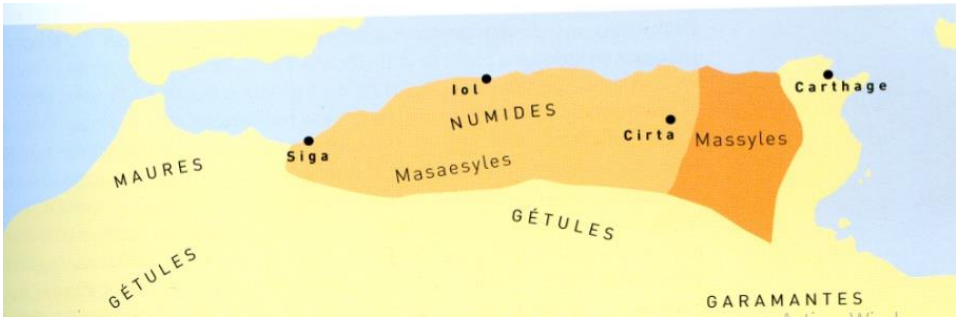
بعد زوال قرطاجة من طرف الرومانسنة 146ق.م وجدت مملكة نوميديا نفسها هي الحليف المتطلع لخلافة قرطاجة داخل دائرة حزام الأمن الروماني الآخذ في الاتساع على نطاق واسع وسريع ،لأن تلك المملكة التي عاشت فترة أمان وسلام حظي بها الملك مكيبسا (118-148 ق.م) متربعا على عرش والده وملكه الذي ما فتئ أن امتدت إليه يد الرومان وذلك بإتباع سياسة فرق تسد مع أبناء مكيبسا و يوغرطة الذي حكم الجزء الثالث من المملكة والذي يضم الأقاليم الغربية من المملكة النوميدية.

وقد كانت مملكة نوميديا مقسمة إلى نوميديا الغربية و عاصمتها سيغا والتي كانت تحت حكم قبائل المازيسيل ، وهذا الجزء كان أحد أطراف النزاع في الحرب البونية الثانية 218 — 201 ق.م ، وعن طريق

التوسعات استطاعوا الوصول حتى نهر التريتون والوادي الكبيرk وكان الجزء الشرقي من المملكة هو المقر عاصمته كيرتا**(خريطة رقم 01)**، كان يضم كل المناطق الشرقية في القرن الثالث ، وهي تشمل حدود الشرق الجزائري والغرب التونسي ، فقد كانت تقع بين الحدود الشرقية القرطاجية ونوميديا الغربية ، ومع بداية الحروب البونيقية امتد نفوذ المازيسيليين من الأوراس إلى الشرق القسنطيني و حتى الظهر التونسي ، و قد حكم هاتين المقاطعتين مجموعة من الملوك **(جدول رقم 01)**، أهم من برز منهم هو الملك ماسينيسا موحد نوميديا ،ولد هذا الأخير يسيرتا (قسنطينة) واتخذ منها عاصمة له ولا يزال ضريحه موجودا هناك ، عرف بقدراته العسكرية حيث تمكن من هزم خصمه سيفاكس كما تمكن من هزم حنبعل أعظم الجنرالات القرطاجيين في معركة زاما سنة 202 قم بتحالفه مع الرومان،و هو صاحب شعار: إفريقيا للأفارقة (حارش محمد الهادي ،1992)، وفي عهده برزت نوميديا في ميادين عسكرية وثقافية متبعا التقاليد الإغريقية فيما يتعلق بالطقوس الملكية ومتبنيا الثقافة البونيقية ، كما نظم الجيش وشجع على الاستقرار وتعاطي الزراعة وشجع التجارة .

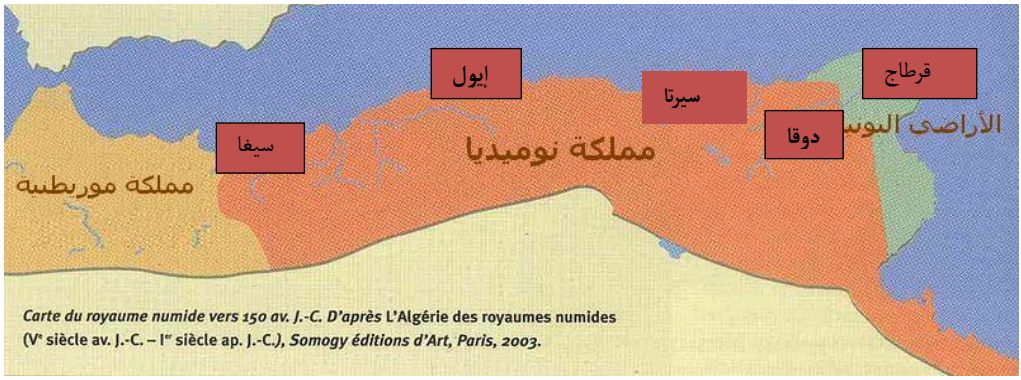


جدول رقم 01: الملوك النوميديون



خريطة رقم 01: الماسيل و المازيسيل

وقد أعاد الملك ماسينيسا الوحدة الكاملة للمملكة النوميدية وترك لخلفائه اللذين حكموا بعده من 203 إلى 149 ق.م نوميديا الموحدة**(خريطة رقم 02)**، التي أصبحت تتربع على مساحة كبيرة تبدأ من السيرت الكبير شرقا إلى وادي الملوية غربا. وفي نهاية حرب يوغرطة في 105 ق.م تتسع للمرة الأولى الحدود الموريطانية على الحدود النوميدية، إذ كوفئ باخوس -ملك موريطانيا– بالجزء الشرقي حتى واد الصومام من بلاد المازيسيل(Desanges (J), 1964)، وفي عهد باخوس الثاني وبعد انهزام يوبا الأول في معركة تابسوس 46ق.م، ضم ما تبقى من الأراضي المازيسيلية، اذ وصلت حتى الوادي الكبير، وبعد وفاة باخوس الثاني 33ق.م استولى أغسطس على مملكة موريطانيا، وذلك لعدم وجود وريث.



مملكة نوميديا حوالي 150ق م عن:L'Algérie des royaumes numides
(Vé siécle av.J.-C._Ier siécle ap.J.-C.), Somogy éditions d'Art, Paris, 2003

ومن هنا تدخل نوميديا عهد التبعية حيث قرر يوليوس قيصر إلغاء مملكة نوميديا من الخريطة السياسية (محمد البشير شنيتي، 2013)لشمال إفريقيا وهذا بحجة مناصرة ملكها –يوبا الأول-خصمه بومبيوس، وكافأ سيتيوس –وقائد جيش المرتزقة-الذي ساعده في معركته بأجزاء من نوميديا أو ما سموه فيما بعد بأفريكا نوفا،

وهكذا استبدل الرومان نوميديا التي لقت نفس مصير قرطاجة بمملكة المور التي تبدو وكأنها حليف وصديق للإمبراطورية الرومانية ، وبالتالي تصبح موريطانيا الجار الجديد للمقاطعات الرومانية.

وهكذا يعيد التاريخ نفسه معها (موريطانيا)، إذ كررت الامبراطورية الرومانية ما فعلته مع نوميديا وذلك باختلاف الظروف والأسباب، وأصبح مصير القيصرية ونوميديا واحد، وذلك بالرغم من أن الإمبراطور أوكتافيوس قد قام بتعديلات سياسية في إدارة موريطانيا إذ قام بتعيين يوبا الثاني ملكاعليها وذلك في سنة 25 ق.م بدلا من القائد الروماني ، إضافة إلى المساعدة العسكرية التي قدمها يوبا الثاني وابنه بطليموس من بعده لتلك الفيالق الرومانية التي كلفت بمطاردة المقاومة النوميدية والمورية.

ومع هذا فإن كل تلك القوة والحنكة التي امتلكتها القوات الرومانية لم تف بالغرض لإخضاع تلك الشعوب التي أعلنتها روما ضمن مقاطعاتها وهم مجموع القبائل المتواجدة على مشارف الصحراء ، فقد سجل التاريخ ردود فعل عنيفة من طرف تلك الشعوب خاصة في منتصف القرن الأول و تحديدا في عهد الإمبراطور تيبيريوس الذي شهدت منطقة المغرب الكبير في عهده ثورات عنيفة أبرزها ثورات تكفاريناس والجيتول والتي أدت إلى سياسة جديدة ، وبالمقابل واجهت القوة الرومانية تلك المقاومات بحملات عسكرية كبرى (محمد البشير شنيتي ، 2013)، كانت أشهرها تلك التي وقعت سنة 06 م والتي أرخ لها المؤرخين فذكر اسم "**الفرقة الأوغسطسية الثالثة**" لأول مرة كما ذكر اسم البروقنصل لونتولوس كوسيوس luntulus cocceius كقائد لهذه الفرقة والذي لقب فيما بعد بالجيتولي.

استقرت القوات الرومانية في البداية بمنطقة حيدرة متخذة إياها كقاعدة مركزية في مسح الأراضي وذلك لإدخالها تحت اللواء الروماني إذ أقيم طريق يربط ميناء قابس بالمعسكر ، وعلى عدة مراحل باشر الجيش الروماني استقراره في نوميديا ، كل هذا في عهد الامبراطور أوكتافيوس اغسطس "Auguste" (27ق.م-14م) حيث بلغ طول هذا الطريق الرابط ثلاث مئة كيلومتر ، و الذي كان بغرض استصلاح الأراضي في المقام الأول إضافة إلى إقامة مراكز عمرانية ، وقد أسندت هذه المهمة لمؤسسة عسكرية إذ أن هذه الطرق في نفس الوقت تلعب دور معلم يمثل الحدود المسيطرة عليها وهذا ما نعرفه اليوم باسم **الليمس** ، الذي لم يكن مستقرا بسبب عدم التوقف عن التقدم ، لهذا كان طريق الفرقة الأوغسطسية الثالثة التي انطلقت من حيدرة متجهة إلى تبسة ثم إلى لمباز وذلك بداية من 75م ، إذ أنشئ المعسكر الصغير المعروف باسم المعسكر81 ، والذي ضم كتيبة مكونة من 450 جندي تأهبا لقدوم بقية الفرق وذلك بعد بناء المعسكر الكبير الذي استكمل بنائه في سنة 128م ، وقد شيد غربا المعسكر الخاص بالمناورات الذي أقام به الإمبراطور هادريانوس حفل تدشيني.

واستمرت رحلة الفرقة التي استقرت بتازولت نحو الجنوب حيث أقيم حصن سرياني ، وعلى ضفة وادي جدي أي إلى الجنوب أكثر شيد معسكر مهم وهو معسكر جيميلاي أو ما يعرف بالقصبات ، وبعدها توغلت الفرقة في أقصى نقطة جنوبا لتقيم حصن ديميدي. ومنهعرف هذا الطريق ب"ليمس القرن الثاني" أو كما هو معروف عند المؤرخين "ليمس نوميديا العسكرية". إذ تم الربط بين هذه المراكز والحصون العسكرية المقامة على طول هذا الطريق بطريقة استراتيجية (مصطفى سالم ، 2009) و هو مايسهل عملية التواصل والاتصال فيما بينها وذلك في حالة الخطر المباغت وأيضا هناك ميزة عسكرية فيه وهي سهولة التحكم ولو نسبيا في المعابر والمسالك بين الجنوب والشمال.

كل هذا الاهتمام بإنشاء وتوسيع هذا الخط الدفاعي المتمثل في الحصون والمعسكرات وما إلى ذلك من منشآت عسكرية كان الغرض منه الاستمرار وتثبيت الوجود الروماني في المغرب القديم وتوسيع مناطق النفوذ ، وأيضا ضمان السيطرة على القبائل المجاورة والرحل (عبد القادر صحراوي ، 2011) في كل من المقاطعة النوميدية والقيصرية ، وقد كان الرومان في البداية يركزون على التحصين والتوسع في المناطق الجنوبية والوسطى ، وعندما طوقوا المنطقة وسيطروا عليها أصبح يهتم بتحصين المناطق الشمالية.

أما فيما يخص الامتداد الجغرافي للمنطقة فقد ذكر من طرف العديد من المؤرخين القدماءكالمؤرخ الجغرافي الإغريقي سترابون (Strabon, 1880)، الذي ذكر المنطقة بأنها ذات أراضي خصبة ولكنها مليئة بالحيوانات المفترسة ، وهي تشكل عائق أمام الأهالي والمزارعين إذ تضطرهم إلى الترحال(مصفى سالم ، 2009)،فمن خلال الخصائص الجغرافية لمنطقة نوميديا نجد أنها مقسمة الى شريط ساحلي وإقليم مرتفعات داخلية متمثلة في سلسلتي الأطلس التلي والصحراوي إضافة إلى السهول الداخلية ، وأخيرا منطقة الهضاب العليا والسهوب المتاخمة للصحراء.



خريطة رقم 03: المملكة النوميدية الموحدة عن: محمد الصغير غانم ، المملكة النوميدية ، ص 91.

تزخر الفترة النوميدية في الجزائر بشواهد مادية مهمة كالمعالم التاريخية المتمثلة في المباني الجنائزية خاصة (الأضرحة) و كذلك العديد من الأدوات ذات الاستعمال اليومي من أواني فخارية و أخرى زجاجيةإلى جانب الأنصاب و القطع النقدية المتنوعة في مواضيعها.

أولا-العمارة الجنائزية: إن بصمة التقاليد المعمارية النوميدية الموريطانية تتجلى بشكل واضح في الأضرحة الملكية.

1- الأضرحة الملكية المستديرة و الهرمية:أهمها ضريح الإمدراسن و الضريح الملكي الموريطاني المعروف بقبر الرومية ...إلخ

أ-**ضريحالإمدغاسن**: يعد أقدم نموذج للعمارة النوميدية بني على ارتفاع 20م و ينتمي إلى فصيلة البازينات ذات القاعدة الأسطوانية القليلة الارتفاع بالمقارنة مع قطرها، بها 60 عمود دوريو مشكل من قسمين، قاعدة أسطوانية ارتفاعها أقل من5م و من طوق مشكل من الدكات التي تعطي للمبنى شكلا مخروطيا و عددها 23 دكة ، بين الثالثة و الرابعة يوجد المدخل المؤدي إلى السلم الذي يؤدي بدوره إلى رواق ينتهي عند باب خشبي كبير للغرفة الجنائزية ذات مقاس 3.30م طول على 1.59م عرض، للضريحثلاثة أبواب وهمية موزعة على 3 جهات و منصة أمامية مغطاة باللون الأحمر شرق الضريح تقام فيها الطقوس الجنائزية**(صورة رقم 01)**.



صورة رقم 01: ضريح الإمدغاسن

ب-الضريح الملكي الموريطاني:لقد أثبتت الدراسات الأثرية أن ضريح تيبازة مثل المدغاسن عبارة عن بازينة كبيرة مغطاة بكساء من الحجر المنحوت المحكم البناء، حيث يشبه شكلهما الخارجي بازينات فجر التاريخ ،سواء ذات القاعدة الأسطوانية و الجذع المخروطي أو ذات المدرجات.

شكل الضريح الملكي الموريطانيأسطواني مبني على قاعدة مربعة الشكل و يعلوه تاج مخروطي مدرج ،يزين الجزء الأسطواني منه 60 عمود من الطراز الأيوني و يحتوي على أربعة أبواب وهمية عبر الجهات الأربع و هي عبارة عن بلاطة كبيرة الحجم نحتت في حجر كلسي صدفي صلبارتفاعه حوالي 33م و قطره 64م.



صورة رقم 02: الضريح الملكي الموريطاني.

2- الأضرحة الملكية البرجية: هي مباني شبيهة بالأبراج و مبنية على شكل صومعة تتشكل من طوابق توضع على مصطبة سفلى و تنتهي بهرم صغير ، و هي نوعان:

-**أضرحة ذات تصميم مربع**: و هو نوع من الأضرحة التي شاع بناءها عند القرطاجيين مثل ضريح الخروب (الصومعة) بالجزائر و ضريح دوقة بتونس.

-**أضرحة ذات مخطط سداسي الزوايا**: أصولها شرقية (إغريقية ، فينيقية ، مصرية) مثل ضريح سيغا بالجزائر و ضريح صبراطة بليبيا.

أ- **ضريح الخروب:** أو ضريح مسينيسا (الصومعة)، يرتفع على هضبة صخرية بين سيرتا و الخروب وجد به أثاث جنائزي متنوع ، بني بالحجارة الكبيرة المنحوتة يبلغ طولها 2م دون ملاط ، طول القاعدة 8.40م و العلو 2.35م يعلوها ثلاث درجات أين أقيمت دكة مربعة غائرة ، الأولى ارتفاعها 1.70م تتكون من 4 مداميك الأولى و الثالثة ملساء و الثانية و الرابعة زينت بنتوءات ، في القسم العلوي تنتصب بقايا بناء مربع الزوايا يتكون من أربع كتل على شكل أعمدة تشكل ساحة مربعة يصل طول إحدى جوانبها 5.55م و التي تشكل إطار لأربعة أبواب وهمية لم يبق منها شيء ، و المدفن الأرضي يوجد أسفل أساس المعلم على عمق 1.50م تحت سطح الأرض طوله 2م و عرضه 1م ارتفاعه 0.99م و هو مبني بالحجر المنحوت أرضيته مبلطة في ناحية شمال غرب ، فوقها قبو آخر ضيق على شكل طاق مقبب و في أعلى هذا القبو و أسفل نواة القاعدة أقيم فضاء ضيق يبلغ طوله 2م و عرضه 1م ارتفاعه 0.50م**(صورة رقم 03)**.



صورة رقم 03: ضريح الخروب.

ثانيا-العملة النوميدية.

لقد ساهمت دراسة المسكوكات الإفريقية في التعريف بالمملكات البربرية بما عرفته من تطورات سياسية و ثقافية وحضارية باعتبارها المنبع التاريخي المحلي ، لكنها بقيت غير معروفة لمدة طويلة جدا لأنها لم تحظ باهتمام الباحثين في هذا المجال مثلما عرفته عملات أخرى ، ربما بسبب قلة هذه الوثائق النقدية.

و رغم أنّ عملة الممالك النوميدية لم تكن أفضل من حيث الدراسة و الاهتمام إلاّ أنّ المنشورات الأثرية للقرن الماضي و التي عالجت المسكوكات الإفريقية ركزت على القطع النقدية الخاصة بهذه الفترة ، رغم أنّدراسة مسكوكات الملوك النوميديين ليس بالأمر السهل لعدم وجود أسمائهم على القطع النقدية كما أنّ صورهم الشخصية غير معروفة ، و قليلا ما نحصل على المراجع و المصادر أو نجد من الباحثين من يهتم بدراسة العملات النوميدية منذ ظهورها إلى أن اختفت رغم أنّ منطقة شمال إفريقيا ذات أهمية تاريخية وأثرية كبيرة ، في هذا الجانب.

لقد شهد عهد ماسينيسا تضاعفا في العملة و نسب له تطوير التداول النقدي و الاقتصاد النقدي الإفريقي بشكل كبير و ذلك بسبب علاقاته التجارية مع إسبانيا و روما و العالم الإغريقي ، و قام بضرب نقود بصورته و هو يضع على رأسه تاج و إكليل من الغار(Mazard (J), 1955, p.30)، و قد تمّيز طراز العملة الخاصة به و بخلفائه بصورة الملك الملتحي على وجه القطعة و الحصان الذي تختلف وضعيته من قطعة لأخرى على ظهر العملة**(صورة رقم 04 و صورة رقم 05)**



صورة رقم 04: عملة ماسينيساصورة رقم 05: عملة ماسينيسا.

ثالثا- الأدوات اليومية.

لقد تعددت و تنوعت الأدوات التي كان يستعملها أفراد المجتمع النوميدي سواء في حياته اليومية أو في الجانب العقائدي و الجنائزي ، كما تعددت تعددت المواد الأولية المستعملة في صناعة هذه الأدوات كالزجاج الذي كانت تصنع منه بعض أنواع الحلي و أدوات الزينة كالمدمعيات.

و قد تم العثور على مجموعة من المدمعيات أهمها تلك المعروضة بالمتحف العمومي الوطني سيرتا بقسنطينة ، المدمعية الأولى **(صورة رقم 06)**تم العثور عليها بالقل أما الباقي**(صورة رقم 07)** فتم العثور عليهما في قسنطينة و كلها تؤرخ بالقرن الثالث قبل الميلاد (Doublet & Gauckler, 1893, pp.112-113)، إلى جانب مجموعة متنوعة منها و ذات ألوان مختلفة.



صورة رقم 06: مدمعية القل صورة رقم 07: مدمعيتا قسنطينة

أما مادة الفخار فقد كان استعمالها شائعا جدا في صناعة الأواني و الأدوات الأساسية في الحياة اليومية كالأكواب و الصحون و المصابيح و الجرار و خاصة الأباريق و التي تم العثور عليها خلال التنقيبات.

ففي القل تم العثور على مجموعة من الأباريق خلال حفريات 1893م **(صورة رقم 08)** مصنوعة كلها من الفخار و تؤرخ ما بين القرنين الرابع و الثالث قبل الميلاد معروضة حاليا بالمتحف العمومي الوطني سيرتا بقسنطينة (Cintas, 1950, Pl., LXIV, n°22/// Doublet & Gauckler, 1893, pp. 65-66)، و إبريق آخر معروض بالمتحف العمومي الوطني بتيبازة **(صورة رقم 09)** و هو يؤرخ بالقرن الثالث قبل الميلاد كان قد عثر عليه خلال تنقيبات 1967-1968 بالمقبرة الغربية بتيبازة (Lancel, 1968, p., 126-130/// Catalogue (2003, p., 57, n°36



صورة رقم 08: أباريق القل صورة رقم 09: إبريق تيبازة

كما خلفت الحضارة النوميدية شواهد أخرى كالأنصاب بأنواعها سواء النذرية أو الجنائزية و التي تتواجد بكثرة في العديد من المواقع و المتاحف الوطنية و أدوات أخرى يطول ذكرها.

قائمة المراجع

1-حارش محمد الهادي ، 1992 ، لتاريخ المغاربي القديم السياسي والحضاري منذ فجر التاريخ الى الفتح الإسلامي ، المؤسسة الجزائرية للطباعة.

2-سالم مصفى ، 2008-2009 ، الاطلس الاثري لإقليم الزاب في العهد الاسلامي) بسكرة نموذجا) ، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في الآثار الاسلامية ، جامعة الجزائر.

3-شنيتيمحمد البشير ، 1984م ، التغيرات الاقتصادية والاجتماعية في المغرب أثناء الاحتلال الروماني ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر.

4-شنيتي محمد البشير ، 2013 ، الجزائر قراءة في جذور التاريخ وشواهد الحضارة ، الفصل السادس ، دار الهدى عين مليلة- الجزائر.

5-صحراوي عبد القادر ، 2011 ، التحصينات العسكرية بنوميديا و موريطانيا القيصرية اثناء الاحتلال الروماني 46-284م دار الهدى عين مليلة-الجزائر.

2-كامبس غابرييل ، 2014م ، البربر-ذاكرة وهوية- ، ترجمة عبد الرحيم حزل ، أفريقيا الشرق.

1-Camps G., 1967, Origines du royaume massyle in Rev D'Hist et de civilisation du Maghreb, 3

2-Cintas P, 1950, Céramique Punique, Paris, publi, Inst, Hautes Etudes Tunis.

3-Doublet G., & Gauckler P., 1893, Description de l'Afrique du nord, musées et collections archéologiques de l'Algérie et de la Tunisie.

4-Février P.-Al., 1989, Approches du Maghreb romain- pouvoirs, différences, conflits- T.I, Aix-En-Provence,

5- Gsell St., 1928, Histoire ancienne de l'Afrique du nord, Tome VIII, Hachette.

6-Hérodote, 1980, Histoire, T.IV, trad., Henri Larcher, Librairie Maspero, paris.

7-Lancel S, 1968, Tipasitana III, La nécropole préromaine occidentale de Tipasa, B.A.A., III, pp. 85-167

8-Le cœurC., 1937, Les mapalia numides et leurs survivances au Sahara, in Hesperis, 24.

9-Mazard J., 1955, Corpus Nummorum Numidiae Mauritaniaeque, Paris.

10-Strabon, 1980, Géographie, Trad., L'Amédée., Paris, Livre XI, V, XXXIII

ابستمولوجيا المعرفة بين الخرافة والعلم هل يمكن الاكتفاء بالوضعية بالمفهوم الكونتي

The epistemology of knowledge between superstition and science Is it possible to be satisfied with the posivitism of Compt

د. ريضا بن مقلة ، جامعة أكلي محند اولحاج البويرة —الجزائر-

مقدمة

مرت المعارف الإنسانية بمرحلتين وهما المرحلة اللاهوتية ، والمرحلة الميتافيزيقية ، عبر من خلالها العلماء والفلاسفة عن طبيعة تكوين النسيج الفكري والمعرفي ، لكن فيما بعد أتى الفيلسوف وعالم الاجتماع أوغست كونت ليطور المرحلتين إلى مرحلة ثالثة وهي المرحلة الوضعية. أي المرحلة التي تربط العلم بالواقع ، الذي يقوم على مبدأ البساطة والعمومية ، أي ترتب تلك العلوم على حسب بساطتها بالنسبة لقراءة الظواهر ، بالإضافة إلى ترتيبها وفق التطور الفكري للإنسان في التاريخ ، ثم تصنيفها تبعاً لدقة كل علم على حدا ، وتبعاً لإمكانية كل علم للتحليل الرياضي في دراسة ظواهره (علي جمول ، 2008 ، الوضعية والوضعية المنطقية. pulpit.alwatanvoice.com).

شغف المؤرخون بإطلاق التسميات الجامعة على عصور التاريخ وخاصة تاريخ الفكر ، فيقال مثلا عصر النهضة ، أو الإصلاح ، أو التنوير ، أو يقال عصر اللاهوت أو العقل أو الإيديولوجية. فإما يسمى العصر بالطابع السائد عليه "مثل التنوير" أو يطوى تحت احد العناصر الغالبة في ثقافته "مثل العقل" (قنصوة ، 2007 ، ص13).

أحدثت الوضعية **قطيعة إبستمولوجية** مع التصورات الأسطورية والميتافيزيقية ، بتبني **التجريب العلمي** منهجا في تحصيل الحقائق. فهي تنبني على الاختبارات الحسية ، والتفكير المادي ، والموضوعية العلمية ، والحياد في البحث ، والتجريب ، والتخلص من اللاهوت والتفكير الميتافيزيقي ، والمنفعة ، والواقعية Kوترتكز النظرية الوضعية على مجموعة من المقومات النظرية والمنهجية:

-**الإحساس** وحده باعتباره مصدرا للمعرفة الاجتماعية.

-الاعتداد **بالنموذج الطبيعي** على أساس أنه سلطة مرجعية للعلوم الإنسانية.

-إخضاع الظواهر الاجتماعية **للفحص والتجريب** والاختبار ؛ والقول بشيئية الظواهر الاجتماعية (امزيان ، 1991 ، ص51-57).

سياق النظرية الوضعية

المرحلة الوضعية تبنت مناهج العلوم الطبيعية (التجريبية) في القرن التاسع عشر ، بالاحتكام إلى **الفرضيات** ، والأخذ **بالملاحظة الخارجية** ، والميل إلى **التجريب** ، والقيام بكثرة الاختبارات ، واستصدار القوانين والنظريات العامة ، والاسترشاد بالحتمية التجريبية القائمة على العلية والارتباط بين المتغيرات المستقلة والتابعة. لذا ، كانت العلوم الطبيعية ، بما فيها: الفيزياء ، والرياضيات ، والفيزيولوجيا ، والكيمياء ، مثالا ونموذجا متميزا وصالحا للاقتداء به من قبل الوضعيين.

والقرن التاسع عشر هو قرن الوضعية بامتياز، واعتماد العقل والعلم والتجريب، وتجاوز الأسطورة والميتافيزيقا، والاستفادة من مكاسب عصر **النهضة** من جهة أولى، ومن مقاييس عصر **الأنوار** من جهة ثانية، ومن مبادئ **الثورة** الفرنسية من جهة ثالثة.

يقول ليفي بريل أن" **كونت كان يمثل فلسفة القرن التاسع عشر بأسره، فمن بين جميع المذاهب التي نشأت في فرنسا في القرن التاسع عشر كان مذهب كونت هو المذهب الوحيد الذي استطاع أن يتجاوز الحدود، ويترك أثرا قويا في المفكرين الأجانب. فامتدت الروح الوضعية إلى إنجلترا والجامعات الألمانية**".

أهم أعلام السوسيولوجيا الوضعية: لا يمكن فهم الوضعية بشكل جيد ومحكم إلا بالتوقف عند بعض أعلامها البارزين على الوجه التالي(حمداوي، نظريات علم الاجتماع. ص22):

سان سيمون: يقول سان سيمون: "إن أكبر وأشرف وسيلة لدفع العلم نحو التقدم هو جعل العالم في إطار التجربة، ولا نقصد العالم الكبير وإنما هذا العالم الصغير يعني الإنسان الذي نستطيع إخضاعه للتجربة" (Ansart, 1969, P73). "ويجب أن نسترجع إلى ذاكرتنا الطريق الذي سلكه التفكير الإنساني ؛ اتجه منذ هذا القرن إلى الاعتماد على الملاحظة، فأصبح الفلك والطبيعة والكيمياء من علوم الملاحظة"، نستخلص من هذا بالضرورة أن الفيزيولوجيا العامة التي يمثل علم الإنسان الجزء الرئيسي منها، سوف تعالج بالمنهج المتبع في العلوم الطبيعية الأخرى، وأنها سوف تدخل في التعليم العام عندما تصبح وضعية".

وفي سياق آخر، يقول سان سيمون: "إن **القدرة العلمية الوضعية** هي نفس ما يجب أن يحل محل **السلطة الروحية**، ففي العصر الذي كانت فيه كل معارفنا الشخصية حدسية وميتفايزيقية بصفة أساسية كان من الطبيعي أن تكون إدارة المجتمع فيما يخص شؤونه الروحية في يد السلطة اللاهوتية، مادام اللاهوتيون آنذاك هم الميتافيزيقيين الموسوعيين الوحيدين. وبالمقابل عندما تصبح كل أجزاء معارفنا قائمة على أساس الملاحظة، فإن إدارة الشؤون الروحية يجب أن تستند إلى القدرة العلمية باعتبارها طبعا متفوقة على اللاهوتية والميتافيزيقية" (Ansart, 1969. P22).

فالتحول من التفكير اللاهوتي إلى التفكير العلمي الوضعي حسب سان سيمون هو أمر **واقعي** يتفق مع السير العام لتقدم العقل الإنساني. ولكن سان سيمون لا يقف عند هذا الحد في تبرير قيام التفكير الوضعي، بل يذهب إلى أبعد من ذلك، فهذا التحول ليس ظاهرة تاريخية فحسب يعبر عن المراحل التي قطعها العقل الإنساني، بل إن **الثورة العقلية** تعتبر تحول يستجيب **للثورة المعاصرة**. فهي ضرورة من ضروريات هذا العصر" (امزيان، 1991، 44-43).

أوجست كونت: طبعت سمة –من أفلاطون إلى كانط- وهي اعتبار العقل حائزا بصفة قبلية لكل المقولات اللازمة لمعرفة العالم الخارجي، أي حاصل بصورة سابقة على التجربة على استعدادات ذهنية، لا اثر للتجربة ولا حتى لتطور المعارف عليها، فهي تعتبره عقلا نهائيا كامل البناء، لا يخضع لأي علاقة جدلية مع المعارف التي ينتجها، كما لا تنشأ مبادئه من خلال عمليتي استيعاب الواقع التلاؤم معه، ولم تنشأ نظرة جديدة إلى العقل بالمفهوم الواسع إلا بتأثير من الثورة العلمية التي هدمت المطلقات وكرست في مقابل ذلك نظرة تقول أن للعقل بنية قابلة للتغير وان للمعرفة تاريخا.

يعد أوجست كونت (Auguste Comte) من أهم العلماء الذين تبنوا منهج التفسير في دراسة الظواهر الإنسانية ، وفق أربعة إجراءات أساسية هي: الملاحظة ، والتجربة ، والمقارنة ، والمنهج التاريخي ، مستلهما آليات الكيمياء والفيزيولوجيا. ويعرف كذلك بوضع الفلسفة الوضعية ، أو كما يعرف بقانون المراحل الثلاث الذي يتمثل فيما يلي:

المرحلة الدينية أو اللاهوتية: كان الإنسان ، في هذه المرحلة ، يفكر بطريقة **خيالية ، وإحيائية ، وأسطورية ، وخرافية ، وسحرية ، وغيبية ، ودينية** ؛ وكان يفسر ظواهر الطبيعة وفق قوى خفية مصدرها الأرواح ، والشياطين ، والعفاريت ، والآلهة. ولم يكن هناك أدنى اعتراف بالحتمية التجريبية أو العلمية ، فالقانون الوحيد هو الصدفة فقط (حمداوي ، 2015 ، ص28). كمثال على هذا العصر ما كان يحدث في العصر الوسيط ، حيث تحدد أفق الثقافة بالدراما التي تم تأليفها وتوزيع أدوارها من قبل قضاء الهي لا يملك الإنسان إزاءه إلا أن يسلم به (قنصوة ، 2007 ، ص13).

المرحلة الميتافيزيقية: انتقل الإنسان ، في هذه المرحلة ، من **الميتوس** والخيال إلى **اللوغوس** والفكر المجرد. وبدأ يهتدي بالتأمل الفلسفي ، واستخدام **العقل والمنطق ، والاستدلال** البرهاني ، والحجاج الجدلي. وتواكب هذه المرحلة الفكر الفلسفي الميتافيزيقي من مرحلة الفلسفة اليونانية حتى القرن التاسع عشر ؛ قرن التجريب والاختبار والوضعية. وكان الفلاسفة يرجعون الطبيعة إلى أصول ومبادئ **كامنة** في تلك الظواهر ، كتفسير ظاهرة النمو في النبات إلى قوة النماء ، وظاهرة الاحتراق بإله النار...(حمداوي ، 2015 ، ص28). وما يلاحظ على هذه المرحلة أنها عادت للظهور في أوروبا بنهاية العصور الوسطى ، وظهور ما عرف بعصر النهضة ، وعودة الآداب الكلاسيكية ، بنزعتها الإنسانية والوثنية (قنصوة ، 2007 ، ص13).

المرحلة الوضعية: في هذه المرحلة ، تجاوز العقل الإنساني مرحلة الخيال والتجريد ، وبلغ درجة كبيرة من **الوعي العلمي** ، والنضج التجريبي. إذ أصبح التجريب منهج البحث العلمي الحقيقي ، والاستناد **للواقع** ، وتكرار الاختبارات التجريبية ، وربط المتغيرات المستقلة بالمتغيرات التابعة ربطا سببيا ، في ضوء مبدأ الحتمية أو الجبرية العلمية. وتعد هذه المرحلة أفضل مرحلة عند أوجست كونت ، وهي نهاية تاريخ البشرية (حمداوي ، 2015 ، ص28).

وتوافق كل مرحلة من هذه المراحل تطور الإنسان من الطفولة حتى الرجولة ؛ إذ تتوافق المرحلة اللاهوتية مع مرحلة النشأة والطفولة ؛ وتتماثل مرحلة الميتافيزيقا مع مرحلة الشباب والمراهقة ؛ وتتطابق مرحلة الوضعية مع مرحلة النضج والرجولة والاكتمال ، وكان يرى كونت أن العلوم الاجتماعية كانت لا تزال في أيامه في عهد الطفولة (بوزار ، 2012 ، ص03).

وفق هذا المنظور للوضعية ، ظهر مصطلح ما يسمى **بالحداثة** ، آخذا مكانة أساسية مجال التفكير الإنساني. وقد شغل هذا المصطلح الكثير من العلماء والمفكرين ، في ميدان العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية على حد السواء.

وقد عرف رولان بارت الحداثة بأنها انفجار معرفي لم يتوصل الإنسان المعاصر إلى السيطرة عليه فيقول: "**في الحداثة تنفجر الطاقات الكامنة ، وتتحرر شهوات الإبداع في الثورة المعرفية مولدة في سرعة مذهلة ، وكثافة مدهشة أفكارا جديدة ، وأشكالا غير مألوفة ، وتكوينات غريبة ، وأقنعة عجيبة ، فيقف بعض الناس**

منبهرا بها ، ويقف بعضهم الآخر خائفا منها ، هذا الطوفان المعرفي يولد خصوبة لا مثيل لها، ولكنه يغرق أيضا" (هدارة ، 1410ه).

بالرغم من أن الحداثة تربط عادة بالتقدم التكنولوجي إلا أن التغييرات الفكرية كانت الأكثر تأثيرا ، تشمل التغييرات الفكرية السياسة والاقتصاد والدين وعلم الاجتماع (ويكيبيديا ، كلمة حداثة ، ar.wikipedia.org).

ولما كان السبب في تطور العلوم الطبيعية هي اعتمادها على المنهج العلمي التجريبي ، جعل العلماء والباحثين في العلوم الإنسانية من أنصار الوضعية يرون أن هذه العلوم لا يمكن لها أن تتطور إلى درجة العلمية إلا باعتمادها على نفس المنهج المعتمد في العلوم الطبيعية.

ابتكر "فوكو" تخصّصا جديدا أضفى عليه "تاريخ أنساق الفكر" في إطار ما أطلق عليه مصطلح "إبستيمة Episteme" والمستمد من أصل الكلمة اليونانية التي تشير إلى العلم والمعرفة. ولذا يمكن ترجمتها بعبارة "إطار المعرفة"، "جرى هناك انقلاب في الرؤية أصاب المجتمع الأوروبي ، فجعله يمر من ابستيمة الى ابستيمة" (يفوت ، 2008 ، ص75). ويحدّد فوكو ثلاثة (انقطاعات) أساسية يتميّز كلّ منها بإطار معرفي خاص (الشماس ، 2004 ، ص158):

الانقطاع الأوّل: حدث في أواسط القرن السابع عشر وأدّى إلى القضاء على الاتجاه الذي كان سائداً من قبل ، نحو إبراز و (توكيد) أوجه الشبه بين الأشياء المختلفة ، أو بين (مخلوقات الله كلّها) حسب ما يقول "أوتو فريدريش Otto Friedrich" وظهور الميل الذي ساعد (عصر العقل) نحو إبراز وتوكيد أوجه التفاوت والاختلاف والتفاضل بين الأشياء. وهو ميل سيطر على تفكير القرن الثامن عشر بوجه خاص (أبو زيد ، 2001 ، ص94).

الانقطاع الثاني: حدث بعد الثورة الفرنسية بقليل ، ويتمثّل في ظهور فكرة التقدم التطوّري في المجالين: الاجتماعي والعلمي ، على السواء. وتعتبر هذه الفكرة بمنزلة الإطار المعرفي الذي يميّز العصر الحديث ويسيطر عليه سيطرة تكاد تكون تامة ، ويضطلع بوظيفة محورية ألا وهي تصحيح أفهام الناس أو مساعدة فهمهم للأشياء على صورتها الحقيقية ، وهو ما يفرض ضرورة صياغة فلسفية تنويرية ، ناهيك عن إذكاء روح النقد (صيام ، 2009 ، ص06).

القطع الثالث: هو ما يمكن أن يتبلور فيما يمرّ به العالم الآن ، ويصبح قطعاً في مجرى التاريخ. وعلى الرغم ممّا كتبه حول هذه النقطة ، فإنّه لم يقدّم أي تحديد دقيق واضح المعالم لذلك (القطع). كما أنّه لم يقدّم أي تفسير مقنع عن الطريقة التي تتمّ بها هذه التوقّعات والانكسارات ، أو الانقطاعات وأسباب حدوثها (أبو زيد ، 2001 ، ص94).

تطور النظرية الوضعية خلال القرن العشرين: خلال القرن العشرين ، سيطرت على فلسفة العلم اتجاهات ثلاثة رئيسة ، تفرع منها فيما بعد وتطور عنها عدد أكبر من الفلسفات التي (تفسر/تنتقد) العلم ، هذه الاتجاهات هي: **الوضعية المنطقية** ، فلسفة **كارل بوبر** ، فلسفة **توماس كون** (شادي ، 2017 ، ما هي الفلسفة الوضعية المنطقية ، midan.aljazeera.net).

عام 1920 اثر التقاء ثلاث تطورات منفصلة نوعا ما ، كل منها اثر في التحول العميق لدراسة المعرفة:

-**الأزمة** التي نشأت نتيجة الوعي أن المعرفة لم تكن يقينية كما افترض لها المفكرون منذ أفلاطون وأرسطو.

-كان هناك **تعصب** مهني من قبل الفلاسفة الأكاديميين ، وقناعتهم بان بعض فروع المعرفة مثل علم النفس وعلم الاجتماع ، لا تحمل أي رؤى ذات قيمة يمكن تقديمها في هذا الشأن.

-كان هناك ميل متزايد لتخيل أن المرء يمكنه **التصدي** لطبيعة المعرفة بينما يبقى متجاهلا بمنتهى السعادة أفضل نماذجها الموجودة ، وهي العلوم الطبيعية (لاري ، 2016).

يبدأ الأمر دائما حينما نقوم بإلقاء سؤالين غاية في الأهمية على طاولة النقاش: "**كيف نعرف**؟" ، ما هي الطريقة التي تمكنك من معرفة أن الحديد يتمدد بالحرارة ، أو أن الشعر الجاهلي حلو ، والسؤال الثاني هو "**ما هي حدود المعرفة؟**" ، عند أي نقطة يمكن لنا التوقف؟ ، هل بالفعل يمكن التعرف على العالم خارج ذواتنا أم أن هناك حدودا لذلك تتعلق بحواسنا؟

وضعيو الجيل الأول ، يرون أن المسألة الأساسية في الفلسفة ، كغيرها من المشكلات الجذرية ستبقى إلى الأبد دونما حل ، وذلك بسبب ضعف العقل البشري وقصوره ، وهذا ما أدى إلى ظهور الوضعيون الجدد أو ما يطلق عليه (الوضعية المنطقية)، أو الذرية المنطقية ، أو التجريبية المنطقية ، أو مدرسة التحليل المنطقي. وحلت هذه الوضعية كتيار عالمي جديد (علي جمول ، 2008 ، الوضعية والوضعية المنطقية. pulpit.alwatanvoice.com ، ص18).

للعلم على هذا النحو ، صورتان كما يقول برنال: الأولى صورة "مثالية" يبدو فيها العلم معنيا بكشف الحقيقة وتأملها ، ومهمته بناء صورة عقلية للعالم تلاءم وقائع الخبرة. والثانية صورة "واقعية" تسود فيها المنفعة ، وتتعين فيها الحقيقة وسيلة للعمل النافع ، ولا تختبر صحتها إلا بمقتضى ذلك الفعل المثمر.

غير أن هاتين الصورتين لا تتطابقان في عصرنا. فلئن أفسح العلم السبيل أمام آفاق جديدة من الإمكانيات الإنسانية عن طريق التقدم الذي يعنى ازدياد سيطرة الإنسان على البيئة واستقلاله عنها ، فقد جلبت مبتكرات العلم ومكتشفاته في الآن نفسه شرورا بالغة ، وكانت بمثابة المطرقة ، يمكن أن توجه للبناء والتشييد ، كما يمكن أن تستغل في التخريب والتدمير. وهذا ما أثبتته الحروب الحديثة التي زادها العلم ضراما وضراوة ، والتي أخضعت تطبيقات العلم لطلب المزيد من الأرباح والقضاء على كل القيم النبيلة في الإنسان. ولهذا صادفت الاتجاهات المعادية للعلم رواجا بعد أن عثرت على تبريرها في اغتراب العلم. وتتفاوت هذه الاتجاهات في موقفها من العلم وتحديدها لموقعه من الثقافة المعاصرة. فمنها من حمل العلم تبعة ما يحيق بالعالم من شرور ، وما تتردى فيه الإنسانية من بؤس روحي. وأعلن بعضها إفلاس العلم فيما يقدمه من معارف ، أو يبتعثه من آمال. وقنع بعضها الأخر بان أغلق على العلم دائرة ضيقة من النفوذ حسبه أن يقف عندها لا يعدوها وإلا سقط صريعا في منافسته مع الفنون ، والآداب ، والفلسفات وغيرها من صور الثقافة (قنصوة ، 2007 ، ص18).

ومثل هذا القول كتب نيكولاي بوخارين: "إن كل علم يجد عمليا أصله في الشروط والحاجيات الملازمة للصراع من اجل الحياة الذي يخوضه الإنسان الاجتماعي في مواجهة الطبيعة ، كما مختلف الفئات الاجتماعية في مواجهة قوى المجتمع الأولية أو الفئات الاجتماعية الأخرى".

هذا التصور العام لأصل العلم وتطوره يجد له صدى نسبيا منذ العام 1931 ، وهذا هو التاريخ الذي انعقد فيه المؤتمر الدولي الثاني حول تاريخ العلوم في لندن ، فقد جعل بوخارين للعمل ثلاث وظائف اجتماعية:

-أن تزيد معرفتنا بالعالم الخارجي.

-أن تطور طرائق تقنية.
-أن تسيطر كل قوة تعارض التطور البشري.

ولكي يتم الإيفاء بهذه الوظائف الثلاث فانه من الضروري أن ندرك خطر إيديولوجية "العلم للعلم". فالنشاط العلمي تحدده موضوعيا غايات علمية يجب أن ننظر إليها من وجهة نظر التطور الاجتماعي" (دوبوا ، 2008 ، ص32).

معنى الوضعية المنطقية: لكي نفهم ما يعنيه اصطلاح "الوضعية المنطقية" دعنا نبدأ **بشوكة هيوم** ، وهو تعبير أطلقه الفلاسفة فيما بعد على تقسيم هيوم للمعرفة إلى فئتين منفصلتين:

تتعلق الأولى "بمسائل الواقع والوجود الحقيقي": وتعني الأمور المتعلقة بالواقع وقدرتنا على **اختبار وجوده** ، كأن أقول "الحديد أقوى من الخشب" ، هنا كل ما نحتاجه هو إحضار قطعة حديد وقطعة خشب واختبار قوة كل منهما لمعرفة مدى صحة تلك الجملة.

الثانية تتعلق "بالعلاقات بين الأفكار": أي أمور لها علاقة بعالم **الفكر فقط** ، ولا حاجة لنا أن ننزل لأرض الواقع كي نختبر صحّتها ، كالعبارات الرياضياتية أو المنطقية ، مثل 1+1=2 ، و"أحمد" هو "أحمد" ، و"العزّاب غير متزوجين" ، بالطبع هم العزّاب غير متزوجين ، تلك العبارات لا تحتاج للتحقق منها تجريبيا في أرض الواقع ؛ لكنها فقط صحيحة بتعريفها.

ازدهار الوضعية المنطقية: ظهرت مدرسة الوضعية المنطقية حينما اجتمع مجموعة من الفلاسفة المهتمين بالعلم والعلماء المهتمين بالفلسفة بعد الحرب العالمية الأولى ، في العشرينيات ، للتحاور حول إنشاء منهج بحث فلسفي جديد ، متأثرة بالحرب ، والحاجة لتجاوز ضبابية الفلسفة السابقة: "هيغل وهايدغر" ، والتطور الرهيب للعلوم في تلك الفترة التي مثّلت انطلاقة للعلم الحديث ، وعرفت فيما بعد تلك الاجتماعات باسم حلقة **فيينا** ، ضمت الحلقة كلا من: مورتس شيليك ، أوتو نيوراث ، هانز هان ، فيليب فرانك ، ورودولف كارناب ، مع ظهور كتيب لها يعرض برنامجها بعنوان "**النظرة العلمية إلى العالم**" ، ثم بدأت "**مجلة المعرفة**" في الصدور في العام التالي 1930 ، وحلّت محلها "**مجلة العلم الموحد**" (كامل ، 1993 ، ص81).

أسست تلك المجموعة فلسفتها على أفكار هيوم ثم كتاب فيتغنشتاين الأشهر "**رسالة منطقية فلسفية**" والذي أشار فيه إلى أن **اللغة** هي طريقة **لتصوير** العالم في أذهاننا ؛ أي أنها تعطينا صورا عن العالم الحقيقي ، وهذه الصور هي نموذجنا الذي نعرفه عن الواقع ، وبذلك تتعلق كلماتنا بحقائق ، فأنا أقول إن "الكتاب في غرفة الجلوس" بينما أتصور وجود الكتاب -تجريبيا- في غرفة الجلوس ، يقول لودفيغ فيتغنشتاين: "**تهدف الفلسفة إلى التوضيح المنطقي للأفكار، وليست الفلسفة علمًا إنما هي نشاط. حصيلة الفلسفة ليست عبارات فلسفية وإنما توضيحا للعبارات، يجب أن تعمل الفلسفة على توضيح الأفكار وتحديدها تحديدا قاطعا، وإلا ظلت تلك الأفكار مبهمة وغامضة**" (جيليز ، 2009 ، ص15).

قسمت الوضعية المنطقية العبارات في هذا العالم إلى ثلاثة أنواع، تقترب كثيرا مما أشار إليه هيوم:

عبارات تحليلية (Analytic): وتعني تلك الجمل ذات المعنى **الصوري، المنطقي** ، التي يصح معناها بتعريفها ، كما قلنا منذ قليل "كل العزاب متزوجين" أو "2+2=4" ، فلو افترضنا أن هذا العالم قد خلا تماما من البشر ، سوف تظل "2+2=4".

عبارات تركيبية (Synthetic): جمل يمكن التحقق منها **تجريبيا** ، كأن أقول إن "المعادن تتمدد بالحرارة" ، أو أن "الماء يغلي عند 100 درجة" ، تعني تلك الجملة أنه حينما أضع الماء على النار سوف يبدأ في الغليان حينما يقرأ ترمومترا ما 100 درجة.

عبارات غير ذات معنى: أي لا تتعلق بالتقسيم السابق مثل: الشعراء أحرار ، روايات أحمد مملة ، الأشباح مخيفة ، ما أجمل الربيع.. إلخ.

الوضعية المنطقية إذن هي محاولة **للدمج** بين المنطق الرياضي "أعمال ديفيد هيلبرت ثم برتراند راسل" ، وفلسفة اللغة "لودفيغ فيتغنشتاين" ، والتطور العلمي الأخير في النظرية النسبية وقتها ، حتى إن برتراند راسل بعد أن تابع تجربة أرثر إيدنغتون التي أكدت صحة النسبية العامة باهتمام وانفعال بالغين ، قال إنه يرى أن أي شيء بخلاف النسبية لا يستحق اهتمامًا.

كانت الوضعية المنطقية هي الصورة **الأكثر تطورا** لمبادئ التجريبية القائلة -بتعبير لوك- إنه يجب على الفيلسوف تصفية الأرض المفاهيمية من تلك الأفكار غير ذات المعنى ، والوضعية التي أسسها أوغست كونت ، والتي تقول إن العالم يتقدم باتجاه "**موجب**" (**Positive**) لكشف الحقائق في النهاية ، ثم في النهاية نصل إلى القول إن "العبارات ذات المعنى هي فقط تلك التي يمكن لنا **التحقق** من صحتها أو عدم صحتها" ، أو كما يقول شليك "**إن معنى فرض ما هو قابليته للتحقق**".

يعني ذلك أن محتوى المعنى من العبارة يتطابق تماما مع الخطوات التي تحتاجها لإثباتها ، وهو ما نعرفه باسم "**مبدأ التحقق**" (**Principle of Verification**) ، حينما نتحدث عن التحقق من "معنى جملة ما" ، لا يهم إن كانت تلك الجملة مكتوبة بالعربية "أحمد في المدرسة" أو بأي لغة أخرى ، يقف المعنى فقط عند القدرة على التحقق منه ؛ لذلك لا يتحدث مبدأ التحقق عن "**حقائق**" ، أو عن "**صواب**" و"**خطأ**" ، لكن فقط عن معنى **اللغة**.

لذلك ، تعامل الوضعيون المناطقة إذن مع العلم على أنه النشاط العقلي الأوحد "الاتجاه العقلي الحدسي المثالي" (الخولي ، 2000 ، ص250) ، والذي ينقسم بين فئتين فقط من الباحثين ، العلماء الذين يقومون **بجمع** البيانات وعمل التجارب ، والفلاسفة الذين يقومون **بتحليلات** منطقية تساعد على تقدم العلم وتطوره ، يؤدي ذلك إلى مفهوم غاية في الأهمية وهو أن الفلسفة بذلك تصبح بالكامل **علمية** ، تنطلق من العلم وللعلم ، أما عن الميتافيزيقا ، الجماليات ، الأخلاقيات ، الفضائل ، السياسة ، كل تلك العبارات الانفعالية الوجدانية التي تمثل عوالم السبح الطويل في التأمل ، فلا معنى لها (كامل ، 1993 ، ص81). قال كرنب عن الميتافيزيقا: " **من السهل أن ندرك أنّ مثل هذه القضايا لا يمكن التحقق منها ... لأننا لا نستطيع أن نستنبط أية قضية تقرر أية ادراكات حسية أو إحساسات أو خبرات ومن ثم فهي لا تقرر شيء على الإطلاق**" (النفادي ، 1991 ، ص24).

إمكانية التحقق أو قابلية التحقيق verifiability: يعتبر معيار التحقق هو مركز انطلاق فكرة الوضعية المنطقية للتمييز بين **العلم واللاعلم** ، وبالتالي بين المعنى واللامعنى ، فكل قضية **تركيبية** لا بد أن تكون **تجريبية** ، فأي ادعاء لا يمكن التحقق من صحته عبر ملاحظات حسّية يعتبر إنشاء بلا معنى ، لا يضيف للعالم شيئًا.

يمكن إذن حصر الوضعية المنطقية في عدة نقاط أساسية:

الفلسفة تحليلية: مهتمة فقط باللغة وتحليلاتها للتخلص مما يشوب التعبيرات اللغوية من لبس وغموض وخلط وزيف.

الفلسفة علمية: ولكي تكون كذلك يجب أن تلتزم بحدود المنطق وتعمل بأدواته ، وهي علمية لأنها تقصر التحليل المنطقي على العبارات العلمية فقط.

القضايا إما تحليلية أو تركيبية: التقسيم السابق أعلاه.

الميتافيزيقا لغو: لا يمكن التحقق من صحتها.

معيار **التحقق** يفصل بين العلم واللا علم.

يعتمد فلاسفة الوضعية الجديدة ، وغيرهم كذلك من الفلاسفة المعاصرين على مبدأ إمكان التحقق أو القابلية للتحقق في التفرقة بين ماله معنى من العبارات وبين ما لا معنى له ، الأمر الذي أدى إلى كثير من الصعوبات بالنسبة لهم ، وعادة ما يرد هذا المبدأ بمعناه المعاصر إلى الفيلسوف النمساوي لدفيج فتغنشتاين فقد نسبت جماعة فيينا لفتغنشتاين هذا البدء ومؤداه: أن معنى القضية مطابق لطريقة تحقيقها أي أن القضية تعني "**مجموعة من الخبرات أو التجارب التي تكون مجموعها معادلة أو مكافئة لكون القضية قضية صادقة**" (جيليز ، 2009).

ولكن لو نظرنا إلى المبدأ نفسه ، هل يكون هو نفسه عبارة صادقة أو حتى عبارة ذات معنى ، ومما لاشك فيه أن هذا المبدأ ليس قضية علمية لان القول بأن "معنى القضية هو طريقة تحقيقها" ليس قضية علمية ومن ثم فلا يمكن تحقيقها ، وبالتالي يكون المبدأ نفسه خاليا من المعنى. ومن ثم فلا يمكن استخدامه معيارا للصدق أو للتفرقة بين ماله معنى من العبارات وما لا معنى له ، أذن **هل يمكن رفض هذا القول أو المبدأ بوصفه خاليا من المعنى أو مجرد لغو**؟. لقد أدى هذا الاعتراض إلى أمرين:

أولا: الرد بأننا لاستطيع أن نطبق المبدأ على نفسه ، فالبدء الواحد لا يكون برهانا على تكذيب نفسه وعلى ذلك ، فإن كان من ينقدون مبدأ التحقق على أساس "أن معنى القضية هو طريقة تحقيقها" وأنه هو نفسه قضية ، غير قابلة للتحقيق إذن فهو بلا معنى ومن ثم لا ينفي أن يكون معيارا لغيره من القضايا فمن الواضح أن هذا النقد قائم على مغالطة منطقية لأنه هو نفسه ليس بالعبارة التجريبية أو العلمية التي ينبغي أن يطبق عليها مؤدي المبدأ. بل هو عبارة تتكلم عن العبارات العلمية وحتى يكون لها معنى ومن الواضح إذن أن المبدأ ، عبارة تتكلم عن قضايا أو عبارات ، ليس هو واحد منها ، ومن ثم لا ينطبق عليها.

ثانيا: يذهب الوضعيون إلى القول بأن هذا المبدأ "أي مبدأ التحقيق" ينبغي أن لا يقرأ على أنه عبارة. بل على أنه افتراض أو اقتراح أو توصية تعني أن القضايا ينبغي ألا يتم قبولها ، على أنها ذات معنى مالم تكن قابلة للتحقيق (عزمي ، 1980 ، ص139).

وهنا يرد اعتراض أن النتيجة السابقة لم تكن نتيجة سهلة ، لان الوضعيون كانوا قد شاركوا في رفض أو تفنيد الميتافيزيقا والآن يبدو أن الفيلسوف الميتافيزيقي يستطيع أن يتخلص من نقدهم ، بكل بساطة عن طريق رفضه اقتراحهم أو توصيتهم.

وهنا يقترح كارناب ردا على هذه الصعوبة: أن نعتبر مبدأ القابلية للتحقق بمثابة "**التفسير**" أو الإسهام في "**إعادة البناء العقلي**" الخاص بتصورات ومفاهيم مثل: الميتافيزيقا ، والعلم ، والمعنى لكي يتم تبريرها على أسس شبه برجماتية ، بمعنى أننا إذا كنا لا ننسب المعنى إلا لما يكون قابلا للتحقيق ، فسيكون في مستطاعنا أن نميز بين صور النشاط الذي لولا هذا التمييز لظلت صورة مختلطة بعضها مع بعض. ولكن ليس من الواضح ما هي الطريقة التي يمكن أن يستخدم بها مبدأ إمكان التحقق ، ضد الفيلسوف الميتافيزيقي الذي يجعل نقطة البدء في تفكيره أن قضاياه ذات معنى بشكل واضح ، أن أقصى ما يمكن قوله في هذا الصدد هو أن المسؤولية إنما تلقى على الميتافيزيقي لكي يميز قضاياه عن قضايا أخرى غيرها. وقد يعترف بأنها خالية من المعنى(عزمي ، 1980 ، ص140).

إن الوضعيين أنفسهم كانوا أكثر اهتماما بالحقيقة التي مؤداها أن مبدأ إمكان التحقيق **لا يهدد الميتافيزيقا فقط بل كذلك العلم نفسه** ، بينما كان أرنست ماخ سعيدا لمحاولته أفراغ العلوم من العناصر الميتافيزيقية التي تشوبها فان الوضعيون الجدد ، عادة ما يقبلون على سبيل التسليم. الصدق الأساس للعلم المعاصر. ومن ثم أصبح الأمر كبير الأهمية بالنسبة لهم حينما أصبح واضحا أن مبدأ قابلية التحقيق يمكن أن يطبق بالنسبة لجميع القوانين العلمية فيخرجها أو يستبعدها بوصفها مجرد لغو أو بوصفها خالية من المعنى لماذا ؟

لأن مثل هذه القوانين هي بطبيعة الحال ، ليست مما يمكن تحقيقه تحقيقا كاملا فعليا ، فلا توجد مجموعة من الخبرات أو التجارب بحيث يكون الحصول على تلك التجارب أو الخبرات مكافئا أو معادلا لا لصدق القانون العلمي طالما أن القوانين العلمية هي تعميمات ، وطالما أنه من المستحيل عمليا التحقيق بالنسبة لكل حالة من الحالات غير المحددة التي ينطبق عليها التعميم أو القانون العلمي.

ولكن هذه الأسباب وغيرها من الأسباب المناضرة بدأ بالتدريج إحلال تصور "القابلية للإثبات" أو "إمكان الإثبات" أو حتى التصور الأقوى "القابلية للاختبار" أو "إمكان الاختبار" بدلا من "القابلية للتحقق" أو إمكان التحقق.

وهكذا فبينما كان معنى القضية في البداية. متفقا أو متطابقا مع الخبرات أو التجارب التي ينبغي علينا الحصول عليها. لكي نعرف أن القضية صادقة فان هذا المعنى ، قد تم انقاضه إلى تعبير أضعف هو أن القضية لا يكون لها معنى: إلا إذا كان من الممكن أثباتها أي أذا كان من الممكن أن تشتق أو تستنتج من قضايا صادقة ، وذلك طالما أن القضية تنتمي إلى مجال العقل الخالص الذي يحاول تجاوز التجربة (زكريا ، 2017 ، ص69).

أما الشروط الواجب توفرها في الكلمة لتكون ذات مدلول فهي في رأي كارناب:

أولا: أن **يثبت** نحو الكلمة أي طريقة ورودها في أبسط صورة لجملة. مثلا ابسط صورة لجملة ترد فيها كلمة حجر هو (س هو حجر) بحيث يمكن استبدال (س) بشيء مثل الألماس (الذهن).

ثانيا: يجب أن يكون من الممكن **تقديم** جواب السؤال بخصوص الجملة (ج) التي تتضمن الكلمة موضع البحث ، ويمكن صياغة هذا السؤال بطرق عديدة مثل ما هي الجمل التي تستنبط منها (ج) وما هي الجمل التي تستنبط من(ج). أو في أي ظروف يفترض أن تكون (ج) صادقة وفي أي ظرف يفترض أن تكون كاذبة.

بكلام أخر لتقدير ما إذا كان للكلمة مدلول أم لا يجب تطبيق مبدأ "**القابلية للتصديق**" وهو المبدأ الذي ينص على أن مدلول جملة ما يتحدد بشروط تصديقها أي وجدت ظروف ممكنة وليس بالضرورة فعلية تحدد صدق الجملة (الحاج حسن ، 2001 ، ص79). وبتأثير أبحاث **كارل بوبر** ، سعى كارناب إلى تصحيح فهم تركيب المعرفة التجريبية وفي هذا السبيل حاول وضع تصور جديد لمعيار المعنى التجريبي أكثر تساهلا من النظرية الأصلية في اقتضاء إمكان تحقيق معنى القضايا تجريبيا. ووضع قواعد لهذا التصور الجديد تتلخص فيما يلي:

كل الأقوال التركيبية يجب أن تكون **قابلة للتحقيق** تحقيقا تاما وهذا مبدأ التحقيق التام.

كل الأقوال التركيبية يجب أن تكون **قابلة للتأييد** تأييدا تاما وهذا مبدأ التأييد التام.

كل القضايا التركيبية يجب أن تكون **قابلة للتحقيق** وهذا هو مبدأ التحقيق.

كل القضايا التركيبية يجب أن تكون **قابلة للتأييد** وهذا هو مبدأ التأييد.

سقوط الوضعية المنطقية: يبدأ نقد الوضعية المنطقية من وضع مبدأ التحقق تحت الاختبار ، فحينما نسأل: هل يمكن لنا أن نخضع "مبدأ التحقق" للتحقق؟ تقع الوضعية المنطقية في مأزق لأننا بالفعل لا نعرف طريقة للتحقق منها ، يستكمل ذلك الضغط على الوضعية المنطقية عبر مبرهنة عدم الاكتمال لكورت غودل والتي تقول إن هناك عبارات في النظام لا يمكن التأكد من صحتها ، كالعبارة التي تقول "هذه العبارة خاطئة" ، فإذا قلنا إنها "خاطئة" يعني ذلك أنها صحيحة ، وإن قلنا إنها "صحيحة" يعني ذلك أنها خاطئة ، كل محاولات التحقق منها لا يمكنها إعطاء قرار فيها.

كانت الوضعية المنطقية هي محاولة شجاعة لصنع فلسفة قائمة على العلم ، رغم ذلك تم انتقادها من كل جانب ، يقول الفيلسوف الأمريكي لاري لودان (لاري ، 2016 ، ص144): "إن جزءا كبيرا من أسباب سقوط الوضعية المنطقية لم يكن فقط بسبب التناقضات المنطقية التي واجهتها ؛ بل في تعارضها مع مذاهب فلسفية ودينية واجتماعية ، تلك المجموعة من الاعتقادات المقبولة على نطاق ثقافي واسع ، فقد انتفع بعض العلماء بحجج ميتافيزيقية وميثودولوجية معارضة للنظريات العلمية ولتقاليد البحث".

خصائص المنهج العلمي عند كارل بوبر:

القابلية للتكذيب ونمو المعرفة: المشكلة القائمة بالنسبة للتجريبية الكلاسيكية الجديدة تكمن في اعتمادها على البرهان الاستقرائي الضعيف "درجة الإثبات أو البرهان" ، ويرى لاكاتوس وهو أحد فلاسفة العلم ، أنه عقب هزيمة التجريبية الكلاسيكية فإن معظم التجريبيين قد رفضوا اتخاذ القرار بأن العلم النظري غير المعرّف أو المحدد عن مصطلحات المشاهدة أو التجريب ، لا يمكن البرهنة عليه من خلال تعبيرات أو بيانات المشاهدة أو الملاحظة ، واعتقدوا أن التجريبي الجيد لا يمكنه أن يتخلى عن هذا العلم.

وقد بلغت ذروة هذا الأمر عند كارناب ، حيث وصل إلى حد البرهان المنطقي ، وكانت على الأقل هذه المدرسة قد قامت بتصنيف النظريات إلى ما يمكن البرهنة عليها بصورة جزئية أي يمكن تأكيد هذه النظريات بحقائق ذات درجة معينة من الثبات ، وأنه من المعتقد بأن هذه الدرجة من التدعيم البرهاني أو الإثباتي أو درجة التأكيد يجب أن تكون متوازنة إلى حد ما مع الاحتمالية في الإدراك والفهم. وهنا نجد كارناب قام بحل جملة من المشكلات التالية:

-البرهنة والإثبات لان درجة التأكيد والبرهنة ترضي وتبدد شكوك البديهيات عن الاحتمالية.

-نكّون تدريجياً لغة تامة ومتقنة للعلم يمكن من خلالها التعبير عن الافتراضات العلمية.

ولقد اعتقد كارناب في بداية الأمر أن العلم هو شيء حدسي وتخميني ، وأن نظريات التأكيد الاحتمالي ينبغي أن تُرى كحقيقة في ضوء الحدس الاستقرائي ، وأن اللغة يجب ألا تكون قابلة للدحض أو الجدل. لقد وجد كارناب من مبدأ اللغة أساساً للتأكيد وللاقتراح أو الفرض ، والذي يمكن من خلاله التعبير عن تلك الفروض ووجد أن درجة التأكيد أو البرهان يجب أن تبقى ثابتة ولا تتغير ، وأن اللغة يجب أن تظل خصبة. وهنا نجد أنه قام بمحاولات تفسيرية لتفسير التخمين أو التصور وهو يعني بذلك الانتقال من التصورات قبل العلمية على أنها تصورات غير دقيقة إلى تصورات دقيقة تعبر عن تطور اللغة العلمية وتستند إلى قواعدها ، وهنا يمكن التمييز بين أمرين الأول يعبر عن درجة التأييد والثاني يعبر عن التكرار النسبي لخاصية واحدة للحوادث أو الأشياء ، وبالتالي يرى أن المشكلة الأساسية في ميدان العلوم الاستقرائية هي مشكلة منطقية ولغوية.

إذا علمنا أن "بوبر" قد ساير فكر آراء الوضعية المنطقية بالنقد فإننا نجد في إطار ذلك انه وضع مبدأ "القابلية للتكذيب" في مقابل مبدأ القابلية للتحقق "الوضعي" (جميل عزيز ، 2001 ، ص89).

معيار كارناب لتمييز العلم عن الميتافيزيقيا هي نظريته التي ترى أن المعنى يقوم على مبدأ القابلية للتحقق. يشير كارل بوبر على نحو مقنع إلى فكرة المعنى تلك معيار محدود للغاية بحيث لا يستطيع عمل هذا التمييز ، لان العديد من النظريات العلمية يتسم بطابع تأملي على نحو كبير ، وكدليل على ذلك قدم مثالا بنظرية اينشتاين ، فنظرية النسبية هي تخمين تأملي بساطة لا يمكن اختزاله إلى مجموعة من عبارات الملاحظة التجريبية. في الواقع يمكن القول الأمر نفسه أيضا عن الديناميكيات النيوتنية ، والتي قبلت كنظرية ليس لأنها كان يمكن التحقق منها تجريبيا ، ولكن لأنها كانت الفرضية ذات القوة التفسيرية العظمى. وإذا تأكدت نظرية نيوتن أو اينشتاين لاحقا عن طريق الملاحظة ، فذلك أفضل بكثير. وان لم تؤكد ، فسيكون قد تم دحضها.

فصدق التخمين يعتمد على قدرته على الصمود إمام التنفيذ. وهكذا فان معيار بوبر لتمييز العلم عن الميتافيزيقا هو القدرة على الدحض ، إذا كانت النظرية قابلة للدحض فإنها نظرية ميتافيزيقية (كريشلي ، 2016 ، ص106).

محتويات النظرية العلمية عند بوبر:

أ. **المحتوى المعرفي للنظرية:** يقيم بوبر دراسته في محتوى النظرية على فكرة بسيطة مفادها أن المحتوى المعرفي لقضية مركبة من عنصرين سوف يكون اكبر مما يحتويه احد عنصريهما أو مساويا له على الأقل. لنفترض أن القضية "أ" تقول: "سوف تمطر السماء هذا المساء" والقضية "ب": "سوف يكون الجو صحوا غدا" ، والقضية المركبة منهما: "سوف تمطر هذا المساء ويكون الجو صحوا غدا". فالمحتوى المعرفي للقضية (أ ،ب) حسب "بوبر" يتجاوز ما يحتويه احد عنصريها "أ" و"ب" ، بالإضافة إلى درجة احتمال القضية المركبة (أ ،ب) سوف يكون اقل من درجة احتمال أحد عنصريها.

وهذا يعنى اتساع المحتوى المعرفي لنظرية أو قضية يعني درجة قليلة من الاحتمال ، بينما ترتبط قابلية التكذيب باتساع محتواها المعرفي. فنمو المعرفة مشروط بصياغة نظريات ذات محتوى واسع ودرجة قليلة من الاحتمال ، أي وجود تناسب عكسي بينهما ، فالسعي وراء محتوى أوسع للنظرية ودرجة عالية من الاحتمال في

نفس الوقت مطلبان متعارضان ، وهذا عكس موقف الاستقرائيين الذين يطلبون من النظريات درجة عالية من الاحتمال (محمد قاسم ، 1995 ، ص163).

ويصرح بوبر بان المحتوى المعرفي يشير مباشرة إلى الفكرة الحدسية: "القضايا أو النظريات التي تخبرنا بأشياء أكثر عن العالم هي تلك التي تحرم أو تستبعد أكثر" ، فبإمكان أي واحد أن يضع عدد لا محدود من التنبؤات تصل إلى درجة احتمال كل منها إلى واحد صحيح مثل القضية "سوف تمطر السماء" ، فدرجة احتمالها عالية بينما محتواها المعرفي لا يكاد يذكر ، وإذا أردنا أن نحول القضية السابقة "سوف تمطر السماء" قابلة للتكذيب أو علمية ذات محتوى معرفي اتبعنا الخطوات التالية (محمد قاسم ، 1995 ، ص164):

-سوف تمطر السماء في وقت ما من العام القادم.

-سوف تمطر السماء بألمانيا في وقت ما من العام القادم.

-سوف تمطر السماء بألمانيا في الأسبوع القادم.

-سوف تمطر السماء بمدينة برلين الأسبوع القادم.

-سوف تمطر السماء غرب مدينة برلين هذا المساء.

لو قارنا بين القضايا السابقة لوجدنا أن القضية الأولى قريبة من الصدق وان البرهنة على كذبها غير ممكن ، وعندما أضفنا إليها في القضية الثانية مكانا معينا (المانيا) فإننا نكون قد دنونا من قابلية التكذيب على افتراض وجود أماكن أخرى على الكرة الأرضية لن تسقط عليها الإمطار في العام القادم ، وفي القضية الثالثة ضيقنا النطاق واستبعدنا الكثير من المواضع واقتصرنا على موضع معين وزمن قريب وهذا يؤدي إلى زيادة المحتوى التجريبي مع نقصان درجة الاحتمال المنطقية ، وفي القضية الرابعة والخامسة نجد تحديدا أكثر وخاصة الأخيرة مما يجعلها تمثل القضية العلمية عند بوبر ، لأنه ينادي بقضايا ذات محتوى معرفي أعلى ودرجة احتمال منطقية اقل لان من أهداف العلم الأساسية هو بلوغ درجة عالية من التكذيب وهذا لا يتحقق إلا بتوفر محتوى معرفي أكثر للنظرية ، أي كلما حوت العبارة العلمية معلومات أكثر ستكون قابليتها للتكذيب أكثر ، "أن العبارة العلمية هي العبارة ذات المحتوى المعرفي الإخباري عن العالم التجريبي وهي بذلك العبارة القابلة للتكذيب" (الخولي ، 2003 ، ص348).

المحتوى التجريبي: يشير المحتوى التجريبي إلى مجموعة القضايا التي تعارض النظرية ، وإذا كان التعارض هنا ليس قائما بالفعل وإنما محتمل. وما يقصده بوبر بالمحتوى التجريبي للنظرية "هي فئة المكذبات المحتملة للنظرية ، فهي العبارة الإخبارية التي تنتج عن النظرية وان لم تحدث كذبت النظرية" (الخولي ، 2003 ، ص167).

ويعود استعمال بوبر لمفهوم المحتوى التجريبي للفكرة القائلة: أن النظرية التي تخبرنا بالكثير عن الوقائع المشاهدة هي التي تمنع الكثير أيضا من الوقائع وتمنع حدوثه ، بحيث إذا صدقت واحدة من هذه الوقائع المحرمة والمناهضة للنظرية تم تكذيب النظرية على الفور ، وهذا لا يعني أن بوبر يطالبنا بالتفرغ لتكذيب جميع النظريات العلمية القائمة وإنما يطالبنا بالبحث المستمر عن الأمثلة السلبية للنظرية القائمة (محمد قاسم ، 1995 ، ص167).

المحتوى المنطقي: يشير إلى فئة النتائج التي يمكن أن تشتق أو تستنتج من القضية أو النظرية. وهذا لا يعني وجود خلاف بين المحتوى التجريبي والمحتوى المنطقي للنظرية ، لأنه إذا زاد قدر المعلومات في النظرية ، أو قوتها المنطقية فان محتوياها المنطقي والمعرفي يتزايدان أو يتناقصان بنفس النسبة ، وهذا دليل على تشابه الفكرتين.

لا نهاية المحتوى: النظرية لا تصبح علمية إلا بقدر قابليتها للتكذيب ، وهذه الأخيرة ترتبط بالمحتوى بنوعيه سواء كان تجريبيا أو منطقيا. وهذا يعني أن مفهوم التقدم العلمي الذي يتحقق تدريجيا مع ظهور نظريات جديدة واسعة المحتوى يصل إلى مرحلة يصعب فيها حصر هذا المحتوى مهما كانت دقة وسائلنا وعظمت قدرتنا. وكمثال على ذلك: نظرية نيوتن في الجاذبية ، إذا ظهرت قضية أو نظرية تتعارض معها كنظرية اينشتاين في الجاذبية سوف تندرج تحت المحتوى المعرفي لتلك النظرية ، ما دامت هذه الأخيرة تحتوي على مكذبات ممكنة للنظرية الأولى.

وبوبر يشير إلى أن كل نظرية منهما تندرج تحت المحتوى المعرفي للنظرية الأخرى ، طالما أن كلا منهما تستبعد الأخرى وتمنعها وتحضرها.

فالمحتوى المعرفي لأي نظرية حاليا غير محدود طالما يتشكل وينمو في ظل النظريات التي تتعارض معهما حاليا ، ناهيك عن النظريات التي تتخطاها في المستقبل ، وهنا يصل بوبر إلى نتيجة معرفية ومنهجية حيث يقول: "إننا لا نستطيع أن نعرف ولا أن نقيم هذه النظريات مقدما الدليل على ذلك أن نيوتن لم يكن ليتنبأ باينشتاين أو بأحد من أتباعه" (محمد قاسم ، 1995 ، 170).

يرفض بوبر التنبؤ لأنه يتناقض مع طبيعة العلم ونظرياته ، فالعلم يعيش اللحظة الحاضرة على حساب الماضي فقط ، لأنه لا يتضمن قدرة على التنبؤ ، فالنظريات لا نستخلصها من وقائع تجريبية بل إنها تكتشف بوسيلة وحيدة هي الاستنباط ، وقوله "لا نستطيع أن نعرف" تشير إلى لا نهائية المحتوى ، لان محاولاتنا لفهم نظرية يستدعي فهم كل ما ينتج عنها من قضايا وهذا أمر صعب ، لأننا سنواجه بعدد لا محدود من القضايا غير قابلة للتنبؤ تتعلق بالمحتوى المعرفي للنظرية والمنطقي معا ، وبالتالي فان فهم نظرية ما هو دائما مسعى لا نهائي ، وان ما يمكن عمله هو فهم وإدراك النظريات الأفضل فالأفضل (محمد قاسم ، 1995 ، ص171).

القابلية للاختبار: تكون النظرية قابلة للاختبار عندما تكون أكثر قابلية للتكذيب ، فالاختبار هو القاعدة الأساسية والجوهرية في منهج العلم ، وقد اشرنا إلى انه كلما زادت قابلية النظرية للتكذيب زاد محتواها المعرفي الذي لا يعني سوى فئة المكذبات الممكنة أو المحتملة للقضية بالإضافة إلى القضايا المشتقة منها والقابلة للاختبار. وهو عبارة عن محاولات تفنيد وتكذيب لان منهج بوبر هو النقد أي محاول التكذيب "أن العنوان الذي يميز العلم هو انه يقسم بإشباعه للمطلب السلبي مثل قابلية الرفض" (بوبر ، 1986 ، ص77).

لاختبار النظريات العلمية يرى "بوبر" أربع خطوات رئيسية لا بد من إتباعها في الاختبار:

-يتم التأكد من الاتساق الداخلي للنظرية ، أي اتساقها مع نفسها ، وذلك بالتثبت أن كل الفروض الأساسية في النظرية قد أخذت مكانها الصحيح لا يوجد بينها تناقض منطقي.

-البحث عن الصورة المنطقية للنظرية بهدف التمييز بين العناصر المنطقية والتجريبية ، أي فصل القضايا التي لها نتائج أو مقربات تجريبية عن القضايا التي ليس لها ، ومنه نحدد إذا كانت النظرية علمية تجريبية أم أنها تحصيل حاصل.

-مقارنة النظرية الجديدة بالنظريات الموجودة التي غطى نفس القطاع من الظواهر من اجل معرفة ما إذا كانت تمثل تقدما علميا ، أي تتضمن محتوى تجريبي كبير وبالتالي قوة تنبؤية كبيرة.

-اختبار النظرية تجريبيا أي التطبيق التجريبي للنتائج المشتقة أو المستنبطة منها (عوض ، 2006 ، ص278).

التعزيز: يقول بوبر في منطق البحث العلمي: "لا يمكن التأكد من صحة النظريات ، إلا انه من الممكن تعزيزها" ، لقد قدم بوبر مصطلح التعزيز من فلسفته الابستمولوجية كبديل عن التأييد لدى التجريبيين المناطقة ، للفصل في النظريات المتنافسة ويمرر هذا التعزيز النظرية إلى عالم العلم (الخولي ، 2003 ، ص360).

وإذا كنا أمام نظريات لها نفس الشروط ، فان بوبر يختار تلك التي تقدم حلولا كثيرة لمشكلة واحدة ، أي نختار أكثرها قابلية للتعزيز. ودرجات التعزيز عند بوبر:

-تقرير موجز لبيان حالة البحث النقدي لنظرية ما في زمن معين ، في ضوء طريقة النظرية في حل المشكلات ودرجة قابليتها للاختبار.

-صرامة الاختبارات التي تمر بها النظرية وطريقتها في مواجهة تلك الاختبارات (محمد قاسم ، 1995 ، 181).

وبناء على هذه الخصائص فان درجات التعزيز ليست أكثر من بيان نقدي عن الكيفية التي يتم بها انجاز العلم فيما مضى وحتى الآن فقط ، ولا يمكن استخدام التعزيز في التنبؤ بأي انجاز يتم في المستقبل ، كل ما يستطيعه المرء هو أن يتكلم فقط عن درجة تعزيز نظرية في مرحلة معينة من مراحل البحث النقدي الخاص بها ، وغياب هذا النقد يؤدي إلى أن تصبح خطة العلم مدمرة تماما ، لان غياب النقد العقلي في هذه الحالة يعني أن النظريات يمكن أن يوضح كذبها فقط ، لكنها لا تسير إلى إسهام ايجابي في إطار العلم (عوض ، 2006 ، ص282).

إن بوبر يرفض الأساليب العلمية القديمة في اختبار النظريات ، ويقترح مقياسا تحليليا لا استقرائيا يعتني بالكيفية في النظريات أكثر من اهتمامه بالكمية المتعلقة بعدد البيانات المؤيدة. فالتعزيز العالي يرتبط بالمحتوى العالي مع درجة احتمال أولى أو يرتبط بمعنى أدق باللااحتمال ، وهنا يقع اختلاف كبير بين منهج بوبر والوضعية المنطقية ، فهم يرون انه كلما كان الاحتمال منخفضا بالمعنى البوبري –الذي يشير إلى المكذبات المحتملة للفرض أو النظرية- كان التأييد عاليا في نظر الاستقرائيين (محمد قاسم ، 1995 ، 181).

الصدق: كلما زاد تعزيز إحدى النظريات فمن المعقول إننا نقترب من الحقيقة وندانيها ، وما دمنا حريصين على الحقيقة (الصدق) ، علينا استبعاد أي نظرية نكتشف أنها كاذبة ، رغم ما يشاع عن بوبر ومن ذهب مذهبه أنهم يهتمون بالسلب والنفي والتفنيد أكثر من اهتمامهم بالصدق ، وقد اخذ بوبر عن المنطقي "الفرد تارسكي" (1902-1983) تعريفه للصدق: "(ق) تكون صادقة –وفقط إذا- كانت متطابقة مع الواقع" ، وبعد اطلاعه على هذا التعريف للصدق اقترح بوبر "رجحان الصدق" كمعيار يساعده في تفضيل نظرية رغم تكذيبها على نظرية

أخرى ، على أساس أن الأولى اقرب للصدق ، فكل نظرية سواء صادقة أم كاذبة يوجد فيما تقوله صدق أكثر أو اقل ، أو صادقة في جوانب وكاذبة في جوانب أخرى (عوض ، 2006 ، ص283).

الملاحظة: إذا كان أنصار منهج التعليم أو الاستقراء يعتقدون أن العالم يبدأ دائما بملاحظات يشتق منها نظريات ، فان بوبر يخالف هذا الاعتقاد ، حيث يرى أن الملاحظة تعيننا على اختبار نظرياتنا واستبعاد ما لا يثبت منها لأننا لا نعثر على ملاحظات خالصة ولا نستطيع أن نبدأ في بحثنا العلمي من ملاحظات خالصة لان الملاحظة تتم بطريقة انتقائية ، فنحن نختار ما نلاحظه وعندما نلاحظه يكون ذلك بهدف محدد ووجهة نظر معينة ، ذلك لان الملاحظات هي ذاتها "محملة بنظرية".

إن الملاحظة في المفهوم التقليدي تقوم على "الخبرة الذاتية أو الشعور بالاقتناع أو الاقتناع وكلها أمور لا تبرر القضية العلمية عند بوبر" (محمد قاسم ، 1995 ، ص197). فلكل واحد منا خبرته واعتقاده الذاتيين في ملاحظاته شيء واحد وما تخبره عنه لا يمكن أن يتطابق مع ما يقرر كل منهما انه الواقع.

التجربة: لم تعد التجربة وسيلة لتأييد الفرض ، وإنما أصبحت التجربة بمثابة اختبار النظريات القائمة ومحاولات منا للبحث عن الخطأ في النظريات ومن ثم استبعادها ، فحسب بوبر هذا النوع من التجربة يرفض النظرية ويكذبها. والدور الايجابي الذي يمكن أن تؤديه التجربة للنظرية يتمثل في نجاح النظرية ، وبتعبير آخر إذا لم تنجح التجربة في رفض نظرية معينة فان النجاح يكون من نصيب النظرية. وفي هذه الحالة نقول أن النظرية معززة عن طريق التجارب ، فكلما نجحت تجربة واستبعدنا نظرية ، كان علينا أن نبحث عن نظرية بديلة أكثر سعة وشمولا (محمد قاسم ، 1995 ، ص198).

خاتمة:

المؤلف الصحفي الأمريكي المتخصص في مجال العلوم جون مورغان John Horgan في كتابه: "**مواجهة حدود المعرفة في غروب عصر العلم**" وعنوانه الفرعي: "**نهاية العلم**" "The End of Science" بعدما التقى وحاور أكثر من أربعين من أشهر الباحثين في العالم منهم "ستيفن هوكنغ" "Stephen Howking" و"ستيفن جي غولد" "Stephen Jay Gould" والفيزيائي "موراي غيلمان" "Murray Gell – Mann" والباحث المتخصص بالدماغ "فرانسيس كريك" "Francis Crick" والفلاسفة "كال بوبر" "Karl Popper" و"توماس كون" "Thomas Kuhn" و"بول فيرابند" "Paul feyrabend" ، يؤكد بأننا قد حللنا معظم وأعظم الغاز الطبيعة وما تبقى منها سيبقى ألغازا وأسرارا تستعصي على مداركنا وسنبقى عاجزين عن حلها إلى الأبد ، وستبقى علم ساخر ومثل هذا العلم لا يمكن أبدا أن يصبح صحيحا وهو أقرب إلى الشبه بالفن والأدب والفلسفة (نعمان ، 1997 ، مراجعة نقدية لكتاب جون هورغان (نهاية العلم). www.nizwa.com).

حوار بين اينشتاين وممرضته:

الممرضة: قالت الأرصاد أن الطقس سيكون منعشا ؟

اينشتاين: ربما غير الله رأيه ؟

الممرضة: ربما أنت محق ، ربما يكره أن يتنبأ احد بأفعاله.

اينشتاين: اشعر أحيانا بأنه لا يحب أن يراقبه احد ، فيقول زملائي لي: إننا نؤثر على عالم الله بمجرد مراقبته.

الممرضة: كيف يحصل هذا ؟

اينشتاين: كيف يحصل هذا؟ كيف يمكنك أن تراقبي أمرا وفي الوقت ذاته تغيرين طبيعته عبر مراقبته؟
أحيانا أفكر أننا لا نحتاج إلى الله لكي نبدو أغبياء، بل نجيد ذلك بأنفسنا.
الممرضة: لعل الله لا يريدنا أن نعرف كل شيء.
اينشتاين: الله حذق لكنه ليس ماكرا.
لا أؤمن بأنه جعل من كل شيء خارج قدرتنا، ولا انه يخفي شيئًا عنا، بل هو يطلب منا فقط أن نبحث بجهد اكبر (قصة اينشتاين، السمفونية الناقصة).

ما الذي عناه أينشتاين بقوله "إن الله لا يلعب النرد"؟ (midan.aljazeera.net)

كتب أينشتاين في (ديسمبر/كانون الأول) عام 1926 "للنظرية -أي ميكانيكا الكمّ- فوائد جمة، لكنها لا تقرّبنا من سرّ الإله. أنا على يقين تام بأن الله لا يلعب النَّرْد". كتب أينشتاين هذا في ردِّه على خطاب من الفيزيائيّ الألمانيّ ماكس بورن. كان ماكس يقول إنّ قلبَ نظرية ميكانيكا الكمّ الجديدة ينبض بالشكّ والعشوائيّة، وكأنه يعاني من اضطراب النَّظْم القلبي. فحين كانت الفيزياء قبل نظرية الكمّ قِوامها أنّا إذا أدخلنا المدخل ألف نحصل على المخرج باء، بَدَا قِوام ميكانيكا الكمّ أنّا إذا أدخلنا المدخل ألف نحصل على المخرج باء باحتماليّة ما، وفي بعض الحالات يمكننا الحصول على المخرج جيم. لم يَقبَل أينشتاين هذا، وتردّد في العقود التالية صدَى إصرارِه بأنّ الله لا يلعب النرد مع الكون.

إن الإلهَ -عند أينشتاين- أعظم من كلِّ شيء، لكنه غيرُ شخصي وغيرُ ملموس، ماكر لكن ليس شرّيرا. وهو أيضا حتمي بشدة. فعلى حد اعتقاد أينشتاين، كان "التناغم الناموسيّ" لله ينشأ في الكون من التزام صارم بالمبادئ الفيزيائية للسبب والنتيجة. لذا فلا مجال في فلسفة أينشتاين للإرادة الحرة، إذ يقول: "كل شيء مُقدَّر سلَفا؛ البداية كما النهاية، تُحددها قوة لا سلطةَ لنا عليها، نحن جميعا نرقص على نغمة غامضة، يعزفها عازف خفيّ على بُعد".

قال جورج ليندبرج في إجابة على سؤاله الذي جاء عبارة عن عنوان لمؤلف "هل يستطيع العلم أن ينقذنا" 1947، أن "أعظم إسهام يمكن أن يقدمه العلم للأخلاق يتمثل فيما يقدمه للإنسان من فرصة التسجيل الصادق لخبراته وتفسيرها". لذا فهو لا يهتم بتحديد الأهداف والقيم العامة للمجتمع الإنساني أو الجنس البشري، بدعوى أن هناك اتفاقا عاما بين كل الناس على ما هو ذو قيمة، ولكن الاختلاف بينهم هو على الوسائل التي توصل إلى هذه الأهداف، والاختلاف على الوسائل مرجعه سيادة الإيديولوجيات الواهمة أو اللاهوت أو الميتافيزيقا.

قائمة المراجع:

-أبو زيد، احمد(2001). "الطريق إلى المعرفة"، مجلة العربي، العدد 46، الكويت.
-الحاج حسن، وداد(2001). رودولف كارناب نهاية الوضعية المنطقية. المركز الثقافي العربي. بيروت.
-الشماس، عيسى(2004). مدخل إلى علم السكان (الانثروبولوجيا). اتحاد الكتاب العرب. دمشق.
-النفادي، السيد(1991). معيار الصدق والمعنى في العلوم الطبيعية والإنسانية. دار المعرفة الجامعية، إسكندرية.
-بريل، ليفي(1952). فلسفة اوغيست كونت. تر: محمود قاسم. مكتبة الانجلو مصرية.
-بوبر، كارل(1986). منطق الكشف العلمي. تر: ماهر عبد القادر محمد علي. دار النهضة العربية، بيروت.
-بوزار، نور الدين(2012). "الإشكال المنهجي في العلوم الإنسانية من منظور الفلسفة الوضعية، اوغيست كونت نموذجا". مجلة الحكمة، العلوم الفلسفية". الجزائر.

-**جمول، علي**(2008). "الوضعية والوضعية المنطقية". pulpit.alwatanvoice.com.
-جيليز ، دونالد(2009). فلسفة العلم في القرن العشرين. ط1. تر: حسين علي. دار التنوير بيروت.
-**حمداوي، جميل**(2015). "نظريات علم الاجتماع" ، شبكة الالوكة ، www.alukah.net.
-دوبوا ، ميشال(2008). مدخل إلى علم اجتماع العلوم. تر: سعود المولى. المنظمة العربية للترجمة ، بيروت.
-زكريا ، فؤاد(2017). نظرية المعرفة والموقف الطبيعي للإنسان. مؤسسة هنداوي ، مصر.
-شادي ، عبد الحافظ(2017) "ما هي الفلسفة الوضعية المنطقية". midan.aljazeera.ne .
-صيام ، شحاتة(2009). النظرية الاجتماعية من المرحلة الكلاسيكية إلى ما بعد الحداثة. ط1. مصر العربية للنشر والتوزيع. مصر.
-طريف الخولي ، يمنى(2000). فلسفة العلم في القرن العشرين ، عالم المعرفة ، الكويت.
-طريف الخولي ، يمنى(2003). فلسفة كارل بوبر. ط2. الهيئة المصرية العامة للكتاب. مصر.
-عزمي ، إسلام(1980). اتجاهات في الفلسفة المعاصرة ، وكالة المطبوعات ، الكويت.
-عوض ، عادل(2006). منطق النظرية العلمية المعاصرة وعلاقتها بالواقع التجريبي. ط1. دار الوفاء. الإسكندرية.
-قصة اينشتاين. السمفونية الناقصة. كتاب الكتروني.
-قنصوة ، صلاح(2007). الموضوعية في العلوم الإنسانية ، دار التنوير ، بيروت.
-كامل ، فؤاد(1993). أعلام الفكر الفلسفي المعاصر. ط1 ، دار الجيل. بيروت.
-كريشلي ، سايمون(2016). الفلسفة القارية. ط1. تر: احمد شكل. مؤسسة هنداوي. مصر.
-لودان ، لاري(2016). التقدم ومشكلاته ، نحو نظرية عن النمو العلمي. ط1. المركز القومي للترجمة. القاهرة.
-محمد امزيان ، محمد(1991). منهج البحث الاجتماعي بين المنهجية والمعيارية ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، فيرجينيا.
-محمد قاسم ، محمد(1995). كارل بوبر نظرية المعرفة في ضوء المنهج العلمي. دار المعرفة الجامعية. مصر.
-مرسي ، ماجدة(2001). النظرية العلمية في الفكر المعاصر. المكتب العلمي. الإسكندرية.
-مصطفى هدارة ، محمد(1410). الحداثة فى الأدب المعاصر: هل انقض سامرها" ، مجلة الحرس الوطني ربيع الآخر 1410هـ
-نعمان ، عبد السلام. مراجعة نقدية لكتاب جون هورغان (نهاية العلم). www.nizwa.com.
-يفوت ، سالم(2008). ابستمولوجيا العلم الحديث. ط2. دار توبقال للنشر. المغرب.

-Ansart, Pierre.(1969). Marx et l’anarchisme essai sur les sociologies de saint-Simon, Proudhon et Marx. presses universitaires de France. France.
-ar.wikipedia.org/wiki

الآثار البيئية للتوسع الحضري لمدينة سلا المغربية واستراتيجية التدبير المستدام

Environmental impacts of the urban expansion of the Moroccan Salé city and the sustainable management strategy

نزهة عربي [1] ؛ محمد أنفلوس [2]

1. طالبة باحثة بسلك الدكتوراه: دينامية الفاعلين الترابيين ، مركز دراسات الدكتوراه ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالمحمدية ، مختبر دينامية المجالات والمجتمعات ، جامعة الحسن الثاني بالدار البيضاء-المغرب
2. أستاذ الجغرافيا ومدير مختبر دينامية المجالات والمجتمعات ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية شارع الحسن الثاني ، جامعة الحسن الثاني بالدار البيضاء ، المغرب

مقدمة

الضغط الراهن الذي تشهده المجالات الحضرية بالمغرب له سيرورة تاريخية تحكمها عوامل متداخلة ، ويعد من المؤشرات الدالة على التوسع الحضري غير المراقب وغير المهيأ في الهوامش على حساب مركز المدينة ، مما يشير إلى أن المجالات الحضرية تتجه نحو تحضر يفتقر لمعايير الاستدامة ويخل بمورفلوجية المدينة. ومدينة سلا على غرار المدن المغربية تعيش دينامية حضرية كبيرة أدت إلى توسع أفقي للمدينة في اتجاه الأطراف نتيجة تضخمها بسكانها وتزايد الطلب على السكن ، نظرا لموقعها الذي يشكل مَعبرا رئيسيا يتوسط أهم منطقة اقتصادية في المغرب الممتدة ما بين مدينتي القنيطرة والجديدة.

اتخذ التوسع الحضري لمدينة سلا عدة أشكال تختلف باختلاف مكونات النسيج الحضري ، الذي يعتبر نتاج تحولات ديمغرافية واقتصادية وعمرانية عايشتها المدينة عبر فترات ، إلا أنها أفرزت في وقت لاحق مجموعة معيقات أصبحت تؤثر على التنمية الاقتصادية والاجتماعية والعمرانية وتحد من فعالية برامج وتدابير التنمية الترابية والتهيئة الحضرية ، وأيضا تعد من أبرز العوامل المؤثرة على البيئة بمختلف عناصرها داخل المدينة وبالأوساط الطبيعية المحيطة بها ، والتي تشكل بالنسبة للمدينة سندا إيكولوجيا وأداة أساسية لتحقيق تنمية حضرية مستدامة كهدف استراتيجي في ظل التحولات التي تشهدها البيئة العالمية.

وتطمح هذه الدراسة إلى معالجة إشكالية محورية تتعلق برصد خصائص أشكال التوسع الحضري لمدينة سلا التي تعد مختبرا لمجال شهد تحولات كبرى وسريعة على مستويات مختلفة ، والوقوف عند استراتيجيات وبرامج ومشاريع التدبير المستدام التي تقودها الدولة والسلطات المحلية والشركاء الاقتصاديين والمؤسساتيين ، إذ أن تهيئة المدينة ومراقبة نموها وإدارتها من متطلبات الاستدامة وبناء مدينة الغد.

1. التطور السوسيو مجالي لمدينة سلا

1.1. خصوصيات التوسع الحضري لمدينة سلا: تعود نشأة المدينة وفق حلتها الراهنة لعوامل متعددة ارتبطت أساسا بالمرحلة الاستعمارية ، التي على إثرها تم وضع الأسس الأولى للازدواجية الحضرية بين المدينة العتيقة والمدينة الجديدة التي يتميز بها المشهد الحضري لمعظم المدن المغربية آنذاك ، لتطال هذه الازدواجية مختلف جوانب الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية. وبذلك تم فرز مجال حضري متباين

النسيج العمراني. وقد ساهمت مجموعة من العوامل في تكريسه وترسيخه ليصبح السمة والخاصية المميزة لمجموع المجال الحضري، ذلك أن مسلسل التعمير بمدينة سلا اكتسى صبغة تلقائية وعفوية حيث مر بمراحل أساسية ابتداء من فترة الحماية وصولا إلى المرحلة الآنية.

1.1.1. مدينة سلا بين التهميش والإرهاصات الأولى للتخطيط الحضري من طرف المستعمر: منذ الحماية إلى سنة 1960: في ظل اهتمام سلطات الحماية بتحويل المجال المغربي نحو الساحل على حساب المناطق الداخلية، تم نقل العاصمة من فاس إلى الرباط منذ 1914م في عهد المقيم العام الجنرال ليوطي، فعاشت مدينة سلا خلال هذه الفترة نوعا من التهميش من لدن السلطات الفرنسية، حيث أنها لم تشهد أي تغيير في بنيتها الحضرية، وبقيت منحصرة في المدينة العتيقة المنحبسة داخل أسوارها. وقد عرفت أول مدار حضري لها سنة 1917 وكان يغطي حوالي 260 هكتارا يضم عددا من الأحياء، كما توسعت المدينة بتأسيس أحياء جديدة سنة 1946 (عبد النبي كندال، 1994-1995، ص 34). وأمام تزايد عدد السكان وارتفاع الكثافة السكانية بالمدينة القديمة التي لم تعد طاقتها الاستيعابية قادرة على استقبال المزيد، خاصة أمام تزايد عدد النازحين الريفيين وانتشار الفقر، ظهرت البوادر الأولى لأحياء الصفيح بالمدينة منذ سنة 1920 (Ali El karfi,2006,p.59) كمجال جديد لاستقبال الفائض البشري، هذه الأحياء كانت محظورة على الاوربيين لأسباب سياسية وصحية.

ومنذ سنة 1946 تميزت سياسة الإسكان بالتخطيط الشامل للتجمع الحضري الرباط-سلا، بعدما كان جل الاهتمام منصبا على تهيئة مدينة الرباط باعتبارها العاصمة الإدارية. وذلك في إطار الحداثة والتقدم العلمي والتكنولوجي الذي شهدته أوربا منذ بداية القرن العشرين، والذي ترك بصمته على مستوى التمدن والعمارة خاصة على يد كوربوزيي Le Corbusier سنة 1920، الذي سيعقبه عقد المؤتمر الدولي للهندسة المعمارية الحديثة سنة 1933 (Ali El kari,2006,p.60). وفي سياق هذه الثورة العمرانية تم اعتماد معايير جديدة في التعمير كبداية العمل بالبناء العمودي، وقد شكل المغرب في ظل هذا التجديد حقلا تجارب عالمية كغيره من المستعمرات. فإذا كان التخطيط الحضري في أوربا وليد التصنيع، فإنه يعتبر في المغرب وليد الاستعمار.

هكذا، وأمام الضغط القوي للمغاربة، خاصة طبقة البروليتاريا الحضرية، لتلبية مطالبهم خلال أربعينيات القرن الماضي، عملت سلطات الحماية على مراعاة احتياجات السكان المغاربة ولاسيما على مستوى السكن، فتم تأسيس المكتب الشريف للسكن تحت إشراف المهندس المعماري ميشيل إكوشار Michel Ecochard الذي وضع نموذجا تخطيطيا يتماشى مع خصوصيات المغاربة (Ali El karfi,2006, p.60).

وقد عرف المجال الحضري للمدينة توسعا حيث تم تحديد مداره بإنشاء أول تصميم تهيئة حضري خاص بسلا سنة 1950 (Ali El karfi, 2006,p.61)، وفي تزامن مع ذلك بدأ العمل بخطة إكوشار M. Ecochard منذ سنة 1955. وقد غيرت هذه العملية من خصوصية التعمير حيث سيتحول النسيج الحضري بظهور مناطق للعمارات وأخرى للفيلات (Ali El karfi, 2006, p.60)، وبموازاة ذلك تم تخصيص مساحات شاسعة للسكن الاقتصادي كحل لدور الصفيح.

وغداة الاستقلال، لم يلاحظ أي تغيير إيجابي كبير، حيث استمر االتوسع الحضري للمدينة بنفس النمط لكن بوتيرة أسرع، إذ أن أغلب عمليات الإسكان الكبرى تقتصر على مشاريع السكن الاقتصادي كحل ظرفي لأزمة السكن.

2.1.1. تمدد حضري خارج الأسوار رافقه اختلال النسيج الحضري للمدينة: منذ 1960 إلى بداية التسعينيات

وأمام تزايد الضغط الديمغرافي بمدينة سلا، حيث سجل معدل نموها السكاني 6,75% بين سنتي 1960 و1971، و5.74% بين سنتي 1971 و 1982، و4,32% بين سنتي 1982 و 1994. وقد اتسعت رقعة أحياء الصفيح حيث بلغت إلى حدود سنة 1975 ما يناهز 28000 وحدة سكنية صفيحية (Ali El karfi, 2006,p.62). كما تزايد عدد الأحياء الهامشية بظهور أحياء جديدة منتصف سبعينيات القرن الماضي، والتي أضيفت لأحياء ظهرت في فترات سابقة فتضاعفت المساحة التي تشغلها بانتقالها من 112 هكتارا سنة 1970 إلى 256 هكتارا سنة 1979 (Ali El karfi, 2006, p.62). وفي نهاية السبعينيات تشبعت المدينة القديمة بسكانها، حيث لجؤوا إما للاستقرار خارج أسوارها أو النزوح خارج المدينة خاصة الفئات الميسورة منهم التي فضلت الاستقرار بأحياء العاصمة الرباط.

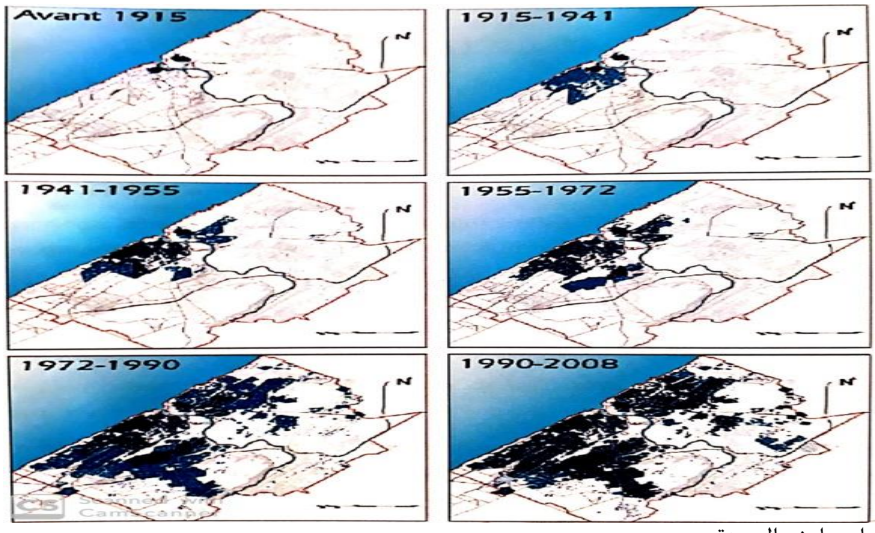
ومع بداية الثمانينيات، نتيجة الضغط السكاني الذي شهدته مدينة الرباط وتعدد المشاكل بها، استقلت مدينة سلا عن الرباط لتشهد انطلاقة فعلية لخلق وتهيئ أسباب تنظيم وتهيئة المدينة. وقد ترتب عن هذا الاستقلال عن العاصمة ظاهرة مزدوجة: تميزت الظاهرة الأولى باستمرارية الدينامية الديمغرافية، أما الظاهرة الثانية فتتعلق بالانتشار المتسارع لأحياء الصفيح، حيث أصبح يأوي هذا النوع من السكن حتى الثمانينيات أزيد من نصف ساكنة المدينة. وقد خلفت هاتين الظاهرتين اختلالات داخل النسيج الحضري لسلا، فتم وضع أول مشروع لتنظيم مجالها الحضري ومواجهة النمو الحضري المتسارع عند نهاية ثمانينيات القرن الماضي (Ali El karfi,2006,p.62,63)، وقد أخذ بعين الاعتبار أحياء السكن الهامشي.

وعلى إثر ذلك، أصبح من المفروض على مصالح الإسكان بمدينة سلا، مواجهة الخصاص على مستوى البنيات التحتية والتجهيزات، خاصة ما يتعلق منها بمشاكل الصرف الصحي وشبكة الإمداد بالماء الصالح للشرب لمسايرة حاجيات السكان المتزايدة، بسبب تزايد عدد الأسر بالمدينة العتيقة من جهة، والحاجيات المتعلقة بالحد من استفحال أحياء الصفيح والسكن العشوائي الهامشي بها من جهة ثانية.

3.1.1. تضخم حضري فرض ضرورة التدخل السريع والفعال: منذ التسعينيات إلى الآن: على إثر اختلال النسيج الحضري وتمايز البنايات بين نمطين، نمط البناء المخطط الذي يستجيب لشروط الهندسة المعمارية وضوابط في التعمير وعملية البناء، ونمط البناء غير المخطط له وهو بناء يتم وفق احتياجات الفرد والأسرة بعيداً عن ضوابط التعمير المتبع والمفروض الالتزام به.

وقد تميزت هذه المرحلة بإصدار القانون رقم 25-90 المتعلق بالتجزئات العقارية والمجموعات السكنية وتقسيم العقارات، وقانون 12 – 90 المتعلق بالتعمير، بهدف التحكم في التوسع الحضري للمدن، وإصدار التصميم المديري للتهيئة الحضرية لمدينتي الرباط وسلا سنة 1995، بهدف إعادة هيكلة المجال الحضري من خلال تأهيل البنيات التحتية والمرافق الاجتماعية والثقافية والرياضية (Ali El karfi,2006,p.64). وعلى إثر

المضاربة العقارية التي شهدها الوعاء العقاري للمدينة ، نتيجة استنزاف احتياطي الدولة من الأراضي وما ترتب عنه من ارتفاع أسعار الأراضي ، تم بناء مدن جديدة لتخفيف الضغط على المدن الكبرى ، كإنشاء سلا الجديدة



على هامش المدينة.

شكل رقم 1: مراحل تطور مدينتي الرباط-سلا المصدر: تصميم التهيئة الجماعي 2016

2.1. تمايز النسيج العمراني والمشاكل المرتبطة بالتمدد الحضري

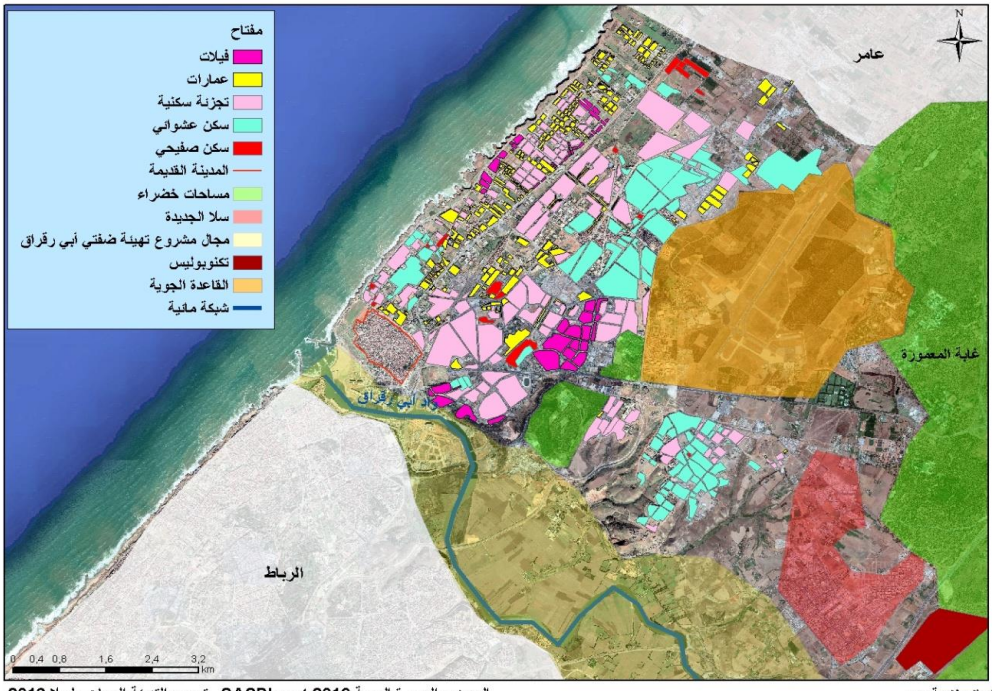
1.2.1.التوسع التدريجي من المركز نحو الأطراف على شكل محاور من السكن العشوائي والهامشي: لقد عرفت المدينة العتيقة التي كانت تعرف توازنات اقتصادية واجتماعية وسياسية ، مجموعة من التحولات مست الهياكل التقليدية للتدبير الحضري لصالح المدينة الجديدة المنفتحة على العصرنة والاستعمال المكثف لوسائل النقل الحديثة ، مما ساهم في ظهور تفاوتات سوسيو مجالية عميقة بين سلا القديمة داخل الأسوار وسلا خارج الأسوار. ففي الوقت الذي هاجر فيه المعمرون والنخبة المغربية المدينة القديمة ، أصبحت هذه الأخيرة مكتظة بساكنتها فازدادت الحركية المجالية للسكان خارج الأسوار. وأمام تفاقم المضاربة العقارية للسوق الحرة بالمدينة الجديدة خارج الأسوار ، مع عدم قدرة المؤسسات العمومية والخاصة على توفير عرض عقاري في متناول الأسر ذات الدخل المحدود ، تطور السكن غير القانوني وأصبح السمة التي تميز التعمير بالمدينة ، وبالتالي انفلت التوجه العام للتعمير من يد أجهزة المراقبة مما أعطى في النهاية مدينة ذات مورفلوجية متباينة ، بين تجمعات سكنية قانونية وغير قانونية ماتزال تميز المشهد الحضري إلى الآن. هذه الازدواجية لها أبعاد ديمغرافية وسوسيو اقتصادية وسياسية ، سمحت لنا بالتمييز بين تجمعات للسكن الاجتماعي والاقتصادي وأخرى للسكن العشوائي والقصديري توسعت عبر عدة محاور.

تمثلت في المحور الجنوبي-الشرقي الذي تطورت فيه "قرية اولاد موسى" التي انتقلت من مجرد دوار إلى قرية تتكون من عدة تجزئات سكنية عشوائية. والمحور الشمالي-الشرقي من "واد الذهب"" إلى "دوار المازا ،" وقد تميز هذا المحور بحداثة نشأته ، حيث ارتبط بامتداد أزمة السكن وظهور أولى بوادر التمدين الذي بدأ يمس

أطراف المدينة ، ومع بداية السبعينيات شهد المحور ظهور بعض أنوية السكن غير القانوني. المحور الثالث وهو الشريط الموازي للطريق الوطنية في اتجاه القنيطرة حيث تنتظم على طولها عدة تجمعات سكنية صغيرة على شكل دواوير تعود للخمسينيات ، وعلى الرغم من أن هذا المحور بالمقارنة مع باقي المناطق الهامشية كان يعتبر حتى منتصف السبعينيات أكثرها اكتظاظا وتعميرا ، فإنه لم يعرف تغيرات واضحة كالتي حدثت بالأماكن المجاورة ، ليشهد حركة تعمير واسعة في فترات لاحقة بظهور تجزئات قانونية مرخص لها (عبد النبي كندال ، 1995-1994 ، ص 55-70).

يتسم الاتجاه العام لتوسع المجال الحضري بمدينة سلا بهيمنة الهوامش على حساب المجالات المركزية ، وبانتشار واسع للأحياء العشوائية الفقيرة خارج نطاق المدار الحضري للمدينة ، بارتباط مع توسعها العمراني على حساب ظهيرها الزراعي ، وذلك أمام النمو الديمغرافي السريع والهجرة القروية وتطور وسائل النقل والمواصلات ، وفي غياب مساطر قانون التعمير وانخفاض أسعار الأراضي عند تلك الهوامش مقارنة بالمدينة في

خريطة رقم 1: النسيج الحضري لمدينة سلا سنة 2019



إنجاز: نزهة عربي المصدر: الصورة الجوية SASPlanet 2019و تصميم التهيئة الجماعي لسلا 2016

حد ذاتها. هذا النوع من الدينامية الحضرية يعبر عن الحاجيات المتزايدة في ميدان السكن والتجهيزات بسبب الدينامية الديمغرافية والتحولات الاقتصادية والاجتماعية ، وأساسا باختيارات الدولة في ميدان التهيئة الحضرية. لذلك ينتشر هذا النوع من السكن على مساحات واسعة من أراضي الملك الخاص يطبعه سوء الهيكلة والتنظيم ، ومع ذلك يعتبر أحسن حظا من السكن الصفيحي.

2.2.1.انتشار أحياء الصفيح يعكس درجة الفقر ويخل بجمالية المشهد الحضري والبيئي للمدينة: يعد السكن الصفيحي النوع الأكثر هشاشة من بين مجموع أنواع السكن غير اللائق ، فهو عبارة عن تجمعات سكنية نمت وتوسعت غالبا على شكل كتل متراصة من المساكن المؤقتة المبنية من مواد هشة ، على أرض غير مجهزة تفتقر للخدمات الأساسية من ماء وكهرباء وشبكة الصرف الصحي ، كما أنها تفتقر للمرافق الاجتماعية والصحية ، وتسكنها عادة أفقر طبقات المجتمع المكونة غالبا من الوافدين الريفيين الذين قدموا المدينة رغبة في الحصول على العمل وتامين مستوى حياة أفضل.

هذا النوع من السكن ليس بحديث العهد بالمغرب ، إذ تعود نشأته إلى الفترة الاستعمارية بهوامش المدن وبجوار المعامل ، وذلك نظرا لحاجة الرأسمال إلى اليد العاملة. ومدينة سلا بدورها شهدت انتشارا واسعا للأحياء الصفيحية ، نظرا لموقعها ضمن المجال المتروبولي الساحلي الأطلنتي الممتد من الدار البيضاء إلى القنيطرة ، والذي يضم ثلاثة أرباع أحياء الصفيح المنتشرة في سائر المدن المغربية و70% من مجموع سكان أحياء الصفيح بالمغرب.

ويعود ظهور السكن الصفيحي بالمدينة كما سبقت الإشارة إلى سنوات العشرينيات من القرن الماضي حيث صادف الفترة الاستعمارية ، وقد انتقلت تجمعات السكن الصفيحي من تكتلات سكنية صغيرة مكونة من بضع وحدات سكنية إلى دواوير من الحجم الكبير ذات كثافة سكانية مرتفعة كما نشاهدها حاليا. إذ تحتل مدينة سلا المرتبة الرابعة وطنيا من حيث عدد أسر أحياء الصفيح حيث سجلت 10373 أسرة قاطنة بأحياء الصفيح ، بعد الدار البيضاء التي تضم 51201 أسرة ، وأكادير التي تضم 17790 أسرة ، ومراكش التي تضم 15402 أسرة (Ali El karfi,2006,p.70).

2.المشاكل البيئية الناجمة عن التوسع الحضري لمدينة سلا: يعد التدهور البيئي من مظاهر الاختلال الذي تعرفه البيئة الحضرية كنتيجة للتوسع العمراني العشوائي ، وتزايد الأنشطة البشرية المختلفة وكثافة وسائل النقل والمواصلات ، حيث لم تراعي هذه المتغيرات الحضرية المستمرة مبدأ التوازن بينها وبين خصائص البيئة لخلق نوع من الاستدامة ، مما جعل مدينة سلا تصنف من بين المدن الأكثر تلوثا على الصعيد الوطني. ويتخذ فيها التلوث أشكالا مختلفة من أبرزها عجز نظام الصرف الصحي وجودة المياه والهواء.

1.2.محدودية تغطية شبكة الصرف الصحي: يعد سوء الصرف الصحي أحد أكثر المؤشرات دقة للفقر الحضري والمشاكل الصحية ، فبين سنتي 2004 و 2014 انتقل عدد السكان الحضريين من 777015 نسمة إلى 915658 نسمة أي 146158 نسمة إضافية ، وبنسبة معدل نمو بلغت 1.6% ، ومن المتوقع أن يرتفع إجمالي سكان عمالة سلا إلى 1260835 نسمة في أفق 2030 (المندوبية السامية للتخطيط ، 2014). مما يساهم في انتشار رقعة الفقر التي لها ارتباط وثيق بمشاكل سوء الصرف الصحي ، إذ يعيش 3.4% من سكان المدينة (مونوغرافية عمالة سلا،2016 ، ص35) في سكن غير لائق منخفض الجودة أو يعاني من الاكتظاظ وعدم كفاية أو انعدام خدمات الصرف الصحي والتخلص الآمن من النفايات ، محرومين من إمكانيات مناسبة للصرف الصحي لعدم قدرة الجماعات الترابية والسلطات المحلية على توفير الخدمات الأساسية. فالارتباط بالشبكة العمومية للصرف الصحي تعتبر الوسيلة الأكثر استعمالا لصرف المياه المنزلية العادمة بالوسط الحضري لمدينة سلا ، وذلك بنسبة 74.8% ، تليها طرق أخرى بنسبة 18.8% تشمل الحفر غير الصحية

بأحياء الصفيح ، إلا أن جزءا من هذه الأحياء أقيمت به شبكات للصرف الصحي بمبادرة من الساكنة المحلية وإن كانت غير خاضعة لقواعد مضبوطة وتصميم مسبق ، وأيضا يعتمد هذا النوع من شبكات التصريف بالأحياء الهامشية التي لم تستفد بعد من شبكات الصرف الصحي من طرف الشركة المختصة ، إضافة لاعتماد شبكات صرف صحي منفصلة تحت أرضية خاصة بالمناطق الصناعية مرفوقة بقنوات سطحية على جوانب الطرق لتصريف مياه التساقطات ، مع العلم أن بعض الوحدات الصناعية تعمل على تصريف المياه العادمة بشكل سري في فضاءات مفتوحة ، ثم الحفر الصحية بنسبة 6.4% فقط (مونوغرافية عمالة سلا ،2016 ،ص39). وتجدر الإشارة إلا أن تصريف المياه العادمة يعتمد النظام المنفصل أي أن الشبكة تضم قنوات خاصة بالصرف الصحي طولها 10.2كلم (حي مولاي اسماعيل ، تجزئة سيدي عبد الله) وقنوات خاصة بتصريف مياه الأمطار تمتد على أكثر من 10.8كلم (بوقنادل ، العيايدة ، القاعدة الجوية ، بطانة ، الولجة ، طريق قنيطرة) ، ثم النظام الأحادي الذي يجمع بين الصرف الصحي ومياه الأمطار ، والنظام الفردي وهو عبارة عن حفر صحية خاصة.

يعتبر مشكل سوء الصرف الصحي في الأحياء الفقيرة بالوسط الحضري للمدينة من أحد العوامل المباشرة والمحددات الاجتماعية التي تؤثر على هشاشة الأوضاع الصحية لساكنتها ، على اعتبار أن الجمع بين عدم كفاية شبكات الصرف الصحي ، والسكن الرتيب ، والاكتظاظ ونقص شروط النظافة الصحية ، وتدني مستوى التثقيف والوعي الصحي ، والظروف المعيشة السيئة للغاية ، والافتقار إلى الأمن الوظيفي بالاشتغال في القطاع غير المهيكل ، كل ذلك يزيد من المخاطر الصحية التي تهدد ساكنة تلك الأحياء الهامشية ، خاصة مع تواجد تحديات صحية عديدة وفي مقدمتها عدم توافر خدمات صحية عالية الجودة ، وإمكانية الولوجية والوصول إليها والقدرة على تحمل تكلفتها والإنصاف في تقديمها بفعالية وكفاءة.

وتشكل هذه الأزمة الصامتة نوعا من الاستخفاف بكرامة الساكنة على نطاق واسع يلحق ضررا كبيرا بصحة الإنسان خاصة الأطفال لكونهم أكثر عرضة للأمراض ، فحسب فرقة عمل الأمم المتحدة لمياه الصرف الصحي (السنة الدولية للصرف الصحي ،2008 ، ص2) يمكن أن يحتوي غرام واحد من فضلات الإنسان على 10000000 فيروس و1000000 بكتيريا و1000 من أكياس الطفيليات و1000 بيضة طفيليات ، ونتيجة لذلك تنقل البكتريا والفيروسات والطفيليات عن طريق المياه والتربة والأغذية وتلوث كل شيء في طريقها ، مسببة أمراض الإسهال (بما فيه الدوسنتاريا والكوليرا)، وأمراض الطفيليات ، وانتشار الإصابة بالديدان والرمد الحبيبي. وتحتل أمراض الإسهال مكانا رئيسيا بين الأمراض كمسبب للوفاة والمرض ، وهي تقتل 1.8 مليون شخص كل عام ، وسوء النظافة وانعدام إمكانيات الصرف الصحي معا يسهمان بنسبة 88% من جميع الوفيات الناجمة عن أمراض الإسهال ، وترتفع هذه النسبة لدى فئة الأطفال محتلة المرتبة الثانية من بين الأسباب الرئيسية لوفيات الأطفال دون سن الخامسة ، حيث تتسبب في 5000 وفاة في اليوم (السنة الدولية للصرف الصحي ،2008 ،ص2). إضافة إلى ذلك ، يعاني مئات الملايين من الأطفال من انخفاض معدل النمو البدني وإعاقة وظائفهم الإدراكية بسبب الديدان المعوية ، كما يمكن أن يتسبب في انخفاض الإنتاجية الاقتصادية والتنمية البشرية وتلوث البيئة المعيشية والموارد المائية.

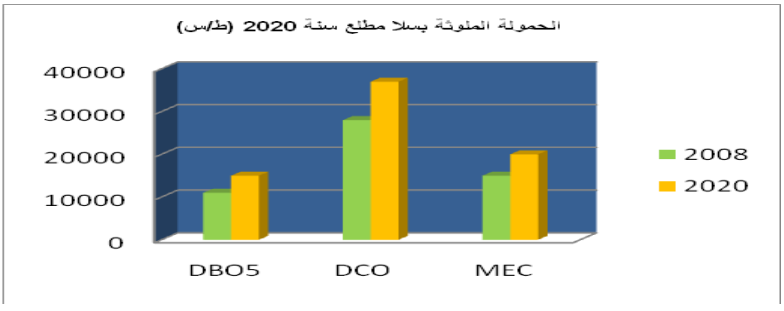
وحسب معطيات شركة تدبير خدمات التطهير السائل وتوزيع الماء الصالح للشرب والكهرباء بالمدينة (ريضال ،2019)، تبين أن شبكة الصرف الصحي تنعدم في أحياء الصفيح التي تغطي نسبة مهمة من المجال الحضري لمدينة سلا، وبعض الأجزاء من الأحياء العشوائية التي لم تتم عملية تغطيتها بعد بشبكة الصرف الصحي خاصة بحي قرية اولاد موسى. ونظرًا للأوضاع السوسيو اقتصادية لسكان هذه المناطق الحضرية وافتقارهم للمساعدة، خاصة أن السلطات المحلية لا تعمل على توفير البنية التحتية للصرف الصحي لأن ذلك يعني ضمنياً الاعتراف بقانونية هذه الأحياء السكنية، حيث يتم التوسع العمراني بشكل عشوائي دون السماح بمساحة كافية لتثبيت خطوط البنية التحتية.

2.2.تدهور جودة الموارد المائية والبيئة البحرية

-**تدهور جودة الموارد المائية**: إن تزايد عدد سكان سلا وما واكبه من توسع عمراني بمختلف أشكاله وتزايد الأنشطة الاقتصادية، رافقه تزايد في استهلاك المياه وتدهور جودتها مما يساهم في انخفاض كمية المياه المتاحة، ومن المتوقع في السنوات الخمس والعشرين القادمة تزايد استهلاك المياه من 134 مليون م^3 سنة 2010 إلى 214 مليون م^3 سنة 2030 (وزارة الطاقة والمعادن والماء والبيئة ،2011 ،ص126).

تعتبر الملوثات السائلة (التطهير السائل) كواحد من المشاكل البيئية الأكثر تحديا في المجال الحضري لمجال الدراسة، حيث يتم تصريف المياه المستعملة سنويا في الوسط الطبيعي دون معالجة، مخلفة كميات كبيرة من التلوث العضوي والفيزيائي والكيميائي والجرثومي والسام، هذا يؤثر سلبيا على صحة وظروف عيش السكان خاصة بالأحياء الهامشية للمدينة وعلى جودة مياه الشرب. تنتج عمالة سلا إلى جانب عمالة الرباط 85% من كميات المياه العادمة المنزلية داخل الجهة، حيث تقذف مدينة سلا 38% من الكميات التي تنتجها الجهة محتلة بذلك المرتبة الثانية بعد مدينة الرباط (47%)(وزارة الطاقة والمعادن والماء والبيئة ،2011 ،ص116). ومن المتوقع ارتفاع كمية الحمولة الملوثة بسلا بين سنتي 2008 و2020، وبالتالي ارتفاع الطلب البيولوجي للأوكسجين5 (DBO5)، والطلب الكيميائي للأوكسجين (DCO)، والمواد العالقة (MEC).

شكل رقم 2:



المصدر: مونوغرافية الموارد المائية، وكالة الحوض المائي أبي رقراق والشاوية، وكالة الحوض المائي سبو 2008

حاليا، يتم تصريف الغالبية العظمى من المياه العادمة لعمالة سلا بساحل المحيط الأطلنتي ووادي أبي رقراق، حيث تصنف مياه مصب هذا الأخير ضمن المياه ذات الجودة الرديئة جدا والمالحة جدا وقليلة

الأوكسجين والمحملة بالمواد العضوية ، ويبلغ حجمها اليومي حوالي 200000 م^3 بما فيها عمالة الرباط ، وتقدر كمية المياه العادمة التي صرفت من مدن الرباط وسلا الواقعة بمصب الحوض ب 96 %من إجمالي حجم المياه ، التي تصرف في الوسط المستقبل لمجال وكالة الحوض المائي لأبي رقراق. إذ أن إجمالي تدفق المياه العادمة المنزلية بحوض أبي رقراق يقدر ب 32م^3/سنة حوالي 88310م^3/يوم ، وتقدر حمولة الملوثات المرتبطة بهذا التدفق بحوالي 46 طن/يوم من المواد المؤكسدة ، و11 طن/اليوم من المادة الآزوتية و2 طن/اليوم من المواد الفوسفاتية ، تساهم فيها مدينة سلا بمعية مدينة الرباط بحصة مهمة تقدر ب 607010 ط/س على مستوى الفوسفور و 3910240 ط/س على مستوى الآزوت و16259320 ط/س على مستوى المواد العضوية (وزارة الطاقة والمعادن والماء والبيئة ،2011 ، ص118-119). كما تولد المنشآت الصناعية كميات كبيرة من حمولات التلوث يتم تصريفها في الوسط الطبيعي دون أدنى معالجة.

وتعد المطارح العمومية غير المراقبة مصدرا كبيرا للتلوث الناتج عن النفايات الصلبة ، حيث توجد بسلا عدة مطارح عمومية عشوائية خاصة منها القريبة من مياه نهر أبي رقراق على طول منطقة الولجة ، مما يجعلها مصادر محتملة لتلوث المياه السطحية والجوفية ارتباطا بمخاطر التلوث الفيزيائي والكيميائي الناتج عن النفط والزيوت والدهون ، كما يحتمل تعرض هذه المياه للتلوث الميكروبيولوجي بسبب تحول المقالع المهجورة إلى مطارح عشوائية.

بذلك تترتب عن الظاهرة الحضرية وما تفرزه من ملوثات عدة تأثيرات ، فمن المتوقع أن يمر الطلب على التزويد بالماء الصالح للشرب بسلا من 30م م^3/سنة سنة 2005 إلى 53م م^3/سنة سنة 2030 (وزارة الطاقة والمعادن والماء والبيئة ،2011 ،ص113) ، خاصة مع مشكل التغيرات المناخية التي تندر بأن عجز الإمدادات بمياه الشرب سيصل إلى70 % خلال السنوات الأكثر جفافا ، وبالتالي نقص كبير في مياه الشرب ويزيد التلوث من حدته. كما أن تصريف المياه العادمة مباشرة في الوسط الطبيعي يؤدي إلى عواقب كارثية خاصة تغير نسب الأكسجين المذاب ، فالمواد العضوية المتحللة تستهلك الأكسجين الموجود في مياه المجاري وتؤثر على قدرتها الطبيعية الاستيعابية ، بدون أكسجين تموت الحيوانات والنباتات ، بالإضافة إلى ذلك ترسب المواد العضوية بكثرة يؤدي إلى تدهور النظام البيئي بانتشار بعض النباتات مثل الطحالب الشيء الذي يغير الخصائص الفيزيائية والكيميائية للمياه. بالإضافة إلى المواد العضوية النيتروجينية أو الفوسفاتية ، وتحتوي المياه العادمة على مواد كيميائية سامة ومعادن ثقيلة مثل الكروم والزئبق والزرنيخ التي قد تؤثر على الكائنات المائية الهشة ، في بعض الحالات الفيزيائية والكيميائية يمكن لبعض المعادن الثقيلة مثل الزئبق أن تتراكم على امتداد السلسلة الغذائية وتؤثر على الإنسان.

إذ أن نسبة مهمة من الساكنة تصاب بعدد من الأمراض المنقولة بواسطة المياه الملوثة منها حمى التفويد وشلل الأطفال والتهاب السحايا والتهاب الكبد الفيروسي A و E والإسهال ، تنقل هذه الأمراض عن طريق الكائنات المائية التي تقضي جزءا من حياتها في الماء والجزء الآخر كطفيليات ، تتسبب في هذه الأمراض مجموعة متنوعة من الديدان التي تصيب الجسم البشري وتضعف من القدرات البدنية دون أن تؤدي بالضرورة إلى الوفاة ، وأشهر هذه الأمراض مرض البلهارسيا.

-**تلوث البيئة البحرية:** بما أن ساحل المنطقة يعد مستوطنا بشريا وخزانا للنشاط الاقتصادي فإنه شكل مجال جذب للسكان ترتب عنه انفجارا سكانيا مرتبط بنمو صناعي وحضري ، وقد شكلت الأنشطة البشرية في هذا الساحل مصدرا للتلوث ينجم عنها تدهور جودة الوسط البحري كتراث بيئي متنوع باعتباره وعاء يستقبل التلوث الصناعي والحضري.

نظرا لأهميته أصبحت البيئة البحرية عرضة لضغوطات مختلفة ، ناتجة عن التوسع العمراني على طول الشريط الساحلي نتيجة التمدين الكثيف ، إلى جانب الأنشطة الصناعية التي تفرز كميات مهمة من المقذوفات السائلة غير المعالجة ، والتي أصبحت تشكل مصدرا للتلوث الميكروبيولوجي والفيزيائي والكيميائي بما في ذلك مصب وادي أبي رقراق لتأثره بالمخلفات السائلة للأحياء المجاورة له (حي القرية وحي مولاي اسماعيل) ومشروع تهيئة ضفتي أبي رقراق. إلى جانب التأثر بعصارة المطارح العمومية العشوائية القريبة من الساحل ، وقذف الهيدروكربونات بطريقة عرضية أو بسبب سوء صيانة المعدات الخاصة بالأنشطة الرياضية المائية والنفايات التي يخلفها المصطافون ، وكذلك مشكل استخراج رمال الكثبان التي لها دور بارز في الإخلال بالدينامية البحرية.

فحسب برنامج مراقبة جودة الشواطئ وبرنامج" العلم الأزرق "المعد من طرف مؤسسة محمد السادس لحماية البيئة ، ففي موسم 2015-2016 تم تصنيف شاطئ الأمم في الدرجة A (مياه عالية الجودة) وشاطئ سلا في الدرجة B (مياه متوسطة الجودة)، وذلك حسب نتائج القياسات الميكروبيولوجية المنجزة على مستوى شواطئ المدينة بين شهري ماي 2015 ومارس 2016 ، وفيما القياسات المنجزة في الموسم 2017-2018 أظهرت أن شاطئ الأمم أصبح مصنف في الدرجة B على غرار شاطئ سلا. يبين ذلك مدى التأثير السلبي للصرف الصحي الذي تقذفه المدينة خاصة بشاطئ سلا.

نتيجة لذلك يلحق تلوث مياه البحر ضررا كبيرا على التنوع البيولوجي البحري على مستوى نوعين من الشابل (Alosa alosa et Alosa falax) والأنقليس (Anguilla anguilla) لاسيما في مصب أبي رقراق (وزارة الطاقة والمعادن والماء والبيئة ،2011 ،ص176)، حيث انخفضت كميات الصيد من الشابل والأنقليس بشكل ملحوظ بسبب تلوث مجاري المياه الناتج عن مصادر مختلفة (الزراعة ومقذوفات المناطق الحضرية والصناعية). كما أن تدهور المناطق الساحلية يسبب أضرارا على صحة الإنسان عن طريق تلوث مياه الاستحمام ، التي عندما تكون جودتها رديئة تسبب الأمراض المنقولة بواسطة المياه والأمراض الجلدية ، وأيضا الأسماك ومنتجات الصيد الأخرى من المناطق الملوثة يمكن أن تتسبب في الأمراض المعوية.

3.2..تدهور جودة الهواء: تعاني جودة الهواء من الضرر الناجم عن انبعاثات الملوثات الغازية في الهواء ، لذلك ففي إطار اهتمام المغرب المتزايد بمشاكل تلوث الهواء عمل على إنشاء عدة محطات لمراقبة جودة الهواء موزعة على العديد من المدن المغربية بما فيها مدينة سلا ، حيث تم تخصيص لذلك 1.03% من الناتج الوطني الإجمالي ، بهدف الحد من التلوث الهوائي الناجم على الأنشطة الصناعية المتنامية وحركة المرور الكثيفة والتي تؤثر بشكل مباشر على البيئة الحضرية.

وترتبط مصادر تلوث الهواء بمدينة سلا بمصدرين رئيسيين يؤثران على جودة الهواء ، يتمثلان في مصادر ثابتة ناتجة عن الأنشطة الصناعية ، ومصادر متحركة ناتجة عن حركة المرور ، خاصة أن المدينة تتوفر على

سبعة مناطق صناعية ذات فروع صناعية متنوعة والتي لها نصيب مهم في انبعاث الغازات الملوثة. لذلك محليا ، يترتب عن تدهور جودة الهواء آثار على جودة الحياة وصحة السكان خاصة الأطفال والبيئة الطبيعية ، في حين على المستوى العالمي تساهم في ظاهرة الاحتباس الحراري واستنفاد طبقة الأوزون.

على مستوى انبعاثات المصادر المتحركة المتعلقة بوسائل النقل ، ترتفع كميتها مع الاستعمال المكثف لوسائل النقل وبالتالي ارتفاع نسبة التلوث بالمسالك الطرقة ، وحسب القياسات المنجزة فقد تم حصر الممرات الطرقية الأكثر تلوثا كما هو مبين في الجدول التالي.

جدول رقم 1: تقدير قياسات لحجم أهم الملوثات المنبعثة عن وسائل النقل بسلا (ط/س)

نقط القياسات	جزيئات عالقة	المكونات العضوية المتطايرة غير الميثانية	ثاني أوكسيد الكربون	أوكسيد الكربون	أكاسيد الآزوت	ثاني أوكسيد الكبريت
قنطرة مولاي الحسن	**0.6**	**2.4**	**1913**	**9.5**	**9.9**	**0.0**
قنطرة الفداء	**0.3**	**1.5**	**1114.5**	**5.5**	**5.8**	**0.0**
الطريق الوطنية رقم1	**4.1**	**10.2**	**13492**	**66.9**	**70**	**0.3**
الطريق الوطنية رقم6	**4.1**	**10.2**	**13492**	**66.9**	**70**	**0.2**
المدينة القديمة/حي كريمة	**2.6**	**6.8**	**8549**	**42.4**	**44.4**	**0.2**

المصدر: وزارة الطاقة والمعادن والماء والبيئة ،2011.

وفيما يخص انبعاثات المصادر الثابتة ، فقد سجلت المنطقة الصناعية بسلا 1% على مستوى الجزيئات العالقة و1% على مستوى المكونات العضوية المتطايرة غير الميثانية (وزارة الطاقة والمعادن والماء والبيئة ،2011 ،ص134) ، ومن أهم الصناعات التي تؤثر على جودة الهواء صناعة البلاستيك السائدة بكل من المنطقة الصناعية لتابريكت والمنطقة الصناعية لحي كريمة ، تعتبران من أقدام المناطق الصناعية بالمجال المدروس والتي لها ضرر بيئي كبير لتوفر االبلاستيك على مواد كلوريد الفينيل ، والديوكسينات ، والبنزين ، والملدنات ، والفورمالدهيد ، والبسفينولA والكثير من هذه الملوثات ، خاصة أن صناعة المادة الخام تعتمد على الغاز الطبيعي والبترول ، كما أن لصناعة النسيج عدة انبعاثات هوائية. أما انبعاثات المصادر السطحية التي تتكون من مصادر انبعاثات سطحية متنقلة وانبعاثات المنازل والحمامات والمخابز ومعامل الفخار ومطار سلا ، فمن الصعب الحصول على معطيات خاصة بكل مصدر ، لذلك تم الاقتصار على معطيات مطار سلا

التي سجلت 1.8ط/س بالنسبة للمكونات العضوية المتطايرة غير الميثانية ، و27.5 ط/س بالنسبة لأكسيد الكربون ، و29.4ط/س بالنسبة لآكاسيد الآزوت ، ومعطيات معامل الفخار المستقرة بولجة سلا ، والتي تسجل 34.5ط/س على مستوى الجزيئات ، و16.5ط/س على مستوى المكونات العضوية المتطايرة غير الميثانية ، و31716ط/س على مستوى ثاني أوكسيد الكربون ، و 88.9ط/س على مستوى أكسيد الكربون ، و 32.7ط/س على مستوى أكاسيد الآزوت ، و 3.8ط/س على مستوى ثاني أكسيد الكبريت (وزارة الطاقة والمعادن والماء والبيئة ،2011 ،ص135).

ولتقييم جودة الهواء في المجال المدروس ، حسب معدل الحدود القصوى في الساعة المحددة من قبل المنظمة العالمية للصحة هي 350 مكروغرام/م3 لثاني أكسيد الكبريت ، و400 مكروغرام/م3 لأكاسيد الازوت ، و 150 مكروغرام/م3 للأوزون ، و 125مكروغرام/م3 للجزيئات العالقة.

اتضحت سنة 2007 أن جل الملوثات تجاوزت الحدود القصوى التي وضعتها المنظمة العالمية للصحة ، حيث تجاوز ثاني أوكسيد الآزوت 51 مرة الحد الأقصى ووصل أحيانا إلى 1100 مكروغرام/م3، وتجاوز ثاني أكسيد الكبريت 22 مرة الحد الأقصى ووصل أحيانا إلى 430 مكروغرام/م3، وسجلت الجزيئات العالقة 7 تجاوزات للحد الأقصى ووصلت إلى 200 مكروغرام/م3، أما الأوزون فقد سجل طوال سنة 2007 تجاوزات للحد الأقصى وصلت إلى 500 مكروغرام/م3 (وزارة الطاقة والمعادن والماء والبيئة ،2011 ،ص136).

تم القيام بقياسات أخرى لجودة الهواء بسلا سنة 2011 ، فبينت المعدلات السنوية المسجلة لمختلف الملوثات أن ثاني أكسيد الآزوت وحده يفوق بقليل المعيار السنوي لحماية الصحة ، حيث سجل 54 مكروغرام/م3 (المعيار 50 مكروغرام/م3)، مقابل باقي الملوثات التي لم تتجاوز المعايير ، تمثلت في 12 مكروغرام/م3(المعيار20 مكروغرام/م3) بالنسبة لثاني أكسيد الكبريت ، و31 مكروغرام/م3 (المعيار50 مكروغرام/م3) بالنسبة للجزيئات العالقة. بذلك فمحطة الرصد شهدت جودة هواء جيدة إلى جيدة جدا لأكثر من80% من الوقت من خلال قياسات الغبار والأوزون وثاني أوكسيد الكبريت (وزارة الطاقة والمعادن والماء والبيئة ،2011 ،ص136).

ووفق أرقام تقارير القياسات السنوية PM_{10} (مؤشر تركيز الجسيمات العالقة التي يقل قطرها عن 10 ميكرون) حول جودة الهواء لسنة 2016 ، بلغ المؤشر 31 مكروغرام/م3 في سلا محتلة الرتبة التاسعة قبل آسفي (21 مكروغرام/م3)، من بين عشر مدن الأكثر تلوثا على الصعيد الوطني ، بعد كل من بنسليمان (63 مكروغرام/م3)، طنجة (57 مكروغرام/م3)، مكناس (47 مكروغرام/م3)، مراكش (46 مكروغرام/م3)، الدار البيضاء (43 مكروغرام/م3)، سطات (40 مكروغرام/م3)، فاس (37 مكروغرام/م3)، خريبكة (35 مكروغرام/م3).

وحسب قياسات $PM_{2.5}$ (مؤشر تركيز الجسيمات العالقة التي يصل قطرها إلى 2.5 ميكرون) سنة 2018 ، فقد تجاوزت المؤشرات المعايير بهذه المدن باستثناء مدينتي سلا مسجلة 13 مكروغرام/م3، وآسفي 9 مكروغرام/م3 ، إذ بلغ المتوسط السنوي لمدينة بنسليمان 39 مكروغرام/م3 ، في حين أنه في الدار البيضاء بلغ 27 مكروغرام/م3، و23 مكروغرام/م3 في فاس ، ثم 22 مكروغرام/م3 في خريبكة ، ليعود ويرتفع في مكناس

مسجلا 29 مكروغرام/م3، مع درجة أقل في مراكش التي بلغ فيها 28 مكروغرام/م3، ثم 25 مكروغرام/م3 بسطات ، و24 مكروغرام/م3 بطنجة.

على الرغم من أن الوضع الحالي ليس خطيرا لعدم تسجيل أي تجاوزات مقارنة مع معايير المنظمة العالمية للصحة لثاني أكاسيد الازوت وثاني أكسيد الكربون ، إلا أنه من المتوقع أن تزيد الانبعاثات الغازية على المدى البعيد. بالفعل ، سيزيد مجموع انبعاثات ثاني أكسيد الكبريت بنسبة 146% من 1996 إلى2020 ، و78% بالنسبة لأكاسيد الازوت و102% بالنسبة للجزيئات العالقة ، حيث سيتعرض السكان لتلوث الهواء على نحو متزايد وخصوصا بجوار المدن الكبرى للجهة الاقتصادية الشمالية الغربية.

3. استراتيجيات التدبير الحضري المستدام لمواجهة مخاطر التوسع الحضري

1.3. برامج وتدابير تحقيق التنمية الحضرية المستدامة

1.1.3. برنامج التأهيل الحضري (2016-2014): يهدف الحفاظ على الموروث التاريخي للمدينة من خلال ترميم مواقعها الأثرية وتطوير البنيات التحتية بالإضافة إلى إعادة تأهيل قطاع التجارة والخدمات وتعزيز النسيج الحضري والتقليدي. وقد شمل هذا البرنامج ثمانية محاور رئيسية ، تضم برنامج تأهيل المدينة العتيقة التي تضم عددا كبيرا من السكن غير اللائق والبنايات الآيلة للسقوط ، من خلال إعادة تهيئة الأزقة الرئيسية بها والقساريات ومحاور الأسواق وإعادة تنظيم السير والجولان وتهيئة المناطق الخضراء والاهتمام بالإنارة العمومية ، وأيضا هدم وإعادة تأهيل وترميم الدور الآيلة للسقوط. كما يضم برنامج إعادة هيكلة الأحياء الناقصة التجهيز بإعداد البنيات الأساسية وشبكة الماء والكهرباء ، وكذا إنجاز الطرقات والمرافق العمومية لهذه للأحياء ، بذلك فمختلف أحياء المدينة تمت تغطيتها بشبكة الكهرباء والماء الصالح للشرب وشبكة الصرف الصحي ، باستثناء أحياء الصفيح التي لازالت منتشرة في أجزاء من المدينة وبعض الدواوير العشوائية بقرية اولاد موسى. إلى جانب مشروع تهيئة كورنيش المدينة والطريق الساحلية ، من خلال مقطع أول المحاذي لحي سيدي موسى حيث سترتكز تهيئته على خلق فضاءات حضرية ورياضية وترفيهية ، ومقطع ثاني يضم ضريح سيدي موسى وقصبة كناوة ويتميز بإقبال كبير للساكنة المحلية قصد النزهة والاستجمام ، ومقطع ثالث فضاء طبيعي يمتد حتى الحدود مع الجماعة القروية لعامر ستتم تهيئته على شكل فضاءات للنزهة والرياضة والصيد. إضافة لمحاور أخرى تضم برامج تأهيل الطرق والمداخل بالمدينة والمنشآت الرياضية وترميم المآثر التاريخية وتأهيل الفنادق والإقامات.

2.1.3.تدابير تحقيق التنمية العمرانية: بفعل الضغط الديمغرافي الذي تشهده المدينة وما ترتب عنه من اختلال وتدهور نسيجها الحضري بظهور مجموعة من أحياء الصفيح وانتشار السكن العشوائي وارتفاع كثافتهما السكانية ، حيث سجلت مدينة سلا لوحدها 14.44% من مجموع الأسر القاطنة بهذا النوع من السكن على الصعيد الوطني سنة 2000 ، أصبح لزاما على الدولة والسلطات المحلية ضرورة التدخل بخلق مجموعة برامج ومشاريع عمرانية لتخفيف مشاكل الضغط العمراني على مستويات مختلفة. فيما يخص السكن الصفيحي فمنذ سنة 1986 تم خلق برامج محاربة السكن الصفيحي بإعادة إيواء ساكنة عدد من الأحياء الصفيحية المنتشرة وسط المدينة وعلى طول نهر أبي رقراق الذي يحدها جنوبا ، في تجزئات سكنية ضمت كل من تجزئة حي الرحمة بمقاطعة تابريكت وتجزئة حي مولاي اسماعيل بمقاطعة حصين ، وأيضا تم إعطاء انطلاقة برنامج مدن

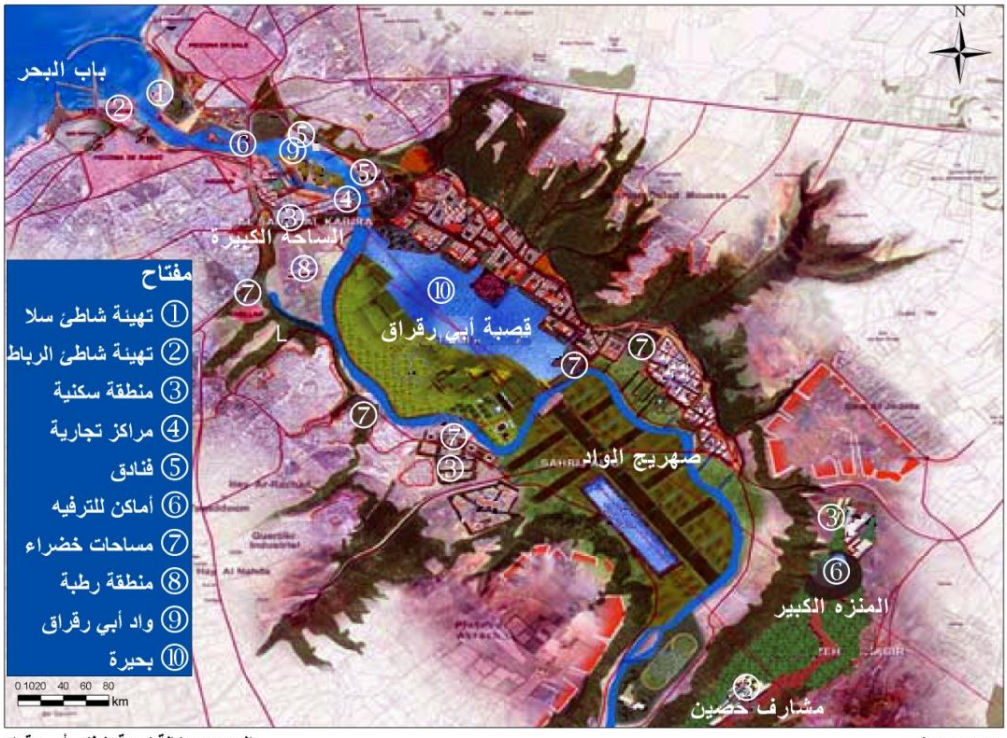
بدون صفيح للفترة 2003-2007 وبرنامج مدن بدون صفيح للفترة 2004-2010، فتم تفعيل العديد من عمليات الإسكان الرئيسية ببناء السكن الاجتماعي لاستيعاب جزء مهم من ساكنة الأحياء الصفيحية أبرزها الأحياء الصفيحية "سهب القايد وكاريان الواد"، بذلك فحسب مندوبية الإسكان بسلا فعدد الأسر التي استفادت من عملية إعادة الإسكان يقدر ب 8134 أسرة موزعة على عدد مهم من أحياء الصفيح بكل من مقاطعات تابريكت وبطانة ولمريسة والعيايدة وحصين. وفيما يخص التخفيف والحد من انتشار وتوسع السكن العشوائي الذي أصبح يغطي 50% من مجموع المجال الحضري للمدينة على مساحة تقدر ب 620ه إلى حدود سنة 1999 (Ali El karfi,2006,p.79)، فقد تم تفعيل العديد من عمليات الإسكان الرئيسية منذ بداية السبعينيات خاصة بعد إنشاء مندوبية الإسكان بسلا سنة 1983، بإنشاء وتهيئة عدد من التجزئات السكنية على طول الشريط الساحلي كتجزئة "سعيد حجي" وتجزئة" شماعو"، وإنشاء سلا الجديدة سنة 1995 ذات الطابع الاجتماعي لتلبية حاجيات السكان دوي الدخل المحدود، كما كان لها أيضا تأثير غير مباشر مهم جدا تمثل في تنظيمها لسوق العقار والأراضي بانخفاض ثمنها، وبموازاة برامج مدن بدون صفيح فقد تمت صياغة مشروع التأهيل الحضري 2005-2009 الخاص بسلا، بمقتضاه أنشأت تجزئة سيدي عبد الله على مساحة 350ه (Ali El karfi,2006,p.102)، وإلى حدود سنة 2005 فقد تدخلت وزارة الإسكان والتعمير من خلال المصالح التابعة لها في المدينة بوضع برامج سكنية خاصة بمقاطعات تابريكت والعيايدة وحصين، كمرحلة أولى تم برمجة 20000 وحدة سكنية لاستيعاب أكثر من 100000 نسمة، منها 11000 وحدة سكنية مخصصة لاستقبال 55000 نسمة من ساكنة الأحياء العشوائية والصفيحية، وكمرحلة ثانية تمت البرمجة لأكثر من 7000 وحدة سكنية لفائدة 4500 نسمة من ساكنة أحياء الصفيح (مندوبية الإسكان بسلا،2008).

3.1.3.المشاريع الكبرى المهيكلة

-مشروع تهيئة ضفتي أبي رقراق: أمام أهمية وادي أبي رقراق لموقعه بين مدينتي الرباط العاصمة وسلا وانفتاحه على المحيط الأطلنتي من خلال شاطئي الرباط وسلا ولأهميته السوسيو اقتصادية والبيئية، أصبح نقطة جذب لمختلف الأنشطة البشرية، التي ازدادت حدتها بتزايد عدد سكان المنطقة وازدياد حاجياتهم السوسيو اقتصادية والترفيهية. بذلك فقد شهد عبر فترات مجموعة من التدخلات لتهيئته وتنظيم استعمال المجالات التابعة له، أبرزها مخطط حماية شواطئه بكل من سلا والرباط سنة 1954، والمشروع الوطني للشباب (Propostion Zevago) سنة 1966 المتضمن لإنشاء مجموعة من المنشآت الرياضية على ضفاف الوادي، ومخطط تهيئة أبي رقراق سنة 1972 بتقسيم الوادي إلى مجموعة من النطاقات السكنية والسياحية والرياضية مع الاحتفاظ بموروثه الغابوي، ومقترح بارتيكس (Partex) سنة 1983 الذي أضاف للوادي نطاقات جديدة تخص الفنادق والصناعة التقليدية كما نص على تهيئة الشواطئ، ومخطط تهيئة أبي رقراق (Plan Pinseau) سنة 1994، والمخطط المرجعي (Le plan de référence) سنة 1998، اللذان حافظا على نفس نطاقات المخططات السابقة مع إعادة هيكلتها وتوسيعها (Ali El karfi,2006,p.122-125).

بذلك فابتداء من سنة 2006 أعطيت الانطلاقة الرسمية لبداية أشغال مشروع تهيئة ضفتي أبي رقراق الذي تقرر في إطار قانون الاستثناء العمراني برعاية ملكية، كمشروع ضخم وتصور لتنمية حضرية متكاملة ومستدامة، من أجل توفير فضاء جديد للحياة والعمل داخل التجمع السكني للرباط – سلا، بالارتكاز على أهداف رئيسية تشمل حماية بيئة الوادي والمحافظة على التراث وإعادة تأهيله وتحسين الإطار السوسيو اقتصادي للتجمع الحضري بتعزيز مختلف الأنشطة الاقتصادية القائمة في الوادي، من خلال إنشاء ميناء صيد جديد مهيأ ومجهز لرفع مستوى نشاط الصيادين وضمان استمرارية أنشطة الصيد في الموقع، وتوفير الدعم

شكل رقم 3: مشروع تهيئة ضفتي أبي رقراق



إنجاز: نزهة عربي
المصدر: وكالة تهيئة ضفتي أبي رقراق

الاجتماعي لأصحاب قوارب معبر الرباط سلا و تعويضهم إلى غاية انتهاء الأشغال وتزويدهم بقوارب حديثة وجديدة، والقضاء على السكن العشوائي في منطقة الولجة على طول الوادي. ويتكون هذا المشروع الكبير من ستة أشطر متكاملة ممتدة على مساحة 6000هكتار تضم باب البحر، أمواج، قصبة أبي رقراق، صهريج الوادي، المنزه الكبير، وبحيرة السهول، وقد همت الأشغال في بداية الأمر شطرين؛ الشطر الأول "باب البحر" يهم منطقة مخصصة لتكون مركزا ترفيهيا لساكنة الرباط وسلا، ويعد هذا المشروع ثمرة تعاون بين وكالة تهيئة ضفتي أبي رقراق ومؤسسة "معبر الدولي للإستثمار" بأبو ظبي، ويتم المشروع على مساحة 30 هكتار، منها 530000م2 مخصصة لوحدات سكنية وفنادق وخدمات وتجهيزات عمومية، إلى جانب إنشاء الميناء الترفيهي "مارينا أبي رقراق" عند مصب أبي رقراق على شاطئ سلا وانتهت الأشغال به سنة 2008،

والذي يعتبر من المشاريع المهمة التي تشكل عامل جذب مهم ، فبامتداده على مساحة 8 هكتارات يمكن أن يستقبل 350 مركب ترفيهي ، وهو محاط بمجموعة من المطاعم وأماكن الترفيه والسكن والفنادق الممتازة والمناطق السياحية مثل فضاء صومعة حسان وباب المريسة والمدينة القديمة لسلا ، ويتوقع من مارينا أبي رقراق أن تصبح محطة ضرورية للمراكب في طريقهم نحو غرب إفريقيا ومنطقة البحر الكاريبي أو سواحل أمريكا الشمالية. والشطر الثاني ''أمواج أو الساحة الكبيرة'' يشكل حلقة وصل بين مصب أبي رقراق وسهل الولجة ، ويمثل هذا الشطر المفصل الرئيسي للمشروع ويتميز بطراز معماري متوسطي على مساحة إجمالية قدرها 112 هكتار ، مخصصة لإقامة تجمعات سكنية ومكاتب وفنادق فاخرة ومناطق للتسوق ومتحف وحديقة من 10ه والمسرح الكبير للرباط على مساحة 27000م2. وتجدر الإشارة إلى استفادة المناطق السكنية المجاورة بمدينة سلا من إعادة الهيكلة ، حيث تم إصدار سنة 2015 ما يقدر ب64 تصاريح بناء وإعادة هيكلة وتراخيص التجزيئ على مستوى الجماعة الحضرية لسلا ، تضم 51 في مقاطعة حصين و11 في مقاطعة لمريسة و2 في مقاطعة بطانة (وكالة تهيئة ضفتي أبي رقراق ،2019).

ويأخذ مشروع تهيئة ضفتي أبي رقراق بعين الاعتبار المحافظة على المحيط البيئي للوادي ومناظره الطبيعية والبانورامية ، من خلال احترام التوازنات الطبيعية وإعادة تأهيل الموقع بإغلاق مطرحي النفايات بالولجة وعكراش ، ومعالجة المياه المستعملة الآتية من الأحياء العشوائية القريبة من ضفتي النهر.

-**الانفتاح على وسائل نقل مستدامة:** يعد تعزيز البنية التحتية للنقل بين مدينتي سلا والرباط ركنا مهما من برنامج المرحلة الثانية من مشروع تهيئة وتنمية ضفتي أبي رقراق. ويعتبر مشروع طراموا ي الرباط - سلا الذي بدأ العمل به منذ سنة 2011 ، من الحلول الملائمة للمشكل الخاص بالنقل الحضري بالمدينتين حيث يستجيب للطلب المتزايد على النقل ويوفر بديلا حقيقيا لاستعمال السيارات ، ويسهل حركة المرور والتنقل والربط بين العدوتين عبر اعتماد وسائل للنقل والمواصلات تحترم البيئة وتضمن شروط السلامة والانتظام في العمل. وتتكون الشبكة الحالية للطراموي من خطين اثنين يصل مجموع طولهما إلى 19.5 كلم ويتوفران على 31 محطة (الموقع الرسمي لطراموا ي الرباط-سلا www.tram-way.ma/fr/)، وتغطي الشبكة أهم الأقطاب الحضرية التي تشهد كثافة عالية من حيث عدد السكان وتنقلاتهم (الأحياء الجامعية ، المستشفيات ، الإدارات ، مركزا المدينتين ، أهم المحطات الطرقية والسككية)، وتتميز العربات المستعملة والبالغ طولها 32 مترا بتصميم يتماشى والمعايير الدولية وعلى جميع الولوجيات بالنسبة للأشخاص ذوي الاحتياجات الخاصة ، مع توفيره خدمة نقل لحوالي 110000 راكب يوميا ، فيما الخط الأول الذي يعتبر الخط الهيكلي للمشروع ، يمتد من حي كريمة بسلا إلى مدينة العرفان ومستشفى ابن سينا بالرباط مرورا بالأقطاب الرئيسية بالمدينتين عبر 22 محطة ، أما الخط الثاني خاص بسكان الأحياء ذات الكثافة السكانية المرتفعة مثل حي ''يعقوب المنصور'' بالرباط و''بطانة'' بمدينة سلا عبر 14 محطة. ومن المقرر على مستوى المنجزات المستقبلية تمديد الشبكة الحالية وبناء خطين إضافيين ، خط يربط بين مركز مدينة سلا و سلا الجديدة وآخر يربط بين مركز الرباط وعكراش (تصميم التهيئة الجماعي لسلا ،2016). في إطار ذلك ولتحقيق تنمية حضرية كان لابد من تحديث والرفع من جودة البنيات التحتية الطرقية ، من خلال إعادة بناء قنطرة الحسن الثاني وفق معايير دولية للتخفيف من حركة السير بين سلا والرباط ، كما ساهم في حماية المواقع التاريخية وسكان المدينة

القديمة من تلوث الهواء و من الضوضاء ، إلى جانب قنطرة مولاي يوسف التي تعزز البنية التحتية للنقل بوادي أبي رقراق وتخفف الضغط على قنطرة الحسن الثاني وتستوعب ما يقرب من 20% من تدفق التيار المروري ، بالإضافة إلى إعادة هيكلة وإنشاء عدد من الطرق الرئيسية التي تستفيد منها بنية النقل بالمدينة كالطرق الرئيسية رقم 4008 و 4027.

-**المنطقة الصناعية تكنوبوليس:** توجت البنية الاقتصادية لمدينة سلا بخلق القطب التكنولوجي تكنوبوليس الذي يعد مدينة تكنولوجية تندرج في إطار البرنامج الحكومي لتطوير قطاع التكنولوجيا ، ويكتسي صبغة تطوير قطاع التكنولوجيات الجديدة ، بشكل من شأنه تعزيز موقع سلا كقطب صناعي متميز على المستوى الوطني خاصة أن المدينة تحتل مكانة مهمة من حيث وفرة اليد العاملة المؤهلة. تم تأسيسه سنة 2009 في إطار المشروع الحضري الفدرالي "Aire Métropolitaine de Rabat" خلال الفترة 2006-2012 (Ali El karfi,2006,p.111) على مساحة 300ه ويغطي حاليا 107ه ، هذا المشروع الحضري هدف إلى إعادة هيكلة مدينة الرباط في علاقة بالمدن المجاورة لها في مقدمتها مدينة سلا، من خلال إعادة النظر في المخطط المديري للتهيئة الحضرية لولاية الرباط - سلا (SDAU) لسنة 1995 ، وإعادة هيكلة الأحياء القديمة مع توسيع الاهتمام بالجوانب العلمية والترفيهية والتاريخية ، وأيضا إعادة هيكلة المناطق الصناعية المتواجدة وخلق مناطق أخرى أبرزها قطب التكنوبوليس بسلا. ويعد مشروع التكنوبوليس فضاء للتنسيق بين ثلاث مجالات متداخلة تشمل التعليم العالي والبحث العلمي وعالم المقاولة ، إذ يركز على مجموعة من القيم أبرزها القرب من الزبائن واحترام البيئة واحترام الالتزامات ، كما يوفر إطار عمل وجودة حياة نوعية ، وتنتظم مجالات اهتماماته حول 6 أقطاب ، تضم قطب تثمين البحث (مشتل المقاولات وتحويل التكنولوجيا)، وقطب البحث والتطوير(الإلكترونيك الدقيق ، نونو تكنولوجي ، ذكاء البرامج)، وقطب الإلكترونيك الدقيق (التكنولوجيا المتقدمة ، الصور ، الهاتف)، وقطب الإعلام (السمعي البصري ، برامج متعددة الوسائط)، وقطب ترحيل الخدمات (أنشطة BPO,ITO)، وقطب أكاديمي (جامعة خاصة ، فرع البحث والتطوير). استطاع أن يوفر 30 ألف منصب شغل ، وأن يساهم في الناتج الداخلي الخام بخمسة ملايير درهم سنة 2015 ، كما تقدر عمليات التواصل اليومي بالشركاء الدوليين للمملكة ب 300 عملية ربط يومية نحو دول أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية والشرق الأوسط ، مستفيدا من قربه من المطار الدولي للرباط- سلا الذي يبعد عنه ب 5 كلم فقط ، وأيضا لا يفصله عن المطار الدولي للدار البيضاء سوى 60 دقيقة.

2.3. إجراءات المحافظة على البيئة لتحقيق التنمية المستدامة

1.2.3.المحافظة على جودة البيئة المائية: تعتبر البيئة البحرية والموارد المائية لواد أبي رقراق من أهم الأوساط الطبيعية التي تعاني من التدهور باعتبارها مجالات استقبال المياه العادمة أو النفايات السائلة والتي تزداد مقذوفاتها مع ازدياد الضغط الديمغرافي والعمراني على المجال الحضري للمدينة ، حيث يبلغ عدد قنوات نقل المياه العادمة نحو المياه البحرية 6 قنوات رئيسية من الشمال نحو الجنوب (قناة الشمال2 ، قناة شماعو ، قناة الشمال1 ، قناة سيدي موسى ، قناة تابريكت ، قناة الشاطئ على مقربة من مصب واد أبي رقراق) (Ali El karfi,2006,p.159). لحماية هذه الأوساط شرعت شركة ريضال (Redal) المكلفة منذ سنة 1999 بالتدبير المفوض لخدمات التطهير السائل وتوزيع الماء الصالح للشرب والكهرباء ، بإطلاق مشروع تطهير

الساحل الأطلسي وضفتي أبي رقراق من خلال إنشاء محطة للمعالجة القبلية للمياه العادمة و20كلم من قنوات التصريف و6 محطات للضخ ، نظام التطهير هذا له العديد من الآثار الإيجابية على المنطقة سواء منها الصحية أو الإقتصادية أو السياحية ، إذ أنه يمكن من المحافظة على البيئة بالقضاء على النفايات السائلة التي تلقى مباشرة في الوسط الطبيعي وتثمينه. وتجدر الإشارة إلى أن البيئة البحرية استفادت من عدة مشاريع ، كبرنامج مراقبة جودة مياه الاستحمام الذي يهدف إلى مراقبة جودة مياه الشواطئ الواقعة بين ولاية طنجة وإقليم برشيد ، وقد أنجز هذا البرنامج تطبيقا للاتفاقية الموقعة في شتنبر 2002 بين وزارة الطاقة والمعادن والماء والبيئة ووزارة التجهيز والنقل ، لتفعيل البرنامج السنوي لمراقبة وتقييم الجودة الميكروبيولوجية لمياه الاستحمام لأهم الشواطئ حسب المعايير الوطنية والدولية لمنظمة الصحة العالمية وبرنامج الأمم المتحدة للبيئة ، وحصول العديد من الشركات على تمويل من صندوق محاربة التلوث الصناعي (FODEP) لمعالجة مقذوفاتها كشركة "TOP Wash" المتخصصة في غسيل الجينز. تحقيقا لمجهودات الحماية شرع العمل أيضا بتطهير النفايات الصلبة التي لها تأثير على جودة المياه خاصة مياه واد أبي رقراق ، الذي عانى لسنوات طويلة من الملوثات الكيميائية والبيولوجية لمطرح الولجة الذي يستقبل النفايات المنزلية لمدينة سلا، بإغلاقه في إطار تهيئة ضفتي أبي رقراق وتوجيه نفايات المدينة إلى المطرح العمومي المراقب أم عزة.

2.2.3.المحافظة على الأوساط الطبيعية: وعيا بأهمية الرهانات البيئية في التدبير الحضري والتنمية المستدامة ، فإن الجماعة الحضرية لسلا تراهن على جعل سلا مدينة خضراء في أفق 2020 كهدف استراتيجي ، وما شجع على ذلك توفر المدينة على مجموعة من المؤهلات الطبيعية بما فيها من مناطق رطبة ومواقع ذات أهمية بيولوجية وإيكولوجية ، تتمثل في الحزام الأخضر الذي يحيط بالمدينة والمتمثل في غابة المعمورة التي تبلغ مساحتها حولي 5000ه ، فتعتبر من أهم المؤهلات إذ أنها الرئة البيولوجية لسلا، والشريط الساحلي الأطلسي يضم جرف سيدي موسى وجرف سلا - بوقنادل اللذان يأويان عددا من الطيور خاصة الصقور ، وموقع أبي رقراق الذي يمتد على مساحة 5هكتارات يشمل عدد من المستقعات المالحة والجزر والوحيش ، كما تشكل وثائق التعمير المرجعية الخاصة بالمدينة عاملا مساعدا بما تحتويه من مساحات مخصصة لإحداث مناطق خضراء ، تستجيب للتوسع العمراني والنمو الديموغرافي للمدينة بأزيد من 300 هكتار. إلا أن هذه النظم الإيكولوجية مهددة بالتدهور في ظل التحولات التي تشهدها المدينة وما يرتبط بها من توسع حضري يصعب التحكم فيه ، والتي تشكل عائق أمام تحقيق الاستدامة ، لذلك تستفيد المدينة من برامج عمل مبرمجة من طرف السلطات المختصة بهدف معالجة التأثيرات على التنوع البيولوجي والوسط الطبيعي ، وفي هذا الإطار تضع المديرية الجهوية للمياه والغابات ومحاربة التصحر إجراءات لتثمين وتنمية المجال الغابوي للمعمورة ، بإعادة تشجيره وإحيائه وتأمينه من الزحف العمراني للمدينة الذي يعد مسؤولا عن انخفاض إنتاجية الموارد الغابوية والرعوية والزراعية مما يزيد من الهجرة القروية ، وتكثيف تدابير التطهير السائل والصلب وحماية الأنواع ذات الأهمية البيولوجية والإيكولوجية ، ويظهر ذلك لاسيما بمصب أبي رقراق الأكثر هشاشة لموقعه في قلب التجمع الحضري للرباط – سلا، كما يعمل مجلس المدينة على إعادة تهيئة العديد من الحدائق من خلال تشجيرها وهيكلة ممراتها وإحداث نافورات وأحواض مائية وتجهيزها بوسائل الترفيه من مساحات.

3.2.3.المحافظة على جودة الهواء: تلوث الهواء له آثار سلبية على صحة الإنسان وعلى النباتات كما يؤثر على خصائص الغلاف الجوي خاصة إذا كان محملا بثاني أوكسيد الكبريت. في إطار ذلك تم إصدار قانون 13-03 المتعلق بمكافحة تلوث الهواء، الهادف إلى الحفاظ على جودة الهواء ومكافحة انبعاث ملوثات الهواء التي تشكل خطرا على صحة الإنسان والبيئة ، و يحدد وسائل مكافحة تلوث الهواء والإجراءات لفرض عقوبات في حالة وجود ضرر أو تلوث جسيم ، وكذا الحوافز للاستثمار في مشاريع وأنشطة غير ملوثة وترشيد استخدام الطاقة والمواد الملوثة واستخدام الطاقات المتجددة. كخطوة نحو ذلك فقد تمكنت جماعة سلا عن طريق اتفاقية عمداء المدن ، التي وقعتها سلا كأول مدينة مغربية وعربية وإفريقية تنخرط فيها حول اعتماد اقتصاد الطاقة واستعمال المصادر المتجددة والتكنولوجيات الحديثة ، بإعداد مخطط العمل الطاقي لمدينة سلا كسابقة على المستوى الوطني في هذا المجال ، وقد استضافت المدينة أيضا أيام الطاقة والمؤتمر الإقليمي حول الطاقة لبلدان جنوب الجوار الأوربية ، من أجل التشجيع على المشاركة في الأنشطة التي تعزز النجاعة الطاقية والاستخدام المكثف للطاقة المتجددة. إلى جانب ذلك تجدر الإشارة إلى الأهمية البيئية لطراموای الرباط –سلا وقطب تكنوبوليس لدورهما المهم في الحفاظ على جودة الهواء.

خاتمة

إن النمو السكاني السريع بمدينة سلا الذي لا يتوافق مع سياسات التعمير انعكس سلبا على سياق التحضر في المدينة ، حيث استطاع أن يخلف أزمة سكنية حادة أهم ما ميزها تراكم العجز في انجاز برامج السكن والمرافق التابعة لها ، ورغم الجهود التي بذلتها المصالح المختصة من خلال إنتاجها سياسات واستراتيجيات متباينة ومتعاقبة في ميدان التنمية الحضرية إلا أنها فشلت ، حيث بقيت ظاهرة النمو العمراني مع تعدد أنماطه تتفاقم واستمر التوسع العمراني للمجالات بطريقة عشوائية وغير منظمة ، أدى إلى تشويه المشهد الحضري المخطط والمنظم والتوسع العشوائي وسط وأطراف المدينة.

وعلى هذا الأساس ، فإن واقع التهيئة الحضرية بسلا يواجهه عدة إكراهات وعراقيل تحول دون تحقيق أهدافه التي تخص التنمية الاقتصادية والاجتماعية والمجالية ، وأيضا الجوانب البيئية التي لها مكانة بارزة ضمن التوجهات الراهنة لبرامج التنمية الحضرية.

لذلك فقد عزمت الدولة والمصالح التابعة لها بسلا والشركاء الاقتصاديين والمؤسساتيين ، على اعتماد عدة مقاربات لتنفيذ إجراءات مندمجة ومتكاملة لتعزيز واستدامة التدابير المتخذة والحفاظ على المكتسبات. لهذه الغاية ، فعلى مستوى السكنى والتعمير تم إصدار مدونة للتعمير تتضمن أحكاما جديدة ، مثل ضرورة إنجاز إدماج المخططات الخضراء كأدوات للتخطيط وأخذ البيئة بعين الاعتبار في إنجاز الوثائق المتعلقة بالتعمير ، باعتبارها أسسا ملائمة لمواجهة تحديات المدينة بجعلها جذابة ومستدامة وقادرة على التنافسية ، وجلب الاستثمار ، وخلق الثروة والحفاظ على الموارد الطبيعية. وأيضا تم التركيز في الاستراتيجية الجهوية في مجال التعمير والسكنى على ضرورة التناسق بين تصاميم التهيئة وتصاميم التنقل الحضري ، وبفضل مجمل التدخلات والتدابير خاصة برامج مدن بدون صفيح تم هدم 2634 مسكن من دور الصفيح أي ثلث الحضيرة التي يجب إزالتها بسلا. وعلى المستوى البيئي وضعت خطط العمل للحد من آثار الأنشطة الصناعية على البيئة بإصدار مجموعة قوانين ، كقانون 28-00 المتعلق بتدبير النفايات والتخلص منها ، وقانون 95-10 الذي

ينص على أن أي صب للمياه المستعملة يخضع إلى ترخيص، بموازاة البرنامج الوطني للوقاية من التلوث الصناعي ومخاطره بوضع خطة عمل على المدى المتوسط والطويل، وتم تتويج هذه المجهودات بتبني استراتيجية لحماية الغابات بالمناطق الحضرية وضواحيها، والبرنامج الوطني لحماية وتثمين التنوع البيولوجي بما فيه النظم البيئية والبحرية والمناطق الرطبة. وضمنيا فإن عموم التدخلات ذات الصلة بالبيئة تساهم مباشرة في الحفاظ على جودة الهواء.

قائمة المراجع

-أيت ساقل شادية (2000-1999)، التعمير والجهة حالة: جهة الرباط-سلا-زمور-زعير، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا في الجغرافيا، جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، أكدال، الرباط، المغرب.

-البوطاهري محمد (1999-1998)، الهجرة الريفية بجهة الرباط-سلا-زمور-زعير، بحث لنيل دبلوم الدراسات العليا في الجغرافيا، جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، أكدال، الرباط، المغرب.

-دعاء محمد علي إبراهيم علي (2018)، التمدد الحضري لمدينة طلخا باستخدام نظم المعلومات الجغرافية والاستشعار من بعد، رسالة دكتوراه في جغرافية العمران، قسم الجغرافيا، كلية الآداب في جامعة دمياط.

-سلامة جهاد صالح عبد اللطيف (2010)، الأبعاد الاجتماعية السياسية في التطوير الحضري لأحياء الفقراء، أطروحة لنيل درجة الماجستير في هندسة التخطيط الحضري الإقليمي، كلية الدراسات العليا في جامعة النجاح الوطنية، نابلس، فلسطين.

-سناء ساطع عباس، كميلة أحمد عبد الستار (2012)، ديناميكية النمو الحضري في العراق، مجلة المخطط والتنمية، ع 26، مركز التخطيط الحضري والإقليمي للدراسات العليا في جامعة بغداد، بغداد، العرا ق.

-كندال عبد النبي (1995-1994)، "السكن والسكان الهامشيون" الأحياء والمراكز الهامشية بمدينة سلا، بحث لنيل دبلوم الدراسات العليا في الجغرافيا، جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، أكدال، الرباط، المغرب.

-المندوبية السامية للتخطيط (2017)، النشرة الإحصائية السنوية للمغرب، الرباط: المندوبية السامية للتخطيط.

-المندوبية السامية للتخطيط (2016)، منوغرافية عمالة سلا، الرباط: مديرية جهة الرباط – سلا - القنيطرة.

-المندوبية السامية للتخطيط (2015)، النشرة الإحصائية السنوية للمغرب، الرباط: المندوبية السامية للتخطيط.

-مؤسسة محمد السادس لحماية البيئة (2016)، برنامج جودة الهواء 2016، الرباط: مؤسسة محمد السادس لحماية البيئة.

-الوزارة المنتدبة المكلفة بالإسكان والتعمير (2004)، برنامج مدن بدون صفيح 2004-2010، الرباط: الوزارة المنتدبة المكلفة بالإسكان والتعمير.

-وزارة الطاقة والمعادن والماء والبيئة (2011)، التقرير حول الحالة البيئية لجهة الرباط – سلا –زمور – سلا، الرباط: وزارة الطاقة والمعادن والماء والبيئة.

-Ali El karfi, M. (2006). *Dynamique urbaine et assainissement liquide (Cas de la ville de Salé)*. Diplôme des études supérieures en aménagement et urbanisme. Institut National d'Aménagement et d'Urbanisme (INAU). Rabat.

-Bounouira, H. (2012). *Etude des qualités chimiques du bassin versant de Bouregreg*. Thèse de doctorat en sciences physique. Université Pierre et Marie Curie. Paris. France. Université Ibn Tofail. Faculté des sciences. Kenitra. Maroc.

-Haut Commissariat au Plan-HCP (2018), Caractéristiques socio-économiques et démographiques de la population de la préfecture de Salé 2014, Rabat : direction régional de Rabat – Salé –Kenitra.

-Nadem, S., El Baghdadi, M., Rais, J., Brakat, A. (2015). Evaluation de la contamination en métaux lourds des sédiments de l'estuaire de Bou Regreg (cote atlantique, Maroc). *J. Mater. Environ. Sci.*, 6 (11), 3338-3345.

17) Ministre de l'Urbanisme et de l'Aménagement du Territoire (2016). Projet de plan d'Aménagement de la Commune de Salé. Rabat : Agence urbaine de Rabat-Salé.

القرآن مصدر لبناء الحضارات

The quran is a source of building civilisations

أ.حجاب علي عبد الحميد خالد الامامي
جامعة السلطان زين العابدين (يونيزا)- ماليزيا

مقدمة:

الحمد لله الذي جعل القرآن مصدر لبناء الحضارات ، والصلاة والسلام على من كمُلت ببعثته الحضارة الإنسانية وبلغ رسالته من مصدر الإلهية وكشف غمة الظلام الفكرية والروحية والنفسانية والمادية والفردية والاجتماعية على هذه الأمة أما بعد فإن الله سبحانه وتعالى أنزل القرآن وجعله مصدراً للإعتناء بهذه الأمة ، وما تستقسم عليه من حضارات قائمة على أصولها للحفاظ على الإنسانية وحضارتها وديمومتها واستقرارها وما يحفظ لها أمنها وأمانها لهذا المخلوق الذي جعله خليفة في الأرض ،فقد أسميت هذا البحث بـ (القرآن مصدر لبناء الحضارات) وبينت فيه عناصر الحضارة وما يديم لها الأمان في ديمومتها وما يعيقها والكشف عن ما يجعلها متمكنة في الرسوخ والتمكين والثبات من منظور قرآني ، فإن ما يجب علينا معرفته معرفة حقيقية هي أنه ليس في الدنيا قديماً وحديثاً كتاب هو مصدر للبناء الفكري والروحي كالقرآن الكريم بل والإشعاع الحضاري الإنساني على مدى العصور ، وسيتم تعريف مصطلح القرآن الكريم والحضارة.

أولاً: تعريف القرآن الكريم: فهو في اللغة مصدر مرادف للقراءة ، ومنه قوله تعالى إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (17) فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (18)سورة القيامة آية 17-18(محمد عبد العظيم الزرقاني ، 2004م ، ص11).

تعريف القرآن في الاصطلاح: بأنه هو المنزل على الرسول صلى الله عليه وسلم المكتوب في المصاحف المنقول عنه نقلاً متواتراً بلا شبهة ، والقرآن عند أهل الحق هو العلم اللّدني الإجمالي الجامع للحقائق(محمد بن علي الجرجاني ، 1405هـ ، ص232).

ثانياً: الحضارة في اللغة: جاء في لسان العرب: أن الحظر خلاف البدو والحاضر خلاف البادي والحاضر المقيم في الحظر والبادي المقيم في البادية والحضارة الإقامة في الحظر(أبو الفضل جمال الدين ابن منظور ، 1414م ، ص197) وفي الحديث (ولا يبيع حاضر لباد)(محمد بن يزيد القزويني ، د.ت ، ص734).

الحضارة في الاصطلاح: بأنها"نهاية العمران وخروجه إلى الفساد ونهاية الشر والبعد عن الخير"(عبد الرحمن بن محمد بن خلدون ، دت ، ص67) وهناك من عرفها بأنها" نظام اجتماعي يعين الإنسان على الزيادة من انتاجه الثقافي وأنها تتألف من عناصر أربعة وهي: الموارد الاقتصادية ، والنظم السياسية ، والتقاليد الخلقية ، ومتابعة العلوم والفنون ، وهي تبدأ حيث ينتهي الاضطراب والقلق"(ويليام جيمس ديورانت ، 1973م ، ص3) أما مالك بن نبي فإنه يعرف الحضارة من ناحية بناء تركيبي وبناء وظيفي ، فأما تعريفها من ناحية البناء التركيبي بالمعادلة: وهي" حضارة = إنسان + تراب + وقت"ثم من خلال التركيب يمتزج العنصر ويتفاعل بالآخر فتنتج حضارة (مالك بن نبي ، 1406هـ 1986م ، ص45).

ثالثاً: عناصر الحضارة في القرآن الكريم

أولاً. العلم: إن العلم يعتبر المفتاح الأساسي للحضارة ، وباب كنوزها ووسيلة بنائها ،وبرهان قولنا هو أول ما نزل من وحي السماء على قلب نبينا محمد صلى الله عليه وسلم قوله تعالى اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1)سورة العلق آية رقم 1 فما من حضارة في التاريخ كانت أبجديتها الأولى إقرأ سوى حضارة الإسلام ، التي أجلت العلم وذكرت وسائله (إقرأ) والكتابة الذي علم بالقلم ، ومع نزول آية إقرأ كان بدأ الإعلان الإلهي لبناء حضارة جديدة على أسس متينة ،" واستعد الكون لفتح صفحة من صفحات الحضارة المتميزة ، والتي انتظرتها البشرية منذ عهود طوال ، وكان الناس يلوبون عطاشا من الظمأ ، والساقية بعيدة في السماء فقربها الوحي الأمين حتى إذا ما انجلت الروح بغار حراء كما تجلت من قبل في الوادي المقدس نشأت حضارة ، فكأنما ولدتها كلمة)إقرأ التي أدهشت النبي الأمي ، وأثارت معه وعليه العالم ، فمن تلك اللحظة ، وثبت قبائل العرب على مسرح التاريخ ، حيث ظلت قروناً طوالاً تحمل للعالم حضارة جديدة ، وتقوده إلى التمدن والرقي" (مالك بن نبي ، 1406هـ 1986م ، دس ، ص76).

ثانياً العدل: إن العدل قوام الحضارة وسبب من أسباب بقائها فهو مسيرة الأنبياء عليهم السلام في بناء الحضارة ، وأمور رسالتهم للبشرية ، فقال تعالى: لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ (25) سورة الحديد آية رقم 25. "فالميزان من الله تعالي الخالق ، ليس فيه محاباة أحد على أحد ، وهدف الميزان تحقيق العدل في الأرض هذا الميزان الذي أنزله الله في الرسالة هو الضمان الوحيد للبشرية من العواصف ، والزلازل ، والاضطرابات ، والخلخلة التي تحيق بها في معترك الأهواء ، ومضطرب العواصف ، ومصطخب المنافسة ، وحب الذات ، فلا بد من ميزان ثابت يثوب إليه البشر ، فيجدون عنده الحق ، والعدل ، والنصفة بلا محاباة ليقوم الناس بالقسط ، فبغير هذا الميزان الإلهي الذي الثابت في منهج الله وشريعته ، لا يهتدي الناس إلى العدل"(سيد قطب ، 1400هـ 1980م ، 3494).

ثالثاً الأخلاق: إن الأخلاق ركيزة من ركائز الحضارة فهي روح تسري في عروقها ، فتجمّل صورتها ، ويعد القرآن كنز الأخلاق ، ومستودع جوهرها ،"والأخلاق علم موضوعه تنظيم النشاط الإنساني"(محمد عبد الله دراز ، 1402هـ 1982م ، ص96)، وأوضح القرآن الكريم ، أن في النفس البشرية استعداداً نفسياً جبلت عليه لتقبل الأخلاق الحسنة ، أو التَّردي في الأخلاق السيئة وقال (7) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (8) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا(9) سورة الشمس آية 7،8 ، ومع إقرار القرآن بأن الإنسان فيه نزعات ولمات الشر ، فهو أيضاً يقرر أن الذي يرسم جوانب الخير المتلائمة ويحذر من نزعات الشر المظلمة فهو صانع النفس خلقنا سبحان وتعالى حين قال (أَلَا يَعلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (14) سورة الملك 14على هذا الأساس تعامل القرآن مع النفس الإنسانية ، يزكيها ، ويغذيها بالخير ، ويكبح جماحها عن الشر ، ويخلقها بشمائل الصلاح والفلاح ، ومن النظرية الكلية في الأخلاق ،" فكرة الالتزام وهي القاعدة الأساسية والمدار النووي الذي يدور حوله كل النظام الأخلاقي ، والذي يؤدي فقده إلى سحق جوهر الحكمة العلمية ذاته ، وفناء ماهيتها ، وذلك أنه لم يعد هناك إلزام ، فلن تكون هناك مسؤولية ، وإذا عدمت المسؤولية ، فلا يمكن أن تعود العدالة ، وحينئذ تنفشي الفوضى ، وكيف نتصور قاعدة أخلاقية بدون التزام" ، أما النظرية الثانية التي تتفرع عن الولى بشكل منطقي ,فهي نظرية المسؤولية ،"

فكل مسؤولية هي مسؤولية أخلاقية"(محمد عبد الله دراز ، 1402ه 1982م ، دس ، ص21) ، "فالحضارة التزام أخلاقي"(محمود حمديزقزوق ، 1422ه 2001م ، ص24).

رابعا: الأمن والنظام السياسي المستقر: لا يمكن لحضارة على وجه الأرض أن تعيش دون أن تستقر ، ولا يمكن لها أن تستقر وتهنأ ، ما لم تستظل بظل نظام سياسي يحمي بيضتها ، ويقيم ميزان العدل بين أطرافها ,فالنظام السياسي ، ذو منزلة خطيرة في البناء الحضاري ، فهو يعكس صورة الحضارة سلباً وإيجابا ، وتحدث القرآن عن ذلك ، حديثاً موغلاً في التحليل الاجتماعي ، والسياسي ، للأنظمة لحاكمة التي رعت الحضارات ، ومن ذلك ما جاء عن ملكة سبأ ، ونظرتها إلى الحكم الملكي فقال قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (34) سورة النمل 34، فهي نظرة تعكس وجهة نظر سادت عن أنظمة الحكم الملكية آنذاك ، فالأمن من القواعد الضخمة التي ترسوا عليها الحضارة وتستقر ، والأمن المقصود " أمن عام تطمئن إليه النفوس ، وتتيسر فهو الهمم ، ويسكن فيه البريء ، ويأنس به الضعيف ، فليس لخائف راية ، ولا لحاذر طمأنينة "(علي بن محمد الماوردي ، 1140ه 1918م ، ص157).

فقد كشف النبي الله عليه وسلم اللثام عن أهم القضايا التي تمس الحياة الإنسانية ، ومنها الأمن الشخصي بمحاوره الثلاثة الدم ، المال ، والعرض وجعل تلك الدوائر الثلاث تقع في دائرة الحرمة ، والصون ، فعن أبي بكرة رضي الله عنو عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال :"إن دماءكم ، وأموالكم ، وأعراضكم ، حرام عليكم كحرمة يومكم هذا ، في بلدكم هذا ، في شهركم هذا ، وستلقون ربكم ، فيسألكم عن أعمالك مفلا ترجعن بعدي كفاراً أو ضلالاً ، يضرب بعضكم رقاب بعض ، ألا ليبلغ الشاهد الغائب ، فلعل بعض من يبلغه يكون أوعى لو من بعض من سمعه ، ثم قال ألا هل بلغت"(محمد بن إسماعيل البخاري ،1407ه 1987م ، ص1305) "لقد ضربت الحضارة الإسلامية أروع مثال ، ونسجت أضل منوال ، في التَّربية الحضارية ، بتعزيز مفهوم الأمن الذاتي على النفس ، والمال فقد اتفقت الأمة على أن الشريعة وُضعت للمحافظة على الضروريات الخمس ، وهي الدين ، والنفس ، والنسل ، والدال ، والعقل ، وعلمها عند الأمة ضروري"(إبراهيم بن موسى الشاطبي ، 1417ه 1997م ، ص31).

رابعاً: شروط الأمان في ديمومة الحضارات

أولا: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: إن ما نحتاج إليه في واقعنا المعاصر الإلحاح بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وذلك وسيلة لانتهاج الحضارة الواعية وتسديد خطاها لتحقيق ما تصبوا إليه ،" فالمنكر ما ليس فيه رضى الله تعالى من قول ، أو فعل ، أو عمل ، والمعروف ضده والأمر بالمعروف الإرشاد إلى المراشد المنجية ، والنهي عن المنكر ، الزجر عما لا يلائم في الشريعة ، وقيل الأمر بالمعروف الدلالة على الخير والنهي عن المنكر المنع عن الشر ، وقيل الأمر بالمعروف أمر ما يوافق الكتاب والسنة ، والنهي عن المنكر نهي عما تميل إليه النفس ، والشهوة ، وقيل الأمر بالمعروف إشارة إلى ما يرضي الله تعالى من أفعال العبد وأقواله ، والنهي عن المنكر تقبيح ما تنفر الشريعة منه والعفة وهو مالا يجوز في دين الله تعالى"(محمد عبد الرؤوف المناوي ، 1410ه ، ص680)، وهناك لفتة قرآنية رائعة ، أبانت جليل قدر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فأسند القرآن الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر لله رب العالمين فقال إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (90) سورة النحل آية 90 والأمر بالمعروف

والنهي عن المنكر مهمة رسالية نهض بها رسل الله فقال عز وجلالَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ157) سورة الأعراف آية 157 "والمعروف يعني شرائع الإسلام بالتوحيد، والمنكر الشرك، وما لا يعرفه في الشريعة "(محمد بن نصر السمرقندي، 1430هـ 1993م، ص574) "فهاتان الصفتان هما سياج حفظ الفضائل ومنع فشو الرذائل"(محمد رشيد رضا، 1973م 1393هـ، ص542).

ثانيا: مراعاة السنن الإلهية: فهي المرجع الأول في الصعود الحضاري وهبوطه، فالسنن مجموع القوانين التي يسير وفقها الكون، والتي يستفسد منها الإنسان (إبراهيم بن علي الوزير، 1399هـ 1999م، ص11)وهي الطريقة المتبعة في معاملة الله تعالى للبشر بناء على سلوكهم، وأفعالهم، وموقفهم من شرع الله، وأنبيائه، وما يترتب على ذلك من نتائج في الدنيا والآخرة(عبد الكريم زيدان، 1414هـ 1994م، ص13)، والسنن خلقا الله تعالى، وأودعها في كونه، وهو الذي إذا شاء أبطلها، وإذا شاء أجراها، فهو حاكمها وليست هي التي تحكم نفسها، والقول يقول لنا بهذا الأسلوب: إن نظام إن نظام الأسباب والمسببات المجعولة من الله تعالى، والمسخرة بأمره ليس بديلا من إرادة الله تعالى، وإنما هو أسلوبها في العمل، ومن يرتب على ذلك القول بالجبر وينكر النظام وسنن الله الثابتة يجهل حقيقة الإسلام، ويجهل الحقائق المشاهدة التي تقع بوجود هذا النظام البديع المتقن المحكم(محمد رشد خليل، 1404هـ 1984م، ص101)، فالإنسان مخلوق حكمت تصرفاته صعودا وهبوطا وسعادة وشقاء بالسنن الإلهية التي تتعلق بالحياة الاجتماعية، وسنن الله تعالى في المجتمع جانب من جوانب الفكرة القرآنية التي بثها الله تعالى في آيات هذا الكتاب المبين نظاما اجتماعيا مترابطا جانب سنن الله العامة في الكون التي تصور فلسفة القرآن في فهم الحياة(محمد الصادق عرجون، 1984م 1401هـ، ص15)، فالقرآن باني الحضارة وحامي خط سيرها، وضامن استقرارها ولفت الأنظار إلى ما يصون الحضارة من مرض الموت، واهدى إلى بناء الحضارة باقة مزهرة من تجارب الحضارات عبر التاريخ ليأخذوا من الماضي عبرة المستقبل ، وتلك السنن ثابتة ثبات القوانين الفلكية الفيزيائية، ومن خلال معرفة تللك السنن، نميز المقدمات من النتائج، ونرى سلسلة التغييرات المتصلة بينها وحينئذ نكون قد دخلنا من الباب الأمامي لفهم الواقع(عبد الكريم بكار، 1413هـ، ص274).

خامساً :عوامل تدهور الحضارات من منظور قرآني

أولا: الظُّلْم: إن الظُّلْم أبْشَعَ صُورةٍ تبرز فيها الحضارة الآيلة للسُّقوط ويعُجّل سيرها إلى مدفنِها وطيّها مِن الوجود ولهذا حفل القرآن الكرم بتبشيع الظُّلم وبيان وخِيْم آثاره على الحضارة، وأيُّما حضارة اتسَمَت بالظلم الذي يكاد فَجْرُها أنْ ينَبلِج حتى يأذنَ نَجْمُها بالأُفُول ولهذا كان الظُّلم قرِين الكُفْر وعبر القرآن بالظُّلم عن الكُفر وليس بعد الكفر ذنب قال تعالى: وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ (254)سورة البقرة آية 145 وإنْ دَل هذا التعبير على شيء فإنما يدُلُّ على عمِيق أثَر الظلم في اجتثاث الحضارة الظالمة مِن الوجوه وإراحة كاهل الحياة مِن أعباءِ ظلمِها وقد ورد ذكر الظُّلم على عِدة معان في القرآن الكريم منها الشِّرْ كالذنْب مِن غير الشِّرك القتل النقص ظلم الناس الضرَر الجَور جُحُودُ القرآن والسرِقَة(الدامغاني، 1977م، ص308)، وأثر الظلم ماحق للحضارة ومُبِيْدٌ لخَضْرَائها لدرجة أ ن الملك يبقى مع الكُفر ولا يبقى مع الظُّلم(محمد بن عمر الرازي، دت، ص76)، وليس شيء أسْرَع في خراب الأرض ولا أفْسَد لضمائر الخَلْق مِن الجور لأنه لا يقف عند حد، ولا ينتهي

إلى غاية ولكل جزء منه قسط مِن الفساد حتى يستكمل (أبو الحسين علي بن محمد بن حبيب ، 1140هـ 1918م ، ص153).

ثانيا: الترف: فالترف فيه طُغْيان ، وبَطَر وفتح لأبواب الملذات والشهوات ، والترف مُكّون مِن جانِب مادّي وهو" التنَعُم وجانب معنوي وهو البَطَر"(يوسف القرضاوي ، 1417هـ 1996م ، ص242)، فالبَطَر يَهلِكُ النِّعَم والحضارة وهذه الحضارة ، قال تعالى (وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ (58) سورة القص 58،الهالِكَة بَسَببِ بَطَرِها الذي يعني أنها طَغَت في نعمة الله فأهلكهم الله تعالى بالعذاب في الدنيا ويقال" عاشوا في البَطَر ، وكُفْران النِّعْمَة"(أبو الليث نصر بن محمد السمرقندي ، 1403هـ 1993م ، ص522)، وكم قصَمْنا مِن قرية وهي واردة عن غضب شديد ومنادية على سخط عظيم لأن القَصَم أفْظَع الكسر وهو الكسر الذي يبُين يتلاؤم الأَجْزاء(أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد الزمخشري ، 1403هـ ، ص105)، والمشْهَد المصور في القرآن الكرم يذكرنا بالصورة التي نقلتها القنوات الفضائية للزِّلْزَال الذي ضَرَ المالْديْف في جنوب شرق آسيا) بتاريخ 26 ، 12 ، 2004م) ضرب زلزال مُدَمِّر جزيرة سُومطرة وسيرلانكا ، ومناطق شاسِعة وجُزُر المالديف وكانت تسمى تلك الجزر جَنة السُّياح وامتدت آثار الزلزال إلى مناطق واسعة مِن آسيا وإفريقيا ، وحرفت الجزيرة عن موقعها وعلى رأي علماء مختصين بلغت قوة الزلزال ما يعادل مليون قنبلة ذرية شو أعقب الزلزال أمواج عاتية بلغ ارتفاعها عشرة أمتار وقد يصل ارتفاعها أحينا إلى 45أمتار وتفوق سرعتها سرعة الطائرة النفاثة وحملت مليارات الأطنان مِن مياه البحر وكان منظره مُرعِباً كما بثته شاشات التلفزيون ويطلق العلماء على هذه الأمواج إسم تسونامي أي موج الميناء وأطلق على الطوفان القرن وفاق عدد الضحايا ألف قتيل وعشرات الآلاف مِن الجرحى دمار يقدر بمليارات الدولارات وخلف الزلزال والطوفان أمراضاً وأوبئة في تلك البِقاع وَوَصَفت الأُمَم المتحدة الحدث بأَن كارثة لم يسبق لها مثيل هذا ونشرت الصُحُف صورة لمسجد جدرانه ومئذنته تتوسط بقمة مدمرة (جريدة القدس ، عدد 12701، بتاريخ 28-12- 2004م ، والعدد 12072بتاريخ 29-12 -2004م).

سادساً: الاستشراقية لترسيخ الحضارة الاسلامية

البشائر النصية في مستقبل التمكين: إن التمكين للحضارة الإسلامية في الوجود أمر مقطوع بوجولة في كتاب الله تعالى حول مصطلح التمكين تدلنا على معانيه ، وهي الاستقرار ، والظفر ، والتمكن ، وهذا قمة ما تعطي الحضارة أن يقر قرارها ويشمخ بنيانها وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ (10)سورة الأعراف آية رقم 10أي" جعلنا لكم فيها مكاناً وقراراًأو ملَكناهم فيها وأقدرناكم على التصرف فيها"(أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد الزمخشري 1403هـ ، ص357)، وقد أفصح القرآن الكريم عن ضرورة التمكين للحضارة فقال عن الحضارة التي قادها ذو القرنين وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا (83) إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا (84) فَأَتْبَعَ سَبَبًا (85)سورة الكهف آية رقم 83-85 فقد تمكنت حضارة ذي القرنين في الأرض وأوتيت أسباب ذلك ولعل من هذه الأسباب مقومات الحضارة وعوامل بقائها مادياً ومعنوياً (علي محمد الصلابي ، 1424هـ 2003م ، ص228) فالحضارة لا تستطيع أن ما لم تتمكن تمنح البشرية عطاءً وتستقر وهذا يعني أن الله تعالى أعطاهم من الاستقلال في الأرض وأسباب التصرف فيها(محمد رشيد رضا ، 1937م 1393هـ ،دس ، ص730) ما يستطيعون به تأسيس حضارتهم وجعل

هذه الحضارة معطاءة فقد حظيت الحضارة الإسلامية بالتمكين الرباني وتقلبت في نعمه ونعيمه فقال تعالى وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (55) سورة النور 55، فبشائر التمكين للحضارة تزينت بمشكاة النبوة أيضاً وخُطت خطاها من محبرة الوحي وانسابت درراً من فم النبي الطهور صلى الله عليه و وسلم وهي حقائق الصدق من الصادق المصدوق فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم بدأ الإسلام غريباً وسيعود كما بدأ غريباً فطوبى للغرباء(محمد بن إسماعيل البخاري 1407ه 1987م ، دس ، ص130).

النتائج:

أن القرآن الكريم هو ربان الحضارة ، وقائدها ، وبانيها فلا حضارة بلا هدي قرآني , وأن للحضارة عناصر لا تقوم إلا بها.

أن العلم مفتاح الحضارة الرشيدة وبه بدأت أبجديات الحضارة الإسلامية وذلك بدأ من غار حراء.

أن قوام الحضارة العدل وسبب من أسباب بقائها ، وأي حضارة لم تقم على العدل فإن لعنة الله ودعوة المظلومين ستطاردها.

أن الأخلاق هي ركيزة الحضارات وروحها لأنها تتناسب من الإيمان بالله تعالى.

أنه لا يتم استقرار الحضارة إلا بنظام سياسي يحميها و يوفر لها نعمة الأمن.

أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يقودان لاستمرار الحضارة وديمومتها وصحوتها والحرص عليها.

أن السنن الإلهية تعتبر قواعد في صعود الحضارة ونواميس تحكم حركة التاريخ.

أن أسرع ما يعجل إلى سقوط الحضارة ودفنها حية هو الظلم وأن التَّرف باعث من بواعث هلاك الحضارة.

أن هناك بشائر تنص على أن الحضارة الإسلامية هي المستقبلية بنص من القرآن الكرم والسنة النبوية.

قائمة المراجع:

-إبراهيم بن علي الوزير(1999م) ، على مشارف القرن الخامس عشر الهجري ، دراسة للسنن الإلهية والمسلم المعاصر ، بيروت ، دار الشروق.
-إبراهيم بن موسى الشاطبي ،(1997م) ، الموافقات ، الجزء الأول ، ط1 ، السعودية ، دار ابن عفان.
-أبو الفضل جمال الدين ابن منظور(1414م) ، لسان العرب ، ط3 ، بيروت لبنان.
-أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد الزمخشري(1430ه) ، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل ، ط2 ، دار الكتاب العربي بيروت.
-أبو الليث نصر بن محمد السمرقندي(1993م) ، بحر العلوم ، ط1 ، بيروت دار الكتب العلمية .
-الدامغاني(1977م) ، قاموس القرآن أو إصلاح الوجوه والنظائر في القرآن الكريم ، ط2 ، بيروت دار العلم للملايين.
-جريدة القدس ، عدد 12701 ، بتاريخ 12 ،28 ، 2004م ، والعدد 12072بتاريخ 12 ،29 ،2004م.
-سيد قطب(1980م) ، في ظلال القرآن ، ط9 ، بيروت القاهرة دار الشروق.
-عبد الرحمن بن محمد بن خلدون(د ت) ، مقدمة ابن خلدون ، بيت الأفكار الدولية بيروت لبنان .
-عبد الكريم زيدان (1994م) ، السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية ، ط3 ، بيروت مؤسسة الرسالة.
-علي بن محمد الماوردي(1918م) ، أدب الدنيا والدين ، ط1 بيروت دار القرار ، أقرأ.
-علي محمد الصلابي(2003م) ، تبصير المؤمنين بفقه النصر والتمكين في القرآن الكريم ، القاهرة دار الفكر لتراث.
-مالك بن نبي (1986م) ، شروط النهضة ، دار الفكر دمشق.
-محمد الصادق عرجون ، 1984م) ، سنن الله في المجتمع من خلال القرآن ، جدة الدار السعودية للنشر والتوزيع.

-محمد بن إسماعيل البخاري(1987م)، صحيح البخاري ، الجزء الثالث ، ط3، بيروت دار ابن كثير ودار اليمامة.
-محمد بن علي الجرجاني(1405ه)، التعريفات ، ط1، بيروت دار الكتاب العربي.
-محمد رشد خليل(1984م)، النهج الإسلامي لدراسة التاريخ وتفسيره ، القاهرة دار المنار للنشر والتوزيع.
-محمد رشيد رضا(1937م)، تفسير المنار ، الجزء العاشر ، ط2، بيروت دار الفكر.
-محمد عبد الرؤوف المناوي(1410ه)، التعاريف ، ط1، بيروت دمشق دار الفكر المعار.
-محمد عبد الله دراز(1982م)، دستور الأخلاق في القرآن الكريم ، ط4، بيروت مؤسسة الرسالة الكويت دار البحوث العلمية.
-محمود حمدي زقزوق(2001م)، الحضارة فريضة إسلامية ، ط1، القاهرة مكتبة الشروق.
-ويليام جيمس ديورانت(1973م)، قصة الحضارة ، ط4، القاهرة عابدين ، ترجمة زكي نجيب محمود.
-يوسف القرضاوي(1996م)، دور القيم والأخلاق في الاقتصاد الإسلامي ، ط1، بيروت مؤسسة الرسالة.
-عبد الكريم بكار(1413ه) فصول في التفكير الموضوعي ، دمشق ، بيروت دار القلم ، الدار الشامية.
-محمد بن يزيد القزويني(دت)، السنن ، دار إحياء الكتب العربية.
-محمد عبد العظيم الزرقاني(2004م)، مناهل العرفان في علوم القرآن ، ط1، مكتبة البحوث والدراسات دار الفكر.

العادات والتقاليد الأمازيغية من الأصالة إلى العالمية

Customs and Traditions from Originalty to Universality.

أ. نـــادية أوديحات ، جامعة العقيد أكلي محند أولحاج البويرة ، الجزائر

لا يخلو مجتمع من المجتمعات من عادات وتقاليد خاصة به ،أو مشتركة مع مجتمعات مجاورة له ،وهي مجموعة من السلوكيات التي يتواضع عليها أفراد المجتمع على مر الأجيال ،لتبقى راسخة في الذاكرة الجماعية كمقدسات تفرض هيمنتها بحكم سلطتها التي اكتسبتها من اعتراف المجتمع بها وممارستها من قبل أغلب أفراد المجتمع.

"وتعرف التقاليد...بأنها عبارة عن مجموعة من قواعد السلوك الخاصة بطبقة معينة أو طائفة أو بيئة محلية محدودة النطاق، وهي تنشأ عن الرضي والاتفاق الجمعي على إجراءات وأوضاع معينة خاصة بالمجتمع المحدود الذي تنشأ فيه ، لذلك فهي تستمد قوتها-شأنها شأن العادات والعرف- من قوة المجتمع أو الطبقة أو البيئة التي توافقت عليها.وتفرض سلطتها بالتالي على الأفراد باسمها" (عبد الغني عماد ، 2006)، فالعادات والتقاليد لا تخلو منها أية أمة مهما بلغت من الخلف أو التحضر ، فهي البصمة التي تميز كل أمة عن غيرها.

تعتبر عادات الزواج من العادات المنتشرة في كل المجتمعات ، تختلف طقوسها باختلاف بيئتها ، ولكنها تظل تحمل خصائص تشترك فيها جميع الأمم مهما اختلفت طبقاتها وديانتها وجنسياتها. فبما أن" الزواج مؤسسة اجتماعية ، أو موكب من المعايير الاجتماعية يحدد العلاقة بين رجل وامرأة ، ويفرض عليهما نسقا من الالتزامات والحقول المتبادلة الضرورية لاستمرار حياة الأسرة وضمان أدائها لوظائفها ويعتبر حفل الزواج إعلانا يعترف بمقتضاه كل من الزوج أو الزوجة بمكانته الجديدة في المجتمع ، وهي التي تكتسب من خلال التعاقد بينهما الذي يلقى كل التدعيم الاجتماعي"(محمد عبدو محجوب ، 2007).

إن طقوس الزواج التقليدي ليست مجرد طقوس لإعلان الزواج والاحتفال به بل هي طقوس تقوي العلاقات القرابية ،وتقدس الصلات العائلية ، فشرب الماء مثلا أو الحليب أو أكل العسل من يد العجوز ، وقطع الشعر أو وضع الحزام من قبل الحم الأصغر سلوكات تعزز العلاقة بين أفراد العائلة وتعزز علاقة العروس باعتبارها عضوا جديدا في العائلة مع أهل بيتها الجديد.هذا العضو الذي سيصبح بدوره نواة لعائلة مستقبلية جديدة لأن" الزواج في كل مجتمع هو عبارة عن مجموعة من الأنماط الثقافية لإقرار الأبوة وتهيئة الأساس المستقر للعناية بالأطفال وتربيتهم ، فالزواج هو بالفعل الوسيلة الثقافية الأساسية لضمان استمرار الأسرة والجماعات الأخرى القائمة على القرابة"(محمد الجوهري وعلياء شكري ، 2007).

كانت المرأة قديما تختار لإتقانها الأعمال المنزلية ، لذلك يفضل الناس المرأة الممتلئة ، القوية ، القادرة على تحمل أعباء البيت ، لكن أحيانا قد يشفع لها ذكاؤها ، كما تذكر الحكاية التالية:

ذهبت امرأة لتخطب فتاة ، فوجدتها تنسج برنوسا لوالدها ، ولكن نسيجها لم يكن متقنا ، فكانت فيه ثغرات وهضاب ، فقالت الخاطبة:أوف تعبت ، كم من مرتفع صعدته ، وكم من منخفض هبطته i uligh deg tsawnin,i subegh di teksarin)فتفطنت الفتاة أن ما كانت تقصده هو اضطراب نسيجها ، فأجابتها ، سوف

يتماسك ويستوي ويلبسه سيدي الوالي ad yekkes ad yemsawi,ad t iles sidi lwali فقررت المرأة خطبتها.أما حديثا ونظرا لخروج المرأة وعملها خارج البيت فيعد إتقان الأشغال المنزلية آخر أمر يفكر فيه الخاطب ، فبعد أن كان اختيار الزوجة من مهام الوالدين ، ولا رأي للزوجين في ذلك ، سواء تعلق الأمر بالرجل أو المرأة ، أصبح الاختيار اليوم من مهمة الزوج ، وقد يضطر أحيانا لمخاصمة والديه أو الزواج دون رضاهم إذا ما وقفا حجرة عثرة أمام هذا الزواج.

كانت ليلة الدخلة قديما اللحظة التي يتعرف فيها الزوجان على بعضهما ، وينقل لنا الأدب الشعبي ذلك القلق الوجودي الذي يعيشه الزوجان قبل اللقاء ، فالمرأة تتساءل:يا ترى أهو نسر أم بومة ؟ wisen ma d lbaz negh d bururu) و الرجل يردد في نفسه:يا ترى أهي حجلة أم غراب wisen ma d tasekkurt negh d ttagerfa.

"في مواجهة عوامل التغيير نرى أن الإبداع الشعبي يظل يودع مأثوره الدارج خلاصة تجاربه ، وذخائر قوله ،وفنه ، وضوابط سلوكه وأخلاقه ومعتقداته ويظل يوظف هذا المأثور لكفاية حاجة تكون قائمة في حياته ، ويظل يذيعه ويتناقله ويردده...وأما قانون نشوء البدائل في المأثورات الشعبية فيعني لنا أن استمرارية هذا الإبداع الشعبي يماثل استمرارية الحياة ذاتها-ففيها جزئيات تموت وجزئيات تولد ،وفيها نماذج تفقد وظائفها ودلالتها وتختفي ونماذج أخرى تكتسب وظائف جديدة أو دلائل جديدة ، وفيها أنماط تتحول وأنماط تتجمد ، وفيها مأثورات ينكمش مدارها ومأثورات تقيم وتحل محل مأثورات أخرى ، وفيها مأثورات تهاجر وتستقر في مواطن استعمال جديدة"(سعيد المصري ، 2012).

فبفضل التطور التكنولوجي فإن التعارف يتم بفضل الأجهزة الحديثة من هاتف نقال ،وحاسوب محمول ،على الماسنجر ، والواطساب ، والفايبر ، وغيرها من وسائل التواصل الاجتماعي ، وقد يكون التعارف في مكان العمل ، أو ببساطة في الطريق. كما أن مدة التعارف قبل الزواج قد تطول لسنوات.

إذا قرر الأهل تزويج ابنهم وقوبلوا بالموافقة ، يتقرر العرس مباشرة وأحيانا في الأسبوع الذي يلي الخطبة ، فتبدأ العائلة في دعوة الأقارب ، وتعتبر هذه الدعوة طقسا مقدسا ،حيث يدعو الرجل الرجال في المسجد أو السوق ، بينما تنتقل المرأة من بيت لآخر لدعوة الأقارب ، وهي فرصة لملاقاة أناس ربما لا تلتقي بهم إلا في مثل هذه المناسبات. فالدعوة إلى العرس تقرب الناس من بعضهم البعض ، وتوطد أواصر المحبة ،وهي فرصة للتسامح بين المتخاصمين ، إنها فرصة لتجديد علاقات المودة والاطمئنان على الأهل.

أما حديثا فقد تحولت الدعوات إلى بطاقات ورقية ، تختلف نوعيتها باختلاف طبقة أهل العرس ، ولكنها تبقى مجرد بطاقات ورقية مهما كانت راقية ومهما بلغ ثمنها ، سواء أكتبت بالحبر أم بماء الذهب ، تنقل عبارات جاهزة مكررة ، أو تكون الدعوة بمكالمة هاتفية وقد تختصر في رسالة. لم يعد الناس يلتقون ، وإذا التقوا متباعدين.يجمعهم حفل الزفاف ، يفترقون بانتهائه.

لقد تغيرت العادات إن لم نق قد اختفت ، فأهم ما يميز العروس هو لباسها ، فالعروس القبائلية معروفة بجبتها وبالخمار التقليدي الذي تضعه فوق رأسها ، لا تزيحه حتى تصل إلى بيت زوجها ليزيله حمها ، أو شيخها. والجبة القبائلية غالبا ما تصنع من الحرير الأبيض تزينها مجموعة من الخيوط الحريرية من مختلف الألوان ، تحيط بخصرها "الفوظة" وهي قطعة قماش يختلف عن قماش الفستاة لكنه جزء لا يتجزأ منه ، تتزين

بحلي من الفضة الخالصة ، إن لباس العروس يمثل هوية مجتمع يتمسك ب تراثه خوفا من الاندثار ، خاصة وأن الثقافة الأمازيغي مازالت إلى وقت قريب ثقافة شفوية ، يتشوق الناس للحظة إزاحة الخمار ليرى الناس وجه العروس ، وبالمقابل لا تختلف العروس القبائلية عن غيرها من عرائس العالم في زيها الأبيض العالمي ، إلى جانب زوجها بالبذلة الأوربية.





يبدأ الاحتفال بالزواج من بيت أهل العروس من خلال حلقات الأوار ، إذ "إن الغاية الأولى من هذه الحلقات هي إعلان الزواج والإشهار به ،لأن هذا العقد الاجتماعي يجب الإعلان عنه بطريقتين:العرس/الفاتحة.يمثل العرس وطقوسه الطريقة الأولى للمباركة الجماعية ، بينما تمثل الفاتحة الترسيم الديني للعقد"(حميد بوحبيب ، 2012)، ليكتمل في بيت أهل العريس بعد أن يتم الزفاف ،تنقل العروس قديما على متن حصان ، يتبعها ركب من الأهل مصفقين مزغردين ، في جو احتفالي يسوده الفرح والمرح ،يردد الجمع أغاني شعبية على أنغام الطبول و"الغيضة" ، أو أشعار خاصة بالمناسبة ، فيتحول العرس إلى فضاء ثقافي يعبر عن إنتاج أدبي زاخر ظل محفوظا في الذاكرة الجماعية ، "إن الإنتاج الثقافي يمثل مجموعة من العمليات المركبة والتي تنطوي على ممارسة دائمة للتراث بحيث يظل حيا بين أعضاء جماعة ما من الناس ، وماثلا في ذاكرتهم الاجتماعية وطيعا على الاستخدام والتوظيف المستمر ، ولا يعني ذلك ثباتا مطلقا للعناصر التراثية ولا تغيرا كاملا ، وإنما ممارسات متجددة ودائمة ، كما أن التداول الثقافي هو جزء لا يتجزأ من الإنتاج ولا يجوز الفصل بينهما ، فكل تداول هو خطوة أو مرحلة في الإنتاج الثقافي بالمعنى الواسع للكلمة"(سعيد المصري ، 2012).

وقد حلت السيارة المزينة بالورود محل الحصان ، لتمثل مظهرا من مظاهر التحضر ، وليس هذا التطور والتحول إلا انعكاسا لتطور الحياة ذاتها ، فلا يخلو البيت القبائلي من خيل ، فرسا كان ، أو حصانا أو حمارا ، ولا يخلو بيت اليوم من سيارة ، فعوامل التغيير أحيانا تساير التطور الحاصل في المجتمع ، "بالرغم من أننا

نسلم بأن عوامل التغيير التي تأتي نتيجة لتطبيق الحياة الحديثة ،ونتيجة للمخالطات الثقافية والبشرية هي عوامل بالغة التأثير والنفوذ على مادة التراث الشعبي وأشكاله إلا أننا نرى-من الجانب الآخر-أن هذه المأثورات الشعبية تملك من عناصر المرونة والخصوبة والقدرة على الملائمة ما يجعلنا نرفض جانبا ذلك الظن القائل بأن الحداثة ستقضي بالضرورة على سائر جوانب المأثور الشعبي"(سعيد المصري ، 2012).





إن التغيير الحاصل في المجتمع القبائلي ليس بالضرورة ذا بعد سلبي ، وإنما هو حصيلة التطور في أحيان كثيرة ، فلعل الحياة نفسها تفرض نمطا معينا من التعامل مع بعض العادات ، فعادات الأكل مثلا وإن انتقلت من البيت إلى الصالات الفخمة يبقى نوع الطعام هو نفسه ، فلا نجد عرسا يخلو من طبق الكسكس ، وإن إختلفت طريقة التقديم.

"ومازالت ملامح الماضي تعيش في الحاضر من خلال بعض أصناف الطعام التقليدية ، وطرق تقديم وتناول الأطعمة وهي متشابهة في مختلف المستويات الاجتماعية والاقتصادية إلى جانب ما تتضمنه تلك العادات من تغيرات نجمت عن الاتصال الثقافي"(محمد الجوهري ، 2007).





ويبقى الاحتفال بالعرس أهم مرحلة في طقوس الزواج ،تردد فيه النساء مجموعة من الأشعار ،في مدح العروس وأهلها ،تتغير الصيغ والتعابير ، ويبقى مضمون الأشعار نفسه.

A rbeh iw a lxir iw

Jewdjegh i mmi

Ewwigh ssa3a n yirden

Rnigh ikerri

Ewwighd tasedda tawraght

I yizem awehci

A rbeh iw a lxir iw

Jewdjegh i gma

Ewwigh ssa3a n yirden

Rnigh tayuga

Ewwigh d tasedda tawraght

I yizem n lghaba

A rbeh iw a lxir iw

Jewdjegh i warrac

Ewwigh essa3a n yirden

Rnigh aqelwac

Ewigh ed tasedda tawraght

I yizem aberqac

"أورار المبيت urar n usensi بحيث تلتقي الأسرتين على مأدبة عشاء مشترك في بيت العروس ، هذه المأدبة يحضرها عدد كبير من المدعوين من كلا الطرفين.

ولما ينتهي أهل العرس من القيام بواجب الضيافة أكلا وشربا ، يأتي موعد ال"أورار" بشكله المزدوج ،النساء داخل البيت والرجال خارجه...غالبا ما يستمر إلى غاية قدوم الفجر ،حينها تختتم الحلقة بإطلاق ألحان النهاية التي تبرز أشعارها نية الافتراق على تمني الخير والهناء لأهل العرس:

أبقيكم بالخير يا أحبة Bqaw 3la xir a lehbab

رحبة الأورار بلغت النهاية Taqa3t n wurar tefra

الكل يعود من حيث أتى Kulwa abrid ad t- yedfer

ونتمنى الهناء لأهل الفرح Lehna i yat tmeghra

ويفترق الجمع من الحضور ولا يبقى في بيت العروس إلا المدعوين من أماكن بعيدة ، إلى جانب مجموعة من النساء اللواتي تم اختيارهن من طرف أهل العرس"(امحمد جلاوي ، 2009).

تحمل حلقات الأورار قيما اجتماعية كثيرة ، كما تصبح فضاء ثقافيا لتبادل الأشعار ، تخلق جوا من المرح ينفس فيه الفرد عن نفسه ، بل كثيرا ما تكون هذه الحلقات خاصة النسوية منها مجالا للتعبير عن كل المكبوتات والرغبات التي ظلت حبيسة النفس لسنين. تكون الأرض المفروشة بالزرابي التقليدية أرضية للرقص الذي تتنافس فيه النساء.

"هذا الفضاء النسوي مغلق على أعين الرجال ، بل ومن المفروض من الناحية الثقافية أن لا يستمع الرجال لما تغنيه النسوة في هذه الحلقات الغنائية ،حتى وإن كانوا على بعد أمتار معدودة من مكان أورار رغم أن الرجل...غالبا ما يكون موضوعا وهدفا لرسائل تبث في هذه الوضعية الاجتماعية ،فإن أورار يبقى قضية نسوية خالصة...في أغلب الأحيان ، قائدات الحلقة الغنائية اللواتي يفرضن الرسائل والأغاني التي تؤدى ، يكونون من قريبات أهل العرس ، وهي مسألة توضح في ذات الوقت سلطة علاقات القرابة العائلية في تحديد العلاقات الاجتماعية داخل القرية وطقوس الاتصال"(رضوان بوجمعة ، 2007).

بينما اليوم فالحفلات تقام في صالات ، حيث يقبع كل فرد على كرسي ، تطربه ألحان صادرة من جهاز صاخب ، يجلس الناس متباعدين رغم أنهم تجمعهم صلة القرابة.





"إن التغير الثقافي في عالمنا المعاصر أصبح ظاهرة بديهية في عالم متغير غير ثابت ، ففي كل لحظة هناك جديد وفي لحظة نشهد زوال عناصر ثقافية وظهور أخرى جديدة ،ومادامت الثقافة الأمريكية والأوروبية هي الثقافة المسيطرة في عالمنا فإن قيمها هي السائدة"(مصطفى تيلوين ، 2011).

أمام اضمحلال الهوية القومية في خضم الزحف الثقافي العولمي ، أحس الفرد أحس الفرد الأمازيغي بالحاجة الماسة إلى العودة إلى جذوره وإحياء عاداته وتقاليده ، من أجل إثبات وجوده في عالم تتغير ملامحه كل لحظة ، فنجد هذا الفرد يتطلع إلى مواكبة الركب الحضاري ، فمن جهة يسعى لمسايرة الموضة والتطور الحاصل في العالم ، ومن جهة أخرى يتشبث بعادات وتقاليد أجداده ، إذ "تنطوي عملية استعادة التراث على تفاعل مستمر بين التراث والحداثة ، بين القديم والجديد ، وتنطوي أيضا على إعادة تفسير مستمرة للتراث وربطه بالحاضر"(سعيد المصري ، 2012).

إن التراث لا يزال حامل هوية كل شعب ،لابد من الحفاظ عليه فلا ينبغي أن ننظر إليه كأنه شيء بال ، فالتراث يبقة هو تاريخ الأمة.

قائمة المراجع

-امحمد جلاوي(2009) ، تطور الشعر القبائلي وخصائصه ، بين التقليد والحداثة ، الجزء الأول ، المحافظة السامية للأمازيغية ، الجزائر.
-حميد بوحبيب(2012) ، الشعر الشفوي القبائلي ، السياق والبنيات والوظائف ، مقاربة انتروبولوجية ، الجزائر
-رضوان بوجمعة(2007) ، أشكال الاتصال التقليدية في منطقة القبائل ، محاولة تحليل انتروبولوجي ، الجزائر.
-سعيد المصري(2012) ، إعادة إنتاج التراث الشعبي ، كيف يتشبث الفقراء بالحياة في ظل الندرة ، المجلس الأعلى للثقافة.
-عبد الغني عماد(2006) ، سوسيولوجا الثقافة ، المفاهيم والإشكالات...من الحداثة إلى العولمة ، مركز دراسات الوحدة العربية.
-محمد الجوهري وعلياء شكري(2007) ، مقدمة في دراسة الانتروبولوجيا.
-محمد الجوهري(2007) ، التراث الشعبي في عالم متغير ، عين للدراسات والبحوث الإنسانية.
-محمد عبدو محجوب(2007) ، التراث الشعبي دراسات ميدانية في مجتمعات ريفية وبدوية ، دار الوفاء ، مصر.
-مصطفى تيلوين(2011) ، مدخل عام في الانتروبولوجيا ، منشورات الاختلاف ، الجزائر.

اصلاح التعليم والصحة بمنطقة جبالة خلال النصف الثاني من القرن 19م.

Education and health reform in jebala region during the second half of the 19th century

البشير البونوحي – المغرب
جامعة عبد المالك السعدي- -المغرب

تقديم

يعتبر النصف الثاني من القرن 19م ومطلع القرن العشرين فترة حرجة في تاريخ البلاد، بسبب الأزمات وتدهور الأوضاع الداخلية، والضغوطات الخارجية المتزايدة. وعلى الرغم من المحاولات "الإصلاحية" التي حاول سلاطين القرن التاسع عشر القيام بها، فإنها آلت إلى الفشل بسبب تأثير مجموعة من العوامل الخارجية. غير أنها استطاعت تأجيل فرض الحماية ولو إلى حين بفضل السياسة الناجحة التي نهجها السلطان المولى الحسن الأول ودشنها سلفه المولى محمد بن الرحمان، إذ عمد إلى جزر الضغط الأجنبي باستغلال التنافس القائم بين الدول الاستعمارية الطامعة في احتلال البلاد.

بنفس المنهج حاول الوزير احمد بن موسى البخاري الحفاظ على استقلال المغرب. ومع وفاته انتقل ذلك الإرث الثقيل إلى السلطان المولى عبد العزيز، الذي عرفت المؤسسة المخزنية في عهده ارتباكا واضحا على مستوى جميع الأصعدة، وسجلت مرحلته مجموعة من التحولات التي فرضتها الأزمة العامة وسرعت وثيرة الأحداث وعجلت بإقبار استقلال المغرب، رغم المجهودات المبذولة في سبيل الحفاظ على استقلاله. المتمثلة في مجهودات المخزن حيث قام بإنجاز بعض المحاولات الإصلاحية لمواجهة التدخل الامبريالي. وهي مواجهة غير متكافئة في محاولة للحفاظ على بنياته ومكتسباته، وحتى هذه الإصلاحات المتبنية من طرف المخزن فهي تنطوي في حد ذاتها على دلالات واسعة ومتداخلة في الوقت نفسه، ومعالجتها تقتضي الأخذ بعين الاعتبار مستوين متعارضين:

المستوى الداخلي: (أي واقع المخزن وأجهزته)، والمستوى الخارجي (الأوربي).

وهنا نتساءل إلى أي حد استطاع المخزن ونخبه طرح مشروع إصلاحي منسجم ومتكامل ؟

المستوى الثاني، كان الأقوى والمؤثر بشكل كبير في النظرة الإصلاحية للمخزن. وهنا كان هذا الجهاز أكثر مجازفة ومخاطرة. لأن ما نتج عن تبني النهج الأوربي هو فقدانه لسيادته على دولته.

إن الإصلاحات التي تبناها المخزن المغربي في تلك الفترة كان للشمال الغربي (منطقة جبالة) نصيب كبير منها. وعلى جميع المستويات، لأنها تعتبر أقرب نقطة لأوربا الإمبريالية، بل بوابة المغرب نحوها. وإن كانت لهذه للإصلاحات نصيبها من الفشل الذي أصاب الإصلاحات في باقي مناطق المغربي خاصة القريبة من السلطة المركزية (حاضرة البلاد).

من أجل ذلك، وجدت في إثارة الإصلاحات التي شملت منطقة جبالة، فسحة تاريخية، أجدد من خلالها اللقاء مرة أخرى مع المنطقة وفترة لعبت دورا مهما في تاريخ المغرب الحديث.

المبحث الأول: مفهوم الإصلاح:

مفهوم الإصلاح مفهوم يمكن أن يكتسي عدة معان مختلفة ، فهو تغيير أو إصلاح ويمكن أن يكون تغييرا أو إصلاح ويمكن أن يكون تغييرا أو إصلاحا وثورة ومحاكاة (ابراهيم بوطالب ، 1983 ،ص: 416). هذا المفهوم "الإصلاح" ينطوي في حد ذاته على دلالات واسعة ومتداخلة في الوقت نفسه ، وقد يعني التحديث أو التجديد (خالد بن الصغير ، 1997 ، ص: 318).

تعدد المفاهيم التي إستعملها المفكرون للدلالة على الإصلاح من الضروري الوقوف عليها كي نتمكن من فهمها بشكل جيد ، ومعرفة ما إذا كان تداول هذه المفاهيم في المغرب قد تماثل مع تداولها في الشرق العربي الإسلامي.

1.الإصلاح في الفكر العربي الإسلامي: إقترن الإصلاح داخل المجتمعات الإسلامية بمحاولة الرجوع الى الأصل أي السلف الصالح بهدف إعادة الدين إلى نقائه الأصلي وتخليصه من البدع والإنحرافات التي تعرض لها على مر القرون. فالإصلاح بهذا المعنى لا ينظر إلى المستقبل بقدر ما يحاول الإقتراب من وضع مثالي يوجد فيما سبق من الأزمان ، ذلك أن المفهوم الإسلامي للإصلاح ينطلق من إقتناع أساسي وهو أن أفضل الأزمنة هو زمن الرسول وصحابته ، وبقدر ما يبتعد الناس عن هذا الزمن بقدر ما يبتعدون عن الإسلام المثالي أو المعياري. فالإسلام الأمثل والنموذج القدوة يوجد في الماضي ، ولم تخرج حركة من الحركات الإصلاحية في الإسلام عن هذه القاعدة (محمد المنصور ، 2006 ، ص: 214).

إذن فالإصلاح كمفهوم وبالشكل الذي يبرره واقع الممارسة العربية الإسلامية فكرا وسلوكا ، قديما وحديثا - هو مرتبط تحديدا بمسألة السلطة السياسية في المجتمعات العربية الإسلامية ، وبهذا المنظور فهو يراد به حسب عثمان أشقرا- نوع من إرادة الدولة والمجتمع الإسلاميين الأصليين اللذين إنقضيا إلى غير رجعة ، وبالتالي فكل إصلاح في هذا السياق هو ضرورة فكر وسلوك منقسمان بين القبول والرفض (عثمان اشقرى ، 1990 ، ص: 154).

لفظ الإصلاح عند علي مراد هو لفظ يكتنفه الغموظ واللبس (A,merad , 1978, p: 436)، وهو يعني في الأدبيات الإسلامية المعاصرة الإصلاح الأرتودكسي (Réformisme orthodoxe) كما تجلى من خلال تعاليم محمد عبده وكتابات رشيد رضا وغيرهما من المؤلفين المسلمين الذين ينعتون بالسلفيين (A,merad, 1978, p: 146) ، مما يجعل الإصلاح مرتبطا بالمصادر الإسلامية الأولى ، وبناء على ذلك لايمكن أن يدرس الإصلاح في علاقته مع التيارات الفكرية التي ظهرت في العالم الإسلامي في بداية الحقبة المعاصرة فقط ، لأن الإصلاح هو بمثابة معطى دائم في التاريخ الديني والثقافي للإسلام ، ما دام الإصلاح يمثل إستجابة لما ورد في القرآن الكريم بخصوص "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر" (A,merad , 1978, p: 147).

الإصلاح بين المشرق والمغرب إختلف في الزمان بإختلاف المذاهب السائدة ، فمما لاشك فيه أن سيادة المذهب المالكي بالمغرب الإسلامي كانت في مقدمة العوامل التي حالت دون ظهور إتجاهات مذهبية وعقائدية متنوعة كما كان الحال بالنسبة للمشرق (محمد المنصور ، 2006 ، ص: 214)، ونجد الدعوة إلى الإصلاح في إرتباطها بالإسلام عند المفكرين العرب المسلمين ومن ضمنهم خير الدين التونسي الذي إستعمل كثيرا مفهوم التنظيمات ، وأحيانا مفهوم الإستعداد ، أما مفهوم الإصلاح فلم يرد عنده إلاّ نادرا.

التحديث يعتبر شرطا أساسيا للإصلاح حسب المفهومان السابقان (التنظيمات والإستعداد) وأيضا لمواجهة التدخل الأروبي ، وهو ما يلمس من قوله "لايحصل بدونها - أي المخترعات - الإستعداد الواجب شرعا ... وبناء على ذلك ، يقال هنا ، هل يمكننا اليوم الحصول على الإستعداد المشار إليه بدون تقدم في المعارف وأسباب العمران المشاهدة عند غيرنا ، وهل يتيسر ذلك التقدم بدن إجراء تنظيمات سياسية تتناسب والتنظيمات التي نشاهدها عند غيرنا ؟" (خير الدين التونسي ، 1978 ، ص: 115) مبينا أن التنظيمات بإعتبارها إجراءات تحديثية تتوافق كليا مع الشرع (خير الدين التونسي ، 1978 ، ص: 149)، وقد ورد عن خير الدين التونسي مفهوم الإصلاح في صيغة عامة بدون أن يشير بكيفية واضحة الى التحديث كما جاء في قوله: ".... أن مقصد المسلمين من أهل الحزب المذكور إنما هو إصلاح حال الدولة والرعية" (خير الدين التونسي ، 1978 ، ص: 150-151).

أما أديب إسحاق الذي ليس بكاتب مسلم ولكنه أحد تلامذة جمال الدين الأفغاني ، فإنه كان من أكثر المفكرين العرب إستعمالا لمفهوم الإصلاح في مقالاته الصحفية ، حيث إرتبط ذلك الإستعمال عنده بالتنظيمات التي أجرتها الدولة العثمانية تحت ضغط الدول الأوربية فالسلطان العثماني "وطن النفس على إنقاد أحكام المؤتمر ، مؤتمر برلين ، وإجراء الإصلاح في بلاده" (اديب اسحاق ،1978 ، ص: 122)، وإعتبر أن تعريف الإصلاح أمر عسير من جهة ، وله طابع شمولي من جهة ثانية "الإصلاح فيما نحن بصدده مطلق لا يكاد يقف عند حد ولا ينتهي إلى تعريف... ، فهو كلي عميم بقدر كلية الخلل وعموم الحاجة ، فحيث ترى نقصا أو ضعفا أو إختلالا أو إعتلالا أو إعوجاجا أو وضعا للكمال فهناك محل إصلاح" (اديب اسحاق ، 1978 ، ص: 128).

بيد أن الإصلاح لم يكن يفيد دائما معنى التجديد أو التحديث, فقد يحيل على الماضي الإسلامي كما ورد عند محمد عبده في قوله: "لما كان الإصلاح الذي يقصد المولى -عبد العزيز- إنما يتم برعاية الدين والرجوع إليه في كتابه المبين وسنة صاحبه الأمين ، ثم النظر في أقوال وأعمال السلف الصالحين لتعرض على ذلك كله أعمال الخلق المحدثين (محمد عبده ، 1972 ، ص: 370).

لكن الإصلاح أحال عند نفس المفكر على التحديث كما يتبدى من قوله: "إن أول ما يجب أن يبدأ به ، التربية والتعليم لتكوين رجال يقومون بأعمال الحكومة النيابية ... وحمل الحكومة على العدل والإصلاح (محمد عبده ، 1972 ، ص: 316).

هذه النظرة المزدوجة للإصلاح نجدها كذلك عند رشيد رضا ، (وهو تلميذ محمد عبده)، حيث أبرز البعد التقليدي والبعد التحديثي في الخطاب الإصلاحي لأستاذه محمد عبده على النحو التالي: "ولاشك أن الحزب الذي كان يرأسه الأستاذ الإمام لا غرض له إلا إزالة البدع والأوهام التي ألحقت بالدين والجمع بينه وبين مصالح الدنيا ، ومن أركان الإصلاح الذي يرمي إليه أخذ كل ما ينفعنا ولا يعارض من ديننا من علوم أوربا ومدينتها".

وعلى طول القرن 19م وحتى بداية القرن 20م شهدت المنطقة العربة محاولات جادة للإصلاح نذكر منها على سبيل المثال: الشهابية في لبنان ، دولة محمد علي الكبير في مصر ، داوود باشا في العراق ، الوهابية في نجد ، السنوسية والمهدية في ليبيا والسودان ، قادها رجال سياسة مثل محمد علي الذي هزأ كثيرا بكتاب الأمير

لميكيافيللي (جلال أحمد أمين ،1980 ، ص: 32)، وداوود باشا ورجال فكر مثل محمد بن عبد الوهاب والأفغالي وآخرين.

وصبت جهود المفكرين والزعماء العرب في مجموعة من الظواهر كالبحث في إمكانية إقتباس المنجزات الأوربية خاصة وأن عند الفرنجة أشياء يقبلها العقل كما يقول الطهطاوي مع الوفاء للأصل المسلم ، أي المزج بين سلفية الدين وتجديد العقلانية (البرت حوراني ، 1977 ، ص: 89-485)، وتبرير هذا الإقتباس إزاء التيار الجماهيري التقليدي المحافظ (هشام شرابي ، 1978 ، ص: 35). إضافة إلى محاولة التعرف على تاريخ الفكر والحضارة الأوربية في محاولة للبحث عن إمكانية النهضة (تركي علي الربيعو ، 1978 ، ص: 76).

بناء على النمادج السالفة ، يمكن القول بأن الإصلاح في الكتابات العربية الإسلامية لم يرد بمعنى واحد ، فقد أفاد أحيانا التحديث أو العصرنة أو التجديد (محي الدين صابر ، 1980 ، ص: 54)، ووظفت مفاهيم للدلالة عليه وهي التنظيمات والإستعداد ، وإستعمل الإصلاح ليفيد الرجوع إلى المصادر الإسلامية متمثلة في الكتاب والسنة وأعمال السلف الصالح ، وفي إستعمال ثالث كانت الدعوة إلى الإصلاح تجمع بين المطالبة بالتحديث والعودة إلى التجربة الإسلامية.

ومن هنا نجد أن كل دعوة للإصلاح هي حملة على التقليد لكن بشرط فهم معناه الإسلامي "فالتقليد" هو إقتداء خاطئ ويبعد عن الإسلام- الأصل- وبالتالي فهو تحريف "الأصل" أي للإسلام (علي امليل ، 1983 ، ص: 22). من هنا نفهم لماذا كان دائما المنطلق الأساسي لكل دعوة إصلاح إسلامية هو الرد إلى "إسلام الفطرة" (علي امليل ، 1983 ،ص: 23).

2.الإصلاح في الفكر المغربي: لقد دخلت فكرة الإصلاح مجال التداول النظري في المغرب الحديث منذ مستهل القرن 19م ، فتداول هذا المفهوم بالمغرب ثم توظيفه كإستعداد لمواجهة التحديات التي واجهته خلال القرن 19م.

فالإصلاح دائما يكون حسب المنطق المعهود ، أي إرجاع الحافز إليه إلى خلل داخلي حل بالأمة وتفسير هذا الخلل بالخلاف ، أي إفتراق المسلمين فرقا متصارعة والتماس الحل في توحيد الدين والسياسة ، وطريق هذا كله العودة إلى الإسلام الأصل (محمد رزوق ، 1991 ، ص: 83).

وعرف الإصلاح نموا في كثافة الإسعمال بدءا من العقد الرابع غذاة هزيمة إيسلي (1844م)، مع العلم أن اليوسي أبو الحسن مسعود (ت 1102هـ/1690م) إنفرد بأنه كان أول داعية للإصلاح السياسي في العصر العلوي، مثلما برز كأول مفكر في هذا العصر عالج الإنحرافات الدينية والإجتماعية، ولم تكن الفكرة الإصلاحية وليدة القرن التاسع عشر للميلاد ، ولا هي إنتظرت التغلغل الأوربي إلى داخل البلاد وفي كل المستويات لتنبت بذرتها وتنمو ، فاليوسي أول داعية للإصلاح خاطب السلطات بغاية الصراحة بل بجرأة نادرة (ابراهيم حركات ، 1994 ، ص: 114-115).

يحمل مفهوم الإصلاح شحنة دينية واضحة إنطلاقا من الآية الكريمة (واعدوا لهم ما إستطعتم من قوة) (قرأن كريم ، الأنفال ، 59)، أي إتخاذ كافة التدابير الكفيلة بمقاومة التدخل الأوربي أو ما يعني عند الفقهاء الجهاد ضد أعداء الدين ، ويتضمن الإستعداد الإقتباس من منجزات المدنية الأوربية وبالأخص في المجال العسكري ، لكن البعض وسع نطاقه ليكون أكثر شمولية كما يبدو من خطاب محمد السليماني "ولا إستعداد في هذا

الزمان إلا بالإطلاع على ما عند الأمم الراقية في معارج الحضارة" (محمد السليماني ، 1971 ، ص: 6)، فيصبح الإستعداد هنا مرادفا بشكل تام لعملية التحديث المعتمدة على الإقتباس من أوربا ، ويشكل شرطا أساسيا لمواجهة التحدي الأوربي ، وقد يشمل الإستعداد ، تجنب البدع والأخلاق الفاسدة والرجوع إلى أخلاق السلف الصالح.

هناك مفهوم آخر للدلالة على عملية تجديد الهياكل والمؤسسات على النمط الأوربي ، وهو مفهوم التنظيمات الذي شاع تداوله في المناطق العربية الإسلامية الخاضعة للنفوذ العثماني كما هو الشأن عند خير الدين التونسي ، ولكن لم ينتشر إستعماله بالمغرب كثيرا. فنجد محمد المشرفي قد وظف هذا المفهوم خلال حديثه عن الإصلاحات التي إقترحتها إنجلترا على السلطان مولاي عبد العزيز الذي "وجه لنائبه بطنجة الحاج الطريس وكاتبه بناصر غنام ليستشير معهما على ما قيل في أمر إجراء التنظيمات وإقتراض المال من الأجانب لإصلاح القناطر والطرقات" (محمد المشرفي: "الحلل البهية في ملوك الدولة العلوية" ، م ،خ ، ع ، بالرباط D1463 ، ص: 438.)، وهذا الإصلاح يتعلق بالجانب التقني. وإستعمل أحمد الناصري "الإصلاح" بالمعنى التقني أيضا حينما تحدث عن بعض منجزات السلطان الحسن الأول: "ولما أحل السلطان أعزه الله بالدار البيضاء طاف في أبراجها... ثم إجتاز بعد الفراغ على باب المرسى ومحل وضع السلعة للتجار بها فوقع عليه وتأمله... ووعد بإصلاح المدن على شاطئ البحر" (احمد بن خالد الناصري ، 2006 ، ص: 150-151).

الناصري كان له إهتمام بالإصلاحات التقنية ، فقد عاصر أغلب دعاة الإصلاح في الشرق ، ويبدو أن أصداء الأفكار الإصلاحية كانت تصله عبر الصحافة إذ كان له إهتمام بتتبع ما تنشره في مجال العلوم والمخترعات ، كما كان يتتبع ما تنشره الصحف الفرنسية والإسبانية عن طريق الترجمة (احمد بن خالد الناصري ، 2006 ، ج1 ، ص: 13).

ونجد نفس الأمر عند محمد السليماني حينما تحدث عن المقترحات الأوربية بشأن إدخال الإصلاحات إلى المغرب ، "ولما إستحكمت الفوضى ، وأشرفت الأمور على الإنحلال ، وجدت الدول ذات المصالح بالمغرب السبيل لطلب الإصلاح بشدة الإلحاح ، وإقترحت على حكومة المغرب ، بث النظام ونهب ميزان العدل وفتح الطرقات بين العواصم لتسهيل المواصلات" (محمد السليماني ، ص: 354). مصطلح الإصلاح عند السليماني ورد كذلك في قوله "إهرعوا للدفاع عن وطنكم ، إن الوطن بالفضائل يحيى وبالرذائل يفنى ... فحيا على الإتحاد حيا على الإصلاح حيا على الفلاح" (محمد السليماني ، ص: 06)، منتقدا بذلك الرافضين لهذا الإصلاح ، "إن أكثر أبناء زماني مهما سمع مقالات إقتصادية أو شذور إصلاحية أو مباحث إجتماعية مجها ذوقه وزاد حنقه وتصاعدت زفراته" (محمد السليماني ، ص: 157).

مهما يكن من غياب التوضيح لدا هؤلاء لمفهوم الإصلاح إلا أنهم تداولوه في كتاباتهم منفتحين وراغبين في إصلاح بلادهم وأحوالها.

إن السؤال الذي يفرض نفسه على الباحث وهو يفكر في منطق الدعوة الإصلاحية في المغرب ويحلل مضمونها هو: هل كان الإصلاح دعوة إلى نموذج معياري إلى "أصول" لم تفسدها البدع. أم كان إندماجا مكيفا (تكيفا إسلاميا) في نظام الحداثة ذي المصدر الأوربي ؟

في إجابته عن هذا السؤال يقول عبد الإله بلقزيز أن المثقف المغربي ذهب في وعيه إلى الإستمرارية التاريخية للإسلام مصدرا وحيدا لتغذية منظومته وحاجاته وبالتالي الخوض في تجربة الإصلاح (عبد الابه بلقزيز ، 2001 ، ص:167).

وبمعنى آخر الإحتفاظ بالأصل (الذي هو الإسلام)، وفي نفس الوقت الإنفتاح على أوربا (الحداثة) فالإسلام يمده بفكرة الإصلاح ، لكن أوربا تقدم له أدوات الإصلاح ونموذجه.

وهناك من دعى إلى الإصلاح بالإعتماد على الشرق مثل بنسعيد الذي دعي إلى إصلاح أحوال المغرب معتمدا في ذلك النموذج التونسي متحدثا عما وصلت إليه تونس في كافة المستويات نتيجة إهتمام رئيسها بشعبه ودولته ، "نعم فإن تنظيم ذلك وظهور وجود النفع به متوقف على همة سيدنا ونصب أناس موصوفين بالعدالة والصدق والمعرفة والنصح..." (مصطفى بوشعرا ، 1991 ، ص: 10).

"الإصلاح الإسلامي الحديث" عند أومليل ينطلق من وعي بخلل ، ولكنه مزدوج فهو يعتقد أن ضعف المسلمين يرجع إلى الفارق الفاصل بين مجتمعاتهم وبين الإسلام ولكنه يراه أيضا في إنقلاب العلاقة بيهنم وبين أوربا من التفرق إلى الإنحطاط (علي اومليل ، 1986 ، ص:28).

فمعظم البلدان الإسلامية ومن ضمنها المغرب شهدت دعوات وحركات إصلاحية في سياق الإحتكاكات الأولى التي وقعت بين هذه البلدان وبين أوربا في السابق (ق19م) ويتميز المغرب ومن قبله الشرق ، بتجربة إصلاحية تمثلت في إرسال بعثات تعليمية على دفعات إلى مختلف دول أوربا لإكتساب خبرات متنوعة بهدف تزويد البلاد بأطر إدارية وتقنية قادرة على تولي مهام الإشراف على الأجهزة الإداربية والعسكرية التي لم تعد قادرة على مسايرة الأوضاع المستجدة (جمال حيمر ، 1996 ، ص: 159).

يلاحظ أن الخطاب الإصلاحي المغربي كان يتنازعه الإنفتاح والإنغلاق على أوربا ، فدعاة الإصلاح لم يبدوا ممانعة في الإقتباس من أوربا للقيام بالإجراءات التحديثية ولكنهم في ذات الوقت أبدوا خوفهم من النتائج السلبية التي يمكن أن تترتب عن الإنفتاح على الغرب والإقتباس منه ، مما جعلهم في أحايين كثيرة يظهرون نفورهم من المدنية الأوربية ، والواقع أن هذا التنازع يشكل إحدى الثوابت الأساسية في الخطاب الإصلاحي العربي الإسلامي بوجه عام.

المبحث الأول: القطاع التعليمي:

1.التعليم المغربي التقليدي/ الإسلامي: أكد كل دعاة الإصلاح (الكواكبي عبد الرحمان ، 1970 ، ص: 173-275 ، محمدعبدو ، ص: 316-317. رشيد رضا ، ص: 115 ناجي نجيب ، ص: 58) على أهمية التعليم كشرط أساسي لتحقيق النهوض من الكبوة.

يصف عبد الإله بلقزيز ، واقع التعليم الابتدائي في النظام التقليدي في معرض كلامه عن محاولات إصلاح التعليم ببلادنا كنواة للحداثة ، فيقول "قبل أن تبدأ المؤسسات الأولى للنظام المدرسي العصري في الخروج إلى الوجود ، كان النظام التعليمي والتربوي التقليدي في المغرب ما يزال مغلقا على نموذجه الموروث ، معيدا إنتاجه في الحواضر وفي البوادي: يبدأ الطفل تعليمه في سن الخامسة بالالتحاق بـ "المسيد" متتلمذا على "الطالب" أو إمام المسجد ، وكان جل ما يحصله في فترة التكوين الأولي هذه حفظ القرآن وترتيله ، وتعلم رسم الحروف (الكتابة) ثم يتدرج بعد ذلك في التعليم لتلقي علوم اللغة والنحو والفقه ، فيحفظ "الأجرومية"

و"ألفية ابن مالك" ، و"مختصر" خليل ، ويمكن بعد ذلك للمتعلم ، بحسب الظروف ، أن يظل في "الزاوية" أو ينتقل إلى جامع المدينة الكبير ، وقد يذهب إلى القرويين وقد ظل هذا النظام الشكل الوحيد لإنتاج وإعادة إنتاج النخب في المغرب" (عبد الاله بلقزيز ، 2001 ، ص: 125-126).

شيوخ الزوايا كانوا يركزون على السيطرة على النفس الأمارة بالسوء وتهذيبها. واعتبروا إصلاح القلب هو العمود الفقري لنجاح أي إصلاح يستهدف التغيير الجدري للمجتمع ، واشتهرت بعض الزوايا في جبالة مثل الريسونية والحراقية باستعمال الموسيقى كوسيلة أساسية في التلقين ، وفي أداء شعائرها.

أما الجوامع ، فكانت الأداة الأساسية لحفظ القرآن الكريم وتعلم العلوم المعروفة في أواخر القرن التاسع عشر وبداية العشرين ، الشرعية منها وغير الشرعية. وكانت بالجوامع العظمى للمدن رواة الحديث لكل يوم ، وآخرين مختصين بيوم الجمعة (الخزانة الحسنية. ك627 ، ص: 3).

وكانت الجوامع والزوايا الكبرى تتوفر على خزانات زاخرة بكتب كانت تحبس عليها من طرف المحسنين. ومن ذلك ما قام به السلطان مولاي عبد العزيز عندما بعث بنسختين من شرح الشيخ مرتضى على الأحياء ، واحدة للجامع الأعظم والأخرى لصالح الزاوية الريسونية. (رسالة ناظر الزاوية الريسونية ، مح تطوان رقم8 ، م.و.م)

ما يميز مؤسسات التعليم المغربي خلال القرن 19م هو الطابع الشعبي والاجتماعي ، سواء في المرحلة الأولى أو المتوسطة أو العليا ، رغم ما شهده المغرب من مظاهر يقظة وانبعاث تجلى في العديد من المظاهر مثل إحداث دروس الرياضيات والفلك وإحداث بعض المدارس... وغيرها من إرسال بعثات طلابية إلى الشرق وأوربا ، وإدخال المطبعة وتطوير فنون الطبع بالمغرب. (محمد الدريج ، 1987 ،ص: 94)

ترمي تدخلات المخزن في قضايا التعليم إلى تركه خاضعا لتأطير يتكيف قبل كل شئ مع السياسة الدينية للدولة ، وأبرز مراحل هذه التدخلات تبدأ من عهد السلطان محمد الثالث. لكن لماذا إصلاح التعليم؟ وما الهدف منه ؟.

يجيبنا الفقيه الحجوي أنه "... لا سبيل لأن نصير أمة معدودة من الأمم الحية إلا بتعميم القراءة والكتابة بين الحواضر والبوادي ، وتعميم التعليم الابتدائي حتى يصير جل أفرادها رجالا ونساء يقرؤون ويكتبون باللسان العربي الفصيح ، بحيث يعرفون مطالعة الكتب البسيطة السهلة يستفيدون منها دينهم ودنياهم ، ومطالعة الجرائد ، وأخبار ما يقع في العالم ، ليستوي الناس في إدراك ما لهم وما عليهم ، ويتساوى السوقي والعالم ، والوزير والصانع في معرفة ما هو الضار للهيأة الاجتماعية وما هو نافع لها... ويفهموا ما يلقى إليهم من الخطاب ، ما هي عليه حياة غيرهم من الأمم ليجاروها في معترك الحياة" (الحجوي محمد ، 2/2001 ، ص: 165-166).

إن انتباه النخبة المغربية في القرن التاسع عشر إلى وجوب إحداث الإصلاح في النظام التعليمي ، هو جملة ما تم الانتباه إليه بمناسبة الصدام التاريخي الذي حصل بين المغرب وأوربا في إسلي وتطوان. فما هي الخطوات الإصلاحية التي أقدم عليها المخزن في المجال التعليمي بالمنطقة الشمالية خلال النصف II من القرن 19م ومطلع ق 20م ؟.

من خطوات المولى الحسن الإصلاحية للتعليم قيامه بتأسيس المدرسة الحسنية بطنجة "وكانت تدرس بها المواد التالية: الحساب والهندسة والتنجيم والجغرافية واللغة العربية والمبادئ الأولى ولغة أجنبية ، وعلى حد

تعبير محمد المنوني فالغالب أن هذه الدراسة كانت تكميلية ، حيث يقع إعداد طلبة مدرسة المهندسين الذين سيدهبون لإكمال دراستهم بأوربا" (عثمان اشقرا ، 2004 ، ص:184).

وفي مدينة العرائش كانت هناك مدرسة خاصة بتدريس علم التنجيم ، الأمر الذي تؤكده الرسالة التي كان قد وجهها الوزير الأول للسلطان مولاي الحسن الأول إلى أحد الأساتذة الذين يدرسون علم الحساب والتوقيت السيد بوسلهام البخاري ، هذه المدرسة تخرج منها عدد كبير من طلبة العرائش في هذا الفن من التعليم.

ونظرا للمكانة العلمية والثقافية التي كانت تحظى بها العرائش لدى السلطان مولاي الحسن ، فإنه عندما عزم على إيفاد بعثة طلابية لدراسة مختلف العلوم بأوربا ، فقد اختار من العرائش اثنين شملتها البعثة أحدهما هو السيد مصطفى الوديي (المفضل التدلاوي ، 2001 ، ص: 50-134)، وذلك لتعلم اللغات ومختلف الفنون والصنائع. لكن كل تلك المحاولات ظلت محدودة.

كان النظام التعليمي في مغرب القرن 19م امتداد للأنظمة التعليمية التي كانت سائدة منذ القديم. ولاشك أن الحالة المتأزمة التي عانت منها البلاد على جميع المستويات في هذه الفترة قد أرخت بظلالها على الجانب التعليمي ، الذي لم يعد متماشيا مع تطورات العصر وحاجياته ، وقد ظهرت على الساحة التعليمية أنظمة جديدة مثلتها مدارس رابطة الإتحاد الإسرائيلي ومدارس التعليم الفرنسي – العربي ، التي وإن كان وجها من أوجه التدخل الأجنبي ، فقد سجلت طفرة نوعية لم يعرفها النظام التعليمي المحلي القائم.

فما هي خصائص كل نوع من هذه الأنواع التعليمية في منطقة جبالة ؟

ساد المغرب في عهد ما قبل الحماية ، نظام تعليمي إسلامي ، ظل على سيرته الهيكلية التي استمدها من العصور الإسلامية ، سواء من حيث الإطار التنظيمي أو الهيأة التعليمية ، دون تجاهل المحاولات الرسمية التي حاولت تطويره وتحديثه ، خاصة في الفترة المدروسة ، ما يثير التساؤل حول مدى النجاح الذي حققته تلك المحاولات ؟ وما هي أهم التغيرات التي طالت النظام التعليمي خلال النصف الثاني من القرن19م ومطلع القرن 20م ؟

2.التعليم الأجنبي بجبالة.

أ.**التعليم الفرنسي:** جاء إنشاء مدارس التعليم الفرنسي (العربي الرحموني عجولو ، 2001-2002 ، ص:434 ، كدلك: René. Leclerc 1908 .(ch)) بالمغرب ، امتدادا لمثيلاتها في كل من الجزائر وتونس (كمال حسن ، 2002 ، ص: 334-342) في إطار الحملات التبشيرية (Miége (J.L) , 1955, p : 153-192) التي استغلتها فرنسا لتحقيق الغزو الثقافي ، موازاة مع الأنواع الأخرى من الغزو. وقد أشار بعض المؤرخين (, miége (J.L) 1988 , p : 242) إلى الأهمية التي أولتها فرنسا لإنشاء تلك المدارس ، إذ كانت تعتبر نجاحها أو فشلها مؤشرا هاما على نجاح الغزو الثقافي المتوخى تحقيقه.

وفي هذا الإطار مهدت البعثات العلمية المتثالية على البلاد منذ منتصف القرن التاسع عشر ، لهذا المشروع الاستعماري الذي تم تتويجه بتأسيس أول مدرسة بطنجة سنة 1898م تكلفت العصبة الفرنسية في المدينة بمصاريفها ، ليتوالى بعد ذلك إنشاء المدارس في بعض المدن على الشكل التالي:

طنجة: سنة 1898م.

القصر الكبير: سنة 1899م.

أصيلا: سنة 1901م وأغلقت قبل 1907م.

تطوان: سنة 1904م واستمرت حتى سنة 1912م.

العرائش: سنة 1904م ، أغلقت سنة 1907م (Michaux - bellaire,1909, p : 1239) .

المدارس الفرنسية - العربية لم تعرف بالمنطقة ما قبل الحماية ، عكس نظيراتها مدارس الاتحاد الإسرائيلي ، وكما اتضح من السنوات فإن بعضها أغلق قبل 1912م. ولعل ذلك راجع إلى طبيعة المجتمع المغربي الرافض لكل أنواع الوجود الأجنبي في البلاد (كمال حسن ، 2002 ، ص: 343).

ب.تعليم الرابطة الإسرائيلية (التعليم اليهودي). موازاة مع التعليم الإسلامي الذي كان موجها لفائدة الغالبية المسلمة ، كان هناك التعليم اليهودي الخاص بالطائفة اليهودية في المغرب. وشأن نظيره الإسلامي ، ظل هذا النوع بدوره تقليديا دينيا يتم تلقيه في مؤسسات تقليدية أيضا : (Michaux - bellaire,1909, p : 1239) لقرون عديدة ومع بداية النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، حيث تسربت الحركة الصهيونية إلى البلاد في إطار ما عرف بالإتحاد العالمي للرابطة الإسرائيلية. والداعي إلى تحرير اليهود "وإنقاذهم" مما هم فيه من "تهميش واضطهاد" (حول ذلك ينظر:(Mohammed kenbib, 1994, p : 123- 172) ، وهكذا شرع الإتحاد سنة 1862م بتأسيس أول مدرسة لتعليم الأطفال اليهود بتطوان ، لتنتشر بعد ذلك هذه المدارس في مجموعة من المدن المغربية خاصة الساحلية. وتكون بذلك بديلا قويا للتعليم اليهودي التقليدي الذي ذاب في هذه المواجة ، إذ أصبح باهت الوجود رغم إستمراريته أمام قوة مدارس الرابطة التي كانت وجها من أوجه العملة الاستعمارية ، وشكلا من أشكال التدخل الأجنبي في البلاد. ومن أهم المدارس التي أسستها الرابطة الإسرائيلية بالمغرب ما بين 1862م و1911م في منطقة جبالة نجد:

تطوان سنة 1862م.

طنجة سنة 1864م.

القصر الكبير سنة 1873م.

العرائش سنة1901م (أحمد شحلان ، 1983 ، ص: 210).

ما يلفت الانتباه هنا تزايد عدد مدارس الرابطة الإسرائيلية بشكل مهم ، فمن مدرسة واحدة سنة 1862م ، بطنجة إلى عدة مدارس في باقي مدن الشمال المغربي للمغرب. الأمر الذي يطرح علامة استفهام كبرى حول سبب هذه الطفرة.

لاشك أن الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية قد شكلت السبب الرئيسي في تزايد عدد المدارس اليهودية بالمغرب ، ذلك أن الحمايات قد بلغت ذروتها ، إذ اعتبرت أخطر سلاح استخدمته القوى الأجنبية للتدخل في البلاد ، مكنتها منه على الخصوص العناصر اليهودية التي كانت سباقة للاحتماء بالأجانب ، فكانت بذلك مدارس الرابطة وانتشارها بهذه الوثيرة خلال هذه الفترة وجها واضحا من أوجه التدخل الاستعماري الذي بلغ ذروته في هذه الأثناء.

وكانت هذه المدارس تدرس فيها عدة لغات (فرنسية ، إنجليزية ، إسبانية ، إيطالية)، وعدة علوم (كالحساب والهندسة ، الفيزياء ، التاريخ ، الجغرافيا ...) (أحمد شحلان ، 1983 ، ص: 211).

كما كان لتعليم بنات الطائفة اليهودية حظا أوفر من نظيراتهن المسلمات، إذ عرف التعليم اليهودي قفزة نوعية حققتها مدارس الرابطة الإسرائيلية، التي حرصت على تأسيس مؤسسات خاصة بهن، مقابل مدارس الذكور، وهكذا على سبيل المثال لا الحصر، أنشئ في طنجة مدرسة للبنات سنة 1874م، بلغ عدد تلميذاتها 335 تلميذة سنة 1907م.

اليهود كانوا واعين بالظرفية التاريخية التي كانوا يعيشونها، والتي كان يمر منها المغرب عموما والشمال خصوصا، واستوعبوا أهمية التعليم وأحسوا بضرورة تطويره ومسايرة الدول الأوربية التي قطعت أشواطا كبرى في التقدم العلمي، الأمر الذي يدفعنا إلى التساؤل حول مدى وعي المخزن نفسه بهذه الظرفية، ومدى استيعابه لحاجة التعليم لإصلاح شامل من شأنه إخراج البلاد من أزمته. ولعبت منطقة الشمال الغربي دورا مهما في تكوين البعثات الطلابية خاصة طنجة بوابة المغرب على الدول الأوربية حيث كان طلاب هذه البعثات يمكثون بطنجة للدراسة حتى يتمكنون من اللغات الأجنبية كما هو الشأن مثلا للدفعة الطلابية التي كانت تستعد للسفر لإيطاليا بعدما تتمكن من اللغة الإيطالية بمدرسة الألسن في طنجة رغم ما واجهته هذه البعثة من صعوبات (رسالة أبا حماد إلى الطريس، مؤرخة في 7 صفر 1315هـ /8 يوليوز 1897م، وخ، ت، مح: 15/24).

إن القارئ للمؤسسة التعليمية خلال القرن التاسع عشر، يخرج بنتيجة واحدة، تدور حول جمود هذه المؤسسة واجترارها لبرنامج وأنظمة تعود للقرون الوسطى. الأمر الذي أحدث أزمة عامة في المجال التعليمي، شأنه في ذلك شأن بقية المجالات.

لقد ربط المخزن الحالة المتردية التي أصبحت عليها المدارس والمجالس العلمية بالوضعية العامة التي تعيشها البلاد، لذلك كان من اللازم لإصلاح هذا الوضع القضاء على أنواع الفساد و"المناكر في المدن والأمصار وزج المنهمكين فيها بالليل والنهار وحض حملة العلم الشريف على أداء أمانته والقيام بما فرضه الله" (رسالة مؤرخة في 2 جمادى الثانية 1313هـ /20 نونبر 1895م، و، خ، ح، مح: 183، ر: 1313).

المخزن حاول جهد إمكانه، حسب استطاعته اتخاذ بعض التدابير التي لا يمكن تجاهلها، التي إن عبرت عن شيء إنما تعبر عن النوايا الحسنة في إحداث تغيير جدري في المنظومة التعليمية. خاصة مع ارتفاع الأصوات المنادية بإصلاح المجال التعليمي، الذي ظل جامدا قرونا عديدة، يعيش على ميراث السنين من تمثيل للماضي في القالب والفحوى.

عموما يمكن القول إن جهود المخزن في مجال التعليم الإسلامي التقليدي، لم تكن ترقى إلى مستوى التحديات المفروضة على البلاد، والتي من شأنها الإنقاذ والخروج من الأزمة التي طوقت كل الميادين وعجلت بفرض الحماية عليه.

3.المطبعة ودورها التحديثي: أحدث ظهور المطبعة في العالم ثورة ثقافية وفكرية هامة، نقلت المجال العلمي من الخصوصية النخبوية إلى التعميم الجماعي، حيث أصبح الكتاب في متناول عامة الناس، وإذا كانت أوربا صاحبة السبق في هذا التفوق الثقافي، فإن المغرب ظل متأخرا عنه ومقتصرا على أساليبه القديمة التي باتت لا تساير مجريات العصر، غير أن هذا القصور لفت انتباه بعض رجال المخزن خلال القرن التاسع عشر.

أدخلت المطبعة إلى المغرب خلال القرن 19م على يد الإسبان بكل من سبته وتطوان منذ سنة 1820م. لكن هذه الطباعة ظل تأثيرها محدودا ، ولم يحدث اتصال مباشر للمغاربة معها إلا بداية القرن العشرين. لكن كانت محاولات لتحديث هذا المجال. فالمولى محمد بن عبد الرحمان أرسل في طلب اقتناء مطبعة تيبوغرافية من الخديوي إسماعيل حاكم مصر (المجلة المغربية ، 1936، ع4). مع إرسال طالب لتعلم فنون الطباعة الحديثة ، وذلك سنة 1283هـ/ 1865م (انظر مديرية الوثائق الملكية ، مسجلة تحت رقم: 25700). وهذا دليل على رغبة السلطان في التجديد والانتقال بسرعة من الطبع الليتوغرافي إلى التيبوغرافي من جهة أخرى ، لكن الحلم لم يتحقق ومرد ذلك على الأرجح إلى الظروف الاقتصادية المتأزمة التي كان يعيشها المغرب حينئذ ، التي لم تسمح له بتحقيق تلك الرغبة.

وتجدر الإشارة إلى أن مطابع الحروف المصففة المستحدثة آنذاك دخلت إلى المغرب ، بواسطة أفراد جلبوها إما من الشرق أو من أوربا ، واستعملوها لأغراض مختلفة من صحافية كما هو الحال بالشمال ، أو لأهداف دينية (طنجة مثلا). ساهمت الطباعة بالشمال بدور كبير ومهم في تاريخ المغرب. فمن أين انطلقت أعمال الطباعة بشمال المغرب ؟

حسب لاهوس lahoz فإن أول مطبوع ظهر بشمال المغرب يعود لشهر ماي سنة 1820م (, La hoz vincente ferrandi , 1949, p : 1-2). وفي سنة 1860م ، أنشئت مطابع إسبانية بمدينة تطوان ، فصدرت عنها جريدة "صدى تطوان Eligo de tetuon" وكانت تصدر مرتين في الأسبوع ، وتطبع في مطبعة الحملة العسكرية التي حملت أثناء الحرب من سبتة إلى تطوان ، ووضعت في منزل مقابل لمنزل الباشا وبالضبط في ساحة الفدان ، وأصبحت في ملك حاكم تطوان الإسباني المهندس العسكري د. فاكوندو فالديس .D "Facundo valdés 1-2 : p ,1949 ,ferrandi- vincente , La hoz).

أما بطنجة فقد ظهرت المطابع الإسبانية بها منذ سنة 1870م. بإصدار جريدة أسبوعية تحت إشراف الإتحاد الإسرائيلي الذي زودها بالمطبعة ، وهي أول محاولة للطباعة في طنجة ، بعد فشل محاولة ناشر من وهران عام 1868م ، الذي سعى إلى تأسيس مكتبة ومطبعة بطنجة تصدر صحيفة أسبوعية بثلاث لغات ، تحلل أحداث العالم وحركة الموانى المغربية ، وربما كان فشل المشروع لعدم اهتمام الرأي العالمي حينئذ بقضية المغرب قبل مؤتمر مدريد المنعقد سنة 1880م ، الذي دول قضية المغرب وأثار انتباه العالم إلى الوجود المغربي (عبد العزيز بن عبد الله ، ج2 ، ص: 66).

كانت معظم المطابع بطنجة في ملك إسرائيليين (عبد العزيز بن عبد الله ، ج2 ، ص: 66).

كما أنشئت في طنجة مطبعة " المغرب الأقصى" سنة 1883م ، وكانت تصدر جريدة أسبوعية بنفس الاسم. وبنفس المدينة أنشئت المطبعة التجارية المغربية التي أسسها يهودي إنجليزي سنة 1883م ، صدرت عنها جريدة أسبوعية تسمى "انبعاث المغرب" (زين العابدين الكتاني ، د.ت ، ص: 140).

وتشير المعلومات إلى أن مدينة العرائش عرفت وجود مطبعة أيبيريا Iberia التي أسسها القبطان البحري "السير كنطوس S. cantos " وقد شرعت في العمل سنة 1914م بطبعها مراسلات إفريقيا" La hoz vincente) .(ferrandi , 1949, p 19.

مطلع القرن العشرين عرفت ، انطلاق العديد من المطابع بالشمال نذكر منها:

-مطبعة المغرب الأقصى بطنجة (1913-1911م). التي صدرت عنها "الجريدة المغربية الألمانية " بالألمانية ، و"صدى مصارعة الثيران " بالإسبانية.

-مطبعة أريبالو Arevalo بطنجة (1913-1906م) من بين مطبوعاتها "الميثاق العام لعقد الجزيرة الخضراء" الصادر سنة 1907م.

-مطبعة المنشورات الدولية ، طنجة (1948-1883م).

-مطبعة ابن حيون بطنجة ، أنشأ شملة بن حيون مطبعة سنة 1891م ، وأصدر بها عدة صحف بالعبرية والاسبانية.

4.تجديد الفكر الصوفي: الفكر الصوفي بدوره تعرض خلال القرن 19م إلى محاولة إصلاح قادها مجموعة من المفكرين الدينيين ، وأحد هؤلاء الشيخ الحراق بمدينة تطوان ، الذي تصدى لتلقين الأوراد وتربية المريدين وهداية المسترشدين ، معتمدا على العلم الصحيح الذي هو الكتاب والسنة مع تدريس التفسير بعلمه الغزير.

الشيخ الحراق تزعم خطا إصلاحيا ، باعتباره التصوف "أخلاق" قبل كل شئ وطوية حسنة يقوم عليها كل شئ ، ومن تم فلا مبرر للتجرد ولا خوف من "التسبب" والاشتغال بالدنيا وزينتها ما دام الإنسان محافظا على "إنسانيته" مراعيا الله في أعماله ، يقول: "دخلت (إلى التصوف) من باب الفضل فلا أدل إلا عليه... فكان أصحابه دون باقي المنتمين للطريقة الدرقاوية (من أتباع ابن عجيبة) يلبسون ويتأنقون في ملبسهم وخصوصا ، يوم الجمعة ، حتى أن بعض من يتعاطون الحرف الشاقة من أصحابه كالبنائين والنجارين كانوا يتخدون ملابس خاصة ليوم الجمعة ، بيضاء نقية. أما العمل فقد كانوا لا يقومون به في هذا اليوم (الجمعة) لأنه مملوء بالعبادة..." (التهامي الوزاني ، د.ت ، ص: 163-164).

الحراق قاد تغييرا يخالف كل ما له ارتباط بالتقشف ، الشيء الذي سمح له بالتوسع داخل كل الطبقات ، حتى أصبح ينحاز إليه "خلق كثير لا يعد كثرة" (محمد بن العربي الرباطي ، م.خ.ع.ر ، رقم 2602 ، ص: 11).

أصبح شيخ الزاوية "الدرقاوية" يحضى بأهمية كبرى لدى المخزن المغربي بفضل فكره الصوفي المنتشر على نطاق واسع ، وبفضل تنوع أنشطة الزاوية. ولم يكن ليصل إلى ذلك النجاح لولا أنه كان يتمتع بالذكاء وبعد النظر السياسي والاستفادة من بعض الظروف التي تفرض نفسها من أجل تمهيد السبيل لتحقيق المبادئ.

ما ذكر عن الشيخ الحراق ومحاولته لإصلاح الفكر الصوفي ، جعله ينزل تصوفه إلى مستوى ، يقربه من الطبقات الشعبية كإدخاله الطرب أو السماع في اجتماعات الأتباع (التهامي الوزاني ، د.ت ، 188-189).

المبحث الثاني: المستوى الصحي:

تدخلات المجلس الصحي: يمكننا القول أن معظم المحاولات الإصلاحية التي شملت المجال الصحي كانت آتية من الخارج أو بالأحرى من الدول الأوربية والهيئة الدبلوماسية بطنجة هي التي قامت بها من خلال مجلسها الصحي.

هذا المجلس (دار النيابة ، ع 10 ، ص: 45) الذي تأسس من طرف الهيئة الدبلوماسية المعتمدة بطنجة منذ 1840م ، يتكون أعضاؤه من السفراء الأجانب أنفسهم. وظيفته تنحصر في اتخاذ الإجراءات الوقائية ضد السفن القادمة إلى المغرب من الجهات الموبوءة ، غير أنه تمكن تدريجيا من توسيع نطاق هذه الاختصاصات من غير

توقف على إذن أو تفويض ، لتشمل أيضا الجانب الصحي الداخلي. وكانت طنجة ، مقره الدائم (محمد الامين البزاز ، 2000 ، ص: 121).

لكن هل يمكننا أن نعتبر أعمال المجلس الصحي إصلاحات أم ماذا ؟

بطبيعة الحال هي إصلاح بالنسبة للهيأة الدبلوماسية ، وتدخلا في الشؤون الداخلية بالنسبة للمخزن.

بين هذين الاعتبارين سنغوص في ثنايا هذا المجال للبحث عن محاولة إصلاح الجانب الصحي وهل تم إصلاحه أم لا ؟

الضغوطات التي كانت تمارسها الدول الأوربية ، كانت تجبر المخزن على الرضوخ لمطالبه تارة والمماطلة تارة أخرى.

المحاولات الأولى لإقامة محجر صحي ظهرت منذ أبريل 1799م ، ووقع الاختيار على كثير من الأبراج قرب تطوان وطنجة وسبتة لإنشاء هذه المحاجر ، قبل أن يتم الاتفاق على الصويرة في أواسط القرن التاسع عشر التي اتخذت كمركز دائم للحجر الصحي للحجاج (عبد الغفار بن دريس ، 1992 ، ص:60).

الهيئة الدبلوماسية استغلت ظروف المغرب القاسية التي عاشها خلال النصف الثاني من القرن 19م لإسماع صوتها. فها هو السفير الإسباني ديوسدادو DIOSDADO سنة 1868م عندما أصيب المغرب بالكوليرا ، يقوم بإملاء مجموعة من التدابير الصحية ، ونصت على:

-إقامة حرس أمام أبواب طنجة لمنع القادمين من المناطق الموبوءة من الدخول إليها.

-توجيه جنود إلى أحواز المدينة لإقامة نطاق صحي ضد السكان.

-تأطير سعاة بريد السفارات والرعايا الأجانب حتى أبواب طنجة (محمد الأمين البزاز ، 1984 ، ص: 24).

-غير أن هذه المطالب اصطدمت برفض كل من السفير الفرنسي والبلجيكي لها: "إنها سلسلة من المضايقات بالنسبة للأهالي ولمواطنينا على السواء ، ولن تعمل على تحقيق وقاية من الوباء ولا على إنقاذ علاقاتنا مع جبل طارق ، في حين أنها يمكن أن تتسبب في نزاعات مؤسفة مع المغاربة" (محمد الأمين البزاز ، 1984 ، ص: 24).

على إثر هذه الكارثة كان التدخل الإسباني خطرا بعد إقدامه على خطوة جريئة بإجباره المخزن أداء أجرة طبيبا إسبانيا بعثته دولته ، حيث جاء في رسالة من محمد بركاش إلى الحاجب موسى بن أحمد "إن جماعة نواب الأجناس ، المكلفين من قبل سيدنا أعزه الله بالسنيدة اجتمعوا لما سمعوا أن بفاس ومكناسة مرضا ، واتفق رأيهم على أن يوجهوا طبيبا لذلك المحل ليختبر ذلك المرض ما هو ، وجعلوا له على ذلك أجرة قدرها 200 ريال ، وطلبوا من حضرة سيدنا أعزه الله أن يدفعها جانب المخزن ويأمر سيدي أعزه الله بتنفيذها ، وقد تعين علينا مساعدتهم في ذلك لكونهم ألحوا علينا في ذلك غاية مشافهة ، وقد دفعنا لهم فنطلب من مولانا أعزه الله يأمر بتنفيذها" (رسالة محمد بركاش ، 26 شعبان 1295هـ/24 غشت 1878م ، مديرية الوثائق الملكية بالرباط.).

بل الأكثر من ذلك أصبح المجلس يتحكم في زمام الأمور ، وفوق ذلك ، أعتقد أن تدخله لا ينبغي أن يقتصر على مجرد توجيه طبيب ، فقد اعتبر نفسه مفوضا من قبل المخزن في كل ما يتعلق بالصحة العمومية بالمغرب. ورأى أن هذه الخاصية تحتم عليه بذل جميع الجهود لمنع تسرب الوباء إلى البلاد ، لذلك قام بتوجيه

رسالة إلى النائب السلطاني محمد بركاش لموافاته بإحصائيات أسبوعية عن الوباء في كل مدينة وقرية (مجلة الوثائق ، ع 3، ص: 492.).

المخزن تصدى لهذه الخروقات ، بعد استجابة محمد بركاش لهذا الطلب ، ووجه رسالة في الموضوع إلى عامل فاس ، عبد الله بن أحمد البخاري ، إلا أن هذا الأخير أجاب سلبا ، وحضي موقفه باستحسان المخزن الذي كتب يقول "لا يلزمنا شرعا ولا طبعا ولا قانونا أن نخبرهم بما عندنا في ذلك ، ونتكلف للرقاقيص (سعادة البريد) وأجرتهم".

المجلس الصحي كان يتدخل في الشؤون الداخلية للمغرب بشكل واضح ، كما يتبين من الرسالة السابقة ، لدرجة أنه كان يرمي إلى فرض تدابير صارمة مثل:

- شل جميع المواصلات بين المناطق الداخلية والموانئ بواسطة انتداب حرس خاص في أبواب المدن الساحلية.

- منع المغاربة من التوجه إلى الحج (أنظر رحلة الفيغائي ، لمحمد بن عبد الله الفيغائي ، م. خ. ع ، ر ، رقم ج 98، ص: 339. كذلك: عبد العزيز خلوق التمسماني ، 1998) في السنة الجارية ، مع السماح لمن رغب منهم التوجه عبر الطريق القاري... وغيرها.

إذا نظرنا إلى كل ذلك وتطلع المجلس الصحي إلى تطبيق هذه الإجراءات ، أدركنا عمق هذا التدخل وخطورته ، ومدى السخط والاستنكار الذي سيحدثه لدى الساكنة والرأي العام المغربي.

فهل هذا إصلاح ، أم ماذا ؟.

لا ننسى أن هذا المجلس في شتنبر 1865م قرر طرد الحجاج القادمين من مكة عبر طريق ميناء طنجة ، وعدم السماح لهم بالنزول بدعوى أن دخولهم إلى المدينة قد يترتب عنه انتشار وباء حملوه معهم ، مما اضطر الحجاج إلى التوجه نحو جبل طارق (مصطفى الشابي ، 1995 ، ص:88).

يمكننا اعتبار ذلك نوع من الإصلاح الذي يرمي إلى حماية الساكنة من الوباء وانتشاره وتوفير سبل مواجهته باتخاذ مجموعة من التدابير ، إلا أن المخزن اعتبره تطاول على سلطته وشرعيته ، وبالفعل فالمجلس الصحي ، استغل ضعف المغرب ، وعدم قدرته على اتخاذ إجراءات لمواجهة الأوبئة ليستعمل ذلك كأداة للضغط والاستفزاز ، فقد كانوا يوسعون إجراءاتهم لتشمل المدينة الموبوءة كلها ، حيث كانوا يمنعون الدخول إليها من جهة البر بدعوى التخوف من العدوى ، وكانوا في هذا النطاق يمنعون من الدخول حتى الحراس والمبعوثين المخزنيين الذين يحملون أوامر سلطانية أو يكلفون بمهمات مخزنية ، وقد استنكر السلطان هذا التجاوز الشنيع فخاطب النائب برسالة جاء فيها "وما كنا نظن أن يبلغ بك مساعدة النصارى هذا المبلغ حتى تمكنهم من التحكم علينا في بلادنا والتصرف في مكاتيبنا ومنع أصحابنا من تبليغ أوامرنا الشريفة ، حتى أفضى بك الحال إلى تفريق الأوامر على المراسي بمساعدتهم..." (عبد الرحمان ابن زيدان ، 1930 ، ص: 397-398).

المخزن المغربي لم يكن يعارض تطبيق الحجر الصحي على الحجاج (خاصة وإن كان لحمايتهم) بل كان حريصا على وجود فقط ما يبرره ، لكنه كان عاجزا عن فرض وجهة نظره في عقر داره (البزاز ، 1984 ، ص: 188).

المولى الحسن استحسن تدابير المجلس الصحي ، وذلك في رسالة الحاجب موسى بن أحمد المؤرخة في 25 شعبان 1295هـ (24 غشت 1878م)، لكن بعد أن تكشفت له التدابير الصحية على حقيقتها حتى سارع إلى توجيه رسالة إلى نائبه محمد بركاش يؤنبه فيها على تقديم المساعدة للمجلس فيما يخص فرض النطاق الصحي حول طنجة ، وموجها إليه أوامره الصارمة برفعه (Ayache germain, 1968, p: 404).

1.تحويل سوق البقر: الهيئة الدبلوماسية كانت تتدخل في كل كبيرة وصغيرة تحدث في مدن الشمال وكمثال على ذلك ما حدث سنة 1892م ، فبعد انتشار داء البقر في ماي ، وأمام غياب مصلحة بيطرية في مدن الشمال قام المجلس الصحي بإصدار قرار ينص على مجموعة من التدابير: كتحويل سوق الماشية (بطنجة) من السوق الكبير إلى محل آخر ، وتشكيل لجنة لمراقبة الماشية في السوق نفسه تتولى بلا رحمة ولا شفقة إبعاد كل دابة تبين أنها مصابة. وتشكيل لجنة ثانية عند بابي المجزرتين الإسلامية واليهودية لكي لا يسمح بالذبح فيهما إلا للدواب التي تتأكد سلامتها. وتتولى اللجنة أيضا مراقبة لحم البقر المعروض للبيع ، وإذا تبين لها أنه مصاب ، تقوم بحجزه وإبادته (البزاز ، 1984 ، ص: 188).

سنعطي هنا مثالا على هذه التدخلات الأوربية في المجال الصحي بذريعة حماية الساكنة من الأمراض ، وهو تحويل سوق البقر ، حيث طلب النواب الأوربيين نقل سوق البقر إلى محل آخر جاء حسب كلامهم نتيجة "تضررهم من الازدحام والتضايق الذي يقع بالمحل المعد لبيع البقر بذلك الثغر الطنجي حرسه الله وطلبهم نقل عمارة السوق المذكور لمحل آخر"(رسالة من الحاجب أحمد بن موسى إلى الحاج محمد بن العربي الطريس ، مؤرخة في 15 رجب 1315هـ / و.م.ع. ت. مح: 103/24.)

المجلس الصحي تدخل في سوق البقر ، الموجود قرب المدينة ، فطالب بنقله إلى جهة أخرى بعيدة-AL) (maghrib al-aksa, 1897. وذلك بسبب الشكاوي التي يقول إنه تلقاها "من جراء ازدحام الثيران الذين (كذا) يقتلون ويوقعون الخوف والرعب في قلوب المارة وخصوصا النساء والأطفال ويلقون الغوغاء" (رسالة السفير الروسي (Bacheracht) بتاريخ 07-01-1899 ، و.م.ع.ت ، مح: 62/64).

المخزن أمر نائبه بالتمعن والنظر في هذا الأمر للتحقق من إدعاءات النواب الأوربيين وسبب ذلك ، "وتمعن النظر في نسختي الأصل والفرع الذين نشأ عنهما الكتاب الشريف الصادر لك ولمن خوطب معك فيه من ولاة ذلك الثغر الطنجي وأمنائه ولتعجلوا بالجواب مع تحقيق الواقع فيما ادعاه المتكلمون المذكورون من توافق العامل معهم على اختيار المحل الذي أشاروا بنقل السوق إليه وما السبب في ذلك ولا بد وعلى المحبة والسلام" (رسالة السفير الروسي (Bacheracht) بتاريخ 07-01-1899 ، و.م.ع.ت ، مح: 62/64).

اجتمع الطريس بنواب الدول الأوربية ، فأبلغوه تضررهم من سوق البقر مطالبين في اجتماعهم معه بتغيير مكانه الذي تم تحديده بطريق مرشان ، هذا المكان عارضه الطريس نتيجة ما يترتب عنه من مضار كثيرة ، "وصل جوابك عن تضرر النواب من المحل المعد لعمارة سوق البقر بذلك الثغر الطنجي حرسه الله باجتماع وكيلهم حينه الذي هو نائب الفرنسيس مع نائب الإنجليز لذلك ومفاوضتهما لك في تعيين المحل الذي ينقل إليه في مجاورة الطريق المحدث لمرشان قرب المدينة ومعارضتك لهما في هذا المحل بما يترتب عليه الإيقاع في مضار أكثر" (رسالة من أحمد بن موسى إلى النائب الطريس ، مؤرخة في 27 رمضان 1315هـ ، و.م.ع.ت. مح: 141/24).

بعد رفض المخزن ثم تأجيل النظر في اختيار المحل الجديد لسوق البقر حتى إيجاد مكان لا يسبب ضرر للمارين والساكنة ، وتم تكليف عامل المدينة بإيجاد محل مناسب للسوق "وانفصالكم على إعادة النظر في اختيار المحل المأمون من الأضرار بالمعتمرين والمارين على يد عامل البلد الذي هو أدرى بمصالحها وأنك بصدد الإعلام بالمحل الذي يقع عليه نظر توافق الجميع..." (رسالة من أحمد بن موسى إلى النائب الطريس ، مؤرخة في 27 رمضان 1315هـ ، و.م.ع.ت. مح: 141/24).

السلطان أمر نائبه الطريس وعامل مدينة طنجة بالنظر في المكان الذي يصلح فيه نقل سوق البقر ، وبعد اجتماع الطريس بنائبي فرنسا وإنجلترا ، ورفض النائب الطريس واعتراضه للمكان المجاور لطريق مارشان ، تأجل أمر الاختيار إلى وقت لاحق ريثما يتم الاتفاق عليه من طرف الجميع "فقد كان تقدم صدور الأمر الشريف لك ولمن خوطب معك من ولاة ذلك الثغر الطنجي وأمنائه ونظاره بإمعانكم النظر في المحل الذي يصلح لنقل سوق البقر إليه وأجيب بتاريخ أوائل رمضان الفارط باجتماع نائبي الفرنصيص والإنجليز عندك ومفاوضتهما معك في ذلك إلى أن اختارا عمارة السوق المذكور بالمحل المجاور للطريق المحدث لمارشان قرب المدينة ومعارضتك لهما في هذا المحل بتقدير ما يترتب عليه من الإيقاع في مضار أكثر مما فروا منه وانفصالكم على إعادة النظر في اختيار المحل المأمون من الأضرار بالمعتمرين والمارين وأنك بصدد الإعلام بالمحل الذي يقع عليه توافق نظر الجميع" (رسالة من الحاجب أحمد بن موسى إلى النائب الطريس ، مؤرخة في 28 صفر 1316هـ/ و.م.ع ، ت ، مح: 32/25).

لكن يبدو أن القنصل الإنجليزي المكلف بإدارة السنيدة كتب يعلم السلطان بتأخير الجواب عن المكان الجديد للسوق ، ليضطر السلطان إلى إصدار أمره للنائب الطريس مستفسرا عن سبب التأخير ، وإن استعصى عليه الأمر يسند ذلك لعامل المدينة.

"وعليه فيأمرك سيدنا أيده الله أن تعلم في ذلك وسبب التأخير الواقع فيه وإلا تسند النظر في ذلك للعامل وحده إذ لا وجه لاستغلاله بالرأي في مثل هذا الأمر المهم بل لا بد من إمعان أنظار بقية الولاة والأمناء والنظار المخاطبين بالأمر السابق على يدك وتعجل بالجواب ليصدر الأمر الشريف بتنفيذ المحل الذي اتفق عليه رأيكم لذلك وعلى المحبة والسلام" (رسالة من الحاجب أحمد بن موسى إلى النائب الطريس ، مؤرخة في 28 صفر 1316هـ/ و.م.ع ، ت ، مح: 32/25).

ويستفاد من رسالة مؤرخة في 16 حجة الحرام عام 1316هـ، أن سوق البقر لم يحدد مكانه ، مما جعل السفير الروسي يطالب بتعيين محل السوق الجديد ، بينما السلطان كان يعتقد أن أمر السوق قد تم تصفيته ، لكن إثارة السفير الروسي للموضوع من جديد ، جعل المخزن يأمر نائبه بإنهاء الأمر "فيأمرك أيده الله أن تقف في تصفيته على نحو ما صدر لك وتعجل بالجواب بالمآل على كل حال وعلى المحبة والسلام".

مساعي السفير الروسي باسم المجلس الصحي سنة 1899م ، توجت بإبعاد الأبقار عن السوق وتحويله إلى جهة أخرى قرب الشاطئ ، ومنه إلى مارشان بعد اتضاح أن المكان الجديد غير مناسب.

هذه الإجراءات لم ترق لعامل المدينة ، بينما النائب السلطاني كان ينتظر إذن السلطان للتحرك ، غير أن رأيه كان يؤكد "أن جلالته لن يوافق على نقل السوق إلى مرشان حيث توجد المقبرة الإسلامية...".

بعد ذلك قامت اللجنة الصحية باختيار المكان المناسب، فوقع اختيارها على مكان يوجد عند مخرج حي سان فرانسيسكو، في الطريق المؤدية إلى بوبانة، وقدرت تكاليف الأشغال بـ 9500 بسيطة، وقد تحمل المخزن النفقات وأنجز المشروع في غضون السنة نفسها.

تم تنفيذ الأوامر السلطانية وتم تعيين المحل الجديد لسوق البقر (خارج المدينة) وانتقلت إليه العمارة.

نعم، تم إنجاز هذا المشروع، غير أن مطالب الهيئة الدبلوماسية لم تتوقف عند هذا الحد ففي سنة 1900م، قام السفير البلجيكي بطلب إحداث بناء بالسوق الجديد يكون وقاية للتجار من الحرارة. وهنا أبدى المولى عبد العزيز تذمر من هذا التدخل، مشيرا إلى أن هذا الأمر هو من "وظيفة المخزن وولاته ومتى بلغ جانب المخزن ما فيه ضرر على العامة إلا ورفعه كما فعل في هذا السوق وغيره" (جمال الدين العمراني أشطيار، 1996، ص: 91).

هذا نوع من الإصلاح في ظاهره لكن عندما نتعمق في هذه التدابير نجد إلى جانب هذه "الالتفاتة" من جانب المجلس الصحي تدخلا في الحياة اليومية للمغاربة، فمحمد الأمين البزاز يقول: "والواقع أن اتخاذ هذه التدابير لم يقترن ببت التوعية اللازمة بين السكان كما أن افتقار اللجنة إلى الخبرة في ميدان البيطرة جعلها لا تفكر إلا في الحلول السهلة، أي إبادة الدواب المريضة، بدلا من إتباع طرق العلاج حتى تسترجع صحتها، سيما وأن الماشية تعتبر بالنسبة للفلاح المغربي بمثابة العمود الفقري في حياته اليومية".

ولا ننسى أن التدخلات الأجنبية كانت تتحكم فيها عدة عوامل، فبالإضافة إلى أطماع الدول الأوربية في المغرب والتغلغل الاستعماري فيه، كانت مدينة طنجة تشهد مع بداية القرن العشرين توسعا، حيث ظهر المركز الحضري الجديد خارج أسوار المدينة القديمة، أساسا بولفار باسطور "Boulevard Pasteur"، وظهور أنشطة اقتصادية، مالية، عقارية، اجتماعية جديدة تفرز تطورا نظاما اقتصاديا رأسماليا (علي بولربح، ص: 16). وتجدر الإشارة إلى أن تطور طنجة يعود في نسبة كبرى إلى كون أنها قد أصبحت منذ القرن 19م العاصمة الدبلوماسية للبلاد، ومحل إقامة الوفود الأجنبية (ادريس بن علي، 1988، ص: 34).

فكيف كان موقف المخزن والساكنة من هذه الإجراءات؟.

2.موقف المخزن والساكنة من تدخلات المجلس الصحي: هذه التدابير أجبرت المخزن على التدخل للحد من هذه الاستفزازات، وتولي الأمور بنفسه لحماية السكان من الوباء. فالمولى الحسن أبدى معارضة على هذه الإجراءات ووجه أوامره الى محتسب المدينة ليتولى بنفسه مراقبة الذبح في المجزرة، وعدم ذبح الماشية المريضة (أنظر رسالة المولى الحسن إلى الطريس، المؤرخة في 25 ذي القعدة 1309هـ/21-6-1892م، و.م.ت، مح: 166/10).

السكان بدورهم استاؤوا من التدابير المتخذة فأوفدوا ممثل عنهم إلى النائب السلطاني لتقديم احتجاجهم ضد التدخل الأجنبي في شؤونهم. ولم يسع الطريس الذي وجد نفسه في موقف حرج، إلا أن يخبر السفراء الأجانب بمعارضته لهذا التدخل، محتجا بأن اختصاصاتهم في الميدان الصحي لا تشمل الجانب البري. وفي نفس الوقت، قام بتنبيه المحتسب بأن يكون "على بال من كون الكسب المريض لا يذبح".

الإجراءات الصحية كانت تثير سخط الفلاحين الذين كانوا ينزلون إلى المدينة يوم السوق (Salmon G, p: 38-55)، لبيع منتجاتهم، كما حدث في كارثة 1878م، ففرض النطاق الصحي جعل الفلاحين في حيرة،

وسكان المدينة بما فيهم أرباب الحرف والحوانيت، في ضيق وتبرم. لذلك فإن عددا من الفلاحين حاولوا اقتحام الأبواب لفك الحصار، إلا أن الحرس تدخل وأبعدهم بضربات العصي.

كانت هذه الحادثة كافية لتصعيد موجة الاستياء وخلق ردود فعل نفسية كان من الممكن أن تتطور إلى انتفاضة عنيفة وشاملة (البزاز، 1984، ص: 27).

3.إنشاء المؤسسات الطبية: في خضم سياسة الإصلاحات التي نهجها السلطان مولاي الحسن، شكل قطاع الطب أحد المجالات التي حاول المخزن تطويره وإدخال بعض التغيرات التي شملت بالخصوص إرسال مجموعة من الطلبة المغاربة إلى الخارج والترخيص بإنشاء بعض المؤسسات الطبية الأجنبية بالمغرب. وهكذا تم السماح لإسبانيا سنة 1887م بإنشاء مدرسة للطب بمدينة طنجة، حيث جاء في رسالة سلطانية إلى الطريس حول إرسال الطلبة المغاربة للالتحاق بهذه المؤسسة ليتكونوا فيها كأطباء عسكريين لخدمة الجيش المخزني، وكان لهذه البعثة إلى طنجة أهداف: "تعلم علم الطب الجراحي بها لمن أراد تعلمه...، وكلفت الحكيم الذي... أمرته بإعلام حضرتنا الشريفة لنأمر بتوجيه من يتعلم بها ذلك من رعايتنا ليكونوا أطباء في العسكر" (مصطفى بوشعراء، 4/1984، ص: 1335).

إسبانيا ولإدراكها أهمية الأطباء وتأثيرهم على المخزن والمجتمع المغربيين قامت بإنشاء هذه المدرسة سنة 1886م بطنجة، وفي سنة 1888م تم إنشاء مستشفى المفوضية الذي ألحقت به مدرسة لتكوين ممرضين مغاربة وإسبان، حيث عين أوبيلو مديرا له. وفي سنة 1891م كلف السلطان المولى الحسن هذا الطبيب بتكوين ممرضين عسكريين وألحقه في السنة الموالية للحملة المخزنية لردع قبائل الأنجرة، وذلك بوصفه رئيسا للمصلحة الطبية للجيش المخزني (Miége (J.L) , 1961, p : 219).

المدرسة الطبية كانت تابعة للمستشفى الإسباني، يتعلم فيها المغاربة والإسبان، وفي سنة 1891م كلف السلطان المولى الحسن الطبيب أوبيلو بتعليم ممرضين عسكريين من المغاربة بها (مصطفى بوشعراء، 1/1984، ص: 168-185). لكن عدد المغاربة كان قليلا لا يتجاوز ستة أفراد سنة 1893م (مصطفى بوشعراء، 4/1984، ص: 1334).

وجاء في رسالة من السلطان إلى الطريس: "وصل كتابك بطلب الإنعام على متعلمي الطب الستة الذين هنالك بطنجة عند الطبيب أوبيلو الصبنيولي بالكسوة المعتادة لهم كل سنة في هذا الإبان، وصار بالبال، فقد أنعمنا عليهم بها" (مصطفى بوشعراء، 4/1984، ص: 1334).

استمرت الدراسة بهذه المدرسة إلى سنة 1900م، ومن المتخرجين منها نجد:

.محمد بن أحمد بزيان الكرات الذي كان يسكن سنة 1896م بدار حبسية طلب الطريس من السلطان إقراره عليه "رعيا لمسكنته وخدمته في جملة الجيش السعيد" (بوشعراء، 4/1984، ص: 1335).

.أحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن قاسم التمسماني الطنجي المتوفى بفاس عام 1347 هـ الموافق ل 1928 م، وجاء في رسالة سلطانية: "أخبر الطالب عبد الرحمن التمسماني الوارد على شريف أعتابنا بأنه أكبر الطلبة الذين كانوا يتعلمون الطب في الصبطار الصبليوني هناك بطنجة بإذن سيدنا المقدس، وأنه هو أكثرهم تحصيلا في التعلم..."، (رسالة إلى الطريس في 04 جمادى الأولى 1318هـ / 30 غشت 1900م.

) وجاء في رسالة أخرى أنه كان "ممن تنجب في علوم الطب والتشريع وهو أحد المتعلمين المعنيين من قبل جانب المخزن لقراءة ما ذكر لدى بعض الأطباء الصبليونيين بثغر طنجة المحروسة وبيده إجازات الأطباء بذلك ، وهذه مادة وهو ملازم لمباشرة علاج المرضى من العسكر السعيد" (مصطفى بوشعراء ، 4/1984 ، ص: 1335).

الطبيب أحمد التمسماني بعد تخرجه بامتياز وتعلمه بفنون الطب والمداواة التحق بخدمة الجيش المغربي حسب رسالة من النائب الطريس إلى وزير الحرب محمد الجباص ، جاء فيها: "وصل كتابكم الأعز جوابا عما كتبناه في شأن الطالب أحمد التمسماني ، بأن مولانا أيده الله سأل عمن عينه لقراءة الطب ، لنجيب بما عندنا في ذلك إلى آخره ، فليكن في كريم علمكم أن سيدنا المقدس كان أمر بتعيين ستة أناس لقراءة ما ذكر ، فعينوا لذلك. وكان التمسماني المذكور من جملتهم ، ثم أنه لم ينجح من السنة إلا إثنين أحدهما المشار إليه ، وقد نجب في الطب ، وهو قائم بمداواة العسكر كما تقدم ، فينبغي أن يدرج في قائمة العسكر السعيد لأهمية مهنته ، وعلى المحبة والسلام" (المنوني ، 1973 ، ص: 401).

خلال النصف الثاني من القرن 19م أرسل المخزن موازاة مع هذه البعثة إلى طنجة ، بعثات طلابية إلى الخارج في مختلف العلوم ، البعض توجه إلى أوربا والبعض الآخر إلى المشرق العربي (مصر خصوصا). وكان المصطفى بن عبد السلام الزودي الطنجي هو أحد طلبة الشمال المتوجهين للخارج على المستوى الطبي ، حيث درس الطب في أوربا ولم يرد شيئا عن تاريخ سفره ولا عن البلد الذي تعلم به (المنوني ، 1973 ، ص: 308).

الأوضاع العامة للطب بالمغرب خلال القرن 19م ، تميزت باستمرار شكلها التقليدي المتوارث منذ قرون عن الطب العربي ذي المؤثرات اليونانية واللاتينية والخصوصيات المحلية المختلفة للمجتمع المغربي.

الطب المغربي عرف موجات مد وجزر حيث أعطته المؤثرات الأندلسية تآلفا مؤقتا خلال فترات محدودة من تاريخه ، إلا أن السمة العامة للفكر الطبي في مغرب هذه الفترة إختزل في سيادة الفكر الغيبي الذي أطر جل المفاهيم والتصورات حول الممارسة الطبية سواء من حيث الأمراض أو من حيث وسائل العلاج والتداوي.

حاول المخزن عصرنة المجال الطبي بإرسال بعثات طبية إلى الخارج ، وتخرج منهم عدد محدود تمتعوا بالنجابة وإتقان فنون الطب. لكن ظروف المغرب العامة حالت دون استثمار مهاراتهم وكفاءاتهم واستغلال ما تلقنوه من تكوين عصري من أجل النهوض بقطاع الصحة وإنشاء مدرسة طبية وطنية.

وفي ظل هذه الأوضاع العامة المتردية للطب في مغرب القرن 19م وجد الأوربيون الباب مفتوحا أمامهم ، واستغلت القوى الاستعمارية هذا الفراغ لتستعمل الطب كإحدى أدوات التسرب والتغلغل داخل المجتمع المغربي بمختلف مكوناته بعد استقدام المولى الحسن لأطباء أجانب عملا بنصيحة من القناصل المقيمين بطنجة خصوصا خلال فترات الأوبئة الفتاكة.

الأطباء الفرنسيون فرضوا مكانتهم في طنجة ، فأنشئوا سنة 1865م مستشفى بالمدينة للرفع من إشعاع المفوضية الفرنسية.

بناء هذا المستشفى جاء بعد الأحداث التي عرفتها مدينة تطوان بعد اغتيال أحد الفرنسيين ، فقد تم بناءه عن طريق المبلغ المالي الذي دفعه السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمن كتعويض عن هذا الحادث يوم 10

أكتوبر 1863م. ويتعلق الأمر بالفرنسي المدعو كارينو Garinot الذي كان يمتهن التجارة وتربية المواشي ، والذي اغتيل خلال هذا الاعتداء ، أثار هذا الحدث ردود فعل فرنسية قوية حيث هددت من خلالها فرنسا بإرسال أسطولها الحربي. وبعد عدة مفاوضات تم إرسال السفير المكلف بمهمة دوطالناي De tallnay إلى الرباط لفتح تحقيق بمساعدة بوميي. انتهت هذه الأزمة سنة 1864م بإقالة عامل مدينة تطوان وأدى المخزن مبلغ 125 ألف فرنك كتعويض. وقد قسم هذا المبلغ على الشكل التالي: 20 ألف فرنك لأرملة كارينو ، و500 فرنك أعطيت لإزول صديق المتوفى الذي أصيب بجروح خطيرة ، أما الباقي أي 100 ألف فرنك فخصص لبناء المستشفى الفرنسي بطنجة الذي أسندت إدارته للطبيب رانكي Ranquet إبتداء من سنة 1867م ، وكان هذا المستشفى أداة فعالة للدعاية الفرنسية بالمغرب ، حيث كان يستقبل المعوزين مجانا (Miége. J.L, 1961, p : 468-469).

4.عناية الجالية الأجنبية بالصحة:

أ.إحداث مرافق صحية: في زيارته إلى المغرب قام الناشط الجمعوي موزيس مونتيفيور Moses Montefiore الذي رافقه الطبيب طوماس هادكين Thomas Hadgkin (أحد مؤسسي جمعية أبورجينيس بروتيكشن سوسايس Aborigenes Prptection Society) في مهمة إلى المغرب خلالا عام 1863م ، وذلك بصفته طبيبه وصديقه الشخصي (Mohamed Kenbib, 1994, p: 142) وصل إلى طنجة يوم الجمعة 11 دجنبر ، حيث كان مونتيفيور محملا بكثير من المال ورسائل توصية ، واستقبل من طرف مجلس القناصل تحت هتافات مفوضي مختلف الجاليات الأجنبية ، قام هذا الأخير بتوزيع هبات مالية للمؤسسات الخيرية ، حيث قدم مبلغ 300 ليرة من أجل بناء مدرسة خاصة بالنساء اليهوديات ، كما وزع صدقات على فقراء مدينة طنجة دون تمييز عرقي أو عقائدي.(Kenbib, 1994, p: 142)

وفي سنة 1870م جاء الطبيب الإنجليزي بالدوين مصحوبا ببناته وإخوته ، إضافة إلى زوجته التي كانت لها أيضا معرفة بالطب ، وفتح مستوصفا صغيرا بمؤسسة هوب هاوس في مدينة طنجة ، والذي تحول إلى مستشفى إنلاقا من سنة 1887م ، هذا المستوصف تحول من اسم " هوب هاوس " إلى مستشفى باسم " تولوش ميموريال هوسبيتل " Tulloch memorial hospital " ، وذلك تخليدا لاسم تولوش Tulloch ، إحدى المبشرات الأوائل التي هلكت بداء الكوليرا بعد وصولها إلى المغرب. وقد جمع ثمن بنائه ، الذي وصل إلى 700 ليرة ، عن طريق الاكتتاب ، افتتحت قاعتا المستشفى خلال يونيو من سنة 1888م ، حيث خصصت قاعة للرجال وأخرى للنساء وكلف الطبيب تشورتشر churcher بتسييره شخصيا منذ تاريخ انطلاق أشغال بنائه سنة 1887م (Miége, 1955 p:173) . وكان حلول هذا الطبيب بالمغرب في نهاية أكتوبر 1885م ، حيث بدأ في تعلم اللغة العربية.

وفي سنة 1895م تكلف فرع سبانيش مين Spanich mission (جمعية خيرية) بإنشاء مستوصف جديد لفائدة إسبانيي المدينة في مواجهة الحاجيات المحلية عقب وباء الكوليرا. وكان الهدف الحقيقي لهذه البعثة هو تنصير الإسبانيين على الطريقة البروتستانتية(Miége, 1955 p:173) .

أنشأ الفرنسيون بمدينة العرائش مستوصفا طبيا شكل إشعاعا للسياسة الفرنسية في مواجهة النفوذ الإسباني التقليدي بهذه المنطقة. كان يشرف على هذا المركز الطبيب أوكيست برو Auguste Brau الذي يعتبر من رواد

التسرب الطبي الفرنسي بالمنطقة الشمالية. وهو ينتمي إلى منطقة لابيكور La Bigorre ، قدم إلى المغرب سنة 1908م ليترأس إدارة هذا المستوصف الذي كان قد أنشئ قبل ذلك بثلاث سنوات. تعلم اللغة العربية ونجح في كسب ثقة السكان بعد بداية صعبة ، إذ أصبح الأعيان والموظفون المخزنيون بما فيهم باشا المدينة يطلبون خدماته. وكان القائد الريسوني قد استعان باستشارته الطبية حيث مكث عنده بأصيلا لمدة سبعة أيام ، كما تزايد عدد الزوار بالمستوصف قادمين من جبالة والريف. كان الطبيب برو يتقاضى سنويا 4000 فرنك. وبلغ عدد الأشخاص الذين تلقو على يده العلاج حوالي 6000 ، ونجح في تلقيح عدد كبير من السكان ضد الجدري ، وتنظيم مصلحة الصحة الحضرية بالمدينة.

وبعد سنة 1912م واحتلال المنطقة من طرف الإسبان تحول هذا المستوصف الفرنسي إلى الإدارة الإسبانية ، لكن الطبيب برو بقي يمارس مهامه ويقدم خدماته لساكنة العرائش محافظا على سمعته وعلاقاته الجيدة مع الإسبان(Miége, 1955 p:173) .

ب.طلب بناء مستشفى في طنجة / محجر صحي: تواصلت تدخلات النواب الأجانب في الحياة الاجتماعية والسياسية للمغرب ، ففي سنة 1899م ، طالب المجلس الصحي عن طريق سفير ألمانيا ببناء مستشفى في طنجة.

إضافة إلى ذلك كان هناك مشروع بناء محجر صحي في ملباطا (تقع ملبطا شرق مدينة طنجة ، على بعد حوالي ثلاثة أميال). جاء هذا الاقتراح بطلب من فرنسا وتبناه المجلس الصحي ، بينما المخزن اشترط دراسة المشروع أولا من طرف لجنة من الخبراء للتأكد من صلاحية الموقع.

تكونت اللجنة فرأت أن الموقع كان اختياره موفقا ، لكنها تحفظت فيما يخص الاتصال بالمحطة عن طريق البحر الذي اعتبرته " صعبا ، إن لم يكن مستحيلا في الظروف الراهنة" (البزاز ، 1984 ، ص: 297). ولتدليل هذه الصعوبة ، أوصت بضرورة بناء أرصفة ذات أبعاد كافية تترك مهمة تقديرها لمهندسين مختصين ، مقترحة بناءها في الشاطئ الواقع في الجهة المقابلة بالشمال الشرقي ، وذلك من أجل ضمان الاتصال بالمحطة مهما كان اتجاه الرياح. لكن كل ذلك بقي حبرا على ورق للتكاليف الباهضة التي تطلبها بناء هذا المحجر ، وكذلك لرفض السفارة الإيطالية.

وفي 1908م ، طرحت من جديد قضية بناء محجر صحي قرب طنجة حيث طالب المكلف بالشؤون البريطانية بإنشاء محجر قرب طنجة لتلبية حاجيات مينائها ، مؤكدا أن حكومته تعلق "أهمية قصوى على تزويد طنجة بمثل هذه المحطة" (البزاز ، 1984 ، ص: 300).

هذا الاقتراح – حسب البزاز – حظي بموافقة سائر الأعضاء ، وتم إدخاله حيز التنفيذ ، ليتم بناءه شرق مدينة طنجة ، بين وادي الحلق ومحطة ملبطا ، بيد أن هذا المحجر لم يستعمل على الإطلاق في الأغراض الصحية ، وقد ظل فوق ذلك مهجورا مدة طويلة قبل أن يتحول إلى مركز لإحدى وحدات الشرطة ثم إلى سجن رئيسي في المدينة (البزاز ، 1984 ، ص: 297).

ولا ننسى أن لجنة الصحة والطرق البلدية اهتمت بتقديم بعض الخدمات الإحسانية ، ففتحت عيادات خاصة لتلقيح الأطفال ، ولم تكن تبخل أحيانا حتى بتغطية نفقات السفر والعلاج في أوربا بالنسبة للمصابين بمرض خطير (البزاز ، 1984 ، ص: 269).

المبحث الثالث: الاهتمام بالنظافة.

يجمع الملاحظون على الحالة المزرية للنظافة في مغرب القرن التاسع عشر ، سواء بين المسلمين أو اليهود ، ذلك أن دور المحتسب تراجع تدريجيا بعد أن كان فيما مضى حريصا على نظافة المدينة ، ومتطوفا بها لئلا توضع الأزبال في الأزقة والشوارع أو تهرق المياه القدرة وتطرح جيف الحيوانات بها ، كما كان يسهر على حفظ الصحة أثناء انتشار الأوبئة ، ويراقب بائعي المياه حرصا على نظافة القرب (ابن زيدان ، 1961-2/1962 ، ص: 67).

كانت وظيفة التنظيف في مدن الشمال من اختصاصات المحتسب الذي كان ينتدب عددا من العمال لكنس الأزقة وجمع القاذورات ونقلها على ظهور الحمير خارج الأسواق (التوزاني نعيمة ، 1979 ، ص:141) ، إلا أن هذا الجهاز لم يكن يبعث على الارتياح نظرا لتعطله عن العمل في الأيام المطيرة وأيام الأعياد ، وخاصة لضعف موارده التي لم تكن تتجاوز خمسة "بلايين" (البلايين: جمع بليون ، عملة إسبانية تساوي نصف عشر ريال.) عن كل رأس من الثيران ، و"بليون" عن كل رأس من الضأن يدخلان المجزرة ، وبذلك كانت الأزبال تظل مكدسة مثلا في بعض جهات لمدينة طنجة ، مثل حي السقاية الجديدة ، وحي واد أحرضان.

أما الحمامات فكان يسهر على نظافتها كذلك المحتسب ، حيث يراقب المآزر وحرارة المياه ، ويأمر العاملين بالحمام بجعل أدواتهم في الماء والملح كل ليلة. كما كانت له حسبة على الأطباء والعشابين أيضا. إضافة إلى ذلك كان المحتسب يسهر على مراقبة المطاعم العمومية والمواد الغذائية المطروحة في الأسواق ، فيلزم السفاج مثلا بإحترام بعض شروط النظافة كالإختطاب بالحناء (بوشعراء ، 1984 ، ص: 268) ، وتبين رسالة من السلطان مولاي الحسن (1894-1873م) في رجب عام 1311هـ/ الموافق لـ 22 يناير 1894م مدى تراجع الدور الفعال الذي كان يقوم به المحتسب بعد أن تدهورت أحوال النظافة بسبب تراكم الأزبال وعجز المحتسب عن أداء دوره لقلة الإمكانيات المرصودة لتنظيف الأزقة (ابن زيدان ، 1961-2/1962 ، ص:146).

وكنتيجة لتراجع دور المحتسب انعدام الشروط الصحية انعداما كليا ، حيث كان الإنسان والحيوان يعيشان جنبا إلى جنب (البزاز ، 1992 ، ص: 331-332). أما الأزقة فبمجرد ما يسقط المطر تتحول إلى مستنقعات ، وكانت أكوام الأزبال تتراكم بها لفترة غير محدودة ، وتنظاف إليها جثث الحيوانات الميتة التي تنتى في مكانها وسط سحب من الذبال (روجي لوطورنو ، 1/1986 ، ص: 351).

وغيرها من المشاكل مما يترتب عنه أمراض وأوبئة خطيرة. وأمام ذلك كان المخزن يشرف على تنظيف الأزقة بانتظام ومنع السكان بأن يتركوا فيها جثث الحيوانات تتعفن.

لكن هذه الإجراءات كانت بدون جدوى خصوصا أنها كانت مجرد حملات تنظم بين الفينة والأخرى ، وكلما دعت الضرورة إلى ذلك ، وفي غالب الأحيان كان الخواص يتدخلون بأنفسهم إذا أرادوا ألا تتعفن الأزبال أمام منازلهم (روجي لوطورنو ، 1/1986 ، ص: 352-353). ولدينا في هذا الموضوع رسالة من المولى عبد العزيز إلى محتسب العرائش بتاريخ 26 جمادى الثانية عام 1320هـ الموافق لـ 1902م. نصت على التذكير بمبادئ الشرع حول مكانة النظافة في العقيدة الإسلامية وبما تحث عليه الآراء الطبية المتداولة آنذاك في هذا المجال. خاصة ما يتعلق منها بما ينتج عن فساد الهواء بالعفونات وما يترتب عن ذلك من مضرة على الرعية. وتحت الرسالة على الاعتناء بالمصلحة المكلفة بجمع الأزبال بالمدينة عن طريق ضبط مدخولها بانتظام وفرض ضريبة على

الذبائح من القطعان بكافة أصنافها وتحديد الواجب دفعة عن كل نوع ، وتوجه هذه المداخيل إلى تمويل المصلحة الخاصة بالنظافة العمومية بالمدينة. والملاحظة الأساسية في ختام هذه الرسالة هي التشديد على المحتسب في عدم التساهل أو التكاسل عن القيام بما يلزم لتنظيف مدينة العرائش من العفونات:

"الحمد لله ... خديمنا الأرضى ، المحتسب بالعرائش ، الحاج الراضي بن الطاهر الحراق ، ... وبعد ، فإن تنظيف البلد من الأزبال والعفونات والجيف والقاذورات ، ورفع الأضرار عن سائر الطرقات ، أمر متعين شرعا وطبعا. فقد ورد بني الدين على النظافة ، وإتفق الأطباء على أن غالب الأعراض والأمراض من تغيير الهواء الناشئ عن فساد الأبخرة المتصاعدة من العفونات ، ولتلك المصلحة جعل له مستفاد يقوم به في كل محل يسمى بالجرجومة ، لكنه هنالك قد عفى رسمه وبقى اسمه وصار إنما بحسب الإمكان ، حيث إن مدخوله صار ضعيفا كما كان ، فتعين رد الوجهة إليه وجعل ضابط يكون المدار عليه في ضبط مدخوله الذي يعطل على الذبائح الكافي للتنظيف ، فيجعل لكل رأس من الغنم البيضاء بليونان ولكل رأس من الفحول أربعة بلايين ، ولكل رأس من الإبل إثنا عشر بليون ولكل رأس من بكارها ستة بلايين ، ويسقط ماعدا ذلك مما يؤخذ مجانا إفتياتا كالكوارع والطحال والمخاصي والأمخاخ والمصارين والأنصاب وغيرها ، بل يبقى ذلك لصاحبه يفعل به ما يشاء.

وقد كلفنا بقبض الواجب المذكور أمين المستفاد ثمة. بعد سمسرة المنفعة المذكورة المدة المعتبرة على تلك السنة بمحضره وبمحضر أمناء المرسى ، وإمضائها لآخر زائد فيها لمدة من عام واحد وهكذا عند تمام كل سنة. كما كلفناه بالقيام بمصلحة التنظيف على الوجه الذي تحصل به الكفاية هنالك ، بعد أن يتفق معهم ومع العامل على ترتيب العدد الكافي لذلك في كل يوم من الحمير والقطابة ، على أن الحمير تشترى أولا من المدخول بقصد الخدمة عليها ، وصائر الأجور وعلف البهائم وتقويمها يسقط الجميع من داخل اليوم والفاضل يقيده عليه إلى أن يأمر بالعمل فيه. كما أمرناه بالقيام على ساق بتنظيف البلد من الأزبال والعفونات...وأعلمناك بذلك لتشد العضد في ما ذكر لأمين المستفاذ المذكور ، ومهما وقع تساهل أو تكاسل في التنظيف أو عفونات بمحل ولم تعلم به ، فإن العدة تكون عليك ، والسلام".

المجلس الصحي في هذه الحالة وجد فرصة للتدخل في الحياة الحضرية في مدن الشمال خاصة طنجة تحدوه الرغبة في توفير الراحة للأوربيين الذي كان عددهم يتزايد سنة بعد أخرى. فبدأ هذا التدخل على شكل تقديم نصائح واقتراحات للسلطة المحلية ، وانتهى بوضع المرافق البلدية تحت سلطته.

كانت لجنة الصحة والطرق البلدية ، تقوم بمهمة التنظيف عن طريق الدواب فقامت بالزيادة في عدد عمالها ، وتحديد أجورهم وساعات عملهم ، وتوفير العدد الكافي من الدواب (Laredo Isaak, 1934, p :294).

إضافة أنها منعت رمي الأزبال في الأماكن العمومية ، وحددت أوقاتا معينة لجمع الأزبال المنزلية فضلا من وضعها في الأزقة في جميع الأوقات (Marco carlos, 1913, p :123) .

غير أن هذا البرنامج الطموح الذي اضطلعت به لجنة الصحة والطرق البلدية لم تستطع إتمامه لأنه يتجاوز إمكانياتها المادية والبشرية ، لتضطر إلى تقديم استقالتها منه ، لتؤول وظيفة التنظيف من جديد إلى المحتسب.

وفي 11 يوليوز 1887م تطوعت جماعة من الأوربيين لجمع التبرعات من أجل تشكيل لجنة جديدة للاهتمام بمسألة التنظيف (البزاز ،1984 ، ص: 257).

بعد ذلك انتزعت الهيئة الدبلوماسية موافقة المخزن على إصلاح شبكة التطهير السائل وهذه رسالة من المولى عبد العزيز إلى محمد الطريس تسلط مزيدا من الأضواء على هذا "الإصلاح" ، "فقد أخبر باشدور النجليز ، الوارد على حضرتنا العالية بالله ، بتضرر سكان طنجة من رائحة وادي الماء المضاف الخارج منها بسبب عدم تغطية البعض من مجريهما وعدم امتداد بنائهما لداخل البحر ، طالبا تغطية العاري منهما الآن وزيادة البناء في آخر مجراهما الموالي للبحر بحيث لا يخرج ماؤهما إلا في عمق ماء البحث الذي لا تصل معه رائحة لأهل البلد ، كما طلب الإنعام من جانبنا العالي بالله بالصائر المقدر لذلك الذي هو ثلاثة آلاف ريال ، وأجيب بالمساعدة على ذلك وإن كان مثل ما ذكر من المصالح البلدية إنما يكون على أهل البلد ، كما هو العرف الجاري في جميع البلدان ، ولكن جعلناه إنعاما على أهل ذلك الثغر رعاية لضعفهم وضعف أحباسهم ، على أن يقوموا بما يفتقر إليه من الإصلاح في المستقبل على العادة الجارية في جميع المدن ، وعلى أن يكون عقد الكنطرة مع المهندس بالعدة المذكورة على يدك ويد الأمناء" (وثائق مكتبة تطوان ، مح 71/61).

موافقة المخزن على إصلاح شبكة التطهير السائل اعتبر بمثابة الضوء الأخضر للهيئة الدبلوماسية التي ستقوم سنة 1906م بإنجاز مشروع إحداث واد رئيسي يصب في البحر وتلتقي فيه الأودية القديمة ، وتكلفت بإنجاز هذا المشروع شركة ونشهاوزن الألمانية (م.خ.ع.ر ، رقم ك 2721/2720).

وتجدر الإشارة إلى أن القنصل الروسي استغل زيارته لفاس سنة 1313هـ/1899م ، فطلب من السلطان نيابة عن النواب الأوربيين رفع الضرر الناتج عن الماء المضاف الخارج من المنازل والذي يختلط بمياه الآبار الصالحة للشرب وبالتالي تضرر الساكنة ، طالبا من السلطان بناء وادي على طول المنازل لخروج هذا الماء المضاف "وبعد فإن سفير الروسية لما ورد على الأعتاب الشريفة أخبر أن نواب الأجناس طلبوا منه التكلم في الضرر الحاصل لأهل ذلك الثغر الطنجي حرسه الله من الماء المضاف الذي يخرج من الدور المبنية بأرض البراميل ويسري في الآبار التي حولها ومنها يشرب أهل البلد كلا أو جلا طالبا رفع هذا الضرر ببناء وادي يكون مجرى للمياه المذكورة على طول المسافة التي بها الدور المشار إليها" (و.م.ع.ت ، مح 164/25).

وللعلم أن هذا الطلب تم رفضه سابقا من طرف المخزن "وأن جانب المخزن لم يوافق عليها سابقا ولا لاحقا ولا زال عنده الكلام معهم في ذلك" (و.م.ع.ت ، مح 164/25).

ورفضه كذلك عندما طلبه النائب الروسي محملا السبب في ذلك للساكنة والسكان الأجانب ، ولو كان المخزن هو المتسبب في ذلك فإنه سيقوم برفعه على وجه العدل ، مصدرا أوامره لأمناء مرسى طنجة وعبد السلام أحرضان بالوقوف على هذا المشكل والنظر فيه ، "وعلى كل حال فحيث تتم مفاصلة جانب المخزن معهم ينظر في ذلك الضرر فإن ترتب الحق فيه على المتسببين فيه فهم الذين يقومون برفعه وإن ترتب على جانب المخزن أيضا في ذلك حق بطريق العدل والإنصاف فهو موجود للقيام له ثم أصدر الكتب لأمناء مرسى طنجة وللسيد عبد السلام أحرضان بأن يقفوا على محل الآبار المشار لها ويمعنوا النظر في الوجه القريب لرفع ذلك الضرر عنها كبناء قوي يكون غائصا في الأرض وحاجزا بين الآبار وبين فضلات الديار ويوجهوا صورة تلك

الأرض بما فيها وبيان قدرها طولا وعرضا وبيان الملاد فيها وأعلمناك بما راج في القضية لتكون على بال وتسرح ما عندك وما يظهر لك فيها وعلى المحبة والسلام" (و.م.ع.ت ، مح: 25/164).

أما بالنسبة لمدينة تطوان فقد عمل المخزن على مواجهة الضغوطات والتدخلات الأجنبية في شؤون المدينة الحضرية ، بإصدار أوامره لأمناء مرسى تطوان ، بغية سد الطريق على كل تدخل أجنبي ، وذلك بالإشراف على نظافة المدينة ، محددا لهم الواجبات التي يتعين اقتطاعها من مداخيل المجزرات لتغطية المصاريف. وهذا نص الظهير الذي تم إصداره في الموضوع إلى جميع عمال المراسي.

"فقد رفع الأمر لحضرتنا العالية بالله بالإعلام بتكاثر الأزبال والقاذورات بالأزقة هناك ، ولا ينبغي السكوت عنها ، فإن الدين مبني على النظافة ، مع ما ينشأ عن التغافل عنها من الوخم وفساد الهواء. وقد كنا عينا للتنظيف مستفاد المجزرات وأمرنا بصرفه فيه ، ثم إنه لا يصرف في ذلك ، ويقع ما يقع. وقد كتبنا لأمين المستفادات والمحتسب بما يكون العمل عليه في ذلك ، فنأمرك أن تشد عضدهما فيه ، وتقف معهم حتى يجئ الأمر في ذلك على ما ينبغي ، وتتم المصلحة المذكورة وتنضبط ولا بد ، والسلام" (محمد داود ، ج6 ، ص:1778).

يستفاد من الرسالة أن المولى الحسن أوصى بنظافة كل موانئه خاصة تطوان لأن النظافة جزء من الدين ، مع تعيين مستفاد المجزرات في التنظيف واستغلاله أحسن استغلال.

ومما سبق يتبين جليا أن أشغال النظافة العامة كنت تنجز من طرف المصالح المحلية للمخزن وتحت مراقبته بواسطة محتسب المدينة الذي كان عليه السهر على عملية لحسن الأزقة مبدئيا مرة في الأسبوع. لكن يبدو وكأن هذا الإجراء لم يكن كافيا ولا يتم إنجازه بانتظام ، حيث تجمع الشهادات الأجنبية للرحالة الأوربيين الدين زاروا المغرب خلال القرن التاسع عشر على وصف سوداوي لحالة النظافة العامة لأزقة المدن المغربية ونتانتها. ويبدو ذلك مرتبط بالحالة السياسية والاقتصادية والاجتماعية العامة للبلد ، من جانب آخر ، لم يعد المخزن قادرا على تدبير حل الجوانب المرتبطة بنظافة المدن وصيانة طرقاتها بسبب ضعف خزينة البلاد أمام مخلفات التكالب الاستعماري وثقل الغرامات المالية المفروضة عليه بعد حرب تطوان والمشاكل المرتبة عن الحمايات القنصلية وتراجع مداخيل الجبايات وحقوق الجمارك بالمراسي ، وأمام هذا الفراغ شغل الأوربيون عجز المخزن لتكثيف ضغوطاتهم ، حيث كان مجبرا على القيا م ببعض الحملات التطهيرية بين الفينة والأخرى في الأحياء التي تقطنها الجالية الأجنبية ، كما استغل المجلس الصحي الدولي بمدينة طنجة تدهور الحالة العامة للنظافة من أجل انتزاع اختصاصات مهمة في تسيير هذا القطاع وترصيف الأزقة وتزويد الأزقة بالماء الشروب وغيره (البزاز ، 2000 ، ص: 157-160).

استنتاجات: نستنتج مما سبق أن النظام التعليمي في مغرب القرن التاسع عشر ظل نظاما تقليديا رغم ما شهده المغرب من إصلاحات في ميادين مختلفة.

- محدودية المحاولات التي تمت خلال هذه الفترة في المناطق الشمالية رغم انتباه النخبة المغربية إلى وجوب إحداث الإصلاح في النظام التعليمي ، ورغم تأسيس المدرسة الحسنية التي كان يتم فيها إعداد الطلبة المبعوثين إلى أوربا ، ومدرسة خاصة بمدينة العرائش...

- ظهور أنظمة تعليمية جديدة على رأسها مدارس رابطة الإتحاد الإسرائيلي ومدارس التعليم الفرنسي — العربي ، التي وإن كان وجها من أوجه التدخل الأجنبي ، إلا أنه يعتبر طفرة نوعية لم يعرفها النظام التعليمي المحلي.
- رغم المحاولات التي قام بها المخزن لإصلاح هذا الميدان ، إلا أنها ظلت محاولات بعيدة عن النسق الحديث ، ولم ترق نتائجها للمستوى المتوخى منها. إذ لم يستفد الميدان التعليمي كثيرا من تقنيات الحضارة الحديثة. وقد لوحظ ذلك في كيفية التعامل مع المطبعة وتسخيرها في حدود ضيقة ، حيث إنها لم تستغل بالشكل اللازم لنشر العلوم العصرية.

المحاولات الإصلاحية التي شملت الميدان الصحي كانت أغلبها ناتجة عن ضغوطات الدول الأجنبية.

استطاع المجلس الصحي توسيع سلطاته وصلاحياته بشكل كبير منذ النصف الثاني من القرن 19 في الميدان الصحي حيث تدخل في الشؤون الداخلية للبلاد بدعوى الإصلاح. بل تجاوزها بعدم امتثاله لقرارات السلطة المركزية في بعض الأحيان.

- استغلال الهيئة الدبلوماسية لأوضاع المغرب المتردية والقاسية لفرض هيمنتها وإسماع صوتها ومحاولة التحكم في بوابة المغرب على أوربا (المدن الشمالية للمغرب) أمام عجز المخزن عن فرض وجهة نظره في عقر داره.

-كانت الهيئة الدبلوماسية في طنجة تسعى إلى جعل نفسها الوصي الوحيد على الصحة بالمناطق الشمالية ، غير أن المخزن والنائب السلطاني تصدوا لهذه المحاولات غير ما مرة. فقد كان المخزن ثارة يرفض مطالب الهيئة الدبلوماسية وثارة أخرى يماطلها (نقل سوق البقر مثلا) لكنه في نهاية الأمر كان يخضع لمطالبها بعد توالي الضغوطات عليه.

-يتضح أيضا أن المخزن كان واعيا بضرورة الإصلاح ، كما كانت له رغبة في تنفيذ مجموعة من المشاريع الإصلاحية في المجال الصحي والتي يكون نفعها على العامة ، لولا حدة الأزمات التي كان يمر بها رغم مكابرته بإظهار قوته وتعنته بين الفينة والأخرى "وأما النظر فيها (مصالح العامة) إنما هو من وضيفة المخزن وولاته ومتى بلغ جانب المخزن ما فيه ضرر على العامة إلا ورفعه ..."[1](و.م.ع.ت ، مح : 25/18).

-عدم رضا المخزن المغربي والساكنة على الإجراءات (الاستفزازات) التي كان يتخذها المجلس الصحي ، الشيء الذي جعله يتولى الأمور بنفسه لأن الإجراءات الصحية كانت تثير سخط العامة. ففي كثير من الأحيان كادت هذه التدخلات أن تتطور إلى انتفاضات عنيفة وشاملة. وهذا تعبير عن استياء السكان ورفضهم لأي تدخل أجنبي في حياتهم الاجتماعية.

المصادر والمراجع

- القران الكريم.
- وثائق المكتبة الوطنية.
- وثائق الخزانة الحسنية.
- مديرية الوثائق الملكية بالرباط.

[1] - رسالة سلطانية إلى النائب الطريس ، مؤرخة في 13 صفر1318هـ ، و.م.ع.ت ، مح: 25/18.

- ابراهيم بوطالب ،(1983)، إستخلاصات عامة عن مفهوم الإصلاح في القرن التاسع عشر، ضمن ندوة الإصلاح والمجتمع، منشورات كلية الاداب والعلوم الانسانية بالرباط، سلسلة ندوات ومناظرات رقم 7، 23 أبريل 1983.
- ابراهيم حركات، (1994)، التيارات السياسية والفكرية بالمغرب خلال قرنين ونصف قبل الحماية، ط 2، 1994، الدار البيضاء.
- أحمد بن خالد، الناصري، (2006-1955)، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ج9، طبعتي 1955 و 2006.
- أحمد شحلان، " محاولة إصلاح التعليم اليهودي في القرن 19م ودور مدارس الإتحاد الإسرائيلي في أوضاع ما قبل الحماية"، ضمن أعمل ندوة الإصلاح والمجتمع.
- إدريس بنعلي، (1988)، "الانفتاح على السوق العالمية وانعكاساته على التنظيم الحضري في القرن التاسع عشر"، ترجمة: بشير القمري، مجلة المشروع، عدد: 9، س: 1988.
- ألبرت حوراني ،(1977)، الفكر العربي عصر النهضة 1798 — 1939، ترجمة: كريم عزقول، ط 3، 1977م، دار النهار، بيروت.
- التدلاوي، المفضل، (2001)، أضواء على ذاكرة العرائش، الطبعة الأولى، طنجة، 2001.
- التهامي الوزاني، "الزاوية"، العرائش، د. ت.
- العربي الرحموني عجولو، (2002-2001)، محاولة في التاريخ الاجتماعي لطنجة، الزاوية الدرقاوية لطنجة، د.د.ع، كلية الاداب ظهر المهراز، فاس، 2001 — 2002، مرقونة.
- الكواكبي عبد الرحمان، (1970)، الأعمال الكاملة، تحقيق ودراسة محمد عمارة، القاهرة، 1970.
- محمد بن عبد الله الغيغائي، رحلة الغيغائي، م. خ. ع، ر، رقم ج 98.
- تركي علي الربيعو ،(1987)، قراءة في النسق السياسي والفكري لرواد عصر النهضة، السنة الثالثة، ع 32/31 نيسان (أبريل/ أيار (مايو)1987، شعبان/ رمضان 1407هـ.
- جلال أحمد أمين، (1980)، المشرق العربي والغرب، مركز دراسات الوحدة العربية، ط 2، حزيران 1980، بيروت.
- جمال الدين العمراني اشطيار، (1996)، طنجة بين سنتي 1900 و 1912، جوانب من الحياة السياسية الاقتصادية والاجتماعية، د.د.ع، الرباط، 1996، كلية الاداب والعلوم الانسانية بالرباط.
- جمال حيمر، (1996)، "الإصلاح والأجانب في مغرب القرن 19، البعثات التعليمية كنموذج"، منشورات كلية الأدآب بمكناس، جامعة مولاي إسماعيل، ع10، 1996،
- خالد بن الصغير، (1997)، المغرب وبريطانيا العظمى في القرن التاسع عشر (1856- 1886)، منشورات كلية الاداب والعلوم الانسانية بالرباط، سلسلة رسائل واطروحات رقم 94، مطبعة النجاح، الدلر البيضاء، ط 2، 1997.
- خير الدين التونس ،(1978)، مقدمة أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك. تحقيق معن زيادة. ط 1، دار الطليعة، بيروت 1978.
- رشيد رضا: (1980)، مختارات سياسية من مجلة المنار، تقديم ودراسة وجيه كوثراني، ط 1، دار الطليعة، بيروت 1980.
- روجي لوطورنو، (1986)، فاس قبل الحماية، ترجمة: محمد حجي ومحمد الاخضر، دار الغرب الاسلامي، بيروت 1986.
- زين العابدين الكتاني، الصحافة المغربية نشأتها وتطويرها، ج1، نشر وزارة الانباء، الرباط، د.ت.
- عبد الرحمان ابن زيدان، (1930)، اتحاف اعلام الناس بجمال اخبار حاضرة مكناس، المطبعة الوطنية، الرباط 1930، ج3.
- عبد الرحمان ابن زيدان، (1962)، العز والصولة في معالم نظم الدولة، المطبعة الملكية الرباط، 1961-1962.
- عبد العزيز التمسماني خلوق، (1998)، شركة سليكي إخوان للطباعة والنشر والإعلاميات، طنجة، الطبعة I، 1998.
- عبد العزيز بنعبد الله، تاريخ الحضارة المغربية، الدار البيضاء، ج2.
- عبد الغفار بندريس، وثائق جديدة عن وباء الكوليرا بتطوان سنة 1868، ضمن ندوة تطوان قبل الحماية (1912-1860)، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بتطوان، جامعة عبد المالك السعدي، بتعاون مع المجموعة الحضرية لمدينة تطوان، مطبعة الهداية.
- عبد الإله بلقزيز، (2001)، "منطق الخطاب الإصلاحي الحديث في المغرب"، ضمن أعمال ندوة، أفكار النهضة بين الأمس واليوم من الدعوة لها إلى البحث فيها"، منتدى المعارف ط 1، 2001، بيروت، لبنان.
- عبد المجيد الصغير، (1994)، إشكالية إصلاح الفكر الصوفي في القرنين 18 و19، أحمد ابن عجيبة ومحمد الحراق ج I، ط II، 1415هـ/1994م، منشورات دار الآفاق الجديدة المغرب، ص: 248.
- عثمان أشقرا، (2004)، "التحديث بين اليابان والمغرب (1906-1853) عناصر أولية من أجل دراسة مقارنة"، مجلة المناهل، ع 71-72، شتنبر 2004، ضمن "إشكالية الهوية".

- عثمان أشقرا ، (1990)، "في سوسيولوجيا الفكر المغربي الحديث" ، ط 1 ، 1990 الدارالبيضاء ، مطبعة النجاح الجديدة.
- علي أومليل: (1986)، "ما هو الإصلاح بمفهوم إسلامي" ، ضمن ندوة الإصلاح والمجتمع المغربي في القرن 19 ، منشورات كلية الآداب بالرباط (1986).
- علي بولربح ، (2002)، "مدينة طنجة من خلال كتابات ميشوبيلير" ، نموذج كتاب "Tanger et sazone" ، مجلة أصوات طنجة.
- كمال حسن ، (2002)، مؤسسات البحث والتعليم بالمغرب خلال فترة الحماية ، مقاربة تاريخية ، دكتوراه في التاريخ ، كلية الاداب والعلوم الانسانية بالرباط 2002.
- محمد الأمين البزاز ، (1984)، "المجلس الصحي والمخزن وكارثة 1878" ، دار النيابة ، س 1 ، ع 4 ، خريف 1984.
- محمد الأمين البزاز ، (1986)، تأسيس المجلس الصحي الدولي بطنجة ، مجلة دار النيابة ، السنة 3 ، العدد 10 ، ربيع 1986م.
- محمد الأمين ، البزاز ، (1992)، تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط ، سلسلة رسائل وأطروحات رقم 18 ، 1992.
- محمد الأمين ، البزاز ، (200)، المجلس الصحي الدولي في المغرب(1929-1792)، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط ، سلسلة رسائل وأطروحات ، رقم 49 ، الطبعة الأولى ، 2000.
- محمد الحجوي ، (2001)، الفكر السامي في تاريخ الفقه الاسلامي ، الجزء الثاني ، طبعة 2001.
- محمد الدريج ، (1987)، "تطور المؤسسات التربوية — التعليمية خلال القرن التاسع عشر" ، ضمن ندوة "المغرب من العهد العزيزي إلى سنة 1912" ، الجامعة الصيفية دورة 1407-1987 ، المحمدية ، وزارة التربية الوطنية.
- محمد السليماني ، (1971)، اللسان المغرب عن تهافت الاجنبي حول المغرب ، مطبعة الامنية ، الرباط 1391ه/1971م.
- محمد المنوني ، (1973)، مظاهر يقظة المغرب الحديث ، منشورات وزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية ، ج1 ، مطبعة الامنية ، الرباط 1392ه/1973م.
- محمد بن العربي الرباطي: "النور اللامع البراق في ترجمة الشيخ محمد الحراق" ، م.خ.ع ، بالرباط ، تحت رقم 2602.
- محمد رزوق ، (1991)، دراسات في تاريخ المغرب ، نشر افريقيا الشرق ، الطبعة الاولى ، 1991.
- محمد عبده ، (1972)، الأعمال الكاملة ، تحقيق ودراسة محمد عمارة ، ج 1 ، بيروت 1972.
- محمد عبده ، (1972)، الأعمال الكاملة ، تحقيق: محمد عمارة ، ج2 ، ط1 ، بيروت ، 1972.
- محمد ، المنصور ، (2006)، المغرب قبل الاستعمار: المجتمع والدولة والدين (1792- 1822)، ترجمة محمد حبيدة ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، الطبعة الأولى 2006.
- محي الدين صابر (1980)، مجلة الوحدة ، ع 1 ، .1980
- مصطفى الشابي ، (1995)، "النخبة المخزنية في مغرب القرن التاسع عشر" ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط ، سلسلة محمد الأمين رسائل وأطروحات ، رقم 26 ، ط 1 ، 1995 ، مطبعة فضالة المحمدية.
- مصطفى بوشعرا ، ، (1991)، "التعريف ببني سعيد السلاويين ونبذة عن وثائقهم" ، ج 2 ، 1991.
- مصطفى بوشعراء ، (1984)، الاستيطان والحماية بالمغرب (1894-1863)، المطبعة الملكية ، الرباط ، 1984 ، ج1.
- ناجي نجيب ، (1981)، رحلة علم الدين لعلي مبارك "قراءة في التاريخ الاجتماعي ، الفكر العربي الحديث" ، ط I ، دار الكلمة بيروت ، 1981.
- نعيمة هراج التوزاني ، (1979)، الامناء بالمغرب في عهد السلطان مولاي الحسن ، ط2 ، منشورات كلية الاداب والعلوم الانسانية ، الرباط 1979.
- هشام شرابي ، (1978)، المثقفون العرب والغرب ، ط 2 ، 1978 ، دار النهار بيروت.
- ندوة الاصلاح والمجتمع في القرن 19 ، (1983)، منشورات كلية الاداب والعلوم الانسانية بالرباط ، سلسلة ندوات ومناظرات رقم 7.
- مجلة الوثائق ، ع 3.
- المجلة المغربية ، العدد 4 ، السنة 1936.
- مجلة دار النيابة ، العدد 4 ، السنة 1 ، خريف 1984.
- Al-Maghreb Al-aksa,(1883), journal publié à Tanger à partir de 1883, n° du 31-07-1897.
- Ayache germain:(1968), « Le sentiment national dans le maroc du XIXè siècle », in Revue histoir, oct, dés, 1968.

- La hoz , vincente ferrandi ,(1949), a punter para la historia de la imprenta en el norte marruecos , imprenta majizen de tutuon. Abril 1949.
- La hoz, (1949), Apuntes para la historia de la imprenta en et notre marruecos, imprenta majizen de rutuon abril 1949.
- Laredo Isaak, (1934), « Memorios du un viejo tangerino », Madrid 1934.
- M,bellaire, E, (1909), L'organisme marocaine, revue du mande musulman ,N9, 1909.
- Marco carlos, (1913), « la comission de higiene y de limpieza de Tanger », Tanger 1913.
- Merad .A. (1978), la dualite réformisme-modemisme,actes du colloque réformisme, et societé morocaine ou 1978.
- Miége (J.L), (1961), le Maroc et l'Europe (1830-1894) .p.u.f,paris 1961. T II et IV.
- Miége (J.L), (1955), les missions protestones au maroc ,1875,1900, hesperis, vol.XLII, 1955.
-- Mohammed kenbib, (1994), Juifs et musulmans au maroc 1859-1948, contribition à l'histoire des relations inter - communautaires en terre dislam, publication de la faculte des lettres et des sciences homaines – rabat , 1994.
- René. Leclerc (ch), (1908), l'enseignment au maroc, etude d'ensemble sur l'instruction Fracase et étrangere au maroc (anneé 1907-1908) Alger,in,typographique et lithographique, léon ,1908
- Rivet (D). (1988), lyautey et linstitution du protectorat francais au maroc 1912-1925, paris, Edition l'harmatton, 1988, T2.
- Salmon G: « Le commerce, indigène et le marché de Tanger », in A.M. Tom I.

مملكة صنغاي الإسلامية ودورها الحضاري في إفريقيا

Islamic songhai kingdom and its civilizational role in Africa

د .لهلالي سلوى :جامعة سطيف 2-الجزائر
Lahlali selwa.university of setif 2.Algeria
د.لهلالي اسعد :جامعة سطيف 2-الجزائر
Lahlali issaad .university of setif 2.Algeria

مقدمة:

تعتبر مملكة صنغاي إحدى الممالك السياسية التي قامت في السودان الغربي متخذة من أجزاء كثيرة من مالي حدود الإمبراطورية الناشئة وأخذت في التوسع وأصبحت قوة في المنطقة ، وتعتبر من أهم الممالك الإسلامية في المنطقة نظرا للدور الحضاري الذي لعبته في المنطقة إنطلاقا من نشر الإسلام إلى بناء الحواضر الإقتصادية والتجارية والتي سمحت للمنطقة بالتفتح على مجالات أخرى.

1-الموقع الجغرافي وأصل السكان: تمتد مملكة صنغاي على ضفتي نهر النيجر إلى الشمال من الداهومي عند مدينة داندني إلى جنوب فولتا العليا وشمال نيجيريا ، وتعتبر آخر ممالك السودان الغربي أي تقع في النيجر الأوسط ، بين نهر النيجر ونهر السنغال ، وانتشرت انتشارا واسعا في هذه المناطق منذ أن توطئ الإسلام في الشمال الإفريقي في القرن الثامن ميلادي وكان للمرابطيين دور كبير في نشر الدعوة الإسلامية في السودان الغربي حوالي ق11م ، وكان لنشر الإسلام تأثير عظيم أين ترسخت وانتشرت الثقافة العربية ذات السمات المغربية وعليه انتشر المذهب المالكي الذي تبناه المرابطون في دعوتهم.

أما أصل السكان فيذكر الباحثون أنهم من قبيلة صنغاي التي تسكن النيجر ثم أخذت تزحف شماله كما أشار إلى التباين بين المؤرخين فيما بينهم فمنهم من يقول بأن نسبهم من مصر ومنهم من يقول أنهم من اليمن وقد ذكر هذا اسماعيل العربي حيث يذكر أنهم استقروا حوالي 500م فيما ومنهم من يذكر أن أصلهم ليبي بدليل أن أول أسرة عرفت في حكمهم هي أسرة ضياء ، وعليه يصعب الترجيع في أصلهم. (عطية مخزوم الفيتوري ، 1998 ، ص301)

2-ظروف تأسس مملكة صنغاي: يذكر عبد القادر زبادية أن دولة صنغاي تأسست في القرن 7م واستمرت عبر القرون في التقوي والتوسع ، ويرجع أصل قبائلها إلى قبائل لمطةالمغربية (جهة ليبيا)، والتي نزحت إلى الضفة اليسرى لنهر النيجر عند مدينة دندي وذلك بسبب الهجرات الهلالية التي طردتها من هذه المناطق وكانت مدينة غاو هي العاصمة منذ القرن 11 (1009م)، أما قبل ذلك فقد كانت العاصمة هي مدينة كوكيا على نهر النيجر الأدنى ، وعن جذور هذه القبائل التي استوطنت على ضفاف النيجر حكمت صنغاي أسرة ليبية هي أسرة "ضياء"أو "ديا" ، ويظن أغلب المؤرخين أن أصلها من طرابلس وتتزعم قبائل لمته وهوارة وحكمت صنغاي حتى 1335م.(اسماعيل العربي ، 1983 ، ص321).

وانتقل الحكم بعدها إلى أسرة سيني ويذكر زيادية أنها أصل مملكة صنغاي لأنها اتخذت لقب سيني الذي حور جزء من هذه الكلمة ، وهذه الأسرة فرع من أسرة ضياء وتولت الحكم سنة 1335م بعد تحرر الأمير بن علي وسليمان من قبضة سيني موسي ملك مالي في فترة 1335م ، وعاد إلى غاو وأين عين علي كلن ملكا على مملكة جديدة اسمها صنغاي مستقلة عن مالي ، وتوسعت في أراضيها ومنذ عهد علي إلى سنة (1492-1465) تدخل صنغاي مرحلة الإمبراطورية ووسعت الحدود على حساب القبائل المجاورة لتتسع أكثر في عهد الآسقين خاصة عهد محمد ،وبظهور الأسقين تدخل صنغاي مرحلة جديدة وهي عهد الأسقين.(اسماعيل العربي ، 1983 ، ص322).

3- قيام مملكة صنغاي: في بداية القرن 11 وبالتحديد في سنة 1010 أسس الملك "كوزي" أو عاصمة للمملكة وهي مدينة "جاو" وتقع شمال نهر النيجر وأصبحت بذلك "جاو" عاصمة مملكة صنغاي مركزا تجاريا هاما في المنطقة وجاء إليها التجار العرب من شمال إفريقيا ومصر وسرعان ما أصبحت مثل تمبكتو من ناحية الدعوة للإسلام ، وكانت صنغاي كما ذكرنا احد نفوذ مملكة مالي بداية من 1325 زمن منسى موسى وفي عهده استولى أحد قادته على جاو عاصمة صنغاي ، وقدم ملك صنغاي إلى منسى موسى وهو "ديا" من عائلة ضياء وأعلن طاعته لمالي واشترط عليه رهينتين وهما إبناه كدليل على الولاء ، وهما علي كلن وسليمان ناروكانا ، ولما مات منسى موسى 1332م استغل الأخوان الحدث مع أحداث تمبكتو التي نهبت وفرا الى غاو ، وبعد وفاة والدهما وأعلن على كلن نفسه ملكا على صنغاي وبدأ في تدعيم مملكته وتقويتها بما ضمه إليها من أراضي ، حتى أصبحت مملكته ذات شأن وأسس أسرة "السيني" التي هي مؤسسة مملكة صنغاي وتعاقب من هذه الأسرة 18 ملكا ، وفي حدود سنة 1400م قام الملك مادو بغزو إمبراطورية مالي ونهبها كلها وضمها لصنغاي ،وفي سنة 1464 تولى علي "نير"الحكم حتى "1492" ، أين وسع المملكة نحو تمبكتو سنة 1433 وبعد الصلح المبرم معها ثم زواجه من أم ملكها الصغير حتى 1492 أين توفي.(عبد القادر زبادية ، د ت ، ص28).

لقد كان لحكم أسرة صنغاي دور في تطوير هذه المملكة حين أخضع القبائل المجاورة لها وقضت على الوجود المالي في المنطقة لكن بحلول سنة 1493 ينتهي حكم أسرة سني عقب وفاة "علي" ويعتبر تسلم الأسقيا محمد عرش صنغاي بداية عهد انتظام المملكة وتطورها أكثر.

4- الأوضاع العامة لمملكة صنغاي الاسلامية: كانت مملكة صنغاي تعرف تطور ملحوظا في تنظيمها السياسي منذ دخول الإسلام خاصة في عهد الصنغائيين والأسيقين من بعدهم خاصة ، أين تنظمت جليا وعرفت فيه المملكة أوج عظمتها وعليه تتكون جميع التنظيمات التي سنتطرق إليها في هذه المرحلة ، وبالرغم من أن عائلة الأسقيا لم تحكم صنغاي أكثر من قرن واحد ووصلوا بالمملكة من حيث القوة والتوسع إلى الحد الذي لم تصله لا من قبلهم ولا من بعدهم أيضا.

الأوضاع السياسية لمملكة صنغاي: لما مات علي الكبير 1492 ترك وراءه أمبراطورية مترامية الأطراف بتولي أخيه بعده وهو سني بارو ، وعرف بارتداده عن الإسلام فثار عليه أحد قادة والده ، وحصلت المعركة الفاصلة في "أنكو" قرب العاصمة "جاو" وكان النصر لمحمد الأول الكبير من عائلة الأسيقيا سنة 1493 ودخل العاصمة غاو مع جيشه ولقد رأي أن العاصمة متطورة في الشرق حين أن الغرب الواسع الأهل بالسكان يكاد يكون مهملا فقام بمنجزات عديدة في إطار تكوين إمبراطوريته ونذكر منها:(فيصل محمد موسى ، 1997 ، ص54).

- جعل بناية الملك يكون مقرها وسط البلاد وولى عليها أحد أخوته وهو محمد كمراغ.

- جعل خدمة الجيش لا يقوم بها إلا العاملين به استمرار وجعل الإنخراط فيه ممكنا لكل الأشخاص الموجودين في المملكة بعدما كان شكل الجيش قبلي.

- حارب معارضيه في معركة "بوكو" وهم من وجهاء صنغاي اعتبر هذا في صالح صنغاي التي يجب أن تسير في طريق التحررو التطور.

- بعث العدل في مناطق البلاد وشعوبها وخاصة وسط الإمبراطورية غربها.

- ألغى النظام القبلي السابق بتعيين رؤساء القبائل مقابل الاحتفاظ بأولادهم كرهائن فقسم الامبراطورية إلى ولايات وعهد بكل ولاية منها إلى والي معتمد من العاصمة مباشرة وقد اختار في عهده من أقربائه وهذه الولايات هي:

ولاية كورما ، بالاما ، دندي ،بانجو ، هاريباندا ،وولاية نهر النيجر ،(فيصل محمد موسى ، 1997 ، ص56) كما أوجد مناصب دائمة ووظائف ثابتة لتسير شؤون البلاد وعهد بها إلى أشخاص من أقرب مساعديه وهي: (وحافظ الأسقيات من بعده عليها).

- ✓ مفتشية الضرائب العامة وكانت وظيفة صاحبها الإدارية تسمى "موندى".
- ✓ الإشراف على الشؤون القبلية وتدعى وظيفة صاحبها "موري خاريما".
- ✓ تعيين حاكم عام لكل مدينة كبيرة يشبه شيخ البلدية على أيامنا ومن هذه المدن: تمبكتو ، بارا ، جنى.

لقد كان لهذه التنظيمات الأثر الكبير في استمرار مملكته بعده أي محمد رغم الأزمات التي مرت بها وكان الهدف ترضية الناس ،وبعد كل هذه الأعمال قرر أداء فريضة الحج 1495م ، وبعد عودته فكر في فتح بلدان فبدأها بحملته على بلاد الموسي الوثنين (1498-1497) فأدخلهم الإسلام ونظم حملة أخرى على مالي في منطقة باجانو وضمها فاتسعت غربا.

كما ضم أيوده التي اعتصم بها سيني بارو واستطاع بين 1506-1512 من ضم مالي إلى مملكة صنغاي فبلغت حدودها مشارف المحيط وعليه قد أصبحت حدود مملكة صنغاي في عهد الأسيقين من بلاد الحوصا جنوبا وتلامس الصحراء شمالا ، وتوفي الأسقيا محمد الكبير سنة 1538 بعد تنازله عن السلطة 1528 وجاء خلفاء بعده.(عبد القادر زبادية ، 1989 ، ص 41)

- الأسقيا موسى: (1531-1528): قضى موسى سنوات حكمه في النزاع المستمر مع أفراد عائلته وأنصار أبيه وهذا ما عطله من الانجاز وشغله عنه ولم ينجز شيئا يستحق الذكر لصالح المملكة ومات برمح من طرف أحد اخوته.

- الأسقيا محمد الثاني: (1537-1531) بايعه الجيش وهو في اقليم جنى لكن أخوه الذي قتل موسى رفض الانصياع لأوامره.

- الأسقيا اسماعيل (1539-1537): أبرز ما أنجز هو توجيه حملة كبيرة ضد أحد الأمراء الوثنين وأسر العديد منهم وأثناء هذه الحملة جل بهم الطاعون وفتك بهم ومات الملك وعاد الجيش إلى غاو.

- الأسقيا اسحاق الأول (1539-1549): وأبرز ما جعل تغيير قيادات الجيش لنفادي الانقلابات والتدخل في شؤون الحكم ووجه حملة إلى مالي لكنها فشلت ثم حملة أخرى إلى المغرب.

- الأسقيا داوود (1549-1582): اشتهر بالحنكة السياسية فقام بتبديل موظفيه السياسيين بآخرين جدد وأخذ بنصيحة الطوارق بعد مهاجمة المغرب وتغيير مكان التنقيب إلى الجنوب كما قام بتغييره سنة (1556) ،وغير العاصمة نحو "تونديبي" بسبب خوفه من المتآمرين ، خاصة بين أفراد الجيش والمتقاعدين ، أي أنهم يشكلون خطرا عليه بدأ حروبه الأولى على بلاد الهوسا و هاجم قبائل البوهل سنة 1550 وقد حصل في أيامه اتفاق سلم مع الطوارق ، كما اتسمت علاقته بالمغرب بين الحرب والسلم وعرفت مدته حوادث: كحال الوباء الذي اجتاح النيجر 1582 ، وهلك حوالي 3/1 من السكان.

- الأسقيا محمد الثالث (1582-1586): وعرفت فترته صراع بين الأخوة حول الحكم وعرفت كذلك أطماع المغرب عليها واتسمت فترته بالبؤس وعين محمد باني مكانه.(عبد القادر زبادية ، 1989 ، ص ص 41-52)

- الأسقيا محمد باني (1586-1588): والذي بدأ عهده بالقتل في صفوف أخوته الذي فرط من بطشه وتوفي بعدها وإزادت الفوضى.

- الأسقيا إسحاق الثاني (1586-1591): حيث واجه حركة الثار في تمبكتو ، وقضى عاما في حربه ثم دخل في صراع مع احمد المنصور الذهبي الذي كانت له اطماع في مناجم الملح وعلى رفض اسحاق الثاني وعدم اعتراف سلطان المغرب بصنغاي ،وأعلن الحرب عليه فبعث المنصور حملة عليها بقيادة "جودار" الذي أنهى حكم الأساقي في صنغاي في 1591م.(اسماعيل العربي ، 1983 ، ص 227)

أولا: الوزارة والولاة: لقد كانت هناك وظائف حول الملك فمنها ما كان قبل الأسقين ومنها ما استحدثه الأسيقيا محمد وكانت البلاد أكثر تنظيما ومن هذه الوزارات:

1- كيمي: مدير البناء.
2- يوجوكي: رئيس السوق.
3- ألواناي فورما: وزير أملاك الدولة.
4- لارايفارما: وزير المياه.
5- تاريموندیو: مفتش الزراعة والأوقاف.

كما استحدثت وظيفة نائب الملك وكانت عهد الأسقيا محمد كمزاغ ومن بعده من الأساقي و أعطائها لمن يثقون فيهم وعليه هنا يظهر تأثير الحضارة الاسلامية في رحلة حج الاسيقيا محمد للمشرق أتى بهذه الأنماط الى صنغاي.

أما الوالي فكان يتولى وظيفته بالوراثة ،وأخذت أسماء الولاة في المدن والنواحي أسماء محلية وأشهر التسميات: كوي ، وفارما ، وكانت أهم واجبات الوالي هي جمع الضرائب وتقديمها للملك كما كانوا يقدمون هدايا سنوية للملك وأثناء مرور موكبه في المناسبات يتسابق الولاة إلى تقديم أغلى الهدايا له.(عبد القادر زبادية ،1989 ، ص ص58-60)

القضاء: لقد كان لقضاة مملكة صنغاي شأن عظيم فكانوا لا يباشرون من القضايا إلا تلك التي تتعلق بالجماهير كالقضايا العقارية والمدنية والأحوال الشخصية ، أما القضايا الإجرامية فكانت من عمل الملك الذي كان صارما فيها.

كما كان للقاضي سلطات واسعة منها مراقبة شؤون المدينة الأخلاقية ، ويشرف على أموال اليتامى كما كان النصيح بالنسبة للملك وينهاه عن بعض الأفعال كما كان القاضي متصلا بالعامة مباشرة ، وعليه ظلت مصالح الناس قائمة إلا في حالة عندما يشغر منصب القاضي فتتعطل المشاغل ، كما اهتم الملك بارضاء القاضي والذي كان يحكم بين الناس بالكتاب والسنة وعلى المذهب المالكي وعليه فقد كان للقاضي أهمية كبيرة ولمنصب القضاء خاصة و أشهرهم محمد مانو.(عطية مخزوم الفيتوري ، ص 319.)

الجيش وتنظيمه: لقد كان الجيش في مملكة صنغاي يحتل مكانة عالمية في البلاد وهذا نتيجة لدوره واعتماد السلاطين كليا عليه وأثر في حروبهم و فتوحهم في أيام سيني علي ،حيث كان التجنيد اجباريا على كل فرد قادر على حمل السلاح وكان أفراد قبيلة الصنغاي أنذاك يجتهدون بالإنخراط في الجيش سعيا للغنائم وعليه لم يجد سيني علي صعوبة في جمع العدد في حروبه وكان الجيش أنذاك ذو طبيعة قبلية وكان الملك مثله مثل أي فارس آخر.(عطية مخزوم الفيتوري ، 317-318).

أما في عهد الأسيقيا محمد الأول فقد دخل الجيش طور التنظيم فضم منخرطين دائمين فيه ، وكان تنظيمه في عهد سيني مختلفا فالإضافة إلى صبغته القبلية كان مختلفا نوعا ما أن لم يكن مختلفا على عكس عهد الأسقيا الذي قسمه إلى فرق وكان سابقا الملك هو قائد الجيش.

وخص كل قسم من الجيش بمنطقة معينة وكل قسم تحت سلطة والي عليه ، فقد كان الجيش بهذا تحت السلطة المدنية ، كما كان للعبيد دور هام في جيش صنغاي رغم أنها في طور الملكية إلا أنهم في المجال العسكري متساوين مع البقية ، وكان منهم الجندي والضابط ، واستمر جيش صنغاي على الصورة التي نظمها الأسقيا محمد وازداد تنظيما في عهد "موسى" ، وبعد ضعف المملكة إثر عهد "داوود" تسارع ضعف الجيش في عهد باقي الأساقي وفشل في رد الغزو المغربي ، ولم تكن الهزيمة سببها ضعف الجيش بل تماطل الأسيقين في تمويل وتطوير الجيش ففي الوقت الذي طورت فيه بورنو والمغرب جيوشها بتمويلها بالأسلحة النارية لم يقم الأسيقين بأية مبادرة من أي نوع بل كانوا يرون على أن جيشهم قوي.

وحداته وأسلحته: كانت صنغاي بفضل ما تملكه من موارد وإمكانيات مادية قد تمكنت من إعداد جيش مسلح رائع قادر هلى حمايتها وتحقيق استغلال أراضيها وفرض إرادة الملك ، وبعد دخول الجيش مرحلة التنظيم عهد الأسفي محمد ووضع لكل فرقة نظامها الخاص ، كما حددت أدوار كل فرقة في الحرب.

ومنهم المشاة الفرسان الخيالة والمساعدون ، وكان القائد العام هو الملك وقد قسم الجيش إلى فصائل وجعل الإشراف على فصائله في الأقاليم تحت سلطة لواء وهذه الوحدات هي:

1- سلاح الخيالة: كان ينخرط فيها أفراد الطبقة النبيلة في صنغاي وكانت من أصغرالفرق ومشاركتها كانت رمزية أكثر منها عملية وكان أفرادها يسيرون مع موكب الملك ، ومن لوازم الجندي فيها الحصان الذي كان باهظ الثمن كذلك الدرع النادرة بسبب غلائها كما كان الجندي يحمل حربة طويلة تغنيه عن استعمال السيف.(عبد القادر زبادية ،1989 ، ص 86)

2- الفرسان: وكانت تحتل المكانة الثانية بعد المشاة وتأتي في الترتيب بعدها لمواجهة المعارك ، وكان عدد أفرادها أقل من عدد فرقة المشاة أما أسلحتها: الخوذة وصدرية الفارس الحديد بالإضافة إلى الحربة.

3- فرقة المشاة: وهي من أهم فرق القتال تعتبر عماد الجيش وكان أفرادها يكونون ثلثي الجيش اشتهرت باستماتتها في الدفاع وشراستها في القتال ، وتتركب من مختلف فئات المجتمع من عبيد ومزارعين وكانت أسلحتها: الحراب والسهام بالدرجة الأولى وبعض الفؤوس الحادة أما السيوف فكانت قليلة لغلاء أسعارها.

4- الحرس الملكي: كان له وجود دائم في الجيش في المعارك لكنه كان عبادة عن مؤخرة الجيش التي يحتمي الملك بها بالإضافة إلى حراس حاشيته وكان أيضا من أعانها الضرب على الطبول والنفخ في الأبواق أثناء سير الجيش للمعركة ، وأيضا عند مرور الملك في المدينة أما دورها في القتال فكان ثانويا جدا وأسلحتها كانت للزينة في الغالب.

5- الأسطول: كان لصنغاي جيش بحري على النيجر وأهم قواعده غاو و تمبكتو ، وكانت أغلبية عناصره من العبيد ، وكان هذا الأسطول إما حمل المؤن للجيش أو نقل الجنود من مكان لآخر وبلغت عدد قوارب الأسطول ألفي قارب ، كما استخدم الجواسيس لمعرفة مدى قوة العدو ومسالك أرضه واشتراك الأسطول كان قليلا وأسلحتهم من النبال والحراب وسفنهم نهرية طويلة.

وعليه فإنه من خلال التطور السياسي الذي عرفته صنغاي خاصة عهد الأسيقين كان له عظيم الأثر على تطورها من الجانب الإداري والسياسي والتنظيمي كذلك من الجانب القضائي والعسكري أين أصبحت فيه أمبراطورية بها جيش منظم تدريبا ، لكن اعتماد الجيش على أسلحته القديمة جعله عرضة للفتك خاصة مع استخدام المغرب وبورنو للأسلحة النارية.(عبد القادر زبادية ،1989 ، ص ص 68-69)

الأوضاع الاقتصادية لمملكة صنغاي: لقد كانت صنغاي مملكة ثرية ماديا واقتصاديا بحيث كانت تعتمد في اقتصادها على استخراج الملح والمقايضة به بالمواد الأخرى ، كما اعتمدت على مزروعات معينة واستخراج بعض المعادن للاستفادة منها كما كان علاقات تجارية.

الزراعة وتربية الحيوانات: تنوعت المزروعات في صنغاي وكانت محورا أساسيا للسكان الذين استغلوا الأسمدة التي اتخذوها من فضلات الحيوانات وأحسنوا الري بحفر الآبار في النيجر الأوسط فقد تنوعت المزروعات ومن بينها:(عطية مخزوم الفيتوري ، ص 320)

الحبوب: ومن أهم الحبوب التي زرعت في عهد الأسيقين الأرز وكان الغذاء الرئيسي لجميع السكان وكان يزرع حول النيجر وروافده وهو ناقص الجودة من نوع النوبي ، ثم السورجو وهو يشبه الحمص لكن نوعه أبيض تتخلله نقط سوداء ، وكان يحتل المرتبة الثالثة بعد الأرز والقمح ، وكان القمح يزرع بقلة لذلك فقد وجب استراده وكان من نصيب الأثرياء إضافة إلى الشعير الذي يزرع في المناطق المطلة على الصحراء والواحات.

الفاصولياء: (البقويات ، الحبوب الجافة) وتشمل الفول وكان انتجه وفر كذلك الحمص ، الذي يزرع شمالا واللوبياء وكان انتاجها وافرا واستهلاكها قليلا.

الخضر والفواكه: كانت منتشرة في صنغاي خاصة عهد الإيسقين وكان البطيخ والقرع أكثر إنتاجا وأثمانها رخيصة كذلك زراعة الثوم ، البصل والأشجار المثمرة ومنها "الخيل": كانت المناطق الشمالية المراكز الأساسية لتواجده لكن الإنتاج لا يكفي وعليه المستورد كميات من ورقلة وبسكرة.(عبد القادر زبادية ،1989 ، ص 177)

الكروم والتين: وكانت تتركز زراعتها في المناطق القريبة من النيجر وفي وسط البلاد وشمالها، ولم يكن الانتاج كافيا وعليه كان التين المجفف من واردات صنغاي وكان ثمنها مرتفعا.

الحمضيات: كانت أشجارها البرتقال واليمون بكثرة قيصنغاي سواء في الواحات الشمالية أو الجنوبية حول النيجر وهذا لاعتماد الفلاحين بها.

ثانيا: الثورة الحيوانية :وكانت تلعب دورا أساسيا في الحياة الاقتصادية لصنغاي فيستخدمها السكان لأعمالهم والاستفادة من أصوافها وجلودها لتصديرها للخارج وكانت أنواع الحيوانات على نوعين الداجنة والغير داجنة.

الحيوانات الداجنة: وهي المواشي وبصفة خاصة الأبقار وكانت بها منافع عدة، وكانت أثمانها رخيصة لكن لم ترد معلومات حول عددها أما الأغنام فكانت تحتل المرتبة الثانية، كذلك المعز والبقال والخيول التي كانت أغلى الممتلكات الحيوانية بحيث كان خيل يقابل 20 رأس عبد كذلك الجمال ذات الاستعمال الواسع، كما عرفت تربية النحل في ظلال الأشجار بالإضافة لتربية الدجاج.

الحيوانات غير الداجنة: كان منها الكثير كلما توجهنا جنوبا وأهمها الفيلة مادتها الأساسية "العاج" كما أكد الحسن الوزان وجود الفيلة على النيجر كذلك الحمار الوحشي والزرافة والذئاب والثعالب والغزلان والتماسيح والنعام وكان السكان يصطادونها لحمايتهم إليه في حياتهم خاصة استهلاك لحومها وشحومها واستعمال قرونها وجلودها في صناعة الملابس والأحذية، كما مارسوا صيد الأسماك كما كان يجفف، ومن أشهر أنواعه "العنبر" الأسود.(عبد القادر زبادية ،1989، ص 186)

الصناعة: كانت الصناعة في صنغاي بسيطة يعمل بها أصحاب الدكاكين وكانت حوانيتهم منشرة جدا لانتاجهم الوفير، وذلك لتوفر المادة الأولية كالجلود والأتربة المختلفة كما كان الذهب متوفرا خاصة في النيجر وحافة السنغال ويستعمل لأغراض كثيرة كذلك النحاس في جنوب غرب موريطانيا وكان نادرا في صنغاي لذلك كان ثمنه مرتفعا جدا، كما كان الحديد موجودا بكثرة كما هو حال القصدير والرصاص وكان استعمالهما قليلا بسبب عدم وجود محترفين فيه، أما المصنوعات فكانت الأقمشة أهم المصنوعات، وكانت في شكل حياكة باليد عددها ليون الافريقي بـ26 دكانا، وفي تمبكتو وحدها كانت في البداية صناعة الأقمشة من القطن تصدر حتى إلى الشمال، ثم تطورت إلى صناعة الصوف والوبر كما كانت حرفة الصباغة وكانت الألوان المنتشرة: الحمراء، الزرقاء، والسوداء والصفراء وكثر الصباغون كانت صناعة الجلد منتشرة ويمثلون أغلبية الصناع كذلك الدباغة بالنباتات، كما كانت صناعة المجوهرات بالذهب والنحاس، كما كانت صناعة الخشب والفخار والأواني وكانت مزركشة وملونة.(ظاهر باسم، 2003، ص48).

وعليه فإن الحرف الصناعية في صنغاي كان قد اختص بها سكان المدن، ورغم ما يبدو من كثرة الصناعات فإنه كانت لا تزيد عن سد الاحتياجات المحلية ومعظم المنتوجات كانت للاغنياء دون سواهم .

التجارة: تعتبر التجارة من أهم الموارد التي اعتمدت عليها المملكة التي سيطرت على الطرق الرئيسية التي تمر بها هذه التجارة عبر الصحراء وقد كانت هناك تجارة داخلية وتجارية خارجية.

أ- التجارة الداخلية:

ونخص بالذكر الأسواق والتي كانت توجد في المدن الداخلية والمناطق التي يكثر فيها السكان منها الأسواق المحلية لسكان القرى يعقد فيها سوق أسبوعية وأسواق جهوية في المراكز الحكومية ،وتاتيها السلع من

الخارج وبضائع متنوعة وهناك أسواق كبرى وتقع في شمال البلاد وعن طريقها تتم عملية التصدير والاستيراد مع الخارج ، كما كان بها دكاكين بسيطة وكانت وسائل النقل الخاصة بالبضائع تتم عن طريق القوارب في الأنهار والحيوانات خاصة الحمير و الثيران والنقل على ظهور العبيد ، أما عن المقاييس فكان الشبر (21.5سم).

الذراع: حوالي 50 سم الميل ويستعمل في قياس المسافات حوالي 1920 متر.

الفرسخ: كان يساوي 3 اميال أما عن المكاييل: الصاع حوالي 3ل.

القنطار: هو حوالي 100 رطل ، المودي: يساوي ما يحمله العبد من حبوب أو غيرها في كيس من الجلد ، أما الأسعار كانت تختلف حسب الظروف ، خاصة أسعار العبيد التي كانت تعتبر حسب عمر وجنس العبد كذلك تختلف تبن الشمال والجنوب وكان الثمن على العموم بين 05-10 أوقيات ، وكان الملح يعتبر من البضائع الأكثر أهمية خاصة في تغازة كما كانت الدولة هي التي تحدد أسعار الملح كما اشتهرت بتجارة الخيول التي تعتبر أرفع شيء في صنغاي كانت تتبادل بالعبيد كما كان للجمال وزن أهمية كذلك أشتهرت المملكة بتجارة الحبوب أي ما تستورده القمح الزبيب الفواكه المجففة والتمور وكانت أسعارها غالية فمثلا القمح كان ب ، 14 أوقية وترتبط الأسعار بمدى الأمن في البلاد.(عطية مخزوم الفيتوري ، ص 321)

كما كانت تجارة الأقمشة بين صنغاي والمغرب (دول المغرب) كذلك بين مدنها مثل تمبكتو وغاو وكانت أسعارها تختلف بحسب الطول والعرض وبحسب جودتها ، فنجد قماش فارس والمشرق حوالي مثقال من الذهب كما كانت صناعة السيوف فإن جزء منها يستورد من الخارج وكان ثمنه حوالي 3-4 أوقيات كما كان ورود القوافل يخضع لتوفر الأمن في الصحراء وبين مدن صنغاي ولعامل الاستقرار في البلدان القادمة منها وإليها ،أما الرواتب فكانت تدفع سنويات للعلماء والمدرسين حوالي ألف مثقال في العام ، وعموما فإن التعامل بالعملة في صنغاي كان في البداية بالذهب بدون سكه ثم أصبح دراهم غير مكتوبة كما وجد في حفريات غاو كثير من الدراهم والدفاتير الفاطمية والمغربية وكان عددها قيلا ثم تطورت في عهد العهد الأساقي وأصبحت تمسك فأصبح الدينار الدرهم والأوقيات.(عبد القادر زبادية ،1989 ص ص 195-199)

وعليه فإن التجارة الداخلية كانت جزء كبير منها يتم عن طريق التبادل العيني والمنتشر بين الأهالي والمنتوجات المحلية وكانت النقود تتوفر عند الميسورين من الشعب كذلك عند الموظفين الذين تمنح لهم كهبات من البلاط الملكي ، وعليه فهم الذين يستأثرون بالمنتجات ،وقد كان للبلاد مقاييس ومكاييل وموازين ثابتة ومتعارف عليها وبواسطتها كان يتم التعامل في الأسواق التي تعددت وانتشرت في مختلف نواحي البلاد مما يعطي للباحث صورة حية ضمن النشاط التجاري داخل المملكة ويزيد تأكيدها توفر الوسائل الخاصة بالنقل التي توفر نقل البضائع إلى كل أنحاء البلاد كما كانت الضرائب خفيفة بحيث تحصل من الزراعة 30 كيل من مزرعة وكانت الضرائب تفرض في الريف والمدينة ويدفعها الأمراء كذلك ولتجنب الغش رتبت الموازين ، المثقال 72حبة... (اسماعيل العربي ،1983 ص 329).

ب.التجارة الخارجية: لقد اتصلت قبائل السودان الغربي منذ القديم مع السكان شمال إفريقيا ولم تكن الصحراء يوم من الأيام تشكل عائقا ولقد كانت الأسس الأولى المباشرة لهذا الاتصال هي التجارة وتبادل المنتوجات ، وكانت تتم عن طريق القوافل حيث يذكر ابن خلدون أن عدد الحمال المحملة تبلغ حوالي 12 ألف جملا ، وهذا نظرا لكثرة السلع المتبادلة بها ، ولقد كانت صنغاي تستورد الأواني النحاسية والمصنوعات

الحديدية والزجاجية والعطور والتمور والتين المجفف والمنسوجات القطنية والكتب والقمح ، التي كانت تأتي من المغرب ومصر ومن أوروبا عن طريق المغرب كإسبانيا أما صادرتها فتتمثل في الدرجة الأولى الملح والذهب والعبر والنعام أو بيضه و التوابل وقد ساعد في ازدهار التجارة في مملكة الصنغاي وجود مراكز تجارية هامة مثل تمبكتو وغاو وإضافة إلى توفير الأمن للقوافل التجارية من أي اعتداء فمن أشهر طرق القوافل في أيام صنغاي هي سجلماسة إلى غاو ومن تلسمان إلى غرداية إلى تمبكتو ومن ورقلة إلى غاو ومن مصر لغاو وتمبكتو ، كذلك من توات لتمبكتو.(عبد القادر زبادية ، 1989 ، ص27)

وقد وجدت على طريق القوافل آبار وتعد محطات استراحة لهذه القوافل ، وعليه كانت صنغاي بواسطة تجارتها الخارجية النشيطة قد أفادها جدا في ربح الفوائد: كذلك ربح مجيئ التجار إليها ، كما استفادت من تصريف منتجاتها التي كادت لا تعرف الركود ، ولعل أهم من ذلك كله أن ميدان التجارة الخارجية كان يشكل طريق انتقالها للعالم الخارجي وقد جلب إليها ذلك في ميدان أن الازدهار الحضاري عظم الفوائد ، كما كان لها علاقات تجارية مع توات التي تنقل القوافل إلى تمبكتو بمختلف البضائع.(فرج محمود فرج ، 1984 ، ص76).

الأوضاع الاجتماعية والثقافية: لقد كانت صنغاي مقارنة بالممالك الأخرى منظمة في الجانب الاجتماعي تنظيما خاصا يخضع في غالبه إلى الطبقية في المجتمع لاعتبارات عديدة ،كما كانت حياة الفرد الصنغائي تخضع غالبا لشروط حسب الظروف السائدة ، كما عرفت صنغاي حركة فكرية وثقافية تمثلت في مظاهر عديدة خاصة في عهد الأسيقين الذي شجعوا الحركة الثقافية والعلمية في صنغاي.

أولا: طبقات المجتمع: كانت صنغاي تعتمد نظام الطبقية كما كان في إمكان أي فرد التحول من طبقة إلى أخرى كارتقاء العبد إلى وظيفة في الدولة ، وهذه الطبقات كان فنها امتيازاتها ودرجات بينها وهي:

1- الطبقة الأولى: وتأتي على رأس تلك الطبقات أفراد العائلة المالكة والفئة الأرستقراطية المؤلفة من الحاشية والنبلاء والقواد وولاة التعليم وكانت هذه الطبقة أقل الطبقات عددا ، لكن كانت أكثرها ثروة كما كانت تعيش في ترف ولا نجد في قوائم الولاة سوى ألقاب النباله ، وكانت تطلق على الوجهاء دون غيرهم حتى أنه أثناء موت أحد النبلاء تجرى مراسيم خاصة حسب مكانته ، كما كانت القوانين لا تطبق عليهم سواء من الهيئات العليا أو القضاة كما كان حكام المدن يمنع عنهم العقوبات ، كما اختصت هذه الطبقة بالوظائف السامية في المملكة.

2- الطبقة الثانية الوسطى: وكانت تتشكل أساسا من التجار الأجانب ، والتجار المواطنين والقضاة والأئمة والمدرسين كما كانت هذه الطبقة أكثر عددا من الطبقة الأولى كان لها امتيازات عديدة لكن في معظمها لا تتولى الوظائف السامية العليا وكان ثبات مرتباتهم مرهونة بسلوكهم المستقيم.

كما كان التجار الأجانب لهم مكانة خاصة وكذا القضاة ،وكان التجار الأجانب أثرى من التجار المحليين لأن تجارتهم محلية ومحدودة.(عبلد القدر زبادية ، 1989 ، ص113)

3- الطبقة الثالثة: وهي ما يصطلح عليه بطبقة العامة كانت تتكون من العبيد الأقنان وأصحاب الحرف ، وكانت أكثر عددا وأقلها اعتبارا في المجتمع كما تعتبر هذه الطبقة المطبقة المنتجة لأنها أكثرها عبيد للعمل وتزايدت خاصة بعد فتوح الإسقيا محمد الذي عين القبائل التابعة لسني باروا حوالي 24 قبيلة بقيت تحمل في خدمة الأساقي ، وكان العبيد يباعون ويقايض بهم.ويذكر الوزان أن ثمن الخيل يساوي 15 رأس عبد وكما ذكر أن تغازة كان يعمل بها العبيد فقط ؟ ، كما ذكر أن المسافر عندما يسافر يلاحظ عدد هائل من عبيده يحملون

أمتعته كما أطلق على الزنوج الحراطن وكان القن بعكس العبد يتمتع بالحرية الشخصية ، كما كانت فئة أخرى وهي أصحاب الحرف الأحرار وكانت نسبتها قليلة ، لكنها كانت ذات اعتبار بالمقاربة مع العبيد الأقنان لأن عدد قليل وهذه الحرف مهمة في المجتمع لأن المجتمع زراعي وقليل الصناعة ومنها الحددة والتجارة ، لكن على المستوى العام لا قيمة لها فهي لا تشارك في تسيير البلاد لكن كانت عليها أعباء من الأعمال.(عبد القادر زبادية ، 1989 ، ص ص 120-123)

الحياة اليومية للسكان: كان اللباس يعتبر من الأناقة خاصة أيام الأعياد وكانت النسوة تتزين بشيء يلصق في رؤوسهن وصدورهن وأقراط عريضة وخلاخيل في الأرجل ، كما كان الرجال يقضون اليوم في العمل ، أما المرأة فهي تقضي وقتها في المنزل وكان الناس ذو الأعمال السهلة والوظائف المريحة يسهرون ليلا أما الناس ذو الأعمال الصعبة فينامون مبكرا ،كما يحتفل الناس بالعيد كانوا يحتفلون بيوم تتويج الملك وكان الناس يخشعون في مناسبات الموت لقراءة القرآن ، كما كان الميت يدفن يوم وفاته أو في الغد ، أما الطبقة العليا فيبقى الميت أياما ثم يدفن كما كان للأساقي مقبرة في غاو ، كما كانت الأسواق منتشرة في المدن والريف ووجود دكاكين في المدن ويظهر من خلال أسئلة الأسقيا محمد الكبير التي وجهها للمغيلي قصد الإفتاء والذي نصحه المغيلي بأن التعامل في السوق يجري بدون غش.(الحسن بن محمد الوزان الفاسي ، 1983 ، ص 160)

أما التعامل بالربا والغش في الكيل وأكل أموال الناس بالباطل وعدم الايفاء بالوعد ، فهذه الأمور سرعان ما تلاشت معظمها بدخول الاسلام رغم ترسخ بعضها أما السرقة فكانت شرعا ممنوعة ، وكانت الألبسة صب القدرة الشرائية كما كان البرنوس موجودا وكانت السراويل منتشرة وكان استعمالها من طرف القادة أكثر وكان الملوك يلبسون ثياب حريرية غالية الثمن ، وكان للإسلام تأثير واضح في التقليل من المفاهيم الخائطة مثل السحر وحاربه الأسيقين الذي اعتبروه بدعة لا تليق بمقام المملكة الاسلامية كما حاربوا بعض مخلفات الوثنية مثل عبادة الجن وغير بالإسلام وتبني المذهب المالكي والدعوة للجهاد ضد الوثنية.

أما المسكن فقد كانت واجهة لابراز الطبقية وكان السكان يبنون مساكنهم مثلا حول النيجر (أحدى ضفافه) وكانت التجمعات التي تقارب 1000 تعتبر مدينة ، وكانت المواد الأساسية للبناء الجير الطبيعي (الطوب والطين) وكانت منازلهم دائرية ذات قبة كما كانت هناك ابنية عادية مربعة وكانت المنازل منتشرة ، كما كانت الأكواخ منتشرة والمبنية بالطين والمغطاة بالأوراق أما الميسورون فيغلفونها بالجلد من الداخل أما قصور الملك واسعة كما كان الحال للمساجد ، كما كان سكان الصحاري مرتحلين لذلك استعملوا الخيام.(عبد الرحمان ابن خلدون ، د ت ، ص 350)

أما اللغة وكانت الصنغائية كلغة عامية بين السكان كما كانت تتواجد لغات أخرى خاصة بالقبائل التي أخضعتها صنغاي.(عطية مخزوم الفيتوري ، ص 325)

التعليم: عرفت سنغاي أيام الأسقين كل المعارف تقريبا التي توصل إليها العالم الاسلامي سواء عن طريق الكتب التي ترد إليها بكميات كبيرة أو عن طريق التجارة والفقهاء ، أو عن طريق الطلاب السودانين الذين عرفت عنهم في هذا العهد حركة دائبة اتجاه مصر وشمال إفريقيا للدراسة كما كان للعلماء الذين يجلبهم الأسقين من كل مكان دور في نشر الفقه والتعليم ، وكان الملوك لهم أعظم تكريم وعملهم في مجال التدريس والقضاء وظهرت في هذه المرحلة مؤلفات عديدة بينها لأحمد بابا التمبكتي في كتابة نيل الابتهاج في تطريز

الديباج ، وكتاب "كفاية المحتاج بتطريز الديباج" ومن أشهر العلماء كلك محمد بن محمود أقيت وبن عمر بن محمد أوقيت و البلبالي ونتيجة تعدد الفقهاء والقضاة فقد كان بعضهم يستدعى للتدريس في الأزهر.

أما اللغة فقد كانت اللغة العربية لغة التدريس وهي لغة الكتاب الرسمية كما كان المعلمون يحظون باحترام كبير في جميع جهات المملكة الصنغائية سواء من السلطة أو من المجتمع وكانوا يتقاضون الأجور من السلاطين ، أما التعليم فكان مهما للطلبة وكان على اطوار: التعليم الابتدائي ، الثانوية والعالي ، في المرحلة الأولى عبارة عن كتاتيب أما المواد الرئيسية خاصة هي حفظ القرآن ، الإلمام بمبادئ اللغة والفرائض وكان السن المحدد للمرحلة الأولى 05 سنوات(عطية مخزوم الفيتوري ، ص 326) وكان عدد الكتاتيب كثيرا وكلما تمكن طالب من المرحلة الثانوية من اجتياز مادة يستطيع أن يصبح مدرسا فيها أما عن الشهادة فكانت "إجازة" وكانت في المساجد الكبيرة تتكفل بالتعليم الثانوية أما جامع السنكوي فقد كان التعليم فيه من النوع العالي ، وكانت الطريقة المتبعة من طرف المشاهير الأستاذة.(عبد القادر بن زبادية ، ص 141)

كما كان الشرح بطريقة مبسطة لتقريب الفهم مع بعض لتعمق ويصبرون على مناقشة المسائل المختلفة مع طلابهم ، وكان من صفات المعلم الشيخ المتواضع ، والصبر بحيث قال أحمد بابا عن أحد معلميه "وكان له صبر عظيم على التعليم" كما تطورت الحركة الفكرية وهذا من خلال ميادين وهي:

1- الآداب وأسلوب الكتابة: لقد كانت مملكة صنغاي قبل الاسلام تعتمد على الحكاية في نقل الحوادث أي رواية ولما جاء الاسلام ينشر مفاهيم عديدة أما العامة فبقيت متأصلة فيها التقاليد القديمة ، وكانت المدن الكبرى معروفة بالمؤلفين والعلماء والكتابات العلمية كما استطاع السودانيون نقل الشعر من المشرق وأسلوب الكتابة كان شقيا كما حدث تفسير الألفاظ والأسلوب المتبع وكانت المؤلفات بالعربية.

2- الشعريات وعلوم اللغة: كان في صنغاي علماء لفة وفقهاء رغم هذا نجد أن السحر والشعوذة كان له مكان بين الناس (الإيمان بالكرامات) رغم ذلك فإنهم لا يفقهون كثير ويظهر هذا من خلال أسئلة الأسفي وأجوبة المغيلي الذي تأسف لعدم فقه فقهاء بلاده الإسلام جيدا ولم تكن لهم مؤلفات في هذا المجال.

3- التاريخ: لقد كان عبد الرحمان السعيد وابن الحاج المتوكل ومحمود كعت من أبرز الفقهاء وقد اهتموا بتسجيل الحوادث مثل تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس وذكر وقائع التكرور وعظائم الأمور وتفريق الانساب العبيد والأحرار وتناول عهد الأسقين كما ألف السعدي (كتاب تاريخ السودان).

وعليه نستنتج أن الحركة الفكرية كانت الأبحاث فيها كل شيئ نشيطة خاصة علوم الشرع واللغة ، أما الأدب فكان ضعيفا لكنها كانت منتجة في التاريخ ، والدليل هو مصادر التي ذكرناها سباقا وبقيت مشاهدة وبقيت بمثابة عنوان على الإنتاج السوداني الصرف في تلك الفترة.(عبد القادر زبادية ، ص 154-162)

الفنون والعمارة:

أ-**الفنون:** وتتمثل أساسي في الموسيقى ، الرقص ، الغناء ،النقش والنحت وقد لاحظ الكتاب الجغرافيون العرب مدى براعة سكان صنغاي فيها وقد ذكر الحسن الوزاني أنه شاهد سكان سنغاي يبيتون في غناء ورقص حتى الفجر خاصة في الأعياد وكانت تقرع الطبول عند الخروج للمعركة أو مجيئ الملك أو الوالي في إقليمه أما عن آلات الطرب فإن المعروف على عهد الأسقين الطبول وهي أنواع منها الكبيرة التي يستعملها الحرس الملكي بالجيش أما الصغيرة فلعامة الناس كما كانت الطبول ، كانت الأبواق وهي من قرون البقر وأنياب الفيل وهو

مقتصر على الجيش كما استعملت قصبات البراع كمزامير ويستعمل في الحفلات العامة أما في المناسبات الرسمية فهناك فرق خاصة ، أما الغناء فقد كان يبدأ شخص ثم يشاركه البقية أما الرقص فكان جماعيا ويسرون على ضربات الطبول بغير اتباع واحد لأنه يثير فيهم نوعا من الهوس.(الحسن بن محمد الوزان الفاسي ،1983 ، ص 167)

ب-العمارة: إن العمار الأصلية قبل الاسلام هو بناء مستدير مغطي بالأقصاص أما الحيطان بالطوب أما الأغنياء فكانت بالأجر كما عرفت بناء زربية للحيوانات أمام البيت أو لستر المنزل ولقد كان في صنغاي أشكال لفن البناء وهي:

-الشكل الإفريقي القديم الدائري السقوف الأخصاص وهو شبه دائري.

-الشكل المربع المسقوف بالتراب والمحاط بارتفاع وثقب (الطراز المغربي)

-الشكل الهرمي ويخص المساجد .

خاتمة: من خلال ورقتنا هذه يمكن أن نخلص إلى نتائج وهي:

أولا: اعتبرت فترة مملكة صنغاي مرحلة النضج الحضاري التي لم سبق لها مثيل في السودان الغربي لأنهم أول من سس دولة أسسها الإسلام ونبذوا القبلية.

ثانيا: إن مجمل الحروب التي خاضتها خارج حدودها لم تكن فقط لنشر الإسلام فقط ، كما زعموا أيضا لتوسيع نفوذهم زعما أن تلك المناطق كانت غير دولة وإن كانت مسلمة.

ثالثا: عرفت صنغاي تحولات عامة في الميدان العسكري والاجتماعي وهذا نتيجة لتأثير بالبلدان الأخرى وهذا ما وفره الإسلام عن طريق التبادل والاتصال بين الشعوب.

رابعا: لقد اعتمد اقتصاد صنغاي بالدرجة الأولى على التحكم في الطرق التجارية ووفرت له التعامل مع بلدان مختلفة إليها ذلك الازدهار وتكونت لديها حواضر اقتصادية هامة.

خامسا: كانت ملكة صنغاي إلى حين سقوطها أكثر الممالك الإسلامية الكبرى في الغرب الإفريقي مجسدة بمفاهيم الإسلام ، وعليه كانت تحوي وجود علماء ومؤرخين منها لم تشهد الفترة أمثالا لهم وهذا يدل على مدى انتشار الثقافة والعلوم من خلال المراكز الثقافية المختلفة.

وعليه تبقى صنغاي إحدى أهم الممالك الإسلامية في السودان الغربي التي استطاعت فرض وجودها وتجسيده في مختلف الميادين لينتهي هذا الدور بعد سقوطها على يد السعديين سنة 1591م.

الإحالات :

1-اسماعيل العربي: الصحراء الكبرى وشواطئها ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، 1983.

2-الحسن بن محمد الوزان الفاسي: وصف إفريقيا ، تر: عن الفرنسية ، محمد محمد الأخضر ، ط2 ، دار الغرب الاسلامي ، بيروت ، 1983م.

3-ظاهر باسم: افريقيا ما وراء الصحراء من الاستعمار إلى الاستقلال ، ط1 ، المكتب المصري لتوزيع المطبوعات ، القاهرة ، 2003.

4-عبد الرحمان ابن خلدون: كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي السطان الأكبر ، ج6 ، مؤسسة جمال للطباعة قيروت ، الميناء.

5-عبد القادر زبادية: الحضارة العربية والتأثير الأوروبي في إفريقيا الغربية جنوب الصحراء المؤسسة الوطنية للكتاب: الجزائر ، 1989م.

6-عطية مخزوم الفيتوري: دراسات في تاريخ شرق افريقيا وجنوب الصحراء (مرحلة انتشار الاسلام)، ط1، منشورات جامعة قاز، تونس، 1998.
7-فرج محمود فرج: اقليم توات خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ميلادي، أطروحة لنيل دكتوراه الدور الثالث في التاريخ، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1984.
8-فيصل محمد موسى: موجز تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر، منشورات الجامعة المفتوحة، طرابلس، 1997.

الإعلام والأزمات التعليمية: دراسة حول صيغ تعامل الإعلام المغربي مع الأزمة التعليمية الناتجة عن إدراج اللهجة المحلية في مقررات اللغة العربية أنموذجا

Media and educational crises: a study on the modes of dealing with the Moroccan media with the educational crisis resulting from the inclusion of the local dialect in Arabic language courses as a model.

د. عمر التاور
كلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة ابن زهر – أكادير – المغرب.

مقدمة

يشهد العالم العربي اليوم أزمات متتالية بعضها حقيقي أفرزه ما يعتمل في واقع العالم العربي من مشاكل اقتصادية، واجتماعية، وتعليمية، وبيئية يسهم الإعلام العربي بمختلف تشكيلاته (الصحافة الورقية، والصحافة الإلكترونية، والقنوات التلفزية، والإذاعات العامة والخاصة ...إلخ) في تشخيص أسبابها، والتحسيس بمخاطرها، واقتراح خطط واستراتيجيات لعلاجها ؛ وبعضها الآخر اصطنعه الإعلام العربي نفسه عبر قنواته المختلفة لأسباب متداخلة بعضها دعائي (الزيادة في الانتشار واستقطاب الجمهور) وتجاري (الرفع من المداخيل عبر الزيادة في المبيعات، وعبر استقطاب المستشهرين، ...إلخ)، وبعضها الآخر سياسي (تحوّل الإعلام إلى أداة في يد السياسي يستخدمها لتحقيق أغراضه) أو إيديولوجي (تحوّل الإعلام إلى قناة يتم من خلالها تصريف مواقف أو آراء أو توجهات فكرية معينة).

وعليه، فإن الإعلام، بهذا المعنى، يؤدي دورا مزدوجا حيال الأزمات المختلفة، فهو من جهة يسهم في حلها استنادا إلى وظائفه الاجتماعية (عبد اللطيف حمزة، 1984)، ومن جهة ثانية يعمل على خلقها أو إذكائها، إما لأسباب سياسية، من حيث إن الإعلام آلية من آليات التأثير في الأذهان والتلاعب بالعقول (بورديو، 2004) ؛ وإما لأسباب إيديولوجية، من حيث إن الإعلام جهاز من الأجهزة الإيديولوجية للدولة (ألتوسير، 1976) ؛ وإما لأسباب تجارية، من حيث إن الإعلام محكوم بهاجس الربح لا العناية بالحقيقة (إدوارد سعيد، 2006). والسؤال المركّب الذي يروم هذا البحث – الذي نحن بصدده – طرحه والتفكير فيه هو: ما طبيعة العلاقة القائمة بين الإعلام (الإعلام المغربي تحديدا) والأزمات المختلفة (الأزمة التعليمية تحديدا)؟ وما صيغ تعامل الإعلام المغربي مع الأزمة التعليمية الناتجة عن إدراج اللهجة المحلية في مقررات اللغة العربية؟ وهل أسهم الإعلام المغربي – عبر صيغ تدخله - في حل هذه الأزمة التعليمية باقتراح خطط واستراتيجيات علاجية لها أم عمل على إذكائها لأغراض ظاهرة أو خفية؟

1: جذور الأزمة التعليمية: ليست الأزمة التعليمية المرتبطة بلغة التعليم حديثة العهد بالمغرب، فهي أزمة قديمة ترجع إلى المرحلة الاستعمارية، وتضاعفت وتيرتها في مرحلة الاستقلال حيث اندلع جدال حول لغة التدريس أهي العربية أم الفرنسية ؛ وعلى الرغم من اختيار سلطات الاستقلال اللغة العربية لغة للتدريس وإرسائها لدعائم مدرسة وطنية عمادها أربعة مبادئ من جملتها التعريب، إلا أن التعريب ظل "يشكل دون شك أعتقد قضية في نظام التعليم بالمغرب ؛ فقد كان منذ البداية موضع تساؤلات عدة ووجهات نظر متباينة:

هل ينبغي القيام بالتعريب الكلي أم الجزئي فقط للتعليم؟ هل ينبغي تعريب التعليم في الحين أم تأجيله إلى أمد معين؟" (المروني المكي، 1996)؛ وبسبب هذا التردد في الحسم والاختيار، بقيت سياسة التعريب دوما وإلى نهاية السبعينات سياسة متأرجحة. ف"فيما يخص التعليم الابتدائي، قرر إصلاح 1957 تعريبه، لكن إصلاح 1958 تراجع عن هذا التعريب. واتخذ المخطط 1960 – 1964 من القضية موقفا توفيقيا حيث قرر، من جهة، تعريب المواد العلمية في الابتدائي، ومن جهة أخرى، إحداث معهد للبحث حول التعريب كلف بإعداد تعريب ممنهج لنظام التعليم، الشيء الذي يعني إرجاء التعريب الفعلي للنظام التعليمي إلى أجل غير مسمى. هذا، وتم توقيف مسلسل التعريب بين 1961 و1963 لاعتبارات سياسية ووطنية (موقف مصر في حرب الحدود بين المغرب والجزائر) ليعاد تحريكه بين 1964 و1967. في هذه السنة الأخيرة، تم تعريب التعليم الابتدائي كليا، لكن سيتم العدول عن تعريب المواد العلمية بعد سنتين" (المروني المكي، 1996).

وهكذا، بقيت سياسة التعريب الرسمية، لمدة طويلة، سياسة متأرجحة، ومترددة، ومطبوعة بالعشوائية؛ ولم يظهر مذهب واضح بشأن التعريب - وهو في الواقع برنامج أكثر مما هو مذهب - إلا في فجر الثمانينات. لكن في أثناء هذا التردد وهذا التأرجح، أخذت اللغة الفرنسية تعزز موقعها شيئا فشيئا حتى أصبحت عاملا حاسما في عملية الانتقاء المدرسي معززا وظيفة الانتقاء الاجتماعي التي يقوم بها النظام التعليمي (المروني المكي، 1996)، وهو ما أدى في النهاية إلى تشكل طبقيتين اجتماعيتين متمايزتين ومتصارعين، لكل واحدة منهما مصالحها وثقافتها وإيديولوجيتها. ومن هنا رجاحة ما ذهب إليه الأستاذ محمد سبيلا من أن المدرسة المغربية تعكس، إلى حد كبير، الوضعية العامة للمجتمع، وترتبط بوتيرة تطوره وبصراعاته المختلفة (محمد سبيلا، 2012)؛ فلا عجب إذا اعترف تقرير الخمسينية بأن المدرسة ظلت لفترة طويلة حقلا للاستقطاب الإيديولوجي والسياسي وفضاء للتعبير عن الصراعات السياسية والتوترات الاجتماعية، خاصة أن الصراع السياسي الحاد الذي اندلع في المغرب مباشرة بعد الاستقلال تحول إلى صراع مركزي انعكست آثاره وأصداؤه على كافة القطاعات الاجتماعية، وعلى رأسها التعليم، الذي تحول، بدوره، في بعض الفترات إلى أداة صراع لنصرة ودعم اتجاه ضد آخر. وهذا ما طبع السياسة التعليمية بالكثير من التعثر والتردد، سواء حول الشكل أو حول المضمون نفسه (محمد سبيلا، 2012).

بيد أن هذه الأزمة القديمة المرتبطة بلغة التعليم (العربية أم الفرنسية) سرعان ما عادت مؤخرا في ثوب جديد وفي جدال جديد لا بين اللغة العربية واللغة الفرنسية (الذي لا زال قائما) أو بين اللغة العربية واللغة الأمازيغية، وإنما بين اللغة العربية والدارجة (اللهجة المحلية / العامية).

ومعلوم أن الدعوة إلى استعمال الدارجة ليست جديدة، فقد بدأت في المشرق العربي في القرن التاسع عشر، وكانت تهدف آنذاك إلى القضاء على اللغة العربية، بإبعادها عن التعليم والإدارة وسائر المرافق الحيوية؛ وتبنى هذه الدعوة – التي شكلت في ذلك الوقت جزءا من المشروع الاستعماري الساعي لإحلال لغته محل اللغة العربية – عدد من المستشرقين، ووجدت أذانا مصغية لدى بعض الكتاب العرب أمثال: لطفي السيد، وإسكندر معلوف، وأنيس فريحة (إسلمو ولد سيدي أحمد، 2013)؛ أما ظهور هذه الدعوة حديثا بالمغرب فقد اقترن بصدور توصيات ندوة تدعو إلى اعتماد الدارجة المغربية في التعليم بداعي تجاوز فشل المدرسة المغربية، وبمبرر أنها اللغة الأم التي أوصت منظمة اليونسكو والمجلس الأعلى للتعليم بالتدريس بها.

وما كان لهذه الدعوة أن تثير ضجة إعلامية ومجتمعية، ولا أن تخلق أزمة تعليمية استأثرت باهتمام الإعلاميين والفاعلين التربويين والثقافيين والسياسيين لولا إقدام وزارة التربية الوطنية — في خطوة أولى - على إدراج بعض مفردات الدارجة / اللهجة المحلية في المقررات التعليمية - ومن جملتها مقررات اللغة العربية - من قبيل : الشربيل ، والطربوش ، والقميجة ، والبريوات ، والبغرير ، والغريبة (انظر الصورة) ؛ ومن قبيل:

واحد جوج تلاتة

بّا مشا لسباتا

شر ليا قميجة

أنا واختي خديجة

خديجة خديجة

طالعة للبيرو

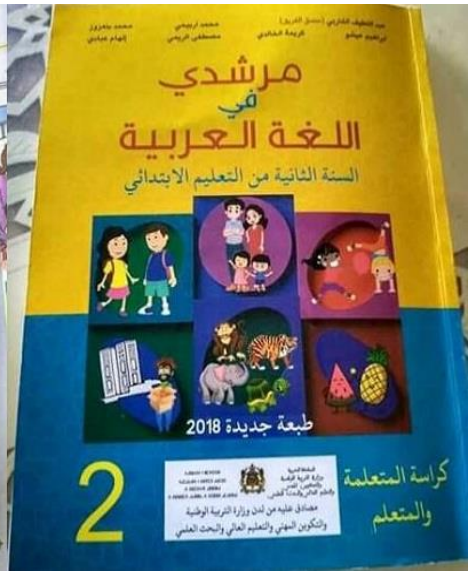
كتشرب السيرو

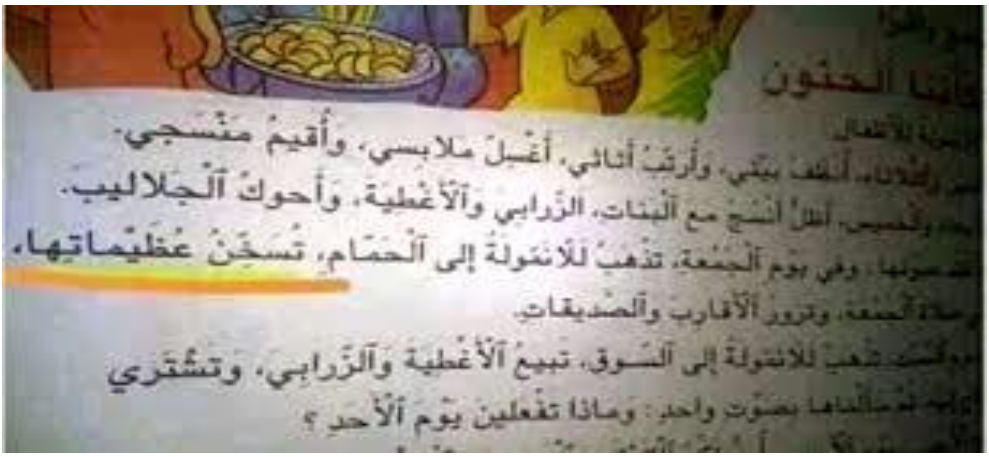
النعناع والشيبة

السكر للخليفة

واحد جوج ثلاثة









وطبعا لا يمكن فصل الدعوة إلى استعمال الدارجة في التعليم ، ولا إقدام الوزارة على إدراج اللهجة المحلية في مقررات اللغة العربية عن "التصور المركانتيلي الذي يود أن يُلحق المدرسة والجامعة بالسوق باعتبارها مؤسسة هدفها تزويد أسواق المال والتجارة والإدارة بما تحتاجه من أطر ، وأيضا التصور الوضعي أو التقني ، الذي يود أن يجعل الجامعة في خدمة المعامل والصناعات المختلفة عن طريق التركيز على العلوم والتقنيات ، وكذلك التصور الإيديولوجي ، بمنظوره التقليداني والحداثي ؛ وهي تصورات ظلت تتصارع في قلب كل مشروع تعليمي" (محمد سبيلا ، 2012).

بيد أن ما يهمنا هنا ليس هو هذا الجدال في حد ذاته الذي انتهى إلى قيام أزمة تعليمية رافقتها ضجة إعلامية ومجتمعية ، وليست تهمنا أيضا خلفياته الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والإيديولوجية ، بل إن ما يهمنا ويشد انتباهنا هو تناول الإعلام المغربي لهذه الأزمة وصيغ تعامله لها.

2-2: صيغ تعامل الإعلام المغربي مع الأزمة التعليمية: يكشف التأمل في تعامل الإعلام المغربي مع الأزمة التعليمية الناتجة عن إدراج اللهجة المحلية في مقررات اللغة العربية عن وجود أربعة صيغ أو أشكال لهذا التعامل ، أولها الانتصار لإدراج الدارجة (اللهجة المحلية) في المقررات التعليمية ، وثانيها الانتصار للإبقاء على اللغة العربية الفصحى لغة للتدريس ، وثالثها الذود عن اللغات الأجنبية والتمكين لها في قطاع التعليم ، ورابعا

الدفاع عن السياسة اللغوية الرسمية والانتصار لموقف وزارة التربية الوطنية من الأزمة التعليمية ؛ وبيان ذلك كله:

أ- الانتصار للدارجة: انبرى قسم من الإعلام المغربي في تناوله للأزمة التعليمية للذود عن وجهة النظر التي تدافع عن إقحام اللهجة المحلية في المقررات التعليمية بما فيها مقررات اللغة العربية ؛ ومن جملة المنابر الإعلامية المغربية التي سلكت هذا المسلك نجد جريدة "الصباح"، و"الخبر المغربية"، و"الأحداث المغربية" التي حفلت بمقالات وحوارات تدافع عن إدراج اللغة المحلية في المناهج التعليمية لمبررات منها أن:

- العربية نفسها لهجات، ولم تكن لغة قريش التي نزل بها القرآن الكريم سوى لغة مشتركة بين جميع اللهجات، بحكم أنها كانت لغة السوق التجارية الكبرى في شبه الجزيرة العربية، والتي كانت تجمع كل أبناء وتجار القبائل العربية آنذاك، فكانوا مضطرين إلى الحديث بلغة مشتركة هي أقرب ما تكون إلى لغة معيارية باصطلاح اللسانيين (جريدة الخبر المغربية، 2013).

- الدارجة تُكتب، ولديها شعر وزجل وملحون وحكايات مكتوبة بشتى الأصناف والأمثال ؛ فالدارجة، بهذا الاعتبار، ثقافة يجب أن نفتخر بها، ويجب إدخالها إلى المدرسة لأنها تلعب دورا كبيرا في التعليم يجب على المتخصصين أن يفكروا فيه (جريدة الصباح، 2018).

- جميع المغاربة يتكلمون الدارجة بعد الفطام مباشرة وقبل دخول المدرسة، وهم ليسوا في حاجة إلى أن يتعلموا النطق بالدارجة، ولذلك فسوف يكون في متناول التلميذ أن يتعلم العلوم والمعارف بسرعة دون حاجة إلى تعلم اللغة العربية أو اللغة الفرنسية لكي يتعلم بها بعد ذلك علما من العلوم أو معرفة من المعارف (جريدة الخبر المغربية، 2013).

- الدارجة ليست لغة الشارع بل هي لغة المؤسسات، وتستعمل حتى في وسائل الإعلام ؛ والمغاربة عندما يتواصلون يتحدثون بالدارجة وليس باللغة العربية الفصحى، ولا وجود لشخص بالمغرب يتكلم الفصحى في حياته اليومية أو في عمله، وحتى في المؤسسات التعليمية نجد أن الأستاذ عندما يرغب في شرح بعض الدروس المستعصية يفسرها بالدارجة (جريدة الصباح، 2018).

- إدراج الدارجة في مقررات اللغة العربية سيغني العربية الحديثة بالدارجة المغربية وبكلمات وعبارات أجنبية، مع ردها إلى البنيات التركيبية والصوتية للعربية، ذلك أن النص الديني نفسه يتضمن الكثير من الكلمات غير العربية (جريدة الخبر المغربية، 2013).

- اعتماد اللهجة الدارجة المغربية، بصفتها اللغة الأم، في التعليم هو الحل الأمثل للهدر المدرسي والسبيل الوحيد لنجاح التعليم المغربي، لأن فشل هذا التعليم راجع بالأساس إلى التناقض الموجود بين اللغة المستعملة داخل المدرسة (الفصحى) واللغة المستعلمة خارجها (الدارجة)، في وقت يصعب فيه على الطفل في سنه الصغير مجاراة هذا التناقض وفهمه ؛ وهو ما تداركته بعض الدول الإفريقية كالسنغال وساحل العاج اللتان يتم التدريس فيهما بالنسبة للتعليم الأولي باللغات الأم الشعبية (سفيان البالي، 2018).

ب- الانتصار للفصحى: في مقابل الإعلام المغربي المنتصر لإدراج اللهجة المحلية في المقررات التعليمية للمبررات السالف ذكرها، ثمة قسم ثان من الإعلام المغربي يعارض إدراج اللهجة المحلية في المقررات التعليمية، وينتصر للإبقاء على اللغة العربية لغة للتدريس وتعميمها على جميع المستويات بما فيها التعليم

العالي الذي ظل مفرنسا منذ فجر الاستقلال. ويستند هذا القسم من الإعلام المغربي في دعواه إلى مبررات ومعطيات منها:

- إن استخدام مصطلحات عامية في مقررات اللغة الغربية خطوة غير بريئة ، وإنما تأتي ضمن مخطط يحركه اللوبي الفرانكفوني (الناطق بالفرنسية) في المغرب ، من أجل التمكين للغة الفرنسية وإضعاف اللغة العربية ؛ أما الخطورة المترتبة على استخدام مصطلحات بالدارجة في كتب مدرسية ، فإنها لا تقتصر فقط على التمكين للغة الأجنبية في البلاد ، من أجل أن تصبح هي اللغة الأولى ، وإنما يتعلق الأمر بخطة من قبل الداعمين للعامية في التدريس لخلق منظومة قيم جديدة بديلة عن القيم الوطنية الأصيلة للشعب المغربي (هسبريس ، 2018).

- إن الدعوة إلى الدارجة ليست إلا محطة استراحة في انتظار خوض معركة ترسيم الفرنسية ، لأن الفرنسية لغة مُقصية ولا تتعايش مع غيرها من اللغات ، وهذا ما يفسر عدم اعتراف الدولة الفرنسية بأي لغة أخرى على ترابها ، وبهذه العقلية الإقصائية التي يتبناها الفرنسيون ثقافيا ولغويا يفكر المتفرنسون المغاربة الذين لا يرون لأهدافهم نجاحا إلا من خلال إضعاف اللغة العربية (التجديد ، 2013).

- ليست هنالك دارجة مغربية واحدة بل دوارج مغربية متعددة ، ثم إن الدارجة خليط من العربية والفرنسية والاسبانية والأمازيغية ، احتوت ألفاظا من هذه اللغات وأخذت منها بعض القواعد كذلك ، فالجملة الفعلية في الدارجة تبتدأ بالاسم يليه الفعل ، وهذا النمط الصرفي تتميز به اللغات الغربية كالفرنسية والإنجليزية عكس العربية التي تبتدأ بالفعل ، ومن ثم فإن الدارجة تستلهم التصميم اللغوي الفرنسي إلى حد ما ؛ وقد يقول قائل بأن اللغة العربية تتضمن ألفاظا دخيلة ، ولكن ما يميز اللغة العربية أن لها ضوابط لإضافة هذه الألفاظ تمكنها من إخضاعها لقواعدها المعلومة (أخبارنا المغربية ، 2018)

- إن التعليم بالدارجة يقتضي وضع نحو لدارجة معيارية من أجل أن تصبح لغة للتعليم لا دارجة من الدوارج ، غير أن الأصل في الدارجة أن تظل كذلك إلى جانب جاراتها من الدوارج الأخرى ، ولا يمكن تحويل الدارجة الواحدة ، أو أكثر من دارجة ، إلى لغة واحدة ، أي أنه لا يمكن صناعة دارجة واحدة داخل مختبر لغوي نحوي ، ففي هذه الحالة لن تصير لغة حية وستكف الدارجة عن أن تكون دارجة (مخلص الصغير ، 2013).

- إن اللغة العربية مشترك لغوي بين الدول العربية ، وإن اعتماد الدارجة له ما بعده ، فتدريس شعب لغة غير مقعدة ستجعله عاجزا عن الصناعة الأدبية والفكرية. والعجيب أن الدول الغربية تدرس اللغة المعيارية وليس اللهجات ، فاسكتلندا مثلا لها لهجة ، وأمريكا الجنوبية لها لهجات ، ولكن التدريس يكون باللغة المعيارية ، أما بالنسبة لنا فسيكون هناك حاجز بين الدول العربية ، وحتى الإنتاج الأدبي أو الفكري المتضمن لألفاظ دارجة سيظل حبيس تلك الدولة وتلك الثقافة التي أنتجته ولن تكون هنالك إمكانية انتشاره على امتداد الرقعة العربية ، وهو الشيء الذي نجحوا فيه للأسف مع شعوب تنسلخ بصورة مستمرة من ماضيها (اعتماد الفيتنام للحروف اللاتينية مثلا)، ولم ينجحوا فيه مع أمم ارتبطت بتراثها (مثل الصين والحرف الصيني) (أخبارنا المغربية ، 2018).

- إن المدرسة المغربية في المجمل توصل المعارف باللغة الدارجة وهذا واقع مرير ، لكن أن يكون المحتوى والطريقة معا باللغة الدارجة فهذا أمر أصعب ، فالتلميذ الذي يتلقى معارفه بالدارجة لن يجد - بعد انتقاله إلى

المستوى الجامعي أو إتمامه دراسته بالخارج - تلك الدارجة ضمن البرامج التعليمية، ولن تخول له الدارجة الاندماج السهل ضمن المؤسسات المحدودة الاستقطاب مثلا (أخبارنا المغربية، 2018).

- إن اعتماد الدارجة في التعليم باعتبارها لغة تعليم لا يروم الإسهام في التنمية أو تقريب المعلومة من المواطن كما يشاع، بل هي محاولة لتسطيح الوعي وربطه بالمركز الفرنكفوني. فاللغة ليست مجرد آلية للتواصل، ولكنها منظومة معرفية وقيمية، وأهم العناصر التي تشكل الوجود الذاتي والجمعي، لذا كان مدخل التحرر على الدوام هو المحافظة على العربية باعتبارها ثابتا من ثوابت الهوية الحضارية للأمة ؛ أما التعدد في لغات التدريس فمعناه فتح المجال للتفكير بطرق متعددة، وترسيخ الاستلاب الثقافي والفكري، وتشويه مقومات الهوية الثقافية والجماعية (التجديد، 2013).

ج- الانتصار للغات الأجنبية: وعلى النقيض من النمطين الإعلاميين المغربيين السابقين ثمة نمط إعلامي مغربي ثالث يدافع لا عن الدارجة ولا عن اللغة العربية ولا عن اللغة الأمازيغية، بل عن اللغات الأجنبية (الفرنسية والإنجليزية) لأسباب ومبررات منها أن:

- وظيفة اللغة الأولى هي التواصل، والمغرب ضيع الكثير من الفرص بعد التعريب ومازال يتحمل تداعيات هذا القرار. وسيكون من الحكمة أن لا نرهن مستقل البلاد في نقاشات إيديولوجية متقادمة أو من خلال تسابق تجاري محض، لأننا نعيش واقع العولمة والكونية، ودور المدرسة ينحصر في إعداد أجيال قادمة ستسير مقاولاتنا وإداراتنا وتقود أحزابنا بعد عشرين سنة. ففي فرنسا مثلا تفرض المدارس العليا تعلم لغة "الماندارن" الصينية على طلابها لأن الصين أصبحت قوة اقتصادية لا يمكن تجاوزها ؛ ولهذا لا يجب أن نراهن على الدراجة ولا على اللغة العربية الفصحى التي لا تضمن سوى التواصل مع المحيط الجغرافي القريب، لأن التمكن من اللغات الأجنبية، ومنذ سن مبكرة، هو ما يجب أن يصبح الرهان الأساسي في التعليم (الأحداث المغربية، 2018).

- من المفروض أن تسمح سياسة الجهوية للأكاديميات التعليمية المحلية باختيار اللغات التي ترغب في تطويرها استنادا إلى نوع التنمية المحلية في كل جهة، ونوعية الاستثمارات المنتظرة فيها، والدول التي تأتي منها هذه الاستثمارات، ودول الأسواق التي يفترض تصدير المنتجات المحلية إليها. وسيكون من البديهي مثلا أن يتوقف اختيار الجهتين الشمالية والشرقية على تفضيل الإسبانية، أو أن تطور المدن السياحية مضامين تعليمية بالألمانية والروسية والصينية لأن الأسواق التي تتكلم بهذه اللغات في غاية الأهمية لمشروعها السياحي وهكذا دواليك ؛ فنحن بحاجة إلى جيل متعدد اللغات، لأن المستثمر لن يبذل أي مجهود لتعلم الدارجة أو العربية الفصحى قبل الاستقرار في المملكة والعمل فيها (الأحداث المغربية، 2018).

- الانفتاح واجب وليس اختيارا، وهو أمر لن يتم دون التمكن من اللغات الأجنبية ؛ وليس هناك أي خطر في تبني هذا التصور، كما أن الانفتاح على اللغات الأخرى لن يشوه المجتمع المغربي (الأحداث المغربية، 2018).

- تخويف المجتمع بموضوع الهوية واستغلالها لأسباب أخرى يجب أن يتوقف، لأن الدستور المغربي واضح في مسألة الهوية المتعددة للمملكة، وليس فيه تفضيل لأي بعد هوياتي على باقي الأبعاد في الشخصية

المغربية ، والمغاربة يقبلون العيش في هذا التنوع دون مشاكل ؛ وكلما كانت البلاد في خطر ، كانت الهوية المتعددة للمملكة صمام الأمان الأول في الدفاع عنها (الأحداث المغربية ، 2018).

- البعض من السياسيين الذين ينتقدون الدارجة ويدّعون الدفاع عن المدرسة العمومية ، يرسلون أبناءهم إلى مدارس البعثات الأجنبية وإلى أكبر المدارس الخاصة بالمغرب ، ويدفعون مقابل ذلك مبالغ مهمة حتى يستفيدوا من تعليم عال ، وهو ما يُفقد شطحاتهم وخرجاتهم الإعلامية المصداقية (جريدة الصباح ، 2018).

د- الانتصار لموقف وزارة التربية: يرى قسم من الإعلام المغربي أن الأزمة التعليمية الناتجة عن إدراج اللهجة المحلية في مقررات اللغة العربية مجرد أزمة مصطنعة وزوبعة في فنجان ، لأن هذا الإدراج بيداغوجي صرف لاعتبارات منها أن الدراجة هي الحاملة للهوية والثقافة المغربية ، وهي التي يمكن أن تغرس القيم بشكل مباشر في التلميذ وتيسر التعلمات في العملية التعليمية التعلمية ، ومن ثم إنقاذ المنظومة التعليمية المغربية التي تعاني عدة مشاكل وأزمات أسهمت في احتلال المملكة لمراتب جد متدنية في مستوى التعليم عالميا (أخبارنا المغربية ، 2018).

والمتأمل في تناول هذه المنابر للأزمة التعليمية الناتجة عن إدراج اللهجة المحلية في مقررات اللغة العربية يجد أنه استعادة للموقف الذي عبرت عنه وزارة التربية الوطنية في بيان للرأي العام جاء فيه أن "اعتماد الثقافة المغربية في نصوص موجهة لتلاميذ المراحل الأولى من تعليم اللغة العربية يستند إلى منطلقات بيداغوجية تتلخص في اعتماد اختيار النصوص على مدخل الموضوعات والمجالات الأسرية والبيئية والوطنية ، وعلى القراءة والفهم عبر نصوص حكائية ووظيفية" (العمق المغربي ، 2018). وبررت الوزارة تضمين تلك المصطلحات الواردة في نصوصها بضرورة استثمار "حقول لغوية مختلفة تنسجم مع كل مجال وتثري الرصيد اللغوي للمتعلم ، إذ إنه ينبغي في هذا الصدد دعم هذا الرصيد بواسطة الوقائع والأمثلة والأشياء المحسوسة المستقاة من المحيط والوسط" (العمق المغربي ، 2018) ؛ مضيفة أن إنتاج المقررات الدراسية لم يعد مهمتها منذ سنة 2002م وفق المخطط الحكومي للتربية والتعليم ، والذي فوض المهمة إلى الخواص ، مع المحافظة على دور لجنة المناهج التابعة للوزارة في المصادقة على مختلف المقررات الدراسية.

والغريب في هذا البيان أنه يتناقض مع جاء على لسان رئيس الحكومة (سعد الدين العثماني) الذي أكد في تصريح صحفي أنه لا يمكن أبدا استعمال الدارجة في التعليم ، أولا ، لأن اللغتين العربية والأمازيغية هما اللغتان الرسميتان دستوريا ، وثانيا ، لأن القانون الإطار الذي يؤطر العملية كلها ينص في الفقرة 29 منه على ضرورة التقيد باللغة العربية لقطع الطريق على الدارجة (إيلاف المغرب ، 2018) ؛ وهو ما زاد الأزمة التعليمية اشتعالا ، ودفع بالكثير من المهتمين إلى المطالبة بضرورة سحب المقررات الدراسية ومحاسبة المسئولين عن إدراج اللهجة المحلية في مقررات اللغة العربية.

وسواء تعلق الأمر بالانتصار للدارجة (اللهجة المحلية) أو للعربية الفصحى أو للغات الأجنبية (الفرنسية والانجليزية) أو لموقف وزارة التربية من الأزمة التعليمية ، فإن الإعلام المغربي لم يعمل عبر هذه المواقف/الانتصارات إلا على إذكاء الأزمة التعليمية الناتجة عن إدراج اللهجة المحلية في مقررات اللغة العربية بدل الإسهام في حلها عبر اقتراح حلول ناجعة لها ؛ ومهما حاولت بعض المنابر الإعلامية تقريب وجهات النظر بين المثقفين أو الفاعلين السياسيين من قبيل القناة الثانية المغربية (2M) التي أجرت مناظرة شهيرة بين

المفكر عبد الله العروي ورجل الإعلام وصاحب الدعوة إلى اعتماد الدارجة في التعليم نور الدين عيوش إلا أن هذه المحاولات زادت — على العكس من ذلك - الأزمة استفحالا بازدياد المصطفين خلف العروي أو عيوش ، وبازدياد البرامج التلفزية التي تناولتها (برنامج "قضايا وآراء" بالقناة الأولى المغربية ، وبرنامج "مثير للجدل" وبرنامج "أزمة حوار" بقناة MEDI1TV أنموذجا) إلى الحد الذي جعل منها موضوعا للإعلام العربي (جريدة القدس العربي ، وجريدة السفير أنموذجا) والدولي (BBC عربي ، و24 France أنموذجا).

ولعل المثير في تعامل الإعلام المغربي مع الأزمة التعليمية الناتجة عن إدراج اللهجة المحلية في مقررات اللغة العربية أنه لم يقف عند تناول هذه الأزمة من وجهات النظر السالف ذكرها ، بل تعدى ذلك إلى استقطاب المثقفين والسياسيين للخوض في بحر هذه الأزمة دعما ونصرة لوجهة النظر التي يدافع عنها كل منبر إعلامي على حدة ، فتحول الإعلام المغربي بذلك - وبغض النظر عن الخط التحريري - إلى حلبة صراع وإلى مرتع لخوض المثقفين والسياسيين في ثلاث إشكاليات كبرى تفرعت عن الجدال المرتبط بالأزمة التعليمية ، وهي: إشكالية اللغة والهوية (حسن أوريد ، وبنسالم حميش أنموذجا)، وإشكالية اللغة والدين (أحمد عصيد ، والمقرئ أبوزيد أنموذجا)، وإشكالية اللغة والكونية (عبد الله العرروي ، وعبد الله حمودي أنموذجا).

خاتمة

تأسيسا على ما سبق ذكره ، يمكن القول إن الأزمة التعليمية الناتجة عن إدراج اللهجة المحلية في مقررات اللغة العربية أثارت جدلا واسعا بين من يعتبرها إجهازا على اللغة العربية ومحاولة فرنكفونية لطمس معالم الثقافة العربية وتحويل اهتمام الناشئة إلى اللهجة المحلية باعتباره بديلا للغة العربية ، وبين من يراها خطوة طبيعية في التعليم الأولي طالما أن لغة الأم هي الطاغية على ألسنة الأطفال ، وطالما أن الأطفال لم تنضج لديهم بعد أجهزة النطق لاستعمال لغة عربية فصيحة وغير متداولة ؛ أما فحص وتحليل صيغ تعامل الإعلام المغربي مع هذه الأزمة التعليمية الناتجة عن إدراج اللهجة المحلية في مقررات اللغة العربية فيبرز أن الإعلام المغربي لم يعمل - في تناوله لهذه الأزمة التعليمية — على الإسهام في اقتراح استراتيجيات عقلانية وخطط بيداغوجية تسمح باحتوائها في أفق حلها وعلاجها ، بل عمل على إذكائها لأسباب مرتبطة بالانتصار لمواقف سياسية وإيديولوجية مختلفة (الترويج لمواقف دعاة التمكين للغة الفرنسية في قطاع التعليم ، ...إلخ) أو مرتبطة بتحقيق أغراض نفعية صرفة من جهة أخرى (خلق الإثارة لاستقطاب أكبر عدد من المتابعين والمستشهرين ، ...إلخ).

قائمة المراجع

- إدوارد سعيد (2006)، تغطية الإسلام ، ترجمة: محمد عناني ، رؤية للنشر والتوزيع ، القاهرة ، جمهورية مصر العربية.
- بيير بورديو (2004)، التلفزيون واليات التلاعب بالعقول ، ترجمة: درويش الحلوجي ، دار كنعان للدراسات والنشر والخدمات الإعلامية ، دمشق ، سوريا.
- المروني المكي (1996)، الإصلاح التعليمي بالمغرب (1994-1956)، مطبعة النجاح الجديدة ، الدار البيضاء ، المغرب.
- عبد اللطيف حمزة (1984)، الإعلام والدعاية ، الطبعة الأولى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، جمهورية مصر العربية.
- أحمد الشرعي (2018)، "الدارجة في التعليم: نقاش مغلوط" ، جريدة الأحداث المغربية (النسخة الالكترونية)، الدار البيضاء ، المغرب.
- إسلمو ولد سيدي أحمد (2013)، "آراء حول اعتماد الدارجة في التعليم" ، موقع وجدة سيتي ، وجدة ، المغرب.

- محمد سبيلا (2012)، "أزمة المدرسة والجامعة المغربية"، جريدة المساء، عدد 1852، الرباط، المغرب.
- محمد بها (2018)، "الدارجة ليست عدوة العربية" (حوار مع نور الدين عيوش)، جريدة الصباح، (النسخة الالكترونية)، الدار البيضاء، المغرب.
- محمد عادل التاطو (2018)، "أسباب إدخال الدارجة في المقرر الدراسي"، موقع العمق المغربي، الرباط، المغرب.
- مروان مودنان (2018)، "هل يمكن للدارجة المغربية أن تكون بديلا عن اللغة العربية؟"، جريدة أخبارنا المغربية (النسخة الالكترونية)، الرباط، المغرب.
- مخلص الصغير (2013)، "من تعلم الدارجة إلى التعليم بالدارجة"، جريدة الخبر المغربية (النسخة الالكترونية)، الرباط، المغرب.
- مجموعة محررين (2018)، "الدارجة في التعليم المغربي: تقديرات فردية أم "اختراق لغوي؟"، موقع هسبريس، الرباط، المغرب.
- مجموعة محررين (2013)، "التعليم بالدارجة" (ملف صحفي)، جريدة التجديد، عدد 3267، الرباط، المغرب.
- سعد الدين العثماني (2018)، "لا يمكن أبدًا استعمال الدارجة في التعليم" (حوار)، موقع إيلاف المغرب، الرباط، المغرب.
- سفيان البالي (2018)، "نتعلم بالفصحى أم بالدارجة؟ جدل لا يتوقف حول مناهج التعليم في المغرب"، موقع ساسة بوست.
- Luis Althusser (1976), ***Positions*** (1964 — 1975), Les Editions sociales, Paris, France.

المتقاعدين مفهوم الذات لدى المسنين المتقاعدين وغير

Self-concept of the retired and non-retired elderly

د. مؤيد حامد جاسم الجُميلي
مركز أبحاث الطفولة والأمومة ، جامعة ديالى- العراق

مشكلة البحث

يعتبر التقاعد واحد من الأحداث الهامة في مجرى حياة الأسرة عموماً والمتقاعد خصوصاً ، به تتغير أو تتوقف أنماط حياتية واجتماعية وفكرية ونفسية واقتصادية اعتاد عليها المتقاعد لفترات طويلة ، والموائمة لعملية التقاعد ليست سهلة ، فالكثيرين يعتقدون قبل بلوغهم مرحلة التقاعد أنها ستكون مرحلة رائعة للتخلص من روتين العمل اليومي وفجأة يجدون أنفسهم في كثير من الأحيان يواجهون العديد من المشاكل النفسية والاجتماعية والاقتصادية (البقلي ، 1977 ، 30).

وقد يكون للتقاعد أثرا سيئاً على حياة المتقاعد وذلك لما ينطوي عليه من تغيير في الدور أو المكانة ، وبالتالي فان الانتقال من العمل وما يتصل به من مكانة وادوار إلى التقاعد قد ينشأ عنه بعض المشكلات النفسية(حسن ، 2011 ، 121)، ومن أهم هذه المشكلات هو إحساسهم بأنهم غير مرغوب فيهم ولا فائدة منهم ، واعتقادهم بأن مرحلة التقاعد هي نهاية الحياة والامتناع عن مزاولة أي نشاط ، والتحول إلى صفر أو قيمة سالبة تأخذ ولا تعطي تضر ولا تنفع (البربري ، دس ، 2)، بالإضافة إلى الشعور بالحزن واليأس وضعف التوافق الشخصي والاجتماعي نظراً لعدم إشباعهم دوافع العمل لديهم وانخفاض المستوى الاقتصادي للأسرة ، وزيادة وقت الفراغ وشعورهم بعدم اهتمام المجتمع بهم (اسعد ، 1977 ، 41)، ويرى ميلر (Miller) إن التقاعد هو أزمة هوية (Identity Crisis)، وقد تؤدي هذه الأزمة إلى شعور المتقاعد بالتدني في احترامه لذاته وتقديرها مما يجعله يحجم عن المشاركة الاجتماعية بالإضافة إلى ضعف شعوره بالالتزام نحو أدواره الاجتماعية الأخرى (سماعنة ، 2008 ، 18)، وكل هذه تعد من العوامل المؤثرة في مفهوم الذات لدى الفرد ، فالأشخاص الذين لديهم مفهوم ذات منخفض لا يرون قيمة أو أهمية في أنفسهم ويعتقدون أن الآخرين لا يقبلونهم ويشعرون بالعجز (أبو جادو ، 2002 ، 152)، فالبحث في مفهوم الذات يساعد على تقييم جوانب الفرد الشخصية والاجتماعية والمهنية ، فمفهوم الذات الإيجابي لدى المتقاعد سيجعله بشكل عام اجتماعياً ، ومستقراً عاطفياً ، ويواجه الحياة بثقة ويدرك نفسه بواقعية ، ويعتقد بأنه جدير بالإحترام والتقدير ، ويثق بصحة أفكاره.

أهمية البحث: تتجلى أهمية البحث الحالي في مرحلة التقاعد وأثرها في شخصية المتقاعد واستقراره الانفعالي والاجتماعي ، إذ تعد هذه المرحلة احد المراحل المهمة التي يمر بها الإنسان ، بل أنها في نظر البعض ثاني أزمة يمر بها الإنسان بعد مرحلة المراهقة لما للعمل من أهمية كبرى في حياة الفرد تتعدى الأهمية المادية باعتبار إن العمل هو المكانة والمركز الاجتماعي والقيمة الذاتية الأولى في حياة الفرد (الغريب ، 1998 ، 180)، فالزيادة في إعداد هذه الفئة من المتقاعدين يتطلب الاهتمام بها بشكل اكبر ، فالثروة البشرية هي أهم أنواع

الثروات الموجودة في أي مكان ولذا فالدراسة العلمية النفسية للكبار والمتقاعدين تهدف إلى معرفة الإمكانات البشرية والطاقات الكامنة لتوجيهها لخير المجتمع ولخير النوع الإنساني كله فكما يحتاج المجتمع إلى سواعد الشباب وقوتهم يحتاج أيضاً إلى عقل وفكر المتقاعدين وذوي الخبرة وبذلك يستطيع المجتمع أن ينمو ويزدهر(الميلادي ، 2002 ، 65) ، فالمتقاعدين ثروات وكنوز مليئة بالخبرات والتجارب العملية قد اكتسبوها في أعوام عديدة ، فالوطن بحاجة لعقولهم لأنهم خدموا الوطن وأناور عقولا لشباب بالعلم والخبرات والعمل ، وليس من المعقول أن تترك هذه الشموع المتوهجة ولا تستغل تلك الكنوز والخبرات ، ويحرم الوطن من إبداعاتهم وخبراتهم ، لذلك ينبغي الاهتمام بتلك الفئة من المتقاعدين والحرص على التواصل معهم واستثمار خبراتهم وعلمهم وتفعيلها في هذه الحياة(سماعنة ، 2008 ، 8)، وعليه فأن أهمية البحث الحالي تتبلور في النقاط الآتية :

-قلة الدراسات التي تناولت هذا الموضوع وندرتها في البيئة العراقية .

-تطرقه لمفهوم الذات لدى شريحة مهمة من شرائح المجتمع وهي شريحة المتقاعدين وتأثيره في التوافق النفسي والاجتماعي وتقبل الذات ،ومساعدتهم على التكيف مع الواقع الجديد.

-يمكن للمتخصصين الاستفادة من النتائج التي يتم التوصل أليها في التخطيط ومساعدتهم في وضع الخطط المناسبة لدعم أوضاع المتقاعدين.

-أن النتائج وما تتوصل إليه هذه الدراسة من مقترحات يمكن أن تثير بحوثاً نظرية وميدانية تعمق الموضوع وتعزز أسس المعرفة في هذا الميدان.

أهداف البحث يهدف البحث الحالي إلى مقارنة مستوى مفهوم الذات لدى المسنين المتقاعدين واقرأنهم غير المتقاعدين في مدينة بعقوبة ، ومن الهدف أعلاه اشتقت الفرضيات الصفرية الآتية:

-لا توجد فروق ذات دلالة معنوية عند مستوى (0,05)في متوسطات درجات مفهوم الذات بين المسنين المتقاعدين والمسنين غير المتقاعدين.

-لاتوجد فروق ذات دلالة معنوية عند مستوى (0,05) في متوسط درجات مفهوم الذات بين المسنين المتقاعدين (ذكور ، إناث).

حدود البحث : يتحدد البحث الحالي بالمسنين المتقاعدين في مدينة بعقوبة واقرانهم من العاملين في المؤسسات الحكومية في مدينة بعقوبة.

تحديد المصطلحات:

مفهوم الذات Self-Concept تعريف زهران 1989: هو تكوين معرفي منظم ومتعلم للمدركات الشعورية والتصورات والتقويمات الخاصة بالذات يبلوره الفرد ويعتبره تعريفاً نفسياً لذاته(زهران ، 1989 ، 83).

تعريف سمارة وآخرون 1993: هي الطريقة التي ينظر بها الفرد إلى نفسه ، ويكون تفكيره وشعوره غالباً متسقاً ومنسجماً مع مفهومه عن ذاته ، وهو مجموعة من القيم والاتجاهات والأحكام التي يملكها الإنسان عن سلوكه وقدراته وجسمه وجدارته كشخص ، وهو مفهوم متعلم مكتسب يتكون لدى الفرد من خلال تفاعله مع بيئته(سمارة وآخرون ، 191 ،1993) نقلاً عن القطناني 2011.

تعريف كوبرسميث وفيلدمان (Coopersmith and Feldman,1974): هو تلك الاعتقادات والافتراضات التي يحملها الفرد عن نفسه كما تفهم وتنتظم من الداخل والتي تتضمن أفكار الفرد عن أي نوع من الأشخاص هو وماهية الخصائص التي يمتلكها ، والسمات الأكثر أهمية وتأثيراً في نظره (Coopersmith & Feldman 1999 , 1974 ,). ويعرف إجرائيا بأنه الدرجة التي يحصل عليها المجيب من خلال إجابته على مقياس مفهوم الذات ، إذ تعد الدرجة العالية التي يحصل عليها المجيب مفهوماً ايجابياً للذات ، أما الدرجة المنخفضة فتمثل مفهوماً سلبياً للذات.

التقاعدRetirement تعريف (Atchley , 1976): هو انقطاع الشخص عن أداء وظيفة ما ظل يؤديها حتى سن التقاعد ، ولكن ذلك لا يعني أن الشخص أصبح غير قادر على العمل تماماً(6 - 5 1976 , Atchley).

الشخص المتقاعد Retired Man تعريف خليفة 1997: هو كل من ترك وظيفته ، سواً كان إجبارياً بسبب بلوغه سن التقاعد أو اختيارياً بسبب ظروفه الصحية (خليفة ، 1997 ، 19) ، أما ريتشارد ولفينسون وبترسون: فقد عرفوا الشخص المتقاعد من خلال تقسيمهم لأنماط المتقاعدين إلى خمسة أنماط وهي على النحو الآتي:

النمط الناضج: وفيه يقع هؤلاء الذين يقبلون التقاعد بسهولة دون الندم على ما فات ، كما إن بإمكانهم إقامة علاقات جديدة ومهام جديدة تشغل حياتهم.

أصحاب المقعد الهزاز: وهم الذين يرحبون بالتقاعد كمرحلة للاسترخاء والتأمل والتمتع السلبي بالعمر.

أصحاب الدروع: هم الذين يتبعون أسلوب حياة مفعم بالنشاط لكي يدافعوا به ضد قلق التقدم بالعمر.

الغاضبون: هم الذين لا يستطيعون مواجهة فكرة التقدم في العمر ويلومون الآخرين عن فشلهم في تحقيق أهداف حياتهم.

كارهو أنفسهم: هم الأشخاص الذين يلومون أنفسهم عن كل فشل لحق بهم ، وغالباً ما يفشل أصحاب النمطين الأخيرين في مواجهة أزمة التقاعد والتغلب عليها(البربري ، ب ت ، 20).

الإطار النظري:

مفهوم الذات: Self-Concept: يعد مفهوم الذات من الموضوعات التي اختلف علماء النفس حوله قديماً وحديث أسواً كان هذا الاختلاف في عملية تمييزه عن المفاهيم الأخرى مثل تقدير الذات أو تقرير الذات أو توكيد الذات ، أو الإدراك الذاتي ، أو تداخله مع مصطلحات أخرى مثل الأنا والنفس والروح.

والمتتبع للخلفية التاريخية لتطور مفهوم الذات يجد انه يعود إلى عصر الفلاسفة الإغريق كأفلاطون وأرسطو الذين تداولوا مفهوم الذات كهوية أو تفرد ، مروراً بديكارت الذي يراه كجوهر مدرك ، إلى الجدل الفلسفي بين مفكري عصر النهضة وعلى رأسهم هيوم ، والذين حاولوا التمييز بين الحواس ومدركاتها العقلية كالتفكير وصولاً إلى المنهج العلمي الذي تبناه جيمس في تفسير مفهوم الذات والذي صنفها في أربعة مستويات أو نطاقات منظمة في بناء هرمي يمثل: الذات الجسمانية والذات الاجتماعية و الذات المادية والذات الروحية(الجُميلي ، 2008 ، 23-24). أما النظرة المعاصرة لمفهوم الذات فقد تشكلت تاريخياً في أربعة مصادر متميزة هي: علم نفس النمو (إريكسون) والمذهب التفاعلي الرمزي (كولي وميد) وعلم النفس الظاهراتي (روجرز) وعلم النفس التجريبي (مارش وشافلسون) (Rayner,2001,26).

فروجرز (Rogers,1951) ينظر إلى الذات كمصطلح يمثل تلك العمليات النفسية التي تتحكم في سلوكاتنا مع التركيز على أهمية النظر إلى الكائن كشخص أو ككل متكامل ، أما كوبر سميث وفيلدمان (Coopersmith & Feldman,1974 فيعتقدان بأن مفهوم الذات يتكون من تلك الاعتقادات والافتراضات التي يحملها الفرد عن نفسه كما تفهم وتنتظم من الداخل والتي تتضمن أفكار الفرد عن أي نوع من الأشخاص هو وماهية الخصائص التي يمتلكها ، والسمات الأكثر أهمية وتأثيراً في نظره(Coopersmith & Feldman,1974 ,199). أما فهمي (1976) فيشاطرهما وإلى حد كبير الرؤية في أن الذات تتكون من مجموع إدراكات الفرد لنفسه وتقييمه لها ، فهي من وجهة نظره بناء مكون من خبرات إدراكية وانفعالية تدور حول الفرد باعتباره مصدر الخبرة والسلوك(فهمي ، 1976 ، 49).

ويرى روجرز(Rogers) بأن كل فرد لديه حاجة لتقدير ذاته على نحو موجب ، حيث أن مفهوم الذات الإيجابي لدى الفرد يقوده إلى حالة من الرضاء والتوافق النفسي والاجتماعي والشعور بالاطمئنان ، ويبين روجرز أن بإمكان الفرد معرفة مفهوم الذات لديه من خلال مقدار التطابق بين الذات المثالية والذات الواقعية فإذا كان مفهومه لذاته متقارباً بما يطمح أن يكون عليه سيكون تقديره لذاته عالياً (شلتز ، 1983 ، 270).

ويعتبر مفهوم الذات من المفاهيم متعددة الأبعاد ، حيث يعتبر ركناً أساسيا وحجر الزاوية في بنا الشخصية ، ويشكل مفهوم الذات للفرد أهمية خاصة لفهم ديناميات الشخصية والتوافق النفسي ، وعليه يمكن تعريف مفهوم الذات على أنه " الوعي بكينونة الفرد " وتنمو الذات وتنفصل تدريجياً عن المجال الإدراكي وتتكون بنية الذات كنتيجة للتفاعل مع البيئة ، وتشمل الذات المدركة ، والذات الاجتماعية ، والذات المثالية ، وقد تمتص قيم الآخرين ، وتسعى للتوافق والثبات ، وتنمو نتيجة للنضج والتعلم (زهران ، 2000 ، 367).

من هنا فإن مفهوم الفرد عن ذاته ينمو نتيجة تفاعله مع البيئة الاجتماعية ، وبالتالي فهذا المفهوم من وجهة نظر روجرز هو المسئول عن سلوك الفرد حيث أن الخبرات التي تتطابق مع مفهوم الذات والمعايير الاجتماعية تؤدي إلى الارتياح والتوافق النفسي فيما تشكل تلك الخبرات التي تتعارض مع المعايير الاجتماعية ومفهوم الذات تهديداً يؤدي إلى سوء التوافق (دويدار ، 1999 ، ص34).

أنواع مفهوم الذات: هناك نوعان لمفهوم الذات تحدث عنها العلماء والباحثون وهما:

مفهوم الذات الايجابي: إن معرفة الفرد لذاته بشكل جيد وتقبله لهذه الذات والتعايش معها وفهمها ، يلعب دوراً هاماً بأن يتمتع الفرد بالصحة النفسية والتوافق النفسي ، وهي أيضا عامل أساسي في توافق الشخصية ، وتقبلنا لذاتنا يعتمد بشكل جوهري على تقبل الآخرين لنا ونظرتهم لنا أيضاً.

مفهوم الذات السلبي: إن تصرفات الفرد وأساليبه في الحياة والتي تعتبر خروجاً عن اللياقة والذكاء الاجتماعي ، وتعبير الفرد عن نفسه أو الآخرين بشكل سلبي ، ينتج عن تكوين الفرد لمفهوم سلبي عن ذاته ، واعتماده على نظرة الآخرين السلبية له لسبب أو لآخر ، يعتبر مفهوم سلبي للذات أو عدم تقدير لها(القطناني ، 2011 ، 35).

التقاعد Retirement التقاعد بمعناه اللغوي هو تخلي الفرد أو قعوده عن العمل ، أما اجتماعياً فهو حقيقة يتوصل إليها كل فرد عامل حين يصل إلى مرحلة عمرية معينة يحددها المجتمع والمؤسسات ويتقبل دوراً اقتصادياً واجتماعياً وثانوياً ، فالحكم بالتقاعد يفرض على المتقاعدين القيام بأدوار تختلف عما كانوا يؤدونه في المجتمع من قبل ، كما أنها تمثل من ناحية أخرى ظاهرة اجتماعية تتمثل في موقف المجتمع من الفرد حين

يصل إلى سن التقاعد عن العمل وما يترتب على ذلك من عدم قيامه بممارسة الكثير من أوجه النشاط اليومي التي اعتاد أن يشارك فيها لسنوات طويلة.

أما رسمياً فيتحدد سن التقاعد بالتشريعات والقوانين التي تصدرها الدول ، وفي العراق فإن سن التقاعد هو (63) سنة ، وإذا ما تجاوزنا شرط العمر فإن للتقاعد شرطاً أخر هو الإصابة بحالة من العجز الجسمي أو العقلي أو الإصابة بمرض ، وهذا الشرط ضروري لمن يتقاعد لأسباب صحية ، وعلى هذا فهناك نوعان من التقاعد الأول هو التقاعد الإجباري حيث يشعر المتقاعدون من هذا النوع إنهم طردوا من أعمالهم لا لسبب إلا لبلوغهم السن القانوني ، أما النوع الثاني فهو التقاعد الاختياري والذي يطلب فيه المتقاعدون من هذا النوع الحصول على التقاعد قبل وصولهم السن القانوني(حسن ، 2011 ، 119.)

نظريات التقاعد

أولاً .نظرية الانسحاب أو فك الارتباط Disengagement Theory: هي نظرية قدمها كل من كنج وهنري (Caneng &Henry ,1961)وتقوم على افتراض مواده إن الأفراد حينما يصلوا إلى مرحلة التقاعد فإنهم يبدؤون تدريجياً في الانسحاب من السياق الاجتماعي وتناقص الأنشطة التي كانوا يقومون بها من قبل ، وذلك نتيجة لنقص عمليات التفاعل بين المتقاعد والآخرين من أفراد المجتمع داخل النسق الاجتماعي الذي ينتمي إليه ، ووفقاً لهذه النظرية فأن التقاعد الإجباري عند سن معين يعد تحديداً من قبل المجتمع الذي يتوقع من المتقاعدين فيه أن تضعف روابطهم الاجتماعية ،وفي ضوء هذه النظرية فإن مظاهر التغيرات المصاحبة للتقدم في العمر تتمثل في ثلاثة جوانب هي:

-تناقص معدل تفاعل الفرد كلما تقدم في العمر.

-حدوث تغيرات كمية وكيفية في أسلوب ونمط التفاعل بين الفرد والآخرين.

-تغير في شخصية الفرد ، حيث ينتقل المتقاعد من الاهتمام بالآخرين إلى الاستغراق والاهتمام بذاته.

وتختلف عملية الانسحاب من مجتمع لآخر ، ومن ثقافة لأخرى ، كما تختلف شكلاً ومضموناً لدى المتقاعدين الذين يشغلون وظائف مختلفة ، فمن أوجه النقد التي وجهت إلى هذه النظرية إنها لا تنطبق على الأفراد الذين يعملون أعمالا تتصل بالأدب أو الفن أو التدريس الجامعي.

وفي ضوء هذه الانتقادات عدلت كنج (Conge) من هذه النظرية ، وأشارت إلىإن الرضا عن الحياة يرتبط بنظرة الفرد لمرحلة التقاعد ، وهل يفضل المتقاعد ممارسة الأنشطة بشكل ايجابي أم انه يرغب في العزلة والانسحاب من المجتمع(خليفة ، 1997 ، 36).

ثانياً. نظرية النشاط Activity Theory: تفترض هذه النظرية انه لكي يحدث التوافق بشكل فعال مع فقدان عمل أو وظيفة فانه يجب على الفرد أن يجد بديلاً لتلك الأهداف الشخصية التي كان ذلك العمل يقوم بتحقيقها ، وان ينمي اهتماماته ويواصل نشاطاته بما يساعد على رفع روحه المعنوية.

ويعتبر (فريدمان وهافجرست وميلر) مؤسسي هذه النظرية ، وقد ركز كل من (فريدمان وهافجرست) على أهمية الأنشطة البديلة في حالة فقد المتقاعد لوظيفته ، وعمله والتي يمكن من خلالها شغل وقت فراغه وإعادة توافقه ، كما ركز (ميلر) على الأنشطة البديلة التي تمثل مصدراً جديداً للدخل ، إذن فالأنشطة البديلة التي يقوم بها الشخص بعد التقاعد تحقق له هدفين:

الأول. أنه يجد البديل عن العمل المفتقد.

الثاني. أنها تعتبر مصدراً جديداً للدخل الذي تناقص بعد التقاعد عن العمل.

وعلى عكس نظرية الانسحاب فان نظرية النشاط ترى إن الرضا لدى كبار السن إنما يتوقف على اندماج الفرد في المجتمع وعلى تلك الإسهامات التي يظل يضيفها وعلى شعوره بأنه مازال نافعاً ومطلوباً ، فقيام المتقاعد ببعض الأنشطة يعتبر امراً ضرورياً لزيادة رضا المتقاعد عن الحياة وقناعته بها فاتجاهات المتقاعدين نحو التقاعد كما يرى هافجريست تنقسم إلى قسمين:

الأول. هم الأشخاص الذين يمكنهم التغيير من نمط حياتهم بعد التقاعد ويطلق عليهم (Transformers)عن طريق خلق أنماط جديدة من الأنشطة والأعمال لقضاء وقت الفراغ.

الثاني. وهم الأشخاص الذين يرغبون الاستمرار في نفس أعمالهم السابقة ويطلق عليهم (Maintainers).

ويؤخذ على هذه النظرية أنها لا تلاءم إلا نسبة قليلة من المتقاعدين ولا تفسر إلا نسبة ضئيلة مما يعانيه المسنون ، فالأفراد الذين كانوا مشغولين بدرجة كبيرة في عملهم فبل التقاعد ولم يكن لديهم الوقت الكافي لممارسة وتنمية بعض الأنشطة أو المهارات لن يجدوا مكاناً في هذه النظري(صيام ، 2010 ، ص38).

ثالثاً. النظرية التبادليةExchange Theory: ومبدأ التبادل هو المحور الرئيس الذي تدور حوله النظرية ، فبقدر ما يأخذ الفرد يجب أن يعطي ، ويرتقي هذا المفهوم على المستوى الجسمي ، من هذا يتضح أن هذه النظرية تفترض أن كل فرد يعاني من تعامله مع الآخرين يبذل جهده ليحدد الحد الأقصى من المنفعة بأقل تكلفة ممكنة ، وانطلاقاً من هذا المبدأ فان المتقاعدين لا يملكون ما يساومون به مقابل رعايتهم وتقديرهم ما عدا ما قدموه لأبنائهم من رعاية منذ الولادة حتى أصبحوا في سن الرجولة وهكذا يعتبرونه ديناً على أبنائهم ، عليهم سداده ، ولهذا فان جميع أنواع التفاعل الاجتماعي يمكن تحليلها وفق ما تحتويه من عمليات التبادل ، وبالرغم من القوة التي تتميز بها هذه النظرية ، إلا إن الاختلاف في وجهات النظر فيها يعد ربحاً أو خسارة يسبب الكثير من الصعوبات في وجه منظور التبادلية ، وهذا يسود جميع أنواع السلوك الإنساني(سماعنة ، 2008 ، ص31 – 32).

رابعاً. نظرية الشخصية Personality Theory: يرى أنصار هذه النظرية إن التوافق مع التقدم في العمر يرتبط بنمط وسمات شخصية الفرد ، وينظرون إلى التغيرات المصاحبة للتقدم في العمر على إنها تتجه للتفاعل بين التغيرات الاجتماعية الخارجية ، والتغيرات البيولوجية الداخلية ، وطبقاً لهذه النظرية فان الأفراد ذوي الشخصيات المتكاملة يمكنهم الأداء بشكل أفضل ، وذلك لان لديهم درجة مرتفعة من القدرات المعرفية ، والانا الدفاعية ، ودرجة عالية من التحكم في الذات ، والمرونة ، والنضج ، والخبرة ، والتفتح ، وفي مقابل ذلك يوجد الأفراد ذوو الشخصيات غير المتكاملة ، وهم الأفراد الذين لديهم إعاقات في الوظائف السيكولوجية ، ويفتقدون القدرة على التحكم في انفعالاتهم ، كما إن هناك تدهوراً في قدراتهم ، ويرى البعض إن هؤلاء الأشخاص الذين تتسم شخصياتهم بالتكامل ليس بالضرورة أن يكونوا متكاملين اجتماعياً في قيامهم بأدوارهم وفي علاقاتهم الاجتماعية ، ومع ذلك فأن لديهم درجة عالية من الرضا عن الحياة ، ويؤكد نيوجرتين (Neugarten , 1977) على أهمية الشخصية بمختلف سماتها كمتغير مستقل يساعدنا على وصف أنماط

المتقاعدين ، والتنبؤ بالعلاقات بين مستوى فاعلية الدور الاجتماعي والرضا عن الحياة (خليفة ،1997 ، ص38).

خامساً. نظرية الأزمة Crisis Theory: تؤكد هذه النظرية على أهمية الدور المهني بالنسبة للفرد داخل المجتمع ، فقيام الشخص المتقاعد بعمل ما يُعد في غاية الأهمية بالنسبة له ، حيث يكسبه الدور المهني هويته ، ويمكنه من وضع نفسه في علاقات مع الآخرين ، ويساعده على التوافق النفسي والاجتماعي ويرى أنصار هذه النظرية إن التقاعد يمثل أزمة بالنسبة للمتقاعدين وخاصة هؤلاء الأشخاص الذين يعطون للعمل أهمية كبيرة ويعيرونه قيمة في حياتهم(خليفة ، 1997 ، ص37)، وقد انقسم الباحثون إزاء هذه النظرية إلى فريقين:

الفريق الأول: يرى ممثلوه إن فقدان الفرد لعمله وتغير أدواره بعد إحالته للتقاعد يؤثر في نظرته لنفسه ، وفي علاقاته مع أسرته والمجتمع الذي يعيش فيه.

الفريق الثاني: وينظر أصحابه إلى التقاعد على انه ليس العامل الوحيد والاهم في عدم رضا المتقاعد عن نفسه وعن حياته ، فتأثير التقاعد يتوقف على عدة عوامل ، منها المستوى الاقتصادي والاجتماعي وأهمية العمل بالنسبة للفرد والحالة الصحية(عبد الحميد ، 198 ، ص56).

سادساً. النظرية الاستمراريةContinuity Theory: نظرية الاستمرارية تفترض أن المتقاعد يحاول بأقصى جهده أن يتكيف مع مرحلة التقاعد من خلال إعطاء وقت اكبر للأدوار التي يزاولها قبل التقاعد عوضاً عن مزاولة ادوار جديدة ، وتستشهد هذه النظرية على النتائج التي تشير إلى إن المتقاعدين يحاولون أن يتمسكوا بأنماط حياتهم التي درجوا عليها ، كذلك فان الكثير منهم يحاولون أن يجعلوا حياتهم خلال مرحلة التقاعد مشابهة إلى حد كبير لحياتهم قبل فترة التقاعد(سماعنة ، 2008 ، ص32).

دراسات سابقة

دراسة رمضان 1984: هدفت الدراسة التعرف على اثر صراع الدور في مفهوم الذات لدى المتقاعدين وتكونت عينة الدراسة من مجموعتين الأولى تضم 26 فرداً لم يواصلوا العمل بعد التقاعد ، والمجموعة الثانية تضم 13 فرداً واصلو العمل بعد التقاعد ، واستخدمت الباحثة مقياس صراع الدور ومقياس مفهوم الذات لدى المتقاعدين من إعداد الباحثة ، وقد افترضت الباحثة إن صراع الدور الذي يعيشه المتقاعد في تلك المرحلة العمرية له أثره على مفهومه نحو ذاته سواً بالايجابية أو السلبية ، وكانت من نتائج تلك الدراسة إن التقاعد يؤدي إلى تقليص مفهوم الذات الواقعية في جوانبها المختلفة لدى المتقاعد (رمضان ، 1984).

دراسة محمد 1990: هدفت الدراسة إلى التعرف على العلاقة بين التوافق النفسي ومفهوم الذات لدى المتقاعدين من شريحة المدرسين العاملين في قطاع التربية والتعليم ، وتكونت عينة الدراسة من (64) متقاعد جميعهم من الذكور ، وقد قسمت العينة إلى مجموعتين الأولى تضم (32) متقاعد مرتفعي التوافق النفسي والمجموعة الثانية تضم (32) متقاعد منخفضي التوافق النفسي ، وتوصلت الدراسة إلى وجود علاقة سالبة بين التوافق النفسي لدى المتقاعدين واتجاهاتهم نحو الشيخوخة ، كما توصلت الدراسة إلى وجود فروق ذات دلالة احصائية لصالح المتقاعدين مرتفعي التوافق النفسي ، ووجود علاقة ارتباطية بين مفهوم الذات والتوافق النفسي (محمد ، 1990).

دراسة الغريب 1995: هدفت الدراسة التعرف على بعض المشكلات الاجتماعية لدى المتقاعدين ودور الخدمة الاجتماعية في مواجهتها ، وقد استخدم الباحث لهذه الدراسة نمط الدراسة الوصفية ، وتكونت العينة من جميع المتقاعدين في منطقة الرياض ، وبلغ عددهم(16.216) متقاعد ، وكان من أبرز نتائج الدراسة معاناة المتقاعدون من العديد من المشكلات الناجمة عن التقاعد ، وقد جاءت المشكلات الاقتصادية في المرتبة الرابعة ، بعد المشكلات النفسية والاجتماعية والأسرية ، وتوصلت الدراسة إلى وجود علاقة وثيقة بين الشعور بالعزلة الاجتماعية والعمل بعد التقاعد(الغريب ، 1995).

راشد2004: استهدفت الدراسة تحديد أهم المشكلات المترتبة على التقاعد لكل من المتقاعدين والمتقاعدات ، والتعرف علي أوجه الاختلاف بين مشكلات المتقاعدين والمتقاعدات الناتجة عن التقاعد ، وتصميم تصور مقترح من منظور خدمة الفرد لمواجهة هذه المشكلات والدراسة وصفية تحليلية ، طبقت علي (100) من الأعضاء المتقاعدين المترددين علي نادي الأمل للمسنين بالجيزة ، وتوصلت الدراسة إلى عدة نتائج أهمها وجود عدة مشكلات مرتبطة بالتقاعد كالمشكلات النفسية ، العلاقات الاجتماعية ، المشكلات الاقتصادية ، وشغل أوقات الفراغ ، كما أظهرت النتائج إن مشكلات المتقاعدات أكثر حدة من المتقاعدين بالنسبة للمشكلات الاقتصادية والمشكلات الصحية ، كما توصلت الدراسة إلي نموذج مقترح من منظور خدمة الفرد لمواجهة مشكلات التقاعد (راشد ، 2004).

دراسة علاء الدين 2004: هدفت الدراسة التعرف على التوافق النفسي مع حدث التقاعد لدى كبار السن الأردنيين العاملين وغير العاملين من كلا الجنسين ، وتكونت عينة الدراسة من (100) فرد (60) ذكور و(40) إناث وطبق الباحث مقياس التوافق النفسي للكبار إعداد سامية قطان ، وتوصلت الدراسة إلى وجود فروق ذات دلالة إحصائية بين المتقاعدين العاملين والمتقاعدين وغير العاملين لصالح العاملين ، ولم تشير النتائج إلى وجود فروق دالة في التوافق بين المتقاعدين الذكور العاملين وغير العاملين والمتقاعدات الإناث العاملات وغير العاملات (علاء الدين ، 2004).

دراسة برتي1975 , Perty: هدفت الدراسة إلى التعرف اثر التقاعد الإرادي والإجباري على الثبات الانفعالي وتصور الذات لدى المتقاعدين ، وطبقت الدراسة على عينة مكونة (140) متقاعداً بدار المسنين تتراوح أعمارهم مابين 67 ، 70 عاماً وكانت الأداة المستخدمة في ذلك استبيان يشمل الإحساس بالفائدة ، الثبات الانفعالي ، العلاقات الشخصية وتوصل الباحث إلى إن المتقاعدين اختيارياً أكثر إشباعا انفعالياً وإدراكاً بايجابية ذواتهم من المتقاعدين إجبارياً (البربري ، دس ، ص91).

إجراءات البحث:

مجتمع البحث: تألف مجتمع البحث من المتقاعدين من الخدمة في مدينة بعقوبة والبالغ عددهم(2036)[1].باستثناء متقاعدي وزارة الدفاع والداخلية.

(1)تم الحصول على البيانات من الهيئة العامة للتقاعد فرع ديالى بموجب كتاب تسهيل المهمة الصادر من مركز أبحاث الطفولة والأمومة / جامعة ديالى

عينة البحث: تم اختيار عينة قصدية مكونة من (50) متقاعد (25) ذكور و(25) إناث ، كما تم اختيار عينة عشوائية قصدية مماثلة لهم من المسنين غير المتقاعدين الذين تنحصر أعمارهم مابين 55 — 60 سنة لإغراض المقارنة مكونة من (50) مسن (25) ذكور (25) إناث.

أداة البحث: تبنى الباحث مقياس مها البربري لقياس مفهوم الذات لدى النساء المتقاعدات ، وذلك لصلاحيته للتطبيق على المتقاعدين ، فهو يقيس مفهوم الذات بأبعاده الثلاثة مفهوم الذات الانفعالي ، ومفهوم الذات الجسمي ، ومفهوم الذات العقلي ، أي أن المقياس يقيس الذات بجوانبها المختلفة ، ويتكون من (45) عبارة تقيس مفهوم الذات بابعاده الثلاثة (الانفعالية ، الجسمية ، العقلية)، وكل عبارة من عبارات المقياس تعبر عن إحدى الصفات وهذه الصفات وزعت بطريقة عشوائية على المقياس الذي اخذ بطريقة وأسلوب ليكرت في بناء المقياس ، ويصحح المقياس بان يطلب من المفحوص قراءة كل صفة جيداً ثم يعطي لنفسه درجة من عشرة لكل صفة كما يراهـــا في نفسه الآن ، ومنذ عشر سنوات ، أي أن المفحوص يعطي لنفسه درجتان لكل صفة ألان وتعبر عن (الذات الواقعية)، ومنذ عشر سنوات وتعبر عن (الذات السابقة) وحاصل طـــرح الذات الواقعية والسابقة تعبر عن مدى التغير في مفهوم الذات بابعاده الثلاثة ، فالمقياس يقيس متغيرين أساسين:
الذات الواقعية: أي كيفية إدراك المتقاعد لذاته في الوقت الحاضر.
الذات السابقة: إيادراك المتقاعد لذاته في وقت سابق أي إثناء الخدمة .وقامت الباحثة (مها البربري) باستخراج الصدق بطريقة التحليل العاملي أما الثبات فتم حسابه بطريقة التجزئة النصفية وقد بلغ (0.72)، أما في الدراسة الحالية قام الباحث باستخراج الصدق الظاهري وذلك بعد عرضه على مجموعة من المحكمين في التربية وعلم النفس([2])وقد حازت جميع الفقرات على اتفاق المحكمين مع اجراء بعض التعديلات من الناحية اللغوية ، أما الثبات فقد تم استخراجه بطريقة التجزئة النصفية وقد بلغ (0،82) بعد التصحيح بمعادلة سبيرمان بروان بلغ الثبات (0.90)إذ إن معامل الثبات الذي يساوي أو يزيد عن (0.70) يعد مقبولاً في مقاييس الشخصية والميول والاتجاهات (فرج ، 1981 ، 129).

عرض النتائج ومناقشتها:

1.لاختبار صحة الفرضية الأولى التي تنص على عدم وجود فروق ذات دلالة معنوية عند مستوى (0,05) في متوسطات درجات مفهوم الذات بين المسنين المتقاعدين(ذكور ، إناث) والمسنين غير المتقاعدين (ذكور ، إناث)، تم استخدام الاختبار التائي t-test لعينتين مستقلتين لإيجاد الفروق بين المجموعتين وكما موضح في جدول (1).

جدول (1) نتائج الاختبار التائي بين متوسط درجات مفهوم الذات لدى إفراد المجموعتين المسنين المتقاعدين واقرأنهم غير المتقاعدين (ذكور ، إناث)

([2])1. أ.د. بشرى عناد مبارك كلية التربية الأساسية جامعة ديالى
2. أ.د.عدنان محمود عباس كلية التربية للعلوم الإنسانية جامعة ديالى
3. أ.د. فاضل جبار جودة كلية التربية للعلوم الصرفة / ابن الهيثم جامعة بغداد
4. أ.د. ناجي محمود النواب كلية التربية للعلوم الصرفة / ابن الهيثم جامعة بغداد
5. أ.م. د. فرات امين مجيد مركز ابحاث الطفولة والامومة جامعة ديالى

المجموعة	العدد	المتوسط الحسابي	الانحراف المعياري	درجة الحرية	القيمة التائية		مستوى الدلالة
					المحسوبة	الجدولية	
المتقاعدين(ذكور ، إناث)	50	52,77	3,105	98	3,821	1,98	0,05
غير المتقاعدين (ذكور ، إناث)	50	56,66	3,54				

من الجدول أعلاه يتضح إن الفرق ذو دلالة إحصائية لصالح مجموعة المسنين غير المتقاعدين ، وهذا يعني إن العاملين المستمرين في الخدمة يشعرون بمفهوم ذات ايجابي بدرجة أعلى من المتقاعدين ، وقد يعود ذلك إلى الدور والمكانة التي يشعر بها المسنين المستمرين في الخدمة فهم يشعرون بالزهو والفخر بأنه مما زال لديهم القدرة على العطاء والانجاز ولديهم الكثير ليقدموه ، من هنا فإن مفهوم الفرد عن ذاته ينمو نتيجة تفاعله مع البيئة الاجتماعية ، وبالتالي فهذا المفهوم من وجهة نظر روجرز(Rogers) هو المسئول عن سلوك الفرد ، حيث أن الخبرات التي تتطابق مع مفهوم الذات والمعايير الاجتماعية تؤدي إلى الارتياح والتوافق النفسي فيما تشكل تلك الخبرات التي تتعارض مع المعايير الاجتماعية ومفهوم الذات تهديداً يؤدي إلى سوء التوافق(دويدار ، 1999 ، 34)، وبالمقابل فإن مرحلة التقاعد وأثرها على حياة المتقاعد وما ينطوي عليها من تغيير في الدور أو المكانة أدت إلى شعورهم بمفهوم ذات سلبي ، وبحسب نظرية الانسحاب وفك الارتباط في فإن الأفراد حينما يصلوا إلى مرحلة التقاعد فإنهم يبدؤون تدريجياً في الانسحاب من السياق الاجتماعي وتناقص الأنشطة التي كانوا يقومون بها من قبل ، وذلك نتيجة لنقص عمليات التفاعل بين المتقاعد والآخرين من أفراد المجتمع داخل النسق الاجتماعي الذي ينتمي إليه ، ووفقاً لهذه النظرية فأن التقاعد الإجباري عند سن معين يعد تحديداً من قبل المجتمع الذي يتوقع من المتقاعدين فيه أن تضعف روابطهم الاجتماعية ، فالانتقال من العمل وما يتصل به من مكانة وادوار إلى التقاعد قد ينشأ عنه بعض المشكلات النفسية ، ومن أهم هذه المشكلات هو إحساسهم بأنهم غير مرغوب فيهم ولا فائدة منهم ، واعتقادهم بان مرحلة التقاعد هي نهاية الحياة والامتناع عن مزاولة أي نشاط ، والتحول إلى صفر أو قيمة سالبة تأخذ ولا تعطي تضر ولا تنفع بالإضافة إلى الشعور بالحزن واليأس وضعف التوافق الشخصي والاجتماعي نظراً لعدم إشباع دوافع العمل لديهم وانخفاض المستوى الاقتصادي للأسرة ، وزيادة وقت الفراغ وشعورهم بعدم اهتمام المجتمع بهم (اسعد ، 1977 ، 41)، ويرى ميلر(Miller) إن التقاعد هو أزمة هوية (Identity Crisis)، وقد تؤدي هذه الأزمة إلى شعور المتقاعد بالتدني في احترامه لذاته وتقديرها مما يجعله يحجم عن المشاركة الاجتماعية بالإضافة إلى ضعف شعوره بالالتزام نحو أدواره الاجتماعية الأخرى وكل هذه تعد من العوامل المؤثرة في مفهوم الذات لدى الفرد.

2.لإختبار صحة الفرضية الثانية التي تنص على عدم وجود فروق ذات دلالة معنوية عند مستوى (0,05) في متوسطات درجات مفهوم الذات بين المسنين المتقاعدين (ذكور ، إناث) تم استخدام الاختبار التائي-t testلعينتين مستقلتين لإيجاد الفروق بين المجموعتين وكما موضح في جدول (2).

جدول (2) نتائج الاختبار التائي بين متوسط درجات مفهوم الذات لدى الأفراد المسنين المتقاعدين (ذكور ، إناث)

المجموعة	العدد	المتوسط الحسابي	الانحراف المعياري	درجة الحرية	القيمة التائية		مستوى الدلالة
					المحسوبة	الجدولية	
ذكور	25	292,88	34,78	48	3,03	1,98	0,05
إناث	25	267,05	35,66				

هذا يعني أن مفهوم الذات لدى الذكور أعلى من الإناث وقد يعود ذلك لخصوصية المجتمع الذي يعطي الذكور دور أكبر من الإناث في تحمل المسؤولية وتنمية الشعور بالذات من خلال إتاحة الفرصة لهم للتعبير عن أرائهم ، فضلاً عن إن الذكور يتعرضون لخبرات قد تساعد في شعورهم بمفهوم عال للذات ، وأنهم يتلقون الكثير من المعززات التي تسهم في رفع مفهوم الذات لديهم ، فالمكانة الاجتماعية التي يوليها المجتمع للذكور من الأسباب التي تؤدي إلى تقدير الذكور لأنفسهم بشكل أعلى مما تفعل الإناث ، فالمرأة قد تدرك أن دورها أقل أهمية ومكانة من دور الرجل في مجتمعنا ، كما تدرك نظرة المجتمع وتقديره لدورها فتقبل هذا التقدير ، ويصبح تقديرها لذاتها متأثراً بنظرة المجتمع وتقديره لها.

التوصيات:

-دعم المسنين المتقاعدين مادياً ومعنوياً ، تقديراً للجهود القيمة التي قدموها للوطن وتخصيص يوم يحتفل فيه في كل مؤسسة خدموا فيها ، إذ لاحظ الباحث إن اغلب المتقاعدين منزعجين من الإهمال وعدم ذكرهم والسؤال عليهم من المؤسسات التي خدموا فيها.

-إنشاء أندية اجتماعية للمتقاعدين لقضاء وقت الفراغ إذ أن بعض المتقاعدين يشعرون بالفراغ والملل ، إذ لاحظ الباحث عدم وجود نوادي اجتماعية أو ثقافية تعنى بشريحة المسنين والمتقاعدين بوجه خاص.

-ضرورة الاستفادة من خبرات المتقاعدين لتدريب وتطوير الكوادر الشبابية كلاً حسب اختصاصه ، مع الأخذ بعين الاعتبار رغبة المتقاعد ودرجة كفايته.

-إعادة النظر في رواتب المتقاعدين لتتناسب مع تكاليف المعيشة واحتياجات أسرهم ، إذ أن أغلب المتقاعدين ليس لديهم دخل آخر سوى راتب التقاعد.

-مساعدة المتقاعدين على التخطيط السليم والمبكر لمواجهة مرحلة التقاعد, وذلك من خلال تقديم المحاضرات والندوات وتوزيع النشرات والكتيبات التي تساعد المتقاعدين على مواجهة الصعوبات النفسية والصحية والاقتصادية والاجتماعية التي قد تنتظرهم بعد التقاعد.

المقترحات:

-إجراء دراسة عن صراع الدور لدى المتقاعدين.

-إجراء دراسة عن التوافق النفسي والاجتماعي والمساندة الاجتماعية لدى المتقاعدين.

-إجراء دراسة عن اثر مرحلة التقاعد على بعض المتغيرات النفسية لدى المتقاعدين مثل (القلق ، الاكتئاب ، الشعور بالوحدة النفسية).

قائمة المراجع

-أبو جادو ، صالح محمد علي(2002): سيكولوجية التنشئة الاجتماعية ، ط3 ، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة ، عمان.
-أسعد ، يوسف(1977): رعاية الشيخوخة ، مكتبة غريب ، القاهرة.
-البربري ، مها محمد عبد الرؤوف(دس): الوحدة النفسية وعلاقتها ببعض متغيرات الشخصية لدى المسنين ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب جامعة طنطا.
-البقلي ، إحسان أحمد(1977): المشاكل الاقتصادية والاجتماعية للأسرة في مرحلة التقاعد ، مجلة الاقتصاد المنزلي ، العدد الأول: ديسمبر.
-الجُميلي ، مؤيد حامد جاسم(2008): تقدير الذات لدى المدرسين وعلاقته باتجاهاتهم نحو الطلبة ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية التربية ، جامعة ديالى.
-حسن ، مرح مؤيد(2011): الحياة الاجتماعية لما بعد التقاعد دراسة ميدانية عن المتقاعدين في مدينة الموصل ، مجلة دراسات الموصل ، العدد 2 ، جامعة الموصل ، العراق
-خليفة ، عبد اللطيف محمد(1997): دراسات في سيكولوجية المسنين ، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة .
-الدسوقي ، محمد أحمد(1988): مركز التحكم وعلاقته بمفهوم الذات لدى أعضاء هيئة التدريس بالجامعة ومعلمي المرحلة الثانوية العامة (دراسة مقارنة) ، مجلة الملك عبد العزيز للعلوم التربوية ، المجلد1 ، الرياض.
-دويدار ، عبد الفتاح(1999): سيكولوجية العلاقة بين مفهوم الذات والاتجاهات ، دار المعرفة الجامعية. الاسكندرية.
-راشد ، عفاف راشد عبد الرحمن(2004): دراسة تحليلية مقارنة لمشكلات المتقاعدين والمتقاعدات ونموذج مقترح من منظور خدمة الفرد لمواجهتها ، مجلة دراسات في الخدمة الاجتماعية والعلوم الإنسانية ، العدد السابع ، الجزء الثاني.
-رمضان ، مرفت عبد الحليم(1984): صراع الدور لدى المسنين وعلاقته ببعض المتغيرات النفسية والاجتماعية ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية التربية للبنات ، جامعة عين شمس ، القاهرة.
-زهران ، حامد عبد السلام(1989): التوجيه والإرشاد النفسي ، منشورات جامعة دمشق
-زهران ، حامد عبد السلام(2000) : علم النفس الاجتماعي ، عالم الكتب ، القاهرة.
-سماعنة ، بيان عبد الرحمن(2008): اتجاه معلمي الدارس الثانوية الحكومية في محافظات شمال الضفة –فلسطين نحو التقاعد المبكر واثر بعض المتغيرات عليه ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الدراسات العليا ، جامعة النجاح الوطنية ، نابلس ، فلسطين
-شلتز ، دوران(1983): نظريات الشخصية ، ترجمة حمد دلي الكربولي وعبد الرحمن القيسي ، مطبعة جامعة بغداد.
-صيام ، صفا عيسى(2010): سمات الشخصية وعلاقتها بالتوافق النفسي للمسنين في محافظات غزة ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية التربية جامعة الأزهر ، غزة .
-عبد الحميد ، محمد(1987): العلاقات الأسرية للمسنين وتوافقهم النفسي ، الفنية للطباعة والنشر ، الإسكندرية.
-علاء الدين ، جهاد(2004): التوافق النفسي للمتقاعدين من كبار السن الأردنيين العاملين وغير العاملين من كلا الجنسين ، مؤتة للبحوث والدراسات ، المجلد 19 ، العدد 7 ، الأردن.
-الغريب ، عبد العزيز علي(1995): المتقاعدون : بعض مشكلاتهم الاجتماعية ودور الخدمة الاجتماعية في مواجهتها دراسة علمية لمشكلات المتقاعدين في منطقة الرياض ، رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، الرياض .
-الغريب ، عبد العزيز علي(1998): مصلحة معاشات التقاعد كمؤسسة لممارسة مهنة الخدمة الاجتماعية ، مجلة التعاون السنة الثالثة عشر ، العدد 48.
-فرج ، صفوت(1980): القياس النفسي ، دار الفكر العربي ، القاهرة .
-فهمي ، مصطفى(1976): الصحة النفسية. دراسات في سيكولوجية التكيف ، مكتبة الخانجي ، القاهرة.
-القطناني ، علاء سمير موسى(2011): الحاجات النفسية ومفهوم الذات وعلاقتها بمستوى الطموح لدى طلبة جامعة الأزهر بغزة في ضوء نظرية محددات الذات ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية التربية ، جامعة الأزهر ، غزة.
-محمد ، محمد(1990): دراسة لبعض المتغيرات المرتبطة بالتوافق النفسي لدى المسنين ، مجلة علم النفس ، المجلد الرابع ، العدد 16.

-الميلادي ، عبد المنعم(2002): الأبعاد النفسية للمسن ، مؤسسة شباب الجامعة.
-Atchley,R,C(1976):The Sociology of Retirement, New York john Wiley &Sons.
-Coopersmith, S and Feldman, R(1974): Fostering a positive self — concept and high self-esteem in the classroom. In R.H. Coop and K. White (ed), psychological concepts in the classroom. pp. 192-225. New York.
-Rainer, S. G(2001): Aspects of the self as learner: Perception, concept, and esteem. In Riding, R and Rainer, S. International perspectives on individual differences. Vol (2) pp 25-57. London, AblePublishing.

الإبداع الأدبي بين الفصحى والعامية

The innovation in literature between the eloquence and dialect

د.نبيلة بلعبدي .
د.سهيلة ميمون
كلية الآداب والفنون .جامعة حسيبة بن بوعلي .الشلف .الجزائر

كثيرا ما نسيء الظن والحكم على لهجاتنا العربية الدارجة بأنها تفتقر إلى الذوق الرفيع وتبتعد عن الفصحى ، فنهملها ونتناساها ونعطي أهمية بالغة لكل ما هو مكتوب باللغة الرسمية الفصيحة ، ومع ذلك نجد من لديه موهبة الإبداع في الأدب التي لا تعترف بالفصاحة أو العامية ، فيا ترى كيف كان حال اللغة العربية قبل وبعد الإسلام ؟ وهل رافقتها لهجات عامية ؟ وهل يمكن للأدب المكتوب باللهجات العامية أن يرقى إلى درجة الإبداع الأدبي الفني ؟ وهل تكمل اللهجات العامية الفصحى أم هناك تنافر بينهما ؟

لقد اتخذت اللغة العربية الفصحى شكلا نهائيا في العصر الجاهلي ولا شك أنها لم تنضج إلا بعد مراحل طويلة من النمو والتطور ، واللهجة التي كان لها حظ الارتقاء إلى الفصاحة هي لغة قريش التي شاع استعمالها على غيرها لاتصافها بالعذوبة والفصاحة والألفاظ المهذبة ، ولقد أقبل الناس عليها لأنها أخذت من اللهجات الأخرى أفصح ما فيها من المنطق الجزل والأسلوب المؤنق ، وقد زادها انتشارا واستعمالا ما أتيح لقريش من نفوذ أدبي وسياسي واقتصادي لذا نضجت قبل الإسلام فنظم بها الشعر وألقيت بها الخطب في المحافل العامة والأسواق كسوق عكاظ ؛ لتصبح فيما بعد لغة القرآن الكريم والحديث الشريف والأدب.

وعليه ، يذهب حسام البهنساوي من منظور خاص إلى القول بأنه :« ينبغي أن ندرك أن اللغة الفصحى — أية لغة — كانت في أصل نشأتها مجرد لهجة من اللهجات وأن هذه اللهجة قد اندثرت مع الزمن وتحولت إلى لغة فصحى لها خصائصها ومميزاتها ، وهذا هو حال اللغة العربية الفصحى ، بيد أن غموضا واختلاطا يشوب العلاقة بين العربية الفصحى ولهجاتها القديمة ، ويرجع ذلك إلى الاهتمام البالغ بدراسة العربية الفصحى لغة القرآن الكريم ، والإهمال الكامل والواضح لدراسة اللهجات القديمة حيث أنها لم تحظ إلا بروايات مبتورة عن بعض خصائص هذه اللهجة أو تلك وليس من أهداف تلك الروايات أن تتعرف خصائص تلك اللهجة لذاتها أو لإلقاء الضوء عليها ولكن الهدف الحقيقي لهذه الروايات ، إنما ليفسّروا بها قراءة قرآنية ، أو شذوذا في الظواهر اللغوية ، سواء أكانت متعلقة بالشعر أم بالنثر"(حسام البهنساوي ، 2004 ، ص37).

إذن دراسة اللهجات ليست إقصاءً للفصحى ، وإنما إثراء لها واكتشاف مترادفات اللفظة الواحدة في عدة لهجات قد يساعد على فهم المعاني ، لأن الفصحى تعتمد على اللهجات وما هي إلا خليط من أجودها وأحسنها.

لقد قدّم المستشرقون من العلماء الغربيين آراء حول نشأة اللغة العربية الفصحى لكن تبين أن هذه الآراء — في معظمها —آراء ظنية قائمة على مجرد الافتراض والتخمينمن بينها : ما قاله نولدكهNoldke أن الفروق صغيرة بين اللهجات العربية الشائعة في جزء من الجزيرة العربية (الحجاز ، نجد ، الفرات)، وأن الفصحى تعتمد على هذه اللهجات ويوافقه الرأي جويديGuidiونللينوNallino ، ويرى فيشرFischerأن العربية

الفصحى تمثل لهجة معينة ، أما لاندبرجLandberg يرى أنها لغة عصر غير محدد ، قد تكون قوالبها النحوية من صنع الشعراء (حسام البهنساوي ، 2004 ، ص38) ، أما العلماء العرب فقد انطلقوا في تحديد نشأة اللغة العربية الفصحى من قرب القبائل من قريش ، ومن كونها لغة القبائل البدوية "فإننا نجدهم جميعا يتفقون اتفاقا إجماعيا على أن اللغة العربية-عندهم- هي لغة المدر من البدو والعرب ، وهم يرون أن العربي البدوي لا يُخطئ في التحدث بالعربية الفصحى ، ولا يطاوعه لسانه إن أراده على الخطأ ، فهو إذن الحكم الفصل في العربية الفصحى(حسام البهنساوي ، 2004 ، ص48).

خلاصة القول إنّ ما نسميه باللغة الفصحى هي لغة قريش التي كانت تعاصرها وتعيش إلى جوارها لهجات أخرى مخالفة لها.

يقول المستشرق كارلو لندبرجCarlo landberg إنه يمكن « أن نبرهن بأن اللغة الدارجة كانت مستعملة في القرن الأول من الهجرة بل ويمكن إيراد أدلة كافية وبينات شافية بأنها كانت سائرة سارية في زمان النبي سليمان عليه السلام » (أحمد رشدي صالح ، الأدب الشعبي ، ص35-36).

وهكذا تتعايش اللهجات الدارجة عبر الأزمنة ، وترتقي إحداها نتيجة ذوق العامة لتصبح لغة الخطب والمحافل والأدب ، ويحق لها أن تسمى بالفصحى.

وخير دليل على كثرة اللهجات وتنوعها بين المناطق ذلك الاختلاف الظاهر بين لغات أهل الحضر ولغات أهل البادية ، وبين لغة قريش ولهجات غيرهم من القبائل قبل الإسلام وبعده ، ويمكن حصر سبب هذا الاختلاف في انعزال البعض أو قربهم من الحضارة ، ويمكن أن يكون السبب أيضاً نوع ودرجة الحياة الاجتماعية التي عاشها العرب هنا وهناك (أحمد رشدي صالح ، 1971 ،ص36).

ويذهب محمد عيد إلى "أن البادية ظلت محافظة على ما كان عليه الأمر من قبل من تجاور اللهجات واللغة المشتركة العامة فيها مع استعمال كل منها في مجاله الخاص (محمد عيد ، المستوى اللغوي للفصحى واللهجات والنثر والشعر ، 1981 ، ص47).

نشأة اللغة العربية: إن حاجة الإنسان إلى التعاون والتفاهم وتبادل الأفكار والتعبير عن المشاعر وما يجول بالخواطر كان سبباً في نشأة اللغة الإنسانية ،ذلك لأن اللغة ظاهرة اجتماعية أبدع الناس في وضع مقاييسها فجرت عليها ألسنتهم لتكون رابطة بين أفراد المجتمع وبين الأجيال ، وقد ميز الدارسون في هذا الشأن بين أربع نظريات أخذت على عاتقها إشكالية نشأة اللغة التي هي ظاهرة كسائر الظواهر الاجتماعية ،

وقد نشأت اللغة العربية «في أقدم مواطن الساميين (بلاد الحجاز ونجد وما إليها من آثار الأكادية إلى ما قبل القرن العشرين ق.م ، ومن آثار العبرية إلى القرن الثاني عشر ق.م ، ومن آثار الفنيقية إلى القرن العاشر الميلادي ،ومن آثار الآرامية إلى القرن التاسع ق.م ، نجد أن أقدم ما وصل إليها من آثار العربية البائدة لا يتجاوز القرن التاسع ق.م وأقدم ما وصل إلينا من آثار العربية البائدة لا يكاد يتجاوز القرن الخامس بعد الميلاد ولذلك لا نعلم شيئاً عن طفولة اللغة العربية وما اجتازه من مراحل في عصورها الأولى(علي عبد الواحد وافي ، د.ت ، ص93) .

إذن كانت هناك لهجات عربية قديمة وعديدة لها مميزاتها وصفاتها الخاصة ، لكن اللهجة المنتقاة هي ما تكلمت به قريش إذ تفوقت على كل اللهجات الأخرى ،روى السيوطي عن الفراء ما نصّه: " كانت العرب تحضر

الموسم في كل عام وتحج البيت في الجاهلية وقريش يسمعون لغات العرب فما استحسنوه من لغاتهم تكلموا به ، فصاروا أفصح العرب وخلت لغتهم من مستبشع اللغات ومستقبح الألفاظ (جلال الدين السيوطي ،1865 ، ص221).

ويروى أن معاوية سئل يوماً « من أفصح الناس؟ فقال : قوم ارتفعوا عن لخلخانية الفرات ، وتيامنوا عن عنعنة تميم ،و تياسروا عن كسكسة بكر ،وليس لهم غمغمة قضاعة ولا طمطمانية حمير قال : من هم ؟ قال : قريش » .

2 . عوامل نشأة اللغة العربية الفصحى قبل الإسلام: إن ما ورد إلينا من نصوص عربية نجده يتخلص في صورتين اثنتين أولهما صورة اللغة العربية الأدبية أو ما نسميه بالأدب الجاهلي المتضمن للأشعار والخطب والحكم والأمثال وهذه الصورة هي المسماة باللغة العربية الفصحى.

وثانيها اللغة الشعبية ملخصة ما ورد إلينا متناثرا في كتب اللغة والأدب والنحو عن لهجات قبائل الجزيرة العربية.

إذن فاللغة العربية الفصحى صورة أدبية راقية جمعت فصاحة الأدباء والبلغاء من الشعراء والحكماء في جميع أنحاء الجزيرة العربية بحيث اشتركوا جميعاً في تكوينها بإبداعاتهم وتعبيراتهم ويقول فندريس في هذا الشأن «خاصية اللغة المشتركة الأساسية أنها لغة وسطى تقوم بين لغات أولئك الذين يتكلمونها جميعاً » (حسام البهنساوي ، العربية الفصحى ولهجاتها ، ص45،44)، وهو الحال في جميع أنحاء العالم ، إذ تأخذ اللغة الفصحى الألفاظ المشتركة بين أكثر الفئات والمتميزة خاصة بالجودة والعذوبة ، وهكذا نشأت اللغة العربية الفصحى في أحضان مكة المكرمة ،ولقد تضافرت لهذه النشأة عوامل عديدة منها:

العامل الديني: لقد أُهِلَ لمكة أن تكون بيئة مقدسة قبل الإسلام ومنذ عهود سحيقة إذ كان يأتيها العرب من كل أنحاء الجزيرة العربية من أجل الحج فقد جمعت هذه البقعة الطاهرة قبائل العرب ليجتمعوا مع القرشيين في مكة ، مصداقا لقوله تعالى ،وليحدث فيما بعد التأثر بلغتهم ، وتنشأ اللغة المشتركة فيما بينهم ،وهذا ما يحدث تماماً للبدوي الذي يعيش في المدينة مدة طويلة فسرعان ما يتأثر بلهجة الحضر في المدينة إضافة إلى هذا فقد كانت لغة قريش اللغة التي استنفدت قرائح الشعراء والحكماء فهي جديرة بالإعجاب وبالتأثير حين يسمعها.

« ولما جاء الإسلام ،ونزل القرآن بتلك اللغة الأدبية قوى من تلك الوحدة اللغوية التي كانت قد نمت وازدهرت قبل نزوله ، وزاد في شمولها لأن الرغبة الدينية وعودة الشعور الديني قد دعا كثيراً من العامة إلى تفهم الكتاب الكريم والتعبد به ولم يكن الأسلوب القرآني في متناول جميع العرب بل كان أسمى من هذا وأرقى فقد جاء يتحدى الخاصة منهم ،وظل حتى الآن يتحدى الخاصة منّا. ولم يمنع هذا أن يبجل في كل جيل ،وأن يتعبد به في كل زمان» (إبراهيم أنيس ، في اللهجات العربية ، 2003 ، ص37).

العامل السياسي: يعتمد هذا العامل على دعائم القوة والسيطرة والسلطان وبإمكان لغات الملوك والأمراء وذوي النفوذ والصفوة أن تكون مؤهلة لأن تكون اللغة المشتركة وتصبح النموذج الذي يحتذى به في الخطابات بأنواعها وفي التواصل بين الناس ، ولا شك أن بروز لغات كالفرنسية والإنجليزية وانتشارها في معظم بقاع المعمورة يرجع إلى هذا العامل وإلى المكانة السياسية التي اكتسبها متكلموها.

«فانتشار الإنجليزية في مناطق شاسعة من قارات المعمورة، يرجع إلى قوة سلطان المملكة المتحدة لفترة طويلة من الزمان ،حيث أصبحت الإنجليزية لغة مشتركة ذات صيغة عالمية، وكذلك الحال بالنسبة للغة الفرنسية والألمانية والصينية والروسية وغيرها» (حسام البهنساوي، العربية الفصحى ولهجاتها، ص12).

العامل الاقتصادي: لهذا العامل أيضاً دور في نشأة اللغة الفصيحة ،ذلك لأن القوة الاقتصادية أساس سيادة الأمم وبقائها وبالتالي سيادة لغتهم ورواجها، لتفرض فيما بعد على أية أمة تريد التعامل معها ،وتعد قريش نموذجاً حياً قد ساعدها هذا العامل على بروز اللغة العربية الفصحى إضافة إلى العاملين السابقين ،ولاشك أن ثراء قريش كان بسبب رحلتي الشتاء والصيف التي أكسبتها المكانة الاقتصادية ورواج تجارتها، وكان هذا سبباً في سيادة لغتهم فأصبحت اللغة القوية التي راجت في أنحاء الجزيرة العربية" كما ينبغي معرفة أنه كان لدواعي الصلة بين العرب اجتماعيا وتجاريا ودينيا أثر في استخدام لغة عامة واحدة يفهمها الجميع، وقد تكونت وشاعت بفعل العرف الذي فرضته الصلات الاجتماعية والنّفع والانتقال، ولم يأت نتيجة اصطلاح ومواضعة"(محمد عيد، المستوى اللغوي للفصحى واللهجات والنثر والشعر، 1981، ص40).

هكذا تضافرت هذه العوامل وجعلت للغة قريش المقام الرفيع بين سائر اللغات واللهجات لتصبح اللغة المشتركة لجميع لغات العرب في أنحاء الجزيرة العربية، ولتكون على مر العصور نموذجا للغة المشتركة للعرب جميعهم من المحيط إلى الخليج.

اللغة العربية بعد الإسلام: تتأثر اللغات بحضارة الأمة التي تنشأ بين أحضانها بما فيها النظم والتقاليد والعقائد ودرجة الثقافة، فالتطورات الحاصلة في ناحية من هذه النواحي تنعكس على أداة التعبير.

وأية لغة سامية الأساليب، دقيقة المعاني، تعددت فيها فنون القول ووجدت فيها ألفاظ موضوعة عن طريق الوضع والاشتقاق والاقتباس، دل هذا على اتساع حضارتها، ورفعة درجة ثقافتها (محمد عبد عبد الله عطوات، 2003، ص25).

وأما عن اللغة العربية فهي أصدق شاهد على الحضارة التي نهضت عليها بدءًا بالعصر الجاهلي وما يكتسيه من بداوة، وأول ما وصلت إليه بعد انتقالها إلى حضارة الإسلام في عصر بني أمية وبني العباس، وكان لهذا الانتقال أثر في نهضة اللغة في أساليبها واتساع مختلف فنون الأدب ومختلف العلوم، «وانتقال الأمة من البداوة إلى الحضارة يهذب لغتها، ويسمو بأساليبها، ويوسع نطاقها ويزيل ما عسى أن يكون بها من خشونة ويكسبها مرونة في الدلالة والتعبير» (محمد عبد عبد الله عطوات، 2003، ص25).

وقد اكتسبت اللغة العربية بعد الإسلام من الحشمة والأدب ما يخولها لأن تكون راقية، فصارت تلجأ إلى المجاز في اللفظ وتحسن استخدام الكنايات فكان للتطور الفكري والاجتماعي آثار في تطوير معاني الألفاظ، و أوجدت ألفاظا لم تكن مستعملة. وبعد أن دخل الناس في الإسلام تتابعت الفتوحات الإسلامية حتى اختلط العرب بالعجم، وانتقل العرب بعشائرهم إلى البلاد التي فتحوها، وامتزجوا بالعجم والفرس فحصل بينهم التجاور والتصاهر، وكانت آنذاك اللغة العربية هي لغة التخاطب والتعامل، لأنها لغة الفاتح أو الغازي الذي سوف يسود لسانه البلدان التي يدخلها فتكلم غير العرب بالعربية "فقد يغزو شعباً من الشعوب أرضا يتكلم أهلها لغة أخرى، فيقوم صراع عنيف بين اللغتين الغازية و المغزوة ، وتكون النتيجة عادة إما بالقضاء على

إحدى اللغتين قضاء يكاد يكون تاماً ، أو ينشأ من هذا الصراع لغة مشتقة من كلتي اللغتين الغازية والمغزوة ، يشمل على عناصر من هذه وأخرى من تلك"(إبراهيم أنيس ، 2003 ، ص21) .

الأمثلة التي تحدثنا عن الصراع اللغوي كثيرة ، فقد استطاعت اللغة العربية التغلب على الآرامية في العراق والشام ، والقبطية في مصر ، والأمازيغية في بلاد المغرب العربي ولكن مع ذلك قد تبقى آثار تبدو جلية في اللغة الغازية وقد تنحصر هذه الآثار في صفات صوتية خاصة أو المصطلحات الدالة على المهن وأسماء الحيوان أو النبات ... يُنظر: (إبراهيم أنيس ، 2003 ، ص22)، لذا وجد الضعف والوهن طريقه إلى اللغة العربية ، وتولد اللحن في النطق بها واختل شكل أواخر الكلمات ، كما تسرب اللحن إلى القرآن الكريم والسنة من قبل غير العرب حديثي العهد بالإسلام ، وكانت هذه أسباباً دافعة لنشوء علم النحو واستنباط قوانين وقواعد اصطلحوا على تسميتها بعلم النحو يحفظون به لغة قريش التي نزل بها القرآن الكريم.

ومع ذلك يرأف قلب النبي (صلى الله عليه وسلم) على غير المتكلمين بلغة قريش فيسمح أن يقرأ القرآن على سبعة أحرف تيسيرا على عامة العرب وتأليفاً لقلوبهم ، قال (ص) « إن جبريل عليه السلام أتاني فقال: إن ربك عز وجل يأمرك أن تقرأ القرآن على حرف واحد ، فقلت: اللهم خفف عن أمتي ، ثم عاد وقال: إن ربك عز وجل يأمرك أن تقرأ القرآن على حرفين فقلت اللهم خفف عن أمتي ، ثم عاد وقال: إن ربك عز وجل يأمرك أن تقرأ القرآن على سبعة أحرف» (إبراهيم أنيس ، 2003 ، ص47).

وقد دعا الإسلام كافة الناس في مشارق الأرض ومغاربها على اختلاف ألسنتهم ، فالمسلم أيا كانت لهجته وبيئته وصفاته الكلامية التي تعود على النطق بها يمكن له قراءة القرآن بالصوت الذي يستطيع إنتاجه دون أن يقع عليه لوم.

وهذه القراءات ليست مقصورة على لهجات العرب وحدهم بل تشمل جميع لهجات المسلمين في بقاع الأرض ، الذين يحاولون قراءة القرآن كما سمعوه فيبذلون قصارى جهدهم«ويجب ألا تعدو تلك الأحرف النواحي الصوتية ، من اختلاف في مخرج الصوت وتباين في صفته ، بين جهر وهمس أو شدة أو رخاوة ، أو تباين في موضع النبر من الكلمة ، أو مقاييس أصوات اللين إلى غير ذلك من الموضوعات التي يعرض لها علم الأصوات اللغوية ؛ لأن لكل شعب من الشعوب صفات صوتية تميزه عن غيره وتكون جزءاً مهما مما يسميه المحدثون بالعادات الكلامية » (إبراهيم أنيس ، 2003 ، ص50).

ولا شك أن سبب هذا التيسير في القراءات القرآنية هو توقع حدوث اللحن وتسربه إلى لغة قريش ، ونشوء لهجات عربية أخرى من قطر لآخر وداخل القطر الواحد تشترك في بعض الصفات ، ولكنها تختلف في أمور هامة تميز لهجة كل بيئة عن أخرى.

وأما في العصر الحديث فقد اصطنع الناس في أحاديثهم لهجات متباينة تلقب حينا بالعامية وآخر بالدارجة ، وهي تنمو بين الناس وتتطور مع الزمن.

كان السر في تباين اللهجات الحديثة أنها قد انحدرت من لهجات عربية قديمة متباينة ، لها خصائص مميزة ، وتأثر بها أهل البلاد المفتوحة ، ومن جهة أخرى نجد تلك اللهجات القديمة المتباينة التي وفدت من شبه الجزيرة قد غزت أمصارا يتكلم أهلها غير العربية منها القبطية والرومانية والفارسية والآرامية والأمازيغية وغير ذلك من اللغات التي في البلاد التي فتحها الفاتحون ، لتظهر إلى الوجود فيما بعد لهجات هجينة وجديدة ،

وهذا يسمى بالصراع بين اللهجات الغازية والمغزوة الذي انجر عنه انزواء اللهجات المغزوة التي بقيت آثارها في اللهجات الغازية من الناحية الصوتية على الأقل (إبراهيم أنيس ، 2003 ، ص23).ورغم هذا نجد أن القبائل المتكلمة بهذه اللهجات المختلفة قديما وحديثا «قد احتفظت جميعها باللغة النموذجية لغة الأدب والدين التي نزل بها القرآن الكريم ، فكانوا بها يكتبون ويقرؤون ، وينظمون الشعر ويخطبون ، فإذا خلوا إلى أنفسهم ،أو عنّ لهم من أمور حياتهم ما ليس بذي بال ، عبروا عنه بلهجتهم الخاصة ، دون حرج أو تردد» (خالد مفلح عيسى ، 1987 ، ص62).

وأما عن اللهجات العربية الحديثة فقد تطورت في بيئاتها المختلفة تطورات مستقلة فقد أحيطت بظروف اجتماعية مختلفة وقد طرأ عليها بعد الفتح العربي ظروف سياسية أخرى كالغزو الأجنبي غير العربي لتظهر فيما بعد آثار تركية وأخرى أوروبية (فرنسية وإيطالية وإسبانية وإنجليزية) لذلك فإن هذا الاختلاف أمر طبيعي.

اللحن وطريقه إلى العربية: لقد أتيح للغة العربية بعد الإسلام فرص كثيرة للاحتكاك بلغات أخرى نتيجة توسع البلاد الإسلامية والارتحال والتجارة ، لذا لم تسلم من اللحن إلى أن سنت شريعة النحو التي ضبطت قواعد اللغة العربية وقوانينها حفاظا لها من الضياع ، وحتى تبقى اللغة الصحيحة المشتركة بين جميع العرب.

واللحن كما يعرفه رمضان عبد التواب:«هو مخالفة العربية الفصحى في الأصوات ، أو في الصيغ ، أو في تركيب الجملة وحركات الإعراب ، أو في دلالة الألفاظ وهذا هو ما كان يعنيه كل من ألف في لحن العامة من القدامى والمحدثين ، ويظهر ذلك بوضوح في الأمثلة التي عالجوها في كتبهم»(محمد عبد عبد الله عطوات ، 2003 ، ص13 و14).

وبعبارة أخرى اللحن هو الابتعاد عن الفصحى أو الخطأ اللغوي ، ويرى الرواة أن اللحن ظهر في عهد النبي (ص) حتى قال لمن لحن بحضرته " أرشدوا أخاكم فقد ضل" وانتشار اللحن واستفحاله في الفصحى أدى إلى نشوء العامية أو الدارجة التي دأبت على توسعها "حتى إنها أخذت في أواخر العصر الأموي تغزو طبقة الأشراف العرب أنفسهم فصرنا نسمع عن لحن الوليد بن عبد الملك ، ولي عهد عبد الملك (وخليفته من بعده) والمغيرة بن عبد الرحمان القرشي ، وغيرهما وحدث رد فعل لهذا الخطر ، ظهر في تمسك أشراف العرب بنقاء اللغة وفصاحتها ، وفي إرسالهم أبنائهم إلى البادية ليرضعوا العربية في مواطنها المعزولة عن كل دنس»(حسين نصار ، 1982 ، ص146).

وخشية تغلب العامية على الفصحى صار من الضروري إيجاد ووضع تربية نحوية والإلمام بقواعد الفصحى حتى تبقى سليمة ، وبالفعل اجتهد اللغويون ونجحوا في تأسيس قواعد النحو والصرف لتصبح اللغة العربية فيما بعد على مستويين: مستوى الاستعمال اللغوي اليومي بين الناس (لغة الحديث) ومستوى استعمال اللغة العربية الفصيحة لغة الدين والإدارة والأدب (لغة الكتابة) يُنظر: حسين نصار ، 1982 ، ص148 وهكذا سارت العامية إلى جانب الفصحى على مر العصور دون أن تتأذى اللغة الفصحى لأنها لغة الثقافة والحضارة في مرحلتها الكلاسيكية ولأن محبيها أوجدوا لها قوانين تحفظها من التشوه ويكفيها شرفا أنها لغة القرآن المحفوظة.

وبهذا صار للمجتمع الإسلامي مستويين من اللغة له عاميته التي يستعملها في حياته اليومية وفي أمور معيشته اليومية ويستخدم الأخرى في الكتابة الإدارية والفنية والعلمية ويحرص على تعلم قواعدها ويحرص على أن يجيدها لأنها سوف تكون اللغة المشتركة لجميع العرب.

والملاحظ أن لفظة "عامية" حديثة لم يستعملها الدارسون قديماً إنما استخدموا مصطلح "لهجة" للدلالة على مخالفة الفصحى في بعض الأصوات أو المصطلحات ، وأما العامية فهي صورة للهجات القديمة قد يضاف إليها مصطلحات أجنبية نتيجة الغزو أو الاحتكاك بالغرب أو التفتح على اللغات الأجنبية وقد نجد فيها ألفاظا جديدة فرضتها وأوجدتها الاحتياجات الاجتماعية للمجتمعات فما هي العامية ؟ وما هي اللهجة ؟.

العاميـة : هي لغة الحديث اليومي ، وهي متغيرة بتغير الظروف والأجيال ولها جذور في اللغة الفصحى ، وهي تعيش إلى جنب اللغة الفصيحة وهي ظاهرة موجودة في كل لغات العالم.

يعرف الأستاذ كمال يوسف الحاج العامية بأنها:«لغة الحس ، والعجلة ، لغة فجائية تلقائية انفعالية ، والانفعال بيولوجي الطابع لا يتيسر له وقت ولا فراغ كي يعمل الروية . ولهذا تطفو العامية على سطح الوجدان ، وتسيطر على روابط الجملة. وهي لا تبالي بالعوامل النحوية ، بل تكتفي بإبراز ترويسات نفسياتنا. والعامية خفيفة الخطى ، تستمد زخمها الأكبر من الإيحاءات والإشارات المختصرة البسيطة التي ترافقها. وهي لا تقبل الحركات ، ولهذا لا تتركب من جمل بمعنى النحو. وفي العامية ألفاظ ذات معنى ، وفي الفصحى جمل ذات معنى. وفي العامية ترص الوجدانيات كالقذائف والمتفجرات. وفيها لا نعثر على الجملة بالمعنى النحوي ، بل تتلاشى الروابط والعوامل فتبرز الصورة الكلامية كتلة واحدة تتفجر كالمفرقعات. ونظامها نظام الانضغاط ، وهي تترك لذهن السامع أن يدرك بالحس نوع الصلة بين الكلمات » (محمد عبد عبد الله عطوات ، 2003 ، ص66، 65).

وبعبارة أخرى هي الفوارق الموجودة بين اللغة المشتركة الفصيحة ولغة الحديث اليومي وهناك من يعتبرها لغة قائمة بذاتها لأنها حية ونامية وهناك من يعتبرها انحطاطا لغوياً يجب محاربته لتميزه باللحن و العجمة ،وعليه فإن مصطلح "عامية " الذي يستعمله الباحثون في العصر الحديث يرادف مصطلح "اللهجة " الذي عرفه العرب قديماً ، ومازال يُستعمل إلى يومنا هذا.

اللهجـة: لقد بحث الكثير من النقاد والأدباء في مصطلح " لهجة " ومن بينهم إبراهيم أنيس الذي عرف اللهجة بقوله «اللهجة في الاصطلاح العلمي الحديث هي مجموعة من الصفات اللغوية تنتمي إلى بيئة خاصة ، ويشترك في هذه الصفات جميع أفراد هذه البيئة وبيئة اللهجة هي جزء من بيئة أوسع وأشمل تضم عدة لهجات. لكل منها خصائصها ولكنها تشترك جميعاً في مجموعة من الظواهر اللغوية التي تيسر اتصال أفراد هذه البيئات بعضهم ببعض ، وفهم ما قد يدور بينهم من حديث ، فهمًا يتوقف على قدر الرابطة التي تربط بين هذه اللهجات » (إبراهيم أنيس ، 2003 ، ص15).

إن المقصود بالبيئة الشاملة التي تضم عدة لهجات هو اللغة ، لأنها تشتمل عادة على عدة لهجات تشترك في صفات لغوية معينة ، فمثلاً لغة قريش تشترك وتتقاطع في صفاتها اللغوية مع كل اللهجات المجاورة لها لتأخذ منها ما هو أحسن و أجود (إبراهيم أنيس ، 2003 ، ص15).

وأما القدماء من العلماء العربية فقد عبروا عن مصطلح "اللهجة" بكلمة "اللغة "حينا و"باللحن" حينا آخر ، فقالوا لغة تميم ، ولغة طيء ، ولغة هذيل ، لتصبح حينذاك كلمة لغة ما نعنيه الآن بكلمة "لهجة" ، ذلك لأن كل من تلك القبائل كانت تعتبر أن ما تتكلم به هو الأحسن والأفصح ،إلى أن فصل القرآن الكريم في هذا الأمر فنزل بلغة قريش وأصبحت اللغة النموذج في الفصاحة والبلاغة ما سواها عبارة عن لهجات.

وقيل أن أعرابيا قال في حديثه عن مسألة نحوية "ليس هذا لحني ولا لحن قومي" وهو يريد بذلك ليست هذه لغتي أو لغة قومي (يُنظر: إبراهيم أنيس ، 2003 ، ص15).

وتنحصر الفوارق بين اللهجات في الأصوات وطبيعتها ، وكيفية صدورها كإبدال صوت بصوت آخر في المخرج مثل حرفي الدال والتاء ، الهمزة والعين ،الهاء والحاء ، أو قلب الهمزة إلى ياء مثلا قراءة التي تنطق قراية ، أو تحويل الحرف المضعف إلى ياء مثل عَدَدْتُ التي تنطق عَدِيتْ ،وفككت "فَكيتْ "...أو عدم التزام الحركات في أول الكلمة أو آخرها أو كليهما مثل : كلمة " تَمْرٌ" تنطق"تْمَرْ " ، أو حذف بعض الحروف واختزال الكلمات مثل الأول تصبح "لَوّلْ" ،ومن تصبح"مَ" مثل "من الباب ،تصبح "م الباب".

وفي العصر الحديث ،نجد استعمال ألفاظ من أصل غير عربي نتيجة اختلاط الجنس العربي بغيره من الأجناس بفعل الفتوحات الإسلامية أولاً والاستعمار ثانياً فمن الألفاظ ما هو أمازيغي ، ومنها ما هو فارسي أو تركي أو إسباني أو فرنسي الأصل.

وتتشابه اللهجات في هذه الصفات إذا كانت متجاورة في المكان الجغرافي مثل تشابه لهجة الشرق الجزائري مع لهجة الغرب التونسي ، أو لهجة الغرب الجزائري مع لهجة الشرق المغربي.

وخلاصة القول إن العرب قبل الإسلام لم يعرفوا مصطلح لهجة إنما عبروا عنه بقولهم "لغة " أو " لسان " وبعد أن تبين لهم أن هناك لغة تحتل الصدارة و تتسم بالفصاحة ظهر مصطلح "لهجة " بعد الإسلام للتعبير عن كلام العرب دون لغة قريش وأما مصطلح "عامية" فهو التداول الحديث إلى جانب مصطلح "لهجة". وحسب رأيي العامية هو تطور وابتعاد أكبر عن اللغة الفصحى.

ولقد تعددت الآراء في العامية بين مؤيد ومعارض ، ومع ذلك ليس بالإمكانالتخلص منها مهما حاولنا ، و يمكن للإنسان البسيط أو الأمي الذي صعب عليه تعلم اللغة العربية أن يبدع باللهجة التي يتكلمها شعراً ونثراً وخطابة ، ففجر كل ما لديه من أحاسيس من خلال كلماته البسيطة فبدت في صور رائعة يفهمها العام والخاص على اختلاف أعمارهم ومستوياتهم الثقافية.

لذا لا يجب أن نتجاهل أن للعامة أخيلة وأحاسيس وآراء وعبارات دالة على حياتهم الاجتماعية ،علينا تدوينها ودراستها حتى نحفظها من الضياع " فليس يستطاع إنشاء العمل الأدبي الكبير بلغة من اللغات ، إلا وتكون أعمال أخرى كثيرة أقل منه تركيباً قد سبقته إلى الوجود" (أحمد رشدي صالح ، 1975 ، ص43).

وأن يكون لكل الفئات الشعبية على اختلاف درجاتهم وانتمائهم أدباً يستصيغونه ويتلذذون بسماعه خير من أن لا يكون لديهم أدب ذلك لأن اللغة الشعبية أكثر تسللاً إلى قلوب العامة من اللغة الفصيحة ، وخير مثال على ذلك القصيدة الشعرية الشعبية التي تسير على خطى القصيدة الفصيحة ، بدءً بالأزجال التي ابتكرها الأندلسيون وانتهاءً إلى أرقى المراتب التي وصلت إليها القصيدة الشعبية الحداثية التي تحمل من الدلالات والصور والرموز وقيلت على طريقة الشعر الحر.

والتطرق إلى الإبداع الشعري الشعبي من خلال القصيدة الشعبية خطاب جدير بالدراسة والتحليل والنقد، وهي مادة ثرية وحقل خصب فيستطيع من خلالها إحياء هذا التراث وإخراجه إلى النور بمناهج حديثة ورؤى مختلفة لتظهر أهم خصائصه الفنية والجمالية.

وعلى غرار القصيدة الفصيحة أصبحت القصيدة الشعبية محل اهتمام الباحثين والدارسين فهي كذلك محملة بزخم كبير من الصور البلاغية، والدلالات والمعاني وتفكيكها للتوصل في الأخير إلى أهم الخصوصيات التي يتميز بها الشعر الشعبي عن التعبير الشعري الفصيح، وما يصاحبه من مزايا أسلوبية وجمالية فنية وإيقاعية.

تُعد اللغة بجمالياتها الفنية والصوتية والدلالية مادة أساسية لكل بناء شعري، فهي وسيلة تعبيرية يفصح من خلالها الإنسان عما يختلج بواطنه وأحاسيسه وعواطفه، وبدونها لا يكون الاتصال والتواصل، وعند الحديث عن اللغة في الإبداع الشعري الشعبي سنتوقف للحديث عن الإشكالية التي تواجه الباحث، وهي إشكالية حقيقية يطرحها الدارسون في التأصيل والتأسيس والتنظير للخطاب الشعري الشعبي بصفة عامة، ومن هؤلاء الدارسين أحمد رشدي صالح عندما طرح السؤال قائلاً:" كيف نرى الصلة بين الأسلوب الفني –مظهر البلاغة- والعامية لغة اليوم؟ كيف نرى الجمال فيه؟ هل في شكله وحده؟ أم في محتواه؟ أم في كليهما" (أحمد رشدي صالح، 1975، 57).

إن التطرق إلى الإبداع الشعري الشعبي من زاوية اللغة يستوجب دراسة اللهجة المحلية التي نظم بها الشاعر من خلال خصوصياتها الجمالية والفنية أو من خلال أوجه الاتفاق والاختلاف بين هذه اللهجة، واللغة العربية الفصحى وجهود الدارسين في الفصل بين اللغة واللهجة كبيرة وجادة، فإذا كانت اللغة شجرة، فإن اللهجة غصنها. ومن هنا فالعلاقة بين اللغة واللهجة هي علاقة بين العام والخاص (إبراهيم أنيس، 2003، ص15).

فاللغة إنما تكون في قمة الهرم وما يندرج تحتها هي تلك المهمات المختلفة والعديدة التي تختلف عن اللغة في بعض الجزئيات، فاللهجة ليست فصحى مطلقا، وليست بعيدة كل البعد عن الفصحى مما يجعلها في المستوى الذي عناه محمود ذهني في قوله:" الأدب الشعبي يمتاز بلغة معينة من الصعب وصفها أو تحليلها ولكنها على وجه القطع ليست عامية، وعلى أساس الترجيح فصحى راعت السهولة في إنشائها(محمود ذهني، 1972، ص82). وبإمكان اللهجة باتساع رقعتها الجغرافية واتساع عدد المتكلمين بها أن تكون لغة مستقلة مثل غيرها من اللغات الأخرى.

ويقسم المختصون الشعر الشعبي من حيث لغته إلى فصيح ومتفاصح وعامي "الشعر بصفة عامة يفرعه قدماء أصحاب هذا الفن إلى سبعة فروع أو أقسام: منها ثلاثة لا تكون عندهم إلا باللغة الفصحى وهي: القريض والموشح والدوين، والفروع الأربعة الباقية منها ما يكون عاميا صرفا، ومنها ما يكون خليط بين العامية والفصحى وهي: المواليا والكان وكان والقوما والزجل" (محمد المرزوقي، 1967، ص75).

ويقسمه آخرون من حيث الخصائص اللغوية البيئية إلى شعر بدوي وشعر حضري و"لغة الشعر البدوي أقوى من لغة الشعر الحضري، ألفاظها الفصيحة التي تمت إلى الفصحى بنسب قريبة كثيرة، والحكم والأمثال والتعابير الوصفية وضروب الاستعارة والتشبيه التي تتخلل أبياتها متعددة، وقد اقتبسوها من القرآن والحديث والفقه وبعض القصائد الفصيحة التي درسوها أو حفظوها بالرواية والسماع" (رابح بونار، 1969، ص31).

وكان هذا أيضا رأي العلامة عبد الرحمن بن خلدون فلغة البدو قريبة حقا من اللغة الفصحى ، وفي المقابل نجد لغة الحضر كمدن الساحل مزيج بين الفصحى والعامية إثر تعرضها للهجمات الاستعمارية والهجرات من ساحل لآخر ، فيحدث التغيير جراء ذلك الدخيل العابر من الصفة الأخرى ، وتنصهر اللغتان ، وخير دليل على ذلك وجود ألفاظ فرنسية وإسبانية وعربية في العامية الجزائرية مثلا.

ولهذا جدير بنا أن ندرس اللهجات في اختلافها وتقاطعها وتطورها من وجهة نظر علمية وسوسيوثقافية ونفسية وننفي ذلك في التصور الخاطئ للعامية "تصوّرا يكتنفه الخطأ أو يلابسه الوهم ، فالعامية عندنا "منحطة" أو صورة فاسدة من الكلام العربي" الصحيح" ولقد يشتد الوهم بجماعة منهم فيرى أنها لا تجري على قواعد أو أصول ، ولا يسهل عليه أن يتصور أنها باعتبارها لغة كأية لغة يمكن الكشف عن قواعدها ، ووصف حقائقها ، وأن في حيز الإمكان أن تصبح لهجة من اللهجات العامية ولغة عامة مشتركة أو لغة أدبية فصيحة في يوم من الأيام" (محمود السعران ، د.ت ، ص43).

وإذا أردنا معرفة خصائص التعبير الشعري الشعبي يجب أن نحدد موقع اللغة المعبر بها من الفصحى والعامية ، وهناك من يطلق حكما مسبقا مفاده أن لغة الشعر الشعبي عامية في مقابل الفصحى لغة الشعر هي لغة الشعر الفصيح ، لكن عامية التخاطب اليومي غير عامية التعبير الشعري أو الأدبي.

فلا شك أن لغة الإبداع تكون أجود وأرقى لتظهر عليها أثار الصناعة الفنية رغم أنها لا تخضع لصرامة القواعد اللغوية ، والأمر نفسه بالنسبة للفصحى التي تتفاوت مستوياتها حسب المقام الذي تكون فيه ، فلغة الإدارة غير لغة الأدب ، والفصحى على أيامنا هذه أيضا لا تخضع لصرامة القواعد اللغوية وخير دليل على ذلك تعميم الوقف بالسكون على معظم الكلمات في الجملة.

وعليه ، فإذا الفصحى لغة الأدب الرسمي في القمة ، والعامية في لغة الحديث اليومي في القاعدة ، فإن لغة التعبير في الإبداع الشعبي تتوسطهما يمكن لها أن تصعد إلى القمة وكما يمكن لها الاقتراب من القاعدة.

إذن يمكن لهذه اللغة المتميزة أن توصف بالبلاغة إذا استوفت الشروط التي حددها عبد القاهر الجرجاني محددًا مفهوم البلاغة بأنها:" وصف الكلام بحسن الدلالة ، وتمامها فيها ، ثم تبرجها في صورة هي أزهى وأزين ، وآنق وأعجب ، وأحق بأن تستولي على هوى النفس ، وتنال الحظ الأوفر من ميل القلوب" (عبد القاهر الجرجاني ، 1991 ، ص57).

معنى هذا أن اللغة تتسم بالبلاغة إذا بلغ المتكلم ما يريد من نفس المخاطب بإقناعه عقليا ووجدانيا ، وأن يطابق الكلام المعنى ، فلا شك أن ما يدفع بالباحثين إلى دراسة التعبير الشعري الشعبي هو اعتقادهم الجازم بأن لغته لا تختلف في فنيتها وجماليتها عن الفصحى إذا استوفت الشروط السابقة الذكر وحينئذ لن يؤثر إهمال القواعد اللغوية ، حين يبلغ الشعر الشعبي مبلغه وهو التأثير والإقناع ونيل الإعجاب والتقدير ، فهو لا يخلو ولا يختلف عن فنية وجمالية التعبير الشعري الفصيح.

هكذا تعايشت العامية والفصحى على مر العصور وستبقى على هذا المسار ، لكن الفصحى حظيت بالدراسة والاهتمام والإبداع ووصلت إلى أسمى مراتبها وكان للنصوص الفصيحة شعراً ونثراً حظ الدخول إلى المختبرات العلمية فعولجت بمختلف النظريات النقدية الحديثة لتثبت أدبيتها ، وجدر بالباحثين أن يولوا اهتمامهم بالإبداع الشعبي المكتوب باللهجات العامية شعرا ونثرا ذلك لأن ملكة التعبير إذا كانت كامنة في الشاعر

جعلته يبلغ مبلغ الإبداع والتأثير في المتلقي ، وإذا انتقلت العامية إلى التعبير الشعري ارتقى مستواها ، لأن الأحاسيس والانفعالات هي التي تصنع من الكلام شعرا راقيا رفيعا دون النظر إلى لغته أو لهجته ، فأقل ما نقول عن لغة الشعر الشعبي أنها ليست عامية بقدر ماهي فصحى مبسطة.

قائمة المراجع:

1 .أنيس ، إبراهيم ، في اللهجات العربية ، 2003 ، ط3 ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة.
2 .البهنساوي ، حسام ، العربية الفصحى ولهجاتها ، 2004 ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة.
3 .بونار ، رابح ، مجلة آمال ، 1969 ، ط4 ، عدد69 ، الجزائر.
4 .الجرجاني ، عبد القاهر ، دلائل الإعجاز ،1991 ، موفم للنشر ، الجزائر.
5 .ذهني ، محمود ، الأدب الشعبي العربي ، 1972 ، دار الأدب العربي للطباعة ، مصر ، القاهرة.
6 .السعران ، محمود ، علم اللغة مقدمة للقارئ العربي ، د.ت ، ط6 ، دار نهضة مصر ، القاهرة.
7 .رشدي ، صالح أحمد ، الأدب الشعبي ، 1971 ، ط3 ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة.
8 .عبد عبد الله عطوات ، محمد ، اللغة الفصحى والعامية ،2003 ، دار النهضة العربية ، بيروت.
9 .عبد الواحد وافي ، علي ، فقه اللغة ، د.ت ، ط6 ، دار نهضة مصر ،القاهرة.
10 .عيد ، محمد ، 1981 ، المستوى اللغوي للفصحى واللهجات والنثر والشعر ، عالم الكتب ، القاهرة.
11 .المرزوقي ، محمد ، 1967الأدب الشعبي ، الدار التونسية للنشر ، تونس.
12.مفلح عيسى ، خالد ، 1987اللغة العربية بين الفصحى والعامية ، ط1 ، الدار الجماهيرية للنشر والإشهار ، طرابلس.
13 .نصار ، حسين ، الأدب الشعبي العربي ، 1982 ، دار الرائد العربي ، بيروت.

العنف الأسري في المجتمع الفوتي: أسباب وحلول

Domestic Violence in peul society Causes and solution

د. آمنة جالو (أستاذة جامعية في جامعة جنرال لنسنا كونتي كوناكري)-غينيا
Dr Aminata DIALLO

مقدمة:

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد:

تعتبر مشكلة العنف الأسرى من أكثر المشكلات التي تؤثر سلبا على المجتمعات ، فهي تؤثر على الأسرة بالكامل التي تعد نواة المجتمع ، كما أن تلك المشكلة تؤدي مباشرة إلى انتشار الفساد والكثير من المشكلات السلبية التي نراها حاليًا في مجتمعاتنا بصورة واضحة ، على هذا الأساس جاء هذا البحث لعرض أسباب العنف الأسري في المجتمع الفوتي ، ثم اقتراح الحلول المناسبة للحد على العنف الأسري داخل هذا المجتمع فعنونت البحث ب: "**العنف الأسري في المجتمع الفوتي: أسباب وحلول**" وذلك قصد المشاركة في المؤتمر الدولي المعنون ب"**العلوم الإنسانية والاجتماعية قضايا معاصرة**" المنعقد في ألمانيا بتاريخ:**01-02-03** نوفمبر **2019**.

أهمية الدراسة: تعد هذه الدراسة- وبحدود علمي- من الدراسات الأولى التي بحثت في واقع العنف الأسري في المجتمع الفوتي.

-إثراء الجانب النظري عن مفهوم العنف الأسري في المجتمع الفوتي ، خاصة أن هذا المفهوم بحاجة إلى مزيد من البحث والاستفاضة في مجتمع يزخر بالتحديات والمعوقات.

-تعد هذه الدراسة مدخلاً لدراسات وأبحاث أخرى للتعمق في موضوع العنف الأسري ومقوماته في المجتمع الفوتي.

أهداف الدراسة: تهدف هذه الدراسة إلى معرفة واقع العنف الأسري في المجتمع الفوتي وأسبابه ثم اقتراح الحلول المناسبة للحد عن العنف الأسري.

خطة الدراسة: قسمت هذه الدراسة إلى تمهيد وأربعة مباحث:

التمهيد: سأتحدث فيه عن فوتا جالون باختصار ، وذلك قصد التعرف على المجتمع الفوتي من خلال ذكر موقعا الجغرافي وسكانها وتاريخها السياسي والاجتماعي باختصار.

المبحث الأول: مفهوم العنف الأسري.

المبحث الثاني: أسباب العنف الأسري في المجتمع الفوتي.

المبحث الثالث: مظاهر من العنف الأسري في المجتمع الفوتي.

المبحث الرابع: حلول مقترحة للحد من العنف الأسري في المجتمع الفوتي.

التمهيد: إمبراطورية فوتا جلون[1]:

سنتحدث في هذا التمهيد عن فوتا جالون من حيث التسمية، والموقع الجغرافي، وسكانها، ثم التاريخ السياسي والاجتماعي للمنطقة باختصار:

1.التسمية: مصطلح فوتا مشتق من لغة القوم ، وكثيرا ما يضاف في الاستعمال إلى جالون ، وهو أحد الجبال العالية في ذلك الإقليم ، وتعد مرتفعات فوتا من أعلى المرتفعات في غرب إفريقيا.

2.الموقع الجغرافي: جمهورية غينيا كوناكري تتكون من أربعة أقاليم رئيسية: وهي: غينيا السفلي ، وغينيا العليا ، وغينيا الغابية ، وغينيا الوسطى أو فوتا جالون ، كما تسمى أيضا بمنبع مياه إفريقيا لأن من هذا المكان نبع نهر نيجير ونهر سنغال وغمبيا ونهر كنكوري.

وتضم فوتا جالون تسع ولايات كبرى ، تشتمل على أربع وثلاثين بلدة ، ومن المساجد ثلاثمائة وأربعة عشر مسجدا[2].

تقدر مساحتها ب 81 ألف كيلومتر ، ويبلغ متوسط الارتفاع بأعالي فوتا 1000 متر.

3.السكان: لا تتوفر إحصائيات دقيقة عن عدد سكانها وتستند تقديرات السكان في أغلبها إلى معطيات تعود للحقبة الاستعمارية ، وتشكل عرقية الفولان 40 بالمائة من سكان غينيا مما يعني أنهم في حدود خمسة ملايين نسمة.

وصف أحد المستشرقين الفرنسيين الفلان بنشاطهم في نشر الإسلام وكثرة العلماء في مجتمعهم حيث يعدون من أهم الشعوب الإفريقية في غرب إفريقيا التي تركت أثراً في التاريخ السياسي للقارة وحضارتها.

عند مجيء الاستعمار الفرنسي في عام 1896 كانت فوتا جالون دولة إسلامية منذ قرون ، وكان نظام المنطقة ملكية شهد لها بالإسلام ، وكان لها دورا بارزا في نشر الإسلام واللغة العربية في إفريقيا الغربية خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلادي.

4.التاريخ السياسي والاجتماعي:

ارتبطت منطقة فوتا جالون بالوجود الإسلامي في إفريقيا الغربية وانتشار الدعوة الإسلامية على أيدي التجار المسلمين القادمين من شمال إفريقيا.

---

[1] للتوسع في تاريخ فوتا جالون ينظر:

-Colonial rule and fulfulde literature in futa jallon (guinea)

-Thierno mamadou bah : histoire du fouta - djallon : des origines au 20 eme siecle

-شكر الإله للعلامة سعد بن إبراهيم الفولاني ، دراسة وتحقيق محمد سمب باه.

-لامية الطلاب لإرشادهم إلى الصواب للناظم الشيخ محمد بن سعيد الشهير ب جرن سمب منبيا (ت1272هـ) مع تاريخ فوتا جالون ، دراسة وتحقيق: ذ. محمد سمب باه

[2] للمزيد من المعلومات عن الأماكن الدينية في فوتا جالون ينظر: Bernard ; Le lieux de mémoire religieuse au fouta-djalon Salvaing.

أقيمت في منطقة فوتا جالون أهم إمارات إفريقيا الغربية وهي "دولة الأئمة" أو ألماميات Almami وفق النطق السائد في المنطقة التي تأسست نتيجة للهجرات الكبيرة للفولان إثر سقوط إمبراطورية ماسينا التي كانوا يقيمونها في منطقة السودان الغربي (جمهورية مالي حاليا).

وبحلول عام 1725 تمكن الفولان من السيطرة على معظم فوتا جالون وكانوا أغنى فئات سكانها لما استطاعوا جمعه من ثروة بسبب اهتمامهم بالتجارة.

دارت حرب بين المسلمين والأعراق الوثنية الموجودة في المنطقة وانتهت بإقامة أول دولة للأئمة بزعامة ألفا إبراهيم ، وبعد موت ألفا إبراهيم في عام 1751م جاء الإمام سوري ألفا فعزز أركان الدولة الإمامية ووسع نفوذها وجعل منها نموذجا رائدا في المنطقة.

ولقد أسس إمبراطورية فوتا جالون عشرة رجال هم:

الإمام محمد سمب Samba.

الإمام إبراهيم بن نوح بن محمد كِيكَلَ "كرمك ألفا مو تمب" karamoko Alpha mo timbo.

الإمام ألفا موسى كيبال kibaali.

الإمام محمد سل cellou.

الإمام ألفا أحمد كلاط kellate.

الإمام صالح بلا كين bella koin.

الإمام محمد ساجو فقمبا sadjo fougomba.

الإمام سوري تمب sory timbo.

الإمام جرن سليمان تمب مدين timbi madina.

الإمام سوري مود sory mawdho بن مالك عم الإمام إبراهيم تمب.

وهؤلاء الأئمة بهم تكونت إمبراطورية فوتا جالون ، وقبل هؤلاء كانت فوتا جالون بلدة يجتمع فيها عدد من المسلمين كل يتولى أهل بيته ، وكانت السلطة للوثنيين والكفار وغيرهم ، ثم اجتمع هؤلاء الأئمة واتفقوا على جهاد الكفار واستخلفوا الإمام إبراهيم بن نوح على فوتا كلها ، وعلى أن يستخلف كل واحد من الأئمة بلده ، وكانت تمبو عاصمة فوتا جالون السياسية ، وكانت تضم تسع ولايات وممالك ، وتم الاتفاق على أن تكون الخلافة وراثية باختيار أحسن وأروع ممن يحق لهم الخلافة في أسرة الخلافة.

هذا بخصوص الحالة السياسية في المنطقة، وأما الحالة الاجتماعية في فوتا جالون فقد كانت السكنى في المجتمع تنقسم إلى ثلاثة أقسام: وهي مسيد misside وفولسو folossou وروندي rounde ، والأول يتكون من عدة جوامع ومساجد مع كثافة السكان ، ويستوطن فيه الملوك والأمراء ، والثاني أقل سكانا من الأول ويستوطن فيه الأحرار ، والثالث يسكن فيه العبيد.

من ناحية التصاهر والتزاوج حصروها بينهم وكانوا يرفضون التصاهر مع القبائل الأخرى ، فتزوجهم بغيرهم نادر جدا.

المبحث الأول: تعريف العنف الأسري:

أولا: التعريف اللغوي للعنف: العنيف هو "الشديد من القول والسير"[3]، وقد عنف به وعليه وعنفه "لامه وعيره"[4].

ثانيا: التعريف الاصطلاحي للعنف: هناك عدة تعاريف للعنف نذكر من بينها: "العنف هو فعل لفظي أو بدني أو إكراه موجه إلى شخص، ويتسبب عنه أذى جسدي أو نفسي أو حرماني، ويعمل على وضع الشخص في مرتبة أدنى"[5].

ثالثا: تعريف العنف الأسري: العنف الأسري هو "اعتداء بدني أو نفسي أو جنسي يقع على أحد أفراد الأسرة من فرد آخر من الأسرة نفسها"[6].

رابعا: تعريف العنف ضد المرأة والطفل: "هو العنف الجسدي والجنسي والنفسي الذي يقع على أحد أفراد العائلة أو الأصدقاء أو المؤسسات التعليمية والمدرسية والرياضية والأماكن العامة، ويتعلق الأمر أيضا بالزواج المبكر والزواج الإجباري، والعنف المتعلق بالصداق والبكارة والختان وبقية العمليات التي تحكمها العادات والتقاليد"[7].

المبحث الثاني: أسباب العنف الأسري في المجتمع الفوتي: هناك أسباب كثيرة للعنف الأسري في المجتمع الفوتي، ترجع إلى أسباب اقتصادية أو اجتماعية أو دينية أو ثقافية، وهي على الشكل الآتي:

أولا: أسباب اقتصادية: وضع العائلة الاقتصادية يسبب العنف داخل الأسرة خصوصا إذا كان الأب عاطلا عن العمل والمرأة هي التي تشتغل وتصرف على البيت، لا تكاد تجد منزلا عند الفوتيين سواء في القرى أو في المدن إلا وتكون للمرأة عملا مستقلا، أو مع الزوج، أو يكون لديها أولادا يعينونها، وذلك يرجع في بعض الأحيان إلى عطل الأب عن العمل، أو بخله حيث لا يعطي للمرأة ما يكفيها من النفقة وتضطر للخروج إلى الخارج للبحث عن وضعية أفضل، وفي بعض المرات يكون ذلك عن عدم الوعي فلا يعي الأب أن الأم بحاجة إلى مصاريف غير مصاريف الأكل، فهي تحتاج إلى مصاريف جانبية من تعبئة الهاتف أو ما يعرف "بهبة الثواب"[8]، وغير ذلك من المصاريف المتعلقة بها.

ثانيا: أسباب اجتماعية: هناك أسباب كثيرة للعنف الأسري ترجع إلى المجتمع، وذلك ما يفعله المجتمع الفوتي من الزواج الإجباري فيجبرون البنت بالزواج لرجل لا تحبه ولا ترغب في العيش معه، وبالتالي تأتي هذه البنت ولا تفعل أي مجهود لنجاح هذا الزواج فتستخدم العنف لتحول زواجها إلى جحيم حتى لا يرغب فيها الزوج ويطلقها، ثم يستخدم الزوج العنف لإبقائها على هذا الزواج طوعا أو كرها، كما يتم الزواج بين الأقرباء

---

[3] القاموس المحيط، مادة عنف.

[4] أساس البلاغة، مادة عنف.

[5] العنف الأسري: أسبابه ومظاهره وآثاره وعلاجه ص:10.

[6] نفس المصدر ص: 9.

[7] - les violences faites aux femmes et aux filles: un problème mondial de santé publique d'ampleur épidémique. P: 7.

[8] للمزيد من المعلومات حول هبة الثواب عند المجتمع الفوتي انظر مقالة لي بعنوان: دور هبة الثواب في تنمية اقتصاديات الأسرة في فوتا جالون.

مما يعطي لكل العائلة الحق في التدخل بين الزوجين في حالة حدوث مشكلة بينهما ، فغالبا ما يستخدمون العنف لحل المشكلات ، وكل واحد يساند قريبه فلا يبحث عن أصل المشكلة بل يرى قريبه هو الضحية.

ثالثا: التصورات الحضارية: فالمجتمع الفوتي يرى في القسوة عنصرا ضروريا في تربية الأولاد ، فالأب يفعل ما يشاء لزوجته ولطفله في سبيل تربيتهم ، وللأم أن تفعل ما تشاء في سبيل تربية أولادها ، ويؤدي ضرب الأم لولدها في سبيل تربيته إلى القتل في بعض الأحيان.

رابعا: غياب سياسات تربوية وتعليمية وثقافية للآباء والأمهات: فلا توجد حلقات النقاش والحوار في المجتمع الفوتي لا في التلفاز ولا في ا لراديو تتحدث عن العنف الأسري وتبحث عن حلول ومقترحات لهذه المشكلة إلا إذا حدثت مشكلة كاغتصاب القاصرات فيتحدث الناس في هذا الموضوع في بضعة أيام ثم يلزمون السكوت بعدها ، فلا توجد برامج أسبوعية أو شهرية لهذا الموضوع ، فالأمية منتشرة في كل مكان وهذا يؤدي إلى الاتجاه نحو العنف.

خامسا: أسباب دينية: الكثير في مجتمع فوتا جالون يفهمون الدين بطريقة خاطئة ، فلا يوجد من يصحح لهم هذه المفاهيم ، يقرءون الآية الكريمة: ﴿ وَاللاَّتِي تَخافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ ﴾ ويفهمون الضرب مباشرة دون الوعظ والحجر ، أو يتخذون حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم القائل: «إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه ، فأبت أن تجيء ، لعنتها الملائكة حتى تصبح»[9] دليلا لتعنيف المرأة وضربها.

فعلماء الدين نادرا ما يطبقون الشريعة الإسلامية في تعاملهم مع أسرهم ، يفعلون ذلك فقط عندما يتعلق الأمر بمصلحتهم.

المبحث الثالث: مظاهر من العنف الأسري في المجتمع الفوتي:

أولا: الزواج الإجباري[10]: جرت العادة في فوتا جالون إجبار البنت بالزواج من رجل لا ترغب فيه قد لا تعرفه حتى ، وكذلك إجبار الولد في بعض الأحيان أن يتزوج ببنت لا يرغب فيها ولا يحبها ، وهذا يؤدي إلى العنف داخل الأسرة ، فلا تفعل البنت أي مجهود لنجاح هذا الزواج ، ويعيشان غرباء تحت سقف واحد ، وقد أدى هذا الوضع إلى الطلاق المعلق في كثير من المرات ، وكذلك إلى العنف الجسدي والجنسي والنفسي للمرأة ؛ لأن المرأة ستكون مجبرة أن تطيع الزوج عند الجماع وإن رفضت يمكن أن يغتصبها الرجل وليس لديها أي مكان للشكوى وتعيش هكذا إلى أن تموت أو تنتحر.

ثانيا: الزواج المبكر[11]: جرت العادة عند الفوتيين زواج القاصرات منذ القديم إلى وقتنا الحالي ، قد يتزوج الرجل وهو في الستين ببنت في الخامسة عشر أو أقل أو أكثر ، فأي حالة من العنف ستعيشه هذه البنت ، وغالبا ما تكون هذه البنت الزوجة الرابعة للرجل ، وعمرها في عمر أحفاده ، ففي القديم كانوا يزوجون

---

[9] صحيح البخاري ، باب إذا باتت المرأة مهاجرة فراش زوجها ، الحديث رقم 5193 ، ج:7- ص:30.

[10] Etude sur les violences faites aux enfants en République de Guinée. P: 28 – 29.

[11] للمزيد من المعلومات انظر:

Rapport national sur l'élimination et le prévention des violences a l'égard des femmes /filles p: 10 .

القاصرات غالبا مع قاصر مثلها ، البنت في الثانية عشر تتزوج بولد في السادسة عشر أو الثامنة عشر ، فنادرا ما سمعنا أو رأينا بزواج الكبار ببنت صغير ، أما الآن فنراه ونسمعه دائما ، والقانون قد يحمي هذه البنت من هذا الزواج ؛ إلا أن عدم وعي هذه البنت لا تسمح لها بالشكوى ، فهي لا تعرف شيئا اسمه القانون ولذلك تضطر للعيش مع هذا الرجل طوال حياتها ، وقد يؤدي ذلك إلى التمرد والخروج إلى الشارع للبحث عن رجل في عمرها وارتكاب الفواحش ما ظهر منها وما بطن والعياذ بالله.

ثالثا: الزواج المعلق: نقصد به الزواج الصوري الذي يكون بين الرجل والمرأة ، فتبقى المرأة معلقا دون أن تكون متزوجة أو مطلقة ، وهذا موجود عند المجتمع الفوتي ، لا تستطيع المرأة أن تخالع زوجها ولا تستطيع البقاء معه ويرفض زوجها طلاقها ، فلا يكون لها الحق في النفقة ولا السكنى ولا الحضانة ولا العلاقة الزوجية ، فتبقى هكذا إلى أن يموت الزوج أو تموت هي دون أن تطلق وتتزوج بآخر ، وهذا من أكبر أنواع العنف ضد المرأة ، ولا يوجد قانون ولا عادة يحميها في هذه الحالة ، والله المستعان.

رابعا: الزواج عن بُعد: نقصد به الزواج الذي يعيش فيه الزوج بعيدا عن زوجته ، يعني يعيش في دولة وزوجته تعيش في دولة أخرى ، قد تكون بين الدولتين تأشيرة دخول وقد لا تكون ، فتبقى المرأة هكذا ، قد تتجازو المدة عشر سنوات بانتظار الزوج ، ويراقبها الرجل عن بعد ، ويملي عليها ما تفعله وما تتركه وكيف تتصرف مع عائلته وأصدقائه ، وقد لا يعطيها في الغالب النفقة الكاملة لتكفيها ولأولادها ، وقد يعطيها ذلك.

خامسا: اغتصاب القاصرات: ظهر مؤخرا قضية اغتصاب القاصرات في غينيا عامة والمجتمع الفوتي على وجه الخصوص ، ولا ندري بالضبط سبب ذلك لأن الأمر انتشر عند ناس عاديين بعضهم يدرسون في مدارس تحفيظ القرآن ويتم الأمر هناك ، والبعض الآخر يدرسون في المدارس النظامية ويتم الاغتصاب داخل المدرسة ، وكذلك في الشوارع وفي البيوت ، وهذا من أشد أنواع العنف ضد الطفلة في هذا العمر ، لا تعرف عن العلاقة الجنسية شيئا.

سادسا: ختان البنات: كان ولا يزال ختان البنات في فوتا جالون ضرورة من الضروريات ، وهو نوع من العنف الجسدي ضد المرأة ، فطريقة تطبيق عملية الختان في كثير من الأحيان يمنع البنت من التمتع بالعلاقة الجنسية سواء مع زوجها أو مع غيره ، وهذه العملية تطبق على كل البنات الموجودات في غينيا ، وفي الغالب يتم ذلك عند نساء تعلمن هذه المهنة عن طريق الوراثة ولا يتم العملية عند طبيبة مختصة وقد لا تنجح العملية ويسبب للبنت العقم أو عيب في الفرج[12].

سابعا: تعدد الزوجات: تعدد الزوجات معروف منذ القديم ، ولا ننكر حكم الإسلام في هذا الموضوع من خلال قوله تعالى: ﴿فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ النساء: 3. ولكن الذي ننكره هو عدم العدل بين النساء ، وهذا منتشر جدا في المجتمع الفوتي ، تجد من يتزوج ثلاث نساء ويسكنهن في نفس الغرفة ، غرفة واحدة بدون صالون يسكن فيها ثلاث زوجات مع زوجهن وأولادهن ، صحيح أنه غير منتشر جدا

[12] Rapport national sur l'élimination et le prévention des violences a l'égard des femmes /filles p: 10 .

ولكنه موجود في كوناكري وفي بعض المدن الغينية ، وهذا لا يجوز شرعا ولا يقبله العقل وهو نوع من أنواع العنف ضد المرأة والأطفال.

المبحث الثالث: حلول مقترحة للحد من العنف الأسري في المجتمع الفوتي:

أولا: التفاعل الأسري: "ويعدّ التفاعل الأسري مكوناً ضرورياً وثابتاً لتطور الأفراد في علاقاتهم مع بعضهم البعض ، فالتفاعل بين أفراد الأسرة يجعل علاقاتهم مرنة ، ولديهم المقدرة لمواجهة ضغوط الحياة اليومية ، في حين أن التفاعل السلبي بين أفراد الأسرة له نتائج سلبية على ما يدور بينها من عمليات وتفاعلات"[13].

ثانيا: التواصل الإيجابي بين أفراد الأسرة: "هو من أهم العوامل التي تحقق الأمن للأسرة ، حيث يستطيع الأفراد التعبير عن أنفسهم بكل صراحة ووضوح ، واحترام الآخرين لهم. كذلك تتضمن تحمل المسؤولية الكاملة فيما يتعلق بوظائف كل منهم وأدوارهم في الأسرة ، بحيث تكون حقوقهم وواجباتهم معروفة"[14].

ثالثا: التنشئة الوالدية: "تعدّ التنشئة الوالدية وسيلة للآباء والأمهات للتفاعل والتواصل مع أبنائهم ، والتي يتم عبرها نموهم النفسي والاجتماعي"[15].

رابعا: المساندة الأسرية: "وتعدّ المساندة الأسرية جزءاً من المساندة الاجتماعية والتي تعمل كمصدر للوقاية من الآثار السلبية الضاغطة بما فيها المرض النفسي وتحقيق الراحة النفسية ، ويسودها الحب والدفء العاطفي ، أما المساندة الوجدانية فهي أحد أشكال المساندة الأسرية وهي المساندة النفسية التي يتلقاها الفرد من وقوف الناس بكافة المواقف ، وإبداء التعاطف معه واهتمامهم بأمره"[16].

خامسا: تطبيق حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم القائل: «اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا»[17].

سادسا: وضع خطة عمل لنشر المفاهيم الصحيحة لعلاقة المرأة مع الرجل وذلك من خلال وضع برامج موجهة يعتمد فيها على رجال الدين والأخصائيين في علم النفس وعلم الاجتماع ، فالعلاقة بين الرجل والمرأة في المجتمع الفوتي نادرا ما يتطرق إليه إلا إذا كان الأمر يتعلق بطاعة الزوجة لزوجها.

سابعا: إجراء دراسات وأبحاث عن ظاهر العنف الأسري في هذا المجتمع ، فالكثير منا لا يفرق بين العنف والتربية ، فيظن أن التربية لا تكون إلا بالعنف ، والتربية بالعنف أدى في بعض الأحيان إلى قتل الأب ولده أو المرأة ولدها.

ثامنا: تفعيل الدور التربوي لمجالس الآباء والمعلمين لربط المجتمع بالمحيط الخارجي.

تاسعا: القيام بنشر الوعي بخصوص خطورة العنف الأسري بالطريقة الصحيحة ، فهناك مثلا من يحارب قضية ختان البنات إلا أن طريقتهم في ذلك غير صحيحة.

عاشرا: إكثار برامج التوعية في التلفاز والراديو حتى يدرك الناس الخطورة التي تترتب عليه العنف الأسري.

---

[13] الأسرة وعوامل نجاحها ، نبيل حليلو ص: 7.

[14] أساليب المعاملة الوالدية كما يدركها الأبناء وعلاقتها بالاتزان الانفعالي لدى الأطفال المضطربين كلاميا بمحافظة مسقط. ناصر الغداني ص: 21.

[15] الاتجاهات الوالدية في التنشئة الاجتماعية وعلاقتها بمخاوف الذات لدى الأطفال. فاطمة الكتاني ص: 20.

[16] المساندة الأسرية وعلاقتها بالصحة النفسية لدى عينة من مرضى القصور الكلوي. سامية صوشي ص: 4.

[17] صحيح مسلم ، باب الوصية بالنساء ، الحديث رقم: 1468 ، ج:2 – ص: 1091.

لائحة المصادر والمراجع:

-الاتجاهات الوالدية في التنشئة الاجتماعية وعلاقتها بمخاوف الذات لدى الأطفال ، لفاطمة الكتاني ، رسالة ماجستير جامعة محمد الخامس كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط.

-أساس البلاغة ، لمحمود الزمخشري ، دار صادر —بيروت ، 1399ه.

-أساليب المعاملة الوالدية كما يدركها الأبناء وعلاقتها بالاتزان الانفعالي لدى الأطفال المضطربين كلاميا بمحافظة مسقط ، لناصر بن محمد الغداني ، رسالة ماجستير ، جامعة نزوى كلية العلوم والآداب قسم التربية والدراسات الإنسانية.

-الأسرة وعوامل نجاحها ، للدكتور نبيل حليلو ، قسم العلوم الاجتماعية كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية قاصدي مرباح/ ورقلة.

-دور هبة الثواب في تنمية اقتصاديات الأسرة في فوتا جالون ، دة. آمنة جالو.

-شكر الإله للعلامة سعد بن إبراهيم الفولاني ، دراسة وتحقيق محمد سمب باه.

-صحيح البخاري= الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه ، لمحمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي ، المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر ، الناشر: دار طوق النجاة ، الطبعة: الأولى ، 1422هـ.

-صحيح مسلم= المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لمسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (المتوفى: 261هـ) ، المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي ، الناشر: دار إحياء التراث العربي —بيروت.

-العنف الأسري: أسبابه ومظاهره وآثاره وعلاجه ، للدكتور خالد بن سعود الحليبي ، الناشر: مدار الوطن للنشر ، الرياض.

-القاموس المحيط ، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادى (المتوفى: 817هـ) ، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة بإشراف: محمد نعيم العرقسُوسي ، الناشر: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت —لبنان ، الطبعة: الثامنة ، 1426 هـ - 2005 م.

-لامية الطلاب لإرشادهم إلى الصواب للناظم الشيخ محمد بن سعيد الشهير ب جرن سمب منبيا (ت1272ه) مع تاريخ فوتا جالون ، دراسة وتحقيق: ذ. محمد سمب باه.

-المساندة الأسرية وعلاقتها بالصحة النفسية لدى عينة من مرضى القصور الكلوي ، لسامية صوشي ، رسالة ماجستير جامعة محمد بوضياف - المسيلة.

-Etude sur les violences faites aux enfants en République de Guinée. Octobre 2014, Hélène Delomez.

-Le lieux de mémoire religieuse au fouta-djalon ; Bernard Salvaing Colonial rule and fulfulde literature in futa jallon (guinea)

-les violences faites aux femmes et aux filles: un problème mondial de santé publique d'ampleur épidémique. Dre Muriel Salmona, psychiatre-psychotraumatologue présidente de l'association Mémoire Traumatique et Victimologie, janvier 2014

-Rapport national sur l'élimination et le prévention des violences a l'égard des femmes /filles, février 2013.

-Thierno mamadou bah : histoire du fouta - djallon : des origines au 20eme siècle.

النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت وآليات السيطرة.

Critical Theory of Frankfurt School and Control Mechanisms.

د. طاهر لقواس علي
جامعة حسيبة بن بوعلي- الشلف- الجزائر

1/- مشروع النظرية النقدية ومنطلقاتها الفكرية: تعد مدرسة فرانكفورت النقدية من أهم المدارس الفلسفية التي تولدت في ظروف سياسية واجتماعية واقتصادية كانت سائدة في ألمانيا في العشرينيات من القرن المنصرم، والتي تعتبر من العوامل الرئيسية لنشأة المدرسة، ولقد أشار"تومبوتوم" إلى هذه العوامل في حديثه عن المنطلقات الفكرية للمدرسة قائلا: " يتعلق الأمر هنا بعدم مجيء المشروع العلمي الذي قدمته هذه المدرسة من فراغ، حيث آزرت ظهوره وتطوره ملابسات موضوعية، مثلتها شروط مادية، وإنتاج نظري مواكب لتلك الشروط، ومعبر عن قضاياها" (توم بوتومور، 1998، ص 19). وهذا يعني أن مدرسة فرانكفورت هي وليدة سياق تاريخي بكل جوانبه السياسية والاجتماعية والفكرية والاقتصادية، يشير بوتومور إليه بقوله:" فلقد تواكبت وقائع مادية بعينها على التأثير في مشروع هذه المدرسة، منها اندلاع الحرب العالمية الأولى، وقيام الثورة البلشفية، وإخفاق الثورة في ألمانيا، وعدم نجاح الحركات الاشتراكية الراديكالية في أوروبا الغربية، وظهور الستالينية في الاتحاد السوفياتي، والنظم الفاشية والنازية في إيطاليا وألمانيا، وهيمنة النظم الرأسمالية وتعزيز سيطرتها الاقتصادية والإيديولوجية، خاصة بعد خروجها من الأزمة الاقتصادية الطاحنة التي مرت بها في الثلاثينيات." (توم بوتومور، 1998، ص 19).

انطلاقا من هذه الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي سادت ألمانيا في تلك الفترة، ظهرت مدرسة فرانكفورت ، مؤسسه نظريتها النقدية "ولعل أهم ما يميز هذه المدرسة الفلسفية يتحدد في كونها اتخذت النقد منهجا لها، وحاولت القيام بممارسة نقدية جذرية للحضارة الغربية قصد إعادة النظر في أسسها ونتائجها في ضوء التحولات الأساسية الكبرى التي أفرزتها الحداثة الغربية، وخاصة منذ الأنوار، التي تعتبر نقطة تحول جوهرية في مسار هذه الحداثة، كما أنها لعبت دورا هاما في رصد مختلف الأعراض الباثولوجية (المرضية) التي عرفتها المجتمعات الغربية المعاصرة كالتشيؤ والاغتراب وضياع مكان الفرد وأزمة المعنى وغيرها" (كمال بومنير، 2010، ص9). يتضح مما سبق أن ظهور مدرسة فرانكفورت لم يكن من باب الصدفة أو من فراغ، وإنما كان ذلك نتيجة حتمية أفرزتها ظروف وعوامل متعددة ومتباينة في آن واحد.

انطلاقا من هذه الظروف التاريخية والسياسية والاجتماعية الصعبة التي أحاطت بنشأة مدرسة فرانكفورت، والتي رغم ذلك استطاعت أن تنشأ، واستطاع روادها مواجهة كل المعوقات والصعوبات خاصة السياسة منها، تجعلنا نتساءل عن المصادر الفلسفية التي استمد منها مفكرو هذه المدرسة للروح النقدية والتي تتجلى في" توجيه انتقادات جذرية وعميقة للمفاهيم والقيم التي تأسست عليها هذه الحضارة ومجتمعاتها، كالعقلانية والحرية والتقدم العلمي والتقني وما ارتبط بها من نزعات وضعية وعلموية وتقنوعلموية، وغيرها من النزعات التي عملت على الحفاظ على الوضع القائم والمصالح المهيمنة فيه" (كمال بومنير، 2010، ص9). وبالتالي

إعادة النظر في أسس الحضارة الغربية بكل جوانبها السياسية والاقتصادية والاجتماعية، والكشف عن مختلف الآليات الايديولوجية والسياسية التي تتحكم فيها.

رغم أن مدرسة فرانكفورت تعود في نشأتها إلى عدة أصول فكرية مختلفة ومتعددة إلا أننا نقف هنا عند بعض الأصول الفلسفية والاجتماعية والتي لعبت دوراً هاما في إبراز النظرية النقدية لدى هذه المدرسة " النظرية النقدية مدينة أساسا في علاقتها مع الفلسفة الهيغيلية والماركسية والكانطية والوضعية، في أبعادها الفكرية والفلسفية والاجتماعية ونقدها للعقل- الأنوار- التقنية- السلطة - الدولة - الرأسمالية، دون أن نغض الطرف عن الأثر الذي تركته أعمال كل من ماكس فيبر وبخاصة كتابه " الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية " سنة 1905 وجورج لوكاش في "التاريخ والوعي الطبقي"1923، وكارل مانهايم في "إيديولوجيا ويوتوبيا" سنة 1929." (عبود المحمداوي واسماعيل مهنانة، 2012، ص 56).

هذه هي المرجعيات الفكرية التي أدت إلى ظهور مجموعة من المفكرين النقديين الذين ركزوا جهودهم على الاهتمام بالأحداث الاجتماعية النقدية وبلورتها في نظرية مستقلة وتوجيهها من كونها مجرد جهود فردية متفرقة إلى تيار نقدي مستقل، عُرف باسم "مدرسة فرانكفورت". لذلك لا بد من الوقوف عند أهم هذه المرجعيات والأصول الفكرية تأثيرا في بلورة المنظومة الفكرية لرواد مدرسة فرانكفورت من الجيل الأول باعتباره جيل التأسيس.

أ/- **الأصول الفلسفية:** لقد كان لفلسفة "كانط" النقدية حضورا بارزا في فكر الفلاسفة المعاصرين، وبالذات على فلاسفة مدرسة فرانكفورت، فهذا الرجوع للفلسفة الكانطية الهدف منه الوقوف على أثر هذه الفلسفة في فكر فلاسفة مدرسة فرانكفورت من الجيل الأول "هوركهايم"و"أدورنو". فقد تأثرا في صياغة مشروعهما الفلسفي والاجتماعي بفلسفة "كانط" عامة أو على الأقل بروح النقد لديه. "إن النظرية النقدية في سياق صياغتها لأسئلتها وأساليب محاكمتها للوضعية ولنتائج الحداثة، لم تكف عن محاورة المتن الفلسفي الألماني، غير أن "كانط"و"هيغل" كانا أكثر الفلاسفة عرضة للنقد. صحيح أن دراساتهم لم تقتصر على هذين الفيلسوفين، لكن نسقي "كانط"و"هيغل" وفرا لأصحاب النظرية النقدية انفتاحات متعددة للتفكير والتأمل" (نور الدين أفاية، 1998، ص 24). فالنظرية النقدية مدينة بالكثير إلى فلسفة "كانط" وذلك عبر جميع مراحل تطورها.

ومن جهة أخرى نجد لدى"هيغل" حضورا قويا في بلورة الفكر الفلسفي لمدرسة فرانكفورت النقدية في جيلها الأول ويتضح ذلك جلياً من خلال الدرس الافتتاحي الذي ألقاه "هوركهايمر"، بمناسبة تعيينه مديرا لمركز البحوث الاجتماعية (وهو الاسم الأول لمدرسة فرانكفورت)، والذي أكد فيه بأن الفلسفة الاجتماعية، التي هو بصدد الإعلان عن برنامج عملها، تستمد وجودها مباشرة من تجربة الوعي الفينومونولوجي لهيجل. "فإن فلاسفة النظرية النقدية، ولا سيما "أدورنو"، جعل الإشكالية الفلسفية تدور بين نسقي كانط وهيغل، لقد حاوروا كل الفلاسفة الألمان، لكن "كانط"و"هيغل" شكلا أهم متن فلسفي انطلقت منه النظرية النقدية لتجربة وممارسة نقدها" (نور الدين أفاية، 1998، 25). يتضح ذلك الحضور للفلسفة الهيجلية من خلال النقد الذي وجهه كل من"هوركهايمر"و"أدورنو"و"ماركوز" وفي دراساتهم المتعددة بحيث جعلوا من الفلسفة الهيغيلية محور نقدهم.

والمتصفح لكتاب " بدايات فلسفة التاريخ البورجوازية "لهوركهايمر"، يقف على كثير من المحطات التي يعود فيها صاحب الكتاب إلى "هيغل" في سياق حديثه عن الجدل في منظوره، فيقول:" وكما يعرض هيغل في موضع آخر، "إنما الجدل هو الذي ينهي إلى الفهم، إلى الاختلاف، طبيعته المتناهية والمظهر الزائف الذي هو استقلالية نتاجاته وهو الذي يعيده إلى الوحدة" (هوركهايمر ،2006، ص 62). فلقد أفرد "هوركهايمر" في هذا المؤلَف عنصرا خاصا عنونه بـ""هيغل ومشكلة الميتافيزيقا" والذي يبرز فيه تفسير هيغل لمشكلة الميتافيزيقا.

إنّ الأثر الهيغلي على الجيل الأول يتمثل بشكل أساسي في عظمة المنهج الجدلي، الذي جعلته مدرسة فرانكفورت أكثر ديناميكية من خلال رؤيتها النقدية التي ربطت بواسطتها الجدل بالواقع الاجتماعي، وهو ما مكن فلاسفتها من اكتشاف جملة التناقضات الكامنة في الظواهر المدروسة، فتمكنوا من رفض النزعة الوضعية التي تشيؤ عالم الإنسان وبالتالي تجعله يشعر بالاغتراب.

ب/- الأصول الاجتماعية: لقد اعتبرت الماركسية: " أن بعض الطبقات التي تملك وسائل الإنتاج تهيمن بالضرورة على قوى الإنتاج الأخرى التي تحرم من حق الملكية الخاصة. غير أن ظهور قوى جديدة منتجة ومالكين جدد لقوى الإنتاج، يساهم في إدخال المجتمع في تناقضات مع العلاقات الاجتماعية السابقة. الأمر الذي يؤدي لا محالة إلى تغييرها في اتجاه جديد للهيمنة تحدده الطبقات الصاعدة. لذلك يمكن القول بأن التناقض الداخلي بين قوى الإنتاج الجديدة والعلاقات الاجتماعية القديمة مع ما يتبعها من صراع طبقي يخرج من رحمها، هو ما يفسر التحولات التاريخية لأنماط الإنتاج." (حسن مصدق، 2005، ص 46).

فالماركسية وإن اجتهدت في فضح الممارسات الرأسمالية وانعكاساتها السلبية على المجتمعات البشرية الغربية خاصة، فإنها سعت إلى البحث عن التقعيد المعرفي للمجتمع الرأسمالي، إذ تكون فيه المنظومة المعرفية برمتها والتي تتضمن الأشكال القانونية والدينية وكل ما ينتمي إلى فضاء الفكر هو في جوهره نتيجة فوقية أو استجابة شرطية لمستوى التطور الاقتصادي في العالم السفلي، وهي تبعية حتمية، نظرا لكون الوضع الاجتماعي هو الذي يحدد مستوى ودرجة الوعي وليس العكس (عبود المحمداوي وإسماعيل مهنانة، 2012، ص 476). وهذا يعني أن ماركس يرفض رفضا قاطعاً أية أسبقية للفكر على المادة، وأي فكر قبلي يقوم على تمثيلات مستقلة عن التجربة التاريخية وبمعزل عنها. وما يصدق على عدم استقلالية القانون والسياسة المجتمعية، يصدق أيضا على تلك الاستقلالية الوهمية والمزعومة للفكر عن الواقع وصيغ الوعي الاجتماعي. (حسن مصدق، 2005، ص 46)

لقد شكلت الماركسية إذن وجهة للنقد الفرانكفورتي لِمَا كانت تحمله من رغبة في تحرير المستضعفين ومناهضة أشكال الهيمنة والإقصاء واستلاب لجهد العمال التي ترتبت عن الهيمنة الرأسمالية، وهو ما "جعل فلاسفة وعلماء اجتماع هذه المدرسة ينخرطون في جهد نقدي يرمي إلى رصد مختلف الأعراض المرضية التي أصابت عصرنا كالتشيؤ والاغتراب والصنمية، مما حدا بهم إلى أن يقيموا نقدا حادا ليتوبيا التقدم التقني والنظريات التبشيرية بعالم الأحلام الموعود، كما انتقدوا في حينه النزعة العلموية التي تتصور المعرفة كطبيعة موضوعية مجردة عن المصلحة..." (حسن مصدق، 2005، ص 46)

وهذا يعني أن الدراسة الفلسفية لمدرسة فرانكفورت كغيرها من الدراسات الفلسفية الألمانية التزمت بتقليد فلسفي ألماني ، وهو تقليد النقد ، كنشاط تنظيري ينصب على المنتج الفكري وكممارسة واقعية ترمي إلى دفع الفكر نحو التورط في إشكالية التغيير الاجتماعي (المحمداوي ومهنانة ، 2012 ، ص 480).. و"بناء على ذلك أرست المدرسة منظورا جديدا يقوم على فلسفة اجتماعية ترى ذاتها كنظرية نقدية ، فعوض أن تنخرط بالانتماء إلى المجتمع وتسلم بنظمه ، لم تتردد عن نقده والبقاء خارجه ، لتقوم بدورها كاملا في النقد كاشفة عن مصادر العطب الذي يطاله وتتوجه موضوعيا نحو تغييره." (حسن مصدق ، 2005 ، ص 46)

وهذا يعني أن مدرسة فرانكفورت وإن اعتبرت مدرسة ماركسية بحكم التأسيس ، نظرا لكون مؤسسيها الأوائل كانوا من المنتمين للماركسية ، تاريخيا ، يمكن القول بأن النظرية النقدية تمتد بجذورها إلى الماركسية ، عبر حلقات أسبوع العمل الماركسية ، التي انبثقت منها فكرة تكوين معهد البحوث الاجتماعية... ومن الواضح أيضا أن المعهد كان مواكبا لكافة التطورات في (الإتحاد السوفياتي) بعد ثورة 1917 ، وأن "هوركهايمر" حاول أن يطبق الماركسية باعتبارها فلسفة نقدية على صعيد نظرية المعرفة. (توم بوتومور ، 1998 ، ص ص 25- 26)

إلا أن هذا الانتماء لا يعني الصلة التي تلغي البعد ، والإقرار بالأساس الماركسي للمدرسة لا يلغي حق الاختلاف معها ، فكانت علاقتها تتضمن الانتماء والاختلاف ، فيمكن الحكم على فترة رئاسة "كارل جرونبرغ" للمعهد بمرحلة الانتماء ، أما فترة رئاسة"ماكس هوركهايمر" ، فيمكن تسميتها بمرحلة الاختلاف ، ففي الوقت الذي كان فيه أصحاب النظرية الماركسية الأوائل يراهنون على إعادة بناء المجتمع على أسس ماركسية كحل لطغيان العقل الذي نجم عنه انهيار المعرفة وأزمة في العقل التاريخي ، فإنّ "هوركهايمر" يرى أنّ المراهنة على البروليتاريا كقوة دافعة ليس كافيا لعملية التحرر ، فالنظرية النقدية أخذت بعض مقوماتها ، لاسيما في البداية ، من الماركسية لكنها قطعت مع تعاليمها في الوقت الذي تبيَّن لروادها أنّ للماركسية نظاما توتاليتاريا يمكنه تسييج الحرية وخنق البعد النقدي للتفكير. (نور الدين أفاية ، 1998 ، ص ص 21- 22)

إنّ منظري مدرسة فرانكفورت قد تأثروا بالماركسية حتى اعتبر البعض أن هذه المدرسة ليست إلا فرعا من فروع الماركسية ، لكن أصحاب النظرية النقدية وإن تبنوا الماركسية كمبدأ أو كمنهج ، فإنهم لم يلتزموابها كليا ولم يتشبثوا بمقولاتها المتمركزة حول نقد النظام الاقتصادي الرأسمالي وحول الايدولوجيا بصفة عامة ، بل تركزت ماركسيتهم على نقد الاغتراب والأسباب الكامنة وراءه في المجتمعات الصناعية ، ولم يكن المصدر الأساسي لهذا النقد هو النظرية الماركسية برمتها ولا الارتباط بالطبقة العاملة بقدر ما كان التأثر ب"ماركس" "فله يعود الفضل في هبوب عاصفة النقد والتغيير التي اجتاحت كل التيارات الفلسفية التي جاءت بعده ، فمنذ أن أعلن في بيانه الشيوعي المبكر عام 1844 عن الحاجة إلى "نقد قاس لكل شيء موجود" ، كان هذا إيذاناً بميلاد نظرية نقدية للمجتمع تعد نموذجاً لخطاب علمي اجتماعي في منتصف القرن التاسع عشر" (عطيات أبو السعود ، ص 65). ومن جهة أخرى يتضح كذلك تأثر رواد المدرسة من الجيل الأول بالنزعة النقدية عند المفكر الماركسي "جورج لوكاش" أما من ناحية المنهج الذي اتبعوه في النظر والتطبيق فقد استندوا إلى روح الفلسفة الماركسية مع الابتعاد عن معظم مقولاتها الأساسية.

إنّ ارتباط مدرسة فرانكفورت بالفلسفة الماركسية المادية لا يمكن إنكاره باعتراف روادها أنفسهم ، فنجد "هربرت ماركوز" في كتابه (فلسفات النفي) يؤكد هذا الارتباط ، قائلا:"إن النظرية النقدية حسب مُعتقد

مؤسسيها مرتبطة أساسا بالمادية (...) وهناك عنصران رئيسيان يربطان المادية بالنظرية الاجتماعية الصحيحة: الاهتمام بالسعادة الإنسانية والاعتقاد بأن هذه السعادة لا يمكن الحصول عليها إلا من خلال تبديل الظروف المادية للوجود. والمجرى الفعلي للتبديل والمقاييس الرئيسية التي يجب الأخذ بها للوصول إلى تنظيم عقلاني للمجتمع إنما يُشخصها تحليل للظروف الاقتصادية والسياسية في الموقف التاريخي المحدد." (هربرت ماركوز ، 2011 ، ص 144)

لقد أرست مدرسة فرانكفورت منظوراً جديداً يقوم على فلسفة اجتماعية ترى ذاتها كنظرية نقدية ، فعوض أن تنخرط بالانتماء إلى المجتمع وتُسلم بنظمه ، لم تتردد في نقده والبقاء خارجه ، لتقوم بدورها كاملاً في النقد ، كاشفة عن مصادر العطب الذي أصابه وتتوجه موضوعياً نحو تغييره. يقوم منظورها للنشاط الفلسفي على ضرورة إنتاج فكر تحرري غير أسطوري ، يرتبط بشكل وثيق بالعلوم الإنسانية التي تحاول إصلاح ذات المجتمع على ضوء الغايات العقلانية المرتبطة بالفعل التاريخي.(حسن مصدق ، 1998 ، ص 29)

لقد صاغ الرعيل الأول لمدرسة فرانكفورت ، مشروع مزدوج تمثلت أولى حلقاته من ناحية في بلورة فلسفة اجتماعية تتعاون مع تخصصات مختلفة ، بهدف إغماء موضوعاتها وإشكالياتها من ناحية أخرى. وتمثلت غاية هذا المشروع المزدوج في الربط بين الفلسفة والعلوم الإنسانية والاجتماعية بطريقة محكمة ، غير أن العراقيل التي صادفته على المستوى النظري والتقلبات المفاجئة التي اعترضت باحثي المعهد وجهت مجرى الأمور في اتجاه لم يكن متوقعاً.

2/- العقلانية الأداتية وآليات السيطرة: تعتبر مدرسة فرانكفورت من أهم الاتجاهات المعاصرة التي عملت على مساءلة ونقد المشروع الفلسفي التنويري الغربي ، من خلال روادها الأوائل والذي كان في طليعتهم كل من "ماكس هوركهايمر" ، و"تيودور أدورنو" ، و"هربرت ماركوز". وذلك من خلال القيام بنقد جذري للفكر والحضارة الغربيين ، ولهذا مثل كتاب "جدل التنوير" الذي كان ثمرة جهد مشترك بين "هوركهايمر"و"أدورنو" منعطفاً حاسماً في تاريخ النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت.

إذا كانت فلسفة الأنوار جعلت من العقل أداة جوهرية لممارسة النقد من أجل الخروج بالإنسان الأوروبي من حالة السيطرة التي مارستها عليه مختلف المؤسسات ، والدفع به لكي يمارس حريته ويعبر عن إرادته في المعرفة. فإن مدرسة فرانكفورت جعلت أيضاً من العقل أداة لممارسة النقد للعقل الأنواري. وفي هذا يقول "هوركهايمر": "إذا كنا نقول بأنه بالأنوار وبالتقدم الثقافي نريد تحرير الإنسان من الاعتقاد الخرافي في قوى شريرة ، وفي شياطين وحكايات خارقة ، وفي القدر الأعمى ، أي بإيجاز تحريره من كل خوف ، فإن ذلك يقتضي إدانة ما تم الإجماع على تسميته بالعقل. وهذه أكبر خدمة يمكن للعقل أن يقدمها" (نور الدين أفاية ،1998 ، ص 28).

ومن هذا المنطلق يتضح أن القيم التي بشرت بها فلسفة الأنوار والقائمة على العقلانية والحرية والتقدم ، قد انقلبت على أعقابها في المرحلة المعاصرة من تاريخنا ، إذ تحولت تلك القيم إلى أدوات للاستغلال والسيطرة والتي أصبحت تهدد الوجود الإنساني. ولكن إذا كان كتاب "جدل التنوير"يُعد نصا تأسيسيا في نقد التنوير في الفلسفة المعاصرة ، فهل هذا يعني رفضا له؟ "ما يوجهه "هوركهايمر"و"أدورنو" (وكل أعضاء مدرسة فرانكفورت) من انتقادات ومآخذ على فلسفة الأنوار ليست في حقيقة الأمر موجهة إلى القيم التي حملتها

وبشرت بها هذه الفلسفة وإنما هي موجهة أساساً إلى ذلك الانحراف الذي عرفه مشروع التنوير عن مساره الحقيقي، وعن القيم التي حملها والشعارات التي دافع عنها (العقل، الحرية، التقدم، العدالة...)" (كما بومنير، 2010، ص 20).

ومن هنا نفيد، أن التنوير الذي مجد العقل وآمن به إيمانا لا حد له، وكان هدفه تحرير الإنسان من مختلف القيود، هذا التنوير قد أصابته انتكاسة ترجع إلى مصدرين: "الأول هو النزعة العلمية أو الوضعية التي حددت العلم بوقائع معينة واستبدلت الصيغ الرياضية بالمفاهيم وحولت الكيفيات إلى وظائف، ورفضت أي شيء يمكن اعتباره وهماً أو خيالاً أو بلا معنى. والثاني هو العقل الأداتي غير النقدي للعلم الذي اعتمد على الشكلانية (النزعة الشكلية). فالعلم كمنهج تحليلي لا يستطيع أن يضفي معنى أو قيمة على أي شيء غير قابل للقياس وغير خاضع للصيغة الرياضية" (عطيات أبو السعود، ص ص 70- 71). إن التنوير الذي كان هدفه الأصلي هو تحرير العقل البشري من الأسطورة تحول إلى أسطورة تخفي الهيمنة والسيطرة والتسلط.

من هنا حاول فلاسفة النظرية النقدية، ولا سيما "هوركهايمر"، و"أدورنو"، و"ماركوز"، انطلاقاً من ممارستهم للنقد، بنقد السلطة والعائلة، ونقد مفهوم التحرر البرجوازي، ونقد الفاشية، والكشف عن آليات السيطرة في الثقافة، ونقد الدولة الحديثة ومؤسسات السياسة التوليتارية...الخ. ومن ثم جعلوا من نقد العقل الذي أفرز مؤسسات الحداثة في الاقتصاد والسياسة والاجتماع والثقافة، منطلقاً جوهرياً في نظرتهم للفلسفة الحديثة ولتجليات العقلانية ومظاهر الحداثة.

ويرى مفكرو مدرسة فرانكفورت أن العقلانية تعود إلى الفيلسوف الفرنسي "ديكارت"، الذي أعلن عن طريق الكوجيتو، بداية تشكل الذات كأساس متين وثابت مقابل الموضوع الذي يمثل الأشياء والموجودات الخارجية. ولقد جعل ديكارت من المعرفة العلمية والتقنية سلطة أو قوة غرضها الأساسي تملك الطبيعة والسيطرة عليها، وهو نفس الموقف الذي ذهب إليه "فرنسيس بيكون" من خلال جعله للمعرفة العلمية قوة وسيطرة. "ومنذ تلك اللحظة التي تأسست فيها المعرفة كأداة للسيطرة، ظهرت ما يسميه مفكرو النظرية النقدية "بالعقلانية الأداتية" وهي نمط من المعرفة تقوم بتوظيف وتوجيه العقل نحو الملاحظة والتجريب والتكميم الحسابي- الرياضي، وهذا النمط المعرفي تقني في أساسه، وذلك لأن المعرفة العلمية التي تبلورت منذ العصر الحديث قد ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بالتقنية كونها أداة لتحقيق النجاعة والفاعلية ولهذا كانت العقلانية الأداتية نتيجة حتمية لفكرة الصراع من أجل السيطرة على الطبيعة" (كمال بومنير، 2010، ص 28).

ومن هنا يتضح أن فكرة السيطرة على الطبيعة التي قامت بشكل واضح في الفلسفة الحديثة مع "ديكارت" و"بيكون" من أجل تحقيق مصلحة الإنسان وسعادته، قد تحولت إلى السيطرة على الإنسان نفسه، وهذا ما تطرقنا له في المبحث الثاني من الفصل الأول وبينا كيف جعل "مكيافلي"من المعرفة العلمية التي انبثقت مع الأزمنة الحديثة، واستغلالها في كيفية الممارسة السياسية وبالتالي ممارسة السيطرة على الأفراد وفق قواعد وقوانين ثابتة مثلها مثل الطبيعة. وبذلك جعل من السياسة تحذو حذو العلم الطبيعي.

لهذا وجه فلاسفة مدرسة فرانكفورت انتقاداتهما الحادة إلى النزعة الوضعية التي ذهبت إلى تطبيق المنهج العلمي التجريبي على الظواهر الإنسانية بنفس الكيفية مثلما هو في الظواهر الطبيعية. ومن هنا اعتبر فلاسفة

مدرسة فرانكفورت أن الوضعية تؤسس لفكرة السيطرة باسم المعرفة العلمية والتقنية والتي يمكن أن تكون أداة بيد القوى السياسية والاجتماعية المتسلطة.

فالمعرفة العلمية التي سُخرت لفهم الطبيعة والتحكم فيها تم استخدامها أيضاً للتحكم في الإنسان، بمعنى أن منطق النظام الذي تصوره الإنسان للسيطرة على الطبيعة، تم نقله بالكامل للتحكم بالأفراد والجماعات. وهذا ما يتبادر إلى ذهننا عند فحص مختلف التنظيمات القانونية والإدارية وأشكال الترشيد والضبط والتقنين والعقلنة لمختلف جوانب الحياة في العالم المعاصر، فكل هذه الآليات تعمل وفق نظمها ومنطقها الداخلي وتكرارها يُكرر إنتاج المجتمع طبقاً لمقاسات ومواصفات معينة. لكن مدرسة فرانكفورت ترفض أي تناظر أو تماثل تجريبي قد يُعقد بين الظواهر الطبيعية والاجتماعية، يمكن صياغته في قواعد وقوانين. فقواعد السلوك البشري لا تمت بصلة للقواعد التي تتحكم في ظواهر الطبيعة. (حسن مصدق، 2005، ص 36)

ومن هنا يتضح، أن العقلانية الأداتية التي اقترنت بالنزعة الوضعية، كانت تهدف إلى السيطرة على الفرد، وهذا ما تجسد فعلاً في المجتمعات المعاصرة إذ أصبح الإنسان يعيش في ظل سيطرت مختلف المؤسسات السياسية والاقتصادية بواسطة التكنولوجيا، إذ أصبحت الدولة المتقدمة تكنولوجيا من أكثر الدول تحكماً في الأفراد بواسطة المعرفة العلمية والتقنية، وبالتالي أصبح هناك تلام بين المعرفة والسلطة في المجتمعات المعاصرة، بحيث ارتبطت مختلف المؤسسات بالمعرفة العلمية والتقنية، مما زادها سلطة وسيطرة على الأفراد، حتى تحولوا إلى مجرد أشياء أو سلعة.

انطلاقاً من الوضع الذي انتهى إليه الإنسان المعاصر من حالة الاغتراب ومختلف أشكال السيطرة في شتى المجالات (الاقتصادية والاجتماعية والسياسية)، اتضح لدى مدرسة فرانكفورت أن مشروع التنوير الذي ناد به فلاسفة الحداثة ابتداء من ديكارت وصولاً إلى "هيجل" والذي كان يهدف إلى تحرير الإنسان من مختلف أشكال السيطرة التي عرفها الإنسان في ظل المؤسسات الدينية والسياسية التي كانت سائدة في أوروبا، قد انتهى إلى عكس ما كان يهدف إليه حيث اختفت الحرية وغاب العقل والتقدم الإنساني. ومن هنا كانت مهمة النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت القيام بنقد جذري لمشروع التنوير. ويقدم "هوركهايمر" و"أدورنو"، مفهوما للتنوير في كتابهما المشترك "جدل التنوير" بقولهما: "يعتبر التنوير، وعلى مر الزمن، وبالمعنى العريض تعبيرا عن فكرة التقدم، وهدفه تحرير الإنسان من الخوف وجعله سيدا...كان برنامج التنوير برنامجا يهدف لفك السحر عن العالم. لقد أراد التحرر من الأساطير وأن يحمل للمخيلة سند العلم".(هوركهايمر وأدورنو، 2006، ص 23) وبذلك حاول أصحاب مدرسة فرانكفورت الكشف عن مختلف أشكال السيطرة وأسباب انحراف مسار التنوير.

إن نظرة فلسفة الأنوار إلى العقل على أنه عقل مطلق هي التي جعلت التنوير ينحرف عن مساره الصحيح ويتحول من أداة للسيطرة على الطبيعة إلى أداة للسيطرة على الإنسان، ولذلك رأى "هوركهايمر": "أن التنوير المضاد للدين والميتافيزيقا دمر انسجام العقل (أو الإنسان) مع العالم الخارجي، ما ترتب عليه ظهور نمطين للعقل: أحدهما عقل تنويري غايته التحرر والعدالة وإلغاء التشيؤ، والآخر عقل أداتي غايته التسلط والسيطرة ويؤدي إلى المادية والعدمية. وكلا النمطين متعارض".(حسن حنفي وآخرون، 2005، ص 540)

يرى "هوركهايمر" ، أن أداة حل هذه الأزمة هو العقل نفسه ، بحيث تصبح مهمة العقل هي نقد ما يسمى بالعقل ، أي أن تواجه النظرية النقدية العقل بالعقل نفسه ، وذلك بأن يضع نفسه في خدمة الكل أو المجموع الاجتماعي القائم. أنها- أي النظرية النقدية - تعارض العقل الذي تهيمن عليه أية سلطة خارجية ، كما تعارض العقل الذي يصر في صراعه من أجل البقاء على أن يخضع الآخر وينكر عليه حريته ، وذلك حتى تستعيد النظرية النقدية المفهوم أو التصور المثالي الذي يهتم بإلغاء الظلم الاجتماعي. ومن هنا يتساءل "هوركهايمر": "لماذا سقطت الإنسانية في بربرية جديدة ، بدلا من أن ترتقي إلى وضع إنساني أصيل؟. أو بصيغة أخرى: كيف أن الإنسانية التي بدل أن تلتزم بشروط إنسانية حقة ، سرعان ماراحت تغرق في شكل جديد من أشكال البربرية ؟".(هوركهايمر وأدورنو ، 2006 ، ص 13)

إذا كان التنوير الأوروبي جاء ليحارب ويقضي على كل أشكال الممارسات اللامعقولة التي هيمنت على الإنسان الأوروبي ، من خلال حمله لقيم الحرية والمساواة والتمدن ...الخ ، معيدا للعقل دوره الفعال في إحداث هذا التغير المنشود. فلا يمكن التشكيك في دور العقل الأنواري في تحقيق هذه السيطرة ، لكن مدرسة فرانكفورت النقدية أرادت مساءلة الفكر التنويري وعقلانيته نظرا لانحرافه عن الأهداف التي وجد من أجلها. وبرزت هذه المساءلة النقدية في كتاب "جدل التنوير". فانحراف التنوير "يشكل أزمة أصابت العقل الغربي وهي التي دفعت بالتساؤل في نص جدل التنوير عن أسباب تراجع هذا العقل وظهوره في شكل جديد ينبئ بالأفول والتهاوي ، في الوقت الذي تعززت فيه الهيمنة الرأسمالية وتصاعد الامتداد السلطوي والأيديولوجي ، ليتحول العقل من مهمة النظر الفكري إلى مجرد وسيلة هيمنة وقمع." (عبود المحمداوي وإسماعيل مهنانة ، 2012 ، ص 68). وهذا يعني أن العقل الذي أتخذ من طرف الإنسان أداة لمعرفة الطبيعة وبالتالي السيطرة عليها ، ومدافعا عن القيم الإنسانية التي حملها المشروع التنويري قد انحرف عن هذه المهام ليصبح أداة للسيطرة على الإنسان ذاته.

هذه التناقضات التي عرفتها المجتمعات الغربية المعاصرة ، هي التي جعلت جهود رواد مدرسة فرانكفورت وعلى رأسهم "أدورنو" تنصب على القيام بنقد جذري (راديكالي) لهذه الصراعات والتناقضات الاجتماعية وما ارتبط بها من مظاهر الاغتراب والتشيؤ التي عرفتها هذه المجتمعات في ظل تحكم ما يسمى بالعقل الأداتي الذي تحول إلى أداة سيطرة كلية لا على الطبيعة فقط وإنما على الإنسان أيضا.(كمال بومنير وآخرون ، 2011 ، ص 16)

فاهتمام "أدورنو" الفلسفي انصب إذن على نقد العقل الأداتي الذي توجه في خضم التطور التاريخي الغربي نحو تحقيق أهداف السيطرة والتسلط الكامل على الطبيعة والإنسان ، تولدت عنه النظم الشمولية والتسلطية كالنازية والفاشية والستالينية الشيوعية ، وبذلك دمر العقل نفسه وفشل مشروع الحداثة وانتهى إلى البربرية ، ولم تتحقق في أخر المطاف وعود فلاسفة التنوير في تحرير الإنسان وفي تحقيق سعادته ، بل انقلبت ضدها تماما.(كمال بومنير ، 2012 ، ص 43)

وهذا يعني أن التطور الصناعي الذي ترتب عن التنوير سيطر على الأفراد إلى درجة أنهم صاروا يعانون اغترابا مزدوجا عن أنفسهم وعن محيطهم. وهذا ما يؤكد انحراف العقل التنويري الأداتي عن مهامه ، والذي لم يقف عند حدود السيطرة على الطبيعة وتسخيرها للإنسان ، بل تجاوز ذلك ليسيطر على الإنسان ذاته. ويشير

"أدورنو" إلى انحراف التنوير عن مساره الصحيح ، قائلا :"كما أن الأساطير قد أكملت التنوير ، فإن هذا التنوير قد ارتبك أكثر فأكثر في علم الأساطير. استقى التنوير جوهر مادته من الأساطير مع أنه كان يريد القضاء عليها ، وحين مارس وظيفة الحكم ظل واقعا أسير سحرها".(هوركهايمر وأدورنو ، 2006 ، ص 32)

وبذلك فالتنوير ينفي ذاته بذاته ، أي أن مشروع التحرر الإنساني الذي يقوده التنوير ، ينتفي بقيد العقل الأسطوري الأنواري الجديد المتجلي في العقل الأداتي ، إذ أن التنوير بممارسته النقد للأساطير راح ينزع نحو جمع الأساطير وكشفها ومن ثم رفضها ونقدها وتحول ذلك المنهج بمثابة المعتقد. لذلك يرى أدورنو أن التنوير قد تحول من فكر تقدمي وتحرري إلى أسطورة تخفي السيطرة والهيمنة. ونجد إشارة صريحة إلى هذا المعنى في كتاب (جدل التنوير) ومضمونها "وفي أيامنا فإن الآلة مع إفادتها للإنسان فهي تقوم ببتره. في ظل شكل الآلة يتطور العقل المتشيء نحو مجتمع يصالح الفكر المتجمد في التجهيز المادي والفكري مع ما يعيش حرا مرسلا هذا الفكر للمجتمع كما إلى ذاته الفعلية" (هوركهايمر وأدورنو ، 2006 ، ص 60)

لقد ارتبط العقل الآداتي في نهاية المطاف بالشقاء والعذاب ومختلف أشكال السيطرة والهيمنة الجديدة التي لم تعرفها البشرية في تاريخها(...) لذلك عمل "أدورنو" على إخضاع العقل الأداتي لنقد لا هوادة فيه لفضح عمليات التشويه والتزييف التي يمارسها هذا العقل في حياة الإنسان المعاصر ، والتي بلغت مستوى لا مثيل له من انسداد أفقها في التحرر والانعتاق من مختلف أشكال القهر والاغتراب والتشيؤ ، والتي تتجه لا محالة - إن بقيت تابعة للعقل الأداتي- نحو الكارثة على رغم التقدم العلمي والتقني ، ورغم التطور المادي وارتفاع مستوى الرفاهية والتسامح والحرية الشكلية. (كمال بومنير وآخرون ، 2011 ، ص 25)

لقد أعلن "أدرنو" يأسه وخيبة أمله بالعقل الأداتي الذي انتهى به الأمر إلى إفراز النظم الشمولية والتوتاليتارية ، كالفاشية والشيوعية والنازية ، ومختلف أشكال السيطرة الجديدة التي تعرفها المجتمعات المعاصرة ... فهذا الذي أدى إلى معاداته لهذا العقل الذي انحرف عن مساره وتوجه إلى خدمة القوى والمؤسسات المسيطرة التي تنظم الواقع السياسي والاقتصادي والاجتماعي ... إن ما حاول "أدورنو" تقويضه ليس العقل برمته ، وإنما بالأحرى ما يسميه بالعقل الأداتي للكشف عن آلياته القمعية والتسلطية ، ومعرفة الأسباب التي حولته من قوة للتحرر إلى قوة للسيطرة والهيمنة الكلية على الإنسان. وهو الذي يقتضي - حسب أدرنو- نقد العقل بالعقل ذاته ، لا التضحية بالعقل ، ومن ثم الوقوع في العدمية. (كمال بومنير وآخرون ، 2011 ، ص 26)

وفي تفسيرهما للسيطرة التي يخضع لها الفرد في ظل الرأسمالية الاحتكارية ، يذهب "هوركهايمر" و"أدورنو" في كتابهما "جدل التنوير" إلى صناعة الثقافة ، التي تهدد حرية الفرد ، إذ أصبحت المؤسسات الرأسمالية تتخذ من كل الأشكال الثقافية(الموسيقى ، السينما ، الفن) كأدوات لممارسة السيطرة والهيمنة على الفرد وتغريبه داخل المجتمع. ويظهر ذلك من خلال "الربط بين الإنتاج الفني ومظاهره وبين أجهزة الدعاية والدور السياسي الاقتصادي لأجهزة الاستهلاك الجماهيرية... ليكتشف حقيقة "الثقافة المُصنعة"... ثقافة آليةً مستوعبةً تمثل الواقع الصناعي المغترب و"فكره" التخديري الفاقد لمحتوياته الجذرية بسبب من تمثله داخل ثقافة جماهيرية استهلاكية عامة ترضي حاجة جماعية ، لتدعم عبر إرضائها هيمنة الدولة ومؤسساتها"(علاء طاهر ، ص 69). ومن هنا كشف "هوركهايمر" و"أدورنو" عن حقيقة الثقافة التي تتم صناعتها عبر أجهزة الاتصال من إذاعة

وتلفزيون وصحف، وهي ثقافة مصطنعة، لا تمثل حاجات البشر الحقيقية، وإنما هي من إنتاج المجتمع الصناعي والتكنولوجي المتقدم، الذي تغدو الثقافة فيه ثقافة آلية، تمثل الواقع الصناعي المغترب، وهي ثقافة تخديرية للجماهير.

فإذا كان العقل التنويري واقعا في أزمة حادة كما تصورها رواد مدرسة فرانكفورت، فما هو السبيل الذي يمكننا من إنقاذ هذا العقل وتخليصه من أبعاده التسلطية والأداتية؟.

يرى رواد مدرسة فرانكفورت "أن تحرر الإنسان من الهيمنة، بكل أشكالها، لا يتم من خلال الاحتجاجات العامة أو التحرر الجنسي أو العمل الثوري، وإنما من خلال الفن الأصيل الذي يحمل في طياته إمكانية هدم وإقالة ما هو قائم، ويرى أن المعرفة الحقة والمعرفة الأعظم هي الفن وليس العلم، ذلك لأن العلم معرفة ناقصة ولا تعكس إلا الحقائق القائمة والسائدة" (حسن محمد، 1993، ص 120). إذ يعتقد "أدورنو" أن الفن هو السبيل الوحيد للتخلص من الهيمنة والسيطرة بكل أشكالها، التي يعيشها الفرد في المجتمع المعاصر.

لقد أكد "أدورنو" على دور الفن في انتشال الفرد من الفوضى الثقافية التي عملت الرأسمالية على ترسيخها في المجتمع الرأسمالي، بإمكان الفن أن يسهم في تحرير الانسان. "إن للفن وظيفة نقدية ثورية بِخلقه لعالم جمالي معادل لانغلاقية الواقع ومواجهة لها، فحين تغدو الحياة اليومية أداة سلب دائم للوعي وقمعه وفق تصنيع واتجاه آلي تحدده المؤسسة الرسمية ونمط الحياة والأفكار المُعززة من قبلها، يغدو العالم الذي يخلقه الأثر الفني... منطقةً لإعادة تثوير الوعي ومنحه لطاقته الرافضة من جديد بعد انتشاله من وسط بضاعي يلهث وراء الاستهلاك... ففي الفن يستعيد العقل قابليته على الحلم والتحليق فوق ما هو محدود نحو فضاءات غير محدودة""(علاء طاهر، ص ص 70- 71). ومن هنا يمكننا أن نتساءل هل بإمكان الفن أن يحرر الإنسان من السيطرة التي يخضع لها الإنسان من قبل مختلف المؤسسات الاقتصادية والسياسية والثقافية، التي مارست سيطرتها منذ عصر التنوير باسم العلم وتطبيقاته التكنولوجية.

خاتمة:

انطلاقاً مما سبق يتضح لنا الدور الهام الذي قام به رواد مدرسة فرانكفورت في نقد أسس العقلانية الآداتية التي رسخت مفهوم السيطرة والهيمنة والتي جعلت من الإنسان مجرد آلة يتم التحكم فيه من قبل المؤسسات المختلفة. كما يتضح من جهة أخرى ذلك التلازم وثيق الصلة بين المعرفة بمختلف أشكالها وخاصة العلمية منها والسلطة بمختلف تمظهراتها. تلك العلاقة التي كانت تهدف إلى تحرير الإنسان من مختلف أنواع السيطرة والاستبداد، والتي بدأت مع عصر التنوير الذي ثار ضد كل أنواع السيطرة اللاهوتية الكنسية، غير أن العقلانية التنويرية سرعان ما انقلبت على نفسها وتحولت إلى عقلانية أداتية، اتسعت من خلالها دائرة السيطرة والاستغلال مما أصبح معها الإنسان المعاصر أكثر اغتراباً واستبداداً.

فعلى الرغم مما عرفته المجتمعات المتقدمة، من تقدم علمي وتكنولوجي، كان بإمكانه أن يعزز للفرد الحرية والعدالة وغيرها، إلا أن ذلك وسع من حجم السيطرة والهيمنة التي يعيشها الفرد في ظل التكنولوجيا. فهي سيطرة شاملة لمختلف مكونات الفرد النفسية والاجتماعية والسياسية، وهذا ما دفع برواد مدرسة فرانكفورت بالدعوة إلى البعد الجمالي "الاستيطيقي" كبديل للعقلانية الآداتية، فالجمالية هي البعد الوحيد الذي يحقق للفرد المعاصر الخلاص من الوضع الذي يعيشه، وذلك من خلال الفن.

المصادر والمراجع:

-ماركوز هربرت (2011)، فلسفات النفي - دراسات في النظرية النقدية - تر: مجاهد عبد المنعم مجاهد ، مكتبة دار الكلمة للنشر والتوزيع ، القاهرة- مصر.
-هوركهايمر ماكس (2006)، بدايات فلسفة التاريخ البرجوازية ، تر: محمد علي اليوسفي ، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع ،بيروت- لبنان.
-هوركهايمر ماكس وثيودورف أدورنو(2006) ، جدل التنوير-شذرات فلسفية ، تر: جورج كتورة ، دار الكتاب الجديدة المتحدة بيروت-لبنان.
-أبو السعود عطيات (د ، ت)، الحصاد الفلسفي للقرن العشرين- وبحوث فلسفية أخرى ، منشأة المعارف جلال حزى وشركاه ، الاسكندرية- مصر.
-أفاية محمد نور الدين (1998)، الحداثة والتواصل في الفلسفة النقدية المعاصرة- نموذج هابرماس ،أفريقيا الشرق - المغرب.
-المحمداوي علي عبود وإسماعيل مهنانة ، (2012)، مدرسة فرانكفورت النقدية- جدل التحرر والتواصل والاعتراف ، ابن النديم للنشر والتوزيع ، وهران- الجزائر.
-بومنير كمال (2010)، جدل العقلانية في النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت ، الدار العربية للعلوم ناشرون ، منشورات الاختلاف ، الجزائر العاصمة- الجزائر.
-بومنير كمال (2010)، النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت- من ماكس هوركايمر إلى أكسل هونيث ، الدار العربية للعلوم ناشرون ،منشورات الاختلاف ، الجزائر العاصمة- الجزائر.
-بومنير كمال وجمال مفرج وآخرون (2011) ، ثيودور أدورنو ، من النقد إلى الإستطيقا- مقاربات فلسفية ، دار الأمان ، الرباط— المغرب.
-بومنير كمال (2012)، قراءات في الفكر النقدي لمدرسة فرانكفورت ، مؤسسة كنوز الحكمة ، الجزائر.
-بوتومور توم ، (1998)، مدرسة فرانكفورت ، تر: سعد هجرس ، دار أويا للطباعة والنشر والتوزيع ، طرابلس (ليبيا).
-حسن محمد حسن (1993)، النظرية النقدية عند هربرت ماركيوز ، دار التنوير للطباعة والنشر ، بيروت- لبنان.
-طاهر علاء (د ،ت)، مدرسة فرانكفورت- من هوركهايمر إلى هابرماس ، منشورات مركز الإنماء القومي- بيروت ، لبنان.
-مصدق حسن (2005)، يورغن هابرماس ومدرسة فرانكفورت- النظرية النقدية التواصلية ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء- المغرب.

البراديغم الجديد وعلاقته بالتكامل المعرفي: الشؤون الدولية نموذجا.

New paradigm and its relation to cognitive integration: Foreign affairs model.

د.أسماء بن قادة ، جامعة الجزائر 3.- الجزائر

مقدمة:

العادات الفكرية: البراديغم الجديد القائم على مسلمات الكلانية واللاحتمية واللاخطية وعدم اليقين ، لا يزال يستخدم في العلوم الطبيعية والدقيقة أكثر منه في العلوم الإنسانية ، لذلك ولمنح ديناميكية جديدة في دراسة الظواهر الدولية التي تعاني من الانسداد والتأزم المعرفي كما يؤكد الأكاديميون المتخصصون في العلاقات الدولية ، نسعى من خلالها للخروج من العادات الفكرية المرتبطة بالحرب الباردة والسجون المفاهيمية التي تجد خلفيتها المعرفية في البراديغم النيوتوني الكلاسيكي والتجزيئي ، نقوم في هذه الورقة باتخاذ البراديغم الجديد إطارا مرجعيا أو نموذجا تفسيريا للظواهر الدولية المعاصرة على اعتبار أنه يعتمد فكر التعقيد المرتبط بدوره بالتكامل المعرفي ويستحضر كافة المداخل المنهجية التي تبحث الشؤون الدولية من منطلق وحدة المعرفة ، كتعددية المناهج والعبر-منهاجية وكذا البين-منهاجية.

مفهوم البراديغم أو النظام المعرفي:

1-: مفهوم المعرفي: لتحديد مفهوم النظام المعرفي ، لابد أولا من تعريف مصطلح المعرفي الذي يعتبر في الخطاب الفلسفي العربي ، ترجمة لكلمة إبستمولوجيا ، ومن ثم فهو يختلف في دلالاته وحدود موضوعه حسب مفهوم الابستمولوجيا في اللغة المترجم عنها ، ففي اللغة الانجليزية ، تعتبر كلمة(Epistemology)المشتقة من الكلمتين اليونانيتين (epistêmê)بمعنى معرفة و (lógos) بمعنى علم أو دراسة أو نظرة ، وبالتالي تعرف الإبستمولوجيا بكونها علم ما نزعم أنه معرفة ، والإبستمولوجيا في اللغتين الانجليزية والألمانية مرادفة ل"نظرية المعرفة" *Erkenntnistheorie* الكلمة التي يعود مصدرها إلى الكانطية الجديدة néokantisme. ومن ثم ، فإن الإبستمولوجيا في اللغتين الانجليزية والألمانية تختص في إمكانية قيام معرفة عن الوجود بمختلف مظاهره وأشكاله من ناحية ، وفي البحث في أدوات المعرفة وحدودها وقيمها ووسائلها العقلية والحسية من ناحية ثانية ، أما في اللغة الفرنسية ، فإنه بتأثير من غاستون باشلار 1949,Gaston) (Bachelardومنطلق التفريق بين المعرفة الطبيعية والمعرفة العلمية ، تعرف الإبستمولوجيا بكونها فلسفةالعلوم وأنها الدراسة النقدية لمبادئ مختلف العلوم ولفروضها ونتائجها كما جاء في موسوعة أندريه لالاند.(Lalande André, 1993)

أما روبرت نادوRobert Nadeau(1999) فإنه لا يبتعد كثيرا عن هذا المعنى في معجمه التقني والتحليلي للإبستمولوجيا عندما يعتبرها فرعا من فروع فلسفة العلوم ، يدرس بطريقة نقدية المناهج العلمية ، والصيغ المنطقية ، وأنماط وقواعد الاستدلال المنطقي المستخدمة في العلوم ، بالإضافة إلى المبادئ والمفاهيم الأساسية والنظريات ونتائج العلوم المختلفةالأمر الذي يحدد الفرق بين المعنى الانجليزي والألماني من ناحية والمعنى الفرنسي من ناحية ثانية ، حيث يسير الأول باتجاه المطابقة بين الإبستمولوجيا ونظرية المعرفة ،

سواء كانت علمية أم عامية ، بينما يحصر الثاني معناها في مجال العلم وفلسفة العلم ليقيد اهتمامها بالمعرفة العلمية فقط ، ويتضح هنا أن لالاند من خلال هذا التعريف يحرص على التمييز بين الإبستمولوجيا ونظرية المعرفة التي لم يأت على ذكرها ، لأنها تختلف في نظره وفي نظر المدرسة الفرنسية عامة عن الإبستمولوجيا بمعناها الدقيق والخاص ، وإن كان هذا الحرص يدل على أن هناك احتمالا قويا للخلط بينهما ورغم هذا التمييز ، فإنه مازال من الصعب إقامة فواصل وحدود نهائية بين الإبستمولوجيا ونظرية المعرفة ، مما حدا بفان رايت (Van Riet, 1946) إلى القول: "سواء سميناه منطقا خاصا أو نظرية اليقين ، أو نظرية المعرفة أو إبستمولوجيا أو كنوزولوجي أو علم المعايير أو النقد ، فإن البحث الذي نقوم به كان هدفه شروط المعرفة البشرية وقيمتها وحدودها".

ويجمع غالبية الفلاسفة والباحثين المعاصرين تحت مصطلح إبستمولوجي أو معرفي ، الدراسة النقدية التي أشار إليها لالاند ونظرية المعرفة. ومن هذا المنطلق ، يمكن تحديد مصطلح المعرفي **بكل عملية بحث في مصادر المعرفة وأدواتها وحدودها وقيمتها، وكل دراسة نقدية لمبادئ العلوم وفروضها ونتائجها.**

وفي ظل هذا المعنى العريض والواسع لمفهوم المعرفي ، يكتسب المصطلح بعدا كليا ؛ والكلي هنا بمعنى الشمول الذي يتضمن البحث ليس فقط في مصادر المعرفة وطبيعتها وطرق الوصول إليها ، وإنما أيضا في المسلمات الكامنة وراءها والدراسة النقدية لمبادئ العلوم والفروض والنتائج والنظريات التي تقوم عليها ، وهي كلها مجالات سيتم توظيفها في هذه الدراسة من خلال استخدام مصطلح المعرفي بمعناه العريض والكلي في الخطاب الفلسفي المعاصر ، وتعتبر فلسفة العلوم أو نظرية المعرفة أو الإبستمولوجيا ، مفاهيم متداخلة على الرغم من الاختلافات الظاهرية بينها ، ولكن كلمة إبستمولوجيا هي التي انتشرت أكثر منذ بداية القرن العشرين ، لاسيما مع صعود الحركة البنيوية في الستينيات. فالإبستمولوجيا مرتبطة بنظرية المعرفة بمعناها العام من حيث إنها تدرس طرق اكتساب المعرفة وطبيعتها وحدودها من زاوية فحص المعرفة العلمية والتفكير العلمي فحصا علميا ونقديا ، وهي مرتبطة أيضا بالمنهجية (الميتودولوجيا) من حيث إنها تتناول مناهج العلوم من زاوية نقدية وتركيبية ، وهي مرتبطة بالمنطق من حيث إنها تدرس شروط المعرفة الصحيحة وتهتم بصورة المعرفة ومادتها أيضا على خلاف المنطق الذي يهتم بصورة المعرفة فقط ، وهي وثيقة الصلة بتاريخ العلم من منطلق أن اهتمامها بتطور المفاهيم وطرق التفكير العلمية وما ينشأ عن ذلك من قيام نظريات معرفية جديدة من بينها نظريات الاتصال والانفصال في تاريخ العلم.وبسبب هذا البعد الكلي لمفهوم المعرفي ، اخترنا في هذه الدراسة بحث الظاهرة السياسية متمثلة في العلاقات الدولية عند المستوى المعرفي ، بهدف إدراك الحقيقة الكلية والنهائية الكامنة وراء مستجدات الشؤون الدولية من خلال البحث في الانعكاسات الإبستمولوجية المترتبة عن صيرورة الاكتشافات العلمية وسياقاتها ، وكيف يستخلص علماء الإبستمولوجيا المسلّمات من القوانين العامة لمختلف الثورات العلمية ، وكيف يؤثر تحوّل تلك المسلّمات في بناء براديغم جديد ، وكيف يؤثر هذا الأخير في تفسير التغيّر في الظاهرة الاجتماعية عموما والمجتمع الدولي ، وما يجري على مستوى تفاعلات النظام الدولي خصوصا. عندئذ ، نكون قد انتقلنا من إبستمولوجيا العلوم الدقيقة والطبيعية إلى إبستمولوجيا العلوم الإنسانية ، ومن ثمّ العلاقات الدولية وتحولات النظام الدولي من منطلق القوانين العامة للثورات العلمية.

مفهوم البراديغم أو النظام المعرفي: إذا كان مصطلح المعرفي يتحدد في الدراسة النقدية لمبادئ العلوم وفروضها ونتائجها، ويمثّل المعرفة العلمية بكافة أدواتها وحدودها وقيمها، والمعرفة العامية الحسية التي بإمكان مطلق الناس الحصول عليها بواسطة حواسهم وعقولهم وخبراتهم، فإنّ النظام المعرفي، يعني شبكة الترابطات المنتظمة بين المعلومات حول مصادر المعرفة (أي المعلومات حول الكون والذات والآخرين)، وأدواتها من ناحية ومختلف الدراسات النقدية لمبادئها وفروضها من ناحية ثانية، أي شبكة الترابطات بين كافة مصادر المعرفة والمسلمات الكامنة خلفها. وفقا لكل من ريتشارد بكمينستر فولر Richard (Buckminster Fuller، 1970)و(وليد عبد الحي، 1994)والنظام المعرفي هو الذي يؤطّر مجموعة المفاهيم والقيم ذات العلاقات التكوينية بالبنى الفكرية القائمة التي تشكل أداة تفسير ومفتاح لهذه البنى عينها، والنظام المعرفي كحقيقة وجوهر موجود في كل البنى المعرفية سواء أطلق عليه مسمى، أي تمت معرفته وتعريفه، أم ظلّ كامنا متسرّبا في مختلف مستويات التفكير الإنساني ومجالاته. فكلّ الثقافات والحضارات الإنسانية تشتمل على نظام معرفي معين، قد لا يدركه أبناؤها حتى العلماء منهم من حيث خلفياته ومسلماته وبنيته، إنما يتم إدراكه على مستوى التجليات؛ فبدون هذا النظام لايمكن أن تنشأ ثقافة أو يبنى علم أو معارف وفقا ل(محمد نصر عارف، 2002).

ولمزيد من التحديد لمفهوم البراديغم لابد من الرجوع إلى توماس كون(Thomas.Kuhn,1983) الذي أصبح المفهوم شائعا على يده في كتابه بنية الثورات العلمية.فقد نال هذا المصطلح "البراديغم" paradigm شهرة واسعة في البيئات الإبستمولوجية والعلمية، أمّا ترجمته إلى اللغة العربية، فقد حاولت أن تجمع دلالاته المختلفة في التعريفات المتعددة والكثيرة للمفهوم عند كون؛ حيث تم حصرها في النهاية على النحو التالي: النظام المعرفي أو النموذج الأعلى المثالي أو القاسم المشترك الأعظم أو النموذج التفسيري أو النموذج الإرشادي الذي يسيطر على جماعة العلماء الباحثين طيلة فترة معينة من الزمن ؛ ففي كل فترة من فترات التاريخ تسيطر نظرية معرفية ما بكل مسلماتها وقوانينها، بحيث تخضع لها كل المخابر العلمية وهو يشبه مصطلح "الإبستميه" (épistemé) لدى ميشيلفوكو1990),(Michel Foucautالذي قصد به نظام الفكر الأركيولوجي الذي يسيطر على جماعة الباحثين في مختلف أنواع العلوم خلال فترة ما من فترات التاريخ.ويقصد بالبراديغم، أو النظام المعرفي، مجموعة متآلفة منسجمة من القيم والمعتقدات والنظريات والقوانين والأدوات التي يشترك فيها أعضاء مجتمع علمي معين.

ويمثل المجتمع العلمي أو المتحد العلمي (communauté scientifique) في معناه العام مجموعة العلماء الذين يبحثون في مختلف المجالات العلمية، وفي مختلف التخصصات، أما في المعنى الخاص والأضيق فيقصد به توماس كون مجموعة العلماء المجتمعين على مصفوفة نظامية معينة، لبراديغم أو نموذج معرفي أو حقل أو مجال أو تخصص أو رؤية للعالم أو مجموعة من المعتقدات الميتافيزيقية.

وقد اعتبر كون ومن جاء بعده، أن البراديغم أو النظام المعرفي قد يكون فلسفيا في طبيعته وقد يكون عاما جدا، يحيط بالمجتمع العلمي والعالمي في زمان معين، وقد يغطي حقلا معرفيا معينا أو مجموعة حقول. وكلها محاولات من طرف كون لتحديد ماهية البراديغم، والتي يعترف هو نفسه بأنها قد تضمنت الكثير من الغموض، إلى درجة أن أحد تلامذته، كما يعبر هو ذاته في إحدى الطبعات المتأخرة لكتابه، قد أعد فهرسا

تحليليا جزئيا أحصى فيه اثنين وعشرين استعمالا مختلفا من طرف كوهن لمصطلح البراديغم مؤكدا أن تبني مصطلح المصفوفة النظامية (matrice disciplinaire) يفيد في تجنب الكثير من الغموض، وهي تضم عناصر مختلفة منظمة حصلت على التزام جماعي بها، كما تؤلف كلا واحدا وتعمل معا وتضم التعميمات والمسلمات والقيم التي عادة ما تكون مصدرا للحس الجماعي والعلمي الذي يمثل قاسما مشتركا للعلماء ككل.ويتقاطع مفهوم النظام المعرفي أيضا مع مفهوم النموذج المعرفي، على مستوى البحث، وإن كان مفهوم النمذجة مستحدثا؛ حيث لا يعثر عليه في المعاجم العلمية المتداولة وهو يستخدم في بحث الظواهر المركبة التي تعبر عن مسار اشتغال العلم وكيفية بنائه وإنتاجه، إذا سلمنا بما يقوله بول فاليري Paul,(Valéry(1975بأننا "لا نفكر إلا على أساس النماذج"Nousne raisonnonsque sur desmodèles".

ولقد اختلف واتفق فيلسوف المنهجية إدغار موران (Edgar Morin,2005) مع توماس كون في تحديد مفهوم النظام المعرفي أو البراديغم، ففي الوقت الذي يؤكد موران على العلاقات المنطقية والنوعية الموجودة في قلب مفهوم البراديغم، يضع تعريفا للبراديغم يقع بين اللسانيات الهيكلية linguistique structurale والتعريف المبتذل la définition vulgatique والمبتذل عند موران في هذا السياق كل ما ابتعد عن الفلسفة واقترب من الايديولوجيا,فالبراديغم عنده هو نمط من العلاقة المنطقية (احتواء، اتصال، انفصال، استبعاد) بين مجموعة من المفاهيم ويفضل البراديغم علاقات منطقية معينة على حساب أخرى، والبراديغم يراقب ويضبط لغة الخطاب، ولذلك يعتبر موران بأن البراديغم طريقة لضبط المنطق وعلم الدلالة في نفس الوقت، ويؤكد بأنه يستخدم البراديغم بمفهوم يتوسط معناه اللساني والكوني نسبة إلى توماس كون

المسلمات الكامنة وراء النظام المعرفي: لكل نظام أو نموذج معرفي مسلمات يرتكز عليها، هي أشبه بالاعتقادات الراسخة الممثلة بمجموعة من القواعد والحدود المرسومة مسبقا، ومن خلالها يتأسس المنهج وتتم صياغة النظرية والقوانين العلمية، وأي خروج عن تلك المبادئ والقواعد يفضي تكراره إلى حدوث أزمة، تؤدي إلى تفكك ذلك النظام، الأمر الذي يحدث قطيعة معرفية تنتهي بانهيار المنظومة المعرفية القديمة والدخول في نظام معرفي جديد، كما أن سيادة مسلمة ما في مجال معرفي معين سيؤدي إلى سلسلة من النتائج المرتبطة بها، لتتكون لدينا بعد ذلك منظومة معرفية متكاملة ومستندة إلى تلك المسلمات بشكل رئيسي. ويمكن التعبير عن المسلمات بالمقولات القبلية في الفكر الإنساني أو بالكليات الثابتة وراء الجزئيات المتغيرة، وهي تصورات ما قبلية، تحدد الأسس النظرية، التي تعتمد عليها جماعة علمية معينة.

فالبراديغم الممتد ما بين أرسطو –الرواقيون –والمدرسيون، أو ما بين المدينة –المدينة العالمية-الإمبراطورية الرومانية، قام على مسلمات مركبة من خليط من العقل والأسطورة والشعر (الإلياذة)، والميتافيزيقا الأرسطوطاليسية، واللاهوت، تلك التي نتجت عنها مجموعة من المبادئ الجلية التي أفرزت بدورها، مبادئ مثل مركزية الأرض ودوران الشمس حولها ومفهوم الطبيعة، والمبادئ الأولية والجواهر الثابتة، ومنها تحدد مفهوم المدينة والمواطنة والمجتمع المدني، وتحددت القوانين التي تحكم الشعوب خارج المدن اليونانية والإمبراطورية الرومانية فالمبادئ الجلية كمسلمات رسخت التفاضل الطبيعي بين البشر فالشعوب الواقعة خارج المجتمع اليوناني والتي وصفت في الخطاب اليوناني بالبربرية ينطبق عليها ما ينطبق

على العبيد وهي بالطبيعة غير مؤهلة لقيادة نفسها وقد امتد هذا التصنيف في تحديد حدود المدن اليونانية والإمبراطوريات إلى غاية مؤتمر وستفاليا وظهور الدولة.

بعدها ، استند النظام المعرفي النيوتوني الذي تلاه والذي امتد من عهد كوبرنيك وكيبلر وديكارت ونيوتن إلى غاية هايزنبرغ وآينشتين ، إلى مسلمات أخرى تقوم على تطابق العقل مع الطبيعة نتجت عنها المنظومة المعرفية القائمة على التجزيئية والاختزالية والحتمية والخطية ...الخ ، ثم بدأت تتجلى بوادر انهيار ذلك النظام منذ منتصف القرن الماضي ، حيث بدأ التحول باتجاه مسلمات جديدة تقوم على مفاهيم التعقيد والفوضى ومبادئ الكلانية واللاحتمية أو عدم اليقين واللاخطية ...الخ.

ومن ثم ، يمكن القول بأن البنية الإبستمولوجية للبراديغم في أي علم من العلوم تقوم على هذه المسلمات التي تكون أقرب إلى القواعد والالتزامات ؛ فالمعرفة العلمية لاتقتصر على المستوى المعرفي الظاهر ، من ملاحظة وتجربة واستقراء ونظريات وقوانين ، ولكنها تتضمن ما يمكن تسميته بالرؤى الكلية المتصلة بالكون ولا تمثل التوظيفات العلمية إلا شيئا نموذجيا بسيطا جدا من تلك التركيبة الكلية التي لا تزال التفاعلات المعقدة بين مختلف عناصرها مجهولة إلى حد كبير.

وتشبه المسلمات ما يدعى بميتافيزيقا العلم ، لأنها تمثل الخلفيات الميتافيزيقية الما قبلية للبراديغمات وهي تظهر في صورة قيم ومبادئ مشتركة وراسخة تنتهي إلى حالة من الالتزام بها والانطلاق منها.

وفي ظل ثبات ورسوخ هذه المسلمات التي يقوم عليها البراديغم في مرحلة ما من المراحل ، فإن كافة الجهود العلمية التي تصب في دائرة العلم العادي أو القياسي لا تستهدف تحصيل أشياء جديدة أو جوهرية ؛ فالعلم العادي كما يعرّفه توماس كون ، هو ذلك البحث المؤسس بصورة راسخة على الإنجازات العلمية السابقة التي يعتبرها المتحد العلمي الأساس لممارسته العلمية اللاحقة ، والتي تنعكس مثلا في كتاب الطبيعيات لأرسطوAristoteأو كتاب المبادئ والبصريات لنيوتنNewton ، أو كتاب الكيمياء للافوازييهLavoisier. ويشمل هذا العلم القانون والنظرية والتطبيق واستعمال الأدوات ليقدّم كل ذلك في نماذج مثل: علم الفلك البطليموسي ، أو الكوبرنيكي ، وعلم الحركة الأرسطي أو النيوتوني ، وعلم البصريات الجسيمي. وكل علم من هذه العلوم في المرحلة التي ينتمي إليها يكون منتميا ومستندا لقوانين ومبادئ تعتبر مسلمات يقوم عليها البراديغم في تلك المرحلة ؛ فكتاب الطبيعيات لأرسطو استند إلى المبادئ الأولية والجواهر الثابتة والعلل البعيدة المرتبطة بالمحرك الأول للكون ، بينما نجد النظام المعرفي النيوتوني بعد ذلك يستند إلى مسلمات أخرى تتمثل في تطابق العقل مع الطبيعة ، ومن ثم استخدام الرياضيات في قراءة الظواهر الطبيعية قراءة مادية وكمية بحتة ؛ الأمر الذي استلزم مع اعتماد المنهج التجريبي الانتهاء إلى اعتبار الحتمية والخطية والتجزيئية مسلمات للبراديغم النيوتوني ، ومنها تركبت وتبلورت الرؤية الميكانيكية للكون ومفهوم الزمن وتم تفسير الظواهر الطبيعية والإنسانية ، وعلى أساس تلك المسلمات وصيغت القوانين والنظريات ...الخ. وهكذا تعتبر المسلمات بعد رسوخها وثباتها قواعد العلم القياسي أوالعادي في مرحلة تاريخية معينة ، استغرقت كل منها في الماضي قرونا طويلة ، إلى غاية بداية ظهور الحالات الشاذة (Les anomalies) التي تواجه في البداية بمعارضة شديدة من طرف المتحد العلمي ، ولكن بتكرارها وتراكمها دون إيجاد تفسير علمي لها ، يفضي ذلك

إلى أزمة تتقوض من خلالها المسلمات التي يقوم عليها البراديغم ، ومن ثم يبدأ النظام المعرفي في الانهيار وهنا تقع القطيعة الابستمولوجية وتبدأ في التبلور مسلمات جديدة يستند إليها براديغم جديد.

ويبدو جليا أن هناك علاقة واضحة بين مسلمات النظام المعرفي ، فكل مسلمة مرتبطة بالمسلمة الأخرى مادامت هذه المسلمات ضمن نسق ومنظومة واحدة ؛إذ أن مسلمة الخطية لها علاقة مباشرة بالحتمية ، والحتمية لها علاقة مباشرة بالقدرة على التنبؤ ، كما أن الحتمية نتيجة حتمية لمبدأ السببية والتجزيئية ، ومن هذا المنطلق يبدو أن مسلمات النظام المعرفي مرتبطة ببعضها البعض ؛ فالتجزيئية والاستقراء والسببية والخطية والحتمية مرتبطة ببعضها تماما كالعلاقة التي تربط اللاحتمية باللاخطية والكلانية والفوضى واللاستقرار والانتظام الذاتي في البراديغم الجديد.

ويعتبر مفهوم القطيعة الإبستمولوجية الفاصل بين براديغم قديم وآخر جديد من أهم المفاهيم التي شغلت الإبستمولوجيا المعاصرة ، ولقد نشأ المفهوم في ساحة العلوم الدقيقة قبل أن ينتقل إلى مجال العلوم الانسانية ، ثم استخدم من أجل بلورة فلسفات ضخمة لا زالت تشغل الباحثين منذ أكثر من نصف قرن ، ابتداء بمؤسس المصطلح ، الفيلسوف والعالم الفرنسي غاستون باشلار Gaston Bachelard ونظريته حول مسار العلم بين التواصل والانقطاع وفلسفة النفي (la philosophie du non) والذي بلوره لأول مرة من خلال دراسته لعلمي الفيزياء والكيمياء بشكل خاص ، ثم انتقل بعد ذلك إلى الفلسفة والعلوم الإنسانية على يد ميشيل فوكو ونظريته حول الإبستميهأو نظام التفكير في كتابه "الكلمات والأشياء" ونظرية لويس ألتوسير Louis Althusserعن ماركس الشاب وماركس الناضج ، من خلال قراءته البنيوية للاشتراكية العلمية ومحاولته صياغة هيكل جديد للنظرية الماركسية من أجل التمكن من وضعها بين العلم والإيديولوجيا بهدف تخليصها من الايديولوجيا وموضعتها في مجال العلم من خلال القطيعة المعرفية ، وعالم الرياضيات رينيه توم ,(René Thom1983)عن " الكوارث" و نظرية توماس كون عن البارادايغمات وكارل بوبر Karl,(Raimund Popper1973)ونظريته حول الثورات وتقدم العلم من خلال الثورات العلمية عن طريق سلسلة تفنيد وتكذيب النظريات وغيرها ...الخ وجميعها نظريات قائمة على مفهوم واحد هو القطيعة الإبستمولوجية

الانتقال من براديغم إلى براديغم جديد:

تتم عملية الانتقال من نظام معرفي معين إلى نظام معرفي جديد من خلال التخلي عن المعتقدات العادية السابقة لدى المتحد أو الجماعة العلمية ، واستبدال مسلمات النظام المعرفي السابق بمسلمات النظام المعرفي الجديد ؛ ففي حالات مثل حالات كوبرنيك واينشتاين على سبيل المثال استغرقت الإرهاصات وقتا طويلا لتصل إلى الإدراك الأوّل بانهيار براديغم وظهور براديغم جديد ، من خلال الاستجابة للأزمة بعد تكرار مظاهر اللايقين وظواهر عدم توقع قاسية وطويلة.

ويؤكد توماس كون من خلال دراسته لتاريخ الاكتشافات والثورات العلمية ، أن الباحث أوالعالم لا يتخلى عن البراديغم الذي قاد إلى الأزمة ، حيث لا يتعامل مع حالات عدم التوقع كما لو أنها أمثلة مناقضة contre exemple مع أنها كذلك في مصطلحات فلسفة العلم ، حيث قرار رفض براديغم يكون دائما متزامنا مع قرار قبول براديغم آخر ، فالعلماء عادة ، عندما يواجهون بظاهرة عدم توقع ، فإنهم يبتكرون صيغا عديدة ويجرون تعديلات كثيرة في نظريتهم لكي يزيلوا أي تناقض ظاهري ، وكثير من هذه المحاولات موجود في أدبيات

البحث العلمي ، وفي هذا السياق هناك من العلماء من يعتبر الأمثلة والظواهر المناقضة مجرد ألغاز وهناك من يعتبرها أمثلة مناقضة ومصدرا من مصادر الأزمة. فما رآه كوبرنيك من أمثلة مناقضة كان قد رآه خلفاء بطليموس على أنه ألغازا ، وكان لافوازييه قد اعتبر مثلا مناقضا ما كان ابريستلي قد اعتبره لغزا محلولا بنجاح في صياغة نظرية الفلوجستون ، وقد اعتبر آينشتاين أمثلة مناقضة ما كان لورنتز وفيتزجيرالد قد اعتبروه ألغازا في صياغتي نظريتي نيوتن وماكسويل ، أما **نقطة المنعطف** فيمكن تحديدها في اللحظة التي تثير فيها ظاهرة عدم توقع بشكل واضح تساؤلا حول تعميمات جوهرية للبراديغم ، وعندها يبدو عدم التوقع أو حالة عدم اليقين أكثر من لغز ، وبذلك تكون بداية الانتقال إلى أزمة وإلى علم غير عادي أو غير قياسي ، ومن ثم يكرّس لظاهرة عدم التوقع انتباه متزايد من قبل عدد متزايد من العلماء البارزين في مجال البحث العلمي ، ومن ثم يدرك العلماء بأن حالات الشذوذ وعدم التوقع واللايقين تكمن في مادة النظام المعرفي ذاتها. وقد وصف آينشتاين هذه اللحظة الانتقالية بقوله: " كان الحال وكأن الأرض قد سحبت من تحت قدمي الإنسان ولم يعد يرى أساس ثابت في أي مكان" أما عالم الفيزياء بولي ولفغانغ Pauli Walfgang وقبل أشهر من مقالة هايزنبرغ Heisenberg عن ميكانيكا المصفوفات التي دلّت على نظرية جديدة في ميكانيكا الكم والتي كانت واحدة من أقوى ظواهر عدم التوقع " إن علم الفيزياء في هذه اللحظة مشوش بصورة مرعبة. إنني تمنيت لو كنت ممثلا هزليا أو شخصية من هذا القبيل ولم أكن عالما في الفيزياء" فكلّ الأزمات تبدأ بظاهرة تشوش في البراديغم تتبعه خلخلة في قواعد العلم أوالبحث العاديثم تنتهي الأزمات في أحد طرق ثلاثة ؛ فأحيانا قد يثبت العلم العادي في نهاية المطاف قدرته على معالجة المشكلة التي أثارت الأزمة ، وفي مناسبات أخرى تقاوم البراديغمات وتكون عملية الانتقال من براديغم مأزوم إلى براديغم جديد منشأ لتقليد جديد لعلم عادي أو قياسي هي أبعد ما تكون عن عملية تراكمية أو صياغة براديغم قديم وتوسيعه ، بل تعتبر إعادة بناء الحقل العلمي على أسس جديدة.

أما فيلسوف المنهجية المعاصر إدغار موران(Edgar Morin ، 99فإنه يسمي الانتقال من نظام معرفي إلى نظام معرفي آخر بالمنعطف البراد يغمي tournant paradigmatique وهي المرحلة التي تكثر فيه الثغرات في النظام القديم كما يصاب بالتشقق والتصدع الذي يطال المفاهيم الأساسية ونظام التفكير من ناحية الانطولوجيا والمنهجية والأبستمولوجيا ، والمنطق ، بما ينعكس على مجاله التطبيقي والعملي ، ويمتد إلى المجتمع والسياسة ، ويعبر عنها موران بتغيير قواعد انطلاق نظام التفكير (il s'agit de changer les bases de départ du raisonnement) ولهذا فإن التحول عندما يحدث يكون راديكاليا ، بتغير القواعد التي يقوم عليها نظام التفكير ومسلماته ، تتفكك بنية البراد يغم الفكرية وينشأ براديغم جديد بمسلمات جديدة.

الشؤون الدولية في ظل البراديغم الكلاسيكي النيوتوني:

لقد حاولت كافة المدارس في العلا قات الدولية مقاربة النظام الدولي الذي تدرس في إطاره الشؤون الدولية كنسق من خلال اعتبار المجتمع الدولي وحدات متباينة بينها شبكة من العلاقات تجعل الترابط بين وحدات المجتمع الدولي ذات صبغة تكتيكية وعابرة ونفعية ، بينما يبقى الوجود المتميز المنفرد لكل وحدة هو الأساس الاستراتيجي لفهم حركية المجتمع الدولي ، ومن ثم جرى اعتبار الدولة فاعلا أساسيا في النظام الدولي وهي تعكس تماما المماثلة مع الجزيء على مستوى المادة أو الخلية على مستوى النسيج أو العضو وتعود هذه

الخلفية معرفيا إلى التجزيئية في البراد يغمالنيونيني- الديكارتي ، الذي تزامن مع إرهاصات انبثاق الدولة القومية في أوروبامن خلال مؤتمر وستفاليا ، ومحاولة إدراج الفلسفة السياسية ضمن البراديغم النيوتوني من خلال تأسيس المفاهيم المركزية في الفلسفة السياسية على مفاهيم المادية والفردانية و المنفعة والحق الطبيعي التي انبثقت عنها مفاهيم أخرى قامت عليها العلاقات الدولية كالقوة والصراع وتوازن القوى...الخ ، ومن خلال تطابق العقل مع الطبيعة وبسبب المماثلة المستمرة بين الظواهر الطبيعية والظواهر الإنسانية تم اختزال الأخيرة واعتماد التبسيط في التعامل معها ، فكان توزيع القوى وفقا لقوة الدولة كوحدة أساسية ، ومن هنا انطلقت مقاربات البحث في قواعد التفاعل على مستوى النظام الدولي من خلال توظيف مناهج الفيزياء والبيولوجيا الخاصة بدراسة الظواهر الطبيعية والأحياء على الظاهرة السياسية في مجال العلاقات الدولية من خلال نوع من النمذجة البسيطة. ابتداء من كينيث بولدينغ keneth Boulding,1962وتالكوت بارسونز (Talcott Parsons, 1983)وكارل دويتش ,(Karl Deutsch 1969) ومورتون كابلان (Morton Kaplen)1957و ريتشارد روزكرينس 1963). ,,(Rosecrance Richard.

فانطلاقا من الدول كوحدات دولية تنطلق التفاعلات تماما كما يجري مع الجزيء أو الذرة في فيزياء نيوتن بين مكونات النظام الدولي [20]ومن ثم فإن طبيعة التفاعلات بين الدول في المنظور التجزيئي تخضع لمجموعة من الآليات على رأسها آلية توازن القوى الذي يتميز بكونه توازنا ميكانيكيا فمنذ نظرية نيوتن عن التوازن في الكون عملت النظريات الاجتماعية على الإفادة من النظريات العلمية في العلوم التطبيقية ،ويضاف إلى آلية توازن القوى آلية إدارة الصراع وفقا للخلفية المعرفية للبعد الصراعي في المسلمة التجزيئية التابعة للداروينية التي ترى بأن الصراع مع الطبيعة والبيئة آداة للبقاء ، وآلية الاعتماد المتبادل البسيط الذي تتعامل فيه الدولة كوحدة أساسية للنظام الدولي والشؤون الدولية ، ومن ثم فإن عمليات التكامل في المنظور التجزيئي تدخل في دائرة الدولة القومية كوحدة أساسية ،وذلك في إطار اقتصاد حقيقي يقوم على خلفيات مادية ملموسة ،وكذا آلية القانون الدولي التي تعتبر في المنظور التجزيئي ناظما مهما للتفاعلات الدولية على أساس أن التشريعات الدولية قائمة على اعتبار الدولة فاعلا أساسيا في النظام الدولي منذ غروشيوس 1583-1645 وبوندريوف 1632-1694 اللذان سعيا إلى وضع حد لمطالب الإمبراطورية الرومانية والسلطة البابوية لصالح سلطة الدولة ، كما أن بنية النظام القائمة على التراتب في المنظور التجزيئي ، وكذا البيئة الداخلية والخارجية وطبيعة التفاعلات بينهما والتي استفادت من طبيعة التكيف في علمي الأحياء والبيولوجيا على مستوى الكائنات الحية ، أما مفهوم الاستقرار القائم على فكرة الترابط الميكانيكي في الكون فإنه يقوم على مضمون وأبعاد إيجابية وينظر لعدم الاستقرار بمضمون وأبعاد سلبية في حين يحمل الاضطراب والفوضى في ظل البراديغم الجديد وفقا للنظرية الثانية للديناميكا الحرارية مفهوما ذو مضمون جديد يتضمن حالة الانتظام الذاتي الذي غالبا ما يحمل بعدا إيجابيا.

وفي ظل هذه المعطيات يمكن القول بأن التصور الميكانيكي الذي قام عليه التنظير في مجال العلاقات الدولية فرض اعتماد مسلمات البراديغم النيوتوني المتمثلة في التجزيئية والحتمية والخطية ومن ثم القدرة على التنبؤ[21].

البراديغم الجديد والتكامل المعرفي: نموذج الشؤون الدولية:

استمر البحث في الشؤون الدولية على خلفية هذا البراديغم الكلاسيكي إلى غاية ظهور حالات جديدة من الانبثاق لظواهر جديدة نتاج تفاعلات متشعبة ومركبة تجري بتسارع كبير ،حتمت حالة من الاستعجالية فرضت على صانع القرار عند اتخاذه لقرارات تخص قضايا مرتبطة بالشؤون الدولية ، بسبب التحول في مفهوم الزمن الذي فرضه الانفجار المعرفي الذي قضى على المفهوم الاستغراقي للزمن وحوله إلى مفهوم آني ولحظي ، ومن ثم واجه المنظرون من الأكاديميين في حقل الشؤون الدولية حالة من الانسداد والتأزم المعرفي ،استلزمت الاعتراف بأن هناك نوع من القصور المعرفي في دراسة كثير من الظواهر الدولية ، فالتطورات المتلاحقة على مستوى الواقع لم يواكبها تقدم مهم على مستوى المناهج العلمية والأدوات المعرفية التي يمكن أن تتحول إلى مقاربات تملك القدرة على تفسير ذلك الواقع حيث لا تزال معظم الدراسات أسيرة الرؤية المعرفية التجزيئية والاختزالية ،الأمر الذي تطلب الارتكاز على البراديغم الجديد الذي تبلور وتشكل في ظل العلوم الدقيقة والطبيعية والذي يستند إلى مسلمة الكلانية holisme بدلا عن التجزيئية حيث تفسر لنا الكلانية طبيعة التفاعلات الجديدة التي يمر بها النظام الدولي ، كما اتضحت أيضا الطبيعة اللاحتمية واللاخطية بدلا عن الحتمية والخطية فسرت وفقها التفاعلات وفقا للخريطة الإدراكية الخاضعة للبراديغم النيوتوني ومن خلال عمليات الانبثاق لفواعل جديدة كالجماعات المسلحة و القرصنة الحديثة والشركات الأمنية والجريمة المنظمة...الخ.

من هذا المنطلق ولمنح ديناميكية جديدة لتحليل الوقائع الدولية ، يرى جيمس روزينو James,2006) (Rosenauأحد أوجه المدرسة الليبرالية في العلاقات الدولية أنه لابد من الخروج ابتداء من **السجون المفاهيمية** نحو فضاءات متفتحة على مختلف العلوم الإنسانية ، وفي ذات الإطار النظري الذي يعبر عن الانسداد الذي يسبق المنعطف المعرفي يرد الخبير الاستراتيجي جون ماري غينيو (Jean M.Guéhenno، 1993)هذه الأزمة المعرفية إلى " الفترة الاستثنائية الخاصة بالحرب الباردة والتي علمتنا عادات سيئة من التفكير: لقد أخذنا **الاستثناء على أنه القاعدة** ، بينما كان التحليل الاستراتيجي يجد صعوبة أكثر فأكثر في فهم**اللايقين** ، واليوم فإن المقترب نفسه يعمي تحليلنا ويمنعنا من فهم هذا العصر المائع الفاقد لأي مرجعية ، والذي حاولنا بكسل فكري أن نسميه فترة انتقالية ، وكأن الانتقال لم يكن في التاريخ هو القاعدة"[22].

أما إيمانويل والرشتاين (Immanuel Wallerstein، 2002) فيؤكد بأن العالم سيعرف فوضى وصراعات دولية ، من منطلق أنه في السنوات الأخيرة أصبحت التدفقات الفوضوية المضادة للنسقية (Anti- systémiques) تتغذى من مجموعة التشنجات الثقافية والهوياته لتجد عدة شعوب نفسها أمام ثلاث خيارات تتمثل في رفض الإطار الجيو-ثقافي -الغربي ، أو اختيار المواجهة مع الغرب ، ثم الخيار الفرداني الذي يتمثل في خسارة الهجرة نحو الشمال ، وهذه الخيارات الثلاثة حين تتحقق في الواقع بشكل مكثف ستجر وراءها اضطرابات واسعة وخطيرة على المستوى العالمي.

لذلك يتوقع والرشتاين حدوث مرحلة طويلة من الفوضى وعجز عن التنبؤ بالاتجاهات التي سيتطور عبرها النظام الدولي ، معتبرا أن النظام الحالي نظام معقد حيث يمكن أن يكون للتأثيرات الكبيرة الحادة مفعولا محدودا ، كما يمكن أن يكون للتأثيرات الضعيفة مفعولا قويا وكبيرا.

وفي دراساته حول طبيعة النظام الدولي لمرحلة ما بعد الحرب الباردة يعتبر زكي العايدي (Zaki Laidi، 1996)أن مجال العلاقات الدولية لم يعد قائما على منطق محدد أو نظام منسق وموحد، الأمر الذي يحول دون القدرة على بناء تصور عقلاني يتيح فهم وإدراك التفاعلات الدولية، للحد الذي يعتبر فيه العايدي أن الاحتمالية المتقلبة التي يعيشها العالم ستجعل الفارق بين الأزمة والاستقرار والنجاح والفشل والتقدم والتراجع تتقلص أكثر فأكثر الأمر الذي سيحد عمليا من حجم الترتيبات التي تهدف إلى ضمان السلم والتوازن لسنوات طويلة [25]ويعود اضطراب النظام الدولي عند زكي العايدي إلى فقدان العلاقات الدولية **محاورها المرجعية** بفعل انشطار مفهوم الوحدة والمركزية والغائية.

أما برتراند بادي,(Bertand badie, 2014)، فإنه يرى بأن تفكيك تعقيد الظواهر الدولية لا يمكن أن يتم إلا عبر غرس سوسيولوجيا للعلاقات الدولية تتفاعل داخلها العلوم السياسية والاجتماعية والعلاقات الدولية[26].

تعبر هذه النتائج التي توصل إليها كل من روزينو وجون ماري غينيو ووالرشتاين وزكي العايدي، وبرتراند بادي عن حالة عدم اليقين واللا حتمية وعدم القدرة على التنبؤ التي يعيشها الأكاديميون في مجالات الشؤون الدولية، حيث بات الباحثون في العلاقات الدولية يعبرون عن العجز عن تفسير الواقع فكيف بالتنبؤ، ومن ثم طالب بعضهم بضرورة الخروج من نزاعات المدارس، والاتجاهات والبحث على مفاهيم جديدة، هذا من حيث الجانب المعرفي أما الجانب المنهجي، يلتقي مجموعة من الأكاديميين من تخصصات مختلفة عند حقيقة أنه وفي ظل البراديغم أو النظام المعرفي الجديد القائم على مسلمة التعقيد والذي يقف وراء أي خلفية معرفية تتعامل مع تحولات النظام الدولي حاليا، لابد من اعتماد مجموعة من التخصصات لتفسير الظواهر المنبثقة المعقدة عن الوضع الدولي الحالي ويعبر عن ذلك التعامل بما بات يدعى بالعبر-منهاجية transdisciplinarité على اعتبار أن التجزيئ والتقسيم والتكميم القائم على أحادية التخصص يفقد علميا ومعرفيا القدرة على وضع المعرفة في سياقها الطبيعيوأن ثمة تفاعلات بين ظواهر سياسية وديموغرافية واقتصادية ودينية ولا نستطيع أن نضع معارف العلماء واحدة بجانب أخرى لتفسير الظواهر المتداخلة إنما لابد معرفة رابطة وجامعة يكون منهجها منهجية العبور إلى جانب تعددية المناهج multi disciplinarité والبين-منهاجية interdisciplinarité، عبر عن ذلك بسراب نيكولسكو Basrab Nicolescu, 1996 في بيانه حول هذه المنهجية، قائلا "دراسة موضوع تابع لتخصص واحد من خلال المناهج والتخصصات كأن ندرس لوحة جيوتوGiottoمن خلال تاريخ الفن والفيزياء والكيمياء وتاريخ الأديان وكأن ندرس الفلسفة الماركسية من خلال الفلسفة والفيزياء والاقتصاد والتحليل النفسي والأدب" [27]

ولقد ظهرت، مع نهاية الحرب الباردة، مجموعة من المقاربات في محاولة لرصد التحولات الجارية على مستوى النظام الدولي والتي لم تخرج في عمومها عن النظام المعرفي النيوتوني فيما يخص المسلّمات التي استندت إليها تلك المقاربات التي اتسمت بالحتمية والخطية، مثل مقاربة نهاية التاريخ وخاتمة البشر للكاتب الأمريكي فرنسيس فوكوياما(Francis Fukyama, 1992)، أي محاولة لتفسير وضع العالم لما بعد الحرب الباردة، والتي اعتبر فيها الصراع بين الليبرالية والماركسية قد انتهى بانتصار الفكر الليبرالي الذي بات يشكّل الطور النهائي للصراعات الإيديولوجية في العالم، ومن ثم أعلن فوكوياما نهاية التاريخ مع الانتصار الكوني للديمقراطية الليبرالية معتبرا أن ذلك سيشكل المعنى الأسمى للتاريخ، مع اكتمال حركيته، متقفّيا في ذلك

نظريات كانط وهيغل وماركس ، بوجود تاريخ كوني موحد للإنسانيةوالمجتمع مابعد الصناعي[28] وكذا السيولة لدانيال بيل Daniel Bell,1981في وقت أبكر ، بالإضافة إلى أطروحة صدام الحضارات لصمويل هانتغتونSamuel Huntigton ومع هذا العجز في التنظير الدولي عن تقديم أنساق نظرية قادرة على استيعاب مختلف التفاعلات الدولية بفعل التعقيد ، دعا بعض المنظرين المتخصصين في العلاقات الدولية وباقي العلوم الإنسانية ولاسيما في علم الاجتماع ، إلى ضرورة التوقف عن البحث عن نظريات جديدة للعلاقات الدولية وبدلا من ذلك السعي للعمل من خلال تداخلية معرفية قوية تقوم على تكامل المعارف في تفسير الظواهر المرتبطة بالعلاقات الدولية عموما والنظام الدولي بشكل خاص.

فالبحث عن تفسير الظواهر والقضايا الدولية المعاصرة بأدوات منهجية قاصرة عن تفكيكها ، لا يمكن أن يصل إلى حل الإشكاليات المعقدة التي تطرحها حيث تبين أن تلك الدراسات التي كانت تجري في إطار البراديغم القديم إنما كانت تتطلع لرصد ودراسة الملامح الأولى لتحولات النظام الدولي أكثر من دراسة التفاعلات ، لقد أصبح من الواضح تماما أن عدم القدرة على التفسير تعود إلى أن المسلّمات القديمة المستخدمة في بناء نظريات العلاقات الدولية لم تعد تفي بمتطلبات تفسير الظواهر الجديدة ، الأمر الذي يستلزم وجود قطيعة إبستمولوجية مع النظام المعرفي النيوتوني ومسلّماته ، فالواقع الفعلي بكثافة تدفقاته وتفاعلاتها وبإيقاعه المتسارع تجاوز المسلّمات القديمة وما تبعها من مفاهيم ، كما فرض تعقيد الظواهر نفسه بقوة كتحدي أمام كل المنظرين بسبب حالة التحولات المستمرة التي لا تسمح باستقرار الظواهر إلى الحد الذي يمكن من التفسير ولاسيما مع غياب الأدوات المنهجية في إطار هذا الواقع الجديد للنظام الدولي وتفاعلاته ، مما يؤكد أن مسلّمات النظام المعرفي القديم المتمثلة في التجزيئية والحتمية والخطية ، لم تعد قادرة على تفسير الظواهر السياسية المعقدة في العلاقات الدولية ، لاسيما مع التغيرات الغير متوقعة التي سببت اضطراب النظام الدولي من ناحية ، وصعوبة انتظامه في إطار نظام جديد من ناحية ثانية ، الأمر الذي يعكس حالة الأزمة التي يعيشها المجتمع العلمي في مجال العلاقات الدولية بسبب التحول في المسلمات التي يستند إليها النظام ، فضلا على أن تلك الظواهر قد ازدادت تعقيدا مع التحول الكبير في مفهوم الزمن وحالة انعدام التزامن الذي تعيشه مختلف المؤسسات والإيقاع المتسارع الذي تجري من خلاله تفاعلات النظام ، الأمر الذي يضعنا في إطار تحولات للنظام الدولي تجري من منطلق مسلّمات جديدة تتبلور ولم تجد في المقابل منهجية جديدة تناسب طبيعتها.

إن العلاقات الدولية قد تعرضت لتحولات كبرى منذ نهاية الحرب الباردة وانهيار الاتحاد السوفياتي في إطار من العولمة وتوسع الاتحاد الأوروبي وصعود أقطاب قوى اقتصادية جديدة في آسيا وعلى رأسها الصين والهند ، ومع التوسع السريع جدا لأسواق السلع والخدمات ، وبتحفيز من نتائج دورة الأورغواي (1986- 1993) من جهة والتجديد التقني المستمر لقطاعات الاتصالات والمعلومات وتحت السيطرة المتنامية لقطاع الأعمال على الاقتصاد العالمي ، ومع الاضطرابات السياسية-الاستراتيجية المتتالية التي أعقبت أحداث 11سبتمبر 2001 ، انبثقت عن تلك التحولات مظاهر واضحة للتغيير ، فالدول اليوم مترابطة من خلال شبكات الاعتماد المتبادل المعقد والأفراد والحركات الاجتماعية تتفاعل على مستوى عالمي بسبب التطورات تزامن هذا الواقع مع بداية انتشار تلك الإرهاصات التي كان يعيشها فكر التعقيد ، نؤكد في هذا السياق على دراسة إيليا

بريغوجين (Ilya Prigogine, 1994), أحد مؤسسي هذا الفكر والحائز على جائزة نوبل في الكيمياء عام 1977 تتويجا لأبحاثه في حقل الديناميكا الحرارية والنظم البعيدة عن التوازن من بين تلك التي تتبادل الطاقة مع المحيط ، ولقد قادته بحوثه حول البنى المبددة غير الخطية إلى طرح مفهومي التوازن والبعد عن التوازن الذي يؤدي إلى سلوك منظوماتي غير متوقع وفقا للقانون الثاني للديناميكا الحرارية ويتمثل السلوك في انبثاق الشواش وظهور التشعب والتنظيم الذاتي في المنظومات المتوازنة عندما تتعرض للاضطراب ، ومن ثم أدت دراسات الاضطراب إلى نظرية التعقيد والتي لخصها ايليا بريغوجين في مقولته العلمية ، التي أكد فيها أنه يمكن للمنظومة البعيدة عن التوازن أن تمضي " **من الوجود إلى السيرورة** " وعلى أثر هذه النتائج عمم بريغوجين هذه النظرية على العلوم البحتة وراح يحاول أن يربطها بالعلوم الإنسانية ، فظهرت مصطلحات مثل **التعقيد الاجتماعي والانتروبيا الاجتماعية** التي جرى توظيفها وتوصيفها في نظرية الألعاب في العلاقات الدولية وقضايا تبادل الطاقة بين الفاعلين ، وكذا التغير الاجتماعي والتحول الطوري...الخ ، علاوة على المتلازمة الاجتماعية diversity syndrome ، وتعني في الطب تزامن مجموعة من الأعراض في حالة مرضية معينة ، وفي دراسة المنظومات الاجتماعية تعني متلازمة الاضطراب أن توافر مجموعة من الشروط في لحظة معينة ، تدفع بانحراف المنظومة عن حالة الاستقرار وتؤدي بها نحو سلوك غير متوقع ويحدث ذلك في سياق السيرورة الدينامية للتعقيد الاجتماعي وقد سيقت في هذا الموضوع مجموعة من الأمثلة كسقوط الاتحاد السوفييتي وحرب البلقان والشيشان ...الخ ، وتوصف لحظة الانحراف تلك بالحالة الحرجة التي كانت تراها الدراسات الخطية بأنها حالة استثنائية ، وقد انتهى بريغوجين في محاولته للربط بين العلوم البحتة والعلوم الإنسانية إلى حقيقة أن العالم أصبح **معقد أو احتماليا ومتعددا** ، وأن متلازمة التعقيد وغياب الاستقرار في الظواهر الاجتماعية ليس مؤشرا سلبيّا بالضرورة ، بل ينبغي أن يكون محفزا على التسلح بالحذر لتقديم إجابات أكثر دقة وموضوعية في ما يخص تحديات العالم.

وفي سياق محاولات الربط هذه ، لجأ جيمس روزينو إلى فكر التعقيد كي يخرج من السجون المفاهيمية وحالة التأزم التي وصلت إليها المقاربات الكلاسيكية لتحولات النظام الدولي بعد مرحلة الحرب الباردة ، حيث يعتبر بأنه وانطلاقا من أن نظام ما بين الدول le systemeintèrétatique الذي يعود انبثاقه إلى اتفاقية وستفاليا عام 1648 قد ضمن استمرارية تسيير الشؤون العالمية كما عبر عنها ، لأسباب تعود إلى القيود المنظمة والضابطة التي احتوت باستقرارها النسبي كل التغييرات الممكنة داخل نهايات معترف بها وقابلة للتنبؤ ، ولكن ولأسباب مختلفة فإن هذه الثوابت الأساسية paramètresfondamentaux التي حققت التوازن على مستوى النظام القديم حتى عام 1950 ، قد تزعزت واهتزت لينبثق عالم جديد غير متوقع وفوضوي chaotique يمكن التعبير عنه بالوضع ما بعد الدولي post-international وهو يتفرع إلى نظامين أولهما نظام يتمركز حول الدول Systemestato—centre الذي يواجه انبثاق نظام موازي ومتعدد المراكز يتكون من فواعل من غير الدول تتعدد وتختلف من الشركات المتعددة الجنسيات والشركات الأمنية إلى الجماعات المسلحة وتجار المخدرات والأوبئة والإرهاب ...الخ ، وأي فاعل آخر عابر للدولة ويتخذ التفاعل بين هذين العالمين أو حتى النظامين عند جيمس روزينو مسارالتشعب befurcation وهو تشعب يدخل في تفاعلات معقدة بسبب ما توفره العولمة من آليات ، كما أنه يخدم بعضه بعضا ، فالأرباح الاقتصادية التي تحققها الدولة

من خلال تحرير التجارة وحرية تنقل الأشخاص ورؤوس الأموال يقابلها عجز الدولة عن مراقبة التحويلات المالية وتنقل الأشخاص وتدفق المعلومات مع شبه غياب لآليات التنظيم او الضبط بسبب تحرير التجارة والقوانين الجديدة التي تسير عليها التكتلات الاقتصادية الكبرى ، ومع غياب آخر لآليات التكيف مع ظواهر منبثقة كفواعل خارج السيادة sovereignty-free عند الأزمات ، حدثت حالة الاضطرابturbulence التي يعيشها الوضع ما بعد الدولي ، وأثناء بلورته لأطروحة التشعب حاول روزينو أن يؤسس وينشئ مجموعة من المصطلحات الجديدة لوصف ذلك الوضع وبهدف الخروج مما وصفه بالسجون المفاهيمية ، أضاف روزينو إلى المصطلحات السابقة مصطلح fragmeration دمجا لمصطلحي-fragmentation تفتت وintegration تكامل ، ومن ثم يعبر مصطلح fragmeration عن (تفتت-تكامل) ومصطلح نموذج "ما بعد الدولي" -post international ووظف مفهوم التشعب المرتبط بنظرية الفوضى للتعبير عن التفاعلات بين العالمين اللذان حددهما في أطروحته للتشعب.

خاتمة:

تنتهي الدراسة في ختامها إلى تحديد نظام معرفي جديد قام على أنقاض النظام المعرفي النيوتوني التجزيئي ، وظهرت أولى ملامحه في العلوم الطبيعية والرياضيات ، حيث تبيّن وجود قطيعة إبستمولوجية واضحة ، بدأت بظهور تراكمات للحالات الشاذة التي فقد بها النظام النيوتوني قدرته على تفسير الظواهر الطبيعية ، ومن ثم حلت الأزمة التي أدت إلى انهيار مسلمات النظام المعرفي النيوتوني المتمثلة في التجزيئية والحتمية والخطية والقدرة على التنبؤ ، ومن ثم حدثت القطيعة الإبستمولوجية بتحول المسلمات التي انبثقت عنها بذلك منظومة معرفية جديدة قائمة على مسلمات الكلانية واللا حتمية واللا خطية ، في الوقت الذي كانت تتبلور فيه ملامح البراديغم الجديد ، شهدت مقاربات العلاقات الدولية والنظام الدولي ولاسيما مرحلة ما بعد الحرب الباردة ، انسدادا وعجزا واضحا عن تفسير كثير من الظواهر المرتبطة بهذا التخصص ، ولكن تبيّن أن ذلك الانسداد يعود إلى السّجون المفاهيمية التقليدية التي تأسست ونشأت وفقا للنظريات التابعة للمنظور النيوتوني التجزيئي الذي استند إليه مفهوم النظام الدولي ، لاسيما بعد حالات الانبثاق لفواعل جدد والطبيعة اللا خطية واللا حتمية لأنماط التفاعل الجديدة على مستوى النظام الدولي ، وما أدى إليه ذلك من حالة عدم يقين وعدم القدرة على التنبؤ بمسار التفاعلات ، ومرة أخرى أدى التحول في مسلمات منظومة العلوم الطبيعية والدقيقة إلى التحول أيضا في مسلمات ومنهجية العلوم الإنسانية ، حيث وفرت المسلمات الجديدة المتمثلة في الكلانية واللا خطية واللا حتمية وإدراك حالة التعقيد ومفهوم الفوضى قدرة أكبر على تفسير تعقيد وتشعب التفاعلات ، ومع اعتماد الخلفية المعرفية الجديدة لمفهوم الزمن الغير استغراقي والاستعجالي والغير قابل للارتداد وبإدراك مشاكل انعدام التزامن بين عمل مختلف الوحدات على مستوى النظام الدولي ، تمكن الأكاديميون من مختلف التخصصات من رفع بعض جوانب حالات التعقيد التي بات يتسم بها النظام الدولي في وضعه الحالي ، ومن ثم أصبح بالإمكان ومن خلال اعتماد تكامل المعارف أو البين-منهاجية والعبر-منهاجية بناء نموذج تفسيري للشؤون الدولية والنظام الدولي يحل فيه الامتداد الشبكي محل التراتب والسيرورة محل البنية ، كما أدى ذلك التحول في المسلمات إلى اعتبار الكثير من حالات الاضطراب والفوضى وعدم الاستقرار حالات إيجابية وانتقالية عبر الانتظام الذاتي باتجاه ظهور تحولات جديدة للنظام الدولي.

قائمة المراجع:

-محمد نصر عارف ، ابستمولوجيا السياسة المقارنة ، النموذج المعرفي-النظرية المنهج ، مجد ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، الطبعة الأولى ، بيروت ، 2002 ص22.

-وليد عبد الحي ، تحول المسلمات في العلاقات الدولية" دراسة مستقبلية" ، الجزائر مؤسسة الشروق للإعلام والنشر ، 1994 ص5.

-André Lalande, Vocabulaire technique et critique de la philosophie moderne, volume I,Presses Universitaires de France, 1993. PP356-357.

-Basrab Nicolescu, La Transdisiplinarité manifeste, Editions du Rocher, Paris : 1996 PPxxxi-xxiv.

-Bernard Waliser, Systèmes et modèles, Paris, Editions le Seuil, 1977 ; p66..

-Bertrand Badie, Pathologie des relations internationales, Paris, Odile Jacob, 2014 ; p14.

-Buckminster Fuller, Utopia or Oblivion, Penguin Books, England, 1970 C.D Broad, Leibnitz's Last: Controversy with the Newtonians, editions, Woolhouse;pp25-26.

-Daniell Bell, The social Sciences Since The second world war, Transaction publishers, 1981, pp22-23.

-Edgar Morin, Introduction à la pensée complexe, Paris : Editions du seuil, Avril 2005, p147.

-Edgar Morin, la méthode4, éditions du seuil, 2014.P18.

-Edgar Morin, Relier les connaissances, Paris, Editions du Seuil, 1999 ;

-Gaston Bachelard, La philosophie du non: Essai d'une nouvelle philosophie du nouvel esprit scientifique-bibliothèque de philosophie contemporaine, Paris: presses universitaires de France, 1949, P17.

-Heisenberg Werner, La nature dans la physique contemporaine, Paris, Gallimard, 1962, PP37-58..

-Hervé Barreau, L'épistémologie, Presses Universitaires de France, Paris 1990, PP3-4.

-Ilya Prigogine, L'homme devant l'incertain, Editions Odile Jacob, 2001pp20-28.

-Ilya Prigogine, Les Lois du Chaos, Flammarion 1994.pp36-37.

-Immanuel Wallerstein, Le capitalisme historique, Paris, La découverte, 2002 ; pp56-57.

-Immanuel Wallerstein, Comprendre le monde, Introduction a l'analyse des systemes-monde, Paris, La découverte, 2002 ;pp66-69.

-James Rosenau,Turbulence in World Politics: Theory of Change and Continuity, Princeton, Princeton UniversityPress, 1990.

-James N. Rosenau, The Study of World Politics theoretical and methodological challengens, Vol.I, New York: Routledge, 2006.

-James Rosenau,Turbulence in World Politics: Theory of Change and Continuity, Princeton, Princeton University Press, 1990; pp11-12.

-Jean M. Guehenno, "L'Aprés guerre froide" Magazine littéraire,N0 312(Juillet-Aout 1993 ;pp27-28..

-Karl Deutsch and J.Singer, Multipolar Power Systems and International Stability, in James Rosenau, international politics and foreign policy, London,Collier Macmillan, 1969; p315..

-Karl Poper, La logique de la découverte scientifique, Paris, Payot, 1973 ; pp36-37.

-Michel Blay et autres, Grand dictionnaire de philosophie, Editions Larousse CNRS, 2005, p348.

-Michel Foucault, Les mots et les choses, Guallimard : 1990, pp15-16.

-Richard Buckminster Fuller, Utopia or Oblivion: The Prospects for Humanity, Penguin Books, England, 1970, p363.

-Richard N. Rosecrancre, Action and Reaction in World Politics, Boston. Little, Brown, 1963.215-217.Pp2

-Robert Blanché, La Méthode expérimentale et la philosophie de la physique, collection U2. 46 Paris: Armand Colin, 1969, p21.

-Robert Nadeau, Vocabulaire technique et analytique de l'épistémologie, Paris, Presses Universitaires de France, 1999 ; pp209-210.
-Talcott Parsons and Edward A Shils, Eds,Towards a general theory of action, Theoretical Fondations for the Social Sciences, Harvard University Press, 1951.Thomas Kuhn, la structure des révolutions scientifiques, Paris: Flammarion,1983, p71.
-Valéry Paul, Cahiers, enceclopédie de pléiade, 1975, p835.
-Van Riet Epistemologie thomiste, Louvin, 1946, p637.
-Zaki Laidi, Un monde prive de sens, Paris, Fayard, 1996 ; pp23-24.

الكتابة التفاعلية وسلطة الوسائط الرقمية.

The interactive writing andthe power of digital media

د. صلاح ياسين ، جامعة الشهيد حمه لخضر بالوادي- الجزائر

مقدمة:

من الوجيه لمعرفة راهن الكتابة الأدبية وفهمها فهما صحيحا وضعها في إطارها الحضاري الدقيق ضمن الصيرورة الزمنية ، فـ«كلما تطور الفكر البشري وتطورت آليات تفكيره ، تغيرت أشكال تعبيره ، ومن ثمة تغيرت إدراكاته للأشياء والحياة والعالم ، وهو مبدأ يستقيم مع التطور التاريخي المنطقي للمعرفة في علاقتها بالتطور التاريخي للحضارات»(زهور كرام ، 2013 ، ص 13).

ويشهد تاريخ التطور الحضاري أن البشرية مرت بأربع ثورات أو قفزات صناعية كبرى ؛ فالثورة الأولى كانت في أواخر القرن الثامن عشر حينما تم صنع أول محرك بخاري واختراع مصانع النسيج والآلات الزراعية ، وقد نتج عن هذه الثورة انتقال الناس من الأرياف إلى المدن ، وانتشار العلم والمعرفة بفضل تطور الطباعة ، كما تمخض عن هذه الثورة أيضا الانتقال من العصر الزراعي إلى العصر الصناعي.

وفي نهاية القرن التاسع عشر حدثت ثورة صناعية ثانية تعتبر امتدادا للثورة الأولى وتطويرا لها في نفس الوقت ، ومن أبرز مميزات هذه الثورة اكتشاف الطاقات المتعددة كالبترول والغاز والكهرباء والمعادن ؛ حيث تمكن الإنسان بفضل هذه الثروات من اختراع مختلف الصناعات الثقيلة كالسيارات والطائرات والباخرات والقطارات ، وقد امتدت الثورة الصناعية الثانية إلى ستينيات القرن العشرين ، حيث شهد العالم تحولا آخر وثورة جديدة عمادها التطور التكنولوجي في جميع المجالات ومختلف الحقول ؛ وإذا كانت الثورة الصناعية الثانية ترتبط بالصناعة الثقيلة فإن الثورة الصناعية الثالثة هي ثورة الصناعة الناعمة ؛ حيث تم فيها تطور التلفاز واختراع الحواسيب والهواتف ، فضلا عن شبكة الأنترنت التي ربطت العالم بخطوط سيالة من الطرق السريعة والعابرة لحدود القارات والدول والهويات ، ليستمر هذا التطور إلى القرن الواحد والعشرين حيث نشهد فجر الثورة الرابعة منذ حوالي العام 2000 ، وهي ثورة تعتمد على تطوير الذكاء الاصطناعي واختراع الروبوت الذي من المتوقع أن يحل محل الإنسان في أنجاز العديد من المهام ، إضافة إلى أنترنت الأشياء والطباعة ثلاثية الأبعاد.

ومما لا شك فيه أن كل ثورة من هذه الثورات الصناعية الأربعة ترتبط بمرحلة معرفية محددة ؛ فالثورة الصناعية الأولى تمثل بزوغ فجر العصر الحديث بعدما ساد العصر الكلاسيكي القديم لعدة قرون ، وترتبط الثورة الصناعية الثاني بمرحلة الحداثة التي تعتبر امتدادا للعصر الحديث وتطويرا له في نفس الوقت ، أما الثورة الصناعية الثالثة والرابعة فتشكلان عصر ما بعد الحداثة بامتياز.

ويرى النقاد أن ما بعد الحداثة هي «أسلوب في الفكر يبدي ارتيابا بالأفكار والتصورات الكلاسيكية ، كفكرة الحقيقة والعقل والهوية والموضوعية والتقدم [...] وهي ترى العالم بخلاف معايير التنوير هذه بوصفه طارئا عرضيا بلا أساس ، متباينا بعيدا عن الثبات وبعيدا عن الحتمية والقطعية ، وبوصفه مجموعة من الثقافات

والتأويلات الخلافية التي تولد قدرا من الارتياب حيال موضوعية الحقيقة والتاريخ، والمعايير والطبائع المتعينة والهويات المتماسكة، وهذه الطريقة في الرؤية لها شروطها المادية الواقعية، فهي تنبع من تحول تاريخي شهده الغرب صوب عالم من التكنولوجيا والنزعة الاستهلاكية وصناعة الثقافة، عالم سريع التبدد والزوال، بعيد عن التمركز، انتصرت فيه صناعة الخدمات والمال والمعلومات على المصنع التقليدي وأخلت فيه السياسات الطبقية الكلاسيكية الميدان لسلسلة واسعة من السياسات المرتبطة بقضية الهوية»(محمد سبيلا وعبد السلام بنعبد العالي، 2007، ص 10).

ما يطبع مرحلة ما بعد الحداثة إذن هو التطور التقني وحلول الوسائط الرقمية الجديدة محل الوسائط التقليدية، إضافة إلى زخم التواصل بفضل شبكة الأنترنت التي شقت قنوات التواصل والحوار والتفاعل، وقد أثرت هذه الصيرورة الحضارية على مختلف العلوم؛ ومنها الكتابة الأدبية؛ وقد آثرنا استعمال مصطلح الكتابة تماشيا مع مرحلة ما بعد الحداثة التي تُلغي الفواصل وتذيب الحواجز بين الأجناس الأدبية، ويرى أدونيس أن «الحدود التي كانت تقسم الكتابة إلى أنواع يجب أن تزول لكي يكون هناك نوع واحد هو الكتابة. لا نعود نلتمس معيار التمييز في نوعية المكتوب هل هو قصيدة أم قصة؟ مسرحية أم رواية، وإنما نلتمسه في درجة حضوره الإبداعي، ولئن كانت الكتابة في الماضي خريطة رُسِمت عليها حدود الأنواع وعُيِّنت رفوفها وأدراجها، وكان على كل من يدخل إليها أن يُقَدِّم كالزائر أوراق اعتماده النوعية الخاصة، فإن هذه الخريطة اليوم بيضاء دون أدراج ولا رُفُوف، والداخل إليها هو، وحده، الغازي المخلخل الذي رمى علامة الزيارة ورفع علامة الغزو».(أدونيس 1978، ص 312، 313).

إن مرحلة الكتابة وفق منظور ما بعد الحداثة تتخطى مرحلة الأجناس الأدبية بما فيها من صفة أدبية إلى مرحلة العفوية المُعَدّة إعدادً لسانيا واجتماعيا وتواصليا حديثا يشكل فيها الجنس الأدبي نفسه بنفسه، (مازن الوعر، 2002، ص 15، 16)، «مما يؤدي إلى تكريس أعراف جديدة في قراءة النصوص الأدبية تستلزم بالضرورة تخطي الموجه الجنسي للنص بحثا عن شعرية خاصة به، وذلك يبرر مهمة البحث عن السردي في الشعري مثلا، فالحدود بين الأجناس الأدبية تُعْبَرُ باستمرار والأنواع تُخْلَط أو تُمْزَج والقديم منها يُحَوَّر، كما يُخلق أنواع جديدة أخرى»(حاتم الصكر، 1999، ص16-17).

وإذا كانت الكتابة قد صهرت الأجناس على مستوى العلامات اللغوية فإنها بحلول العصر الرقمي قد انفتحت على العلامات غير اللغوية بما فيها من صور وموسيقى وأغاني وأناشيد ورسومات وخرائط، لتُساهم في ولادة جنس أدبي جديد « يجمع بين الأدبية والالكترونية، ولا يمكن أن يتأتى لمتلقيه إلا عبر الوسيط الإلكتروني، أي من خلال الشاشة الزرقاء».ويمكننا أن نطلق على هذا الجنس الجديد مصطلح الكتابة التفاعلية، وهناك فرق شاسع بين الكتابة التفاعلية والكتابة الرقمية؛ فالكتابة الرقمية هي كل كتابة إبداعية تُقرأُ من خلال الشاشة التي تعمل بالصيغة الرقمية الثنائية (0/1)، أما الكتابة التفاعلية فبالإضافة إلى كونها رقمية أيضا فإنها لا بُدَّ أن تتيح مساحة للحوار والنقاش والتواصل مع المتلقي؛ وهذه المساحة «تعادل أو تزيد عن مساحة المبدع الأصلي للنص».(فاطمة البريكي، 2006، ص 49).

وتشمل الكتابة الإبداعية الجديدة كافة الأجناس الأدبية المعروفة كالشعر والمقال والخاطرة والقصة والرواية والمسرحية، كما تختلف أشكال التفاعل بين هذه الأجناس بحسب نوعية الوسائط التي تتوسل بها، فكما

يقول سعيد يقطين إن توظيف أداة جديدة للتواصل يؤدي إلى خلق أشكال جديدة للتواصل والتفاعل (سعيد يقطين ، 2005 ، ص 10)، ويمكننا أن نشير في هذا المقام إلى أبرز أشكال الكتابات التفاعلية المقدمة عبر الوسائط الرقمية فيما يلي:

1) الكتابة التفاعلية في مواقع التواصل الاجتماعي SocialMedia**:** تعتبر المنتديات ومواقع التواصل الاجتماعي فضاءً خصبا وأرضا مندوحة للإبداع والتفاعل ، وذلك بفضل ما توفره هذه المواقع من مساحات للنقاش والحوار والتفاعل ، إذ بإمكان المبدع أن يكتب نصا ثم يقذف به في أحد المواقع التواصلية ، ليفيض حينها سيلُ الإعجابات والتعليقات والمشاركات ، وقد تكون هناك اقتراحات ونُقُود موجهة من بعض القراء إلى الكاتب ، غير أن هناك من يرى أن هذا الشكل التفاعلي موجود حتى في الواسطة الشفاهية والكتابية ؛ ولعل نظريات القراءة وجهازها الاصطلاحي المتنوع (جمالية التلقي أو التقبل ، نقد استجابة القارئ ، نظرية الاستقبال ، نظرية التأثير ، نظرية التلقي). قد ركزت محور اهتمامها على القارئ وردود أفعاله تجاه النص قبل أن تظهر النصوص التفاعلية الرقمية ، بل إن التفاعل كان موجودا منذ القديم حيث كان الشعراء قديما يتلقون الآراء والانتقادات والتثمينات من طرف الجمهور أو من طرف الخليفة وحاشيته ، كما أن الدواوين والروايات المكتوبة تحظى هي الأخرى بشتى أنواع الدراسة والنقد ، غير أننا نرد على هذه المساواة بين التفاعل التقليدي والتفاعل الرقمي بقولنا إن التفاعل الرقمي يختلف كثيرا عن التفاعل التقليدي في العديد من الجوانب ، من أبرزها كمية التفاعل ؛ حيث تصل النصوص الإبداعية إلى عدد كبير جدا من القراء ، وهذا بفضل شبكة الأنترنت التي تخترق حدود الدول والهويات والثقافات ، وهو الأمر الذي لم يكن متاحا في الشفاهية التي يقتصر التفاعل فيها على الحاضرين في الزمان والمكان ، ولا في الكتابية التي يقتصر التفاعل فيها على بعض الدراسات المكتوبة ، كما أن عدد المتفاعلين في الشفاهية والكتابية لا يُقارن بعدد المتفاعلين في المنتديات المختلفة.

الفرق الثاني بين التفاعل التقليدي والتفاعل الرقمي يكمن في زمن الاستجابة ؛ فالتفاعل مع الكتابات الموجودة على شبكة الأنترنت يكون آنيا ، فوريا ، سريعا ، وبلمح البصر ، وذلك بفضل التواصل الحي والمباشر بين مستخدمي الأنترنت وبين الكتابات الإبداعية المنشورة في المواقع التواصلية ، أما التفاعل مع النصوص المكتوبة فيكون بعيد الأمد ، بحيث قد يبلغ الشهور والسنوات ، وهذا راجع إلى الوتيرة البطيئة جدا لانتشار الكتب ثم قراءتها والتفاعل معها.

الفرق الثالث والأهم هو أن التفاعل مع الكتابات الإبداعية المنتشرة في مواقع التواصل الاجتماعي أصبحت أقرب إلى الإبداع منه إلى مجرد ردود أفعال سلبية ؛ حيث بدأ بعض المبدعين اليوم بفسح المجال أمام القُرَّاءِ لإبداء آرائهم حول النص فيما يرونه مناسبا ، والجديد في هذا التفاعل أن المبدع الأصلي يستفيد من تلك الآراء النقدية ويعدل في نصه على أساسها ؛ ومن أمثلة ذلك أن الروائي المغربي عبد الواحد إستيتو قد أضاف إلى عنوان روايته الموسومة بـ "على بعد مليمتر واحد فقط" عنوانا فرعيا آخر هو "زُهْرَالِيزا" ، ليصبح العنوان النهائي للرواية "على بعد مليمتر واحد فقط أو زُهْرَالِيزَا" ، علما أن الإضافة "زُهْرَالِيزَا" ليست من وضع عبد الواحد إستيتو وإنما هي من اقتراحات المشاهدين الذين رأوا أن هناك صورة في خلفية صفحة الفايسبوك التي نشرت

فيها الرواية واسمها "الزُهْرَة" تشبه نوعا ما لوحة الموناليزا الشهيرة فاقترحوا على الروائي التسمية الجديدة "زُهْرَالِيزا".

إضافة إلى ذلك كان عبد الواحد إستيتو أثناء نشره للرواية فصلا بعد فصل يتلقى التعليقات والاقتراحات وتدخلات القراء ويأخذها بعين الاعتبار ؛ حيث كان يعدل في بعض تفاصيل الرواية حسب أفق التوقعات.

ولا يقتصر الأمر في أدب المنتديات وأماكن التواصل الاجتماعي على مجرد الاقتراحات ، وإنما يتعدى الأمر إلى الإبداع ، فقد يبدأ الأديب بكتابة قصة أو رواية ثم يقذف بها في أحد المنتديات ويطلب من القراء إكمالها ، فتنهال عليه الفصول إلى أن يكتمل العمل الأدبي ويُعرض في النهاية بصورة نهائية ، وقد يُحَوَّلُ هذا العمل إلى نص مكتوب يُعرض في الأسواق والمكتبات ، وهذا النوع من الإبداع التفاعلي ليس له مبدع واحد وإنما هو جنس مجهول النسب ينجزه عدة مؤلفين ولا يمكننا أن ننسبه إلى كاتب وحيد بعينه.ومن أمثلة هذا الضرب من الإبداع ما يمكن أن نسميه بالإجازة التفاعلية حيث يكتب الأديب بعض الأبيات الشعرية ثم يطلب من المتابعين أن يكملوا القصيدة بشرط صحة الوزن والقافية ، ومن ذلك ما فعله الشاعر الجزائري سعد مردف الذي كتب في حسابه على الفايسبوكبَيْتَيْنِ من الشعر وطلب من متابعيه أن يجيزوها بأربعة أبيات أخرى ، والبيتان اللذين ذكرهما كالتالي:

سأذهَبُ للصلاةِ أريـدُ ربّي * وأسألهُ الهدايـــةَ في خضُوعِ**
وأدعوهُ ليغفـرَ من ذنُوبِي * ويسكبَ في الفؤادِ من الخُشُوعِ**

وبعدما تلقى الشاعر العديد من الأبيات المكملة لِمَا ذكره اختار أفضلها ونشر القصيدة في شكلها النهائي لتصبح كالآتي:

سأذهَبُ للصَّلاةِ أُريـدُ ربّي * وأسـألُهُ الهدايـــةَ في خضُـــوعِ**
وأدعُـوهُ ليغفـرَ من ذنُوبِي * ويَسكبَ في الفؤادِ من الخُشُوعِ**
إذا نَادَى المُنـــادِي هَزَّ قَلبي * بمثْلِ الثُّـورِ يَهْتِفُ في الضُّلُـوعِ**
فيملَؤُني شُعـــورٌ أنَّ رُوحِي * ستَصْعدُ في السُّجود، أو الركـُوعِ**
سأذهبُ للصَّلاةِ ، أذُوبُ فيهَا * وَأخلُدُ في اليقِيـــنِ بلا رجُـــوعِ**
وأذرِفُ في السُّجودِ بَلِيلَ دمْعِي * لعلَّ اللهَ يرحَمُ لي دمـــُوعي**

إضافة إلى الإبداع تشكل الكتابات الإبداعية لمواقع التواصل الاجتماعي حقلا خصبا لنقد النقد، وذلك بفضل الشكل البرمجي لهذه المواقع التي تتيح تفاعل القارئ مع النص من جهة ، ومع القراء الآخرين المتفاعلين من جهة أخرى ، ليحتدم النقاش ويشتد الوطيس وتتناسل النقود ؛ مدحا أو ذما ، تحسينا أو تقبيحا.

ومنه يمكننا القول إن الكتابة الأدبية في مواقع التواصل الاجتماعي تصل إلى آلاف وملايين القراء في وقت وجيز ، كما أنها تحقق تفاعلا خصبا وثريا ومتنوعا بسبب اختلاف زوايا التلقي وآفاق التوقعات وتنوع الثقافات.

2) الكتابة واستثمار الوسائط المتعددة: ومما لا شك فيه أن الكتابة الأدبية استفادت كثيرا مما توفره التكنولوجيا من إمكانيات ووسائط متعددةMultimedia ، ومنه فالكتابة الالكترونية التفاعلية ليس مجرد تحويل للكتابة الورقية إلى جهاز الحاسوب فقط –كما يعتقد بعضهم-، وإنما هو أيضا استفادة الكاتب مما توفره البرمجيات التكنولوجية من خصائص ؛ كإضفاء الموسيقى وصوت الشاعر والصور الثابتة والمتحركة بما

فيها من ألوان وأشكال ، وفي هذا النص الجديد «تحل الأشرطة والأقراص والوحدات الضوئية اللامادية محل الحبر والقلم والورق الثقيل ، وتحل الأبجدية الرقمية السيالة محل الأبجدية والحروف الثابتة ، أي تحل العوالم الافتراضية التي يمكن تخيلها وتركيبها بواسطة الأعداد ، محل العوالم المجازية والدلالية التي يمكن إنتاجها واستيلادها بواسطة الحروف [...] إنه نص فائق يتألف من سيول مضيئة وخطوط متلاشية وحروف متحركة». (علي حرب ، 2004 ، ص 140).

غير أنه يمكننا أن نميز بين نوعين من النصوص المدمجة مع الوسائط ؛ أحدهما النص الموجود في صيغة فيديو ، وثانيهما النص المترابط / المتشعب / المتفرع ، وهناك اختلاف بين الصيغتين نبينه في الآتي:

أ) نصوص الفيديو: في هذا النمط يستفيد الأديب من مختلف الوسائط التي ذكرنا ؛ حيث بإمكان الشاعر كتابة قصيدة رقمية تحتوي على الكلمات الشعرية ، وقد تكون الكلمات مُرفقة بصوت الشاعر ؛ حيث يظهر النبر والتنغيم والفواصل الشعرية ، كما بإمكان الشاعر أن يضع خلفية موسيقية تتلاءم مع الجو النفسي للقصيدة ، إضافة إلى إمكانية إدخال مقاطع لصور ثابتة أو متحركة ، بمختلف الألوان والأشكال والمؤثرات البصرية التي يمكنها أن توضح الدلالة من جهة ، وتحقق الإمتاع السمعي والبصري للمشاهد من جهة أخرى ، ومن أمثلة هذا النوع قصائد الشاعر المغربي منعم الأزرق الرقمية: "الخروج من رقيم البدن" ، "سيدة الماء" ، "بِنَعْلٍ من ضوء" ، نبيذ الليل الأبيض" ، "لعبة المرآة.

وإذا كانت نصوص منعم الأزرق الرقمية من إبداع الشاعر الخاص ، يمكننا أن نعثر على الشبكة العنكبوتية على نصوص لشعراء قدامى أو محدثين محولة من الصيغة المكتوبة إلى الصيغة الرقمية ؛ أي أنها في الأصل قصائد مكتوبة في دواوين لكنها حُوِّلت إلى الوسائط الرقمية بما فيها من مؤثرات ، ومن أمثلة هذا النوع مقطع من قصيدة "أحن إلى خبز أمي" للشاعر الفلسطيني محمود درويش ، وقصيدة "في القدس" للشاعر الفلسطيني تميم البرغوثي ، وقصيدة "التأشيرة" للشاعر المصري هشام الجخ ، فهؤلاء الشعراء كتبوا قصائدهم على الورق ، وقرأوها على الجماهير ، فَعمد بعض المعجبين بتلك القصائد إلى دمجها مع الوسائط المتعددة ووضعها على شكل قصائد فيديو.

وبعدما بَيَّنَّا طبيعة النصوص الموجودة على شكل فيديو ، لا يفوتنا الإشارة إلى طبيعة التفاعل مع هذه النصوص ؛ إذ يرى بعض النقاد وعلى رأسهم الأديب الأردني محمد سناجلة أن التفاعل مع قصائد الفيديو ضيق جدا ، لأن القارئ لا يقوم بعمل يغير من طبيعة النص ؛ إذ يكتفي بمجرد المشاهدة والاستسلام للنص الذي يسير بطريقة خطية من تلقاء نفسه ، غير أن هذا الحكم فيه بعض الإجحاف ، لأن قصائد الفيديو بدورها موجودة على مواقع تتيح أشكال التفاعل لعل أبسط هذه الأشكال وجود شعارات الإعجابات ، بَلْهَ مساحات التعليقات ، والمشاركات مع الأصدقاء ، وإذا عارض أحدهم بأن هذه الأشكال بعيدة نوعا ما عن جسد النص فإن هناك مساحة أخرى للتعامل مع النص إذا فهمنا أن التفاعل هو كل عمل يقوم به القارئ تجاه النص ، ومن هذه الأعمال إمكانية تكبير أو تصغير شاشة الفيديو ، زيادة الصوت أو تخفيضه ، عرض الفيديو بدقة عالية ، والأهم من هذا كله الحرية في المشاهدة عبر التحكم في السيرورة الزمنية لمؤشر الفيديو ؛ إذ بإمكان القارئ أن يبدأ المشاهدة من أولها إلى آخرها ، أو يتجاوز بعض الدقائق التي تعتبر مملة ، أو يعيد تكرار بعض المشاهد

التي يراها ممتعة أو مُهِمَّة. ويستطيع القارئ المحترف أن يغير من طبيعة أي نص من النصوص ، كأن يضيف وسيطا ، أو يقتطع مشهدا أو يدمج آخرا وغير ذلك من الممارسات التي تضطلع بها بعض البرامج المتوفرة مثل موفي مايكر Movie Maker أو سوني فيغاس Sony Vegas .

ب) النص المترابط/ المتشعب/ المتفرع (Hypertexte): النوع الثاني من النصوص هو النص المترابط بتعبير سعيد يقطين ، أو المتشعب باصطلاح سلامة عبير ، أو المتفرع على حد قول حسام الخطيب ، أو الفائق بوصف نبيلعلي.

وفي هذا النص أيضا يستفيد الكاتب من مختلف الوسائط كالصوت والصورة والحركة ، غير أن الجديد في هذا النمط هو طريقة بناء جسد النص الذي يحتوي على «أبواب ومفاتيح تتيح الولوج إليه لتفكيكه وإعادة تركيبه ، لا من حيث معناه وبنيته الدلالية ، بل من حيث جسده وتسلسله العلاماتيوالحروفي» (علي حرب ، 2004 ، ص 141).

ومنه فالنص المترابط ليس مجرد نص أُضيفت إليه المؤثرات الصوتية والبصرية فقط وإنما هو نص مكون من مجموعة من الصفحات المتشابكة مع بعضها ، وأهم مميزات هذا النص أنه غير خطي لأنه يتكون من مجموعة من العقد Node أو الشذرات التي يتصل بعضها ببعض بواسطة روابط مرئية Lien وتتجلى هذه الروابط من خلال «زر أو صورة أو أيقونة أو كلمة معينة تعيينا خاصا (إما بواسطة اللون أو خط تحتها) أو جملة [...] وحينما نُمَرِّرُ مؤشر الفأرة عليها يتحول إلى كف ، ويمكن للرابط أن يربطنا بالصفحة نفسها في النص المترابط ، أو بصفحة أخرى من النص نفسه أو بنص خارجي عنه ، وتسمح لنا الروابط بتجاوز البعد الخطي للقراءة ، لأننا نتحرك في النص على الشكل الذي نريد»(سعيد يقطين ، 2005 ، ص 261-263).

إن النص المترابط يخلص القارئ الجديد من قيود قراءة النص المكتوب -الذي يجبر القارئ على السير في اتجاه واحد من البداية إلى النهاية-، وذلك من خلال توفير عدة مسارات توفر للقُرَّاء حرية اختيار البداية التي يريدونها ؛ «إنه نص لا خطي ، لا مركزي ، فالخطية والمركزية هما شَيْئَان يَحُدَّانِ من الحرية التي يمكن أن ينعم بها القارئ في الظروف المثلى ، ولذلك ينبغي أن نتخلص منهما»(أندراسكبانيوس ، 2003 ، ص 355)، وعليه فالنص المترابط يتوافق مع وعي القارئ الجديد الذي ينفر من كافة أشكال الحدود والقيود ، كما أنه يحاكي دماغ الإنسان الذي يعمل بطريقة فوضوية ومتشعبة ، وبهذا يكون شكل النص الجديد عبارة عن متاهة من المسارات التي تشبه خيوط شبكة العنكبوت ، وعلى القارئ أن يُبحر في هذه المتاهة بكل حرية.

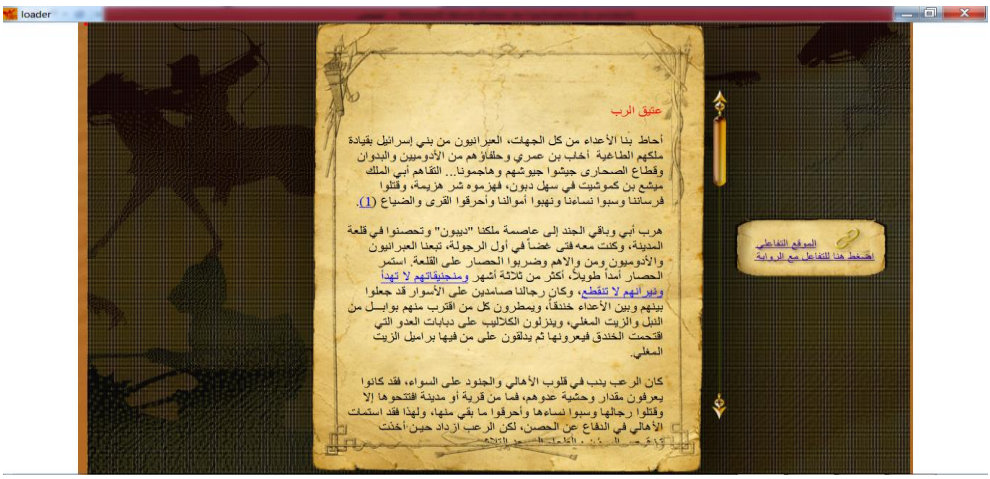
ويتيح النص المترابط أشكالا جديدة للتفاعل معه ، ومن أبرز هذه الأشكال الإبحار ؛ وهي أن يتوغل القارئ في سراديب النص عبر تنشيط الروابط الموجودة فيه ، فالنص المترابط لا يُظهر وجها واحدا لجميع القراء ، وإنما يحتوي على عدة إمكانيات لقراءته من البداية إلى النهاية ؛إذ بإمكان القارئ أن يختار البداية التي يريدها والمسار الذي يرغب في استكشافه ، وهو بذلك يختلف عن النص المكتوب الذي تكون قراءته أحادية/ خطية تسير في اتجاه واحد من واجهة الغلاف إلى الفِهْرِسْت.

إن النص المترابط يحاكي عملية الإدراك لدى الإنسان ، لأن المخ البشري لا يسير بطريقة خطية منطقية منظمه ، وإنما يختار من جزئيات الواقع ما يناسب عالم الوجدان «وليس من الضروري أن يكون عالم الوجدان

مطابقا لعالم الوقائع ، أو أن يكون الذاتي تكرارا للموضوعي ، بل الغالب أن يكون للذاتي واقعيته الخاصة »(عز الدين إسماعيل ، "د.ت" ، ص 127).

إضافة إلى الإبحار يمكن للقارئ أن يتفاعل مع النص المترابط من خلال إعادة تشكيل هيكله كإضافة وصلات خاصة إلى بنية النص ، فإذا كانت هناك كلمة مبهمة ورأى القارئ أنها بحاجة إلى توضيح فبإمكانه من خلال خاصية التشكيل أن يربط تلك الكلمة بما يراه توضيحا لها مما هو موجود على الشبكة العنكبوتية ، ومن خلال التشكيل لم يعد النص حكرا على مؤلفه الأول ، وإنما أصبح نصا مفتوحا على مختلف الإضافات والتعديلات التي تُسْهِمُ في نمو جسد النص وتكثيف معلوماته.

وهناك أشكال أخرى للتفاعل تحظى بها أغلب النصوص المترابطة التي أصبحت تخصص مساحة للقارئ يمكنه من خلالها المساهمة في إثراء النص ، ومن ذلك ما فعله الروائي الأردني محمد سناجلة الذي وضع في هامش روايته الموسومة بـ "التاريخ السري لكموش" مكانا للتفاعل ، وهو ما توضحه هذه الواجهة المصورة للرواية:



فكما هو واضح وضع محمد سناجلة بجانب المتن رابطين أحدهما ينقلنا إلى موقع مخصص لجميع المتفاعلين مع الرواية ، والآخر يحيلنا إلى التفاعل المباشر مع الرواية.

إضافة إلى هذا الشكل التفاعلي وضع محمد سناجلة في روايته الموسومة بـ "تحفة النظارة في عجائب الإمارة (رحلة ابن بطوطة إلى دبي المحروسة)"وسائل أخرى للتفاعل أكثر حيوية ، تجعل القارئ مشاركا ومساهما في بناء النص وهو ما توضحه واجهة الرواية:



فمن خلال الهامش نرى خمسة روابط تفاعلية ؛ يتعلق الأول بوصف مدينة دبي على لسان القرَّاء اللَّذين زاروا هذه الإمارة لأن الرواية هي نوع من أدب الرحلة الرقمي ، وصف فيها سناجلة جمال وروعة دبي على لسان الرحالة الشهير ابن بطوطة ، فأراد سناجلة أن يقرأ وصف المدينة بعيون الآخر / القارئ.

ويتعلق الرابط التفاعلي الثاني بأخذ انطباعات القراء حول الرواية ، أما الرابط الثالث فهو الأكثر حيوية كونه يتعلق بالسماح للمتلقي في الحوار مع ابن بطوطة وهو أحد أبرز شخصيات الرواية.

في الرابط الرابع يتيح محمد سناجلة للقراء فرصة مراسلته والتحاور معه ، من أجل تجاذب الآراء ، وإبداء الملاحظات ، وعرض الاقتراحات ، بما يثري النص ويساهم بنائه وتطويره.

وفي الرابط الخامس يضع محمد سناجلة رابطا يُحِيلُ إلى الموقع التفاعلي العام المخصص للرواية.

ومن الملاحظ أن محمد سناجلة من خلال وضعه لهذه المساحات التفاعلية يريد تكريس مبدأ انفتاح النص وحركيته بدل انغلاقه وتحجره ، وهو بذلك يساير وعي مرحلة ما بعد الحداثة ، أو قل هو تَمَثُّلُ إستراتيجية التفكيك التي ترى «ضرورة طمس مركزية النصوص الأدبية المنغلقة على ذاتها وإعلان تعدد معاني النص إلى ما لا نهاية» ، (رامان سلدن ، 1998 ،ص 135).

وكنتيجة لذلك ستصدق مقولات جوليا كريستيفا وأضرابها من دعاة نظرية التناص ونظرية القراءة على النص الرقمي الذي أصبح فِعليا «عدسة مقعرة* لمعان ودلالات متغايرة ومتباينة ومعقدة في إطار أنظمة اجتماعية ودينية وسياسية سائدة» ،(فؤاد منصور1982 ، ص 122).وبانفتاح النص لن تكون هناك حدود في مقاربة النصوص المرجعية وإعادة قراءتها من جديد ، كما أن تعددية المعنى تدفع إلى التعددية الدلالية بحيث يكون من الصعب التوصل إلى المعنى الأحادي أو المشترك أو القابل للتأويل ، فالمعنى يبقى في حالة سيرورة دلالية مستمرة(إبراهيم الحيدري ، 2012 ، ص 379).

* تعمل العدسة المقعرة فيزيائيا على تشتيت الأشعة الضوئية وتفريقها بعكس العدسة المحدبة التي تقوم بتجميع الأشعة في بؤرة مركزية واحدة.

الكتابة التفاعلية وتحولاتالمعايير الجمالية: إذا كانت الكتابة الأدبية قد طعَّمت نفسها بالتكنولوجيا وأخصبت في نهاية المطاف جنسا أدبيا جديدا هجينا ، فإن الوعي الجمالي للقارئ السبراني لم يبق على حاله ، وإنما تغير وتبدل بما يساير هذا الواقع الافتراضي المختلف عن الواقع الزراعي والصناعي ، ويمكننا في ما يلي أن نضع بعض المعايير الجمالية التي يجب الاحتكام إليها أثناء مقاربة أية نص رقمي تفاعلي وهذه المعايير هي:

1) التحرر: المقصود بالتحرر أن يتخلص القارئ من قيود الزمان والمكان في الوصول إلى النص ، وهذا المعيار يمثل ثورة على طرائق تقديم النصوص الشفاهية التي تُلْزِمُ الفرد بالتواجد المباشر في عين الحدث ؛ مثل حضور مجالس الشعراء والأمسيات الأدبية والعروض المسرحية ، وحتى الكتب لم تسلم من الوقوع في النقيصة ، لأنها كانت تجبر القارئ على السفر وقطع المسافات البعيدة للوصول إليها ، وبما أن شبكة الأنترنت قد اختزلت المسافات وطوت الطرق أصبح بإمكان الإنسان التعاطي مع الواقع بكافة معطياته الفكرية والمادية وهو جالس في بيته برفقة حاسوبه أو هاتفه الخلوي المتصل بالشبكة العنكبوتية ، وأصبح الفرد مدمنا على العزلة والاستقلالية ، وأكثر ميلا إلى الخصوصية في ممارساته وعاداته التي بدأت تتحول من عَلَنِ الجماعية إلى أسرار الفردية.

وقد نجح بعض الكتاب في مسايرة هذا الوعي الجديد من خلال تقديم أدبهم عبر المنتديات ومواقع التواصل الاجتماعي ، أو عبر البرامج والتطبيقات ، ليتسلل بذلك النص إلى القارئ بعد أن كان القارئ هو الذي يتحسس وجود الأدب.

غير أن النصوص التفاعلية المقدمة للقراء لا تحقق نفس الدرجة من الحرية ، بل يختلف وصولها إلى القراء باختلاف الأجهزة التكنولوجية ؛ فالحواسيب التقليدية المقيدة في ركن المنزل فيها نوع من الجبرية ، لأنها تحتم على القارئ أن ينتقل إليها بنفسه ، كما أنها مفضوحة لمسترقي النظر والرقابة الأبوية ، وفيها قدر ضئيل من الخصوصية ، وبالتالي عمد العلماء إلى صنع الحواسيب المحمولة ، التي تمكن الفرد من استعمال كافة خصوصيته ،لأن باستطاعته حملها إلى المكان الذي يراه مناسبا للتصفح ، إضافة إلى أن حجمها الصغير وتوفرها على بطارية قابلة للشحن يجعلها أكثر مرونة ومطاوعة. ومنه فالنصوص الموجودة على هذه الحواسيب أكثر تحررا من النصوص الموجودة على الحواسيب التقليدية المقيدة.

وبما أن المنطق التكنولوجي يتجه نحو التصغير ، فقد تمكَّن العلماء من صنع كتاب إلكتروني ، «لا يزيد حجمه على حجم كتاب ورقي ، ولا يضر بصحة العينين لأن شاشته مصنوعة من الكريستال السائل ، كما أنه مزود بأشرطة لمس حساسة تتيح للقارئ إمكانية التصفح وتغيير الصفحات وتحميل الكتب الإلكترونية ،كما تتسع وحدة تخزين الجهاز لحمل مكتبة بأكملها وأكثر»(فاطمة البريكي ، 2006 ، ص 40، 41)، وعليه يمكن للقارئ في الكتاب الإلكتروني أن يصل إلى مختلف الكتابات والنصوص التفاعلية ؛ على جنبه ، أو قاعدا ، أو قائما ، كما أنه يتماشى مع مقولة "وخير جليس في الأنام كتاب".

وعلى الرغم من تطور الكتب الإلكترونية إلا أن استعمالها يبقى محصورا في المنزل أو في بعض الأماكن الخاصة ،لأن حجمها على صغره يشكل نوعا من الإزعاج أثناء التنقل الدائم ، والحل الأمثل للتخلص من هذه المشكلة هو الانتقال إلى الهواتف المحمولة ؛ حيث طورت الشركات هواتف العالمية مثل سامسونغ Samsungوبلاك بيري Berry Black وآيفون AphoneوهواويHuwaei.. وغيرها من هواتف ذكية ، صغيرة

الحجم خفيفة الوزن، تعمل بنظام برمجي بشبه النظام الذي تعمل به الحواسيب، ويمكنها الاتصال بالأنترنت، فضلا عن إجراء المكالمات الهاتفية، وهذه الهواتف هي أفضل ملاذ للوحدة والانعزال والفردية والخصوصية، ورهان الكتاب والمبدعين اليوم هو كتابة نصوصهم وفق التطبيقات المخصصة لهذه الهواتف، وبِودّنا أن نُشيد في هذا المقام بالروائي المغربي عبد الواحد إستيتو الذي كتب أول رواية تفاعلية في العالم على شكل تطبيق ذكي، وتحمل هذه الرواية اسم "طينجو" نسبة إلى مدينة طنجة المغربية، وتُقَدَّمُ هذه الرواية فصلا بعد فصل، كما تتوفَّر على مساحات للتفاعل كالإعجابات والتعليقات والأسئلة التفاعلية التي يطرحا الروائي على متابعيه، وفصول الرواية ما تزال لم تكتمل لحد كتابتي لهذا الملخص.

خلاصة الأمر أن النصوص الإبداعية التفاعلية الناجحة يجب عليها أن تطرق باب القارئ، لا أن يشغل نفسه بالبحث عنها، وعلى الأدباء مخاطبة جماهيرهم عبر الوسائط الأكثر استقطابا وأبرزها الآن الهواتف الذكية الخلوية.

2) السرعة والإيجاز: كثُر الحديث منذ أواخر القرن العشرين إلى اليوم عن دخول البشرية في عصر جديد، يُعرف بعصر السرعة، وذلك بفضل تطور الوسائل التواصلية التي طورها الإنسان إبان الثورة الصناعية الثانية والثالثة، سواء أكانت هذه الوسائل ثقيلة مثل السيارات والقطارات السريعة والطائرات، أو ناعمة مثل الأجهزة التكنولوجية كالحواسيب والهواتف المتصلة طبعا بشبكة الأنترنت، فهذه الوسائل أصبحت تنجز مهامنا في أقل وقت وبأدنى جهد، فما كان يقضي فيه الإنسان قديما الأيام والشهور، أصبحت الآلة تقوم به في ساعات ودقائق، وإذا ما تعلق الأمر بشبكة الأنترنت فإن الأمر لا يتجاوز الثواني؛ إذ تكفي نقرة بسيطة على لوحة المفاتيح، أو لمسة ناعمة على شاشة الهاتف؛ لإرسال رسالة أو إجراء مكالمة أو الدردشة مع أي شخص في المعمورة.

غير أن الوسائل السريعة التي اخترعها الإنسان أثرت بدورها على الوعي البشري وأدَّتإلى ولادة قارئ من نوع جديد؛ إنه القارئ العدد/ السبراني «الذي يقرأ على الشاشة باقتضاب، كمن يتناول وجبة سريعة من الطعام، ولذا فهو يقتصر على صلب الموضوع، إذ لا وقت لديه للاهتمام بالتفاصيل والشروحات، غير أن هذا القارئ يتمتع بحرية أوسع من حرية القارئ العادي للنص الورقي، إذ بإمكانه بواسطة الشبكات أن يدخل على النص من أحد أبوابه لكي يتجول ويبحر على هواه بين أجزاء النص ومفاصله، بحيث يكون بمقدوره تقطيع متنه وإعادة تركيب معلوماته تبعا لأغراضه وسبل إدراكه»(علي حرب، **2004**، ص **141**).

إن القارئ اليوم مثل النحلة في الخلية يعمل بجد وحزم، والمفارقة أن الوقت لم يعد يكفي رغم السرعة الفائقة التي ننجز بها أعمالنا، ولعل السر وراء هذه المفارقة هو أن الوسائل والأدوات التي اختزلت أوقاتنا أصبحت تقوم بعمل مضاد وهو مضاعفة المهام وتكثيفها وتعقيدها.

وقد وجد المبدعون التقليديون أنفسهم إزاء هذه التطورات في مهب التغييب والتهميش، لأن أدبهم يتسم بالطول والإطناب، ويدفع إلى الملل والسآمة، فالدواوين الشعرية والروايات التي تتكون من عشرات ومئات الصفحات لم تعد تستهوي القارئ العددي بفكره المتسارع، وأهوائه المتقلبة، لذا يجب على الأدباء والفنانين أن يحترموا حقوق القارئ مثلما يدافعون عن حقوق المؤلف والكتاب، ويتم ذلك من خلال تقديم الأدب عبر الوسائط والخطوط الشبكية السريعة ،فضلا عن ضرورة الإيجاز في الكتابة والإعراض عن التفاصيل المملة.

وإذا كان الكاتب يريد تقديم أدبه في صيغة برامج أو تطبيقات، فيجب عليه مراعاة سهولة التحميل والتنصيب ؛ فالبرامج التي تستغرق وقتا طويلا في التحميل نتيجة كبر حجمها، أو تلك التي تكون معقدة في تشغيلها تدفع القارئ لأن يعرض عنها وينشغل بغيرها مما يمتاز بالسرعة والسهولة ،ونمثل على ما ذكرناه برواية محمد سناجلة"ظلال العاشق" التي نُشرت على شكل برنامج للحاسوب في عام 2016 ؛ فملف الرواية كبير نوعا ما إذ تبلغ سعته 265 ميغابايت، ويتطلب تحميله وقتا يبلغ حوالي النصف ساعة، وهذا إذا كانت سرعة الأنترنت تبلغ 2 ميغا بايت وهي سرعة لا بأس بها، وبما أن القارئ كما ذكرنا آنفا لا يستقر على حال، فإن صدره سيضيق ذرعا بالانتظار الطويل، وسيكون ذلك مطية للنفور، وإذا ما سلمنا بتحميل البرنامج فإننا سنصادف عائقا آخر يتمثل في كثرة المجلدات ؛ إذ يتكون البرنامج من 14 مجلدا وإحدى وثلاثين ملفا، وهو ما يشتت القارئ أثناء بحثه عن أيقونة التشغيل، كما أنه سيسرق من القارئ دقائق ثمينة ،تنغص عليه متعة الاستكشاف وتضعف لديه حافز القراءة.

وبالمقابل من ذلك تتوافق رواية "طينجو" لعبد الواحد إستيتو مع مزاج القارئ السبراني ؛فهي سهلة الوصول لأنها متاحة للهواتف الذكية في شكل تطبيق، صغيرة الحجم ،سهلة التحميل والتنصيب، موجزة المقاطع حيث ينشر الكاتب فصولها عبر دفعات، كما أن الفصل صغير جدا إذ لا تتجاوز قراءته الخمس دقائق، وقد نصحت الكاتب عبد الواحد إستيتو بأن لا يطيل الرواية ،لأن القارئ لا يمتلك صبرا واسعا ونَفَسًا طويلا للمتابعة، كما أن للتشويق حدودا ينبغي للمبدع ألا يتجاوزها مهما كانت روعة الإبداع وجودة الإخراج، ويسعفني في هذا المقام التمثيل على ما ذكرته بالرسوم المتحركة الشهيرة المعروفة بـ" المحقق كونان" فعلى الرغم من دقة جودتها وبراعة أفكارها المليئة بالمفاجآت، إلا أنها أصبحت مُمِلَّةً بسبب طول أجزائها التي لا نكاد نجد لها نهاية ؛ مع العلم أن هذه الرسوم ابتدأت في سنة في 18 جويلية 1994 وما تزال أجزاؤها مستمرة إلى حد تحريري لهذه المداخلة.

3) وضوح الخارطة: يتعلق هذا العنصر بالنص المترابط/ المتشعب، فهذا النص كما سبق وأشرنا يحتوي على العديد من النصوص المتعالقة فيما بينها بواسطة روابط bouton، ويبدو للقارئ غير المختص بالبرمجة أن النص المترابط هو صفحة واحدة، لأنه فعلا يظهر في شكل صفحة بعد كل نقرة، فيما هو في الحقيقة مجموع الصفحات المترابطة التي تشكل بعد عدِّها وتجميعها خارطة متعددة الطرق والمسارات، ورهان هذه الخارطة بالنسبة للكتاب هو أن تَهْدِي القارئ لا أن تظلله، ويحدث التظليل بسبب كثرة الروابط التشعبية وانتشارها في جسد النص بطريقة فوضوية وهو ما يؤدي إلى ضياع القارئ في سراديب وجُزَيْرَاتِ النص، ومن أمثلة هذا النوع المعقد من النصوص رقميات الشاعر المغربي منعم الأزرق مثل:"شجرة البوغاز"، "مآثر غيمة لا تشبع منها العينان"، "أفق في ليل أعمى"، فهذه النصوص تحتوي على متاهة من العقد والروابط المتشعبة والتي تؤدي إلى تيهان القارئ، وتَحُولُ دون انتقاله السلسفي جسد النص.

وعلى المقابل تشكل خارطة نص "قصة ربع مخيفة" لأحمد خالد توفيق وضوحا ملحوظا بسبب تنظيم الروابط، بالإضافة إلى سطحيتها وعدم عمقها، فضلا على وجود علامات الهداية من قبيل السابق/ اللاحق/ الرئيسية/ المتن/ الحاشية..وغيرها.

وبما أن الأمور تسير في بعض الأحيان على خلاف ما نروج له يمكننا الإقرار من خلال ملاحظتنا لعملية التلقي أن القراء يفضلون نصوص الفيديو أكثر من النصوص المترابطة على الرغم من أن هذه الأخيرة أصعب تصميما وأعقد برمجة ، ولربما يعود اهتمام القراء بنصوص الفيديو إلى كثرتها ؛ فهي منتشرة على موقع اليوتيوبوهو الموقع الأول في ترويج الفيديوهات ، كما الفيديو سهل في القراءة ؛ فهو يُخَلِّصُ المتلقي من عناء التحميل والتنصيب ، والنقطة الأخيرة هي أن الفيديو متعدد الوسائط ؛ فهو يمتع القارئ بالصور والأشكال والألوان والموسيقى ؛ فهو يخاطب المتلقي ذهنيا وسمعيا وبصريا ووجدانيا.

4) الإمتاع والتشويق: منذ بزوغ فجر العصر الحديث وتوالي الثورات الصناعية الكبرى وحلم الإنسان بتحقيق الرفاهية والسعادة يتحقق حتى أصبح واقعا معاشا ، ولعل التطور العلمي والتكنولوجي الذي بلغ ذروتهفي الثورة الصناعية الثالثة والرابعة قد ساهم بدرجة كبيرة في قدرة الإنسان على التحكم في الطبيعة وتسخيرها لخدمته ؛وقد تجاوز الإنسان الجانب النفعي للتكنولوجيا إلى استثمارها لخدمة غايات فنية جمالية ، مثل صناعة الأفلام والمسلسلات واختراع الألعاب والبرامج الترفيهية الحاسوبية وتطبيقات الهواتف الذكية ، فضلا عن سماع الموسيقى ومشاهدة الحفلات ومتابعة المباريات.. وغيرها ؛ وكنتيجة لهذه المتغيرات وقع الكُتاب في مهب التهميش والتغييب نتيجة خلو كتاباتهم من الجانب الإمتاعيفمن منا ما يزال يستمتع بقراءة قصيدة شعرية أو مطالعة رواية أو حضور مسرحية ، «أليست دراسة التلفاز والأفلام والبلاغات الحكومية والإعلانات والحكايات الشعبية والجنسوية التي تعني بما تتعرض له المرأة من اضطهاد في بعض المجتمعات ، وغيرها مما يندرج في أعمالها أولى بكثير من دراسة الأدب»(عبد القادر الرباعي ، 2007 ، ص 10). إن متابعي مباريات الكلاسيكو بين ريال مدريد وبرشلونة يفوق قراء الأدب لعقود ، كما أن مستمعي المغنية الأمريكية مادونا «في حفلة واحدة لساعة واحدة يعدلون من يقرأون الأدب لسنوات ، فما بالك بما يذاع في الإذاعات والتلفاز وما يباع من أشرطة وما تتلقاه الهواتف الخلوية ، إن جهاز الحاسوب الذي جاء خدمة للعلم غدا الآن في أوساط كثيرة معرضا للأغاني والأفلام والتسلية ، أما الأنترنت فحدث عنها ولا حرج»(عبد القادر الرباعي ،2007 ، ص 10). وإن ردَّ قائل بأن الأدب للأقلية والنخبة وليس لعامة الشعب فنرد عليه بأن النخبة قد سقطت في عصر الميديولوجيا ؛ سقطت والقول للغذامي «وسقطت معها الوصاية التقليدية ورموز الثقافة التقليديين الذين كانوا يحتكرون الحق في التأويل وإنتاج الدلالات»(عبد الله الغذامي ، 2005 ، ص 10-11).

وكنتيجة لهذه التطورات وسعيا من بعض النقاد لإنقاذ الأدب من الأفول في عصر كثرت فيه "إعلانات موت الأشياء مثل موت المؤلف ، موت النص ، موت الناقد ، موت الأدب" (عبد القادر الرباعي ، 2007 ، ص 7)، تعالت الدعوات بضرورة التزام الأدباء بقضايا العصر الرقمي شكلا ومضمونا ؛ وعلى الرغم من أن الكتاب قد انخرطوا في العالم الرقمي من خلال تحولهم إلى الكتابة التفاعلية التي تستثمر الميديولوجيا إلا أنهم يبقون مطالبين بمنافسة الخطابات الأخرى ؛ فالتكنولوجيا اليوم تقدم أفضل التقنيات والبرامج ، والشباب اليوم يدمنون على الاستمتاع بأفضل الألعاب مثل:Nintendoo ، Game Cube ،X-Box ، وقد طور الخبراء في عام 2019 منصة stadia ، وهي أرضية رقمية مخصصة للألعاب ، ومن مزايا هذه الأرضية احتواؤها على جميع الألعاب بصفة شبه مجانية ، كما أنها تغنينا عن شراء أجهزة الألعاب من المتاجر.

في ظل هذا الرهان يمكننا أن نقدم للكتاب والأدباء بعض النصائح لتجنيب بضاعتهم الكساد ؛ منها ضرورة إتقان لغة البرمجة بغية الاستثمار الأمثل لمختلف المؤثرات السمعية والبصرية وإمكانيات النص المترابط ، ومن المستحسن أن يحاكي الأدباء أسلوب الألعاب في الإمتاع والتشويق ، وذلك من خلال تقديم نوع من الألغاز والأسئلة والتحديات للمتلقي كرهان للاستمرار في متابعة القراءة ، كما يمكن أن يُضَمِّن الكاتب في نصه بعض الألعاب البسيطة لإضفاء نوع من الدعابة على القارئ وجذب اهتمامه.

أما على صعيد المضمون فعلى الكاتب أن يتناول قضايا تتماشى مع العصر الرقمي ، فيؤلف القصص والروايات حول حياة المجتمع وتقلبات الإنسان في مواقع التواصل الاجتماعي ؛ فيكتب عن الحب والصداقة والدردشة ، عن السرعة والقلق ، عن التواصل والحوار ، عن التحضر والنجومية وغيرها ، كما أن عليه أن يتناول القضايا الراهنة التي تخنق العالم ؛ كالاحتباس الحراري والخطر النووي والإرهاب والهجرة غير الشرعية واضطهاد الشعوب والتمييز العنصري والعنف مع المرأة وغيرها من القضايا الراهنة.

وباختصار مفيد إذا لم ينخرط الأديب في استثمار معطيات التكنولوجيا إمتاعا وتشويقا ، شكلا ومضمونا فإن ما يكتبه لن يوضع له القبول.

وبِوِدِّنَا الإشارة في هذا المقام إلى ضرورة توسيع دائرة الأدب ليشمل السينما وما تنطوي عليه من أفلام ومسلسلات ورسومات متحركة ، وكذلك بعض الأغاني الجديدة كالراب والهيب هوب وغيرها من الفنون التي يختلط فيها الشعر أو السرد بالموسيقى والغناء والتمثيل ، وإننا لنتعجب من النقاد ومنظري الأدب من خلو دراساتهم من هذه المجالات التي نراها تدخل في صميم الأدب ، خصوصا إذا علمنا أن العديد من الأفلام والمسلسلات والأغاني تعود إلى أصول أدبية ، لكنها حُوِّلت من وسائطها الشفاهية أو الكتابية إلى الوسائط المتعددة ؛ فأغلب أغاني كاظم الساهر هي قصائد لنزار قباني ، والعديد من المسلسلات هي في الأصل روايات ، ولا يخفى على أحد أن تمظهر الأدب في هذه الأشكال الثقافية الجديدة المُهَجَّنَةِبالميديولوجيا يمنحه انتشارا وشعبية أكثر مما كانت تحظى به لَمَّا كانت في أفواه الشعراء أو دفاتر الروائيين ، فلطفي دوبلكانو ، أو كاظم الساهر أو توم كروزTom cruiseأو سلفسترستالونSylvester Stallioneيؤثرون اليوم أكثر من المتنبي ومحمود درويش وتشومسكي والجابري.

الأدب التفاعلي وصيرورة النقد الأدبي: إذا كان النقد الأدبي قد تعامل في تاريخه الطويل مع النصوص الشفاهية أو المكتوبة وأفرز مختلف المناهج السياقية والنسقية ، فإنه مطالب اليوم بتجديد آلياته واستحداث أدواته الإجرائية لمقاربة النص الرقمي التفاعلي المختلف عن النص الشفاهي والمكتوب ، وسنتطرق فيما يلي إلى بعض النقاط المهمة التي يجب على النقاد أن يسلطوا الضوء عليها أثناء مقارباتهم النقدية ، وبما أن النصوص التفاعلية تختلف بحسب وسائطها وطرائق تشكيلها فإننا لن نقدم طريقة واحدة في التحليل ، وإنما سيكون لكل نمط وسائطي نموذجه الخاص ؛ وسنعرض في الآتي أنماط النصوص التفاعلية وطرق نقدها وتحليلها.

1) كتابات مواقع التواصل الاجتماعي: من الملاحظ أن الكتابات الإبداعية الموجودة على شبكات التواصل الاجتماعي لا تختلف كثيرا عن النصوص المكتوبة وبالتالي فإن نقدها وتحليلها لا يختلف عن نقد النص المكتوب ، غير أن ما يمكن إضافته إلى هذا النوع من النصوص هو الاهتمام بردود أفعال القراء الموجودة في

التعليقات ، ومدى مساهمة تلك الردود في صناعة خيوط النص ، وإذا كانت نظرية القراءة قد أقرت بأن القارئ يُنتج النص من خلال ثقافته التأويلية ووعيه ، فإن هذا القارئ أصبح في المنتديات التواصلية يصنع النص ويشكل جسده حقيقة لا إدراكا ، وإذا كان الكاتب في الماضي يحرر نصهثم يعرضه على المتلقي فإنه اليوم يكتب النص بعد عملية التلقي ؛ أي أنه لا يضع فكرة مسبقة وتصورا مستقبليا لما سيكتبه وإنما يُغَيِّرُ ويُعَدِّلُ ويُحَوِرُ ويُبَدِّلُ آراءه بناء على توقعات وردود واقتراحات القراء.

2) نصوص الفيديو: لعل أفضل طريقة لنقد النصوص المعروضة في شكل فيديو هو دراسة مكوناتها كالصوت والصورة والحركة والكلمة وغيرها من الوسائط المستخدمة في تشكيل النص ، غير أن دراسة هذه العناصر لا تكون معزولة ومنفصلة عن بعضها وإنما تُكون بطريقة كلية تكاملية ؛ فإذا كان لدينا نص يتكون من أبيات شعرية ، وموسيقى وصور ثابتة ومتحركة فإن تحليلها يكون بتحليل النص الشعري وفق منهج معين من خلال مستوياته المختلفة ، ثم نتناول الخلفية الموسيقية مع الصور الثابتة والمتحركة وغيرها مما يتزامن مع ظهور كلمات البيت الشعري ، وعلى الرغم من تباين هذه العلامات اللغوية المتمثلة في الكلمات ، وغير اللغوية المتمثلة في الموسيقى والصورة إلا أنها تؤدي في النهاية إلى نتيجة واحدة وهي تدعيم المعنى وإحداث تأثير في المتلقي ، غير أن تأثير الوسائط يكون مكثفا ومضاعفا لأنها تخاطب مختلف حواس الإنسان كالسمع (الموسيقى وأصوات الشاعر) والبصر (الصور الثابة والمتحركة والرسومات والأشكال..) والفؤاد (معاني الأبيات الشعرية).

ومن المفيد أثناء دراسة مختلف علامات النص الاستعانة بالمنهج السيميائي خصوصا فيما يتعلق بدلالة الألوان والأشكال والأصوات ، كما يمكن الاستعانة أيضا بفن الإخراج السينمائي خصوصا فيما يتعلق بطريقة تصميم عناصر النص وظهور الكلمات وتموقعالظلال والأضواء وطرائق التحريك والإظهار والحجب وغيرها.

3) النص المترابط: بما أن النص المترابط يتكون من مجموعة من الصفحات المتعالقة فيما بينها فإن أول المكونات التي ينبغي دراستها هو الخارطة الكلية لهذا النص ؛ فهي الهيكل الذي يمسك خيوط النص المتشابكة والمتناثرة ، وللخارطة دور كبير في تسهيل أو تعقيد النصوص لأنها تحمل على عاتقها طريقة الولوج إلى جسد النص من خلال الروابط التشعبية ، ومن هنا فعلى الكاتب/ الناقد أن يكون على علم بتقنيات وأنواع الترابط النصي ، كالترابط الشجري أو الجدولي أو التوليفي أو النجمي أو الشبكي فيختار لنصوصه النموذج الأمثل. وكلما كانت خارطة النص واضحة خالية من التعقيد وكثرة التشعب كان مقبولا ، وكلما كان النص معقدا غامضا يشبه المتاهة كان مدعاة للقلق والنفور والإعراض.

ونستطيع أن نضيف إلى دراسة الخارطة عنصرا آخر وهو الروابط التشعبية المنتشرة في صفحات النص المترابط ؛ فندرس شكلها (مربع مستطيل مثلث دائرة أو غير ذلك)، مصطلحاتها (الرئيسية الحاشية المتن الشرح)، تموقعها (أعلى أسفل يمين وسط يسار) وظيفتها في التنقل (الرئيسة السابق اللاحق المتن الحاشية).غير أن أهم شيء في الروابط التشعبية هو محتوياتها ؛ أي ما الذي يحيلنا إليه الرابط إذا نقرنا عليه ، ومن المعلوم أن الروابط تؤدي غايات محددة ، فهي تحيلنا إلى نص أو صورة أو لوحة فنية أو فيديو أو أغنية أو موسيقى أو إلى نص متعدد الوسائط وفي أغلب الأحيان تحيلنا إلى صفحة أو صفحات جديدة قد تحتوي بدورها على روابط أخرى ، ولا بُدّ للنظرية النقدية أن ترتكز على أشكال الترابط النصي ، ولعل أهم تساؤل نقدي ينبغي معالجته يتعلق بمدى تناسب الروابط مع ذهن القارئ ، وبعبارة أخرى يحتاج القارئ أثناء قراءته للنص الرقمي

إلى روابط معينة في أماكن مخصوصة، وهذه الحاجة ترتبط بثقافة القارئ أولا وبعملية المخ البشري في الإدراك ثانيا، وبالتالي على الكاتب أن يفهم هذه الحاجة من القارئ وأن يضع الرابط المناسب في المكان والزمان المناسبين مع المحتوى المناسب أيضا، وعلى الناقد بعد ذلك أن يراعي مدى تطابق الروابط التي وضعها الأديب مع حاجة القارئ لها، فإن تطابقت الخارطة الذهنية للقارئ مع الخارطة النصية كان النص ناجحا، وإن وقع خلل في الخارطتين كان النص فاشلا؛ ولعل الأمر شبيه بفن الإخراج في المباريات؛ حيث يجب على المخرج أثناء المباراة أن يصور المشهد الذي يحتاج القارئ إلى مشاهدته أثناء تحرك الكرة في ساحة الملعب، كما أن عليه أن يعيد اللقطات المهمة من زوايا لم تُشاهد أو وقعت في نقاط عمياء أو كانت بعيدة وغير واضحة للمشاهد أثناء التصوير.

بعد ذلك ننتقل إلى دراسة صفحات النص كل على حدة، وفي تناولنا لكل صفحة ينبغي أن ندرس المكونات بطريقة كلية مثلما بَيَّنَّا مع نصوص الفيديو؛ فنحلل الأبيات الشعرية من خلال المستويات الصوتية والصرفية والتركيبية والدلالية إن كان شعرا، ونتناول المكونات السردية كالشخصيات والزمان والمكان والأحداث إن كان سردا.ولعل المنهج المناسب لدراسة النص الالكتروني هو المنهج السيميائي الذي يحلل مختلف علامات النص اللغوية وغير اللغوية، كما يمكننا إلى جانب المنهج السيميائي الاعتماد على المناهج التي تنتمي إلى مرحلة ما بعد الحداثة كالمنهج التفكيكي والتأويلي والنقد الثقافي وحينما نستخدم هذه المناهج ينبغي الاستعانة بنظرية التناص، لأن هناك علاقة وطيدة بين النص المترابط والتناص، وإذا كان التناص في النص المكتوب قد اقتصر على توظيف الشاعر لبعض العناصر اللغوية لشاعر آخر في نصه فإن التناص في النص الرقمي يتجاوز العناصر اللغوية إلى العناصر غير اللغوية أيضا؛ حيث يأخذ المبدع الرقمي من الشبكة العنكبوتية ما يشاء من صور وأيقونات ولوحات فنية ومقاطع موسيقية وأصوات حية وأشكال جرافيكية وخرائط وغيرها من العناصر التي يعود أصلها إلى مبدعين متفرقين، وحينما يجمعها النص الإلكتروني يصبح النص كما قالت جوليا كريستيفا لوحة فسيفسائية، وكأن النص المترابط يجسد حسيا وعلى نحو ملموس أفكار ميخائيل باختين وجيرار جينيت وجوليا كريستيفا حول الحوارية وتعددية الأصوات والفسيفسائية، بل إننا بميلاد النص المترابط فهمنا التناص أكثر مما فهمناه في النص المكتوب، وهذا راجع إلى أننا ندرك الأفكار في قالب حسي أكثر مما ندركها في قالب معنوي مجرد.

ما يمكننا الخلوص إليه في نهاية هذا المقال هو أن الكتاب مطالبين اليوم بمواكبة ركب التقنية إن أرادوا تحقيق المقروئية ووضع القبول لأعمالهم، كما أن عليهم أن يقدموا أدبا قادرا على زحام ومنافسة الخطابات الثقافية الأخرى، وبالمقابل من ذلك يقع على عاتق النقاد أن يطوروا آلياتهم ويجددوا عدتهم لمقارعة النص الرقمي التفاعلي الجديد، ولعل أول شيء ينبغي على الأدباء والنقاد فعله هو ضرورة إتقان لغة البرمجة إلى جانب إتقانهم للغة الأدب، إضافة إلى احترام حقوق القارئ الرقمي السبراني وفق المعايير التي حددناها آنفا.

قائمة المراجع:

-إبراهيم، الحيدري.2012. النقد بين الحداثة وما بعد الحداثة.ط1. دار الساقي. بيروت. لبنان.
-أدونيس. 1978. الثابت والمتحول بحث في الاتباع والإبداع عند العرب (صدمة الحداثة). ط1. دار العودة. بيروت. لبنان.
-أندراس. كبانيوس. 2003. العولمة والنظرية الأدبية. ط1. المنار العربي. الجيزة. مصر.

-حاتم ، الصكر. 1999. مرايا نرسيس.ط1. المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.بيروت. لبنان.
-رامان ، سلدن.1978. النظرية الأدبية المعاصرة ، ترجمة جابر عصفور.(د.ط). دار قباء. القاهرة. مصر.
-زهور ،كرام. 2013. الأدب الرقمي (أسئلة ثقافية وتأملات مفاهيمية) ، ط 2. دار الإيمان. الرباط. المغرب.
-سعيد ، يقطين. 2005.من النص إلى النص المترابط (مدخل إلى جماليات الإبداع التفاعلي).ط1.المركز الثقافي العربي. بيروت. لبنان.
-عبد القادر ، الرباعي. 2007. تحولات النقد الثقافي. ط1. دار جرير. عمان. الأردن.
-عبد الله محمد ، الغذامي. 2005.الثقافة التلفزيونية (سقوط النخبة وبروز الشعبي).ط 2. المركز الثقافي العربي. بيروت. لبنان.
-عز الدين ، إسماعيل. (د.ت). الشعر العربي المعاصر (قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية).ط3. دار الفكر العربي. القاهرة. مصر.
-علي ، حرب.2004. حديث النهايات.ط 2. المركز الثقافي العربي. بيروت. لبنان.
-فاطمة ، البريكي.2006. مدخل إلى جماليات الإبداع التفاعلي. ط1. المركز الثقافي العربي. بيروت. لبنان.
-مازن ، الوعر. 2002.علم تحليل الخطاب وموقع الجنس الأدبي. مجلة آفاق التراث والثقافة. عدد 14.
-محمد ، سبيلا وعبد السلام ، بنعبد العالي.2007. ما بعد الحداثة.ط1. دار توبقال. الدار البيضاء. المغرب.

إدمان المراهقين لمواقع التواصل الاجتماعي (الفايسبوك نموذجا) وعلاقته بالوحدة النفسية -دراسة ميدانية على مراهقي منطقة القبائل ببلد الجزائر-

"Adolescent addiction to social networking sites (Facebook model) and its relationship with psychological unity"

- Field study on adolescents in Kabylia in Algeria —

أ.فديلة فريدة ، جامعة أكلي محند اولحاج البويرة- الجزائر

مقدمة وإشكالية الدراسة:

لقد شهد عالم اليوم تطورات كبيرة في جميع المجالات والميادين المختلفة ، أين أحدثت تغييرات في جوانب مختلفة منها: ثقافية- فكرية- اجتماعية- اقتصادية وخاصة التكنولوجية بحيث تطورت شبكات الاتصال العالمي عبر الانترنت وظهر ما يسمى بمواقع التواصل الاجتماعي التي تعمل على الاتصال ونقل المعلومات ، وكذا الربط بين ملايين الأشخاص في مختلف أنحاء العالم. بحيث سجلت نجاح إلى حد كبير في فتح الطريق للتقارب والتعارف بين المجتمعات وتبادل الآراء والأفكار بين أفرادها ونقل الثقافات بينهم من خلال بناء علاقات اجتماعية افتراضية عن طريق شبكات الكترونية التي أصبحت وسيلة فعالة للتواصل الاجتماعي.

فقد نشأت هذه المواقع نتيجة حاجة الأفراد إلى وجود علاقات إنسانية في الواقع الافتراضي فيما بينهم وفتحت مجال للحوار التفاعلي بشكل متطور وبشكل واسع وأعادت العلاقات بين الأفراد سواء كانوا زملاء أو أصدقاء أو غير ذلك ممن يرسلون دعوة للتعرف عليهم أو من يقترحون أن يكونوا ضمن مجال الاهتمام ، فهناك تقرير عالمي يثبت أن مواقع التواصل الاجتماعي حصلت على نسب استخدام من جانب المهتمين بتطبيقات الجيل الثاني من الويب (أيمن بن ناصر ،2014 ، ص03).

وقد تزايدت شعبية هذه المواقع أكثر في الربع الأول من عام (2011) فاتسعت قاعدة مستخدمي "الفايسبوك" و"تويتر" ليتجاوز عند مستخدمي "الفايسبوك" (677) مليون مستخدم و(200) مليون مستخدم لموقع "تويتر" (تقرير الإعلام العربي ،2011)، ومن أهم المواقع التي ساهمت بشكل كبير في تطور العالم الاجتماعي نجد شبكة التواصل الاجتماعي" الفايسبوك" أو ما يسمى بـ "كتاب الوجوه" ، الذي يعد من أحدث تكنولوجيا الاتصالات وأكثرها شعبية من حيث الاستخدام ، فهي تتيح لمستخدميها إدراج معلومات شخصية كما تفتح لهم مجال البحث عن أصدقاء من مختلف الدول كما تمكنهم من وضع صورهم الشخصية ومشاركة أفكارهم ومشاعرهم مع الغير ، فتجمع بذلك بين الملايين من المستخدمين في وقت واحد نتيجة للخدمات المتنوعة التي تقدمها هذه المواقع ، فأصبحت من أهم الضروريات في حياتنا العصرية. ويعد موقع "الفايسبوك" من أكثر مواقع الشبكات والتواصل الاجتماعي رواجا وانتشارا لما يحققه من ميزات يتمتع بها رواده ، إذ أنه يمثل أداة لتسهيل التواصل الاجتماعي لأشخاص يجدون صعوبة في تكوين علاقات اجتماعية ، وروابط وصلات مع الآخرين(Dimmico, Ellison & Lampe, 2009 Stienfield)، حيث أصبح

''الفايسبوك'' ظاهرة اجتماعية منتشرة بشكل كبير لما توفره من خدمات ، فيعد من أكثر المواقع الاجتماعية شهرة واستخداما.

وحسب ما جاء في موقع (سوشال باكرز) المتخصص في متابعة شبكات التواصل الاجتماعي عبر العالم فقد تجاوز عدد الجزائريين المسجلين على موقع "الفايسبوك" شهر ديسمبر 2014 أربعة ملايين و(23) ألف و(940) مشتركا ما يمثل 93.71%من الجزائريين الذين يملكون خط تشبيك في الانترنت ، ووفق نفس الموقع احتلت الجزائر حسب التصنيف الحديث المرتبة 25 عالميا من ناحية استخدام الموقع مع نهاية عام 2014 (عبد الرحمان عمار ،2014 ، ص. 83).

ما يستدل من هذه الإحصائيات الأهمية الكبيرة لموقع ''الفايسبوك'' عند مستخدميه ، والذي أضحى مساحة افتراضية تستهدف جميع فئات المجتمع ، لنجد الفئة الأكثر توافدا عليه هم فئة الشباب والمراهقين حيث أشارت دارسة **(Madden ,A Lenhart) مدان ولنهارت** إلى أن هناك تزايدا ملحوظا في استخدام المراهقين لمواقع التواصل الاجتماعي فأكثر من نصفهم من الفئات العمرية (12-17) سنة لديهم ملف شخصي في هذه المواقع ، و يقضي هؤلاء حوالي(40) دقيقة في المتوسط يوميا ، ويدخل نصف هؤلاء على هذه المواقع أكثر من مرة في اليوم (عبد الصادق حسن عبد الصادق ،2014 ، ص. 34).

إن إقبال المراهقين على استخدام ''الفايسبوك'' أصبح أمرا محتوما ، فهم يعيشون في بيئة تحيط بها جميع وسائل التكنولوجيا ما يطرح تساؤلات عدة حول تأثير ذلك عليهم ، وما الذي سيحدث لخصوصياتهم وهوياتهم وشخصياتهم نتيجة هذا الاستخدام خاصة وأن الانترنت حلت في كل بيت جزائري ، والتي أبهرتهم بما تقدمه لهم كل يوم ، بالإضافة إلى توفر الهواتف المحمولة الذكية التي أتاحت لهم نوافذ يطلون من خلالها على العالم في أي وقت يشاءون. فموقع ''الفايسبوك'' سيطر على اهتماماتهم و استنزف الكثير من أوقاتهم ، لما يوفره من خدمات تتمثل في تلبية حاجات نفسية بالدرجة الأولى ليجد المراهقين فيه منفسا اجتماعيا يشعرهم بالأمن والثقة بالنفس ، ويشجعهم على التفاعل عند عدم قدرتهم على التواصل وجها لوجه على أرض الواقع ، كما قد يتيح لهم القدرة على مشاركة مشكلاتهم فيساعدهم على البوح ما في أنفسهم لتحسين حالتهم المزاجية والانفعالية.

وتبقى شبكة التواصل الاجتماعي "الفايسبوك" كأي تكنولوجيا سلاح ذو حدين ، إذ كشفت بعض الدارسات على أن الموقع يعمل على تشجيع الانعزال والشعور بالوحدة النفسية ، لأن العلاقات مع الآخرين تكون على مستوى افتراضي بعيد عن الواقع كما أن التفاعل غير تلقائي ذلك أن الفرد يتصنع سلوكيات ومواقف قد يرغب فيها في واقعه الحقيقي.

إن المخيف في الأمر من استخدام المراهقين لهذا الموقع هو العدد المتزايد في التسجيل عليه ، فحسب إحصائيات 2011 فإن عدد مستخدمي ''الفايسبوك'' من المراهقين يصل إلى 76% من إجمالي عدد المستخدمين في الجزائر ، أما الذين تتجاوز أعمارهم(30) سنة نجد نسبة 24 % في أفريل 2011 (رشا مرتضى ، فادي سالم ،2011 ، ص.13). وتبعا لإحصائيات أخرى لشهر أفريل سنة 2014 أن الفئة العمرية مابين (13-24) سنة تصل نسبة استخدامها للموقع 88 % وتأتي الفئة مابين (35- 65) سنة بنسبة 12 % من أعداد المشتركين بالانترنت (عبد الرحمان عمار ، 2014 ، ص. 83).

انطلاقا من هذه الإحصائيات والأرقام التي تعبر عن نسب مفزعة كونها تنم عن حركية غير عادية للمراهقين والشباب الذي يتطلع للعالم الافتراضي ، ليحتل هذا العالم حيزا هاما من حياتهم ، فهذه النسب تحمل في طياتها مخاطر على الصعيد النفسي والاجتماعي وحتى الصحي للمراهق ، وذلك عندما لا يستطيع الاستغناء على استخدام الموقع ، لتجده متصل به طيلة وقته ليؤثر على شخصيته وهويته وحالته المزاجية وعلى علاقاته الاجتماعية ، وهنا قد يدخل في دائرة الإدمان على "الفايسبوك".

إذ يحتل اضطراب إدمان "الفيسبوك" المرتبة الأربعة بعد إدمان ألعاب الكمبيوتر وإدمان البحث وإدمان المواقع الإباحية ، فحسب دارسة **(Seman) (2011) سمان** إلى أن 48% من المستخدمين يعملون على تحديث صفحة "الفايسبوك" بعد الذهاب إلى السرير ، و56% يشعرون أنهم مجبرون على زيارته مرة واحدة في اليوم على الأقل(عبد الكريم سعودي ، 2014 ، ص.44).

قد يكون لموقع التواصل الاجتماعي "الفايسبوك "أثر إيجابي على الجوانب الاجتماعية ، فالأفراد في هذه المواقع قد يوجدون مجتمعات افتراضية تحقق الترابط والتواصل الاجتماعي بناء على اهتماماتهم وأفكارهم واتجاهاتهم (Stienfield,Dimmico,Ellison et Lampe,2009) كما أشارت دارسة **(Micheel)(2010) ميشيل** إلى أن مواقع التواصل الاجتماعي غيرت أنماط حياة الشباب المراهقين وطريقة تواصلهم الاجتماعي مع مجتمعاتهم الافتراضية والحقيقية ، وهناك من يرى أن المجتمع الافتراضي الذي توجده مواقع التواصل الاجتماعي"الفايسبوك" تمثل مجتمعا سلبيا يفقد الشخص القدرة على التفاعل والتعامل مع واقع الحياة الاجتماعية ومع الناس من حوله ، مما يؤدي إلى تدني مستويات التوافق الاجتماعي لدى المستخدم (الطيب ،2012)، والذي يؤثر على الحياة النفسية والاجتماعية للأفراد والمجتمعات ، ومن بين أكبر فئات المجتمع تناولا في الدارسات هم الأكثر ترددا على مواقع "الفايسبوك" وهم فئة المراهقين ، أين تعد هذه المرحلة من أخطر المراحل التي يمر بها الإنسان ضمن أطره المختلفة ،بحيث يكمن الخطر في تغيرات مظاهر النمو المختلفة ، فيتعرض هذا المراهق إلى صراعات متعددة منها داخلية و خارجية ، ما يجعله يتردد إلى مواقع التواصل الاجتماعي "الفايسبوك ."

ورغم كل هذا فان مواقع التواصل الاجتماعي أصبحت من الأشياء المهمة التي يتركز عليها الجميع في الوقت الراهن لكن ظهرت الكثير من المشكلات لتلك المواقع والتي أصبحت واضحة بشكل كبير تؤثر على المجتمع بكل طوائفه والفرد بصورة خاصة تذكر منها شعور بالوحدة النفسية والملل واليأس تجعل الفرد غير قادر على إقامة علاقات اجتماعية حميمية مع الآخرين كدراسة **حنان أسعد محمد خوخ (2002)** الخجل وعلاقته بكل شعور بالوحدة النفسية وأساليب المعاملة الوالدية ، ودراسة **بوشامي عبد المولى (2013)** الشعور بالوحدة النفسية وعلاقته بالسمات الشخصية ودراسة **حدواس منال (2013)** الشعور بالوحدة الشخصية وعلاقتها بالتوافق النفسي الاجتماعي ومستوى تقدير الذات ، فالشعور بالوحدة النفسية حالة واسعة الانتشار حيث أنها أصبحت حقيقة موجودة في حياتنا اليومية لا تعرف لنفسها أي حدود ، فهي تحسن جميع شرائح المجتمع الضعيف والقوى الصحيح والمريض الكبير والصغير. لقد كثر الحديث عن الفايسبوك وعلاقته بالوحدة النفسية وذلك العديد من الدراسات السابقة التي حاولت الاقتراب من الموضوع وتناوله من زوايا عدة (شاحب أحمد ، 2017 ، ص. 06).

لهذا تمَّ التركيز في هذه الدارسة على مفهوم مواقع التواصل الاجتماعي "الفايسبوك" الذي يعتبر ظاهرة نفسية اجتماعية تمس فئة المراهقين الجزائريين، وهذا ما دفعنا للاهتمام به لدى فئة المراهقين وعلاقته الوحدة النفسية حيث تم دارسته في منطقة القبائل، و ذلك من خلال طرح التساؤلات التالية:

التساؤل الأول:هل توجد علاقة بين إدمان "الفايسبوك" والوحدة النفسية لدى المراهق الجزائري القاطن بمنطقة القبائل (الجزائر)؟

التساؤل الثاني:هل توجد فروق بين الجنسين (المراهقين و المراهقات) القاطنين بمنطقة القبائل (الجزائر) فيما يخص إدمان "الفايسبوك"؟

التساؤل الثالث:هل توجد فروق بين الجنسين (المراهقين و المراهقات) القاطنين بمنطقة القبائل (الجزائر) فيما يخص الوحدة النفسية؟

فرضيات الدراسة:

الفرضية الأولى: توجد علاقة بين إدمان "الفايسبوك" والوحدة النفسية لدى المراهق الجزائري القاطن بمنطقة القبائل (الجزائر).

الفرضية الثانية: توجد فروق بين الجنسين (المراهقين و المراهقات) القاطنين بمنطقة القبائل (الجزائر) فيما يخص إدمان "الفايسبوك".

الفرضية لثالثة: توجد فروق بين الجنسين (المراهقين و المراهقات) القاطنين بمنطقة القبائل (الجزائر) فيما يخص الوحدة النفسية.

أهداف الدراسة:

1- التعرف على العلاقة الموجودة يسن الإدمان على الفايسبوك والوحدة النفسية لدى أفراد العينة.

2- التعرف إذ كانت توجد فروق بين الجنسين (المراهقين والمراهقات) فيما يخص كل من الإدمان على الفايسبوك والوحدة النفسية.

3- أهمية الدراسة:

1- تكمن أهمية الدراسة في إثراء المكتبة العلنية كدراسة سابقة لدراسات لاحقة في نفس الموضوع.

2- الاستفادة من نتائج الدراسة.

3- تساعد النتائج الدراسة في إظهار أثر المواقع التواصل على الشعور بالوحدة النفسية.

المفاهيم الأساسية للدراسة:

الإدمان على الفايسبوك:

تعريف شبكة التواصل الاجتماعي "الفايسبوك: يرى مكتشفه **(Mark Zuckerberg) مارك زوكربيرج** أن "الفايسبوك" حركة اجتماعية (Movement Social) مجرد أداة أو وسيلة للتواصل، وأنه سوف يزيح البريد الإلكتروني من الطريق وأنه سوف يسيطر أو "يستعمر" ويحتل كل النشاط البشري على الشبكة الدولية، لذا فوصفه بأنه "دليل سكان العالم"، وأنه موقع يتيح للأفراد العاديين أن يخلقوا من أنفسهم هوايات عامة عن طريق الإدلاء بما يريدون من معلومات حول أنفسهم، وتكوينهم الذهني، والعاطفي ونشر صورهم الشخصية، وأن الهدف منه هو أن يصبح العالم "مكانا أكثر انفتاحا" (محمود الفطافطة، 2011، ص.22).

مفهوم الادمان على "الفايسبوك": حسب **"عبد الكريم سعودي" فمفهوم** الإدمان على "الفايسبوك" هو "الاعتمادية في استعمال موقع التواصل الاجتماعي "الفيسبوك" لساعات عديدة يتجاوز ثلاثة ساعات في اليوم، بحيث لا يستطيع المدمن التوقف عن الاستعمال لشعوره بالرغبة الملحة في الاستمرار". وتشير(أندرسن) (2012) إلى وجود أع ارض إدمان"الفايسبوك" تشبه إلى حد كبير أعراض إدمان المخدرات والكحول وتعرفه على أنه " الاستخدام المستمر لموقع التواصل الاجتماعي"الفايسبوك" مرات عديدة في اليوم الواحد لمدة زمنية ليست بالقصيرة لا يستطيع معها المستخدم التوقف أو التخلي عن هذا الاستخدام"(نقلا عن: عبد الكريم سعودي ، 2014 ، ص.43).

ويعرف " إدمان الفايسبوك" في هذه الدارسة إجرائيا على أنه ما يقيسه **"بيرغن" (BFAS)** للإدمان على الفايسبوك" (2012)، والذي يهدف إلى التعرف التقديري على مستو ى" الإدمان على الفايسبوك".

الوحدة النفسية:

مفهوم الوحدة النفسية: يرى كل من (سرمان، بيرمانو بيبلوي، وموستكاز، وجوردن، ,Moustokas , JordonSermat, Perlman et Peplaw): أن الوحدة النفسية هي شعور بالحرمان عندما يحدث خلل في شبكة العلاقات الاجتماعية للفرد التي كانت لديه في وقت ما، أو التي يود أن تكون لديه ويؤدي هذا إلى الشعور بالفراغ العاطفي. (خضر الشناوي ، 1988 ، ص. 131).

بالإضافة إلى تعريف شقير: حيث ترى أن الوحدة النفسية هي رغبة في الابتعاد عن الآخرين والاستمتاع بالجلوس منفردا عنه مع صعوبة القدرة على التردد إليهم، وصعوبة التمسك بهم بجانب الشعور بالنقص وعدم الثقة في النفس، وأنه غير محبوب وعاجز عن الدخول في علاقات اجتماعية قوية مع الآخرين ولا يتفاعل معهم بشكل إيجابي ومقبول، وهو شخص لا يثق بنفسه وغالبا ما يشعر بالوحدة حتى بوجود الآخرين(شقير زينب ، 2002 ، ص. 126-127).

نستخلص من خلال التعارف السابقة أن الوحدة النفسية حالة نفسية أو تجربة ذاتية تترك أثار سلبية لدى الفرد فهي تعرقل مسار حياته النفسية والاجتماعية، والانفعالية، لما تحويه من عزلة واكتئاب وانطواء، تنشأ من إحساس الفرد ببعده عن الأخريين نتيجة مواقف أو أزمات أليمة مر بها.

ويعرف الوحدة النفسية في هذه الدارسة إجرائيا على أنه ما يقيسه **"إبراهيم قشقوش"** للوحدة النفسية (1986)، والذي يهدف إلى التعرف التقديري على مستو ى الوحدة النفسية.

المراهقة:

مفهوم المراهقة: هي تلك الفترة التي تقع بين مرحلة الطفولة والنضج، وتتميز بحدوث تغيرات نفسية وفيزيولوجية. وهي أصعب مرحلة في نمو الإنسان وبناء شخصيته ولهذا هو معروف عند جميع الأخصائيين بصعوبة وخصوصية هذه المرحلة، ويعرفها **(Stanley Hall) ستانلي هول (1952)** بأنها مرحلة من العمر تتميز فيها التصرفات الفرد بالعواصف والانفعالات الحادة والتطورات العنيفة حسب **(Harrocks) هوركس (1962)** المراهقة هي الفترة التي يكسر فيها المراهق شرنق الطفولة ليخرج إلى العالم الخارجي، ويبدأ في التفاعل معه و الاندماج فيه أي أنها مرحلة عواطف و توتر و شدة حيث يمر المراهق بفترات عصبية وتكثر عنده الاندفاعية والصراعات النفسية ويكو ن المراهق ذو حساسية شديدة يميل إلي تأكيد الذات، كما يميل إلى

الخوف خاصة من المجتمع وعدم الثبات الانفعالي (سعدية بهادر ، 1980 ، ص.318).وفي هذه الدارسة يقصد بالمراهقين (ذكور /إناث) الذين يترددون على مواقع التواصل الاجتماعي ''الفايسبوك'' والذين تتراوح أعما رهم بين 12-16سنة.

ثانيا :الإطار العملي للدارسة:

الدارسة الاستطلاعية: تعتبر الدراسة الاستطلاعية خطوة مهمة وأساسية بين مجموعة خطوات البحث العلمي ، وكان الهدف منها في هذه الدراسة الحصول على عينة الدراسة ، حيث تتطلب هذه الدراسة أن تكون العينة المراهقين المترددين على مواقع التواصل الاجتماعي''الفايسبوك''. وكذل كالتأكد من صدق الأداتين المستعملة في هذه الدراسة وفهم بنودها ، وقد تم إجراءها على 206 مراهقا من منطقة القبائل ، وقد مرت هذه الدراسة بمرحلتين:

المرحلة الأولى: تم فيها استخراج عينة من المراهقين الذين يترددون على مواقع التواصل الاجتماعي ''الفايسبوك''.

المرحلة الثانية: تم فيها التأكد من صدق الأداتين المستعملة في هذه الدراسة وفهم بنودها.

وتمثلت نتائج الدراسة الاستطلاعية على العموم في أنه تم الوصول إلى (200) مراهقا متردد على مواقع التواصل الاجتماعي''الفايسبوك ''–بمنطقة القبائل-، وكذلك تم تبني مقياس الإدمان على ''الفايسبوك''، ومقياس الوحدة النفسية كأدوات لهذه الدراسة بعدما تبين ملاءمتهما لها.

منهج الدارسة: تم الاعتماد في الدراسة الحالية على المنهج الوصفي وهو المنهج الأكثر استخداما في الدراسات النفسية والاجتماعية والتربوية ، وتبين أنه من المناسب استخدامه في هذه الدراسة لأنه يعتمد على دراسة الظاهرة كما توجد في الواقع والوصول إلى نتائج دقيقة والتمكن من تفسيرها وتأويلها.

المعاينة:

المجتمع الأصلي للدارسة: يمثل مجتمع الدراسة كل المراهقين (ذكور/إناث) الذين لديهم صفحة ''الفايسبوك'' القاطنين بمنطقة القبائل (الجزائر) ولكن لم يتوفر لدينا حجم المجتمع الأصلي لصعوبة الحصول على إحصائيات دقيقة حولهم.

حجم عينة الدارسة: بلغ حجم عينة الدارسة (200) مراهق متصفح لموقع التواصل الاجتماعي ''الفايسبوك'' بمنطقة القبائل.

طريقة اختيار العينة: اخترت العينة بطريقة قصديه تعتبر هذه الطريقة من المعاينات الاحتمالية ويقصد بها سحب عينة من مجتمع البحث بانتقاء العناصر المقيدة طبقا لنسبتهم في هذا المجتمع ومن أهم خصائص الدراسة الأساسية أنهم من المراهقين المتصفحين لموقع التواصل الاجتماعي ''الفايسبوك'' القاطنين بمنطقة القبائل في ولاية بجاية (الجزائر).

حدود الدارسة:

جدول رقم (01): يمثل حدود الدارسة

مكان إجراء الدراسة	أعالي جبال جرجرة بمنطقة القبائل –ولاية بجاية -بلد الجزائر
زمان إجراء الدراسة	شهر جوان 2019

خصائص عينة الدارسة: للعينة عدة خصائص منها:

الجنس

جدول رقم (02): يمثل جنس المراهقين المترددين على موقع التواصل الاجتماعي "الفايسبوك".

الجنس	التكّرارات	النّسبة ٪
ذكور	86	% 43
إناث	114	%57
المجموع	200	%100

من خلال هذا الجدول نستنتج أعلى نسبة فيما يخص الجنس هن الإناث أين تتراوح نسبتهن57%، أما الذكور فنسبتهم تقدر بـ43%.

السن:

جدول رقم (03): يمثّل سن المراهقين المترددين على موقع التواصل الاجتماعي "الفايسبوك".

السن	التكّرارات	النّسبة ٪
من 12 إلى 13	106	%53
من 14 إلى 16	94	%47
المجموع	200	%100

من خلال هذا الجدول، نستنتج أن معظم المراهقين المترددين على موقع التواصل الاجتماعي "الفايسبوك" تتراوح أعمارهم بين 12-13 سنة وذلك بنسبة 53%، ثم تليها نسبة 47 % للمراهقين الذين تتراوح أعمارهم ما بين 14- 16 سنة .

عدد ساعات استعمال "الفايسبوك" من طرف المراهقين في اليوم:

جدول رقم (04): يمثل عدد ساعات استعمال "الفايسبوك" من طرف المراهقين في اليوم.

عدد ساعات استعمال "الفايسبوك" من طرف المراهقين في اليوم	التكّرارات	النّسبة ٪
من ساعة إلى ساعتين	48	%24
03 ساعات	69	%34.5
04 ساعات فأكثر	83	%41,5
المجموع	200	%100

من خلال هذا الجدول نستنتج أن أغلبية عينة الدراسة يستعملون "الفايسبوك" لمدة أربعة ساعات أو أكثر في اليوم أي بنسبة41,5%، وتليها نسبة 34.5% للمراهقين الذين يستعملون "الفايسبوك" لمدة 03 ساعات، أما باقي العينة فتقدر نسبتهم 24% بحيث يستعملون "الفايسبوك" من ساعة إلى ساعتين في اليوم.

أدوات الدارسة:

مقياس (برغن) لإدمان الفايسبوك: مقياس **(برغن)** "إدمان الفايسبوك" ويطلق عليه (BFA) وهي اختصار لـSchou Andreassen Facebook Bergen The Scale Addiction تم إعداده من طرف (Cecilie) و زملائها بجامعة (برغن) بالنرويج Norway _Bergen of University The سنة (2012)، يهدف إلى التعرف

على إدمان "الفايسبوك" ويحتوي هذا المقياس على ستة أبعاد: (البروز ، التحمل ، تغير المزاج ، الانتكاس ، الانسحاب ، الصراع)، يندرج تحت كل بعد من الأبعاد الستة التي ذكرناها ثلاثة عبارات ، ويصبح مجموع العبارات هو (18) عبارة ، ويصحح المقياس وفق خمس اختيارات (نادرا جدا ؛ نادرا ؛ أحيانا ؛ غالبا ؛ دائما) تمنح لها درجات (1 ،2 ،5 ،4) وفقا لاستجابة المفحوص ، والذي يسجل 56 درجة فأكثر على المقياس يصنف بأنه مدمن على استخدام "الفايسبوك."

ويتمتع هذا المقياس بصدق و ثبات مرتفع. وقد قامت الدكتورة "بن جديدي سعاد" من جامعة بسكرة بترجمته إلى اللغة العربية سنة (2016) وتكيفيه على البيئة الجزائرية.

مقياس الوحدة النفسية: مقياس الإحساس بالوحدة النفسية والذي كيفه في البيئة العربية **"إبراهيم قشقوش1988"** والذي أعده في الأصل **"راسل وكترونا سنة 1980"** والذي يعرف ب(Oneliness Scale UCLAL) وهو مكون من (34) عبارة أربعة استجابات لتقدير هي: (معظم الأحيان ، بعض الأحيان ، نادرا ، لا اشعر على الإطلاق) وتتراوح الدرجة التي يتحصل عليها الفرد بين (34) درجة كحد أدنى إلى (136) كحد أقصى.

ويتمتع هذا المقياس بصدق و ثبات مرتفع. وقد قامت طالبة دكتوراه **"زريول مونية"** من جامعة مولود معمري بتيزي وزو(الجزائر) سنة (2016) بتكيفيه على البيئة الجزائرية.

الأساليب الإحصائية المستعملة: بعد جمع المعطيات تم فرزها و تفريغها في جداول قصد معالجتها إحصائيا باستعمال برنامج الرزنامة الإحصائية للعلوم الاجتماعية20 SPSS ، ويتضمن هذا البرنامج العديد من الإجراءات الإحصائية الشائعة التي تتيح للباحث معالجة معطياته ومنها: معامل الارتباط "بيرسون ""Pearson" لدراسة العلاقة الموجودة بين درجات مقياس الإدمان على الفايسبوك ودرجات الوحدة النفسية ، والمتوسط الحسابي ، والانحراف المعياري ، واختبارT للفرو ق لعينتين مستقلتين وغير متساويتين في الحجم$n1 \neq n2$.

عرض نتائج الدارسة:

عرض ومناقشة نتائج الفرضية الأولى: تنص هذه الفرضية على ما يلي: "توجد علاقة بين إدمان "الفايسبوك" و الوحدة النفسية لدى المراهق الجزائري القاطن بمنطقة القبائل (الجزائر)."

الجدول رقم (05): قيمة معامل الارتباط بيرسون (R) بين درجات إدمان "الفايسبوك" والوحدة النفسية لدى المراهق الجزائري القاطن بمنطقة القبائل (الجزائر).

العينة	قيمة"ر"المحسوبة	مستوى الدلالة	القيمة المجدولة	درجة الحرية	الدلالة الإحصائية
200	0.67	0.05	0.23	198	دالة

توقعنا في الفرضية الأولى من وجود علاقة ارتباطيه ذات دلالة إحصائية بين الإدمان على الفايسبوك والوحدة النفسية لدى أفراد العينة ، وهذا ما توصلنا إليه بعد المعالجة الإحصائية ، فالجدول رقم (05) يظهر وجود علاقة ارتباطيه موجبة ذات دلالة إحصائية بين الإدمان على الفايسبوك والوحدة النفسية لدى المراهقين ، حيث بلغت(ر) المحسوبة 0.67 وهي أكبر من مستوى الدلالة 0.05 ، أي كلما زاد الإدمان على الفايسبوك زاد الشعور بالوحدة النفسية ، وهذا يعني رفض الفرضية الصفرية التي مفادها لا توجد علاقة بين الإدمان على الفايسبوك والوحدة النفسية لدى أفراد العينة ، وقبول الفرضية البديلة التي مفادها توجد علاقة

ارتباطيه بين الإدمان على الفايسبوك والوحدة النفسية لدى المراهق الجزائري القاطن بمنطقة القبائل (الجزائر)" ومن هنا يمكن القول أن الفرضية المطروحة تحققت.

ولذلك يمكن القول أن المراهق الجزائري القاطن بمنطقة القبائل والمدمن على مواقع التواصل الاجتماعي ترتفع لديه الشعور بالوحدة النفسية ، ولهذا فان الاستخدام الزائد لهذه المواقع لها أثار سلبية وعرضة لشتى أنواع الاضطرابات النفسية التي تصيب الصحة النفسية إذ تدفعه إلى سلوك نمطي معين كالانطواء أو الانسحاب أو الخمول الذي يؤدي بدوره إلى الوحدة النفسية وهذا ما أكدت عليه الكثير من الدراسات ، ومن بينها (دراسة هانج و أخرون ، 2003 ، Hang & al) التي هدفت إلى التعرف عن الإدمان على مواقع التواصل الاجتماعي وأحدث الاضطرابات السلوكية الاجتماعية والشعور بالوحدة النفسية ، وتوصل إلى أن هناك علاقة ارتباطيه بين ضعف التفاعل الاجتماعي والشعور بالوحدة النفسية ...الخ(محمد علي ، 2010 ، ص. 124).

فالمراهقين الجزائري القاطن بمنطقة القبائل هم الفئة أكثر استخداما لمواقع التواصل الاجتماعي ، وتتأثر بصورة أوسع ، لأن سلوكهم و شخصياتهم تتبلور بناءا على مدى تفاعلهم مع تلك الأداة الأمر التي تجعله متفتحا على الخبرات الجديدة ، والتي قد يكون لها تأثيرات متعددة في اتجاهات مختلفة خاصة على الصعيد النفسي ، وأكدت العديد من الدراسات التي أجريت في هذا النطاق ومن بينها **دراسة (فروستون، Froston)** على أن **(90)** من مستخدمي الانترنت هم من فئة المراهقين ، وأن ما يقارن (50) منهم مدمنون على الانترنت ويعانون من اضطرابات نفسية.

فالوحدة النفسية ترتبط بشكل كبير مع الاستخدام الزائد لمواقع التواصل الاجتماعي ، وهذا ما أثبتت عليه العديد من الدراسات أمثال **(دراسة ديتمان، 2002، Dittman)** التي بحثت عن العلاقة بين الإدمان على الانترنت ومشاعر الوحدة النفسية والعزلة ، وأسفرت نتائج الدراسة عن وجود علاقة ارتباطيه بين استخدام شبكة الانترنت والشعور بالوحدة النفسية لدى طلاب الجامعة(محمد علي ، 2010 ، ص. 422).

وبالتالي فإن أغلب الدراسات التي تناولت موضوع الإدمان على الفايسبوك والوحدة النفسية دليل على وجود مشكلة استخدام الزائد لمواقع التواصل الاجتماعي واستنادا إلى نتائجها والنتائج التي توصلنا إليها يمكن اعتبار موضوع الإدمان على الفايسبوك والوحدة النفسية واسعة الانتشار لدى المراهقين الجزائري القاطن بمنطقة القبائل (الجزائر) على اعتبار أن مواقع التواصل الاجتماعي خاصة والوسائل الإلكترونية و الاتصال عامة أصبحت في متناول الجميع.

عرض و تحليل النتائج الخاصة بالفرضية الثانية: تنص هذه الفرضية على ما يلي: توجد فروق بين الجنسين (المراهقين والمراهقات) القاطنين بمنطقة القبائل (الجزائر) فيما يخص إدمان "الفايسبوك".

أسفر نتائج حساب (T.test) للدلالة الإحصائية فيما يتعلق الفرق في الإدمان على الفايسبوك حسب الجنس (ذكور / إناث) على النتائج التالية:

جدول رقم (06) : يمثل الدلالة الإحصائية للفرق في الإدمان على الفايسبوك حسب الجنس (ذكور / إناث) لدى الجزائري القاطن بمنطقة القبائل (الجزائر).

الجنس	التكرار	المتوسط الحسابي	الانحراف المعياري	T	درجة الحرية	قيمة الدلالة المحسوبة sing	مستوى الدلالة
ذكور	136	43.83	16.53	0.67	198	0.77	0.05
إناث	64	43.15	15.42				

توقعنا من الفرضية الثالثة من وجود فروق في الإدمان على الفايسبوك حسب الجنس (ذكور/ إناث) وبعد التحليل الإحصائي تبين لنا عدم وجود فروق بين الجنسين فيما يخص الإدمان على الفايسبوك ، حيث بلغت قيمة T (0.67) وهي مرافقة لقيمة الدلالة (0.77) وهي أكبر من مستوى الدلالة (0.05)، أي أنه لا توجد فروق بين الإناث والذكور في الإدمان على الفايسبوك ، وهي غير دالة إحصائيا ، وهذا يعني قبول الفرضية الصفرية التي مفادها لا توجد فروق في الإدمان على الفايسبوك حسب الجنس (ذكور/ إناث)، ورفض الفرضية البديلة التي مفادها توجد فروق في الإدمان على الفايسبوك بين الجنسين ، إذن يمكن القول أن الفرضية المطروحة لم تتحقق ، بمعنى أن الجنسين (المراهقين والمراهقات القاطنين بمنطقة القبائل (الجزائر) مدمنون بنفس الدرجة على "الفايسبوك".

بينت نتائج هذه الفرضية أنه لا توجد فروق دالة إحصائيا بين الجنسيين) المراهقين والمراهقات القاطنين بمنطقة القبائل(الجزائر)، فيما يخص إدمان "الفايسبوك". بمعنى أن كلا الجنسين مدمنون بنفس الدرجة على "الفايسبوك" ، ولو أن حسب أرينا الاهتمامات تختلف بين الجنسين وكل منهما يسعى إلى إشباع رغباته بطريقته ، إلا أنه نجد أن درجة إدمان الذكور نفسها مع درجة إدمان الإناث. فبعد أن كانت الإناث في الماضي يهتمن بدراستهن ولديهن شغف للقيام بالأشغال المنزلية ، أصبحن اليوم يتمتعن بقضاء معظم أوقاتهن على"الفايسبوك" ، أين ينشئن صداقات جديدة في تسلي بالدردشة والتواصل معهم ويتجسسن ربما على الآخرين ، ويتطلعن على أخر صيحات الموضة من لباس وماكياج متواجدة عل صفحات خاصة بها ، ويهتمن بالتطلع و التفطن لكل ما هو جديد من وقائع وأحداث. أما الذكور فيقضون معظم أوقاتهم في وضع صورهم على هذا الموقع والدخول في جماعات ، وكما يقومون بنشر ما هو جديد عنهم من فيديوهات وصور في أي مناسبة من المناسبات ، ويتفرغون خاصة للعب المشترك مع أصدقائهم عبر موقع "الفايسبوك" ، ويتصفحون مشاهير الأفلام و كرة القدم ، الخ

وتتفق نتائج هذه الفرضية مع دراسة **مريم ماركشي (2014)** ودراسة **عزة مصطفى الكحكي (2010)** ودراسة **عبد الكريم سعودي (2014)** التي تؤكد على عدم وجود فروق بين الجنسين فيما يخص إدمانهم على "الفايسبوك ."

عرض و تحليل النتائج الخاصة بالفرضية الثالثة: تنص هذه الفرضية على ما يلي: توجد فروق بين الجنسين (المراهقين والمراهقات) القاطنين بمنطقة القبائل (الجزائر) فيما يخص الوحدة النفسية.

جدول رقم (07): يمثل الدلالة الإحصائية للفرق في الوحدة النفسية حسب الجنس (ذكور/ إناث) لدى الجزائري القاطن بمنطقة القبائل (الجزائر).

الجنس	التكرار	المتوسط الحسابي	الانحراف المعياري	T	درجة الحرية	قيمة الدلالة المحسوبةsing	مستوى الدلالة
ذكور	136	81.96	18.97	0.61 .	198	0.53	0.05
إناث	64	73.43	16.87				

توقعنا من الفرضية الثالثة من وجود فروق في الوحدة النفسية حسب الجنس (ذكور/ إناث) و بعد التحليل الإحصائي تبين لنا عدم وجود فروق بين الجنسين فيما يخص الوحدة النفسية ،حيث بلغت قيمة T (0.61.) وهي مرافقة لقيمة الدلالة (0.53) وهي أكبر من مستوى الدلالة (0.05)، أي أنه لا توجد فروق بين الإناث والذكور في الوحدة النفسية ، وهي غير دالة إحصائيا ، وهذا يعني قبول الفرضية الصفرية التي مفادها لا توجد فروق في الوحدة النفسية حسب الجنس (ذكور/ إناث)، ورفض الفرضية البديلة التي مفادها توجد فروق في الوحدة النفسية بين الجنسين ، إذن يمكن القول أن الفرضية المطروحة لم تتحقق.

ومن خلال النتائج المعروضة سابقا والخاصة بالفرضية الثانية التي نصت على وجود فروق في الوحدة النفسية حسب الجنس لدى المراهقين الجزائريين القاطنين بمنطقة القبائل (الجزائر)، أي أنه لم يتم الوصول حقا إلى وجود فروق بين الجنسين فيم يخص الوحدة النفسية.

وتدعم هذه النتيجة كل من (**نيوكمبو بنتلر، 1986، Newcomb Benther**) في دراسته التي كانت ضمن أهدافها الأساسية المقارنة بين المراهقين من الجنسين في درجة الشعور بالوحدة النفسية والمساندة الاجتماعية لدى المراهقين ، وكان أهم ما انتهت إليه هذه الدراسة من نتائج هو أنه لا توجد فروق دالة إحصائيا بين المراهقين من الإناث والذكور في كل من الشعور بالوحدة النفسية والمساندة الاجتماعية ، بالإضافة إلى دراسة قام بها (**روتنبرج و اخرون ،2004، Rotenberg**) بهدف معرفة العلاقة بين الوحدة النفسية والثقة بالآخرين في مرحلة الطفولة المتوسطة ، وكشفت نتائج الدراسة عدم وجود فروق بين الجنسين في مستوى الشعور بالوحدة النفسية (أمال عبد القادر جودة ، 2005 ، ص.789).

رغم وجود من العديد من الدراسات التي أكدت من وجود فروق في درجات الشعور بالوحدة النفسية حسب الجنس ، لكن من جهة أخرى هناك من الدراسات التي نفت من وجود تلك الفروق ، وهذا ما ذهب إليه (**أماني عبد المقصود عبد الوهاب، 1998**) في دراسته التي هدفت إلى الكشف عن تأثير متغيرات الجنس والمعالجة ونوع الرعاية على الشعور بالوحدة النفسية ، وأسفرت نتائج الدراسة عن وجود تأثير دال إحصائيا لمتغير الجنس ونوع الرعاية في الشعور بالوحدة النفسية. (أمل الأحمد ، 2013 ، ص. 34).

ويمكن تفسير هذه النتيجة بان الشعور بالوحدة النفسية تنشا لدى المراهقين الذكور والإناث على السواء بسبب الظروف المتشابهة التي يمرون بها ، وأساليب التنشئة الاجتماعية التي لم تعد تميز بين الذكور والإناث.

ونظرا لأننا نعيش في عصر تساوت فيه إلى حد ما أساليب تعامل الوالدين مع المراهقين الذكور والإناث على السواء ، حيث لم تعد توجد أساليب للتفرقة فيما بينهما ، فيمكن لنا أن نتصور عدم وجود فروق فيما بينهما فيما يتعلق بردود أفعالهما على ما يتعرضون له من احباطات وصدمات نفسية. فالوحدة النفسية هي رد فعل يقوم به المراهق مهما كان جنسه ، نتيجة لما يتعرض له من إحباط لحاجة إلى الألفة والتواصل الاجتماعي مع الآخرين.

خاتمة:

تم في هذه الدراسة من خلال الشطر النظر ي و الشطر التطبيقي محاولة الإحاطة بموضوع إدمان المراهقين لمواقع التواصل الاجتماعي (الفايسبوك نموذجا) وعلاقته بالوحدة النفسية ، ومحاولة تقديم تفسيرات للنتائج المتحصل عليها ، ويبقى ذلك رهين عينة الدراسة و خصائصها ، لهذا النتائج نسبية و محدودة ، حيث لا يمكن تعميمها نظار لعدم تمثيل أفارد العينة.

ورغم ذلك بينت النتائج أن "الفايسبوك" له أثر كبير في المشكلات النفسية والاجتماعية لدى المراهقين ، حتى لو أنه تتيح لديه التواصل بسهولة مع الغير ، إلا أنه يجعله يبحر في هذا العالم الافتراضي دون أن يحس بالوقت الذي يقضيه أمام"الفايسبوك" والاستخدام المفرط لحساب هذا الموقع يجعله يضيع الوقت ويهمل بعض الأمور أكثر أهمية وواجباته ، فيقلص الحوار والجلوس مع أفراد أسرته وأصدقائه وجيرانه ، و يؤثر سلبا على جوانب عدة من حياته النفسية- الدراسية- الدينية- الثقافية و خاصة الأسرية والاجتماعية.

والملاحظ أن المشكل لا يكمن في استعمال كذا مواقع وإنما يكمن في كيفية استعمالها ،لأن استغراق ساعات طويلة أمام "الفايسبوك" يؤثر سلبا على حياة المراهق ويؤدي به إلى الإدمان خاصة وأن هذه المرحلة تعتبر مرحلة عواصف وتغيرات ولكن معرفة المراهق كيفية استعمال واستغلال هذه المواقع عامة والفايسبوك خاصة والمدة التي يستغرقها معه ستؤثر إيجابا عليه.

وعلى ضوء ما تعرضنا إليه في هذه الدراسة ، نقترح ما يلي:

- ضرورة إدخال الأبناء المراهقين إلى نوادي رياضية لعدم الاستعمال المفرط للفايسبوك'.
- ضرورة الاهتمام بموضوع هذه الدارسة و علاقته ببعض المتغيرات النفسية الأخرى.
- إجراء دارسة مقارنة بين مدمني "الفايسبوك" والمستعملين العاديين على الوحدة النفسية.
- تعليم المراهقين كيفية استغلال مواقع التواصل الاجتماعي "الفايسبوك" في تعزيز الثقافة عن بعد.
- ضرورة مراقبة الأولياء لأبنائهم المراهقين عند استعمالهم لمواقع التواصل الاجتماعي "الفايسبوك."

قائمة المراجع:

- السيد خضر علي محروس الشناوي(1988)، الشعور بالوحدة النفسية والعلاقات الاجتماعية المتبادلة"، مجلة دراسات الخليج ، ع(22)، مجلس النشر العلمي ، جامعة الكويت.
- أمل أحمد(2013)، الوحدة النفسية وعلاقتها بالاكتئاب عند الأطفال ، مجلة جامعة دمشق ، م (29)، ع (01). دمشق.
- أيمن احمد بن ناصر الحمدي (2014)، دور شبكات التواصل الاجتماعي في دعم المنظومة التعليمية لدى طلاب ، مذكرة ماجستير ، كلية التربية ، جامعة أم القرى. مكة المكرمة.
-تقرير الإعلام الاجتماعي العربي(2011)، الامارت العربية المتحدة ، كلية دبي للإدارة الحكومية ، الإصدار الثاني.
- جودة جمال عبد القادر(2005)، الوحدة النفسية وعلاقتها بمفهوم الذات لدى الأطفال في محافضة غزة ، رسائل ماجستر علم النفس العيادي ، جامعة الأقصى ، غزة.

- رشا مرتضي وفادي سالم (2011)، تقرير الإعلام الاجتماعي العربي. الإعلام الاجتماعي والحارك المدني: تأثير الفايسبوك وتويتر ، برنامج الحكومة والابتكار ، كلية دبي الحكومية.
- سعدية بهادر(1980)، سيكولوجية المراهقة ، دار البحوث العلمية ، القاهرة.
- شاحب أحمد (2017)، أثر استخدام مواقع التواصل الاجتماعي على الشعور بالوحدة النفسية (الفيسبوك نموذجا)، مذكرة ماستر في علم النفس التربوي ، قسم علم النفس والفلسفة ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية ، جامعة زيان عاشور الجلفة ، الجزائر.
- شقير زينب (2002). "الشخصية السوية والمضطربة" ،(ط2)، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة.
- عبد الرحمن عمار (2014)، جمهورية الفايسبوك السلطة الافتراضية. دار بغدادي للنشر و الطباعة و التوزيع ، الجزائر.
- عبد الصادق حسن عبد الصادق (2014)، تأثير استخدام الشباب الجامعي في الجامعات خاصة البحرينية لمواقع التواصل الاجتماعي على استخدامهم وسائل الاتصال التقليدية. المجلة الأردنية للعلوم الاجتماعية. المجلد7. العدد1. الأردن.
- عبد الكريم سعودي (2014). إدمان الفايسبوك وعلاقته بالتوافق الأسري للطالب الجامعي.د دراسة على عينة من طلبة جامعة بشار. دراسات نفسية و تربوية ، مخبر تطوير الممارسات النفسية والتربوية. ع(13). جامعة بشار ، الجزائر.
- محمد النوبي محمد علي (2010)، مقياس الإدمان على الإنترنت لدى طلاب الجامعة الموهوبين كلية التربية. (ط1)، دار الصفاء للنشر والتوزيع ،عمان.
- محمود الفطافطة (2011)، علاقة الإعلام الجديد بحرية الأري والتعبير في فلسطين ، .فلسطين: المركز الفلسطيني للتنمية والحريات الإعلامية.
- Stienfield,C,Dimmico,J,Ellison,W & Lampe,C (2009),Bowling Online :Social Network and Social Capital Within Organization,Parc 4th Communities and Technology Conference.

الملحق رقم (01)

مقياس الإدمان على "الفايس بوك"

التعليمة:

العبارات التالية تشير إلى مدى استخدامك لل"فايسبوك" ، و أمام كل عبارة هناك خمس خيارات (نادرا جدا ، أحيانا ، غالبا ، دائما) المطلوب منك:

- أن تقرا كل عبارة بتمعن و تضع إشارة (x) أمام العبارة تحت احد الاختيارات.
- لا تضع أكثر من إشارة أمام العبارة الواحدة.
- الجنس:..... - السن:.....
- عدد الإخوة:..... - عدد أفراد العائلة:.....
- الترتيب بين الإخوة:..... - المستوى الدراسي:.....
- عدد ساعات استخدامك لل"فايس بوك": اقل من ساعة أكثر من ساعة 4 ساعات فأكثر
- مدة استخدامك لل"فايس بوك": اقل من 6 أشهر سنة أكثر من سنة
- وسيلة التواصل: جهاز كمبيوتر ثابت جهاز كمبيوتر متنقل تابليت(tablette) هاتف نقال

الرقم	العبارات	نادرا جدا	نادرا	أحيانا	غالبا	دائما
01	هل تمضي الكثير من الوقت تفكر في "الفايس بوك" أو تخطط لاستعماله ؟					
02	هل فكرت حول كيف يمكنك تفريغ المزيد من وقتك لتقضيه على "الفايس بوك"؟					
03	هل تفكر كثيرا حول ما حدث في "الفايس بوك" عند غيابك ؟					
04	هل أمضيت وقتا كثيرا في "الفايس بوك" متعمدا ؟					
05	هل شعرت برغبة ملحة في استعمال "الفايس بوك" أكثر ؟					
06	هل شعرت برغبة ملحة في استعمال "الفايس بوك" أكثر فأكثر من اجل الحصول على نفس المتعة ؟					

07	هل استعملت "الفايس بوك" من اجل نسيان المشاكل الشخصية ؟					
08	هل استعملت "الفايس بوك" للتقليل من الشعور بالذنب- القلق- العجز- الاكتئاب ؟					
09	هل استعملت "الفايس بوك" للتقليل من الضجر ؟					
10	هل نصحك الآخرون عن تجربة بان تقلل من استعمال "الفايس بوك" لكن لم تستمع لهم ؟					
11	هل حاولت التقليل من استعمال "الفايس بوك" لكن لم تنجح ؟					
12	هل قررت التقليل من استخدام "الفايس بوك" لكن لم تتمكن من القيام بذلك ؟					
13	هل أصبحت قلقا أو مضطربا إذا حرمت من استعمالك "للفايس بوك"؟					
14	هل تصبح سريع الغضب إذا حرمت من استعمال "الفايس بوك"؟					
15	هل شعرت بالسوء و لأسباب مختلفة إذا لم تتمكن من تسجيل دخولك "للفايس بوك" لبعض الوقت ؟					
16	هل استعملت "الفايس بوك" كثيرا لدرجة انه كان له اثر سلبي على دراستك ؟					
17	هل أعطيت أولوية اقل للهوايات ، النشاطات و التمارين الترفيهية بسبب "الفايس بوك"؟					
18	هل أهملت أفراد عائلتك أو أصدقائك بسبب "الفايس بوك"؟					

الملحق رقم (02)

مقياس الوحدة النفسية

التعليمة :

يعرض عليك فيما يلي مجموعة من العبارات التي يمكن أن يشعر بها أي منا في مواقف الحياة اليومية ، يوجد أمام كل عبارة من هذه العبارات أربع خانات تحتوي على درجة ما يمكن أن تشعر به حقيقة.

المرجو منك أن تقرأ كل عبارة من هذه العبارات بدقة ثم تبدي رأيك فيها بوضع العلامة (X) في الخانة التي ترى أنها تعبر عن رأيك من بين الخانات الأربع المقترحة.

علما أنها لا توجد إجابات صحيحة وأخرى خاطئة ، والإجابة تعتبر صحيحة -فقط- عندما تعبر عن حقيقة شعورك إتجاه المعنى الذي تحمله العبارة.

الرقم	العبارات	معظم الأحيان	بعض الأحيان	نادرا	لا اشعر على الإطلاق
01	أشعر أنني غير قادر على الانتماء لنادي أو جماعة ما.				
02	أشعر أنه لا يوجد الإنسان الذين يهتم فعلا بمشاكل الآخرين.				
03	أشعر أن الآخرين يتعمدون إقصائي عنهم ووضع العراقيل في سبيل وجودي معهم.				
04	أنتظر دائما أن يحادثني الاخرين وأن يكتبوا إلي.				
05	أشعر بأنني بحاجة إلى الحب أكثر من حاجتي إلى أي شيء أخر.				
06	لا يوجد في حياتي شخص أستطيع أن أعبر له عن مشاكلي.				
07	أشعر أنه لا يوجد بين المحيطين بي من يشاركني آرائي أو يتفق ميوله مع ميولي.				

08	يصعب علي تكوين الصداقات				
09	نادرا ما أشعر بالحب من جانب المحيطين بي.				
10	أشعر بالملل والإجهاد في كثير من الاحيان.				
11	أشعر أن الآخرين يتجنبونني.				
12	أشعر أنني لا أستطيع أن أصارح شخص بكل ما يدور في ذهني.				
13	أعتقد أن الحب الصادق/الحقيقي قد أصبح عملة نادرة في هذه الأيام.				
14	كثيرا ما انسى نفسي في أحلام اليقظة.				
15	لا أجد من أستطيع أن أتحدث معهم في أسراري/مشاكلي الخاصة.				
16	أشعر أنني أفتقد الحب من جانب معظم الذين يعرفونني.				
17	أجد صعوبة كبيرة في أن أركز ذهني في عمل ما.				
18	أشعر أن علاقاتي الاجتماعية علاقات سطحية.				
19	أشعر أنني غريب عن من حولي.				
20	أشعر بعدم وجود شيء ما يربطني بالآخرين.				
21	أشعر بأنني أفتقد الصداقة الحقيقية.				
22	أستقبل أيام العطل بملل شديد.				
23	أشعر أن حياتي الحالية ليس لها قيمة أو هدف.				
24	أشعر أنني وحيد دائما.				
25	أجد صعوبة كبيرة في الاندماج مع الآخرين.				
26	أشعر بعدم قدرتي على فهم المحيطين بي أو التفاهم معهم.				
27	أجد صعوبة في استثمار وقتي في أمور مفيدة.				
28	أشعر بانني منعزل عن من هم حولي.				
29	لم ألتقي حتى الآن بإنسان أستطيع أن أثق فيه.				
30	أشعر أن كل إنسان يهتم بمصالحه الخاصة.				
31	أشعر أنني لست على علاقة وثيقة بأحد.				
32	أشعر بالعزلة عن من حولي رغم وجودي بينهم.				
33	أشعر بأنني وحيد رغم كثرة معارفي.				
34	أشعر أنه لا يوجد من أستطيع أن أتجه إليه عندما أريد.				

الإدمان على الانترنت وعلاقته بالتوافق الأسري لدى الشباب الجزائريين القاطنين بمنطقة القبائل- دراسة ميدانية على فئة من الشباب القبائل ببلد الجزائر-

Internet addiction and its relationship to family adjustment among Algerian youth in the kabylia region- Field study on a group of young in Kabylia in Algeria —

ط د. مونية زريول
د. محدب رزيقة
ط د. قاضي صاري
جامعة مولود معمري- تيزي وزو-الجزائر

مقدمة وإشكالية الدراسة:

تعتبر التطورات التكنولوجية سمة من سمات عصرنا هذا، وشريان هام يعتمد عليه المجتمع في معظم مجالاته، وتعد الشبكة المعلوماتية أو الانترنت من أبرز هذه التطورات التكنولوجية الحديثة التي منحت للبشرية مجموعة من فوائد وخدمات كثيرة لا نستطيع إنكارها، ولكن في نفس الوقت هي عبارة عن سلاح ذو حدين، لها أثار سلبية يمكن أن نسميها أو نعبر عنها بمصطلح ضريبة التكنولوجيا، ومن أبرز هذه الآثار نجد الإدمان على الانترنت وما يرتبط به وينتج عنه من أثار نفسية واجتماعية واقتصادية.

وقد اعتبرها **(Ivan Goldberg) (1995) (إيفان جولدن بيرج)** ظاهرة حديثة، فهو أول من تحدث عن موضوع إدمان الانترنت وأطلق عليه هذا التعبير **(Internet Addiction)** وذلك عام (1995) وما إن أطلق هذا المصطلح حتى ظهرت أراء مؤيدة له، وأخرى معارضة له بشكل أو بأخر حيث أن بعضهم يرى أن مصطلح الإدمان يطلق فقط على إدمان المخدرات أو المواد الكحولية مثلا، فأدى هذا الأمر إلى اختلاف المسميات بين العلماء، فبعضهم استخدم مصطلح إدمان الإنترنت **(Internet Addiction)** وبعضهم استخدم مصطلح إساءة استخدام الانترنت **(Internet Abuse)** والبعض الأخر استخدم مصطلح الانترنت المرضي **(Internet Pathological Use)** (Peter . k , 1996 ,p. 120)

فالإدمان على الانترنت يتعلق بحالة الشخص الذي لا يستطيع مقاومة رغبته في الاتصال بشبكة الانترنت فتظهر عليه أعراض اضطرابية في حالة التوقف أو التقليل من استخدامه، كما يتميز بأعراض إنسحابية ومشكلات نفسية وأكاديمية ومهنية واجتماعية(محمد علي، 2010، ص. 114).

وهذا ما أثبتته العديد من الدراسات لكثير من العلماء أمثال دراسة **(الخشمي سار صالح) 2010)** التي تشير نتائجها إلى أن الاستخدام المفرط للإنترنت له أثار سلبية على مستخدميها منها انخفاض المستوى الدراسي، كذلك مشكلات صحية كالإجهاد البصري، ألام الرقبة والظهر، زيادة الوزن (الخشمي سار صالح، 2010، ص.22).

بالإضافة إلى دراسة **(Brenner) (1997) (برينر)** الذي قام ببناء استبيان يتضمن قائمة سلوكيات مرتبطة بالإدمان على الإنترنت مكون من **(32)** بندا صيغ بنمط الصواب والخطأ قام على أساس المعايير السلوكية

لسوء استخدام العقاقير الواردة في (DSM-IV)، وقد أقر **(برينر)** أن المقياس أحرز تجانسا داخليا جيدا، وقد قام بتطبيق الاستبيان على**(563)** فرد، ووجد أن المستخدمين الصغار صرحوا بمشكلات أكثر من الراشدين الرغم من أنهم يقضون وقتا طويل على شبكة الانترنت أكثر من المستخدمين الكبار وقد تتبعت **(يونغ) (1996)** الأعراض الدالة على الإدمان الانترنت، وتوصلت إلى مجموعة من المؤشرات حيث أشارت إلى أن بعض المدمنين على الانترنت يشعرون بالاكتئاب والإحباط والعزلة، إضافة إلى فقدان الكثير من الهوايات الترفيهية والاجتماعية، والتعرض إلى المشاكل في العائلة والعمل والعلاقات المدرسية، وبالرغم من عدم وجود معايير معينة لإدمان الانترنت في الدليل التشخيصي للاضطرابات النفسية والعقلية في الطبعة الرابعة(DSM-IV)، فقد قامت **(يونغ)** بتعديل المعايير الخاصة بالمقامرة المرضية حتى تتناسب مع الإدمان على الانترنت، وكان معيار التمييز بين المدمنين وغير المدمنين، هو أن يجيب على خمس فقرات أو أكثر ب(نعم) يعتبر مدمن (Young and Rodgers, 1998 , p. 65).

وكثير من الباحثين أشاروا إلى أن الاستخدام المفرط لشبكة الانترنت قد غيرت أنماط حياة الشباب المراهقين وطريقة تواصلهم الاجتماعي مع مجتمعاتهم الافتراضية والحقيقية ،وهناك من يرى أن المجتمع الافتراضي يفقد الشخص القدرة على التفاعل والتعامل مع واقع الحياة الاجتماعية ومع الناس من حوله، مما يؤدي إلى تدني مستويات التوافق الاجتماعي لدى المستخدم، والذي قد يؤثر خاصة على التوافق الأسري الذي يعتبر بعد من أبعاد التوافق النفسي، والذي يعتبر قدرة يتمتع بها أفراد الأسرة للانسجام معا، وإحساسهم بالسعادة والراحة في نطاق الحياة الأسرية، وإقامة علاقات اجتماعية متبادلة مع الآخرين والتي تتسم بالحب والعطاء من ناحية والعمل المنتج الذي يجعل من الفرد شخصا فعالا في محيطه الاجتماعي من ناحية أخر ى.

إذ يؤثر نظام الأسرة كعالم داخلي للتنشئة عند تفاعله بالبيئة المحيطة كممثل للعالم الخارجي للتنشئة على شخصية الفرد في جميع جوانبها المختلفة وخاصة لدى الشباب وتوجهاتهم الشخصية أو الاجتماعية أو السياسية، وبالتالي فالتوافق الأسري جزء لا يتجزأ من الصحة النفسية للمراهق، لذا فأي خلل يعتلي التوافق الأسري للمراهق ينعكس على صحته النفسية، وما يلاحظ أن التوافق الأسري كمظهر من مظاهر الصحة النفسية السليمة أصبح أكثر عرضة للتصدع والتفكك نظرا لكثير من العوامل، من بينها ضعف التواصل بشكله التقليدي بين أفراد الأسرة نظرا للانشغالات المادية اليومية لكثير من أفراد الأسر من جهة وظهور وسائل تكنولوجية جديدة ، حيث وصل الكثير من مستخدميها إلى درجة الإدمان، وهذا ما أدى بالباحثين إلى دراسة هذه الظاهرة والعوامل المؤدية إلى ذلك، وكذا تأثير استعمال هذه الوسائل على الحياة النفسية والاجتماعية للأفراد والمجتمعات، ومن بين أكبر فئات المجتمع تناولا في الدارسات هم الأكثر ترددا على شبكة الانترنت وهم فئة المراهقين، أين تعد هذه المرحلة من أخطر الم ارحل التي يمر بها الإنسان ضمن أطره المختلفة، بحيث يكمن الخطر في تغيرات مظاهر النمو المختلفة، فيتعرض هذا المراهق إلى صراعات متعددة منها داخلية وخارجية، ما يجعله يتردد إلى مواقع الانترنت، لهذا تمَّ التركيز في هذه الدراسة على مفهوم إدمان الانترنت الذي يعتبر ظاهرة نفسية اجتماعية تمس فئة الشباب الجزائريين، وهذا ما دفعنا للاهتمام به لدى فئة الشباب وعلاقته بالتوافق الأسر ي، حيث تم دارسته في منطقة القبائل، وذلك من خلال طرح التساؤلات التالية:

1- هل توجد علاقة بين الإدمان على الانترنت والتوافق الأسري لدى الشباب الجزائريين القاطنين بمنطقة القبائل

2- هل توجد فروق فيما يخص الإدمان على الانترنت تعزي متغير الجنس (الشباب والشابات بمنطقة القبائل ببلد الجزائر)

3- هل توجد فروق فيما يخص الإدمان على الانترنت تعزي متغير الجنس (الشباب والشابات القاطنين بمنطقة القبائل ببلد الجزائر)

أهداف الدراسة:

1- التعرف على العلاقة الموجودة يسن الإدمان على الانترنت والتوافق الأسري لدى أفراد العينة.

2- التعرف لذا كانت توجد فروق بين الجنسين (الشباب والشابات) فيما يخص كل من الإدمان على الانترنت والتوافق الأسري.

أهمية الدراسة:

1- تفيد هذه الدراسة إلى إثراء المكتبة العلمية كدراسة سابقة لدراسات لاحقة في نفس الموضوع.

2- تعتبر هذه الدراسة بمثابة نموذج تحليلي لوضعية الشباب المدمنين على الانترنت ومعرفة إن كان له تأثير على توافقهم كالأسري.

أولا. **الإطار النظري للدراسة.**

الإدمان على الانترنيت:

تعريف الإدمان على الانترنيت:

حسب (يونغ) (1996) هو اضطراب التحكم في اندفاعات استخدام الانترنت بدون هدف مقصود ، والذي لا يتضمن السكر أو فقدان الوعي(Young. K ,1996, P7).

كما عرفه(Ward) (2000) (وارد) أنه سلوك مرتبط باستخدام الانترنت كالإفراط في الوقت المنقضي عليه ، استبدال العلاقات الحقيقية الواقعية بعلاقات سطحية افتراضية ، والتي غالبا ما تخبرنا بأنها شخصية ، وهي حس افتقاد الوقت ، وتشكيل أنماط متكررة من مخاطر المشكلات الاجتماعية والشخصية(Ward.D, 2000, P54).

إذن ومن خلال التعارف السابقة نستنتج أن إدمان الانترنت هو تعود الفرد المستمر ومكوثه وقت طويل في تصفح شبكة الانترنت ويفضله على النشاطات الأخرى والعلاقات الاجتماعية ومن ثم يبعده عن الآخرين بشكل ملفت للنظر.

مراحل الإدمان على الانترنت: قدم عالم النفس**(كروهل، 2003، Grohol)** نموذجا حدد فيه ثلاث مراحل يمر بها الأفراد ليصلوا إلى حد الإدمان على الانترنت وهي(عن رامي لطفي الكلاوي ، 2006 ، ص. 477):

مرحلة الإستحواذ أو الإفتتان(Enchantment or obsession): يحدث عندما يكون الفرد وافدا جديدا على الانترنت وأنه مستخدم جديد يحدث نشاطا جديدا ، وهذه المرحلة تمتاز بأنها مسببة للإدمان الأفراد على الانترنت بدرجة عالية حتى الوصول إلى المرحلة الثانية.

مرحلة التحرر(Disillusionment Stage): في هذه المرحلة يصبح الفرد غير مهتم بالنشطات التي كانوا يقومون بها سابقا ، وحالما يصل الفرد إلى هذه المرحلة يمكنه أن يصل بسهولة إلى المرحلة الثالثة.

مرحلة التوازن(Balance Stage): وفي هذه المرحلة يتخلص من الاستخدام المعياري للإنترنت ، ويكون الوصول إليها في فترات مختلفة من قبل الأفراد ، وهذه المرحلة تعيد دورتها إذا وجد الفرد نشاطا جديدا ومثيرا أخر.

أسباب إدمان الانترنت(علي عبد الله ، 2004 ، ص. 104):

السرية: إن الإمكانيات التي توفرها الانترنت في الحصول على المعلومات والتعرف على الأشخاص دون الحاجة إلى تعرف النفس بالتفاصيل الحقيقية توفر شعورا لطيفا بالسيطرة إلى جانب ذلك ، فإن المقدرة على ظهور كل يوم بشكل أخر حسب اختيارنا تعتبر تحقيق لحلم جامح عند الكثيرين.

الراحة: الانترنت هي وسيلة مريحة للغاية لأنها موجودة بكل مكان وتسهل تحصيل المعلومات التي لم تكن لنقدر أن تحصل عليها بدون الانترنت.

الهروب: يوفر الانترنت الهروب من الواقع الحقيق إلى الواقع البديل.

مفهوم التوافق الأسري:

تعريف التوافق الأسري: التوافق الأسري هو قدرة أفراد الأسرة على الانسجام معا وإحساسهم بالسعادة والراحة في نطاق الحياة الأسرية ، وإقامة علاقات اجتماعية متبادلة مع الآخرين تتسم بالحب والعطاء من ناحية والعمل المنتج الذي يجعل الفرد شخصا فعالا في محيطه الاجتماعي من ناحية أخرى (غزلان ، 2009 ، ص. 44). هذا التعريف يركز على تفاعل وتوافق أفراد الأسرة مع بعضهم البعض.

ويورد عبد الحميد (1986)عدد من العلاقات الداخلية أو الأفعال الاجتماعية التي تعبر عن التوافق والتكيف الأسري وتؤدي بدورها إلى مزيد من التوافق أو سوء التوافق وهي: (عبد الكريم سعودي ، 2014 ، ص. 46).

التعاون: وهو العملية التي تربط بين أعضاء الجماعة الاجتماعية لتحقيق الهدف أو الأهداف المشتركة لها ، والتعاون بهذا المعنى يفترض انه السمة المميزة للأسرة إي كان نوعها أو نمطها.

التنافس: وهو العملية الاجتماعية التي يستخدمها بعض أعضاء الجماعة الاجتماعية للحصول على مكانة معينة أو التميز في معاملة من المعاملات وقد يؤدي بعض أنواع التنافس إلى الانحراف والتفكك.

الصراع: وهو العملية الاجتماعية التي تختلف عن عملية التنافس فالتنافس يأخذ عادة مظاهر سلميا ، حتى إذا ما تغير الوضع واخذ مظاهر عدائيا يحل محله الصراع.

ويقصد في هذه الدراسة بمفهوم التوافق الأسري إجرائيا هو تلك الدرجة التي يتحصل عليها المراهق من خلال إجابته على بعد التوافق الأسر ي المأخوذ من **مقياس التوافق النفسي**" لزينب محمود شقير "الذي قامت بتقنينه الباحثة "لطيفة جماح "من جامعة المسيلة على البيئة الجزائرية(2017).

العوامل المؤثرة على التوافق الأسري(نقلا عن: غزلان ، 2009 ، ص.37):

العوامل الاجتماعية: حيث تتأثر العلاقات الأسرية تبعا للأحداث الاجتماعية المحيطة بالأسرة وبالفرد المنتمي إليها ، ومن ذلك تأثير العادات والتقاليد السائدة في البيئة المحيطة.

العوامل الشخصية: المتعلقة بالأفراد كالسمات المزاجية وحتى الصفات المرتبطة بالوارثة التي تحدد ردود الفعل الانفعالية وأيضا الصراع الداخلي الناتج عن اختلاف السمات المزاجية، كما تشمل الاستجابات المكتسبة عن طريق الفرد في وضع اجتماعي خاص.

العوامل المادية: تحدد العوامل المادية المعاملات الواقعية اليومية بين أفراد الأسرة وتشكل عاملا مهما في الكثير من الأسر.

مفهوم الشباب: وفي هذه الدارسة يقصد بالمراهقين (ذكور /إناث) الذين يترددون في تفحص الانترنت والذين تتراوح أعمارهم بين 18-21سنة.

ثانيا. الإطار العملي للدارسة:

الدارسة الاستطلاعية: فيعرفها **جمال محمد أبو شنب (2000)** أنها مرحلة تمهيدية تسبق التطبيق الفعلي لأدوات الدراسة ويرتبط الهدف من القيام بها استكشاف أو استطلاع الوضع الخاص بظاهرة ما(مروان عبد المجيد ،2006 ، ص. 163). فهي من أهم الخطوات المنهجية المعتمدة ، بحيث تمكن الباحث من ضبط عدة متغيرات الخاصة ببحثه ، كما أنها تهدف إلى الاطلاع والكشف عن الظروف المحيطة بالظاهرة التي هي موضع الدراسة ليتمكن الباحث من صياغة دقيقة وذلك تمهيدا لبحثه بحثا متعمقا في مرحلة الدراسة الأساسية(محمد حسن غانم ، 2004 ، ص. 117)، يمكننا اعتبار أن الدراسة الاستطلاعية الخاصة بهذا البحث أنها عبارة عن صورة مصغرة للبحث وهي تهدف إلى التعرف على النقاط التالية:

1- التأكد من وضوح التعليمة المستعملة في أدوات البحث.

2- التعرف على منهج البحث.

3- التأكد من تلاؤم عبارات أدوات البحث مع عينة البحث .

4- التأكد من الفهم اللغوي لعبارات أدوات البحث.

5- ضبط الوقت اللازم والمستغرق للإجابة على المقاييس من طرف الشباب.

ومن النتائج المتوصل إليها من خلال هذه الدراسة:

1- تم التأكد من صدق الأداتين المستعملة في هذه الدراسة وفهم بنودها.

2- تم فيها استخراج عينة من الشباب الذين يترددون على تفحص الانترنت.

3- وتم الوصول إلى (263) شابا مترددا على تفحص الانترنت–بمنطقة القبائل-، وكذلك تم تبني مقياس الإدمان على الانترنت ، ومقياس التوافق الأسري كأدوات لهذه الدراسة بعدما تبين ملائمتها لها.

منهج الدارسة: تم الاعتماد في الدراسة الحالية على المنهج الوصفي وهو المنهج الأكثر استخداما في الدراسات النفسية والاجتماعية والتربوية ، وتبين أنه من المناسب استخدامه في هذه الدراسة لأنه يعتمد على دراسة الظاهرة كما توجد في الواقع والوصول إلى نتائج دقيقة والتمكن من تفسيرها وتأويلها.

المعاينة:

المجتمع الأصلي للدارسة: يمثل مجتمع الدراسة كل الشباب (ذكور/إناث) الذين يرددون في تفحص شبكة الانترنت القاطنين بمنطقة القبائل (الجزائر).

حجم عينة الدارسة: بلغ حجم عينة الدارسة (263) شابا متصفح لشبكة الانترنت بمنطقة القبائل.

طريقة اختيار العينة: اخترت العينة بطريقة قصديه تعتبر هذه الطريقة من المعاينات الاحتمالية ويقصد بها سحب عينة من مجتمع البحث بانتقاء العناصر المقيدة طبقا لنسبتهم في هذا المجتمع ومن أهم خصائص الدراسة الأساسية أنهم من الشباب المتصفحين لشبكة الانترنت القاطنين بمنطقة القبائل (الجزائر).

حدود الدارسة: تم إجراء الدراسة منطقة القبائل ولاية تيزي وزو ببلد الجزائر في شهر جوان 2019.

خصائص عينة الدارسة: للعينة عدة خصائص منها:

الجنس:

جدول رقم (01): يمثل جنس المراهقين المترددين على موقع التواصل الاجتماعي "الفايسبوك".

الجنس	التكّرارات	النّسبة ٪
ذكور	89	%33.84
إناث	174	%66.15
المجموع	263	%100

من خلال هذا الجدول نستنتج أعلى نسبة فيما يخص الجنس هن الإناث أين تتراوح نسبتهن66.15% ، أما الذكور فنسبتهم تقدر ب 33.84%.

السن:

جدول رقم (02): يمثّل سن الشباب المترددين على الانترنت.

السن	التكّرارات	النّسبة ٪
من 18 إلى 19	167	% 63.49
من 20 إلى 21	96	% 36.50
المجموع	263	%100

من خلال هذا الجدول ، نستنتج أن معظم الشباب المترددين على شبكة الانترنت تتراوح أعمارهم بين 18-19 سنة ، وذلك بنسبة 63.49% ، ثم تليها نسبة 36.50 % للمراهقين الذين تتراوح أعمارهم ما بين 20-21 سنة.

عدد ساعات استعمال "الأنترنت" من طرف الشباب في اليوم:

جدول رقم (03): يمثل عدد ساعات استعمال الانترنت من طرف الشباب في اليوم.

عدد ساعات استعمال "الانترنت" من طرف الشباب في اليوم	التكّرارات	النّسبة ٪
من ساعة إلى ساعتين	51	% 19.39
03 ساعات	67	% 25.47
04 ساعات فاكثر	145	% 55.13
المجموع	263	%100

من خلال هذا الجدول نستنتج أن أغلبية عينة الدراسة يستعملون "الانترنت" لمدة أربعة ساعات أو أكثر في اليوم أي بنسبة 55.13% ،وتليها نسبة 25.47% للشباب الذين يستعملون "الانترنت" لمدة 03 ساعات ، أما باقي العينة فتقدر نسبتهم 19.39% بحيث يستعملون 'الانترنت" من ساعة إلى ساعتين في اليوم.

أدوات الدارسة:

مقياس الإدمان على الانترنت: تم الاعتماد على مقياس إدمان الانترنت لدى الشباب من إعداد **سمية بن عمارة (2014)**، ويتضمن سبعة أبعاد(جسمي، نفسي، اجتماعي، أكاديمي، زمني، ديني) وهذا انطلاقا من الأدبيات السابقة والمقاييس المتضمنة لها والتعرف الاصطلاحي، إذ تقرع عن كل بعد مجموعة من البنود سهلة العبارات والألفاظ والصياغة ومتفاوتة العدد ليصل العدد الإجمالي للبنود 74 بند ، وذلك بإعطاء تقدير دقيق على مقياس متدرج من (دائما، غالبا، أحيانا، نادرا أبدا) حيث أعطت الباحثة لها الدرجات (5، 4، 3، 2، 1).

ويتمتع هذا المقياس بصدق وثبات مرتفع. وقد قامت الباحثة **"زريول مونية"** من جامعة مولود معمري بتيزي وزو(الجزائر) سنة (2016) بتكيفيه على البيئة الجزائرية.

مقياس التوافق الأسري: اعتمدنا على مقياس التوافق الأسري الذي هو في حقيقة الأمر بعد من أبعاد مقياس التوافق النفسي" **لزينب محمود شقير (2003)** الذي قامت بتقنينه الباحثة **"لطيفة جماح** "على البيئة الجزائرية سنة (2017) من جامعة المسيلة. وقد تم استعمال هذا البعد لعدم حصولنا على مقياس خاص فقط بالتوافق الأسري، لأن هذا الأخير دائما نجده كبعد للتوافق النفسي أو التوافق العام. ومن جهة أخرى بينت الدراسة الاستطلاعية أن مقياس التوافق الأسري المستعمل في هذه الدراسة ملائم.

ويتكون مقياس التوافق الأسر ي من 20 بندا وقد صمم على طريقة "ليكرت"، وذلك بإعطاء تقدير دقيق على مقياس متدرج من (موافق، محايد، معارض) حيث أعطت الباحثة لها الدرجات (2. 1. 0) وهذا في حال كان اتجاه التوافق إيجابيا، أما إذا كان اتجاهه سلبيا فتمنح الإجابات الدرجات(0. 1. 2).

الأساليب الإحصائية المستعملة: بعد جمع المعطيات تم فرزها وتفريغها في جداول قصد معالجتها إحصائيا باستعمال برنامج الرزنامة الإحصائية للعلوم الاجتماعية20 SPSS، ويتضمن هذا البرنامج العديد من الإجراءات الإحصائية الشائعة التي تتيح للباحث معالجة معطياته ومنها: معامل الارتباط "بيرسون ""Pearson" لدراسة العلاقة الموجودة بين درجات مقياس الإدمان على الفايسبوك ودرجات الوحدة النفسية، والمتوسط الحسابي، والانحراف المعياري، واختبارT. test للفرو ق.

عرض نتائج الدارسة

عرض نتائج الفرضية الأولى: تنص هذه الفرضية على ما يلي: "توجد علاقة بين إدمان "الانترنت" و التوافق الأسري لدى الشباب الجزائريين القاطنين بمنطقة القبائل (الجزائر)."

الجدول رقم (05): قيمة معامل الارتباط بيرسون (R) بين درجات إدمان "الانترنت" والوحدة النفسية لدى الشباب الجزائريين القاطنين بمنطقة القبائل (الجزائر).

العينة	قيمة"ر"	قيمة الدلالة المحسوبة	مستوى الدلالة	الدلالة
263	-0.25	0.019	0.05	دالة

توقعنا في الفرضية الأولى من وجود علاقة ارتباطيه ذات دلالة إحصائية بين الإدمان على الفايسبوك والوحدة النفسية لدى أفراد العينة، وهذا ما توصلنا إليه بعد المعالجة الإحصائية، فالجدول رقم (05) يظهر وجود علاقة سلبية ذات دلالة إحصائية بين الإدمان على الفايسبوك والتوافق الأسري لدى الشباب ، حيث

بلغت قيمة معامل ارتباط بيرسون بين درجات إدمان "الانترنت" والتوافق الأسري لدى الشاب الجزائري القاطن بمنطقة القبائل (الجزائر) ر= (-0.25) جاءت دالة إحصائيا ، لأنّ قيمة الدلالة المحسوبة تساوي (sig= 0.019) وهي أصغر من مستوى الدلالة المعتمد لدينا (α=0.05). أي أنّه توجد علاقة إرتباطية عكسية بين إدمان "الانترنت" والتوافق الأسري لدى الشباب الجزائريين القاطن بمنطقة القبائل ، بمعنى أنه كلما أدمن الشاب الجزائري القاطن بمنطقة القبائل على "الانترنت" كلما قل توافقه الأسري. وهذا يعني رفض الفرضية الصفرية التي مفادها لا توجد علاقة بين الإدمان على الفايسبوك والتوافق الأسري لدى أفراد العينة ، وقبول الفرضية البديلة التي مفادها توجد علاقة ارتباطيه بين الإدمان على الانترنت والتوافق الأسري لدى الشباب الجزائريين القاطنين بمنطقة القبائل (الجزائر)" ومن هنا يمكن القول أن الفرضية المطروحة تحققت.

بينت نتائج هذه الفرضية أن هناك علاقة ارتباطيه سلبية بين إدمان 'الانترنت" والتوافق الأسري لدى الشباب ، وهذا يعني أنه كلما أدمن الشباب الجزائريين القاطن بمنطقة القبائل على "الانترنت" كلما قل توافقه الأسري ، وقد يمكن إرجاع ذلك إلى تخلي المراهقين للعيش الواقعي من أسرهم وازدياد إقبالهم في هذه المرحلة خاصة على 'الانترنت" إلى كونهم يعتبرونه عالم افتراضي يسمح لهم بالتواصل مع أفراد المجتمع العالمي ومشاهدة الكثير من الروابط والمواقع ، فتتيح لهم إدراج معلومات كما تفتح لهم مجال البحث عن أصدقاء من مختلف الدول كما تمكنهم من مشاهدة الأفلام وفيديوهات...الخ ، ومشاركة أفكارهم ومشاعرهم مع الغير ، فتجمع بذلك بين العديد من الأصدقاء نتيجة للخدمات المتنوعة التي يقدمها مواقع الانترنت ومواقع التواصل الاجتماعي من أهم الضروريات في حياتهم خاصة بعد توفر الهواتف المحمولة الذكية التي أتاحت لهم نوافذ يطلون من خلالها على العالم في أي وقت يشاءون . فسيطر مواقع الانترنت على اهتماماتهم واستنزف الكثير من أوقاتهم ، لما يوفره من خدمات تتمثل في تلبية حاجات نفسية بالدرجة الأولى ليجد المراهق فيه متنفسا اجتماعيا يشعره بالأمن والثقة بالنفس ، وخاصة وأن مرحلة المراهقة تتميز بصعوبة فهمها من طرف البالغين وخاصة الوالدين ، فيشتكون منها ومن تصرفات أبنائهم السلوكية والانفعالية ،ما جعل هؤلاء يعتبرون 'الانترنت" مهربا دون أن يعلموا بأنه يجعل منهم مجتمعا سلبيا يفقدون من خلاله قدرتهم على التفاعل والتعامل مع واقع الحياة الاجتماعية والأسرية والقدرة على مواجهة المجتمع وجها لوجه من جهة ، وتدني مستوى توافقهم الأسري من جهة أخرى.

وهذه النتائج تتفق مع نتائج دراستي **ليري (2009)** ، و**(Suhail and Bargees) (2006) سهيل وبارجيز** اللتان أشارتا إلى أن الاستخدام المفرط لانترنت يسهم في خلق أمراض اجتماعية ونفسية مختلفة وتزيد من المشكلات الاجتماعية والأسرية ، ويمكن إرجاع هذه المشكلات إلى أن الوقت الذين يجلسون فيه حول الجهاز يكون على حساب ترك أسرهم لفترات قصيرة ، مما يؤدي إلى المشاحنات والمشاكل. كما تتفق النتائج الحالية مع نتائج دراسة **(Park) (2009) بارك** التي أشارت إلى أن الزيادة في استخدام الانترنت ارتباطا ايجابيا بزيادة المخاطر من أعراض الاكتئاب ، ودراسة **(Gold et al) (2004) جورد وآخرون** التي أشارت إلى ارتفاع نسبة الذكور من المراهقين الذين يفرطون في استخدام الانترنت من مشكلات الاكتئاب والقلق وسرعة الغضب والإحباط ، **ودراسة الدندراوي (2005)** التي توصلت إلى وجود علاقة ارتباطيه موجبة بين إفراط

المراهقين في استخدام الانترنت وبين مشكلات الأعراض الاكتئابية واللامبالاة. (سلطان عائض مفرح ، 2010 ، ص. 142)

عرض و تحليل النتائج الخاصة بالفرضية الدراسة: أسفر حساب **(T.test)** للدلالة الإحصائية فيما يتعلق بالفروق بين الجنسين (ذكور/إناث) في درجات الإدمان على الانترنت على النتائج التالية :

جدول رقم (09): يمثل الدلالة الإحصائية للفرق في درجات الإدمان على الانترنت حسب الجنس (ذكور/ إناث) لدى الشباب الجزائريين

الجنس	التكرار	المتوسط الحسابي	الانحراف المعياري	لقيمة الفائية	مستوى الدلالة الإحصائية	فيمة T	مستوى الدلالة لقيمة T	مستوى الدلالة	القرار
ذكور	89	71.73	11.50	0.82	*0.364*	1.124	0.262	0.05	غير دالة
إناث	174	70.40	12.25						

توقعنا من الفرضية الثانية من وجود فروق في الإدمان على الانترنت حسب الجنس (ذكور/ إناث)، و بعد التحليل الإحصائي تبين لنا عدم وجود فروق بين الجنسين فيما يخص الإدمان على الانترنت ، حيث بلغت قيمة T (1.124) وهي مرافقة لمستوى الدلالة (0.262) وهي اكبر من مستوى الدلالة (0.05)، أي أنه لا توجد فروق بين الإناث والذكور في الإدمان على الانترنت وهي غير دالة إحصائيا ، وهذا يعني قبول الفرضية الصفرية التي مفادها لا توجد فروق في درجات الإدمان على الانترنت حسب الجنس (ذكور/ إناث)، ورفض الفرضية البديلة التي مفادها توجد فروق في الإدمان على الانترنت بين الجنسين ، إذن يمكن القول إن الفرضية المطروحة لم تتحقق.

ومن خلال النتائج المعروضة سابقا والخاصة بالفرضية الثانية التي نصت من وجود فروق في درجات الإدمان على الانترنت حسب الجنس لدى أفراد العينة ، أنه لم يتم الوصول حقا إلى وجود فروق بين الجنسين فيم يخص الإدمان على الانترنت.

وهذه النتيجة تتفق مع الدراسات السابقة التي أشار بعضها إلى عدم وجود اختلافات بين الذكور والإناث في انتشار هذه المشكلة لدى الشباب ، ومن بين الدراسات التي أثبتت ذلك نذكر على سبيل المثال (**دراسة عدنان الفرح)(2004)** التي توصلت أن الإدمان على الانترنت لا يتأثر بمتغير الجنس ، فقد كان متساويا بين الذكور والإناث.

بالإضافة إلى **دراسة (Eleni Andreou et Hionia sovli) (2013) (إيليني أندرو و هيونيا سوفلي)** التي أظهرت أن الإدمان على الانترنت لا يرتبط بمتغير الجنس.

رغم وجود العديد من الدراسات التي نفت وجود فروق في درجات الإدمان على الإنترنت حسب الجنس ، لكن من جهة أخرى هناك من الدراسات التي أكدت من وجود تلك الفروق ، ومن الدراسات التي أكدت ذلك نجد **دراسة (Lawrence et al) (2009) (لورنس و أخرون)** التي هدفت إلى معرفة العوامل المرتبطة بإدمان

الانترنت لدى المراهقين ، و طبقت على عينة من طلبة في المدارس الثانوية الإيرانية وكانت من بين نتائجها أن الذكور أكثر عرضة للمعاناة من الإدمان مقارنة للإناث ، وهناك أيضا **دراسة (Luyu et al) (2013) (لويو و أخرون)** والتي هدفت للتقصي عن انتشار إدمان الانترنت وأثاره النفسية والاجتماعية للمراهقين المتمدرسين في الثانوية ، وأظهرت النتائج أن التلاميذ من جنس ذكور يعانون من أعراض استخدام الانترنت أكثر من الإناث ، وكذلك نجد **دراسة (Hai kao et al) (2011) (هوي كاو و أخرون)** و**دراسة (Xu jian et al) (2012) (تشوجيان و أخرون)** اللتان أظهرتا أن مستخدمو الانترنت بالنسبة للذكور هم أكثر معاناة من المشكلات النفسية. لكن هذه الدراسة تختلف مع ما توصلت إليه **دراسة (Kano) (2002) (كانو)** التي هدفت إلى التعرف على مدى إدمان طلبة المدارس على استخدام الانترنت وأهم المشكلات الناجمة عن إدمان الانترنت ، و توصلت إلى وجود فروق دالة إحصائية في الإدمان لصالح الذكور وبشكل مفرط ، بالإضافة إلى **دراسة (Gold et al) (2004) (جولد و أخرون)** التي طبقت على مجموعة من المراهقين ببعض المدارس الثانوية في نيويورك وتوصلت إلى ارتفاع نسبة الذكور الذين يعانون من مشكلات الاكتئاب(عبد الله الغامدي ، 2009 ، ص80.76).

كما نجد أيضا **(دراسة الصرايرة) (2010)** التي كشفت أن الإدمان على الانترنت هم أكثر شيوعا بين الإناث مقارنة للذكور.(الصرايرة ،2010 ، ص56).

ويمكن تفسير النتيجة التي توصلنا إليها أن ليس هناك فروق بين الإناث والذكور في الإدمان على الانترنت ، وذلك بسبب توفير أجهزة الحواسب والمزودة بشبكة الانترنت في كل بيت تقريبا ، هذا بالإضافة إلى انخفاض كلفتها وتوفر مقاهي الانترنت ومختلف الهواتف النقالة بكل أنواعها...الخ ، لهذا أصبح استخدام لشبكة الانترنت في متناول الجميع إناثا كانوا أو ذكور.

كما أن المساواة التي ينادي بها المجتمع بين الذكور والإناث تجعل الشابات متنافسا للشباب الذكور في اغلب المجالات ومجال الشبكة المعلوماتية هو احد من هذه المجالات الذي قد تستخدمه الطالبات بمهارة مقارنة للذكور ، ومن ناحية أخرى فالرغبة في التواصل مع الآخرين الكترونيا لا تقف عند الجنس ، فالتواصل الالكتروني والعمل مع التقنيات الحديثة يتساوى به الذكور والإناث.

ومن جهة أخرى فان ازدياد الوعي و الثقافة لدى الآباء و الأمهات ، وتطور التنشئة الاجتماعية قد أدى إلى الاهتمام بالإناث والذكور على حد سواء ، و لم تعد تميز بينهم وتكرس الدور الانثوي أو الذكوري في السلوك والتصورات وغيرها ولذلك انخفضت الفرو قات بين الذكور والإناث.

وقد يعود سبب استخدام الانترنت لدى عينة الشباب الجزائريين القاطنين بمنطقة القبائل ذكورا كانوا أو إناث إذ أنهم كلاهما في مرحلة المراهقة وتنمو لديهم القدرة على التخيل والتصور التي يتوفر فيها الاستعداد لذلك ، ولهذا يحاول المراهق بتجربة كل ما هو جديد في العديد من المجالات خاصة مجال الاتصال ، ويتضح ذلك من خلال ميولاتهم واهتماماتهم.

عرض نتائج الفرضية الثالثة: أسفر حساب **(T.test)** للدلالة الإحصائية فيما يتعلق بالفروق بين الجنسين (ذكور/إناث) في التوافق الأسري على النتائج التالية:

جدول رقم (09): يمثل الدلالة الإحصائية للفرق في التوافق الأسري حسب الجنس (ذكور/ إناث) لدى الشباب الجزائريين

الجنس	التكرار	المتوسط الحسابي	الانحراف المعياري	لقيمة الفائية	مستوى الدلالة الإحصائية	قيمة T	مستوى الدلالة لقيمة T	مستوى الدلالة	القرار
ذكور	89	98.83	14.00	0.82	0.264	0.404-	0.674	0.05	غير دالة
إناث	174	81.40	14.87						

توقعنا من الفرضية الثانية من وجود فروق في التوافق الأسري حسب الجنس (ذكور/ إناث)، وبعد التحليل الإحصائي تبين لنا عدم وجود فروق بين الجنسين فيما يخص التوافق الأسري، حيث بلغت قيمة T (-0.404) وهي مرافقة لمستوى الدلالة (0.674) وهي أكبر من مستوى الدلالة (0.05)، أي أنه لا توجد فروق بين الإناث والذكور في التوافق الأسري وهي غير دالة إحصائيا، وهذا يعني قبول الفرضية الصفرية التي مفادها لا توجد فروق في التوافق الأسري حسب الجنس (ذكور/ إناث)، ورفض الفرضية البديلة التي مفادها توجد فروق في التوافق الأسري بين الجنسين، إذن يمكن القول إن الفرضية المطروحة لم تتحقق.

بينت نتائج هذه الفرضية أنّه لا توجد فروق دالة إحصائيا بين الجنسين، فيما يخص التوافق الأسري. بمعنى أن الجنسين لديهم نفس درجة التوافق الأسري. ويمكن إرجاع هذه النتائج إلى أن معظم أفراد العينة أن شبكة الانترنت تسيطر عليهم حيث يقضون معظم أوقاتهم أمامه والتواصل مع الآخرين لدرجة أنهم لا يشاركون أفراد عائلتهم في جلسات وأحاديث وخوار ونقاش، ونجد أن "الانترنت" عند معظمهم يعتبر أمر ضروري لا يمكن الاستغناء عنه، وبالتالي يؤثر على العلاقات بينهم في مشاركة الأحاديث العائلية، فيخصصون وقت قليل جدا لعائلاتهم والنسبة الكبيرة من وقتهم يخصصونها في تفحصهم لشبكة الانترنت'، وهذا ما أدى بهم إلى الإدمان عليه.

فمن خلال هذا نرى أن "الفايسبوك" يأخذ وقت كبير من مستخدميه لدرجة الإدمان. وحسب أرينا فإهدار الوقت في إتباع تفاصيل وقائع ما يحدث في هذا الموقع وإدمانهم عليها هو ما أدى الشباب والشابات إلى التأثير في توافقهم الأسري، فلا فرق بين الجنسين، لأنه في الأخير الإدمان على "الفايسبوك" يؤدي إلى عدم التوافق الأسري، لذا فالدرجات المسجلة عند الشباب فيما يخص التوافق الأسري نفسها مع الشابات.

خاتمة:

في هذا الجزء الأخير من الفصل الميداني وانطلاقا من نتائج الدراسة وفي ضوء ما تم عرضه من الجانب النظري وانطلاقا من الهدف الرئيسي للبحث وهو التأكد من وجود علاقة بين الإدمان على الانترنت والتوافق الأسري لدى الشباب الجزائريين القاطنين في منطقة القبائل ببلد الجزائر، نستخلص أن في هذا العصر معظم الشباب يستخدمون الانترنت بشكل مفرط، وهذا ما يؤدي بهم إلى النفور والابتعاد من أفراد أسرتهم وعدم الحوار والنقاش، إذ يجدون متعة أكثر نفسيا داخل هذه الشبكة حيث أنهم يعيشون في عالم افتراضي، وهذا ما توصلنا إليه من خلال الدراسة التي قمنا بها، ولذلك يجب الأخذ بعين الاعتبار مسببات الإدمان على الانترنت و مسببات عدم التوافق الأسري من أجل القضاء أو التقليل من حدتها لضمان حياة أسرية ونفسية

ومدرسية واجتماعية جيدة ومتوافقة للشباب. ولكن هذه النتائج تبقى رهينة عينة وخصائصها وبسبب ضيق الوقت لم تسمح لنا بمقارنة نتائج دراستنا بنتائج الدراسات السابقة مما يجعلنا نقترح على الباحثين في الدراسات المستقبلية الاهتمام بالموضوع أكثر.

وعلى ضوء ما تعرضنا إليه في هذه الدراسة ، نقترح ما يلي:

- الاهتمام بالمراهقين وتوفير لهم جو أسري مناسب من أجل الابتعاد عن الاستخدام المفرط للانترنت.
- التناغم الوجداني بين أفراد الأسرة و إفشاء الصراحة والثقة عن طريق الحوار الأسري الهادف بغية احتضان مشاكل الشباب وعدم البحث عن حلول لها على شبكة الانترنت.
- الاهتمام بالأبناء في جميع مجالات الحياة و إشراكهم في الأنشطة المختلفة سواء في العملية التعليمية أو التربية أو في مراكز الانترنت ومؤسسات المجتمع المحلي.
- تطوير أنشطة ثقافية ورياضية...الخ لشباب في الجامعات من أجل توجيه طاقتهم وإفراغها بطريقة تعود بالنفع عليه ومجتمعه.
- ضرورة رعاية الشباب وتشجيعهم ودعمهم ليصبحوا أشخاص ذو فعالية وقادرين على ممارسة أدوارهم في بناء وتطوير مجتمعهم .
- القيام بدراسات مسحية من أجل الكشف عن مشكلات الشباب .
- توعية الأهل بكيفية التعامل مع الأبناء عبر مراحل العمر المختلفة والسعي لتوفير متطلبات واحتياجات كل مرحلة ومراعاة الفروق بين الأبناء.
- تفعيل دور وسائل الإعلام للتوعية بآثار والمخاطر المشاكل الناجمة عن إدمان الانترنت.
- توفير الرقابة من متخصص لمكافحة منتجات و أسواق الانترنت وتوفير برامج المكافحة والمراقبة.

قائمة المراجع:

-الخشمي سار صالح عايدة(2010)، الآثار الاجتماعية السلبية لاستخدام الفتاة في مرحلة المراهقة للانترنت ، الدار العالمية للنشر والتوزيع ، القاهرة.

-رامي لطفي الكلاوي(2006)، إدمان الأنترنت لدى الشباب –المظاهر ، النتائج ، العلاج، ط1 ، الشارقة ، الإمارات.

-شمسي محمد الدعيدي(2009)، الضغوط النفسية والتوافق الزواجي لدى عينة من أباء وأمهات الأطفال المعاقين تبعا لنوع ودرجة الإعاقة وبعض المتغيرات الديمقراطية والاجتماعية ، مذكرة ماجستير في علم النفس ، قسم علم النفس ، كلية التربية ، المملكة العربية السعودية.

-عائض سلطان مفرح العصيمي(2010)، إدمان الانترنت وعلاقته بالتوافق النفسي الاجتماعي لدى طلاب المرحلة الثانوية بمدينة الرياض ، رسالة ماجستير في العلوم الاجتماعية ، قسم العلوم الاجتماعية ، كلية الدراسات العليا ، جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية.

-عبد الكريم سعودي(2014)، إدمان الفايسبوك وعلاقته بالتوافق الأسري للطالب الجامعي دراسة على عينة من طلبة جامعة بشار ، ع(13)، دراسات نفسية و تربوية ، مخبر تطوير الممارسات النفسية و التربوية ، جامعة بشار.

-عبد الله الغامدي(2009)، تردد المراهقين على مقاهي الانترنت وعلاقته ببعض المشكلات النفسية النفسية ، مذكرة ماجستير في الإرشاد النفسي ، تخصص إرشاد نفسي ، جامعة أم القرى.

-علي عبد الله العسيري(2004)، الآثار الأمنية لاستخدام الشباب الانترنيت ، ط1 ، جامعة الملك نايف للعلوم الأمنية. السعودية.

-محمد حسن غانم(2004). مناهج البحث في علم النفس. ط1، دار غريب ، القاهرة: مصر.

-محمد علي(2010)، مقياس الإدمان على الانترنت لدى طلاب الجامعة الموهوبين ، دار الصفاء للنشر والتوزيع ، عمان.

-مروان عبد المجيد(2006)، أسس البحث العلمي والقواعد والمراحل والتطبيقات ، ط1 ، دار وائل للنشر والطباعة ، عمان.

-ولاء الصرايرة(2010) ، علاقة إدمان الانترنت بالانحراف الاجتماعي ، رسالة دكتوراه ، جامعة مؤتة ،الأردن.
-Peter (2000). Internet addiction: genuine diagnosisor not, ERICReproduction Service No.452097.
-Ward ,D (2000) , The Relationship between psychosocial adjustment, identity formation and problematic internet use, Ph College of Education ,The Florida State University.
-Young & Rodge (1998) ,Internet addiction: Personality traits associated with its development, Paper presented of the 69th annual meeting of the eastern psychological association in April.
-Young ,K (1996) ,Internet addiction the emergence of new clinical disorder, paper presented at the 104 thannual meeting of psychological association tornoto , Canada August 15.

الملحق رقم (01)

مقياس الإدمان على الانترنت

من إعداد سمية بن عمارة (2014)

التعليمة :

أضع بين أيديكم هذه الإستمارة التي تتناول عددا من المواقف في حياتكم اليومية والتي قد تتفقون في بعضها وتختلفون مع بعضها الآخر ، لهذا الغرض أرجو منكم الإجابة عنها بكل موضوعية وصدق لاستكمال هذه الدراسة.

التعليمة: ضع علامة(X)في المكان المناسب.

- تأكد أنك أجبت على السؤال قبل تحولك إلى السؤال الموالي.
- لا تترك سؤال دون الإجابة عليه.
- لا تضع أكثر من علامة واحدة أمام العبارة الواحدة.
- ليس هناك إجابة صحيحة وأخرى خاطئة المهم أن توضح رأيك الشخصي.
- تأكد أن هذه المعلومات ستكون موضع سرية تامة ، لأنها لن تستخدم إلا في أغراض البحث العلمي الذي يهدف إلى خدمته.

الرقم	العبارات	دائما	غالبا	أحيانا	نادرا	أبدا
01	أعاني إجهاد في النظر					
02	أنزعج عندما يقاطعني الآخرون أثناء استخدامي للانترنت					
03	أفضل الاستمتاع بالانترنت على قضاء الوقت مع الأصدقاء					
04	تاثرت نتائج بسبب كثرة استخدامي للانترنت					
05	صرت أهمل حياتي الأسرية بسبب قضاء وقت مطول أمام الانترنت					
06	أفضل قضاء اكبر وقت أمام الانترنت					
07	صرت أهمل مواعيد صلاتي منذ استخدامي الانترنت					
08	أعاني الألم في الظهر					
09	أتضايق عندما انفصل عن الانترنت					
10	أقيم علاقات عديدة مع أشخاص على الانترنت					
11	صرت أهمل واجباتي الدراسية بسبب قضاء كل وقتي أمام الإنترنت					
12	أفضل الجلوس على الانترنت على الجلوس مع أسرتي					
13	أفضل الجلوس أمام الانترنت على النوم مبكرا					
14	صرت أهمل واجبات الدينية					
15	أحس بألم في مفاصل أصابعي					
16	أخشى أن تكون الحياة مملة بدون استخدام الانترنت					
17	لا احد يعلم ما افعله على الانترنت					
18	أغوص في الانترنت في أشياء لا تفيد دراستي					
19	يتضايق مني أفراد أسرتي بسبب انهماكي الدائم على شبكة الانترنت					
20	أحس بأنني فشلت في تقليل الفترة التي اقضيها أمام الانترنت رغم					

	محاولاتي الكثيرة					
21	من كثرة الوقت الذي اقضيه أمام الانترنت صرت أشاهد العديد من الأمور الإباحية					
22	انخفض وزني منذ بداية استخدامي المفرط للانترنت					
23	يساعدني الانترنت في نسيان المشاكل التي أعاني منها					
24	اشعر بالضيق عندما أكون خارج الشبكة ويزول بمجرد العودة إليها					
25	انخفض عدد أصدقائي					
26	مصادر التشويق في الانترنت تلهيني عن دراستي					
27	جلوس الدائم أمام الانترنت سبب لي العديد من المشاكل مع أسرتي					
28	أخفي عن الآخرين عدد الساعات التي اقضيها أمام الانترنت					
29	تورطت في الكثير من الأمور اللاأخلاقية لكثرة جلوسي أمام الانترنت					
30	صار لدي العديد من العلاقات العاطفية مع الجنس الآخر					
31	أحس بإنهاك في جسمي					
32	يختفي شعوري بالإحباط بمجرد جلوسي أمام الانترنت					
33	أحس بالمتعة و أنا أبحر في شبكة الانترنت					
34	تأثرت علاقاتي الشخصية بسبب كثرت استخدامي للانترنت					
35	اشعر أن مطالعتي انخفضت منذ استخدامي للانترنت					
36	أتضايق إذا وجدت احد من أفراد أسرتي اخذ مكان قبلي لتصفح الشبكة					
37	أجد نفسي متشوقا للوقت الذي ادخل فيه إلى الانترنت					
38	اهتزت قناعتي الدينية في الكثير من الأمور بسبب الانترنت					
39	اشعر برغبة شديدة للدخول إلى شبكة الانترنت					
40	ابتعدت عن هواياتي المحببة					
41	انخفض مجال استفادتي المعرفية بسبب انشغالي الدائم بتصفح الانترنت					
42	أحس بأنني غريب في أسرتي إذا جاملتهم و جلست معهم					
43	أتضايق إذا لم أتفقد بريدي الالكتروني عدة مرات يوميا					
44	حفظت الأدعية و الأذكار لمداومتي المستمرة للانترنت					
45	اشعر بدوار و أنا أمام الانترنت					
46	ألجأ إلى الانترنت لتخلص من الأفكار المزعجة					
47	احلم أنني أتجول في عالم الانترنت					
48	تعرفت على أشخاص كثيرين من خلال حجرات الدردشة					
49	تطورت علاقاتي عبر الانترنت إلى علاقات شخصية					
50	أحس أن ثقافتي لم تزد شيئا بسبب الركود حجرات الدردشة					
51	صرت أهمل أعمالي المنزلية بسبب جلوسي على الانترنت					
52	أتمنى لو كان لي وقت أكثر اقضيه أمام الانترنت					
53	صححت الكثير من المفاهيم في شؤون ديني لحسن تدبري للانترنت					
54	اشعر أنني غير راض عن أداء واجباتي الدينية منذ استخدامي الانترنت					
55	أحسس بطنين في أذني بسبب كثرت محادثاتي بحجرات الدردشة					
56	أحس بأنني بحاجة مستمرة للجلوس أكثر أمام الانترنت					
57	أقمت علاقة غير لائقة مع معارف الانترنت					
58	أفضل متعة الجلوس على الانترنت على معاشرة (زوجي/زوجتي)					

59	جلوسي الدائم أمام الإنترنت علمني الكثير من الأمور المنافية لتعاليم ديني					
60	تعلمت الكذب لأغطي مغامرات على الانترنت					
61	أحس براحة كبيرة وأنا استخدم الانترنت					
62	صرت أهمل المناسبات الاجتماعية بسبب جلوسي الدائم على شبكة الانترنت					
63	اقضي جل وقتي عبر الانترنت على حساب ساعات ذهابي لدراسة					
64	صرت لا اهتم بتفاصيل الأحداث داخل أسرتي بسبب انشغالي بعالم الانترنت					
65	اضطرب تنظيم الوقت لدي منذ استخدامي الانترنت					
66	صرت اقضي معظم وقتي في رمضان في غرف الدردشة					
67	اضطرب نومي منذ بداية استخدامي للانترنت					
68	اشعر بالاستياء إذا اضطررت للخروج من الشبكة					
69	قلت زياراتي للأقارب بسبب انهماكي الدائم على شبكة الانترنت					
70	أحس انه قل وازعي الديني منذ استخدامي الانترنت					
71	لا أركز في دروسي بسبب تفكيري الدائم بعالم الانترنت					
72	قل حواري مع أسرتي لكثرة انشغالي الدائم على الانترنت					
73	صرت لا أحسن استغلال وقتي					
74	تعلمت الصبر لكثرة المواقف التي صادفتني في عالم الانترنت					

الملحق (02)

مقياس التوافق الأسري

إعداد زينب محمود شقير (2003)

الاسم السن

المدرسة الجنس

القسم الدراسي تاريخ إجراء الاختبار

هل تريد أن تعرف شيئًا أكثر من شخصيتك ؟

إليك بعض المواقف التي تقابلك في حياتك العامة لذا نرجو التعرف على كل موقف بدقة وتحديد درجة انطباق كل منها على حالتك:

تطبق تماما تنطبق أحيانا لا تنطبق

حاول أن تحدد الإجابة التي تتفق مع طريقتك المعتادة في التصرف والشعور الصادر منك اتجاه كل موقف.

فإذا أجبت بأمانة ودقة على جميع المواقف فسيكون من الممكن أن تعرف نفسك معرفة جيدة.

اجب بوضع علامة (x) تحت الاختيار المناسب لا تترك موقف بدون إجابة عليهن لا توجد إجابة صحيحة وأخرى خاطئة

معلومات سرية للغاية

الرقم		نعم تنطبق	متردد أحيانا	لا تنطبق
	المحور الأول: التوافق الشخصي الانفعالي			
01	هل لديك ثقة في نفسك بدرجة كافية ؟			
02	هل أنت متفائل بصفة عامة ؟			
03	هل لديك رغبة في الحديث عن نفسك وعن انجازاتك أمام الآخرين ؟			
04	هل أنت قادر على مواجهة مشكلاتك بقوة وشجاعة ؟			
05	هل تشعر انك شخص له فائدة ونفع في الحياة ؟			
06	هل تتطلع لمستقبل مشرق ؟			

07	هل تشعر بالراحة النفسية والرضا في حياتك ؟			
08	هل أنت سعيد وبشوش في حياتك ؟			
09	هل تشعر انك شخص محظوظ في الدنيا ؟			
10	هل تشعر بالاتزان الانفعالي والهدوء أمام الناس ؟			
11	هل تحب الآخرين وتتعاون معهم ؟			
12	هل أنت قريب من الله بالعبادة والذكر دائما ؟			
13	هل أنت ناجح ومتوافق مع الحياة ؟			
14	هل تشعر بالأمن والطمأنينة النفسية وانك في حالة طيبة ؟			
15	هل تشعر باليأس وتهبط همتك بسهولة ؟			
16	هل تشعر باستياء وضيق من الدنيا عموما ؟			
17	هل تشعر بالقلق من وقت لآخر ؟			
18	هل تعتبر نفسك عصبي المزاج إلى حد ما ؟			
19	هل تميل إلى أن تتجنب المواقف المؤلمة بالهرب منها ؟			
20	هل تشعر بنوبات صداع أو غثيان من وقت لآخر ؟			
	المحور الثاني: التوافق الصحي			
21	هل حياتك مملوءة بالنشاط والحيوية معظم الوقت ؟			
22	هل لديك قدرات ومواهب متميزة ؟			
23	هل تتمتع بصحة جيدة وتشعر بأنك قوي البنية ؟			
24	هل أنت راض عن مظهرك الخارجي (طول القامة وحجم الجسم)؟			
25	هل تساعدك صحتك على مزاولة الأعمال بنجاح ؟			
26	هل تهتم بصحتك جيدا وتتجنب الإصابة بالمرض ؟			
27	هل تعطي نفسك قدر من الاسترخاء والراحة للمحافظة على صحتك في حالة جيدة ؟			
28	هل تعطي نفسك قدرا كافيا من النوم (أو تمارين رياضة) للمحافظة على صحتك ؟			
29	هل تعاني من بعض العادات مثل (قضم الاضافر والغمز بالعين)؟			
30	هل تشعر بصداع أو الم في راسك من وقت لآخر ؟			
31	هل تشعر أحيانا بحالات برودة ؟			
32	هل تعاني من مشاكل أو اضطرابات الأكل (سوء هضم ، فقدان شهية ، شره عصبي)؟			
33	هل يدق قلبك بسرعة عند قيامك بأي عمل ؟			
34	هل تشعر بالاجتهاد وضعف الهمة من وقت لآخر ؟			
35	هل تتسبب عرقا (أو ترتعش يداك) عندما تقوم بعمل ؟			
36	هل تشعر أحيانا أنك قلق وأعصابك غير موزونة ؟			
37	هل يعوقك وجع ظهرك أو يداك عن مزاولة العمل ؟			
38	هل تشعر أحيانا بصعوبة في النطق والكلام ؟			
39	هل تعاني من إمساك أو إسهال كثيرا ؟			
40	هل تشعر بالنسيان أو عدم التركيز من وقت لآخر ؟			
	المحور الثالث: التوافق الأسري			
41	هل تشعر انك متعاون مع أسرتك ؟			
42	هل تشعر بالسعادة في حياتك وأنت مع أسرتك ؟			

43	هل أنت محبوب من أفراد أسرتك ؟			
44	هل تشعر بأن لك دور فعال وهام في أسرتك ؟			
45	هل تحترم أسرتك رأيك وممكن أن تأخذ به ؟			
46	هل تفضل أن تقضي معظم وقتك مع أسرتك ؟			
47	هي تأخذ حقك من الحب والعطف والحنان والأمن من أسرتك ؟			
48	هل التفاهم هو أسلوب التعامل بين أسرتك ؟			
49	هل تحرص على مشاركة أسرتك أفراحها وأحزانها ؟			
50	هل تشعر أن علاقاتك مع أفراد أسرتك وثيقة وصادقة ؟			
51	هل تفتخر أمام الآخرين أنك تنتمي لهذه الأسرة ؟			
52	هل أنت راض عن ظروف الأسرة الاقتصادية والثقافية ؟			
53	هل تشجعك أسرتك على إظهار ما لديك من قدرات ومواهب ؟			
54	هل أفراد أسرتك تقف بجوارك وتخاف عليك عندما تتعرض لمشكلة ما ؟			
55	هل تشجعك أسرتك على تبادل الزيارات مع الأصدقاء والجيران ؟			
56	هل تشعرك أسرتك انك عبء ثقيل عليها ؟			
57	هل تتمنى أحيانا أن تكون لك أسرة غير أسرتك ؟			
58	هل تعاني كثير من المشاكل داخل أسرتك ؟			
59	هل تشعر بالقلق أو الخوف وأدت داخل أسرتك ؟			
60	هل تشعر بأن أسرتك تعاملك على أنك طفل صغير ؟			
	المحور الرابع: التوافق الاجتماعي			
61	هل تحرص على المشاركة الايجابية الاجتماعية والترويحية مع الآخرين ؟			
62	هل تستمتع بمعرفة الآخرين والجلوس معهم ؟			
63	هل تشعر بالمسؤولية تجاه تنمية المجتمع مثل كل مواطن ؟			
64	هل تتمنى أن تقضي معظم وقت فراغك مع الآخرين ؟			
65	هل تحترم رأي زملائك وتعمل به إذا كان رأيا صائبا ؟			
66	هل تشعر بتقدير الآخرين لأعمالك وانجازاتك ؟			
67	هل تعتذر لزميلك إذا تأخرت عن الموعد المحدد ؟			
68	هل تشعر بالولاء والانتماء لأصدقائك ؟			
69	هل تشعر بالسعادة لأشياء قد يفرح بها الآخرون كثيرا ؟			
70	هل تربطك علاقات طيبة مع الزملاء وتحرص على إرضائهم ؟			
71	هل يسعدك المشاركة في الحفلات والمناسبات الاجتماعية ؟			
72	هل تحرص على حقوق الآخرين بقدر حرصك على حقوقك ؟			
73	هل تحاول الوفاء بوعدك مع الآخرين لأن وعد الحر دين عليه ؟			
74	هل تجد متعة كبيرة في تبادل الزيارات مع الأصدقاء والجيران ؟			
75	هل تفكر كثيرا قبل أن تقدم على عمل قد يضر بمصالح الآخرين أو ترفضه ؟			
76	هل تفتقد الثقة والاحترام المتبادل مع الآخرين ؟			
77	هل يصعب عليك الدخول في منافسات مع الآخرين حتى ولو كادوا في مثل سدك ؟			
78	هل تخجل من مواجهة الكثير من الناس أو ترتبك أثناء الحديث أمامهم ؟			
79	هل تتخلى عن إسداء النصح لزميلك خوفا من أن يزعل منك ؟			
80	هل تشعر بعدم قدرتك على مساعدة الآخرين ولو في بعض الأمور البسيطة ؟			

السياحة الدينية مفهومها وتعريفها وأقسامها

Religious Tourism: Concept, Definition and Divisions

د. فهد بن محمد بن عبد الرحمن القرشي
جامعة أم القرى بمكة المكرمة- المملكة العربية السعودية

الحمد لله وحده ، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده ... وبعد:

فإن السياحة عمومًا تعتبر رافدًا من روافد الاقتصاد للدول ، وما ذلك إلا لسهولة التنقل بين الدول في هذه العصور التي تطورت فيها وسائل النقل ، وأصبح العالم من خلالها كالقرية صغيرة يتنقل في الشخص من دولة إلى دولة دون مشقة تذكر ، بالإضافة إلى كسر الروتين الذي يعشه كثير من الناس من خلال الأعمال ونحو ذلك.

لذا كان من المهم بيان مفهوم السياحة وتعريفها وأقسامها وبين حكمها من منظور الإسلام ، حتى يكون المسلم على بينة من دينه ، وحتى يتمكن من التفريق بين السياحة الجائزة وغيرها.

وقد جاء هذا البحث في تمهيد ، وثلاثة مباحث ، هي:

التمهيد: بيان مكانة السياحة وأهميتها بالنسبة للدول والأشخاص.

المبحث الأول: تعريف السياحة لغة واصطلاحًا.

المبحث الثاني: أقسام السياحة.

المبحث الثالث: ضوابط السياحة الدينية.

التمهيد: بيان مكانة السياحة وأهميتها بالنسبة للدول والأشخاص.

لا شك أن السياحة عمومًا تحتل مكانة كبيرة بالنسبة لكثير من الدول ذات المعالم التاريخية والمناظر الجميلة من حيث اقتصادها ، وإنعاشه لها ولمواطنيها وخلق فرص وظيفية كثيرة بالنسبة لهم.

وأما بالنسبة للسياحة الدينية فإنها أصبحت تشكل نمطًا جديدًا في الاقتصاد ، يؤثر في ميزانيات الدول ، وزيادة دخلها.

وهذان النوعان من السياحة في الدول ذات المعالم التاريخية والدينية يشكل نسبة كبيرة في الناتج القومي ، حيث إن نسبته في البلدان الأوربية يصل إلى 12.4% في مقابل 9.5% في الدول الشرق أوسطية (جعفر طالب أحمد ، 2012)، بل أصبحت السياحة بمعظم المقاييس أكبر الصناعات في العالم وفقًا لتصنيفات منظمة السياحة العالمية.

وقد اتجهت دول العالم المعاصر إلى برمجة السياحة وتنظيمها ، لاعتبارات عديدة منها:

-كونها معلمًا من معالم الحضارة الحديثة ، وعنوانًا على التقدم.

-أنها تشكل عنصرًا مهمًا من عناصر الاقتصاد ، ومصدرًا ثرًا لميزانية الدولة.

-أنها وسيلة لاندماج الأمم بعضهم ببعض ، وتمازج ثقافاتهم ومن هنا أنشئت في كثير من البلدان السياحية مدارس لتعليم اللغات ، وتاريخ الفنون والآثار ، وإدارة الفنادق ، إلى غير ذلك(عبدالله بن إبراهيم الطريقي ، 1421هـ).

المبحث الأول: تعريف السياحة لغة وشرعًا.

السياحة لغة: جاء في معجم مقاييس اللغة (أحمد بن فارس بن زكريا القزويني الرازي ، 1399هـ)، ولسان العرب (محمد بن مكرم بن علي ابن منظور ، 1414هـ) بأن السين والياء والحاء أصل صحيح ، وقياسه قياس ما قبله ، وهو "سيب" فإنهما يدلان على استمرار الشيء وذهابه.

يقال: سَاح في الأرض يَسِيْحُ سِيَاحَ وسُيُوحًا وسَيَحَاناً ، أي: ذهب.

والسِّياحة: الذهاب في الأرض للعبادة ، والترهب.

وقد سَاح ، ومنه المسيح ابن مريم عليه السلام ، لأنه كما جاء في بعض الأقاويل: كان يذهب في الأرض وإذا أدركه الليل صف قدميه ، وصلى حتى الصباح ، فإذا كان كذلك فهو مفعول بمعنى فاعل.

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله:" وأما عيسى فقيل سمي بذلك ... لأنه كان يمسح الأرض بسياحته"(أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ، 1379هـ).

وقال أيضًا:" وحقيقة السياحة: ألا يقصد موضعًا بعينه يستقر فيه"(أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ، 1379هـ).

وجاء في المعجم الوسيط:" السِّيَاحة: التنقل من بلد إلى بلد طلبًا للتنزه أو الاستطلاع والكشف"(إبراهيم مصطفى ، أحمد الزيات ، حامد عبد القادر ، محمد النجار ، 2004م).

وفي المفردات في غريب القرآن:" ساح فلان في الأرض مَرَّ مَرَّ السائح ، قال تعالى:(فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ)(التوبة: من الآية2)، ورجل سائح في الأرض وسَيَّاحٌ"(الحسين بن محمد بن المفضل الأصفهاني ، 1412هـ).

والسِّياحةُ: الذهاب في الأَرض للعبادة والتَّرَهُّب ؛ وساح في الأَرض يَسِيح سِياحةً وسُيُوحاً وسَيْحاً وسَيَحاناً أَي ذهب ؛ وفي الحديث:" لا سِياحة في الإِسلام" ؛ أَراد بالسِّياحة مفارقةَ الأَمصار والذَّهابَ في الأَرض ، وأَصله من سَيْح الماء الجاري ؛

قال ابن الأَثير:" أَراد مفارقةَ الأَمصار وسُكْنى البَراري وتَرْكَ شهود الجمعة والجماعات" (المبارك بن محمد بن محمد بن محمد بن عبدالكريم الأثير ، 1399هـ).

ومن خلال ما سبق يتبين لنا أن معنى السياحة في اللغة هي مطلق الذهاب في الأرض للعبادة أو للتنزه أو الاستطلاع أو غير ذلك.

قال في معجم مقاييس اللغة: "ومما يدل على صحة هذا القياس قولهم: ساح الظل إذا فاء" (أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي ، 1399هـ)، أي رجع من المغرب إلى المشرق.

السياحة شرعًا:

إن الناظر في كلام الله تعالى وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم يجد أن مادة "ساح" وردت في القرآن الكريم والسنة المطهرة على صاحبها أفضل الصلاة وأتم السلام تدور على ثلاثة معان ، هي:

المعنى الأول: الصيام ، وقد ذهب جمع من المفسرين بأن معنى "سائحات" في قوله تعالى:(مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات)، يعني صائمات. وأخرج ابن جرير بسنده عن عبيد بن عمير ، قال سُئل النبي صلى الله عليه وسلم عن السائحين فقال:(هم الصائمون)(محمد بن جرير الطبري ، 1422ه). وأورد ابن كثير عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" السائحون هم الصائمون" ثم رواه عن بندار ، عن ابن مهدي ، عن إسرائيل ، عن سليمان الأعمش ، عن أبي صالح ، عن أبي هريرة أنه قال:" السائحون" الصائمون. وهذا الموقوف أصح.

وقال أيضًا: حدثني يونس ، عن ابن وهب ، عن عمر بن الحارث ، عن عمرو بن دينار ، عن عبيد بن عمير قال: سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن السائحين فقال: "هم الصائمون". وهذا مرسل جيد"(أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي ، 1420ه).

وكذا فسر السياحة بالصيام ؛ أبو هريرة وابن مسعود وابن عباس وعائشة وغيرهم رضي الله عنهم.

وعن سفيان بن عيينة قال: إنما سمي الصائم السائح ؛ لأنه تارك للذات الدنيا كلها من المطعم والمشرب والمنكح فهو تارك للدنيا بمنزلة السائح. قال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس: كل ما ذكر الله في القرآن السياحة ، هم الصائمون. وكذا قال الضحاك ، رحمه الله. (إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي ، 1420ه).

وقال الزجاج:" السائحون في قول أَهل التفسير واللغة جميعاً الصائمون"(محمد جمال الدين بن محمد سعيد القاسمي ، 1418ه).(محمد بن مكرم بن علي ابن منظور ، 1414ه).

ونلحظ هنا أن معنى صائمين لا صلة له بالمعنى الأصلي للفظ "ساح- يسوح ، ولا "ساح- يسيح ".

المعنى الثاني: السفر في طلب العلم ، فيرتحلون من أجله ، ويشدون الرحال في طلبه ، ويثنون ركبهم عند العلماء ، لينهلوا من علومهم ، قال عكرمة: السائحون هم طلبة العلم. (أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي ، 1417ه).

ومما ورد في تفسير قوله تعالى: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [التوبة:112]. أي سائحون في الأرض في سبيل الله: لطلب العلم أو نشره أو الدعوة.

المعنى الثالث: الجهاد ، كما جاء في الحديث عند أبي داود رقم الحديث (2172) عن أَبِي أُمَامَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ائْذَنْ لِي فِي السِّيَاحَةِ ؟ قَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم:(إِنَّ سِيَاحَةَ أُمَّتِي الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تعالى).(محمد بن عبدالله بن محمد بن حمدويه النيسابوري ، 1411ه)، (أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي ، 1344ه)، وحسنه الألباني في صحيح سنن أبي داود برقم 2486.(محمد ناصر الدين الألباني ، 1420ه).

قال عطاء: السائحون: هم الغزاة المجاهدون في سبيل الله ، فهم يسيحون لأجل رفع راية الدين ، وإعلاء كلمة المسلمين ، وإزالة الذل والهوان عن عباد الله المستضعفين. ولو أخذ هذا الحديث تفسيرًا للآية ﴿ التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ... ﴾ " لالتقى مع كل ما روي عن السلف فيها ، لأن الجهاد في سبيل الله ، كما يطلق على قتال المشركين ، يطلق على كل ما فيه مجاهدة للنفس في عبادته تعالى ، ومنه الهجرة والصوم ، والسفر للتفقه في الدين أو للاعتبار ، بل ذلك هو الجهاد الأكبر. هذا على إرادة التوفيق بين

المأثورات. أما لو أريد باللفظ أصل حقيقته اللغوية ، أعني الضرب في الأرض خاصة ، الذي عبر عنه عكرمة بالمنتقلين لطلب العلم ، لكان بمفرده كافيًا في المعنى ، مشيرا إلى وصف عظيم ، وهذا ما حدا بأبي مسلم أن يقتصر عليه ، وهو الحق في تأويل الآية. (محمد جمال الدين بن محمد سعيد القاسمي ، 1418ه).

المعنى الرابع: الاعتزال عن الناس في الكهوف والمغارات وشواهق الجبال تعبدًا ، كما يفعله بعض المتصوفة والجهال ، قال شيخ الإسلام ابن تيمية:" السياحة في البلاد لغير قصد شرعي ، كما يفعله بعض النساك- أي ذهابهم في الأرض للتعبد والترهب واعتزال الناس- أمرٌ منهي عنه. قال الإمام أحمد: ليست السياحة من الإسلام في شيء ، ولا هي من فعل النبيين والصالحين".(تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحراني ، 1416ه).

وقال ابن كثير في تفسيره "عند تفسيره للآية 112 من سورة التوبة":" وليس المراد من السياحة ما قد يفهمه بعض من يتعبد بمجرد السياحة في الأرض والتفرد في شواهق الجبال والكهوف والبراري ، فإن هذا ليس بمشروع إلا في أيام الفتن والزلازل في الدين"(أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ، 1420ه).

المعنى الخامس: الهجرة ، أخرج ابن أبي حاتم عن عبد الرحمن ابن زيد بن أسلم في معنى قوله تعالى: (السَّائِحُونَ)[التوبة112] قال: هم المهاجرون ليس في أمة محمد صلى الله عليه وسلم سياحة إلا الهجرة وكانت سياحتهم الهجرة حين هاجروا إلى المدينة ليس في أمة محمد صلى الله عليه وسلم ترهب.(عبد الرحمن بن محمد بن إدريس الرازي ، 1419ه).

المعنى السادس: المداومة على فعل الطاعات ، أخرج ابن أبي حاتم أن عثمان بن مظعون رضي الله عنه أراد أن ينظر أيستطيع السياحة ؟! قال: كانوا يعدون السياحة قيام الليل وصيام النهار(عبد الرحمن بن محمد بن إدريس الرازي ، 1419ه).

قال العلامة ابن القيم:" وفسرت السياحة بالصيام ، وفسرت بالسفر في طلب العلم ، وفسرت بالجهاد ، وفسرت بدوام الطاعة. والتحقيق فيها أنها سياحة القلب في ذكر الله ومحبته والإنابة إليه والشوق إلى لقائه ويترتب عليها كل ما ذُكر من الأفعال ، ولذلك وصف الله سبحانه نساء النبي اللاتي لو طلق أزواجه بدّله بهن بأنهن: (سَائِحَاتٍ) التحريم5] ، وليست سياحتهن جهادًا ولا سفرًا في طلب علم ولا إدامة صيام وإنما هي سياحة قلوبهن في محبة الله تعالى وخشيته والإنابة إليه وذكره. وتأمل كيف جعل الله سبحانه التوبة والعبادة قرينتين هذه ترك ما يكره وهذه فعل ما يحب ، والحمد والسياحة قرينتين هذا الثناء عليه بأوصاف كماله وسياحة اللسان في أفضل ذكره وهذه سياحة القلب في حبه وذكره وإجلاله ، كما جعل سبحانه العبادة والسياحة قرينتين في صفة الأزواج فهذه عبادة البدن وهذه عبادة القلب"(محمد بن أبي بكر بن أيوب ، ابن قيم الجوزية ، 1428ه).

وقال الشيخ عبدالرحمن بن سعدي:" والصحيح أن المراد بالسياحة السفر في القربات ؛ كالحج والعمرة ، والجهاد ، وطلب العلم ، وصلة الأقارب ، ونحو ذلك"(عبد الرحمن بن ناصر السعدي ، 1420ه).

وكل ما سبق يندرج تحت السير في الأرض ، استجابة لأمر الله تعالى ، في مثل قوله: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴾ [النمل: 69] وقوله جل وعز: ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴾ [الملك: 15].

المعنى السابع: السير في الأرض ، ومنها قوله تعالى:(فسيحوا في الأرض أربعة أشهر...) ، قال الإمام الطبري في تفسيره:" يعني فسيروا في الأرض مقبلين مدبرين ، آمنين غير خائفين من رسول الله ρ وأتباعه"(محمد بن جرير الطبري ، 1422ه).

المعنى الثامن: التنقل من بلد إلى بلد طلبًا للتنزه أو الاستطلاع والكشف ، كما عرّفها المجمع العلمي بالقاهرة. (إبراهيم مصطفى ، أحمد الزيات ، حامد عبد القادر ، محمد النجار ، 2004م).

وهذا المعنى حادث ، فمن الخطأ إنزال المدح أو الذم الوارد في النصوص على هذا النوع من السياحة بمعناها المعاصر الحادث وما عرفه الناس من السفر والتنقل بين البلدان للتنزه والفرجة والاستمتاع.

وبناء عليه فكل سياحة رغب فيها الشارع فهي تعني التقرب إلى الله تعالى بالطاعات والقربات من صيام وحج وعمرة وجهاد وطلب علم ونحو ذلك ، وكل سياحة ورد ذمها في النصوص أو في كلام أهل العلم فهي سياحة العُباد والزهاد ، وهي الترهب والانقطاع واعتزال الناس والهيام على الوجه في البراري والصحاري والقفار.

المبحث الثاني: أقسام السياحة.

تنقسم السياحة إلى ثلاثة أقسام ، هي:

1.نوع مشروع ، وهو الصوم حسب المفهوم الشرعي ، أو السفر من أجل طلب العلم ، أو الجهاد بمفهومه الشامل ، ونحو ذلك.

2.نوع ممنوع ، وهو التبتل والانقطاع للعبادة ، واعتزال الناس في البراري.

3.نوع مباح ، وهو مرتبط بمقصد السفر وحكمه ، حيث إن مصطلح السياحة تطور في العصر الحديث ، ولم يعد مرتبطاً بالدين والعبادة ، بل أصبح من الشؤون الدنيوية العادية ، فإذا كان السفر مباحًا إلى مكان لا يحرم قصده فهو مباح ، وإن تخلل ذلك معصية ، إذ إن أصل السفر مباحًا ، وهو ما يسمى عند الفقهاء بالمعصية في السفر ، وأما إذا كان السفر محرمًا كمن قصد بسفره ارتكاب الفواحش أو إبرام عقد ربوي أو قصد مكانًا حرامًا ، فهو العاصي بسفره ، ويحرم عليه الترخص برخص السفر عند كثير من الفقهاء ، قال ابن قدامة المقدسي:" ولا تباح هذه الرخص في سفر المعصية كالآبق وقطع الطريق والتجارة في الخمر والمحرمات نص عليه أحمد"(عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي ، 1388ه) ؛ لأن الرخص عندهم لا تستباح بسفر المعصية.

المبحث الثالث: ضوابط السياحة الدينية

للسياحة الدينية ضوابط لابد من مراعاتها ، وهي كالآتي:

أولًا: حرمة السفر قصدًا لبقعة معينة للعبادة ، سوى ما عينه الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم مثل زيارة المساجد الثلاث ، قال صلى الله عليه وسلم: " لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد ؛ المسجد الحرام ، والمسجد الأقصى ، ومسجدي هذا" أخرجه البخاري ، حديث رقم 1188 ومسلم حديث رقم 1397.(محمد بن إسماعيل البخاري ، 1379ه ، مسلم بن الحجاج النيسابوري ، 1414ه). وقد دل الحديث على النهي عن السفر لقد مكان مقدس غير هذه المساجد الثلاث ، وهذا لا يعني حرمة زيارة المساجد في بلاد المسلمين ، ولكن الممنوع هو إنشاء السفر لقصدها.

ثانيًا: ما يتعلق بزيارة آثار الأمم السابقة وأماكنهم، فإن ذلك لا يخلو من حالين: أ. أن يكون السفر لها والسياحة فيها لمصلحة راجحة ؛ كتعليم أو توثيق أو دعوة للإسلام، ونحو ذلك، فهو جائز بشرط أن يكون الذاهب لها على هيئة من الخوف والبكاء، قال صلى الله عليه وسلم:" لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم لا يصيبكم ما أصابهم" (أخرجه البخاري، رقم الحديث 433، ومسلم، رقم الحديث 2981). ب. وإما إذا كان بقصد التنزه ونحوها فإنه لا يجوز الذهاب له، للحديث السابق. قال العلامة ابن القيم- في أثناء ذكره للفوائد والأحكام المستنبطة من غزوة تبوك- ومنها:" أن من مرَّ بديار المغضوب عليهم والمعذبين لا ينبغي له أن يدخلها، ولا يقيم بها، بل يسرع السير، ويتقنع بثوبه حتى يجاوزها، ولا يدخل عليهم إلا باكياً معتبراً، ومن هذا إسراع النبي صلى الله عليه وسلم السير في وادي محسر بين منى ومزدلفة، فإنه المكان الذي أهلك الله فيه الفيل وأصحابه".(محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية، 1415هـ).

ثالثًا: إحسان القصد من السياحة وأن يكون غرضها مباحًا.

رابعًا: محافظة السائح على الفرائض والواجبات.

خاتمة: الحمد لله أولًا وآخرًا وظاهرًا وباطنًا على ما يسر به من إتمام هذا البحث، الذي توصلت فيه إلى ما يلي من النتائج:

أولًا: أن مصطلح السياحة ورد في القرآن والسنة والنبوية.

ثانيًا: أن مصطلح السياحة تطور في العصور المتأخر، فأصبح يعني التنزه والتنقل من بلد إلى بلد للمتعة والفرجة وزيارة الآثار القديمة.

ثالثًا: عدم حمل ما ورد من مدح أو ذم لمصطلح السياحة في النصوص الشرعية أو من أقوال السلف الصالح على معناها المعاصر.

رابعًا: تنقسم السياحة إلى ثلاثة أقسام، ممنوع ومشروع ومباح.

خامسًا: إن للسياحة ضوابط شرعية وردت بها نصوص الكتاب والسنة.

وأما التوصيات:

أولًا: الاهتمام بالسياحة الدينية وإعطائها حقها من الأبحاث الشرعية.

ثانيًا: إقامة مؤتمر للسياحة الدينية يكز على مفهومها وتعريفها وأقسامها.

ثالثًا: استكتاب علماء الأمة في السياحة الدينية وبيان موقف الإسلام منها.

قائمة المراجع:

-تفسير القرآن العظيم مسنداً عن رسول الله ρ والصحابة والتابعين، لأبي محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس بن المنذر التميمي، الحنظلي، الرازي ابن أبي حاتم، تحقيق: أسعد محمد الطيب، الناشر: مكتبة نزار مصطفى الباز - المملكة العربية السعودية، الطبعة: الثالثة، سنة النشر: 1419هـ.

-تفسير القرآن العظيم، لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري،

-تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، لـ: عبد الرحمن بن ناصر السعدي، المحقق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى 1420هـ.

-جامع البيان في تأويل القرآن، لأبي جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، تاريخ النشر:1420 هـ - 2000 م

-حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح ، لأبي عبدالله محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية ، تحقيق: زائد بن أحمد النشيري ، إشراف: بكر بن عبدالله أبو زيد ، الناشر: دار عالم الفوائد ، الطبعة 1 ، سنة النشر: 1428هـ.
-السنن الكبرى ، لأبي بكر أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخراساني البيهقي ، تحقيق: محمد عبدالقادر عطا ، الناشر: دار الكتب العلمية ، بيروت — لبنان ، الطبعة الثالثة ، سنة النشر: 1424 هـ.
-السياحة الدينية وأثرها في الدخل القومي العراقي ، جعفر طالب أحمد ، مجلة الكوت للعلوم الاقتصادية والإدارية ، ج1 عام 2012م ، منشورات جامعة واسط).
-فتح الباري شرح صحيح البخاري ، لأبي الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي ، قام بإخراجه وصححه وأشرف على طبعه: محب الدين الخطيب ، عليه تعليقات العلامة: عبد العزيز بن عبد الله بن باز ، الناشر: دار المعرفة- بيروت ، سنة النشر: 1379هـ.
-لسان العرب ، لأبي الفضل محمد بن مكرم بن علي جمال الدين ابن منظور ، الناشر: دار صادر-بيروت ، الطبعة الثالثة ، سنة النشر: 1414هـ.
-مجموع الفتاوى ، لأبي العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني ، الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف ، المدينة النبوية ، المملكة العربية السعودية ، سنة النشر: 1416هـ.
-محاسن التأويل ، محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق القاسمي ، المحقق: محمد باسل عيون السود ، الناشر: دار الكتب العلمية — بيروت ، الطبعة: الأولى ، سنة النشر: 1418 هـ.
-المستدرك على الصحيحين ، محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري
-معالم التنزيل في تفسير القرآن ، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي
-المعجم الوسيط ، إبراهيم مصطفى ، أحمد الزيات ، حامد عبد القادر ، محمد النجار
-معجم مقاييس اللغة ، أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي
-المفردات في غريب القرآن ، الحسين بن محمد بن المفضل الأصفهاني
-نحو مفهوم أعمق وأشمل للسياحة ، للدكتور: عبدالله بن إبراهيم الطريقي ، منشورات مجلة الجزيرة بعددها 10100 تاريخ 1421/2/20هـ).
-النهاية في غريب الحديث والأثر ، مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد بن محمد ابن الأثير ، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي و محمود محمد الطناحي ، الناشر: المكتبة العلمية ببيروت ، سنة النشر 1399هـ.
-صحيح وضعيف سنن أبي داود ، محمد ناصر الدين الألباني.
-المغني ، لأبي محمد موفق الدين عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي ، الناشر: مكتبة القاهرة ، الطبعة: بدون ، تاريخ النشر 1388هـ.
-الضوابط الشرعية للسياحة الترويحية في الفقه الإسلامي ، محمد خالد منصور وخالد شجاع العتيبي ، دراسات علوم الشريعة والقانون ، المجلد 36 ملحق 2009م.
-السياحة في الإسلام- أحكامها- ضوابطها- آثارها- واقعها المعاصر في المملكة العربية السعودية ، بحث تكميلي مقدم لنيل درجة الماجستير في الفقه المقارن ، لـ: عبدالله إبراهيم بن صالح الخضيري ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية- المعهد العالي- قسم الفقه المقارن ، 1426/1425هـ.
-حقيقة مفهوم السياحة في القرآن الكريم وضوابطها الشرعية ، فوزية الصادق أحمد العموري ، مجلة الدراسات الإسلامية والفكر للبحوث التخصصية ، المجلد 3 العدد 4 تشرين أول ، أكتوبر 1439هـ - 2017م.
-السياحة في ضوء القرآن الكريم (دراسة استقرائية)، لـ: ناجحة بنت عبدالله أو أزهري ، بحث تكميلي مقدم لنيل درجة الماجستير في معارف الوحي والتراث (قسم القرآن والسنة)، الجامعة الإسلامية العالمية ماليزيا ، كلية معارف الوحي والعلوم الإنسانية ، 2009م.
-أحكام السياحة وآثارها- دراسة شرعية مقارنة ، لـ: هاشم بن محمد بن حسين ناقور ، الناشر: دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع- المملكة العربية السعودية- الدمام ، الطبعة الأولى ، 1424هـ.
-زاد المعاد في هدي خير العباد ، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية ، الناشر: مؤسسة الرسالة ، بيروت - مكتبة المنار الإسلامية ، الكويت ، الطبعة: السابعة والعشرون 1415هـ.

الإعلام العمومي، الخاص والمجتمع في الجزائر 1990-2019

د.بلحاجي وهيبة ، المدرسة الوطنية العليا للصحافة – الجزائر.

سنحاول تسليط الضوء في هذا الموضوع على أهم التحولات التي عرفها الإعلام العمومي و الخاص حسب التغيرات السياسية التي عرفتها الجزائر بداية من الحزب الواحد إلى التعددية الحزبية و السياسية من خلال أول دستور تعددي عام 1989 و الإصلاحات التي عرفتها البلاد في عام 2011 في إطار الانتقال الديمقراطي الذي تعرفه الجزائر منذ أحداث 5 أكتوبر 1988 إلى غاية الحراك الشعبي الذي تعيشه منذ فيفري 2019.

وفي هذا الإطار ، اعتبر الإعلام العمومي المهيمن على الساحة الوطنية منذ 1962 إلى غاية 1990 كقطاع إستراتيجي والناطق الرسمي للدولة و لحزب جبهة التحرير الوطني من خلال قناة تلفزيونية عمومية وحيدة و 6 يوميات عمومية. لكن ، شكل ميلاد الصحف الخاصة بعد قانون الإعلام عام 1990 نتيجة تغيرات سياسية تمثلت في بداية الانتقال الديمقراطي منذ 1988 ، ثورة في المشهد الإعلامي لأنها تمثل **مرحلة البحث عن الحرية التي لم يشهدها المجتمع الجزائري من قبل.**

بداية من سنوات الألفين ، **أصبحت الصحف الخاصة كطرف معارض** على غرار يومية الوطن ، ليبرتي الناطقتين باللغة الفرنسية بفضل استقلاليتها المالية و المادية في ظل غياب الأحزاب السياسية عن النقاش السياسي و قضايا الفساد مما جعل من الصحف الخاصة الوسيط الوحيد بين السلطة الحاكمة و المواطن. خاصة ، إذا علمنا ، بأن المشهد الإعلامي عرف 140 يومية خاصة مقابل 6 يوميات عمومية عام 2012.

لكن ، على الرغم من التغيرات التي عرفها المشهد الإعلامي بداية من عام 2012 بتحرير النشاط السمعي البصري والاعتراف بنشاط المواقع الإخبارية الالكترونية في القانون العضوي لإعلام عام 2012. إلا ، أن الإعلام الخاص عرف بداية من 2014 ، أزمة مالية خانقة إلى غاية اليوم مما غير من موازين القوى في الإعلام الجزائري بوجود تعددية إعلامية شكلية تتمثل في انفجار في الصحف الطفيلية و القنوات التلفزيونية الخاصة التابعة للمجموعات الإعلامية التقليدية التي تنشر الثقافة الشعبوية بفضل المساعدات الغير المباشرة للدولة كالمطابع و الإشهار العمومي في ظل فشلها إلى جانب الإعلام العمومي في تغطية الحراك الشعبي منذ فيفري 2019 مقارنة بشبكات التواصل الاجتماعي و المواقع الإخبارية الالكترونية التي استطاعت نقل كل أحداث الحراك بكل حرية من بداياته الأولى إلى غاية الآن على الرغم من حجب البعض من المواقع على غرار موقع tsa منذ 12 جوان 2019.

ارتبط تطور الإعلام العمومي و الخاص في المجتمع الجزائري بمختلف التحولات التي عرفتها البلاد بعد الاستقلال خاصة منذ إقرار التعددية السياسية و الحزبية من خلال دستور 1989 وصولا إلى سلسلة الإصلاحات التي اعتمدتها البلاد بداية من عام 2011 إلى غاية اليوم . و بالتالي ، يمكن اعتبار فتح مجال السمعي البصري لخواص بداية من عام 2012 أي بعد مرور 24 سنة من صدور أول قانون إعلام تعددي عام 1990 و تنامي دور المواقع الإخبارية الالكترونية و شبكات التواصل الاجتماعي في إعلام المواطن في إطار حقه في المعلومة خاصة في ظل التحولات السياسية التي تعرفها البلاد منذ فيفري 2019 ، أهم نقاش مطروح

على الساحة الوطنية في إطار دراسة طبيعة العلاقة التي تحكم الإعلام بالمجتمع و بالدولة منذ ميلاد الصحف الخاصة عام 1990 إلى غاية اليوم.

وانطلاقا مما سبق ، فإن فهم تلك العلاقة مرتبط بعرض أهم المراحل التي مرت بها وسائل الإعلام العمومية و الخاصة في ظل التغيرات التي عرفتها البلاد خاصة منذ سنوات الألفين نظرا لمتغيرات السياسية ، الأمنية و الإقتصادية التي أثرت على مكانة مختلف وسائل الإعلام و دورها في الحياة السياسية. و في هذا الإطار ، لعبت آنذاك الشروط الاقتصادية المتمثلة في انتعاش سوق الإشهار في تكون صحف خاصة قوية في تفعيل النقاش السياسي الدائر بين المجتمع و الدولة في إطار الانتقال الديمقراطي المستمر للجزائر منذ أحداث أكتوبر1988. (Voir Nassima FERCHICHE, 2011).

المرحلة الأولى: الإعلام العمومي كقطاع إستراتيجي 1962-1989: تميزت هذه المرحلة بتجنيد الإعلام بما يخدم توجهات البلاد بعد الاستقلال و القائمة على الحفاظ على مكتسبات الثورة التحريرية و الاختيار الاشتراكي القائم على الأحادية الحزبية و الاقتصاد الموجه. لذلك ، أقرت معظم المواثيق و الدساتير التي عرفتها الجزائر منذ دستور 1963 إلى غاية دستور 1989 بنظام الحزب الواحد ؛ في كل من دستور1963 ، ميثاق الجزائر 1964 ، دستور 1976 ، ميثاق 1976 و ميثاق 1986.

ففي ظل المعطيات التي طبعت المشهد السياسي الجزائري بعد الاستقلال ، « حرصت الجزائر منذ بداية تجربتها الإعلامية بعد الاستقلال إلى غاية سنة 1988 ، على وضع سياسة إعلامية تنطلق من إرث ماضيها الثوري ، وطموحات مرحلة ما بعد الاستقلال. لهذا ، تحققت بالفعل عدة إنجازات خاصة في مجال إنشاء البنى الإعلامية القاعدية وتحديث البعض الآخر منها ولكنها لم يصاحبها وضع تصور واضح للسياسة الإعلامية قبل سنة 1982»(صالح بن بوزة ، 1996 ، ص16).

وعليه ، ظلت كل وسائل الإعلام من الصحافة المكتوبة ، التلفزيون و الإذاعة تابعة للقطاع العام وفق ما يمليه التوجه الاشتراكي و قرارات حزب جبهة التحرير الوطني. كما ، لم تشهد فترة ما قبل 1982 أي قانون ينظم قطاع الإعلام ، يوضح السياسة الإعلامية في الجزائر بل مجموعة قرارات ، مراسيم ولوائح « كان الإعلام بعد الاستقلال في فترة حكم حزب الواحد حزب جبهة التحرير الوطني إلى غاية دستور 1989 موجها على جميع المستويات: الصحافة المكتوبة ، المطابع ،استيراد الورق ،التوزيع ، وكالات الإشهار و الإذاعة و التلفزيون» (Henri PIGEAT et Jean HUTEAU,2000,p495) وفي هذا الإطار ، من أهم الصحف التي صدرت بعد الاستقلال ، نذكر:

-جريدة**Al Chaâb** في 19 سبتمبر1962.

-جريدة **الشعب** في ديسمبر 1962.

-جريدة **La République**في 29مارس1963.

-جريدة**Annasr** عام 1963.

-جريدة**Alger ce soir**عام 1963.

وعليه ، عرف المشهد الإعلامي بعد الاستقلال تعبئة وسائل الإعلام لصالح الدولة و حزب جبهة التحرير الوطني من خلال وسائل إعلام موجهة تدافع عن رأي وحيد في ظل غياب التعددية الحزبية و السياسية.

المرحلة الثانية: ميلاد الصحف الخاصة في ظل تدهور الحالة الأمنية و الاقتصادية 1990 -1999: اعتبر صدور دستور 1989 ، منعرجا حاسما بالنسبة لتاريخ السياسي الجزائري. ذلك لأنه ، سمح لأول مرة بإحداث تغيير جذري في كل المؤسسات الفاعلة في المجتمع بداية من الدولة ، الأحزاب السياسية و وسائل الإعلام بما يكرس ميلاد نظام سياسي قائم على الديمقراطية. وعليه ، عرف النظام الإعلامي نتيجة الانفتاح السياسي الذي أقره دستور 1989 ، صدور أول قانون يقر بالانفتاح الإعلامي بتاريخ 3 أفريل عام 1990 ، الذي أحدث القطيعة مع الإعلام النضالي الذي ميز السياسة الإعلامية منذ الاستقلال إلى غاية 1989.

وفي هذا الموضوع ، سمح قانون الإعلام عام 1990 من خلال المادة 14 منه بميلاد عدة عناوين صحفية أطلق عليها "**بالصحافة المستقلة**" بعدما كان المشهد الإعلامي مقتصرا على 4 جرائد عمومية ثم 6 يوميات تابعة للدولة. يضاف إليها ، الجرائد المسائية التي صدرت في نوفمبر1985 ، بسحب يقدر ب666.273 نسخة مقابل 22 مليون نسمة في عام 1984 و بعض المجلات التابعة للهيئات العمومية(أنظر ، وزارة الاتصال ، 2006 ، ص3).

وبالتالي ، لم تغطي الصحافة المكتوبة قبل 1990 كل احتياجات أفراد المجتمع من قراءة الصحف و هو ما يعد احد الدوافع التي كانت وراء اتجاه القراء نحو العناوين الأجنبية المستوردة خاصة من فرنسا مثل Le Monde و Libération. وكذلك الثقافية منها مثلLa femme d'Aujourd'hui. وفي هذا الإطار ، بلغت مبيعات Le Monde في الجزائر عام 1984 ب15.000نسخة. (Voir Brahim BRAHIMI, 2002, p72).

لكن ، بعد إصدار القانون الإعلام لعام1990 ، عرف المشهد الإعلامي تنوعا في العناوين ، تتوزع على الصحف " العمومية" التابعة للدولة ، الصحف الحزبية. و أخيرا ، "الصحف "المستقلة"، التي أنشأها الأفراد أو الصحفيين المتميزة عن الصحف العمومية بكونها أكثر حرية في التعامل مع الحدث بعيدا عن الخطاب الرسمي وهو ما يعد أسلوبا جديدا في التعامل مع الخبر لم يعهده القارئ من قبل مع الصحف التابعة للدولة ويمثل قطيعة حقيقية مع الإعلام الموجه قبل 1989. وعليه ، ففي « فترة قصيرة ممتدة ما بين 1990-1991 ، ظهرت 4 يوميات وهي ليبرتي ، لسوار دالجيريه ، الوطن ، لومتان بسحب يقدر ب100.000نسخة لكل واحدة » (Jean Paul CHAGNOLLAND, 1998, p38)

وفي هذا الموضوع ، تعد جريدة لـــوســوارد الجـــــيريه Le Soir D'Algérie أول صحيفة مستقلة ناطقة بالفرنسية أنشأت في سبتمبر 1990. أما ، أول يومية مستقلة ناطقة باللغة العربية فهي جريدة الخبر التي صدرت في شهر نوفمبر من سنة 1990. بإضافة إلى عناوين أخرى ، كالساخرة منها مثل Manchar، المتخصصة مثل أسبوعية الرياضي والحزبية مثل النبأ. وفي هذا الإطار ، سيطرة الصحف التي أنشاها الصحفيون في شكل تعاونيات صحفية على باقي الصحف التي عرفها المشهد الإعلامي في الجزائر. وعلينا الإشارة ، إلى أن أغلبية الصحفيين الذين أصدروا"الصحف المستقلة"، هم صحفيين سابقين في الصحف العمومية خاصة جريدة El Moudjahid ، التي تعتبر ، كمدرسة الصحافة المكتوبة بالنسبة للجيل الأول من الصحفيين بعد الاستقلال. لهذا« يمثل أغلبية الأعضاء المؤسسين لجريدة El Watan ، صحفيين محترفين في جريدة El Moudjahid التي تعد قاعدة الصحافة المكتوبة الناطقة بالفرنسية و هذا ما يعتبر اكبر مكسب

بالنسبة لهذه الجريدة (Voir Omar BERBICHE, 2010, p3).وفي نفس الموضوع ، أسس 26 صحفيا كانوا يشتغلون في يومية الشعب و المساء ، يومية الخبر الناطقة بالعربية(Hacène OUALI, 2010, p3) .

بالنسبة للصحف الحزبية ، فكانت حصتها من المشهد الإعلامي ضئيلة مقارنة بعدد الأحزاب المعتمدة آنذاك و المقدرة بحوالي 18 حزبا: النشرية النصف شهرية " المنقذ " لجبهة الإنقاذ المنحلة التي قدر سحبها بأكثر من 100.000نسخة ، نشريةL'Avenir للتجمع من اجل الثقافة و الديمقراطية حيث صدر منها أربعة أعداد بسحب يقدر بأكثر من100.000 نسخة. وأخيرا ، الحزب الشيوعيPAGS الذي أصدر جريدة Alger Républicainبسحب يقدر ب75.000نسخة بالنسبة لطبعة الناطقة باللغة الفرنسية و 25.000 نسخة لطبعة باللغة العربية(Voir, Brahim BRAHIMI, p.137-138)

وعليه ، سمح قانون الإعلام 1990 بميلاد صحف خاصة في إطار مرحلة البحث عن الحرية في ظل تدهور الحالة الأمنية والاقتصادية للبلاد مابين 1990- 1999 و هذا من خلال مرحلتين:

أ.**الانتشار بين1990-1991:** تميزت"الصحافة المستقلة" في هذه الفترة بانفجار إعلامي لا مثيل له في تاريخ الوطن العربي ، محاولة منها التعبير عن واقع سياسي جديد يشمل مختلف مظاهر ممارسة الديمقراطية من أحزاب سياسية ، جمعيات ، نقابات و تنظيمات. وبالتالي ، حدث اندفاع إعلامي يحركه منطق حرية الرأي و التعبير الذي لم يكن موجودا قبل إصدار قانون الإعلام لعام1990.

كما ، لعبت الدولة دورا محوريا في دعم هذه الصحف بحيث عرف المشهد الإعلامي انتعاشا من خلال ميلاد عناوين صحفية متنوعة فكريا بفضل الدعم المالي الذي قدم لها من قبل السلطات من اجل مساعدة الصحفيين على إنشاء صحفهم من قروض و دفع مسبق لأجور الصحفيين لمدة عامين من قبل الدولة ، « ساهمت كل من البنوك و مختصين جزائريين في منح مساعدات مالية عمومية قدرت ب200 مليون دينار لتعاونيات الصحفية من أجل تغطية جميع عمليات التحرير ، بإضافة إلى منحها مقرات دار الصحافة في شكل إيجار (El Watan, 3.04.2010, p5)

ومن أهم مميزات الصحف الخاصة ، آنذاك:

-ضعف الصحف الحزبية على الرغم من انطلاقتها القوية بفضل التنوع الحزبي الذي شهدته البلاد عقب الانفتاح السياسي عام 1989. لكنها ، سرعان ما تراجعت بسبب عدة عوامل أهمها ، فشل المشاريع الإعلامية لتلك الأحزاب في ظل الأزمة الاقتصادية التي عصفت البلاد في التسعينيات. يضاف إليها ، تقاطع مصالح بعض الصحفيين مع القناعات الفكرية لأحزاب.

-بداية سيطرة "الصحف المستقلة" على المشهد الإعلامي في ظل بقاء الإذاعة و التلفزيون تحت وصاية الدولة وعدم فتحها للخواص في ظل تراجع الصحافة المكتوبة العمومية. إذ ، بلغ سحب يومية المجاهد العمومية الناطقة بالفرنسية ب170.000نسخة مقابل سحب يقدر ب110.000 نسخة بالنسبة ليومية لوسوارد الجيرية حديثة النشأة. يضاف إليها ، سحب يومية مستقلة أخرى ناطقة بالفرنسية وهي الوطن بسحب يقدر ب90.000 عام1991 (Voir Brahim BRAHIMI,1997,p70)

-صحافة رأي: تعتبر الصحافة الجزائرية صحافة رأي وليست بإخبارية وهو ما أكده الأستاذ الباحث في علم الاجتماع الهواري عدي بوصفها صحافة تحاول نشر مشروع إيديولوجي. كما ، يمكن ملاحظة ذلك إلى غاية اليوم من خلال سيطرة الفكر الصحفي ما بين 2000-2006 على أغلبية المادة الإعلامية المقدمة إلى المجتمع.
-سيطرة الصحافة الناطقة بالفرنسية إلى غاية بداية سنوات الألفين بسبب الإرث الثقافي الذي تركه المستعمر الفرنسي لمجتمع بعد الاستقلال الذي تجسد في تكون طبقة من المثقفين ، الأطباء و الصحفيين المتمكنين من اللغة الفرنسية وهي السمة الغالبة في صحفيي "اليوميات المستقلة" التي اختارت "المغامرة الفكرية".
-الأقطاب الأيديولوجية الصحفية: انقسمت الصحف المستقلة إلى غاية اليوم إلى تيارين :التيار الأول ، الصحف ذات التوجه الإسلامي عن الدولة الإسلامية ، الخلافة ، الشورى مثل يومية الشروق اليومي . التيار الثاني: الصحف ذات التوجه الديمقراطي العلماني عن الديمقراطية ، الحداثة ، التغيير و فصل الدين عن الدولة مثل يومية El Watan و يومية الخبر.

ب. التدهور في ظل إعلان حالة الطوارئ ما بين1992-1999: عرفت الجزائر بعد إعلان حالة الطوارئ بتاريخ 9 فيفري 1992 موجة من العنف الإرهابي الذي طال كل أفراد المجتمع دون استثناء خاصة في السنوات الممتدة مابين 1992-1999 مما أثر على كل القطاعات. وعليه ، كانت الصحافة من أكثر ضحايا همجية الإرهابيين في ظل ركود الحالة الاقتصادية لبلاد آنذاك.

يمكن إرجاع أهم أسباب تدهور الصحافة "المستقلة" بعد 1992 إلى سببين مهمين ، وهما:

أولا ، اعتماد المؤسسات الصحفية منذ بداية الانفتاح الإعلامي على مساعدات المالية و المادية لدولة في ظل بحثها عن الحرية دون توفرها على قاعدة اقتصادية متينة قادرة على التحكم في الشروط الاقتصادية المتحكمة في النشاط الصحفي و المؤسسة الصحفية في ظل الأزمة الإقتصادية التي كانت تعرفها البلاد آنذاك. وعليه ، اختفت العديد من الصحف لأسباب مالية أو لأسباب أخرى.

ثانيا ، تأثير الوضع الأمني على الممارسة الإعلامية من خلال المتابعات القضائية التي تعرض لها الصحفيون بسبب "الأخبار الأمنية" بعد إعلان حالة الطوارئ بتاريخ 9 فيفري 1992.يضاف إليها ، تهديدات الإرهابية لصحفيين كذلك.

وفي هذا الموضوع ، فقدت الأسرة الإعلامية مابين 1993 إلى غاية 1997 ما يقارب سبع و تسعون صحفيا بإضافة إلى عدد من المفقودين و المقدر عددهم ب5 في 1994.-(Voir Lazehari LABTER, 2005, pp230-232)

وعليه ، بعدما عرفت الجزائر ما بين 1962-1989 سيطرة الإعلام التابع للدولة على المشهد الإعلامي إلا أن ما طبع بداية القطيعة مع تلك المرحلة ما بين 1990-1999 هو ميلاد صحف خاصة تبحث عن الحرية و التميز عن الإعلام الرسمي لكن في ظل ظروف أمنية و اقتصادية جد صعبة تمثلت في غلق العديد من الشركات الأجنبية و الوطنية.

المرحلة الثالثة: نتعاش و انفجار في الصحف الخاصة في ظل الفوضى الإعلامية 2000-2014: عرفت الصحافة الخاصة في هذه المرحلة انتعاش بفضل عدة عوامل أهمها عودة المستثمرين الأجانب إلى الجزائر بعد سنوات من العزوف بسبب الوضع الأمني. يضاف إلى ذلك ، انتعاش سوق الإشهار بسبب تنوع و ازدهار المناخ

الاقتصادي و التجاري للبلد مع ارتفاع أسعار البترول مما سمح بانفجار غير مسبوق في الصحف الخاصة و بتشكل صحف مستقلة ماليا و ماديا كطرف قوي في الساحة الإعلامية و السياسية خاصة فيما يتعلق بقضايا الفساد ، حرية التعبير و الديمقراطية في الجزائر على غرار اليوميات التالية: El watan ، Liberté و أخيرا ، الخبر.

كما ، أدى صدور أول قانون إعلام عضوي عام 2012 يقر بالحق في الإعلام و حرية الصحافة في المادة الأولى منه في إطار الإصلاحات التي باشرتها الدولة عام 2011 من أهمها: رفع حالة الطوارئ بتاريخ 22 فيفري2011 و إصدار قوانين جديدة على غرار قانون الأحزاب و مشروع قانون السمعي البصري عام 2013 ، إلى تطور المشهد الإعلامي من خلال ظهور قنوات تلفزيونية خاصة بفضل المادة 61 منه و عدة مواقع إخبارية إلكترونية من خلال المادة67 منه. (أنظر قانون الإعلام 2012) ، وتميز المشهد الإعلامي آنذاك بما يلي:

إزدهار و إنفجار كمي و نوعي للصحف الخاصة: عرف المشهد الإعلامي نموا بالنسبة لصحافة الخاصة اليومية مقارنة بالصحف العمومية في ظل إحتكار الدولة لمجال السمعي البصري إلى غاية عام 2012. إذ ، عرفت الصحف الخاصة أوج إزدهارها بسبب إنتعاش مداخيلها من الإشهار وتعدد المستثمرين و الشركاء الإقتصاديين. و لكن ، على وجه الخصوص ، سوق الخدمات من قبل متعاملي الإتصالات على غرار مؤسسة جيزي ثم نجمة تليها وكلاء السيارات خاصة الفرنسية منها خلال عام 2011. مما ،سمح لبعض اليوميات من كسب قاعدة مالية و مادية مريحة على غرار يوميتي الخبر ، الوطن و ليبرتي ، وفي هذا الموضوع ، تمثل أغلبية الصحف الخاصة شركات ذات مسؤولية محدودة (يوسف العقون ، 2010 ، ص.15.).

من حيث الكمية: شهدت الصحف الخاصة بداية من سنة 2000 إرتفاعا في عدد العناوين و في حجم السحب بحيث سجل خلال سنة 1999 ، 103 عنوانا بمعدل سحب يومي يقدر ب**1.620.000** نسخة ليرتفع إلى 250 عنوانا خلال عام 2004 بمعدل سحب يومي يقدر ب**2.000.000** نسخة ثم إلى 291 عنوانا عام 2008 بمعدل سحب يومي يقدر ب**2.428.507** نسخة[1] . واخيرا ، بلغ حجم سحب مجموع العناوين عام 2010 ب**3.471.384** نسخة[2]. لكن ، في المقابل تراجع العديد من الاسبوعيات لصالح اليوميات بحثا عن الاشهار اليومي في ظل الفوضى الاعلامية إذ نجد صحف تطبع في مطابع الدولة لكن دون أن توزع بهدف الحصول على الاشهار.(مقابلة شخصية مع الأستاذ براهيم براهيمي ، 05.06.2011).

فبعدما ، بلغ عدد الأسبوعيات **41 عنوانا عام 2000 ليصل إلى 98 عنوانا عام 2007 إلا أنه تراجع بداية من 2011 ب35 عنوانا**(د.بلحاجي وهيبة ، 2014 ، ص.137). **في حين ، تواصل إرتفاع اليوميات من 52 يومية عام 2007 إلى 113 يومية عام2012.** في هذا الموضوع ، توقفت كل من أسبوعية الخبر تسلية ، الخبر الأسبوعي و حل شركة الخبر الأسبوعي عام 2010. لذلك ، يبين الجدول التالي ، التطور الكمي ليوميات الخاصة في الجزائر ما بين 2000-2012.

الجدول رقم 1: التطور الكمي ليوميات الخاصة في الجزائر بين 2000-2012(د.بلحاجي وهيبة ، ص.498)

السنة	2000	2005	2006	2007	2008	2009	2010	2011	2012
عدد اليوميات	31	43	43	52	68	80	80	96	113

AHCENE-DJABALLAH Belkacem, presse écrite francophone ; chronologie d'une mort programmée, In Le Quotidien d'Oran, du 26.10.2011, n°5140p.07.

من حيث النوعية: سيطرة الصحف الإعلام الشامل: عرف المشهد الإعلامي سيطرة صحف الإعلام الشامل كما هو الشان بالنسبة لأغلبية اليوميات تليها الصحف المختصة في الرياضة على وجه الخصوص.

ارتفاع الصحف الناطقة بالعربية على حساب الناطقة بالفرنسية: سيطرت الصحف الناطقة بالفرنسية على المشهد الإعلامي في التسعينيات بحيث «بلغ عددها عام 1991 **ب8** عناوين من مجموع **12 عنوانا** مقابل**4** ناطقة بالعربية (Belkacem AHCENE-DJABALLAH, 26.10.2011,p7 **).** لكن ، بداية من سنوات الألفين ، سيطرت اليوميات الناطقة بالعربية تدريجيا على المشهد الإعلامي ليصل عددها إلى 51 عنوانا عام 2011 بسحب يقدر ب**1.930.251** مقابل 45 بالفرنسية بسحب يومي يقدر ب **871.834**نسخة(بلحاجي وهيبة ، 2013 ، ص490). ويمكن تفسير ذلك ، ببداية تكون جيل من الصحفيين و القراء المتمكنين من اللغة العربية بعد تعميم سياسة تطبيق العربية في كل القطاعات من التعليم إلى الإدارة.

الصحف الجوارية: بحثا منها عن تفعيل التقارب بين المواطن و نحيطه في ظل الأحداث التي تعرفها البلاد ، إهتم بعض الناشرين بإصدار صحف جوارية خاصة على مستوى الجهة الغربية للبلاد.إذ ، بلغ عددها عام 2010 بـ 21 يومية مقابل 10 بالجهة الشرقية (وزارة الإتصال ،2010) . لكن ، تبقى العاصمة من أكثر المناطق كثافة من حيث تمركز العناوين الصحفية بالنظر إلى أهمية موقعها من الناحية السياسية ، الإقتصادية و الإدارية.

صحف الإثارة: عرف المشهد الإعلامي في سنوات الالفين تنامي المعالجة الإعلامية لأحداث الإجتماعية المثيرة على غرار يوميتي الشروق اليومي و النهار الجديد اللتين تعتبران من أكثر العناوين إثارة.

الملاحق: سعت بعض اليوميات إلى الحصول على مداخيل إضافية من الاشهار بإصدار ملاحق متخصصة كما هو الحال بالنسبة ليومية الوطن الناطقة بالفرنسية من خلال ملاحق متنوعة مثل ملحق صالون السيارات.

من حيث التحولات الإقتصادية لمؤسسات الصحفية:

اختلال البنية الاقتصادية للمؤسسات الصحفية: عرفت الصحافة المكتوبة الخاصة عدة تغيرات اقتصادية بداية من سنوات الألفين بسبب انتعاش سوق الإشهار بعد عودة الشركات الأجنبية مما نتج عنه اختلال في البنية الاقتصادية للمؤسسات الصحفية: أولا ، **الصحف القوية ذات الاستقلالية المادية و المالية الكاملة على غرار يومية El Watan، ثانيا، الصحف القوية ذات الاستقلالية المالية و المادية الجزئية على غرار يومية النهار الجديد وثالثا، الصحف الضعيفة على غرار يومية المحور، الأحداث، La Nouvelle République.**

و في هذا الموضوع ، نجد مؤسسات صحفية ضخمة من حيث الاستثمارات تتمتع باستقلالية مادية ومالية على غرار يوميتي الوطن ، الخبر اللتين تمتلكان شركة لطبع و التوزيع المتمثلة في الشركة الجزائرية لطباعة و

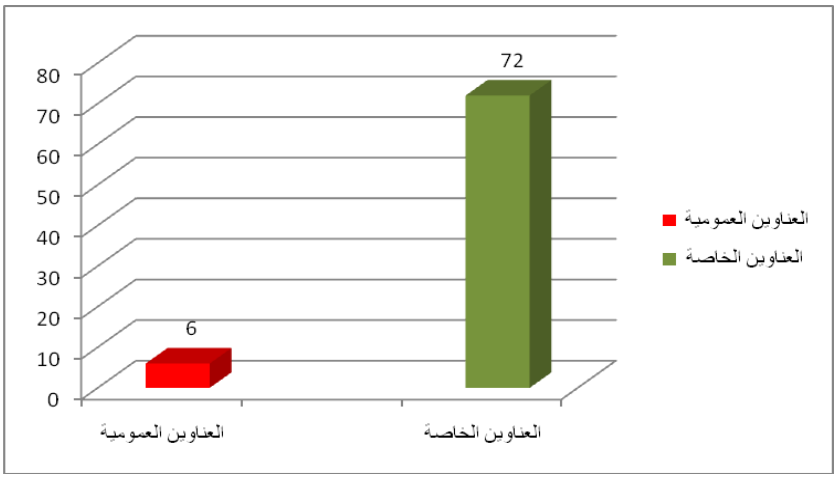
توزيع الصحافة ALDP. لذلك ، فهما تمثلان "**النموذج المتداخل**"(Michel MATHIEN,2003,p105) الوحيد حتى الآن لصناعة الصحف بفضل مداخيلها من إشهار الخاص الآتي سابقا من الشركات الأجنبية المتخصصة في الخدمات كمتعامل الهاتف النقال و وكلاء السيارات. لكن ، تعرف حاليا هاتين اليوميتين صعوبات مالية منذ 2014 خاصة بالنسبة ليومية الخبر التي لم تنجح في بيع أسهم مجموعتها لمجمع ربراب في صائفة 2016 خاصة بعد إطلاقها لقناة كي بي سي أمام تفاقم وضعيتها المالية. في المقابل ، تعتمد أغلبية الصحف على إمكانيات الدولة في الطبع و في الإشهار وهو ما يجعلها تمثل النموذج "**الغير المتداخل** " لصناعة الصحف(Michel MATHIEN, p106)

الصحف كمشاريع إستثمارية: ظهرت عدة مجموعات إعلامية مستثمرة في الصحف بحيث يملك أصحابها أكبر التجمعات الصناعية والخدماتية لكن نشاطها عرف توسعا ليمتد إلى مجال السمعي البصري و الانترنت بهدف الدفاع عنها مصالحها الاقتصادية و السياسية . وفي هذا الموضوع ، نجد مجموعة ربراب المالك لمجمع سفيتال ليوميتي ليبرتي و محاولته لشراء مجموعة الخبر بما فيها قناة كي بي سي عام 2016. وكذلك ، مجموعة حداد ، لرجل الأعمال حداد المختص في الأشغال العمومية ، الرئيس السابق لمنتدى المؤسسات و المالك ليومتي الوقت الناطقة بالعربية و بالفرنسية و قناتي الجزائر نيوز و ألجيري نيوز. أخيرا ، مجموعة النهار لصحفي أنيس رحماني المالك ليومية النهار الجديد ، قناة النهار و عدة مواقع إخبارية إلكترونية على غرار موقع Algérie confidentiel.com و Alg24. يضاف إليهم ، عدة مستثمرين في مجال الصحف و القنوات التلفزيونية لكن هم غير معروفين بالنسبة لرأي العام.

إستمرار تراجع الصحف العمومية: شهدت سنوات الالفين ارتفاع في عدد و سحب الصحف اليومية الخاصة مقارنة بالصحف العمومية في المشهد الإعلامي الجزائري في ظل غياب دور فعال لإعلام العمومي و لأحزاب مما سمح لها بأن تكون أهم قناة لإعلام المواطن كطرف معارض و الوسيط الوحيد بين الدولة والمواطن. و في هذا الموضوع ، تعتبر كل من يومية الشعب ، المجاهد ، اوريزون ، المساء ، الجمهورية و النصر مؤسسات عمومية ذات طابع اقتصادي في شكل شركات ذات أسهم. لكنها ، تتمتع بالاستقلالية المالية بحيث وضعت ، تلك المؤسسات في شكل مجموعة الصحافة والاتصالSGP Presse et communication وبعدها تحت الوصاية المباشرة لوزارة الإتصال منذ 2008.

حسب إحصائيات وزارة الإتصال لعام 2006 هناك 6 يوميات عمومية بسحب يقدر ب69450 نسخة تتصدرها المجاهد بسحب يقدر ب17500 نسخة مقابل 37 يومية خاصة بسحب يقدر ب 1.311.500 نسخة (وزارة الإتصال ،2006). ليرتفع الفارق أكثر فأكثر ، ليصل إلى 6 يوميات عمومية مقابل 72 عام 2010. وهذا ما يبينه الشكل رقم 1.

الشكل رقم (1) يبين عدد اليوميات الخاصة و العمومية لعام 2010 (د.يوسف العقون ، ص15)



-

ظهور القنوات التلفزيونية خاصة و غياب الإذاعات الخاصة: فتح مجال السمعي البصري للخواص لأول مرة في تاريخ الإعلام الجزائري أي منذ الاستقلال من خلال بعض القنوات التلفزيونية الخاصة بداية من عام 2012 أي قبل صدور قانون السمعي البصري عام 2014. وفي هذا الموضوع ، عرف المشاهد الجزائري لأول مرة قنوات تلفزيونية خاصة بعدما سيطر على الفضاء العمومي الخطاب الرسمي عبر التلفزيون العمومي و القنوات التلفزيونية الفضائية المغربية ، الفرنسية ثم الخليجية.

وفي هذا الإطار ، لم تعد الصحف الخاصة الوحيدة التي تنقل أحداث المجتمع بل أصبحت تنافسها في ذلك القنوات التلفزيونية الخاصة من خلال نقل مشاكل المواطنين و الكشف عن فضائح سوء التسيير على غرار قناتي النهار و الشروق اليومي. إذ ، بلغ عدد القنوات أكثر من 60 قناة تمثل مكاتب أجنبية أي غير خاضعة للقانون الجزائري من بينها 5 قنوات معتمدة مؤقتا وهي: النهار تي في ، الجزائر تي في ، الشروق تي في ، الجزائرية و أخيرا الهقار التي توقفت عن البث.

كما ، تمثل القنوات مجموعات إعلامية كبيرة في الصحف الخاصة بفضل عائداتها من الإشهار الذي سمح لها بالاستثمار في النشاط السمعي البصري كمجموعة النهار التي تصدر يومية النهار الجديد لمديرها أنيس رحماني. كما ، أدت هذه الوضعية الجديدة إلى اختلال المشهد الإعلامي بسبب تنامي القنوات التلفزيونية الخاصة مقابل قناة تلفزيونية عمومية وحيدة و التي تشمل 5 قنوات فرعية يحكمها المرسوم التنفيذي الذي يعود تاريخه إلى 20 أفريل1991. و علينا الإشارة ، إلى غياب الإذاعات الخاصة باستثناء الإذاعات الموجودة على الانترنت مقابل 48 إذاعة عمومية جهوية لتغطية الأحداث المحلية لكل منطقة.

المواقع الإخبارية الإلكترونية: إهتمت أهم اليوميات الخاصة بإستثمار في تكنولوجيات الإتصال و الإعلام بهدف استهداف الجالية الجزائرية بالمهجر و جلب قراء جدد و مداخيل مالية أخرى. وفي هذا الإطار ، تعد يومية الوطن من أولى اليوميات الخاصة التي إهتمت بتطوير إستخدامها لأنترنت بإستثمارها في تطوير موقعها الإخباري الإلكتروني منذ ديسمبر 2007 ثم عام 2010 كما هو الشأن أيضا بالنسبة ليومية ليبرتي. لكن ، في المقابل ، باتت الطبعات الورقية لصحف اليومية الخاصة أمام وضعية صعبة في ظل منافسة المواقع

الإخبارية لها خاصة "**Pure players**" ، التي تنشط دون أي ترخيص و ليس لصحفييها بطاقة الصحفي المحترف بل تعتبر كوكالات إتصال على غرار TSA تي اس أ التي انطلقت في جوان 2007 و algerie-focus في نوفمبر2008 . كما ، نجد المواقع المتخصصة مثل DZFOOT.

غياب الشفافية المالية و المادية في تسيير المؤسسات الإعلامية: تميزت بداية سنوات الألفين بتهافت الصحفيين ورجال الأعمال على إنشاء صحف خاصة بهم في ظل إنتعاش سوق الإشهار. لكن ، ظل نشاطهم غير شفاف من حيث التسيير المالي و الاداري. فهناك صحف تطبع في المطابع العمومية لكن لا توزع كما نجد صحف توزع لشهرين ثم تتوقف ثم توزع من جديد. الملاحظ أيضا ، غموض في نشاط القنوات الخاصة منذ 2012 بحيث ظهرت عدة قنوات يقارب عددها 60 قناة في عام 2016. لكن ، ليس هناك أية إحصائيات حقيقية حول نوعية نشاطها ، مصادر تمويلها ، ملاكها ، فكيف يمكن تفسير تحويل ملكية قناة نيوميديا نيوز للمالك الجديد دون الإعلان عن ذلك علنا عام 2017؟.

وفي هذا الإطار ، شهدت الساحة الاعلامية ميلاد و زوال عدة صحف و قنوات تلفزيونية خاصة في ظل غياب هيئات لمتابعة تطور المشهد الاعلامي في الجزائر.

المرحلة الرابعة: أزمة مالية للإعلام العمومي و الخاص في ظل تطور المواقع الإخبارية الالكترونية 2014 -2019.: عرف المشهد الإعلامي بداية من 2014 صعوبات مالية بالنسبة لإعلام العمومي و الخاص في ظل بداية انكماش المناخ الاقتصادي في البلاد بسبب تبعات الأزمة الأوروبية لعام 2008 و بداية انخفاض أسعار البترول. لذلك ، تعد سنتي 2016-2017 أسوء مرحلة لهذه الصحف لأنها شهدت توقف العديد من الصحف أهمها يومية لا تربيون الناطقة بالفرنسية خلال صائفة سنة 2017 و إضراب مديرة يومية الفجر حدة حزام عن الطعام شهر نوفمبر من نفس السنة تنديدا بقرب توقف يوميتها عن الصدور. كما ، أدت تبعات التغييرات السياسية التي عرفتها البلاد منذ بداية الحراك الشعبي قبيل الانتخابات الرئاسية لأفريل 2019 إلى توقف البعض من وسائل الإعلام الخاصة نتيجة وقوع ملاكها في مشاكل قضائية. لكن في المقابل ، لعبت المواقع الإخبارية الالكترونية و شبكات التواصل الاجتماعي دورا كبيرا في تغطية الحراك و نقله للمواطن بطريقة شفافة مقارنة بالقنوات التلفزيونية الخاصة و العمومية.

لكن ، أهم ما ميز المشهد الإعلامي في هذه الفترة ، نذكر(وزارة الإتصال ، دفتر الإتصال ، 2015 ، ص 78-81):

-استمرار تزايد عدد العناوين اليومية الخاصة مقارنة بالصحف العمومية على الرغم من تراجع حجم سحبها بحيث بلغ عددها 129 يومية بسحب 2.840,760 عام2012 لتواصل ارتفاعها بوتيرة بطيئة بداية من عام 2014 ليصل عددها إلى 141عنوانا بعدها إلى 149 يومية بسحب يساوي 2.360,315 نسخة عام 2015 حسب إحصائيات وزارة الاتصال (وزارة الإتصال ، 2015 ، ص78-81) ، تليها 150 يومية عام 2019. وعلى الرغم ، من تراجع في سحب اليوميات الخاصة وتزايد بطيء في عدد اليوميات بسبب ركود سوق الإشهار خاصة الإشهار العمومي ، ارتفاع نفقاتها وظهور وسائل إعلام منافسة لها كالقنوات التلفزيونية الخاصة و نزوح القراء إلى المواقع الإخبارية الإلكترونية في ظل ارتفاع سعر اليوميات خاصة الناطقة بالفرنسية حيث وصل سعر يومية ElWatan إلى 30دج بتاريخ 04.02.2017 ، إلا أن أغلبية اليوميات باستثناء يوميتي ElWatan و Liberté

تتلقى مساعدات غير مباشرة من قبل الدولة من خلال الإشهار العمومي و الطبع لدى مطابع الدولة بتسهيلات في الدفع.

و في هذا الإطار، يبين الجدول التالي تطور الصحف الخاصة من حيث العدد و حجم السحب ما بين **1989-2014**

الجدول رقم 2: تطور الصحافة المكتوبة في الجزائر 1989-2014(وزارة الإتصال، 2015)

السنوات	عدد اليوميات	معدل السحب اليومي
1989	06	670.450
1991	17	1.113500
2000	31	1.310645
2006	43	1.376950
2007	52	1.697225
2008	68	2.321070
2009	78	2.457457
2010	86	2.930932
2011	102	2.871714
2014	140	2.469616

يبين لنا الجدول، تطور الصحف اليومية باستثناء الصحافة العمومية التي لم يتغير عددها منذ 1989 أي قبل التعددية الإعلامية عام 1990 مقارنة بالصحف الخاصة التي عرفت تطورا سريعا من حيث العدد و حجم السحب خاصة مابين 2000-2010 بسبب انتعاش المناخ الاقتصادي و سوق الإشهار بفضل متعاملي الهاتف النقال ووكلاء السيارات. إذ، انتقلت من 31 يومية بحجم سحب يومي يقدر ب 1.310645 ألف نسخة عام 2000 إلى140 يومية بحجم سحب يقدر ب2.469616 ألف نسخة عام 2014.

لكن في المقابل، عرفت الصحف الخاصة و العمومية تراجعا ملحوظا في حجم السحب في ظل غياب إحصائيات حول حجم سحب الصحف التابعة للدولة بحيث شهدت أكبر الصحف الخاصة كيومية الخبر الناطقة بالعربية و الوطن الناطقة بالفرنسية تراجعا في حجم سحبها. فبعدما، كان حجم سحب الخبر عام 2012 ب 465.000 نسخة يوميا تراجع ليصل إلى 200.000 عام 2017 و الوضعية نفسها بالنسبة لوطن من 160.000 نسخة عام 2012 إلى 90.000 نسخة يومية عام 2017 (AFP, 27.07.2019). كذلك، نفس الوضعية عرفتها يومية الشروق اليومي التي تعتبر من أكبر اليوميات الناطقة بالعربية سحبا بحيث تراجع سحبها من مليون و نصف نسخة يومية عام 2010 إلى 350.551 نسخة يومية عام 2014 مقابل 426.603 نسخة يومية عام 2013 (Riad HAMADI, 27.07.2019).

يضاف إلى ذلك، عرفت الصحف الخاصة تراجعا في المبيعات من 40% إلى 60% بسبب نزوح القراء نحو المعلومة المجانية على الانترنت. كما، اختفى العديد من اليوميات المقدر عددها ب26 يومية و 34 أسبوعية

حسب تصريحات المسئول الأول عن القطاع كمال كعوان خلال مروره بالقناة الإذاعية الثالثة بتاريخ 9.10.2017.

-تنامي استخدام شبكات التواصل الاجتماعي و المواقع الإخبارية على الانترنت"**Pure Players**" في تناقل الأخبار بفضل إطلاق خدمة الجيل الثالث عام 2013 و إرتفاع مبيعات الهواتف النقالة المتعددة الوسائط بحيث وصل عدد مستخدمي الانترنت في الجزائر عام 2018 إلى 21 مليون مستخدم مقابل 19 مليون مستخدم لأنترنت عبر الهواتف النقالة حسب تقرير ديجتال (Abdelkader ZAHAR, 22.02.2018)

وفي هذا الإطار ، عرف المشهد الإعلامي ظهور عدة مواقع إخبارية على غرار **الجزائر 24**بتاريخ 24 مارس 2014 ، **الجزائر اليوم** لصحفي السابق في يومية الخبر عبد الوهاب بوكروح. تليها ، مواقع أخرى جديدة **DIA** في شهر أكتوبر من عام 2015 و موقع **alg24** عام 2017 لمجموعة النهار و موقع **algerie part** المتخصص في التحقيقات وإثارة فضائح الفساد الذي أطلقه الصحفي سمار بتاريخ ماي 2017 بعد مغادرته لموقع **algerie focus**. ليرتفع عددها إلى 100 موقع منها المواقع التي تهتم بالمعلومة الجوارية مثل موقع **djelfainfo.dz** ، **Na Jijel Naciria Laazib inf** . كما ، عرفت تلك المواقع أوج قوتها خلال نقلها لأهم الأحداث التي عرفتها البلاد منذ 2015 وصولا إلى الحراك الشعبي لشهر فيفري 2019 بفضل ما تقدمه للرأي العام من معلومات آنية و فيديوهات مباشرة مقارنة بالصحف الخاصة على غرار موقع كل شيء عن الجزائر TSA و موقع سبق برس . لكن ، أيضا تميزها مقارنة بالقنوات التلفزيونية الخاصة بحرية التعامل مع الحدث دون قيود مما جعلها من أكثر الوسائل إضافة لشبكات التواصل الاجتماعي في نقل الحراك الشعبي منذ فيفري 2019 و أكثر انفتاحا على الرأي المعارض وهو ما سمح لعديد من وجوه المعارضة من التعبير عن رأيها وبالمشاركة في تحليل الحراك بعد فشل القنوات التلفزيونية الخاصة و العمومية في تغطيته بسبب توجهات ملاكها التي دفعت بالكثير من وجوه المعارضة لتعبير عن رأيها من الانتخابات الرئاسية لشهر أفريل 2019 على القنوات المتواجدة خارج الجزائر مثل المغاربية و أمل تي في. وهو ، ما يعني فشل تجربة فتح مجال السمعي البصري الذي بات مغلقا جزئيا وليس له أي دور في الفضاء التلفزيوني الإقليمي أو الدولي مقارنة بالقنوات الفضائية القطرية ، السعودية أو المغربية.

وعليه ، سمحت تلك الوضعية بتنامي المواقع الالكترونية و شبكات التواصل الاجتماعي التي باتت الأكثر متابعة و فعالية في تكوين نقاش حول القضايا المهمة بالنسبة للمجتمع خصوصا الحراك الشعبي الذي تعرفه البلاد في ظل الأزمة الخانقة التي تعرفها كبريات الصحف الخاصة الرائدة منذ بداية "المغامرة الفكرية" المؤثرة في الفضاء العمومي مما يهدد بزوال التعددية الإعلامية في الجزائر.

وعليه ، بات للمواقع الالكترونية دور مهم في التغيرات السياسية و الاقتصادية التي تعرفها البلاد منذ بداية الموعد الانتخابي لشهر أفريل 2019. ومن هنا ، يبرز لنا كذلك دور شبكات التواصل الاجتماعي في متابعة و نقل أحداث الحراك الشعبي منذ فيفري 2019 على غرار صفحة فايسبوك Fake News DZ التي أنشأت بتاريخ 6 أفريل 2019 لمحاربة محاولات كسر الحراك الشعبي من المعلومات الكاذبة و إشاعات التضليلية بحيث يتضمن الموقع 10.000 مشترك . هناك صفحات أخرى ، Bejaia sois l'observateur ، أنشأت في أفريل 2015 تهتم بالشأن المحلي لولاية بجاية تتضمن أكثر من نصف مليون مشترك.

لكن ، على الرغم من انخفاض نفقات المواقع الالكترونية في نقل الخبر في إطار حق المواطن في المعلومة إلا أن هذه الأخيرة تنشط في الفوضى بعيدا عن المهنية الصحفية في ظل غياب إطار قانوني ينظمها. يضاف إليها ، صعوبة حصولها على مداخيل من الإشهار باستثناء بعض المؤسسات الاقتصادية من سوق الخدمات في ظل غياب الإشهار العمومي عنها. و أخيرا ، تعرضها في السنوات الأخيرة للحجب على الانترنت على غرار ما وقع لموقع كل شيء عن الجزائر TSA عام 2017 و2019 ثم موقعـــــي Algérie part و Observalgérie عام 2019.

-تزايد الهشاشة الاقتصادية و المالية لمؤسسات الإعلامية الخاصة و العمومية بداية من 2014 مما أدى إلى تراجع حجم سحب الصحف و توقف البعض من القنوات التلفزيونية الخاصة في ظل غياب إحصائيات رسمية حول واقع المشهد الإعلامي من حيث عدد العناوين و القنوات التلفزيونية الخاصة. و ذلك ، في ظل ركود المناخ الاقتصادي في الجزائر بداية من عام 2013 بسبب انهيار أسعار البترول. وعليه ، عرف سوق الإشهار الخاص و العمومي تراجعا كبيرا بسبب انخفاض نفقات الشركات عليه خاصة تلك التي تمثل قطاع الخدمات مثل متعاملي الهاتف النقال و وكلاء السيارات.

في مقابل ذلك ، تزايدت نفقات الصحف و ديونها لدى المطابع العمومية في ظل انخفاض مواردها المالية منذ 2013 كما هو الحال بالنسبة لديون يومية الشروق لدى مطابع الدولة المقدرة ب574 مليون دج عام 2017 (Aps, 08.05.2017 يضاف إليها ، قضية ديون 8 يوميات خاصة شهر جوان 2014 مما دفع بأغلبية الصحف بخفض حجم سحبها و تقليص عدد من صحفييها في ظل فشل إستراتيجيتها في تنويع مواردها خاصة في مجال استقطاب المعلنين. لهذا ، تحصلت يوميتي الخبر بتاريخ 28 نوفمبر2016 و الوطن بتاريخ 25ماي 2019 لأول مرة على الإشهار العمومي من قبل الوكالة الوطنية لنـــشر و الإشهار ANEP منذ 1993 وهو ما يعد تحولا جذري في الخط الافتتاحي لهاتين اليوميتين باستثناء يومية الوطن التي تلقت الإشهار العمومي لمدة يومين فقط . كما ، أدت الوضعية المالية الصعبة التي عرفتها الصحف بسبب تراجع مداخيلها المالية إلى تأزم نشاطها فيما يتعلق بقنواتها التلفزيونية كما هو الحال بالنسبة لمجمع الشروق عام 2019 و الخبر عام 2016. هذا ، الأخير فشل في بيع قناته كي بي سي لمجمع ربراب عام 2016 إذ توقفت في شهر ماي 2017 بعد ما انطلقت بتاريخ 25 ديسمبر 2013.

يضاف إليه ، الوضعية الحرجة لمجمع الإعلامي التابع لرجل الأعمال علي حداد بعد توقف الإشهار العمومي عن جريدتيه بتاريخ 9جوان 2019 ليتم عرض المجمع للبيع في 19 جوان من نفس السنة بسبب صعوبات مالية في تسيير يوميتي وقت الجزائر و قناتي الجزائر تي في و الجزائر نيوز بعد تعرض مالك المجمع لمشاكل قضائية منذ بداية الحراك الشعبي.

وفي هذا الإطار ، تعرضت معظم المجمعات الإعلامية التي يمتلكها رجال الأعمال إلى مشاكل مالية بعد تورطهم في قضايا الفساد على غرار قناة نيوميديا. و علينا الإشارة إلى ، أن المشهد الإعلامي عرف توقف البعض من القنوات بداية من 2014 لأسباب مختلفة ، كقناة الأطلس بتاريخ 12 مارس 2015. وبعدها ، أيضا قناة الوطن تي في في شهر أكتوبر 2015 لعدم امتلاكها لرخصة العمل في الجزائر حسب وزارة الاتصال مما أدى إلى حبس مديرها جعفر شلي الذي تم الإفراج عنه في شهر جويلية من عام 2016. و هي الوضعية التي أدت إلى

تراجع عدد القنوات التلفزيونية الخاصة بداية من عام 2016 ليصل عددها إلى 50 قناة عام 2017 في ظل غياب إحصائيات رسمية حول الموضوع.

كما ، لا تختلف وضعية المؤسسات الإعلامية العمومية كثيرا عن نظيرتها الخاصة بحيث تم إعادة هيكلتها من أجل امتصاص الزيادة في النفقات خاصة في ظل الهبوط الحر لحجم سحب كل الصحف العمومية يضاف إليها تراجع في متتبعي القنوات التلفزيونية العمومية الخمس لصالح القنوات التلفزيونية الخاصة. حاليا ، تم إعادة هيكلة المؤسسات الصحفية العمومية من قبل مجلس إشتراكات الدولة في شكل مجموعات إعلامية : مجموعة الصحافة المكتوبة التي تشمل 6 يوميات. بإضافة إلى مشروعين يتعلقان بمجموعة النشر و الاشهار و أخيرا ، مجموعة مطابع الدولة. و ذلك ،في ظل الازمة الاقتصادية التي تعرفها كل من الصحافة المكتوبة العمومية و الخاصة منذ عام 2014.

وأخيرا ، عرفت بعض الصحف العمومية ما بين 2012-2015 عدة تغيرات على مستوى إدارتها من خلال تنصيب صحفيين جدد مثل تنصيب عاشور شرفي على رأس يومية المجاهد سنة 2015 ، تنصيب السيدة أمينة دبش على رأس يومية الشعب عام 2012 و لعربي ونوغي على رأس يومية المساء إلى غاية اليوم.

-سيطرة الدولة على طبع الصحف و على توزيع الإشهار العمومي: سيطرة الدولة منذ بداية التعددية الصحفية عام 1990 إلى غاية اليوم على وسائل الطبع من خلال المطابع الموجودة شرق ، غرب و وسط البلاد التي تعتبر كمؤسسات اقتصادية ذات أسهم بحيث تستحوذ منذ 2004 إلى غاية اليوم على 44 % من مجموع ما ينشر من الصحف الوطنية (شركة الطباعة بالوسط ، 2010) باستثناء كل من يوميتي الخبر و الوطن اللتين تمتلكان مطبعة خاصة يضاف إليها يومية لكوتيديان دوران.

كما ، لا تزال الوكالة الوطنية للنشر و الإشهار ANEP التابعة للدولة تسيطر على توزيع الإشهار العمومي على الصحف في ظل غياب قانون الإشهار. و في هذا الإطار ، باتت يومية لوسوار دالجيري تستقبل الإشهار العمومي منذ 2012 بعد انقطاعه عنها عام 2003 ، الخبر عام 2016 بعد انقطاعه عنها عام 1993 و إلغاء تعاقد الوكالة مع يومية ليبرتي منذ 2016.(د.بلحاجي وهيبة ، 2017 ،ص73) في ظل تراجع حجم الاستثمار في الإشهار من قبل المؤسسات العمومية و الخاصة بحيث تراجع الإشهار العمومي و الخاص ب65% عام 2017.

خاتمة:

تمثل التغيرات التي يعرفها المشهد الإعلامي الجزائري من خلال التحولات التي تعرفها مختلف وسائل الإعلام العمومية و الخاصة استمرارية الانتقال الديمقراطي في الجزائر في ظل الدور الفعال الذي تلعبه وسائل الإعلام الخاصة على وجه الخصوص الصحف و الانترنت في التواصل بين المواطن و الدولة في ظل حق كل فرد في المعلومة. و التي ، باتت مرتبطة بمدى توفر الشروط الإقتصادية و السياسية الضرورية لنمو و تطور وسائل الإعلام الخاصة المهمة في أي مجتمع ديمقراطي.

قائمة المراجع:

-بلحاجي وهيبة(2013) ، البيئة القانونية لحرية الصحافة الخاصة في الجزائر بعد 1999 ، العدد 9 ، الجزائر: جامعة بسكرة.
-بن بوزة صالح(1996) ، السياسة الإعلامية الجزائرية المنطلقات النظرية و الممارسات 1979-1990 ، المجلة الجزائرية للاتصال ، العدد 13 ، الجزائر.

-وزارة الاتصال(2006)، دفاتر وسائل الإعلام ، الجزائر.
-وزارة الإتصال(2010)، دفتر وسائل الإعلام ،الجزائر.
-وزارة الاتصال(2010)، الجزائر: منشورات شركة الطباعة بالوسط.
-العقون.يوسف(2010)، تقريرعن المشهد الاعلامي ، الجزائر: مديا ماركوتينغ.
-القانون العضوي رقم 12-05 مؤرخ في 18 صفر عام 1433 الموافق ل12 يناير سنة 2012 المتعلق بالإعلام ، الجريدة الرسمية للجمهورية الجزائرية ، العدد 02 ، بتاريخ 15.01.1012.
-بلحاجي وهيبة(2014)، الشروط القانونية و الإقتصادية لحرية الصحافة الخاصة في الجزائر 1999-2013 ، مذكرة دكتوراه ، جامعة الجزائر 3 ، كلية علوم الإعلام و الإتصال ، 651 صفحة.
-بلحاجي وهيبة(2017)، مطبوعة دروس حول قانون الصحافة المكتوبة ، السمعي البصري و الانترنت ، الجزائر.
-ابراهيمي براهيم(05.06.2011)، مدير المدرسة العليا لصحافة ، الجزائر.
-BRAHIMI Brahim(1997), Le pouvoir, la presse et les droits de l'Homme en Algérie, Algerie : Editions Marinoor.
-BRAHIMI Brahim(2002), Le droit à l'information, à l'épreuve du parti unique et de l'état d'urgence, Algérie : Edition SAEC-Liberté.
-FERCHICHE Nassima(2011), La liberté de la presse écrite dans l'ordre juridique algérien, France : Editions collection des thèses.
-CHAGNOLLAND Jean Paul(1998), La parole aux algériens, In Confluences méditerranée, France : L'Harmattan.
-LABTER Lazehari (2005), Les journalistes algériens 1988-1998, chronique des années d'espoir et d'horreur, Algérie : Editions Chiheb.
-MATHIEN Michel(2003), Economie générale des médias, France : Editions éllipses Marketing.
-PIGEAT Henri et HUTEAU Jean (2000), Déontologie des médias, institutions, pratiques et nouvelles approches dans le monde, France: Editions UNESCO.
-AHCENE-DJABALLAH Belkacem(26.10.2011, n°5140), presse écrite francophone ; chronologie d'une mort programmée, In Le Quotidien d'Oran.
-BERBICHE Omar (07.10.2010), Premier numéro d'El Watan, in El Watan numéro spécial.
-OUALI Hacen(25.10.2010,n°6082), le quotidien El Khabar souffle sa 20ème bougie, In El Watan.
-L e Quotidien El Watan (3.04.2010, n°5908).
-AFP, in http : www.lematin.com/la presse algérienne à la croisées des chemins. le 27.07.2019
-Riad HAMADI, presse écrite algérienne :les chiffres en déclin , In Observatoire arabe du journalisme, http://ajo-fr.org/économie des médias/le 27.07.2019 à 08h45.
-Abdelkader ZAHAR, indicateurs digitaux 2018 : au Maghreb, plus d'internautes sur deux se connecte via une terminale mobile, in http : //www.huffpostmaghreb.com du 22.02.2018 à18h15.
-Les dettes du journal echourouk auprès des imprimeries s'élèvent à 574 millions de da, in www.aps.dz du 08.05.2017 à 18 h30.

الإعلام والحراك الاجتماعي -حراك 22 فيفري في الجزائر أنموذجا-

Media and Social Mobility February 22 Mobility in Algeria Model

أ.سفير نوار- جامعة 20 أوت 1955 سكيكدة- الجزائر

مقدمة:

تعد وسائل الإعلام جزء لا يتجزأ من المجتمع ، فهي إحدى أهم المؤسسات الموجودة في المجتمع والمؤثرة فيه بشكل كبير ،وهي تعمل على تحقيق الترفيه ، تسهم في التنشئة الاجتماعية ، كما تعلم وتثقف الأفراد ، وتغرس في نفوسهم القيم والمبادئ المختلفة ، بالإضافة إلى كونها تساعد على تشكيل ، وبلورة مواقف الأفراد واتجاهاتهم إزاء مختلف القضايا ذات الأبعاد الوطنية ، الإقليمية والدولية ، و قد أضحت وسائل الإعلام في وقتنا الحالي صناعات قائمة بذاتها ، و يرى بعض الباحثين أنه ومن خلال التغلغل المتزايد لوسائل الإعلام داخل مؤسسات المجتمع يمكن القول بأنه لا يمكن بأية حال من الأحوال تصور استمرار حياة الأفراد والمجتمع بمؤسساته المختلفة بصورة عادية ، في غياب وسائل الإعلام وفي هذا السياق يؤكد الباحث الكندي مارشال ماكلوهان من خلال نظريته "النظرية التكنولوجيا لوسائل الإعلام "على دور وسائل الإعلام و تأثيرها على المجتمعات حيث يقول: "إن وسائل الإعلام التي يستخدمها المجتمع أو يضطر إلى استخدامها ستحدد طبيعة المجتمع ، وكيف يعالج مشاكله ، وأي وسيلة جديدة هي امتداد للإنسان ، تشكل ظروفا جديدة محيطة تسيطر على ما يفعله الأفراد الذين يعيشون في ظل هذه الظروف ، وتؤثر على الطريقة التي يفكرون و يعملون وفقا لها"(نور الدين تواتي ، 2013 ، ص184)، ولم يعد خافيا أن التطور التكنولوجي المتزايد في مجال الاتصالات قد ضاعف من حجم التأثير المتزايد لوسائل الإعلام داخل المجتمع ، مما يجعل منه فاعلا أساسيا في خضم التغيرات والأحداث التي يعرفها المجتمع في المجالات الاجتماعية السياسية ، الاقتصادية ، بل ان الكثير من الأحداث الكبيرة ، التي غيرت أنظمة بأكملها ، وحطمت مجتمعات ، و حضارات ضاربة في التاريخ ، لعب الإعلام فيها دورا بارزا ، على غرار ما وقع في العراق ، من خلال الحملة الدعائية الأمريكية ، التي جعلت من العراق دولة نووية ، تهدد الامن و الاستقرار العالميين ، و كذا ربطها بين حركة طالبان في أفغانستان و نظام صدام حسين ، ثم ما تبعها مما يعرف بثورات الربيع العربي المنسوجة ، في سبيل تمزيق الدول العربية ، و تحويلها إلى مناطق خصبة لبيع الأسلحة القديمة ، واختبار الأسلحة الجديدة ، وفي هذا الإطار يأتي بحثنا ليسلط الضوء على العلاقة القائمة بين وسائل الإعلام والحراك الاجتماعي 22 فيفري بالجزائر ، وكيف تعاملت وسائل الإعلام المختلفة مع هذا الحراك الاجتماعي.

1-مفهوم الاعلام:يعرف عبد اللطيف حمزة الإعلام بأنه:" تزويد الناس بالأخبار الصحفية والمعلومات السليمة والحقائق الثابتة (إحدادان ، زهير ، 2014 ، ص:14).

أما زهير إحدادان فيرى بأن الإعلام مفهوم عصري يطلق على عملية الاتصال التي تستخدم الوسائل العصرية من صحافة ، إذاعة وتلفزة ، إذ أن مصطلح الإعلام لم يطلق قديما على عملية الاتصال ، والإعلام خلافا للاتصال مرتبط أشد الارتباط بالوسائل الحديثة ، وهو وإن وافقه في الشرطين الأساسيين لحدوث العملية

الاتصالية أي الصيغة ونقل الخبر فإنه يختلف معه في انتشار الخبر ، كما أن عملية الاتصال تتضمن مدلول اجتماعي ، بينما الإعلام يقتصر على مفهوم إعلامي محض(إحدادان ، زهير ، 2014 ، ص: 15)

2-وظائف الإعلام: يرى الباحث الأمريكي وليار شرام أن وظيفة الإعلام مرتبطة في الأساس بتغيير الذهنيات ، وتوفير المناخ المناسب لإحداث التغيير داخل المجتمع في مختلف المجالات ، وفي هذ االسياق يقول شرام:"....فالإعلام يساعد على إدخال التغير في المجتمع ، لأنه الوسيلة الأكثر نجاعة لنشر المعلومات بين الناس وإقناعهم بضرورة التغير ،...فمهمة وسائل الاتصال الجماهيري ووسائل التعليم الحديثة هي أن تعجل وتيسر التغير الاجتماعي البطيء الطويل الأمد اللازم للتنمية الاقتصادية ، وأن تعجل وتيسر على الأخص مهمة تعبئة الموارد البشرية" (نور الدين تواتي ، 2013 ، ص 184) .ويرى شرام أن لوسائل الإعلام ثلاث وظائف هي:

أ-**وظيفة الاكتشاف**: تجعل الناس يكتشفون أنماط وسلوكيات جديدة لم يألفوها ، تدفعهم غالبا إلى تغيير سلوكياتهم ، أو على الأقل الاحتكاك بالأساليب الجديدة في التنمية.

ب-**وظيفة سياسية**: فالإعلام يبلغ الناس برغبة السلطة في التغيير ، وفي التنمية ، ويعمل على تهيئة المناخ اللازم للإقناع ، والتعبئة الجماهيرية.

ج-**وظيفة تربوية**: يرى الباحث أن هذه الوظيفة مكملة للوظيفة الأولى ، فالإعلام يعطي للجمهور نماذج من التنمية للاقتداء بها ، ويخلق لدى الجمهور تعطشا لمزيد من المعرفة وللتغلب على الجهل.

3- نظريات التأثير الإعلامية:حظيت العلاقة بين وسائل الإعلام والفرد من جهة وبينها وبين المجتمع ، باهتمام الباحثين وبشكل لافت خلال النصف الثاني من القرن العشرين ، أين تعددت الأبحاث وتنوعت الدراسات في هذا الشأن ، ومن أهم هذه النظريات ما يلي:

3-1- نظرية الرصاصة السحرية:تعرف أيضا بنظرية الحقنة ، ويرى أصحاب هذا الاتجاه أن علاقة الفرد بمضمون الوسيلة الإعلامية هي علاقة تأثر مباشر وتلقائي ، فالمتلقي لمحتوى الوسيلة الإعلامية يتأثر خلال زمن قصير بهذا المحتوى ، والرسائل الإعلامية التي تبثها وسائل الإعلام تؤثر في الشخص المستقبل لها ، كما لو أنه قد حقن بإبرة مخدرة ، أو أطلقت عليه رصاصة في الرأس.

3-2-نظرية التأثير التراكمي: ترى هذه النظرية بأن تأثير ما تعرضه وسائل الإعلام من مضامين إعلامية على الأفراد يحتاج إلى زمن طويل ، ومن ثم فتأثير وسائل الإعلام على الجمهور هو نتاج عملية تراكمية و ليس وليد اللحظة المباشرة التي تعقب بث الرسالة الإعلامية ، فالإنسان حتى يغير نمط تفكيره و أسلوب حياته(طريقة تعامله مع البيئة المحيطة به) يكون جراء تعرضه لمصادر معلومات غير تلك التي ينشأ عليها ، و لكن بالتدريج ، وهو الأمر الذي تحققه وسائل الإعلام المختلفة ، باعتبارها مصدرا جديدا يختلف بدرجات متفاوتة عما هو سائد من مصادر سابقة مثل: الأسرة ، المدرسة و غيرهما من المؤسسات الاجتماعية.

3-3-نظرية التطعيم: تم اشتقاق هذه النظرية والفكرة التي تقوم عليها من فكرة التطعيم ضد الأمراض فتحصين الشخص كبيرا كان أو صغيرا ضد الفيروسات ، والأمراض المحتملة يكون من خلال حقنة بمصل يحتوي على جرثومة ضعيفة للمرض المعني بالتحصين منه ، ليقوم جهاز المناعة بالدفاع عن الجسم ضد هذا المرض ، والقضاء عليه ومن ثم اكتساب نوع من الحصانة ضده (الشميري ، فهد بن عبد الرحمن ، 2010 ، ص: 19). وبذلك يكون الجسم قد طور ميكانيزمات الدفاع المناعية ضد هذه الأمراض ، فيكون جاهزا ومستعدا

لمحاربته في أية لحظة يهاجم فيها الجسم، ما يجعل تأثير هذا المرض أو الفيروس على الجسم ضعيفا، ومن هنا فالجرعات المتواصلة نتلقاها من وسائل الإعلام يخلق لدينا نوعا من البساطة، والسذاجة تجاه بعض المواضيع والقضايا، ويكون تعاملنا في الكثير من الحيان بطريقة سلبية ولا تستجيب لحقيقة وجوهر الموضوع او القضية.

3-4-نظرية الاستخدامات والإشباع: على عكس النظريات السابقة فإن هذه النظرية تنظر إلى العلاقة بين الجمهور ووسائل الإعلام، بشكل مختلف، فوسائل الإعلام على اختلاف أنواعها بحسب أصحاب هذه النظرية ليست هي التي تحدد نوع الرسائل الإعلامية، التي يتلقاها الجمهور، بل على العكس من ذلك فإن استخدام الجمهور لتلك الرسائل بهدف إشباع رغباته هو الذي يتحكم بدرجة كبيرة في مضمون الرسائل الإعلامية، التي تعرضها وسائل الإعلام، فكل متلقي يختار القناة الإعلامية، والبرنامج الإعلامي الذي يرى بأنه يشبع حاجياته، ويحقق له رغباته، وعدم تضمن القناة الإعلامية أو الرسالة الإعلامية على المبتغى الذي يريده المتلقي تؤذي إلى نفوره منها، والبحث عن مصادر إعلامية أخرى قد تحقق له يريده ويبحث عنه من خلال الوسائل الإعلامية المختلفة.

3-5-نظرية تدفق المعلومات على مرحلتين:يرى أصحابها بأن تأثير وسائل الإعلام في الجمهور يتم بطريقة غير مباشرة، وعبر مرحلتين(إحدادان، زهير، 2014، مدخل لعلوم الإعلام والاتصال، ص: 73) في هذا السياق جاءت دراسة و أبحاث كل من: **لازارسفيلدبيرلسون، و جوديث** من جامعة كولومبيا الأمريكية، التي نشرت العام 1944، تحت عنوان: اختيار الشعبThe People's Choice والتي أجريت في أعقاب الحملة الانتخابية الرئاسية الأمريكية لعام 1940، أين فاز فيها المرشح الديمقراطي "**روزفلت**" وقد أجريت الدراسة في منطقة "إيري كاونتي" بولاية "أوهايو"، و كان الهدف من الدراسة التعرف على الطرق التي تؤثر في تكوين الرأي العام و تغييره، وكذا التعرف على دور وسائل الاتصال الجماهيرية في هذا الصدد، و ذلك من خلال تحليل خطابات الحملة الانتخابية الرئاسية آنذاك، وغيرها من الرسائل السياسية التي قدمتها الصحف والمجلات وكانت النتيجة النهائية لهذه الدراسة أن الاتصال الشخصي يلعب دورا مهما في تشكيل وتوجيه الرأي العام، إلى جانب وسائل الإعلام، وأن قادة الرأي يشكلون عنصرا مهما في عملية الاتصال الشخصي، ويلعبون دور الوسيط بين الأفراد ووسائل الإعلام، وأطلقوا على عملية سريان المعلومات من وسائل الإعلام إلى الجماهير،عبر قادة الرأي اسم:" تدفق الاتصال على مرحلتين. Iean- Yves Dormagen, Daniel (Mouchard2015, p 164)

3-6-نظرية مارشال ماك لوهان (التأثير التكنولوجي): يرى العالم الكندي "مارشال ماك لوهان" من خلال نظريته "الحتمية التكنولوجية **وثنائية** وسائل الاتصال الباردة والساخنة وبأن المضمون ليس هو كل شيء بل هناك ما هو أهم منه وأكثر تأثيرا وهو الوسيلة نفسها، ويؤكد الباحث بأن وسائل الإعلام هي التي تحدد طبيعة المجتمع، والكيفية التي يعالج بها مشاكله، فطبيعة وسائل الاتصال المستخدمة في كل مرحلة قد ساعدت على تشكيل المجتمعات أكثر من المضمون.

3-7-نظرية الحتمية القيمية: جاءت هذه النظرية كرد فعل على نظرية انتشار الابتكارات أو التأثير التكنولوجي للباحث الكندي **مارشال** ماكلوهان، ويمثل هذه النظرية الباحث الجزائري **عبد الرحمن عزي** الذي يؤكد بأن

الذي يؤثر في الفرد هو المحتوى و ليس الوسيلة كما يرى ماكلوهان ، حيث يرى **عزي** بأن القيم غير متضمنة في الوسيلة الإعلامية بحد ذاتها ، و إنما هي موجودة في الممارسات الإعلامية للصحفيين ، والتي يعبر عنها الباحث (**عزي**) بالثنائية الإعلامية السالبة و الموجبة ، فالإعلام بحسب هذا الأخير هو رسالة و أهم معيار في تقييم الرسالة هو القيمة ، التي تنبع أساسا من الدين أو المعتقد ، وكلما كان المحتوى الإعلامي وثيق الصلة بالقيم الدينية كلما كان تأثيره إيجابيا ، و العكس بالجملة صحيح ، بمعنى أنه كلما كان المحتوى الإعلامي بعيد عن القيم الدينية كلما كان التأثير سلبيا ، ومن هنا تأتي ثنائية السالب و الموجب عند **عبد الرحمن عزي** في مقابل الوسيلة الساخنة و الباردة عند مارشال ماكلوهان.

4-الحراك الاجتماعي 22 فيفري في الجزائر المفهوم والأسباب:

4-1-مفهوم الحراك الاجتماعي: لقد كان التناول السوسيولوجي للحراك Mobilité كان من خلال زاويتين ، الأولى تتعلق بتنقل الأفراد داخل مجال مكاني ، وتتعلق الثانية بالهجرة ، وقد عرف هذا التناول تغيرا في المفاهيم والتصورات من خلال أعمال الباحث الروسي-أمريكي Pitirim alexenderovitch sorokin ، في الولايات المتحدة الامريكية و كتابه Social mobility العام 1929، وضع من خلاله مفاهيم مؤسسة في تحليل الحراك الاجتماعي ، والذي عرفه بأنه ظاهرة انتقال الأفراد ضمن المجال الاجتماعي ، ويميز الباحث بين نوعين من الانتقال ، الأول انتقال عمودي و يعني التغير في المكانة الاجتماعية ، وهذه الحركة قد تكون صاعدة ، أو نازلة، والنوع الثاني هو الحراك الأفقي وهو يشير إلى التغير في الوضع أو الفئة الاجتماعية ، والذي لا يرتبط بأي تطور مرتبط بالمكانة الاجتماعية ، مثال: تطور التركيبة الأسرية المرتبطة بالطلاق او بالزواج ، التغير في الانتماء لمجموعة دينية أو سياسية(Gallez Caroline, Kaufmann vincent, 2009, p 02)كمايعرف الحراك الاجتماعي بأنه الوضع الذي يشير إلى إمكانية تحرك الأفراد أو الجماعات إلى أسفل أو إلى أعلى ، الطبقة أو المكانة الاجتماعية ، في هرم التدرج الاجتماعي ، أو في إطار النسق الاجتماعي.

4-2- أسباب الحراك الاجتماعي 22 فيفري: يمكن حصر الأسباب والدوافع الرئيسة الكامنة وراء حراك 22 في الأسباب التالية:

أ-**ترشيح الرئيس بوتفليقة لعهدة خامسة:**من أهم الأسباب السياسية هو إعلان حاشية الرئيس أو ما يعرف بأحزاب الموالاة عن ترشيح الرئيس لعهدة خامسة ، رغم الظروف الصحية المتدهورة التي عرفها الرئيس بوتفليقة قبل ترشحه لعهدة رابعة سنة 2014. حيث لم ينشط حملته الانتخابية ، وناب عنه حاشيته من الوزراء ، وبعض جمعيات المجتمع المدني ، عهدة رابعة ام يكن الجزائريون قابلين بها ، ولكن فرضت عليهم ، بعد أفريل 2014 بوتفليقة رئيسا لعهدة رابعة من خلال انتخابات صورية ونسبة عزوف انتخابية قياسية على أرض الواقع كان غائبا صوتا وصورة ، إلا من خلال تلك الصور الفوتوغرافيا أو ما يعرف" بالكادر" ، عهدة قلت خلالها زيارات الوفود الرسمية الأجنبية ، إلا ناذرا ، والتي لا تظهر صور مقابلاتها مع الرئيس إلا بعد عمليات تجميلية ، كشفت الكاميرا و بعض الشخصيات والقنوات الغربية ، الفرنسية منها على وجه الخصوص زيفها ، و بلادتها ، صور كان الكثير من الجزائريين يشعرون معها بالذل و المهانة ، من الحالة المزرية التي وصلت إليها الرئاسة و السلطة الحاكمة في الجزائر ، واعتبروها انتقاصا من كرامتهم ، و انتظروا بفارغ الصبر انقضاء العهدة لتنقضي معها هذه الصور الهزلية ، والدراماتيكية التي صنعتها عهدة" الكادر" ، أو الحكم من خلف الستار من قبل شقيق الرئيس ،

ومحيطه ، التي أنتجها زواج المال بالسياسة ، ومن هنا فلم يكن الجزائريون ليقبلوا بأي حال من الأحوال ، لكن شقيق الرئيس و جماعة المصالح أصرت على ترشيح بوتفليقة لعهدة خامسة رغم الرفض الشعبي الذي كان باديا للعيان ،فترشح الرئيس بوتفليقة لعهدة خامسة ، هو القطرة التي أفاضت الكأس ، وكانت السبب المباشر لخروج الملايين في أول جمعة من الحراك الاجتماعي في 22 فيفري 2019 ، مطالبة بعدول الرئيس عن الترشح.

ب-الفساد السياسي: يعد الفساد من أبرز الميزات المرتبطة بالأنظمة الشمولية ، والاستبدادية ، مع بعض الاختلافات من حيث الحدة ، والانتشار ، وذلك بحسب البيئات القانونية ، السياسية والاقتصادية السائدة في المجتمع ، حيث تغيب الرقابة القضائية أو تفقد جدواها امام المنصب السياسي والمكانة الاجتماعية ويعرف عالم السياسة الأمريكي صمويل هانتنغتونS. Huntington .الفساد السياسي بأنه: سلوك الموظفين الحكوميين الذين ينحرفون عن القواعد العامة ، لخدمة أهداف خاصة" (مركز دراسات الوحدة العربية ، 2011 ، ص 75)، و يعرفه جلال عبد الله معوض بأنه:" سلوك الفرد القائم على الانحراف ، عن الواجبات الرسمية ، المرتبطة بالمنصب العام ، سواء شغل هذا المنصب بالانتخاب أو بالتعيين ، في سبيل تحقيق مصلحة خاصة ، سواء كانت هذه المصلحة شخصية مباشرة تتعلق بشاغل المنصب ، أو عائلية أو طائفية ، أو قبلية ، و سواء كانت هذه المصلحة تتعلق بمكاسب مادية أو غير مادية ، و ذلك من خلال استخدام إجراءات أو الاتجاه إلى تعاملات تخالف الشرعية القانونية السائدة ، و يتخذ هذا السلوك مظاهر عديدة كالرشوة ، المحاباة ، استغلال المنصب ، بيع المناصب السياسية ، و شراء أصوات الناخبين"(مركز دراسات الوحدة العربية ، 2011 ، ص 77)، و يبدو أن هذا التعريف جد معبر عن الحالة الجزائرية ، فقد عرفت الجزائر هذه الظاهرة منذ الاستقلال ، لكن بدرجات متفاوتة اختلفت باختلاف الحقبة التاريخية ، والسلطة القائمة ، لتعرف ذروتها خلال حكم الرئيس بوتفليقة ، الذي اعتمد على سياسة شراء الذمم ، و توسيع الولاءات ، و قد ساهمت في ذلك المداخيل الكبيرة التي عرفتها خزينة الدولة ، جراء ارتفاع أسعار النفط ، وبالرغم من استحداث الدولة لبعض آليات الرقابة ، بهدف المحاسبة وردع السياسيين الفاسدين ، و محاربة هذه الظاهرة السلبية ، إلا أنها ظلت مجرد جسد من دون روح وذر للرماد في العيون كما يقال ، لغياب الإرادة السياسية ، و تورط عائلة الرئيس و محيطه بشكل كبير في الفساد السياسي ، أين أصبحت كل المناصب الخاضعة للانتخاب أو التعيين تخضع لمنطق السوق ، وقانون العرض و الطلب ، فظهر ما يعرف بمصطلح" الشكارة" للتعبير عن منطق ومعايير تولي المسؤوليات عبر مختلف المؤسسات الرسمية و الغير رسمية داخل الدولة ، و قد ساعد على استشراء ظاهرة الفساد في الجزائر ، ضعف العمل الحزبي ، وتحوله إلى أداة لإضفاء الشرعية على السلطة القائمة ، بل و أصبح معظمها متورطين حتي النخاع في هذا الفساد ، فالأحزاب التي تعرف بأنها مؤسسات مستقرة نسبيا ، والتي تحشد الدعم بهدف ممارسة السلطة ، على المستوى المحلي ، أو المركزي (Braud Phillipe, 2014, sociologie politique, p 417)

أو بحسب التعريف الكلاسيكي الذي قدمه كل من Joseph la Palombaraو Myron Wienerفإن الأحزاب هي منظمات مستدامة أين يجتمع الأعضاء بشأن المشاريع السياسية ، التي يتقاسمونها ، والقيم

المشتركة ، وكذا تحالفات المصالح ، في إطار الديمقراطية التمثيلية ، بهدف الوصول إلى السلطة عبر الطرق الدستورية المنظمة(Guy Hermet, Bertrand Badie et autres, 2015 p 222)

فكان يفترض أن تقوم بدور كبير في التمثيل السياسي من خلال مهمتها التوعوية حول السياسة المتبعة من طرف الحكام وموقفها منها ، فمن الوظائف الأساسية للأحزاب تنظيم صفوف المعارضة تشكيل وتوعية الرأي العام ، إيصال رغبات وانشغالات المواطنين ، تكوين وانتقاء الكوادر السياسية ، وتفعيل المشاركة السياسة ، وتوجيهها بما يضمن تكريس دولة القانون ، وتحقيق الديمقراطية ، من خلال الانتخابات النزيهة والحقيقية ، وليس الانتخابات المعدة نتائجها سلفا والصورية.

ج-الأسباب السوسيو-اقتصادية: على الرغم من الأهمية الكبيرة ، والعلاقة المباشرة بين الأسباب السابقة الذكر وحراك 22 فيفري ، إلا أن الأسباب السوسيو-اقتصادية قد لعبت دورا هاما ، في تعبئة الجماهير الشعبية ، وخروجها بتلك الأعداد الكبيرة في أول جمعة للحراك ، فالحكومات المتطابقة والمتعاقبة خلال حكم بوتفليقة قد عملت على تعميق الهوة بين الشعب والسلطة ، من خلا اعتمادها على سياسيات فاشلة ، ليبرالية في أهدافها أ أدت إلى القضاء التدريجي على الطبقة الوسطى ، وخلق طبقة أرستقراطية فاحشة الثراء في فترة زمنية قصيرة ، كما ارتفعت نسب البطالة ، وبالرغم من الإحصاءات المقدمة من قبل الحكومة بشان ضعف هذه الإحصاءات إلا أنها لم تكن حقيقية ، ضف إلى ذلك اعتماد الحكومة على سياسة تشغيل بعض الآليات التوظيفية في مجال تشغيل الشباب ، تهدف إلى تبرير النفقات الخيالية ، ومن جهة ثانية تمكين أنفسهم و ذويهم و كل من يسير في فلك السلطة من القروض الخيالية ، التي كشفت عن بعضها تحقيقات العدالة في مرحلة ما بعد الحراك ، ومن جهة ثانية مغالطة الرأي العام الداخلي و الخارجي بشان نسب البطالة ، و الضعف في الميزان التجاري من جهة ثانية ، فهي سياسة كبدت الخزينة خسائر كبيرة.كما زادت نسب الفقر ، جراء ارتفاع الضرائب وكثرتها ، واللا عدالة في توزيع الثروة ، وكذا ارتفاع فواتير المواد الطاقوية المختلفة من كهرباء ، غاز ومياه ، بالإضافة إلى ضعف القدرة الشرائية للمواطن ، وارتفاع أسعار مختلف المنتوجات المحلية والمستوردة ، مقارن بضعف شبكة الأجور ، رغم كون الدولة غنية بالثروات الباطنية ، وارتفاع أسعار النفط ، كما ساد في المجتمع شعورا لم يكن موجود من قبل في أي وقت من الأوقات ، وهو الشعور بالاغتراب بالتعبير الماركسي ، إذ أصبح المواطن يحس نفسه غريبا في مجتمعه ، بل يجد حريته وكرامته خارج حدود وطنه ، كما فقدت قوانين ومفتشيات العمل صلاحيتها ، وتعطلت في ظل الحكم البوتفليقي ، نتيجة تزاوج المال والسياسة ، مما أدى إلى ظهور الإحباط و فقدان الأمل في العيش الكريم مشاعر ملل ويأس جعلت الشباب يبحث عن آفاق جديدة لتحقيق الذات ، والخروج من دائرة التمييز.

والتهميش ، فكانت الهجرة الغير شرعية (الحرقة) ، عبر قوارب الموت ، وبأعداد كبيرة ، ومن الجنسين وهي أمور لم تكن معهودة عند الجزائريين حيث كانت هذه الظاهرة تتم بالاختباء في سفن المسافرين والسفن التجارية ، وتقتصر على الذكور فقط ، ظاهرة الهجرة هذه تعاملت معها الدولة بمنطق مقلوبفعوض البحث في أسباب الظاهرة ، لجأت إلى تجريم هذه الظاهرة ، و معاقبة المهاجرين الغير شرعيين الذين يقبض عليهم في المياه الاقليمية أو الذين يتم تسليمهم من قبل دول الضفة الأخرى(الدول الأوروبية)، و هو منطق وجدت فيه السلطة مخرجا قانونيا للتنصل من مسؤولياتها إزاء المفقودين المفقودين و عائلاتهم.

5-الإعلام وحراك 22 فيفري: لعب الإعلام بمختلف أشكاله الجديدة والقديمة أهمية بالغة قبل وخلال الحراك الاجتماعي ،وتختلف أهمية ودور الإعلام بحسب طبيعة ، وخصوصيات كل وسيلة إعلامية ويمكن التطرق للعلاقة بين الإعلام والحراك الاجتماعي على النحو التالي:

5-1 الإعلام التقليدي والحراك:يقصد بالإعلام التقليدي ، تلك الوسائل الإعلامية القديمة ، مثل الصحف ، الإذاعة و التلفزيون ، وقد اختلفت علاقة هذا النوع من الإعلام بالحراك ، باختلاف هذا النوع ، من حيث كونه عام أو خاص ، فبالنسبة للإعلام الخاص ، يمكن القول أن هذا الإعلام قد تطرق لموضوع الحراك ، لكن من زوايا واو لأهداف اختلفت باختلاف الولاءات ، والسياسيات الإعلامية لكل قناة ، فبالنسبة للإعلام الخاص اتضح ميل بعض القنوات و الجرائد الخاصة لصالح الحراك ،على غرار قناتي الشروق و البلاد ، و اللتان حرصتا على مرافقة الحراك ، والتغطية الإعلامية لكل مدخلاته و مخرجاته ، و قد لقيتا ترحيبا كبير من المتظاهرين ، في مقابل تضييق حكومي كبير ، وصل إلحد وقف الإشهار عنهما في الأسبوع الأول للحراك ، و قد زاد التعاطف الشعبي مع قناة الشروق بعد الإعلان عن اختطاف مديرها العام (علي فضيل) في 28 مارس 2019 ، وذلك عقب نشر القناة للفضائح المالية لما سمي بالقوى الغير دستورية ، أو العصابة و على رأسها السعيد بوتفليقة شقيق الرئيس ، من قبل المخابرات كما صرح بذلك المعني ، الذي أطلق سراحه بعد ساعات فقط من الاختطاف ،والذي تم بحسبه من خلال تدخل قائد الأركان القايد صالح وهي الحادثة التي رأى فيها البعض أنها مسرحية ، بينما رأى فيها البعض الآخر أنها تهدف الترهيب و تكميم الأفواه الإعلامية ، عقب خروج هذه القناة ، و كشفها للمستور ، من خلال التطرق لملف فساد محيط الرئيس ، و على العكس من ذلك فقد لقيت قنوات أخرى مطاردة من قبل المتظاهرين ومنعها من تغطية الحراك ، على غرار النهار تي في ، والمعروفة بولائها لمحيط الرئيس ، جهاز المخابرات.

أما بالنسبة للإعلام العمومي المرئي منه والمسموع ، فقد بدا في الوهلة الأولى وكأنه غير معني ومارس تعتيما رهيبا إزاء المسيرات الشعبية ، وهو أمر لم يستوعبه إعلاميو القطاع العمومي ، واستنكروا الضغوط الممارسة من قبل المسئولين في هذا الخصوص ، حيث خرجوا بالعشرات في وقفة احتجاجية ، أمام المبنى المركزي للإذاعة و التلفزيون ، بالعاصمة الجزائرية ، و هي سابقة أولى من نوعها في هذا القطاع الحساس ، الذي ظل لعقود وسيلة تسويق و تعتيم في يد السلطة الحاكمة توظفها كما تشاء مطالبين برفع القيود على هذا الإعلام العمومي ، و معبرين عن رفضهم لهذا التعتيم الإعلامي والموقف المخزي للإذاعة والتلفزيون العموميتين ، إزاء الحراك ، و رفع الإعلاميون شعارات منددة بالتضييق على العمل الصحفي ، مثل: "الإعلام العمومي خدمة عمومية" و"جمهورية وليس مملكة" في إشارة إلى استيلاء عائلة الرئيس على الحكم ، ليتم بعد ذلك السماح بتغطية جزئية للحراك ، وإقالة المدير العام للإذاعة المسموعة ، كما تمت بعدها إقالة المدير العام للتلفزيون الجزائري. لتوسع أكثر مع تحقيق الحراك للشعارات المرفوعة سابقا ، ومنها سجن السعيد بوتفليقة(شقيق الرئيس)، بشير طرطاق (مدير المخابرات)، ولويزة حنون (رئيسة حزب العمال) على خلفية اجتماعات سرية جمعتهم بضباط مخابرات فرنسيين ، هدفها زعزعة استقرار الوطن ، بحسب بيان لقيادة أركان الجيش الشعبي الوطني.

5-2-الإعلام الرقمي: ويطلق عليه أيضا تسميات مثل: الإعلام الإلكتروني ، الإعلام الشبكي وأيضا صحافة المواطن ، وهو إعلام يعتمد على الأنترنت ، ولعب هذا الرقمي ، من خلال بعض شبكات التواصل الاجتماعي كالفايس بوك ، دورا كبيرا في التسويق الإعلامي لحراك 22 فيفيري ، والتعبئة الشعبية التي فشلت كل المحاولات السابقة ، من قبل بعض الأحزاب السياسية في استقطابها ، خاصة قبل العهدة الرابعة ، أين خرجت بعض المظاهرات بالعاصمة إلى الشارع للمطالبة بعدم ترشح الرئيس لولاية رابعة ، وعلى عكس الإعلام العمومي الذي سعى على مدار سنوات طويلة إلتكريس مفهوم نظرية التطعيم في الإعلام ،فالصحافة الصفراء(صحافة البلاط ،) التي سوقت لحكم بوتفليقة.

واعتبرت كل مشاريعه المغشوشة التي كلفت خزينة الدولة أكثر مما كلفته مثيلاتها في دول أخرى بنوعية رديئة على أنها مشاريع القرن ، وجعلت من سياساته الاقتصادية الفاشلة سياسات حكيمة ورشيدة ، وقد لعب الإعلام الرقمي من خلال إبراز مساوئ حكم بوتفليقة ،وتسليطه الضوء على ملفات الفساد الكبيرة ، مثل ملف الخليفة ، سوناطراك 01 و02 ، ملف الطريق السيار ، وغيرها من الفضائح ، وكذا فضحها بالصوت والصورة للسلوكيات اللامسؤولة ، والبائدة لبعض الشخصيات السياسية والإدارية الرفيعة المستوى (وزراء ، ولاة) كتكريمها لصورة الرئيس بأحصنة أحيان ،وبصور أحيانا أخرى ، جعلت الشعب يمقت هذا الحكم ، بل ويشعر بالعار أمام الرأي العام الأجنبي ، إذ أن بعض القنوات الأجنبية وخاصة الفرنسية منها قد جعلت من حالة الرئيس الصحية وحالة الحكم في الجزائر مادة دسمة لبرامجها الساخرة ، ووهي أمور ظلت متداولة عبر شبكات التواصل الاجتماعي ، الأمر الذي ساهم بشكل كبير في خلق مشاعر الغضب والرغبة في التخلص من هذا الحكم الفاسد والمخزي ، وانتظار نهاية العهدة الرابعة للخلاص من ذلك بطريقة شرعية.

مع اقتراب موعد رئاسيات أفريل 2019 كثرت الإخبار والشائعات حول وفاة الرئيس بوتفليقة ، الذي طالت إقامته بمستشفى سويسري ، ولم يعد إلى أرض الوطن إلا بعد تحرك بعض الحقوقيين في سويسرا نحو مساءلة الحكومة السويسرية ، بشأن حقيقة الرئيس بوتفليقة ، ومدى أهليته لممارسة السلطة وهي أمور عجلت بإرجاع بوتفليقة إلى الجزائر. و مع تزايد الشكوك حول صحة الرئيس ، بالموازاة مع بروز أصوات رافضة لترشح الرئيس ، تصاعد تضييق الدولة على الصحفيين ، وسجنها لبعض المدونين ، كما أعطيت التعليمات لأمن المطارات بتشديد الرقابة على الصحفيين المتوجهين للخارج خاصة بعض تمكن البعض منهم من الهروب خارج الوطن ، و على الرغم من التطمينات التي قدمتها الحكومة سابقا بشأن حرية الصحافة ، إلا أن تعامل الدولة مع الصحافة آنذاك كانت تؤكد عكس ذلك ، ووصل الحد إلى توقيف صحفي في التلفزيون العمومي بسبب ما وصف بعدم احترام الرئيس عند الحديث عنه ، لكن مشاعر الإحباط و الملل كانت في ازدياد مستمر ، كلما اقترب موعد الانتخابات الرئاسية ، و في الوقت الذي كان الجميع يعتقد بأن بوتفليقة لن يترشح لعهدة خامسة ، بسبب الوفاة أو للتدهور الكبير في صحته بدأت أحزاب التحالف أو ما يعرف عند الشعب بأحزاب " التعالف" — مصطلح مشتق من العلف- تسوق و تمهد الطريق لولاية خامسة للرئيس ، مما أدى إلى اتساع الهوة غالبية الشعب و السلطة.

وتجلى ذلك بوضوح من خلال المناشير والتغريدات عبر شبكات التواصل الاجتماعي ، ورغم تضييق الدولة في هذا المجال ، إلا أن مشاعر الإحباط والغضب كانت أكبر من أن تحبس أو تكبت ، وطبقا لتحليلات نظريه

التأثير التراكمي لوسائل الإعلام في الإعلام والاتصال ، فقد كان تأثير الإعلام الرقمي على الشعب تدريجيا ، وفي شهر في فيري وبعد اتضاح ترشيح بوتفليقة لعهدة خامسة تصاعدت الدعوات عبر الفايس بوك داعية الشعب للخروج في مسيرات ضد هذا الترشح ، و كانت مسيرات خراطة ببجاية في 16 فيفري بولاية بجاية ، ضد هذه العهدة حدثا استثنائيا ، و غير متوقعا نظرا للاستجابة الكبيرة للشعب لهذه النداءات ، تبعها تمزيق لصورة الرئيس من بعض المباني الحكومية مثل ما وقع في ولاية خنشلة بتاريخ 19 فيفري من نفس السنة ، والتي تزامنت مع زيارة المترشح للرئاسيات رشيد نكاز ، وظل الإعلام الرقمي ينقل هذه المشاعر الشعبية الرافضة للعهدة الخامسة ، ليتم تحديد يوم الجمعة 22 فيفري 2019 موعدا لخروج الجزائريين ضد هذه العهدة الخامسة ، و لم يكن أحدا يتوقع أن تكون الاستجابة الشعبية لهذا النداء بذلك الشكل الكبير ، السلمي والمنظم الذي أبهر الجمع من داخل الوطن و خارجه.

بعد هذا الخروج الكبير الذي لم تشهده الجزائر منذ بداية التسعينيات ، والذي لعب فيه الإعلام دورا كبيرا انتقل الإعلام الرقمي أو ما يعرف بصحافة إلى تأطير هذا الحراك الذي كان يبدو عفويا ظاهريا ، لكن شدة تنظيمه وسلميته الكبيرة جعلت البعض يثير الشكوك بشأن تسييره من خلف الستار من قبل جهات معينة كل ذلك بهدف التخويف ، وثني المواطنين على الخروج مجددا ، و هنا دخلت أطراف على الخط من خلال الشبكات الاجتماعية ، و حتى بعض القنوات الخاصة لتوضيح الأمور ، و التعبئة الجماهيرية ضد ترشح بوتفليقة ، وكانت الجمع الثانية أكثر عددا و تنظيما ، ليخرج رئيس الحكومة المنبوذ شعبيا أحمد أويحيى مستخفا بالحراك و مخوفا بالتجربة الليبية و السورية ، الأمر الذي زاد من حدة الاحتجاجات مما أدى إلى إقالة هذا الأخير ، و تعويضه بحكومة عين رئيسها ، و طال تعيين طاقمها بسبب رفض بعض الشخصيات قبولها بالانضمام إليها في هذا التوقيت بالذات و استمرت المسيرات بل و أصبحت شبه يومية ، ليتم الإعلان عن عدم ترشيح بوتفليقة ، لكن مع مواصلة حكمه بطريقة أخرى لمدة سنة ، يشرف من خلالها على تسليم السلطة بشكل ديمقراطي ، و هو الأمر الذي رأى فيه الشعب تحايلا على الشعب ، و نوع من التمديد لحكم بوتفليقة ، ومع تصاعد حدة الاحتجاجات تدخل الجيش و أجبر الرئيس على تقديم الاستقالة ، وواصل هذا الإعلام مرافقته وتوجيهه للحراك ، و توضيح كل المستجدات ، او الملابسات فيما يتعلق بكل مدخلات الحراك ، وزاد من دخول النخبة من شتى التخصصات في عملية التوعية و التحسيس ، والتي لاقت تجاوبا كبير من قبل المتظاهرين ، و كان لا فتا أن كل الشعارات التي كانت تتم الدعوة إليها عبر مواقع التواصل الاجتماعي بعد كل جمعة ، يتم التجاوب معها إيجابيا خلال مسيرة الجمعة القادمة.

خلاصة:

من خلال كل ما سبق يمكن القول أن الحراك الاجتماعي الذي شهدته الجزائر ، قد فاجأ الجميع ، من خلال الخروج الكبير للمتظاهرين ، عبر كامل ربوع الوطن ، استجابة للنداءات التي أطلقت عبر شبكات التواصل الاجتماعي ، هذا من جهة ، ومن جهة ثانية فقد أبهر هذا الحراك العالم المتقدم منه والمتأخر من خلال مظاهر السلمية والتحضر ، التي ميزت المسيرات الشعبية منذ أول جمعة للحراك ، فأصبح مادة إعلامية خصبة لمختلف القنوات الإعلامية الوطنية والأجنبية ، وعلى عكس ما كان يروج له من بعض السياسيين بكون الشعب الجزائري لا يحسن التظاهر في الشوارع ، و أن تلك السلمية التي طبعت بداية الحراك لن تدوم طويلا ،

و أنه على غرار دول عربية سابقة ستتحول مظاهر تقديم الورود ، إلى أنهار من الدم ، إلا أن هذه المسيرات حافظت على سلميتها ، ومضت في تحقيق مطالبها لا سيما السياسية منها ، و في مقدمتها إبعاد بوتفليقة من الحكم ، وسجن السياسيين الفاسدين ، وأغلب الذين طالب الشعب بمحاكمتهم وسجنهم ، من وزراء سابقن و رجال أعمال نافذين ، ومنع الباقي من السفر خارج الوطن ، في انتظار مثولهم للتحقيق و المحاكمات ، و مما لا شك فيه أن كل هذا ليس مجرد صدفة أو نتاج عفوية ، بل هي من نتائج المضمون الإعلامي ، الذي تضمنته الرسائل الإعلامية التي بثتها مختلف وسائل الإعلام ، وخاصة الإعلام الرقمي ، المتحرر من كل القيود ، و الذي اعتمدت عليه النخبة الجامعية و غيرها من النخب في مرافقة الحراك ، و توجيهه بما يخدم أهداف الحراك على نحو خاص ، و المصلحة الوطنية بشكل عام ، و يمكن القول أن أكثر المداخل الإعلامية الأقرب لفهم و تفسير دور الإعلام ، هي تلك التي جاء فريق بحث مدرسة كولومبيا بقيادة (لازارسفيلد)، و التي تربأن الاتصال الشخصي يلعب دورا مهما في تشكيل و توجيه الرأي العام إلى جانب وسائل الإعلام ، وأن قادة الرأي يشكلون عنصرا مهما في عملية الاتصال الشخصي ويلعبون دور الوسيط بين الأفراد ووسائل الإعلام ، وهو ما تجلى من خلال القراءات المختلفة المقدمة من قبل النخبة على اختلاف أنواعه ، بخصوص كل جديد متعلق بأفعال الحراك ، أو السلطة و المتمثلة بشكل خاص في مؤسسة الجيش ، الأمر الذي يؤكد أهمية الطبيعة التكنولوجية للوسيلة الإعلامية المستخدمة في التأثير على الرأي العام ، كما أشارت إلى ذلك نظرية الانتشار التكنولوجي ، للباحث الكندي ماكلوهان من جهة ، و أهمية المحتوى الذي تتضمنه الرسالة الإعلامية بحسب النظرية القيمية للباحث الجزائري عبد الرحمن عزي من جهة ثانية.

قائمة المراجع

-إحدادان ، زهير(2014) ، مدخل لعلوم الاعلام والاتصال ، ديوان المطبوعات الجزائرية ، الجزائر.
-الشميري ، فهد بن عبد الرحمن (2010) ، التربية الإعلامية ، ردمك ، الرياض
-محمد حليم ليمام ، (2011) ، ظاهرة الفساد السياسي في الجزائر ، مركز دراسات الوحدة العربية بيروت.
-نور الدين تواتي (2013) ، ماكلوهان مارشال ، مجلة العلوم الاجتماعية والإنسانية عدد (10) جامعة الجزائر03 ،الجزائر
-Braud Philipe, (2014)sociologie politique,11ème édition, Ed Lextenso, France.
-Guy Hermet, Bertrand Badie et autres, (2015), Dictionnaire de la science politique et des institutions politiques, 8ème édition, Armand Colin, France
-Jean- Yves Dormagen, Daniel Mouchard (2015,introduction à la sociologie politique,4ème édition Ed Eddebouck, Belgique,
-Gallez, Caroline, Kaufmann vincent, 2009, au racines de la mobilité sociale.

المعارف العددية والعمليات الحسابية لدى الأطفال ذوي الإعاقة الحركية الدماغية (IMC)

أ.نادية صحراوي ، جامعة مولود معمري تيزي وزو- الجزائر

مقدمة:

يمر الإنسان بمراحل نمو متعددة يكتسب من خلالها القدرات التي تساعده على العيش ، والتأقلم مع البيئة المحيطة به. وتتمثل في قدرات حركية ، حسية ، معرفية ...إلخ ، تتطور عند الطفل العادي خلال مراحل النمو بطريقة كرونولوجية (chronologique)وتعتبر القدرات المعرفية الرياضية من بين القدرات المعرفية التي يكتسبها الطفل من أجل حل المشكلات الرياضية ، وتعتبر هذه المكتسبات تعلم أولي تتم عن طريق الربط بين المثير والاستجابة أو تظهر بصفة فطرية على شكل كفايات (compétences) وتتطور فيما بعد عن طريق التقليد والمحاكاة .(احمد سمارة ، 2008 ، ص43) لتتوقف فيما بعد عند حاجيات الطفل لتحقيق عدة أهداف على المستوى الاجتماعي والمستوى العلمي الذي يتعلق باكتساب الكفايات التربوية والمدرسية كالقراءة والكتابة والحساب. وبناء هذه المهارة الأساسية تتطلب في بداية النمو المعرفي المرور بمكتسبات أولية تخص المفاهيم الأساسية للعدد كالتصنيف والترتيب. (الشربيني ،1997، ص 44)، ويتكون العدد حسب بياجيه (Piaget,1994) عند اندماج عمليتين أساسيتين وهما التصنيف والتسلسل بين الأشياء ، وأنهما عمليتين تظهران في سلوك الطفل وتنتهي جميعها إلى مستوى أعلى من التوازن في سن السابعة والثامنة من عمر الطفل ، فبناء العدد ومفهومه يكتسب بعد مرحلة ما قبل المفاهيم. وإلى جانب هذه المفاهيم نجد مفاهيم أخرى تدخل ضمن استعمال العدد كالجانب الكمي والمقارنة والتسوية بين الكميات والأعداد (Duquesne,2000,p4) والتي يكتسبها الطفل أيضا في المراحل الأولى من عمره. والتي تؤدي إلى ظهور مستوى أعلى في تعلم القواعد الأساسية للحساب. مثلا عن المبادئ الحقيقية للعدد التي أشارت إليها الباحثة جيل لمال (Gille Lemmel) والتي تؤدي بدورها إلى المساهمة في تطوير مهارات الحساب وتطور العمليات الحسابية الأربعة. لكن ما هو ملاحظ أن ظهور هذه الميكانيزمات الخاصة بالمكتسبات العددية لا تظهر بنفس الآلية عند الأطفال ذوي الإعاقة الحركية الدماغية.

1- إشكالية الدراسة:

تعرف الإعاقة الحركية الدماغية (IMC) على أنها مجموعة من الاضطرابات الحركية والوضعية ناتجة عن إصابات مبكرة وغير متطورة للدماغ. فهي حالة باثولوجية مرتبطة بتمزق على مستوى الأنسجة الدماغية ، هذا التخريب يحدث قبل ، أثناء أو بعد الولادة. وتتميز باضطرابات حركية بالإضافة إلى ظهور اضطرابات مصاحبة كاضطراب الرؤية ، السمع وكذا خلل في بعض القدرات العقلية الخاصة لكن لا تصل إلى فقدان الكافيات العقلية حيث أن التمدرس نجده ممكن في الكثير من الأحيان.(بوعكاز ،2006 ، ص6) ومع هذا فإن خلل المهارات الحركية والوضعيات تؤثر بحد ذاتها وبصفة خاصة على اكتساب مختلف النشاطات اليومية كظهور الاستقلالية ، وقد جاء في دراسة مازو(Mazeau,1988) أن الاضطرابات الحركية البصرية (ocolo – motrice) قد تؤدي إلى ظهور مشاكل مدرسية. (Truscelli, 2008, p343)

وفي دراسة لميلجاك وباربوت (Meljac et Barbot, 1988) التي أجريت على مجموعة من الأطفال ذوي الإعاقة الحركية الدماغية (IMC) من أجل تقييم مستواهم الدراسي ، أسفرت نتائجها على وجود مشاكل معرفية ومدرسية ، تتمثل في صعوبات فهم المشاكل الرياضية والعمليات المنطقية ، وأن 95% من هؤلاء الأطفال لديهم صعوبات في جميع المهارات أو الأنشطة التي تهتم بمعالجة الحساب. (Sandrine et Arpent, 2001, p36). فالأطفال ذوي الإعاقة الحركية الدماغية (IMC) يظهرون صعوبات في اكتساب المهارات الرياضية المنطقية خاصة المتعلقة بالعدد والعمليات الحسابية والتي يعود سببها حسب العديد من الباحثين إلى الخلل الحركي واضطرابات الرؤية. وقد أشارت دراسة مازو (Mazeau,1988)، إلى أن هؤلاء الأطفال يتميزون بوجود اضطرابات الحساب وعدم القدرة على بناء العدد. (Truscelli, 2008, p334)

كما جاء في دراسة لدكسن (Françoise Duquesne, 2002) حول الوظائف العددية عند ذوي الإعاقة الحركية الدماغية بعد تطبيق بطارية épreuve conceptuelle du résolution de problème numérique (ECPN) أن نشاطات العد تبدو جد صعبة عند هؤلاء.(Duquesne, 2002, p6)

وقد أشارت دراسة تشابونت حكيمة (2015) حول مستوى اكتساب الوظائف العددية عند الأطفال ذوي الإعاقة الحركية العصبية أن هؤلاء يعانون من صعوبة في اكتساب الوظائف العددية (ثبات التكافؤ ، الاستخدام العملي للعدد ، المقارنة ، العمليات الحسابية). ومن خلال كل ما سبق وكذا الزيارات الميدانية يتبادر إلى أذهاننا التساؤل التالي:

- هل يعاني الأطفال ذوي الإعاقة الحركية الدماغية (IMC) من صعوبات في اكتساب المعارف العددية والعمليات الحسابية ؟

وللإجابة على هذا التساؤل المطروح تسعى الدراسة للتحقق من الفرض الأتي:

-يعاني الأطفال ذوي الإعاقة الحركية الدماغية (IMC) من صعوبات في اكتساب المعارف العددية والعمليات الحسابية.

2- أهداف الدراسة وأهميتها:

تندرج أهمية هذه الدراسة ضمن الأهمية التي تتميز بها المعارف الرياضية المنطقية عامة ، والمعارف العددية والعمليات الحسابية خاصة بما أنها قدرة من القدرات العقلية المعرفية ، وفي أهمية الاهتمام بفئة الأطفال ذوي الإعاقة الحركية الدماغية من جميع النواحي بهدف إعادة الدمج الجيد لهذه الفئة ، فمن خلال هذه الدراسة يمكن التعرف أكثر على هذه القدرة عند ذوي الإعاقة الحركية الدماغية (IMC). كما تسمح الدراسة بالتعرف أكثر على المشاكل التي يمكن أن يعاني منها ذوي الإعاقة الحركية الدماغية.

3- تحديد المفاهيم والمصطلحات:

العدد: العدد وهو مقدار ما يُعدّ ، والعدد هو مقارنة الأشياء المعدودة بأسماء الأعداد بموجب ترتيب خاص . والترتيب هو تنظيم للأشياء حسب مبدأ من التسلسل يعرف بالعلاقة الترتيبية وهذه العلاقة على قدر كبير من الأهمية لأنها تكسب الأطفال معلومات رياضية ذات معنى. ويتطور مفهوم العدد عند الطفل على ثلاثة مراحل وهي العد الشفوي ، إدراك قيمة العدد ومرحلة إدراك شكل العدد. والمفهوم الإجرائي للعدد هو قدرة الطفل

على التعرف على العدد في بند المعارف العددية والعمليات الحسابية لبطارية كلير ملجاك وجيل لمال2 (UDN2)

العمليات الحسابية: يقول ابن خلدون"من فروع علم العدد صناعة الحساب" ، وهي صناعة عملية في حسبان الأعداد بالضم والتفريق .والضم يكون في الأعداد بالإفراد وهو الجمع وبالتضعيف أي يضاعف عدد بآحاد عدد أخر وهذا هو الضرب ، والتفريق أيضا يكون في الأعداد أما بالإفراد مثل إزالة عدد من عدد ومعرفة الباقي وهو الطرح ، أو بفصل عدد بأجزاء متساوية تكون عدتها محصلة وهو القسمة. وتتمثل العمليات الحسابية الأربعة في: الجمع ، الطرح ، الضرب والقسمة. والمفهوم الإجرائي للعمليات الحسابية هو قدرة الطفل ذو الإعاقة الحركية الدماغية (IMC) على إتمام العمليات الحسابية المقترحة في بند المعارف العددية والعمليات الحسابية لبطارية كلير ملجاك وجيل لمال2 (UDN2)

الإعاقة الحركية الدماغية (Infirmité Motrice Cérébrale): تعني الإعاقة الحركية الدماغية (IMC) حالة باثولوجية مرتبطة بتمزق على مستوى الأنسجة الدماغية ، هذا التخريب يحدث قبل أثناء أو بعد الولادة وتتميز باضطرابات حركية. أما معناه الإجرائي فالمصاب بالإعاقة الحركية الدماغية (IMC) هو شخص ذو مستوى عقلي عادي ، إعاقة حركية مرتبطة بإصابة دماغية في بداية الحياة ، غير متطورة ، وغير وراثية.

4- منهج الدراسة:

اعتمدت هذه الدراسة على منهج دراسة الحالة من أجل معرفة الصعوبات التي تعاني منها كل حالة من ذوي الإعاقة الحركية الدماغية (IMC) وبما أن منهج دراسة الحالة هو طريقة لدراسة وحدة معينة مثل مجتمع محلي أو أسرة أو قبيلة أو منشأة صناعية أو خدمية دراسة تفصيلية عميقة بغية استجلاء جميع جوانبها والخروج بتعميمات تنطبق على الحالات المماثلة لها ، وقد أطلق عليه الفرنسيون مصطلح المنهج المونجرافي ، ويقصد به وصف موضوع مفرد باستفاضة.

5- عينة الدراسة:

تتكون عينة الدراسة من مجموعة من الأطفال ذوي الإعاقة الحركية الدماغية (IMC)، وقد تم اختيارها بطريقة قصدية غير احتمالية والمقصود بغير الاحتمالية "أن يضبط الباحث خصائص أو صفات معينة يجب توفرها في المبحوث ، وعليها يرتكز في اختياره لوحدات عينة بحثه" (رشيد زرواتي ، 2007 ، ص345). والعينة القصدية هي العينة غير العشوائية ، وفيها يحاول الباحث الحصول على عينة تخدم موضوع بحثه."يستخدم الباحث العينة القصدية في الدارسات التي تتطلب القياس ، أو اختيار فرضيات محددة ، خاصة إذا كان مجتمع بحث غير مضبوط الأبعاد وبتالي لا يوجد إطار دقيق يمكن من اختيار العينة عشوائيا ، فيلجأ الباحث لاختيار مجموعة من الوحدات التي تلائم أغراض بحثه". (رشيد زرواتي ، 2007 ، ص347) وعليه تتكون عينتنا التجريبية من 05 حالات من ذوي الإعاقة الحركية الدماغية (IMC) يتراوح أعمارهم ما بين 9 و11سنة ، والجدول الموالي يوضح خصائص العينة.

الجدول رقم (1): خصائص العينة

الحالة	السن	المستوى الدراسي	الجنس
(م.ح)	10 سنوات	ثالثة	ذكر
(ع.ز)	9 سنوات	ثانية	ذكر
(ز.م)	11 سنوات	ثانية	ذكر
(ن.س)	9 سنوات	ثالثة	أنثى
(ع.ب)	9 سنوات	ثانية	أنثى

6- ميدان الدراسة : تمت الخطوات التطبيقية للدراسة في مصلحة إعادة التأهيل الحركي بمستشفى سيدي بالوى الواقع في قرية رجاونة تشت ، تيزي وزو.

7- أدوات الدراسة: تم الاعتماد في هذه الدراسة بند المعارف العددية والعمليات لبطارية"بناء واستعمال العدد لكلير ملجاك وجيل لمال2" (Claire Meljac et Gille Lemmel. UDN2) فهي تعتبر من أهم البطاريات التي تهتم بمعالجة المستوى البيداغوجي للطفل أي تقوم بتقييم الكفايات أو القدرات العددية. بنيت هذه البطارية على يد كل من كلير ملجاك وجيل لمال سنة 1999 ، تحتوي على تعليمات كلاسيكية ، تطبق على جميع أطفال المرحلة الابتدائية من 4 إلى 11 سنة. وتهدف إلى دراسة كلّ ما يتعّلق بصعوبات المنطق الرياضي.

وصف بند المعارف العددية والعمليات الحسابية: تتكون من تعليمة كلاسيكية تدل على المكتسبات المدرسية والتي تتم بطريقة ذهنية ، ماعدا الجزء الخاص بكتابة الأرقام والذي يتم باستعمال أقلام وأوراق...الخ.

الهدف: تقييم معارف الطفل للمرادفات العددية (Vocabulaire numérique)، المقارنات ، والترقيم والعمليات الحسابية الأربعة.

طريقة التطبيق: يتكون هذا البند من ثلاثة أجزاء مختلفة:

الجزء الأول: المرادفات العددية (Vocabulaire numérique):

- مرادفات المقارنة (Vocabulaire numérique): يقوم الفاحص بأخذ 4 قريصات ووضعها على كف اليد ، ثم يطلب من المفحوص:
- خذ قريصات أكثر مني
- خذ قريصات أقل مني
- خذ نفس عدد القريصات نفس المقدار
- إشارات العمليات الحسابية: يطلب المفحوص قراءة الإشارات الحسابية في ورقة خاصة بها.

الجزء الثاني: العد:

- السلسلة اللّفظية العددية: يطلب من المفحوص الحساب إلى غاية العدد الأخير الذي تحصل عليه. يطلب من المفحوص حساب جميع الأعداد التي يعرفها والحد الأقصى هو120
- قراءة الأعداد: أولا يقوم الفاحص بقراءة الأعداد الموجودة على الورقة الخاصة ، ثم يطلب من المفحوص إعادة قراءتها ولا بد أن يتم توقيفه إذا كانت هناك 3 أخطاء ، وتلك الأعداد مرّتبة ترتيبا تصاعديّا ، ويتم تسجيل الأخطاء على النقاط التي توجد أمام الأعداد.

الجزء الثالث: العمليات الحسابية:

- يتم تقديم مختلف العمليات الحسابية ويتم تسجيل الملاحظات على الورقة الخاصة بكل حالة.

- كتابة الأعداد: يقوم الفاحص بإملاء مجموعة من الأعداد ، يتم التوقف بعد وجود 3 أخطاء.تكتب الأعداد على ورقة يتم تقدمها للحالة.

كيفية التصحيح: تسجل الملاحظات والنتائج لكل اختبار من الاختبارات في صفحات موجودة في ملحق البطارية.

8- عرض وتحليل النتائج:

8-1- عرض النتائج: سنقوم بعرض نتائج فرضية الدراسة والتي مفادها: يعاني الأطفال ذوي الإعاقة الحركية الدماغية (IMC) من صعوبات في اكتساب المعارف العددية والعمليات الحسابية ، وللتحقق من هذه الفرضية تم الاعتماد على النسب المئوية والتحليل الكيفي والجدول الموالي يبين نسبة نجاحات الحالات في اختبار المعارف العددية والعمليات الحسابية.

الجدول رقم (2): نسبة نجاحات الحالات في اختبار المعارف العددية والعمليات الحسابية.

الاختبار	العد	المفردات العددية	العمليات الحسابية
النسبة المئوية	40%	20,33%	10%

يمثل الجدول رقم (2) النسب المئوية للنجاحات الحالات في اختبار المعارف العددية والعمليات الحسابية ، حيث نلاحظ أن نسبة النجاحات في العد وصلت إلى 40% وهي أعلى نسبة نجاحات تحصلت عليها الحالات ، تليها نسبة 20,33% في المفردات العددية ، ثم نسبة 10% في العمليات الحسابية وهي النسبة الأقل التي تظهر في الجدول.

8-2- تحليل النتائج: من خلال النتائج المتحصل عليها نلاحظ أن النسب المئوية تراوحت بين 40% و10% والتي تعتبر نسب ضعيفة ، حيث لاحظنا أن معظم الحالات تمكنت من العد حتى العشرة بطريقة صحيحة ، وقد تمكنت حالة واحدة من العد حتى المئة مع ارتكابها لخطأين فقط ، أما في ما يخص المفردات العددية فقد بدى الفشل واضحا ، حيث لم تتمكن معظم الحالات من فهم المفردات العددية خاصة فيما يتعلق بقراءة الإشارات وهذا راجع لعدم اكتساب هذه المعارف في هذا السن ، كما لاحظنا وجود صعوبات في فهم المفردات العددية الخاصة بالمقارنة (مثل أكثر من ، أقل من)، غير أن أقل نسبة تحصلت عليها الحالات في اختبار العمليات الحسابية ، حيث فشلت معظم الحالات في إتمام العمليات الحسابية المقترحة.

9.مناقشة الفرضية في ضوء النتائج: من خلال النتائج المتحصل عليها والنسب المئوية الضعيفة التي تراوحت مابين 40% كأعلى نسبة و10% كأقل نسبة وهي على العموم نسب ضعيفة جدا ، ما يدل على أن فئة ذوي الإعاقة الحركية الدماغية (IMC) يعانون من صعوبات في اكتساب المعارف العددية عامة والعمليات الحسابية خاصة ، ومن خلال التحليل الكمي والكيفي للنتائج تم قبول الفرضية والتي تقر بمعانات الأطفال ذوي الإعاقة الحركية الدماغية (IMC) من صعوبات في اكتساب المعارف العددية والعمليات الحسابية ، وهذا ما يتفق مع ما جاء في دراسة تشابونت والتي أسفرت نتائجها على وجود صعوبات في اكتساب الوظائف العددية عند الأطفال ذوي الإعاقة الحركية العصبية (IMC)، كما اتفقت نتائج هذه الدراسة مع ما جاءت في

دراسة لطاد كهينة حول مراحل النمو عند أطفال المصابين بالعجز الحركي العصبي وبالضبط ما يخص قدرة الاحتفاظ بالعدد ، حيث توصلت إلى نتيجة أن مفهوم العدد يكتسب في سن الثانية عشر عند هؤلاء الأطفال. وهذا ما يفسر الصعوبات التي ظهرت عند الحالات والتي يتراوح أعمارهم بين 9 سنوات و11 سنة فيما يخص المعارف العددية والعمليات الحسابية.

وبناءا على نتائج الفرضية التي أقرت بمعانات الأطفال ذوي الإعاقة الحركية الدماغية (IMC) من صعوبات في اكتساب المعارف العددية والعمليات الحسابية ، توضح لنا أن ذوي الإعاقة الحركية الدماغية (IMC) يعانون من اضطرابات معرفية ربما يعود ذلك للخلل الحركي ذو الأصل الدماغي.

خاتمة:

من خلال الموضوع الذي تناولناه في دراستنا هذه تم التعرض لإحدى الإعاقات المعروفة في كل العالم ، وهي الإعاقة الحركية الدماغية (IMC) والتي يعاني منها الكثير من الأفراد وقد نالت الكثير من الاهتمام من طرف الباحثين والمختصين بهدف مساعدة هذه الفئة على الاندماج في المجتمع ، ونحن من خلال دراستنا حاولنا التطرق إلى قدرة من القدرات المعرفية التي يحتاجها الطفل في المدرسة وهي المعارف العددية والعمليات الحسابية ، ومن خلال النتائج المتحصل عليها والعمل الميداني مع هذه الفئة توضح لنا أنه بالرغم من الصعوبات التي تظهر لديهم إلا أن الاهتمام الجيد يعطي نتائج جيدة. وعليه نقترح مايلي:

-الاهتمام الجيد بالأطفال ذوي الإعاقة الحركية الدماغية (IMC) من مختلف النواحي.

-التشخيص المبكر وإعادة التأهيل الحركي ، النفسي ، العقلي والمعرفي في وقت مبكر ، يقلل من الصعوبات ويزيد من فرص تطوير القدرات.

-ضرورة البحث في مجال الإعاقة الحركية الدماغية (IMC) لإيجاد وسائل وبرامج لتحسين القدرات العقلية والمعرفية عند هؤلاء ، كي تزيد فرص الإدماج الجيد لهذه الفئة في المجتمع.

-ضرورة تقييم القدرات المعرفية عند الأطفال ذوي الإعاقة الحركية الدماغية (IMC) ، لأنها تساعد على تنظيم البرامج التعليمية حسب قدرات هذه الفئة والتركيز على تلقين الشرح المنطقي والشكلي والاعتماد على الملموس.

-تضمين المناهج الدراسية نظام الترميز الثنائي في الذاكرة (لفظي وصوري).

-استعانة المدارس عامة والمعلمين خاصة بالعلوم الإنسانية والاجتماعية بما فيها علم النفس ، علم النفس العصبي ، الأرطوفونيا علم الاجتماع وعلوم التربية ، لمعرفة خصائص كل تلميذ والفروق الفردية بين التلاميذ في المستويات الاجتماعية والتربوية والخصائص السلوكية ، والصحية ، للتعامل مع كل فئة بالطريقة المناسبة واستخدام الإستراتيجية المناسبة لكل مرحلة تعليمية.

-تعديل بيئة التعليم بما يتناسب والوضعية الصحية للطفل ذو الإعاقة الحركية الدماغية (IMC).

قائمة المراجع:

- أحمد سمارة ، نواف (2008). مفاهيم ومصطلحات في العلوم التربوية. ط1 ، عمّان: دار النشر والتوزيع.
- الشربيني ، زكريا (1989). رياضيات ما قبل المدرسة وأفكار جون بياجيه. القاهرة: دار النشر والتوزيع.
- بوعكاز ، سهيلة (2007). البحث في إعادة التربية الوظيفية عند الطفل فحص وإعادة التربية العصبية. [أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه] قسم علم النفس وعلوم التربية والأرطوفونيا ، جامعة بوزريعة ، الجزائر2.

- تشابونت ، حكيمة (2015-2014). دراسة مستوى اكتساب الوظائف العددية لدى الأطفال المصابين بالإعاقة الحركية العصبية. [مذكرة لنيل شهادة الماجستير] قسم علم النفس وعلوم التربية والأرطوفونيا ، جامعة بوزريعة ، الجزائر2.
- زرواتي ، رشيد (2007). مناهج وأدوات البحث العلمي في العلوم الاجتماعية. ط1 ، عين مليلة ، الجزائر: دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع.
- لطاد ،كهينة (2007). مراحل النمو المعرفي عند المصابين بالإعاقة الحركية العصبية. [مذكرة لنيل شهادة الماجستير] ، قسم علم النفس وعلوم التربية والأرطوفونيا ، جامعة بوزريعة ، الجزائر2.
- Duquesne, F. les apprentissages mathématique et leurs obstacles. maitre conférence à INS .HEA
- SANDRINE, A ; Fagard, J(2001). Habilité Visio manuelle et utilisation du doigt dans le comptage chez l'enfant "IMC", paris
- Truscelli, D (2008). Les infirmité motrice cérébrale réflexion et perspective sur la prise en charge, Masson, Bilgique.